

تَمَطُّ النُّجُومِ الْعَوَالِي فِي أَنْبَاءِ الْأَوَائِلِ وَالتَّوَالِي

تأليف
عبد الملك بن حسين بن عبد الملك
الشافعي العاصمي للكني
المتوفى سنة ١١١١هـ

تحقيق وتعليق
الشيخ عادل أحمد عبد الموجود الشيخ علي محمد معوض

الجزء الرابع

منشورات
مركز أبي بيهق
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Copyright ©
All rights reserved

Exclusive rights by DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohiory st., Melkart bldg., 1st Floore.

Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98

P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2615-6



9 782745 126153



<http://www.al-ilmiyah.com.lb/>

e-mail : baydoun@dm.net.lb

بسم الله الرحمن الرحيم
 الباب الرابع
 في الدولة الأيوبية السُّنِّيَّة^(١) السُّنِّيَّة

هم أصحاب الفتوحات الجليلة الجليلة، الكاشفون عن الإسلام والمسلمين كل كربة وبلية.

قال ابن السبكي رحمه الله: كان ابتداء دولتهم وملكهم سنة أربع وستين وخمسمائة.

وقال السيد السمرقندي في تحفة الطالب: سنة تسع وخمسين وخمسمائة.

السبب في توردهم الديار المصرية

قال العلامة ابن السبكي وغيره: لما كانت سنة تسع وخمسين وخمسمائة قدم شاور بن مجبر أبو شجاع السعدي الملقب بأمير الجيوش وهو إذ ذاك وزير الديار المصرية بعد آل رزّيك لما قتل الناصر رزّيك بن صالح بن رزّيك وقام في الوزارة بعده، يعني وزارة العاضد العبيدي، واستفحل أمره فيها.

فسار عليه أمير؛ يقال له: الضرغام بن سوار، وجمع له جموعاً كثيرة، واستظهر عليه وقتل ولديه، واستوزر العاضد بعده ضرغام بن سوار المذكور ولقب بالمنصور، فخرج شاور من الديار المصرية هارباً من العاضد وضرغام ملتجئاً إلى نور الدين محمود بن زنكي أمير الشام من جهة السلجوقي في الديار المصرية.

فأرسل معه نور الدين جيشاً عليهم أسد الدين شيركوه بن شاذي عم السلطان

(١) شاع في معظم كتابات المؤرخين نعت دولة بنى أيوب بالدولة «السُّنِّيَّة»، وهذا احتراز لمجئهم بعد دولة الفاطميين العبيديين - الدولة الخبيثة - التي ناصرت المذهب الشيعي؛ فكانت وبالأعلى العالم الإسلامي. فلما جاء الأيوبيون أعادوا الأمور إلى نصابها الطبيعي، فنشروا العدل، ونصروا السنة، وأزالوا الغمة، فحقق الله على أيديهم الفتوحات العظيمة التي كانت - وما زالت - إحدى مفاخر الإسلام والمسلمين.

ينظر في الدولة الأيوبية: السلوك ٤١/١ الكامل ٣٣٤/١١، العبر ٧٩/٤، نزهة الأساطين ٥١، النجوم الزاهرة ٣٨١/٥، الفضائل الباهرة ٤٢، البداية والنهاية ٣١٧/١٢، تاريخ العالم الإسلامي ٢٠٧، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير ص ١٤١، تاريخ الإسلام د/ حسن إبراهيم حسن ١٠٤/٤ - ١١٤.

يوسف بن أيوب بن شاذي، فلما دخلوا مصر خرج إليهم الجيش الذي بها، فاقتتلوا أشد القتال فهزمهم أسد الدين، وقتل منهم خلقًا وقتل ضرغام بن سوار وطيف برأسه في البلاد، واستقر شاور في الوزارة.

ثم اصطلح العاضد هو وشاور. وفي هذه السنة المذكورة كانت وفاة محمد بن على بن أبي منصور أبي جعفر الأصفهاني الملقب بالجمال وزير صاحب الموصل قطب الدين بن مودود بن زنكي، وهو ابن أخي محمد بن زنكي بن آق سنقر السلجوقي المذكور.

كان هذا الجمال الأصفهاني كثير المعروف والصدقات وله آثار حسنة بـ «مكة» و«المدينة»، من ذلك أنه ساق عيّنًا إلى عرفات وعمل هنالك مصانع، وبنى مسجد عرفات ودرجه، وأحكم أبواب الحرم، وبنى مسجد الخيف، وبنى الحجر، وزخرف الكعبة وأذهبها وعملها بالرخام، وبنى على المدينة النبوية سورًا، وبنى جسرًا على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص، وبنى رباطًا كثيرة.

وكان يتصدق كل يوم على بابه بمائة دينار، ويفتدي من الأسارى كل سنة بعشرة آلاف دينار ولا تزال صدقاته وافدة إلى الفقهاء والفقراء حيث كانوا، ولما مات دفن في رباط بناه لنفسه بالموصل، وقد كان بينه وبين أسد الدين شريكه المذكور مؤاخاة وعهد: أيهما مات قبل الآخر أن يحمله إلى المدينة، فاستأجر له أسد الدين رجالا فنقلوه إليها، فما مروا به في بلدة إلا صلى عليه أهلها وترحموا وأثنوا عليه خيرًا، فصلى عليه بـ «الموصل»، و«تكريت» و«بغداد» و«الحلة» و«الكوفة» و«مكة»، وطيف به حول الكعبة ثم نقل إلى المدينة المشرفة فدفن برباط بناه شرقي المسجد النبوي. قال ابن الجوزي^(١) وابن الساعي: وليس بينه وبين حرم رسول الله ﷺ سوى مقدار خمسة عشر ذراعًا.

قال ابن الساعي: لما صُلِّي عليه بالحلة صَعِدَ شاب على نشز فأنشد: [من

الطويل]

سَرَى نَعْشُهُ فَوْقَ الرِّقَابِ وَطَالَمَا سَرَى جُودُهُ فَوْقَ الرِّكَابِ وَنَائِلُهُ

(١) ينظر: المتظم ١٨/١٦١ .

يَمُرُّ عَلَى الْوَادِي فَتُثْنِي رِمَالُهُ عَلَيْهِ وَبِالنَّادِي فَتُثْنِي أَرَامِلُهُ
رجعنا إلى سيرة شاور والعاضد وأسد الدين.

لما اصطالح شاور مع العاضد استمرا على دَحْن، فلما كانت سنة أربع وستين وخمسائة طغت الفرنج بالديار المصرية وتحكموا في إيوانها، وسكنها أكثر شجعانهم ولم يبق شيء من أن يستحوذوا عليها، ويخرجوا منها أهلها المسلمين، وذلك بسبب ما قرره لهم شاور على مصر كل عام بألف ألف دينار، وأن تكون لهم بها شحنة، فلما سمع الفرنج بذلك طمعوا في أخذها بالأصالة، فركبت أمدادهم من كل ناحية وساروا، فأول ما أخذوا مدينة « بليس »، فقتلوا خلقاً وأسروا آخرين، فأمر الوزير شاور بإحراق مصر وأن ينتقل الناس إلى « القاهرة »، فنهبت البلد.

وبقيت النار تعمل في مصر أربعة وخمسين يوماً، فعند ذلك أرسل الخليفة العاضد لدين الله إلى الملك نور الدين الشهيد محمود بن زنكي يستغيث به، وبعث إليه بشعور نسائه يقول له: أدركني واستنقذ نسائي من يد الفرنج، والتزم له بثلاث خراج مصر، على أن يكون أسد الدين شيركوه مقيماً عندهم بمصر، ولهم إقطاعات زائدة على الثلث، فشرع نور الدين في تجهيز الجيوش إلى الديار المصرية، فلما استشعر الوزير شاور بوصول المسلمين أرسل إلى ملك الإفرنج يقول: قد عرفت محبتي ومودتي، ولكن العاضد والمسلمون لا يوافقوني على تسليم البلد، واستدعى نور الدين الشهيد الأمير أسد الدين شيركوه، فقدمه على العساكر التي قد جهزها إلى الديار المصرية، وأضاف إليه جملة من الأمراء والأعيان.

وكان في جملتهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، وأضاف إليه ستة آلاف من التركمان، فلما وصلت الجيوش النورية إلى الديار المصرية وجدوا الفرنج قد انشمروا عن القاهرة بالصفقة الخاسرة، فدخل الأمير أسد الدين على العاضد، وخلع عليه خلعة سنية فلبسها، وعاد إلى مخيمه بظاهر القاهرة، وخرجت وجوه الناس إلى مخيم أسد الدين خدمة له، وكان ممن خرج إليه الخليفة العاضد متكرراً فأسرَّ إليه أموراً مهمة، منها: قتل الوزير شاور، وقرر معه ذلك.

وعظم أمر الأمير أسد الدين بمصر، ولم يقدر الوزير شاور على منع شيء من ذلك لكثرة من مع أسد الدين من الجيش، ولكن شرع يماطل فيما كان تقرر لهم

وللملك نور الدين مما كان التزمه لهم وهو مع ذلك يتودد إلى الأمير أسد الدين ويركب معه .

وعزم على فعل ضيافة له ، فنهى أسد الدين وأصحابه عن الحضور عنده ، خوفاً عليه من غائلته ، وشاوروه في قتل شاور فلم يمكنهم الأمير أسد الدين من ذلك ، فلما كان في بعض الأيام جاء شاور إلى منزل أسد الدين فوجده قد ذهب إلى زيارة قبر الشافعي - رضي الله تعالى عنه - ، وإذا ابن أخيه الملك صلاح الدين يوسف هنالك فأمر صلاح الدين بالقبض عليه ، ولم يمكنه قتله إلا بعد مشاورة عمه أسد الدين ، فانهزم أصحاب شاور ، فأعلموا العاضد لعله يبعث من ينقذه ، فأرسل العاضد إلى الأمير أسد الدين يطلب رأس شاور ، فقتله يوسف وأرسل برأسه إليه ففرح المسلمون بذلك ، وأمر أسد الدين بنهب دار شاور فنهبت ، ودخل على العاضد فاستوزره وخلع عليه خلعة عظيمة ولقبه : الملك المنصور ، فسكن دار شاور وعظم شأنه هنالك .

قلت : وهذا الوزير شاور : هو أول من استكتب القاضي الفاضل ، استدعي به من الإسكندرية فحظي عنده وانحصرت فيه الكتابة ، لما رأوا فضله وفضيلته ، ومما قاله عمارة اليميني في شاور قوله : [من الكامل]

ضَجَرَ الْحَدِيدُ مِنَ الْحَدِيدِ وَشَاوَرُ فِي نَضْرِ آلِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَضْجِرِ
حَلَفَ الزَّمَانُ لِيَأْتِيَنَّ بِمِثْلِهِ حَنِثَتْ يَمِينُكَ يَا زَمَانُ فَكُفِّرِ

ولم يزل قائماً في الوزارة إلى أن ثار عليه ضرغام بن سوار ، كما تقدم ذكره ، ثم كان قتله على يد الناصر صلاح الدين يوسف . ولما استقر أسد الدين بمصر كما ذكرنا أرسل إلى القصر يطلب كاتباً ، فأرسلوا إليه بالقاضي الفاضل ، وكانوا قد أبغضوه ، أرسلوه إليه ؛ رجاء أن يُقتل معه إذا قتل أسد الدين شاور فيما كانوا يؤملون .

ثم إن أسد الدين بعث العمال ، وأقطع الإقطاعات ، وولى للولايات ، وفرح بنفسه أياماً معدودات ، فأدركه جَمَامُهُ يوم السبت ثاني عشر جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام .

فلما توفي أسد الدين أشار الأمراء الشاميون على العاضد بتولية صلاح الدين

يوسف بن أيوب الوزارة بعد عمه أسد الدين، وخلع عليه خلعة سنية، ولقبه: الملك الناصر.

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في كتاب «الروضتين»^(١): صفة الخلعة التي لبسها صلاح الدين يومئذ هي عمامة بيضاء بطرف ذهب، وثوب ديبقي بطراز الذهب، وجبة بطراز ذهب، وطيلسان مطرز بذهب، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار، وسيف محلى بخمسة آلاف دينار، وحجرة من الخيل بثمانية آلاف دينار، وعليها طوق ذهب، وسرفسار ذهب بجوهر، وفي رأسها مائتا حبة جوهر، وفي قوائمها أربعة عقود جوهر، وفي رأسها قضيب ذهب، ومع الخلعة عدة بقج وخيل، ومنشور الولاية في ثوب أطلس أبيض، وكان ذلك يوم الإثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

وأقام صلاح الدين بالديار المصرية بصفة نائب للملك نور الدين الشهيد محمود ابن زنكي يخطب له على المنابر بالديار المصرية بعد الخليفة. وقد قال بعض الشعراء في قتل صلاح الدين شاور: [من الطويل]

هَيْثَا لِمَضْرٍ حَوْزُ يَوْسُفَ مُلْكَهَا بِأَمْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ قَدْ كَانَ مَوْفُوتًا
وَمَا كَانَ فِيهَا قَتْلُ يَوْسُفَ شَاوَرًا يَمَاطِلُ إِلَّا قَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتًا

وارتفع قدر صلاح الدين بين العباد بتلك البلاد، واضطهد العاضد في أيامه غاية الاضطهاد، وزاد في إقطاعات الذين معه فأحبوه وخدموه واحترموه، فاستمر حتى كان أول جمعة من سنة سبع وستين وخمسمائة - وهي السنة التي توفي فيها الخليفة العاضد قبل وفاته - أمر بإقامة الخطبة لبنى العباس بـ «مصر»، وفي الجمعة الثانية بـ «القاهرة»، وكان ذلك يومًا مشهودًا.

ولما انتهى الخبر بذلك إلى الملك نور الدين الشهيد محمود بن زنكي بـ «الشام» أرسل إلى الخليفة يعلمه بذلك مع ابن عصفور، فزينت بغداد، وغلقت الأسواق، وفرح المسلمون فرحًا شديدًا، وكانت الخطبة عن بنى العباس قد قطعت من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسي حين تغلب الفاطميون، وهم المسمون بالعبيديين على مصر، وملكها منهم المعز الفاطمي باني القاهرة والقصرين

إلى هذا الأوان وهو سنة سبع وستين وخمسمائة، وذلك مائتا سنة وثمانين سنين، كما تقدم ذكر ذلك.

قال ابن الجوزي^(١): وقد ألفت في ذلك كتابًا سمّيته « النصر على مصر » فهذا هو سبب استيلاء الدولة الأيوبية على مصر والشام وأعمالهما. وكانت وفاة نور الدين الشهيد في شوال سنة تسع وستين وخمسمائة. فأولهم الملك الناصر:

السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب^(٢)

ابن شاذي^(٣) الكردي^(٤) الروادي

وهم خيار الأكراد الدويني. ومنهم من يقول: أيوب بن شاذي بن مروان وزاد بعضهم بعد مروان: ابن يعقوب، والذي عليه جمهورهم أنه لا يعرف بعد شاذي أحد من نسبهم، وأغرب بعضهم فزعم أنهم من سلالة مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية، وهذا ليس بصحيح، كذا قاله ابن السبكي.

قلت: والذي انتسب هذه النسبة ادعاء هو الملك أبو الفداء إسماعيل بن طغتكين ابن أيوب بن شاذي، ويعرف: بابن سيف الإسلام؛ لأن سيف الإسلام لقب

(١) المنتظم ١٩٦/١٨.

(٢) ينظر ترجمته في: السلوك ٤١/١، الكامل ٣٤٢/١١، العبر ٧٩/٤ و ٢٥٠/٥ و ٣٣٠، البداية والنهاية ٣١٧/١٢، تاريخ العالم الإسلامي ٢١٠، النجوم الزاهرة ٣/٦ - ٦٣، الأعلام ٢٢٠/٨، نزهة الأساطين ٥١، مرآة الزمان ٤٢٥/٨، مفرج الكروب ١٦٨/١ وما بعدها، الدارس ١٧٨/٢ و ١٨٨، طبقات السبكي ٣٣٩/٧ - ٣٧٩، بدائع الزهور ١/٦٩، تاريخ الخميس ٣٨٧/٢، وفيات الأعيان ١٣٩/٧ - ٢١٨، البرق الشامي ٤٢، بالإضافة إلى الكتب التي تخصصت في سيرته كالنوادير السلطانية لابن شداد، والروستين في أخبار الدولتين لأبي شامة، والبرق الشامي لعماد الدين الكاتب، والنفح القسي في الفتح القدسي لعماد الدين أيضًا، وصلاح الدين الأيوبي وعصره لمحمد فريد أبي حديد، وحياة صلاح الدين الأيوبي لأحمد بيلو المصري. . وغير ذلك.

(٣) وردت في بعض المصادر [شاذي]. ينظر: نزهة الأساطين ص ٥١، السلوك ٤١/١.

(٤) اختلف المؤرخون في نسب بني أيوب إلى ثلاثة آراء:

الأول: أنهم من العرب.

الثاني: أنهم من الأكراد الروادية.

الثالث: أنهم من الفرس.

ينظر: نزهة الأساطين ص ٥١.

ل « طغتكين بن أيوب » أخى صلاح الدين .

وقد ملك إسماعيل هذا بعد أبيه فتعاضم في نفسه وادعى الخلافة وتلقب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين، وزعم أنه أموي، ومدحه الشعراء وأطروه ولهجوا بذلك . وقال هو في نفسه : [من الطويل]

وَأَنَا أَنَا الْهَادِي الْخَلِيفَةُ وَالَّذِي أَدُوْسُ رِقَابِ الْغَلَبِ بِالضُّمْرِ الْجُرْدِ
وَلَا بُدَّ مِنْ بَغْدَادَ أَطْوِي رُبُوعَهَا وَأَنْشُرُهَا نَشْرَ السَّمَاوِي لِلْبَرْدِ
وَأَنْصِبُ أَغْلَامِي عَلَى شُرَفَاتِهَا وَأُخَيِّبُ بِهَا مَا كَانَ أَسَسُهُ جَدِّي
وَيَخْطُبُ لِي فِيهَا عَلَى كُلِّ مَنْبَرٍ وَأُظْهِرُ دِينَ اللَّهِ فِي الْغُورِ وَالتَّجْدِ

وهذا الادعاء ليس بصحيح، ولا أصل له فيعتمد عليه، ولا مستند يستند إليه . وكان السلطان صلاح الدين رحمه الله متقشفاً في ملبسه ومأكله، وملبسه لا يلبس إلا الكتان والقطن والصوف، ولا يعرف أنه تخطى مكروهاً بعد أن أنعم الله عليه بالملك، بل كان همه الأكبر، ومقصوده الأعظم - نصرة الإسلام، وكسر الأعداء اللثام، ويعمل فكره في ذلك ورأيه وحده ومع من يثق برأيه ليلاً ونهاراً .

هذا مع ما لديه من الفضائل والفواضل والفوائد الفرائد في اللغة والأدب وأيام الناس، حتى قيل: إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها .

وكان مواظباً على الصلوات في أوقاتها في جماعة .

يقال: لم تفته الجماعة في صلاة قبل مماته بدهر طويل حتى في مرض موته، وكان يتجشّم القيام مع ضعفه، وكان يفهم ما يقال بين يديه من البحث والمناظرة ويشارك في ذلك مشاركة حسنة وإن لم يكن بالعبارة المصطلح عليها .

وكان يحفظ، ويحفظ أولاده عقيدة جمعها له القطب النيسابوري .

وكان يحب سماع القرآن العظيم ويواظب على سماع الحديث، حتى إنه سمع في بعض المصافات جزءاً وهو بين الصفيين وتبجح بذلك وقال: هذا موقف لم يسمع فيه أحد حديثاً .

وكان رقيق القلب، سريع الدمعة عند سماع القرآن والحديث، كثير التعظيم لشعائر الدين .

وكان من خيار الملوك وأشجعهم وأكرمهم وأحسنهم . فتح الفتوحات التي لا تحصى

من ممالك الكفر، ودمر ديارهم، واستلب أعمارهم، وسبى نساءهم وصغارهم .
وكان شيخًا كريمًا حليماً ضحوك الوجه، كثير البشر أحسن الملوك سيرة،
وأظهرهم سريرة يشبه بالملك العادل نور الدين الشهيد، ولم يترك في خزائنه سوى
سنة وثلاثين درهماً.

وقال غير ابن السبكي: سبعة وأربعين درهماً.
ولم يترك عقاراً ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك، لكثرة عطاياه وهباته
وصدقاته وخيراته إلى أمرائه وفقرائه حتى إلى أعدائه.
وخلف من الأولاد سبعة عشر ذكراً، وابنة واحدة، أكبرهم الملك الأفضل نور
الدين علي.

وكان قد قسم البلاد في حياته بين أولاده: فالديار المصرية لولده العزيز عثمان،
وبلاد دمشق وما حولها لولده الأفضل المذكور، والديار الحلبية لولده الظاهر
غازي، والكرك والشوبك لأخيه العادل أبي بكر.
ثم شرعت الأمور تضطرب وتختلف، حتى آل الأمر واستقرت الممالك،
 واجتمعت المحافل على أخي السلطان الملك العادل، وصارت المملكة في أولاده
الأماجد الأفاضل كما ستراهم حين تعدادهم واحداً بعد واحد.

وكان سبب وفاته أن اعترته حمى صفراوية ليلة السبت سادس عشر صفر، وتفاقم
به الحال ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة^(١)،
فدخل عليه القاضي الفاضل في الصباح وهو بآخر رمق فلما قرأ القارئ قوله تعالى :
﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْ﴾ [التوبة: ١٢٩]، تبسم وتهلل وجهه وسلمها إلى
ربه عز وجل، وله من العمر سبع وخمسون سنة، ودفن بترتبه عند مدرسة أنشأها
ب« الموصل »، وألحده ولده نور الدين علي الأفضل، ودفن معه سيفه الذي كان
يحضر به الجهاد والجلاد، وذلك بإشارة القاضي الفاضل.

وقد عمل فيه الشعراء المراثي الكثيرة، فمن أحسنها قصيدة العماد الكاتب وهي

(١) ينظر: الأصفهاني الفتح القسي ص ٦٢٧، مرآة الزمان ٨/ ٤٣٠، مفرج الكروب ٢/ ٤١٩،
السلوك ١/ ١١٢، النجوم الزاهرة ٦/ ٥١، إلا أن ابن شاهين يرى أن وفاته كانت ليلة
الأربعاء ثامن عشر من صفر، نزهة الأساطين ص ٥٢.

ماتتان واثنتان وثلاثون بيتًا. فمنها قوله في أولها : [من الكامل]

شَمْلُ الْهَدْيِ وَالْمَلِكِ عَمَّ شَتَاتُهُ وَالْدَّهْرُ سَاءَ وَأَقْلَعَتْ حَسَنَاتُهُ
أَيْنَ الَّذِي مُذْ لَمْ يَزَلْ مَخْشِيَّةً مَرْجُوءَةً هَبَّاتُهُ وَهَبَاتُهُ ؟
أَيْنَ الَّذِي طَاعَاتُنَا كَانَتْ لَهُ مَبْذُولَةً وَلِرَبِّهِ طَاعَاتُهُ ؟
بِاللَّهِ أَيْنَ النَّاصِرُ الْمَلِكُ الَّذِي لِلَّهِ خَالِصَةٌ صَفَتْ نِيَّاتُهُ ؟
أَيْنَ الَّذِي مَا زَالَ سُلْطَانًا لَنَا يُرْجَى نَدَاهُ وَتُنْقَى سَطَوَاتُهُ ؟
أَيْنَ الَّذِي شَرَفَ الزَّمَانُ بِفَضْلِهِ وَسَمَتْ عَلَى الْفَضْلَاءِ تَشْرِيفَاتُهُ ؟
أَيْنَ الَّذِي عَنَتِ الْفَرَنْجُ لِبَاسِهِ ذَلَا وَمِنْهَا أَذْرَكَتْ ثَارَاتُهُ ؟
أَغْلَاقُ أَغْنَاكِ الْعِدَى أَسْيَافُهُ أَطَوَاقُ أَجْيَادِ الْوَرَى مِثَّاتُهُ

قلت: إن كانت القصيدة كلها على هذه الوتيرة، فما تصلح أن تكون بعقر داره عقيرة. رحمه الله.

ثم تولى ابنه الملك العزيز عثمان^(١)

أبو الفتح ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب .

تسلطن بعد موته وكان نائبًا عن أبيه بمصر لما كان أبوه بـ « دمشق »، وتم أمره وسنه ثيِّف وعشرون سنة وكان أصغر إخوته، وكان أكبرهم الملك الأفضل نور الدين علي، وكانت إليه ولاية العهد من أبيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان بـ « دمشق » وأخوه عثمان بـ « مصر » وعمه الملك العادل أبو بكر بـ « حلب »، وكان أكلًا يأكل الخروف وحده، وكان فاضلاً متأدبًا حليماً، حسن السيرة، متديناً، قلَّ أن يعاقب على ذنب، ومع هذا ما صفا له الدهر ولا هئاه بالملك بعد أبيه، لبث مدة يسيرة ثم حصره عمه الملك العادل أبو بكر، وأخوه الملك العزيز عثمان صاحب

(١) ينظر ترجمته في: السلوك ١/١١٤، النجوم الزاهرة ٦/١٢٠، بدائع الزهور ١/٧٣، وفيات الأعيان ٣/٢٥١ - ٢٥٣، نزهة الأساطين ص ٥٣ مرآة الزمان ٨/٤٦٠، الجواهر الثمين ٢/٢١، الأعلام ٤/٢١٥، الكامل ١٢/٩٧، التكملة للمنذرى ٢/١٥٠ - ١٥١ رقم ٤٦٧، ذيل الروضتين ص ١٦، المختصر لأبي الفداء ٣/١٠٠، العبر ٤/٢٧٨، الخطط للمقريزي ١/٢٣٥، تمة المختصر ٢/١٧٠، الوافي بالوفيات للصفدى ١٩/٥١٦، دول الإسلام ٢/٧٨، سير أعلام النبلاء ٢١/٢٩١ - ٢٩٤، تاريخ ابن القرات ٤/٢ - ١٤٣ - ١٤٨، مفرج الكروب ٣/٨٢ - ٨٤، الدارس ١/٣٨٧ - ٣٨٩ .

الترجمة هذه، وأخرجاه من ملكه إلى « صَرْخَد » ثم جهزاه إلى « سميساط »، وفي ذلك كتب إلى الخليفة الناصر العباسي بـ « بغداد » قوله: [من البسيط]

مَوْلَايَ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَصَاحِبَهُ عُمْثَانَ قَدْ غَضَبَا بِالسَّيْفِ حَقَّ عَلَيَّ
وَهُوَ الَّذِي كَانَ قَدْ وَلَاهُ وَالِدُهُ عَلَيْهِمَا فَاسْتَقَامَ الْأَمْرُ حِينَ وَلِي
فَخَالَفَاهُ وَحَلًّا عَقَدَ بِنِعْتِهِ وَالْأَمْرُ بَيْنَهُمَا وَالتُّصْفُ فِيهِ جَلِي
فَانْظُرْ إِلَى حَظِّ هَذَا الْأَسْمِ كَيْفَ لَقِيَ مِنَ الْأَوَاخِرِ مَا لَاقَى مِنَ الْأَوَّلِ
فَأَجَابَهُ الناصر العباسي: [من الكامل]

وَأَقَى كِتَابُكَ يَا بَنَ يَوْسُفَ مُغْلِنَا بِالْوَرْدِ يُخْبِرُ أَنَّ أَضْلَكَ طَاهِرُ
غَضَبُوا عَلَيَّا حَقَّهُ إِذْ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ النَّبِيِّ لَهُ يَثْرِبُ نَاصِرُ
فَاضِرٍ فَإِنَّ غَدَاً عَلَيْهِ حِسَابُهُمْ وَابْشِرْ فَنَاصِرُكَ الْإِمَامُ النَّاصِرُ
وكان فيهما تشيع.

وقال العلامة الصفدي في « تاريخه »^(١) : توفي يوم الجمعة فجأة بعد أن صلى الجمعة خامس عشر صفر من سنة (٦٢٢هـ)، وحمل إلى « حلب » ودفن بها. وكان صحيح العقيدة، عنده علم وأدب، يحب العلماء والعلم، وله في الجهاد مع أبيه مشاهد معروفة وآثار جميلة، ووقف أوقافاً جميلة. ولشعراء عصره فيه أمداح طائلة وقصائد هائلة، مثل ابن الساعاتي وابن سناء الملك وغيرهما.

فمن قول ابن سناء الملك فيه من قصيدة: [من الخفيف]

مَلِكٌ إِسْمُهُ عَلِيٌّ وَلَكِنْ كَنِيْدُهُ فِي حُرُوبِهِ كَنِيْدُ عَمْرٍو
لَيْسَ يَنْفَكُ بَيْنَ فَتْحٍ وَفَتْكٍ حِينَ يَخْتَالُ بَيْنَ نَصْلِ وَنَصْرِ
وَجْهَهُ الْبَذْرُ فِي الْحُرُوبِ فَلَا تَع حَبُّ إِذَا كَانَ يَوْمُهُ يَوْمَ بَدْرِ^(٢)
وله فيه من أخرى: [من البسيط]

حَسْبِيَ عَلَى نَدَى حَسْبِيَ عَلَى هُدَى حَسْبِيَ عَلَى جَدَى حَسْبِيَ عَلَى غَلَا
حَمَدْتُ آخِرَ أَيَّامِي بِخِذْمَتِهِ وَلَسْتُ أَحْمَدُ مِنْ أَيَّامِي الْأَوَّلَا

(١) الصفدي (٣٤٤/٢٢).

(٢) ينظر: ديوان ابن سناء الملك ٣٧٥، والوافي بالوفيات (٣٤٤/٢٢).

ذِكْرِي بِهِ سَارَ حَالِي عِنْدَهُ عَظُمْتُ قَدْرِي بِهِ جَلٌّ مِقْدَارِي لَدَيْهِ عَلَا^(١)
ثم قال: وقال كمال الدين بن العديم: لم يكن متشيّعاً وإنما قال هذا الشعر؛
موافقة للحال وتقرباً للإمام الناصر العباسي، فإنه كان منسوباً إلى التشيع.
قال الصفدي^(٢): ولما تعصب عليه أخوه العزيز عثمان المذكور، وعمه العادل
أبو بكر قال: [من الكامل]

ذِي سُنَّةٍ بَيْنَ الْأَنْبَاءِ قَدِيمَةً أَبَدًا أَبُو بَكْرٍ يَجُورُ عَلَى عَلَى
وكتب بتلك الأربعة أبيات إلى الناصر العباسي.
قلت: قد ذكرت الأربعة أبيات وفي حفظي له بيتان يذم بهما حظه، وهو معنى لم
أسمعه لغيره، وكرر لم يأو إليه غير طيره هما: [من الكامل]
يَا مَنْ يُسَوِّدُ بِالْخَضَابِ شُعُورَهُ لَعَسَاهُ مِنْ أَهْلِ الشَّيْبَةِ يُجْعَلُ
هَا فَاخْتَضِبَ بِسَوَادِ حَظِي مَرَّةً وَلَكَ الْأَمَانُ بَأَنَّهُ لَا يُنْصَلُ
وإنما ذكرت ترجمة عليّ الأفضل في ترجمة أخيه عثمان صاحب الترجمة؛
لجريان ذكره بأكبريته على إخوته بنى يوسف بن أيوب.

واستمر عثمان في الملك إلى أن خرج [إلى] الفيوم يتصيد، فلاح له ظبي، فساق
خلفه فكبا به الفرس، فوقع فدخل قربوس السرج في فؤاده فحمل إلى القاهرة^(٣)،
وتوفى في عشر المحرم الحرام^(٤) سنة خمس أو ست وتسعين وخمسمائة، ومدة
ملكه خمس سنين وعشرة أيام^(٥).

(١) ينظر: الديوان ٦٠٨، والوافي بالوفيات (٣٤٤/٢٢)، وبعد البيت الأول بيت آخر:

حسبي أبو حسن في كل نائبة يستفرغ الحول أو يستفرغ الحيلة

(٢) ينظر: الوافي بالوفيات (٣٤٥/٢٢).

(٣) ينظر: مرآة الزمان ٤٦٠/٨، وفيات الأعيان ٢٥٢/٣، غير أن ابن الأثير في الكامل ١٤٠/١٢،
وابن دقماق في الجواهر الثمين ٢١/٢ ذكروا في سبب وفاته قولاً آخر. أنه خرج إلى الصيد،
فوصل إلى الفيوم، فرأى ذئباً فركض فرسه في طلبه، فعثر الفرس، فسقط عنه في الأرض
ولحقته حمى، فعاد إلى القاهرة مريضاً، فبقي كذلك إلى أن توفى بعد خمسة أيام.

(٤) ينظر: مفرج الكروب ٨٣/٣، بينما يرى المقرئ في السلوك (١٤٤/١) أنه توفى. . . منتصف
ليلة السابع والعشرين من المحرم. لكن يشير ابن الأثير في الكامل ١٤٠/١٢، وابن تغري بردي
في النجوم الزاهرة ١٤٦/٦، والمنذرى في التكملة. أنه توفى في العشرين من المحرم.

(٥) في مفرج الكروب ٨٣/٣، والخطط ٢٣٥/٢ ست سنين إلا شهراً، بينما في السلوك
للمقرئ ١٤٤/١ ست سنين تنقص شهراً وستة أيام. غير أن ابن شاهين في نزهة الأساطين =

ثم تولى ابنه الملك المنصور محمد^(١)

ابن عثمان العزيز بن صلاح الدين، تسلطن بعد موت أبيه^(٢)، وعمره نحو العشرين^(٣).

وصار مدبر مملكته الأمير قراقوش. ووقع له مع عمه الملك الأفضل صاحب الشام أمور عجيبة، وكذلك مع عم أبيه العادل أبي بكر بن أيوب، ولم تطل أيامه، لتغلب أعمامه عليه إلى أن خلعه عم أبيه الملك العادل أبو بكر بن أيوب^(٤).

ثم تولى الملك العادل^(٥)

عم أبيه أبو بكر سيف الدين بن أيوب.

تسلطن بعد خلع ابن ابن أخيه في شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة^(٦). وفي أيامه انتقلت السلطنة من دار الوزارة إلى قلعة الجبل في سنة أربع وستمائة^(٧). وكان له سعد عظيم، فإن غالب ملوك بنى أيوب من نسله.

= ص ٥٤ - يرى أن مدته ست سنين .

(١) ينظر ترجمته فى: السلوك ١٤٥/١ - ١٥٣، بدائع الزهور ٧٤/١، الأعلام ٢٦١/٦، نزهة الأساطين ص ٥٥، الكامل ١٥٦/١٢، وفيات الأعيان ٣٩٠/٥، حلى القاهرة ١٩٦ .

(٢) فى يوم الاثنين السابع عشر من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة (ينظر نزهة الأساطين ص ٥٥) .

(٣) تشير بعض المصادر إلى أنه تسلطن وعمره تسع سنين وأشهر (ينظر السلوك ١٤٦/١) .

(٤) كان دخول العادل القاهرة كما يقول ابن الأثير فى الكامل (١٥٦/١٢) - يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة . وكان خلع المنصور محمد واستقلال العادل بالملك يوم الجمعة الحادى والعشرين من شوال منها .

وكانت مدته سنة وثمانية أشهر وعشرين يومًا . ينظر: الخطط للمقريزى ٢٣٥/٣،

السلوك ١٥٢/١، نزهة الأساطين ص ٥٥ .

(٥) ينظر ترجمته فى: وفيات الأعيان ٧٤/٥ - ٧٩، بدائع الزهور ٧٥/١، السلوك ١٥٢/١ -

١٩٤، مرآة الزمان ٥٩٤/٨، ذيل الروضتين ١١١، حلى القاهرة ص ٢٠٦، الأعلام ٦/

٤٧، الكامل ١٥٥/١٢، مفرج الكروب ٢٧٠/٣، كنز الدرر ١٩٧/٧، تمة المختصر ٢/

٢٠١، تاريخ ابن الفرات ٢٣٩/٥، الجواهر الثمين ٢٥/٢، النجوم الزاهرة ١٦٠/٦،

التاريخ المنصورى ص ٧ - ١١، تاريخ الخلفاء ص ٣٦٤ .

(٦) أما اليوم الذى تولى فيه السلطة فقد اختلف المؤرخون فيه، فىرى ابن شاهين فى نزهة

الأساطين (ص ٥٦) أنه تسلطن فى يوم الجمعة حادى عشرى شوال وتابعه فى ذلك

المقريزى فى السلوك (١٥٢/١) . إلا أن ابن تغرى بردى ذكر فى النجوم الزاهرة (١٦٠/٦)

أنه تولى فى العشرين من شوال .

(٧) ينظر: السلوك ١٦٩/١ .

وكان يأكل خروفاً كاملاً مشوياً^(١) كما كان يأكله ابن أخيه الأفضل المتقدم ذكره. وتوفى بـ « مالقين » بلد بالشام في ثامن جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة^(٢)، فصره ولده الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، وحمله - ولم يعلم بموته أحد - إلى قلعة دمشق، فدفنه بها، وهو الملقب بالعدل الكبير. ولما مات استقر كل واحد من ولده بمملكته التي كان قسمها بينهم، فاستقر الكامل محمد في سلطنته بـ « مصر »، واستقر الملك المعظم عيسى في ممالك الشام، واستقر الأشرف موسى شاه « أرمن » بديار بكر وممالك الشرق. وباقي أولاده كل في جهة أو في خدمة أخ من إخوته. وكانت مدة ولايته على مصر ثماني عشرة سنة ونحو ثمانية أشهر.

ثم تولى الملك الكامل محمد^(٣)

ابن أبي بكر الملك العدل.

استقل بسلطنة مصر يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمائة، فعمر قبة الإمام الشافعي رضي الله عنه^(٤)، وبنى المدرسة الكاملية بين القصرين^(٥)، وله من الخيرات غير ذلك، واستمر إلى أن توفى بدمشق يوم الأربعاء ودفن من غد يوم الخميس ثاني عشر^(٦) رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة، ومدة

(١) ينظر: السلوك ١٩٣/١ .

(٢) ينظر: الكامل ٣٥٠/١٢، وفيات الأعيان ٧٨/٥، نزهة الأساطين ص ٥٧، السلوك ١٩٤/١ وفيه أنه مات عن خمس وسبعين - وقيل ثلاث وسبعين - سنة .

(٣) ينظر ترجمته في: شذرات الذهب ١٧١/٥، بدائع الزهور ١/٧٧، الكامل ٣٥١/١٢، السلوك ١٩٤/١، الحوادث الجامعة ١٠٧، وفيات الأعيان ٧٩/٥، ٩٢، الدارس ٢٧٧/٢، مرآة الزمان ٦٣٣/٨، النجوم الزاهرة ٢٢٩/٦، دول الإسلام ١٣٤/٢، الجوهر الثمين ٢٩/٢، الخطط ٣٧٧/٢، تاريخ الخلفاء ٣٦٤، نزهة الأساطين ص ٥٨، الأعلام ٢٨/٧ .

(٤) كان الفراغ من إنشائها يوم الأحد، لسبع خلون من جمادى الأولى سنة ثمان وثمانمائة للهجرة، وبلغت النفقة عليها خمسين ألف دينار . ينظر: وفيات الأعيان ٨١/٥ .

(٥) أنشأها سنة إحدى وعشرين وستمائة وهي ثاني دار عملت للحديث النبوي بعد مثيلتها في دمشق، التي أقامها الشهيد نور الدين زنكي . ينظر: مرآة الزمان ٦٣٣/٨، النجوم الزاهرة ٢٢٩/٦ .

(٦) وفي الذيل على الروضتين لأبي شامة ص ١٦٦ ليلة الخميس الثاني والعشرين من رجب، وفي كنز الدرر للودادى ٧/٣٢٣ يوم الخميس رابع المحرم سنة ست وثلاثين وستمائة . والأقرب إلى الصحة ما نص عليه مؤرخنا - هنا - أنه توفى يوم الأربعاء ودفن يوم الخميس ثاني عشر =

ملكه عشرون سنة وشهران^(١).

ثم تولى ابنه أبو بكر العادل^(٢)

وهو المسمى بالعادل الصغير ابن محمد الكامل بن أبي بكر العادل، وهو المسمى بالعادل الكبير .

تسلطن بعد موت والده الكامل بـ « مصر » ، وكان الصالح نائب أبيه ببلاد الشرق، فلما مات الكامل اتفق رأي الأمراء على تولية أبي بكر العادل هذا، وأن يكون نائبه بـ « دمشق » ابن عمه الملك الجواد يوسف، وأن يكون أخوه أيوب على حاله بديار بكر وممالك الشرق، فتم ذلك، وتسلطن العادل فيه وله ثمان عشرة سنة، ثم بلغ الخبر أخاه فتحرك طالبًا لملك مصر حتى ملكها بعد أمور وقعت له مع أخيه، وقهره وخلعه عن الملك وحجسه^(٣)، ثم قتله بعد سنين في السجن في شوال سنة ست وأربعين وستمائة، وكانت مدة العادل سنة وشهرين وأيامًا^(٤) مع ما وقع له من الأنكاد والحروب والفتن .

ثم تولى الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل^(٥)

وله سير وأوصاف جميلة حميدة، وهو ممدوح الصفي الحلي، وباني المدرسة

= رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة حيث هو الرأي الغالب عند المؤرخين . ينظر: وفيات الأعيان ٨٣/٥، الخطط للمقريزي ٣٧٧/٢، التكملة لوفيات النقلة للمندري ٤٨٥/٤ .

(١) وقد اختلف المؤرخون في مدة ملكه: فابن شاهين في نزهة الأساطين ص ٥٩ يرى أنها ثلاثا وعشرين سنة تزيد شيئًا، وابن دقماق صاحب الجواهر الثمين ٢٩/٢ يرى أنها عشرين سنة وخمسة وأربعين يومًا، وفي السلوك للمقريزي ٢٩٩/١ «أنها عشرين سنة وثلاثة وأربعين يومًا» .

(٢) ينظر ترجمته في: وفيات الأعيان ٨٤/٥، السلوك ٢٦٧/١، النجوم الزاهرة ٣٠٣/٦، تاريخ ابن الوردي ١٧٨/٢، بدائع الزهور ٨٢/١، الأعلام ٢٨-٢٩، نزهة الأساطين ص ٦٠، الجواهر الثمين ٣٣-٣٥، مفرج الكروب ٢٦٦/٥ .

(٣) راجع بشأن إسماعله وأسرته، ثم خلعه ابن دقماق الجواهر الثمين ٣٣/٢ .

(٤) اختلف المؤرخون في مدة ملكه فابن واصل يرى أنها سنتين وشهورًا . (مفرج الكروب ٥/٥٠٠)

(٥) ٢٦٦، وابن شاهين يرى أنها سنتين وشهرين وثمانية عشر يومًا (نزهة الأساطين ص ٦٠) . ينظر ترجمته في: الخطط للمقريزي ٢٣٦/٢، بدائع الزهور ٨٣/١، السلوك ٢٩٦/١ - ٣٤٢، مرآة الزمان ٧٧٥/٨، نزهة الأساطين ص ٦١، الأعلام ٣٨/٢، وفيات الأعيان ٥/٨٦، الجواهر الثمين ٣٨/٢، تاريخ الإسحاقى ١٨٩، النجوم الزاهرة ٣١٩/٦ .

بين القصرين المعروفة بالصالحية^(١)، التي هي الآن المحكمة، إلا أنه لم يمكث فإنه وقعت له أكلة في خده فمات ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة بـ «المنصورة»، وحمل إلى القاهرة.

وأخفت زوجته المسماة شجرة الدر موته، خوفاً على المسلمين، إلى أن حضر ابنه المعظم توران شاه ودبرت الملك بينما وصل، وعلمت على المناشير بخط يحاكي خط الصالح.

وهو صاحب قلعة الروضة^(٢) تجاه مصر القديمة على النيل. وهو الذي استكثر من المماليك الأتراك بديار مصر^(٣)، وفي هذا المعنى قال بعضهم: [من البسيط]
 أَصْلَاحُ الْمُزْتَضَى أَيُّوبُ أَكْثَرُ مِنْ تُزْكٍ بِدَوْلَتِهِ يَا شَرَّ مَجْلُوبٍ
 لَا وَآخِذَ اللَّهُ أَيُّوبًا بِفَعْلَتِهِ فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ فِي ضَرِّ أَيُّوبٍ
 ثم تولى تورنشاه^(٤)

ابن الملك الصالح ابن الملك الكامل ابن الملك العادل.
 تسلطن بعد موت أبيه بنحو شهرين ونصف، وقيل: بأربعة أشهر، وهو الأصح؛
 لأن أباه مات في شعبان.
 وقدم تورنشاه أواخر ذي الحجة.

ففي أول المحرم من سنة ثمان وأربعين ولي^(٥)، ولما ملك واستفحل أمره تغير

(١) كان ابتداء البناء فيها سنة تسع وثلاثين وستمائة، وانتهى سنة إحدى وأربعين وستمائة للهجرة. ينظر: النجوم الزاهرة ٣٤١/٦، السلوك ٣٠٨/١.

(٢) وتعرف باسم «قلعة المقياس»، و «قلعة الجزيرة» و «القلعة الصالحية» وقد ابتدئ في بنائها يوم الجمعة سادس عشرة من شعبان سنة ثمان وثلاثين وستمائة للهجرة. ينظر: النجوم الزاهرة ٣٤١/٦، السلوك ٣٠١/١، حسن المحاضرة ٣٨١/٢ وما بعدها.

(٣) والعلة في ذلك أنه لما تعرض للمحن لم يثبت من عساكره إلا المماليك فرعى لهم ذلك وأكثر منهم وسماهم البحرية وأسكنهم في قلعة الروضة. ينظر: السلوك ٣٣٩/١ - ٣٤٠.

(٤) ينظر ترجمته في: الجواهر الثمين ٤٠/٢، مرآة الزمان ٧٨٢/٨، السلوك ٣٥٩/١، وفيات الأعيان ٣٠٦/١ - ٣٠٩، الوافي بالوفيات ٤٤٥/١٠، المنهل الصافي ١٦٥/٢، النجوم الزاهرة ٣٦٤/٦، ذيل الروضتين ١٨٥، الشذرات ٢٤١/٥، فوات الوفيات ١٨٧/١، نزهة الأساطين ص ٦٣، الأعلام ٩٠/٢، بدائع الزهور ٢٦/١، تاريخ ابن الوردي ١٨١/٢، مجلة المجمع العلمي ٣٠٨/١٦.

(٥) في نزهة الأساطين ص ٦٣: «... أنه تسلطن بدمشق في يوم السبت، مستهل شوال سنة سبع وأربعين وستمائة وجلس على تخت الملك بعد قدومه - بالمنصورة قريب ثغر دمياط =

على ممالك أبيه بالقتل والفتك، وتوعد شجرة الدر جارية أبيه بالمصادرة، فدفعت له أشياء وهو لا يكف عنها، فتغير خاطرها عليه، وكانت مطاعة، فوثب عليه المماليك بإشارتها يوم الإثنين سابع عشر محرم^(١) الحرام سنة ثمان وأربعين وستمائة فلم يثبت لهم وهرب، فطلع إلى برج خشب فأطلقوا فيه النار والنفط فنزل إلى الخركاه فرموه بالنشاب، فصار يصيح: ما لي حاجة بالملك دعوني أتوجه إلى الحصن، فلم يتركوه وضربوه بالسيوف إلى أن مات^(٢)، وسلطنوا شجرة الدر زوجة أستاذهم.

ثم تولت شجرة الدر^(٣)

وسلطنوها باتفاق من الأمراء، وحلفوا لها، واستحلفوا جميع العساكر المصرية والشامية، واستمرت تعلم على المناشير، ويدعى لها على المنابر بـ «مصر» وأعمالها، ويكونون عنها بالجهة الصالحة ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل صاحبة الملك الصالح، فبقيت على ذلك الحال نحو ثلاثة أشهر، ثم بدا لها خلع نفسها^(٤).

= تسع بقين من ذى القعدة من السنة المذكورة .

(١) في وفيات الأعيان لابن خلكان (٣٠٩/١) «... يوم الاثنين السابع والعشرين من المحرم» .
(٢) يرى بعض المؤرخين أن بموت «توران شاه» انقضت الدولة الأيوبية الكردية، وأن مدتهم - بمصر - كانت إحدى وثمانين سنة» ينظر: السلوك ٣٦١/١، نزهة الأساطين ص ٦٤ .
(٣) هي: عصمة الدين، أم الخليل، شجرة الدر، الملكة، سُرية الملك الصالح، التركية . ينظر ترجمتها في: السلوك ٣٦١/١ وهو يسميها «شجر الدر»، دول الإسلام ١٢٢/٢، بدائع الزهور ٨٩/١ و ٩٢ و ٩٣، خطط مبارك ٣٢/٥، تراجم إسلامية ص ٦١، الدر المنثور ص ٢٥٥، مرآة الزمان ٧٧٤/٨ و ٧٧٥ و ٧٨٢ و ٧٨٣، شذرات الذهب ٢٦٨/٥، الأعلام ١٥٨/٣، نزهة الأساطين ص ٦٧، الخطط للمقريزي ٢٣٧/٢، الوافي بالوفيات ١٦/١٢٠، ذيل مرآة الزمان ٦١/١، مرآة الجنان ١٣٧/٤، البداية والنهاية ١٩٩/١٣، النجوم الزاهرة ٥٦/٧، حسن المحاضرة ٣٩/٢ .

(٤) عارض الرأي العام - في مصر والشام - «شجرة الدر» عندما تسلطنت على البلاد انطلاقاً من المبدأ الإسلامي «لا يفلح قوم ولّوا عليهم امرأة» لذا عارضها سلطان العلماء العز بن عبد السلام وذكر «أن الله ابتلى المسلمين في مصر بولاية امرأة عليهم»، كما أن الخليفة العباسي «المستعصم بالله» - رغم أنها بعثت إليه بالهدايا - أرسل إلى مصر منكراً متهمكاً . . إن كانت الرجال قد عذمت من عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً . السلوك ٣٦٨/١ .
لذا خلعت نفسها بعد مدة وجيزة - حوالى ثلاثة أشهر على أكثر الآراء - بل إن بعض المؤرخين أسقطوا هذه الفترة - عمدًا - من التاريخ للدولة المملوكية، واعتبروها فترة وسطاً بين دولتين لأنها ليست من نسل الأيوبيين لتعد ضمن سلاطينهم، وليست جديرة بالسلطنة لكونها امرأة =

ثم تولى الملك عز الدين أيك التركماني^(١)

واستقر في السلطنة، وقد كان هو أتابك^(٢) العساكر لها رتبة الأمراء، ثم تزوج الأتابك المذكور بها وكانت مستولية عليه.

فبعد استقرار أيك المذكور في السلطنة بخمسة أيام أجمع رأى الأمراء جميعهم على تولية مظفر الدين موسى بن الناصر ابن الملك المسعود ابن الملك الكامل ابن الملك العادل، ولقبوه بالملك الأشرف فلم يسع المعز إلا الإذعان لهم؛ لعظم شوكتهم.

فتولى الملك الأشرف موسى مظفر الدين^(٣)

ابن الملك الناصر ابن الملك المسعود بن الكامل بن العادل.

ببيع عام ثمان وأربعين، فقام عامًا واحدًا إلى أن قويت شوكة المعز المذكور أيك على الأمراء فخلع الصبي واستقل بالسلطنة، وبخلعه انتهت الدولة الأيوبية الكردية، وكانت مدة ولايتهم اثنتين وثمانين سنة وأربعة أشهر، وعدة ملوكهم: تسعة رجال وامرأة هي شجرة الدر المذكورة، وكانت تركية الجنس، ثم آل به الأمر أن قتلته؛ لما بلغها عنه أنه يريد التزوج عليها، فقتلها بعده غلمانها، كما سيأتي.

= فتعد من سلاطين المماليك، وعد «المعز أيك» أول سلاطين المماليك. ينظر: الجواهر الثمين ٥٥/٢.

(١) ينظر ترجمته في: بدائع الزهور ٩٠/١، السلوك ٣٦٨/١ - ٤٠٤، النجوم الزاهرة ٣/٧ - ٤١، الأعلام ٣٣/٢، نزهة الأساطين ص ٦٩، الجواهر الثمين ٥٥/٢، الخطط للمقريزي ١٨٤/٢، البداية والنهاية ٢٠٩/١٣، ذيل مرآة الزمان ٥٤/١، المنهل الصافي ٥/١، الوافي بالوفيات ٤٧٢/٩، الدليل الشافي ٤/١.

(٢) أتابك: يتألف هذا اللقب من لفظين تركيين، وهما أطا بمعنى أب، وبك بمعنى أمير. وأصله أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٦٥ - ٤٨٥هـ) كانوا يطلقون لفظ أتابك على كبير أمرائهم، يولونه الوصاية والرعاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير. وكثيرًا ما تزوج الأتابك من أم الموصى به، فتصبح العلاقة بين السلطان ووصيه شبه أبوية، ثم أطلق هذا اللقب في أيام المماليك بمصر على مقدم العساكر أو القائد العام، على اعتبار أنه أبو العساكر والأمراء جميعًا، وكان يسمى أتابك العساكر.

ينظر: صبح الأعشى (١٨/٤)، النجوم الزاهرة (١٨٤/٧) - حاشية رقم ٦.

أتابك الجيوش: من الألقاب المركبة على لقب «أتابك»، وكان في مصطلح ديوان الإنشاء في عصر المماليك أعلى الألقاب الفخرية المضافة إلى لفظ «الجيوش» ولذا كان يطلق على النائب الكافل. ينظر: صبح الأعشى (١٣٣/٦)، الألقاب الإسلامية (ص ١٢٤).

(٣) ينظر ترجمته في: الوافي بالوفيات ٤٧٠/٩، النجوم الزاهرة ٥/٧، الجواهر الثمين ٤٧/٢، =

الباب الخامس

في ذكر الدولة التركمانية^(١)

كان ابتداءؤها سنة ثمان وأربعين وستمائة .
أولهم المعز أيك التركماني الصالح النجمي التركي ، أول ملوك الأتراك بالديار المصرية .

وقد نظم بعضهم من مسه الرق من ملوك الأتراك في أبيات موالياً وهي :
أيك قطز يعقبو بيرس ذو الإكمال بعدو قلاوون بعدو كتبغا المفضل
لاجين بيرس برقوق شيخ ذو الأفضال ططر برسباي جقمق ذو العلا أينال
وخشقدم عنه قل بلباي ذو الأحوال تمر بغاقيتبغه الغمر ذو الإقبال
قال في « الأرج المسكي » : وهذه الأبيات مفيدة ، لأن كثيراً من فقهاءنا نصوا
على عدم صحة أوقافهم معللين ذلك بأنهم أرقاء لبيت المال ، وما وقفوه من أموال
بيت المال ، ويجعلون ذلك وسيلة إلى جواز تناول من يكون مقيماً بـ « مصر » من
أموال الحرمين الموقوفة عليهم من ملوك الأتراك ، والإطلاق في ذلك خطأ ، فإن
بعضهم لم يمسه الرق وهو من عدا المنظومين في هذه الأبيات فليتنبه لذلك ، وأيك
المذكور كان من ممالك الملك الصالح أيوب الأيوبي اشتراه في حياة والده الملك
الكامل ، وجعله جاشنكير^(٢) فلهذا تسلطن يوم السبت آخر ربيع أول سنة ثمان

= الخطط للمقريزي ٢/٢٣٧ ، السلوك ١/٣٦٩ ، حسن المحاضرة ٢/٣٨ ، نزهة الأساطين
ص ٧١ ، البداية والنهاية ١٣/٢٠٩ ، بدائع الزهور ١/١/٢٨٥ وما بعدها .
(١) تحتل دولة المماليك مكانة هامة وبارزة في التاريخ لأنه - كان بحق - عصر حركة دائمة
ونشاط دائم ففي الخارج الحروب والتوسعات والانتصارات . . وفي الداخل الإصلاحات
الاقتصادية والتيارات العلمية والتغيرات الاجتماعية . وقد اعتاد المؤرخون تقسيم دولة
المماليك إلى قسمين ممالك بحرية ، وممالك جراكسة . ينظر العصر المماليكي في مصر
والشام د . سعيد عاشور ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك للدكتور سعيد
عاشور ، الفضائل الباهرة لابن ظهيره ص ٤٤ .

(٢) الجاشنكير : وتسمى وظيفته الجاشنكيرية ، والجاشنكير هو الذي يتحدث في أمر السماط مع
الأستادار ويتذوق الشراب قبل السلطان في الولائم والأسمطة خوفاً من أن يدس فيه سم
أو نحوه ؛ ويساعده صغار الجاشنكيرية . والكلمة فارسية مركبة من لفظين ، أحدهما :
جاشنا بجيم في أوله وهي الفارسية القريبة من الشين ومعناها : الذوق ولذلك يقولون فيمن
يذوق الطعام « الشيشنى » . والثاني كير ومعناه : المتناول أى الذى يتذوق الطعام . =

وأربعين أو تسع وأربعين وستمائة بعد خلع شجرة الدر نفسها، وأجمع على سلطنته الأمراء من غير كره، وركب بشعار السلطنة، وحملت الغاشية بين يديه وتم أمره. ثم إن المماليك الصالحة اتفقوا على واحد من بنى أيوب، وهو موسى وسلطنه واجتمعوا عليه، وكان القائم بهذا الأمر: فارس الدين أقطاي الجمداري، وبيرس البندقداري، وبلباي الرشيدى، وسنقر الرومى، فأقاموا مظفر الدين موسى بن الناصر يوسف ابن الملك المسعودى بن الكامل بن العادل ولقبوه الملك الأشرف، وكان عند عماته. فأحضروه، وكان عمره إذ ذاك نحو عشر سنين، ولم يعزل المعز عن السلطنة بل كان أتابك العساكر، وخطب لهما على المنابر معاً، وكانت هذه الحركة بعد سلطنته بخمسة أيام كما تقدم ذكر ذلك، واستمر شريكاً للصبي إلى أن مهد أموره وقويت شوكته وصفا له الوقت، فعزل الصبي، واستقل بعد أمور حصلت ووقائع، إلى أن قتله زوجته شجرة الدر لما بلغها أنه يريد التزوج عليها، فواطأت على قتله جماعة من المماليك، ثم قتلتهم جميعاً، وكان قتلها له يوم الثلاثاء عشر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة.

ثم تولى ابنه الملك المنصور نور الدين علي^(١)

تسلطن وجلس على تخت الملك، وعمره خمس عشرة سنة، ووزر له وزير أبيه شرف الفائزى، وقام بتدبير ملكه الأمر علم الدين سنجر الحلبي، فحدثته نفسه بالوثوب على الأمر فقبض عليه الأمير قطز المعزى الأيكي، ووقع في أيامه حروب كثيرة مع المماليك الصالحة.

ثم قدم في أيامه هولاكو ملك التتار إلى « بغداد » وقتل الخليفة المستعصم، ثم ملك هولاكو حلب والشام، وقصد مصر، فلما بلغ الأمير قطز ذلك وكان قد استفحل أمره في الديار المصرية كلموه في السلطنة، والقيام بملاقة التتار، فجمع القضاة وأعيان الدولة فأجمع رأي الجميع على خلع الملك المنصور من السلطنة لصغر سنه؛ لعدم دفعه للعدو المخذول، فخلع، وتسلطن قطز، وبقي الملك

= ينظر: صبح الأعشى (٤/٢١ و ٤٦) و (٥/٤٦٠).

(١) ينظر ترجمته: في الجواهر الثمين ٥٨/٢، نزهة الأساطين ص ٧٢، الخطط للمقريزى ٢/٢٣٨، السلوك ١/٤٠٥، النجوم الزاهرة ٧/٤١، الفضائل الباهرة ص ٤٤، كثر الدرر ٨/٣٥، بدائع الزهور ١/٣٠٠، البداية والنهاية ١٣/٢٤٩، الأعلام ٤/٢٦٥.

المنصور معتقلاً إلى أن مات، وكانت مدته سنتين، وسبعة أشهر واثنين وعشرين يوماً^(١)، كان كثير اللهو فاستولى عليه أكابر الدولة وحبسوه، كما تقدم.

ثم تولى الملك المظفر سيف الدين قطز^(٢)

ببيع عام سبع وخمسين وستمائة وهو بـ «مصر المحروسة»، وله ولاية الشام، وحلب، وجميع ما كان لمخدومه.

فلما وصل الخبر بأن التار وصلوا دمشق - مع استمرارهم على قتل المسلمين وتعطيل شعائر الدين - تجهز الملك المظفر المذكور في جيوش عظيمة، ومقدمها الظاهر بيبرس، فالتقى الجمعان عند عين جالوت يوم الجمعة خامس عشر رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة وانتصر المسلمون، وهزم التار، وقتلوا شر قتلة، ثم ولوا الأدبار والناس يتخطفونهم، ثم جاء كتاب الملك المظفر إلى دمشق بالنصر، ففطار الناس فرحاً، ثم دخل المظفر إليها مؤيداً منصوراً، وأحبه الناس غاية المحبة فمهّد أمورها وأصلح ما فسد من شأنها.

وهو أول من ملك البلاد الشامية من ملوك الترك بديار مصر؛ لأن الشام جميعه في تصرف الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وغيره من بنى أيوب من بعده، واتبع بيبرس آثار التار حتى أخرجهم من حلب وطردهم عن البلاد.

ثم وقعت الوحشة بينه وبين بيبرس؛ لأنه وعده ولاية حلب ثم أخلفه، فاتفق أن المظفر قطز لما عاد إلى مصر صار إلى التصيد فرأى أرنباً فساق خلف الأرنب، وساق وراءه جماعة من الأمراء قد اتفقوا على قتله، وكبيرهم بيبرس البندقداري ومعه أبض.

فلما دنوا منه - ولم يبق عند قطز غيرهم - تقدم إليه بيبرس وشفع عنده شفاعة فقبلها المظفر، فأهوى بيبرس على يده ليقبلها فقبض عليه وحمل عليه أبض فضربه

(١) في السلوك للمقريزي ٤١٧/١، وبدائع الزهور ٣٠٢/١ «أن مدته كانت سنتين وثمانية شهور وثلاثة أيام».

(٢) ينظر ترجمته في: البداية والنهاية ٢٥٠/١٣، النجوم الزاهرة ٧٢/٧، نزهة الأساطين ص ٧٣، السلوك ٤١٧/١، ذيل مرآة الزمان ٢٨/٢، كنز الدرر ٤٩/٨، الجواهر الثمين ٢/٦٠، حسن المحاضرة ٣٩/٢، بدائع الزهور ٣٠٦/١، الخطط للمقريزي ٢٣٨/٢، ذيل الروضتين ٢١٠، فوات الوفيات ١٣٢/٢، مورد اللطافة ص ٣٥ - ٣٨، الأعلام ٢٠١/٥.

بالسيف، ثم حملوا عليه وقتلوه وتركوه ميتاً، وساقوا وهم شاهرون سيوفهم إلى أن وصلوا إلى الدهليز السلطاني بمنزله في الصالحية، فجلس بيبرس على مرتبة السلطنة وتم أمره.

وكان قتل المظفر يوم السبت سادس ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة^(١)، فكانت مدته سنة واحدة إلا يوماً وقيل إلا عشرة^(٢).

ثم تولى الملك الظاهر بيبرس^(٣)

البندقداري الصالحي التركي النجمي، ركن الدين أبو الفتوح . تسلطن بعد قتل الملك المظفر، وأصله تركي الجنس، أخذ من بلاده وبيع بـ « دمشق » للعماد الصائغ ثم اشتراه منه علاء الدين أيديكين البندقداري . ثم لما صادر الملك الصالح علاء الدين أيديكين أخذ بيبرس هذا في جملة من أخذ وجعله من مماليكه البحرية، وما زال يترقى والقدر يسعفه إلى أن صار أستاذه أيديكين من جملة أمرائه .

وهو الذي استحدث بـ « مصر » القضاة الأربعة، وهو صاحب الفتوحات الكثيرة، والهمم العلية، والأخلاق الرضية .

ومن أثر خيرات إنشاء المدرسة التي بين القصرين تجاه اليمارستان، والجامع الذي بالحسينية .

وفي أيامه أقيمت الخلافة العباسية بـ « مصر » بعد قتل المستعصم كما تقدم ذلك،

(١) في الجوهر الثمين ٦٥/٢ « أنه توفي يوم السبت، نصف ذي القعدة منها، وفي نزهة

الأساطين ص ٧٣ أنه توفي « يوم السبت خامس عشر ذي القعدة سنة ثمان وسبعماية » .

(٢) في نزهة الأساطين ص ٧٣ « فكانت مدته سنة -يوماً» .

(٣) يرى معظم المؤرخين أن الظاهر بيبرس هو المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في مصر والشام وذلك بسبب أعماله وإصلاحاته وفتوحاته . ينظر في ترجمته: ذيل مرآة الزمان ٢/٣٥٠، الجوهر الثمين ٨٠/٢، النجوم الزاهرة ٩٤/٧، السلوك ٤٣٦/١، تاريخ ابن الفرات ٨٠/٧، كنز الدرر ٢٠٠/٨، نزهة الأساطين ص ٧٤، الأعلام ٧٩/٢، بدائع الزهور ١/٩٨ و ١١٢، تاريخ ابن الوردي ٢٢٤/٢، الدارس للنعيمى ٣٤٩/١، دائرة المعارف الإسلامية ٤/٣٦٣، فوات الوفيات ٨٥/١، البداية والنهاية ٢٥٧/١٣، تاريخ أبي الفداء ٣/٢٠٧ . بالإضافة إلى الكتب التي تخصصت في سيرته وأحواله وفتوحاته كسيرة الظاهر بيبرس لابن عبد الظاهر، وسيرة الظاهر بيبرس لابن شداد، وسيرة الظاهر بيبرس للعيني، وكتاب الظاهر بيبرس د . سعيد عاشور .

فأقام في السلطنة سبع عشرة سنة وشهرين ونصفاً^(١).

ومات في القصرين بـ «دمشق» سنة ست وسبعين - بتقديم السين - وستمائة.

ثم تولى ابنه الملك السعيد ناصر الدين^(٢)

محمد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس .

دعى بـ «بركة خان» على اسم جده لأمه بركة خان، ملك التتار ابن دولة خان

الخوارزمي .

تسلطن في حياة أبيه بيبرس صورة في يوم الخميس تاسع صفر سنة سبع وستين

وستمائة إلى أن استبد بالأمر بعد موت أبيه، واستمر إلى أن خرج عليه جماعة من

الأمراء، وكبيرهم حموه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي وخلعوه من

الملك وسلطنوا أخاه سلامش بن الملك الظاهر .

وكانت مدة الملك السعيد من يوم موت أبيه سنتين وشهرين ونصفاً^(٣).

وأعطى الكرك بعد أن خلع، فتوجه إليها وأقام بها إلى أن مات يوم الجمعة

خامس عشر ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وستمائة.

ثم تولى الملك سلامش بن بيبرس^(٤)

الملك العادل سيف الدين .

تسلطن بعد أخيه، وهو ابن سبع سنين ونصف، وصار أتاكبه الأمير سيف الدين

قلاوون الألفي الصالحي، فخلع به في شهر رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة،

(١) في نزهة الأساطين ص ٧٦ «أن مدته ثمان عشرة سنة تزيد يسيراً»، وفي الجوهر الثمين ٨٠ / ٢ «أن مدته سبع عشرة سنة وشهرين» .

(٢) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ٧٧، الخطط للمقريزي ٢/ ٢٣٨، الروض الزاهر ص

٢٠٤ وما بعدها، الجوهر الثمين ٨٦ / ٢، تاريخ سلاطين المماليك لابن أبي الفضائل ٤٥٢

و ٤٥٥ و ٤٧٠، السلوك ١ / ٦٤١، تاريخ أبي الفداء ٣ / ١٢، مورد اللطافة ص ٤١، بدائع

الزهور ١ / ١١٢، تاريخ ابن الفرات ٧ / ١٦٥، النجوم الزاهرة ٧ / ٢٥٩، تاريخ ابن الوردي

٢ / ٢٢٧، الأعلام ٦ / ٥٢ .

(٣) في الجوهر الثمين ٨٩ / ٢ أن مدته «سنتين وشهرًا واحدًا وأيامًا» .

(٤) ينظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٧ / ٢٨٦، ابن الفرات ٧ / ١٥٠، كنز الدرر ٨ / ٢٣٠،

السلوك ١ / ٦٥٦، الخطط للمقريزي ٢ / ٢٣٨، الجوهر الثمين ٩٠ / ٢، نزهة الأساطين

ص ٧٨، البداية والنهاية ١٣ / ٣٣٦، بدائع الزهور ١ / ١١٤ و ١٢٨، النهج السديد فيما بعد

تاريخ ابن العميد ص ٤٧١، الأعلام ٣ / ١٠٦ .

وكانت مدته مائة يوم^(١)، وليس له إلا مجرد الاسم.

ثم تولى الملك المنصور قلاوون الألفي^(٢)

الملك المنصور سيف الدين .

تسلطن بعد خلع سلامش، وأصله من مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب، اشتراه سنة سبع وأربعين وستمائة، وترقى بعد موت أستاذه الصالح، وعظم بدولة الظاهر بيبرس إلى أن صار يخطب له مع السلطان العادل سلامش المذكور، وضربت السكة على وجهه باسم سلامش، وعلى الوجه الآخر باسم قلاوون، وأمسك جماعة من الأمراء الظاهرية، واستعمل مماليكه على البلاد وأمرهم. وله همة عظيمة.

ومن مناقبه أن عدة مماليكه بلغت اثني عشر ألفاً، وأن ملك مصر دام من بعده في ذريته ونسله ثم في يد مماليكهم، إلى أن انقضت دولة الأتراك، وجاءت دولة الأروام وكان أجلاً ملوك الترك، وهو الذي بنى بمصر البيمارستان^(٣) بين القصرين والقبّة التي دفن فيها، وله فتوحات بساحل البحر الرومي، منها: طرابلس وبيروت وصيدا وغير ذلك، وكانت مدة سلطنته إحدى عشرة سنة وشهرين ونصفاً^(٤)، وتوفي سنة تسع وثمانين وستمائة.

(١) في الجواهر الثمين . لابن دقماق ٩١/٢ «خمس شهور وأياماً» .

(٢) ينظر ترجمته في: الخطط للمقريزي ٢٣٨/٢، السلوك ١/٦٦٣، تاريخ أبي الفداء ١٢/٤، الجواهر الثمين ٩٢/٢، النجوم الزاهرة ٧/٢٩٢، كنز الدرر ٨/٢٨٣، العبر للذهبي ٥/٣٥٧، البداية والنهاية ١٣/٣٣٧، تاريخ ابن الفرات ٨/٧٦ - ٨١، بدائع الزهور ١/١١٤، فوات الوفيات ٢/١٣٣، النهج السديد ٤٧٥ وما بعدها، مورد اللطافة لابن تغري بردي ٤٢-٤٤، الأعلام ٥/٣٠٣، نزهة الأساطين ص ٧٩ . بالإضافة إلى الكتب التي تناولته هو وأولاده بالتفصيل كتذكرة النبيه في أيام المنصور وبنه لابن حبيب .

(٣) البيمارستان المنصوري: شرع في بنائه - بخط بين القصرين من القاهرة - أول ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وفرغ منه في أقل من السنة، ورتب المنصور فيه العقاقير والأطباء وسائر ما يحتاج إليه من به مرض من الأمراض وجعل فيه الأسرة المفروشة بالفرش المحتاج إليها في المرض، مفرداً لكل طائفة من المرضى موضعاً، فضلاً عن قاعة لإلقاء الدروس على الأطباء وطلبة العلم . . وقد وقف عليه من الأملاك ما يقارب ربعها في السنة مليون درهم وجعله وقفاً على الملك والمملوك، والجندي والأمير، والكبير والصغير، والحر والعبد، والذكور والإناث . ينظر: الخطط للمقريزي ٢/٤٠٦ - ٤٠٨، وتشريف الأيام والعصور ص ٥٥ - ٥٧، ابن الفرات ٧/٢٧٨، بدائع الزهور ١/٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٤) في نزهة الأساطين ص ٨٠ «إحدى عشرة سنة وثلاثة شهور ونصف» . وفي الجواهر الثمين «إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وستة أيام» .

ثم تولى الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون^(١)

تسلطن بعد موت أبيه، واستمر إلى أن خرج من القاهرة في أوائل المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة. وتوجه إلى البحيرة للصيد، فلما كان بتروجة يوم السبت ثاني عشر محرم الحرام وقت العصر حضر إليه نائب السلطنة الأمير بیدار ومعه جماعة من الأمراء، وكان الأشرف قد أمره بكرة النهار أن يمضي بالدھليز والعساكر إلى جهة القاهرة، وبقي الأشرف وأمير شكار يتصيدان، فأحاطوا به وليس معه إلا شهاب الدين بن الأشهل أمير شكار المذكور، فابتدر الأشرف بیدار وضربه بالسيف فقطع يديه، ثم ضربه حسام الدين لاجين على كتفه فحلها، فصاح لاجين على بیدار: من يريد الملك تكون هذي ضربته؟! فسقط الأشرف عن فرسه ولم يكن معه سيف بل كان في وسطه بند مشدود، ثم جاء الأمير بهادر رأس نوبة فأدخل السيف من أسفله وشق به إلى حلقه وتركه طريقاً في البرية، واتفقوا على بیدار وحلفوا له ومشوا تحت العصائب السلطانية يريدون القاهرة ولقبوه بالملك الأوحـد، وبات تلك الليلة وأصبح يسير إلى القاهرة، فلما ارتفع النهار إذا بجمع عظيم قد أقبل فيه الأمير كتبغا المنصوري، والأمير حسام الدين الأستاذار، وغيرهما، يطلبون بیدار بدم أستاذهم الأشرف خليل، فالتقوا فانكسر بیدار وقتل، وحملت الأشرفية رأسه على رمح، وعادوا إلى القاهرة، واتفقوا على سلطنة أخيه محمد بن قلاوون، فكانت مدته ثلاث سنين وشهرين^(٢)، وقتل سنة ثلاث وتسعين وستمائة.

ثم تولى الملك الناصر محمد^(٣)

أخو الأشرف المذكور .

بويـع بعد قتل أخيه في العام المذكور، وعمره تسع سنين، وهذه سلطنته الأولى، واستقر نائبه في السلطنة الأمير كتبغا المنصوري، وفي الوزارة علم الدين سنجر

(١) ينظر ترجمته في: فوات الوفيات ١/١٥١، تاريخ ابن الوردي ٢/٢٣٨، النجوم الزاهرة ٨/٣، السلوك للمقرئ ١/٧٥٦، بدائع الزهور ١/١٢١، نزهة الأساطين ص ٨١، الأعلام ٢/٣٢١، كنز الدرر ٨/٣٠٠، دول الإسلام ٢/١٨٩، العبر للذهبي ٥/٣٦٠، البداية والنهاية ١٣/٣٧٣، تاريخ ابن الفرات ٨/١٠١، الخطط ٢/٢٣٨، تذكرة النبيه ١/١٣٧، الجواهر الثمين ٢/١٠٨ .

(٢) في خطط المقرئ ٢/٢٣٩: «ثلاث سنين وشهرين وأربعة أيام» .

(٣) ينظر ترجمته في: الجواهر الثمين ٢/١٧١، كنز الدرر ٨/٣٥٢، العبر للذهبي ٥/٣٨٠ =

الشجاعي مضافاً للأستدارية وتدير الدولة، ثم قبض الناصر على جماعة من الأتراك الذين اتفقوا على قتل أخيه، ثم أمسكه كتبغا الشجاعي لما بلغه أنه يريد الفتك به وقتله بعض أصحاب كتبغا المنصوري صبراً، واستبد كتبغا بأمر المملكة لصغر سن الناصر، ثم بدا له أن يخلعه ويتسلطن عوضه، فاتفق مع أكابر الأمراء على ذلك فوافقوه، وخلعوا الناصر في الحادي والعشرين^(١) من المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة، وسلطنوا :

كتبغا^(٢)

ولقبوه بالعدل. وكانت مدة الناصر هذه الأولى نحو السنة. ثم جهز كتبغا الناصر إلى الكرك بعد أن قال له: لو علمت أنهم: يُخلون لك الملك والله لتركته، ولكنهم لا يخلونه لك، وأنا مملوكك، ومملوك والدك أحفظ لك الملك، وأنت الآن تروح إلى الكرك إلى أن تترعرع وتجرب الأمور فتعود إلى ملكك، بشرط أنك تعطيني دمشق أكون بها مثل صاحب « حماه »، فوافقه على ذلك، فأقام كتبغا سنتين^(٣)، ثم هرب إلى الشام سنة ست وتسعين وستمائة.

ثم تولى الملك المنصور حسام الدين لاجين^(٤)

الذي كان نائباً عن كتبغا، فأقام سنتين وشهراً ونصفاً^(٥)، وقتل في القلعة سنة ثمان وتسعين وستمائة.

= تاريخ ابن الفرات ١٧٢/٨، النجوم الزاهرة ٤١/٨، بدائع الزهور ٣٧٨/١، نزهة الأساطين ص ٨٤، مورد اللطافة ص ٤٤، تاريخ ابن الوردي ٢٣٠/٢، فوات الوفيات ٢٦٣/٢، الدرر الكامنة ١٤٤/٤، السلوك ٨٧٢/١ و ٧٣/٢، الأعلام ١١/٧.

(١) في نزهة الأساطين ص ٨٥ «حادي عشر» .
(٢) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ٨٩، الخطط للمقريزي ٢٣٨/٢، النجوم الزاهرة ٨/٥٥، بدائع الزهور ١٣٣/١، السلوك ٨٠٦/١ و ٨٢٠ و ٨٢٦، فوات الوفيات ١٣٨/٢، الأعلام ٢١٩/٥، الجوهر الثمين ١٢٠/٢.

(٣) في الجوهر الثمين لابن دقماق ١٢٠/٢ «سنة وأحد عشر شهراً وعشرين يوماً» وفي نزهة الأساطين ص ٨٩ - ٩٠ «سنتين وسبعة عشر يوماً» .

(٤) ينظر ترجمته في: الخطط للمقريزي ٢٣٩/٢، النجوم الزاهرة ٨/٨٥، الجوهر الثمين ٢/١٢٢، العبر ٣٨٠/٥ وما بعدها، البداية والنهاية ٣/١٤، السلوك ٨٥٠/١ وما بعدها، بدائع الزهور ٣٩٥/١ وما بعدها، نزهة الأساطين ص ٩١ - ٩٢، تذكرة النبيه ١٩٥/١، كنز الدرر ٣٨٠/٨، مورد اللطافة ص ٤٩، الأعلام ٢٣٨/٥.

(٥) في الجوهر الثمين لابن دقماق ١٢٦/٢ «كانت دولته سنتين وثلاثة أشهر» .

ثم عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون

إلى السلطنة ثانيًا^(١)، وفيه يقول الوداعي : [من السريع]
 أَلَمَلِكِ النَّاصِرُ قَدْ أَقْبَلَتْ دَوْلَتُهُ مُشْرِقَةَ الشَّمْسِ
 عَادَ إِلَى كُرْسِيِّهِ مِثْلَ مَا عَادَ سُلَيْمَانُ إِلَى الْكُرْسِيِّ
 واستمر إلى أن تجهز لقتال التتار، فانكسر فرجع إلى مصر، ثم تجهز للقائهم
 أيضًا فكسرهم وهزمهم، ونصر الله الإسلام وأهله، ثم عاد إلى مصر فتنكر عليه
 صاحب « سلال » وأستاداره بيبرس الجاشنكير، ودام ذلك التكدر بينهم إلى أن
 أظهر في رمضان سنة ثمان وسبعمائة التوجه إلى الحجاز، وخرج من القاهرة،
 وتوجه إلى « الكرك » متبرمًا منهما، وأعرض عن ملك مصر، فروجع في ذلك
 فأبى، فكانت مدته عشرين سنة، فاتفق الأمراء على سلطنة بيبرس الجاشنكير
 وسلطونه، فتسلطن:

بيبرس الجاشنكير^(٢)

ولقبوه بالملك المظفر. تسلطن عام ثمان وسبعمائة بعد خلع الناصر محمد بن
 قلاوون، وعيب به في الإرسال إلى الكرك، وتطلب الأموال منه، حتى إن الناصر
 تأدب معه في المكاتبات وكتب له الملك المظفر وهو لم يرجع عنه، فلما زاد عليه
 تحرك عليه، وكانت ممالك أبيه النواب بالديار الشامية كلهم معه - ما عدا الأفرم
 فإنه كان من أعوان الجاشنكير - فأجابوه بالسمع والطاعة، فتوجه إلى الجاشنكير
 المذكور فجب عن لقائه لتغير ممالكه وجماعته عليه، ثم تسحب من قلعة الجبل
 والعامّة من خلفه تؤذيه وتريد به شرًا حتى شغلهم بنثر الذهب عليهم، وتوجه هاربًا
 إلى الصعيد واستولى الناصر على البلد، ثم احتال على قبضه وإحضاره فخنقه بالوتر
 ثم أطلقه وسمه، ثم خنقه ثانيًا هكذا، إلى أن مات في شوال سنة تسع وسبعمائة،

(١) عاد إلى السلطنة للمرة الثانية في يوم الاثنين جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وستمائة، ثم
 خلع في سنة ثمان وسبعمائة . ينظر: نزهة الأساطين ص ٨٦ .

(٢) ينظر ترجمته في: الجوهر الثمين ١٣٩/٢، خطط المقرئ ٤١٧/٢، نزهة الأساطين
 ص ٩٣، النجوم الزاهرة ٢٣٢/٨ - ٢٧٦، السلوك ٤٥/٢ - ٧١ ثم ٨٠، الأعلام ٧٩/٢ -
 ٨٠، الوافي بالوفيات ٣٤٨/١٠ .

فكانت مدة دولته سنة^(١)، وفي ذلك يقول بعضهم: [من الوافر]
تَنَتَّى عَطْفُ مِصْرَ حِينَ وَافَى قَدُومُ النَّاصِرِ الْمَلِكِ الْخَبِيرِ
فَدَلَّ الْجَشْنَكَيرِ بِلَا لِقَاءٍ وَأَضْبَحَ وَهُوَ ذُو جَاشٍ نَكِيرِ
إِذَا لَمْ تَتَضدِ الْأَقْدَارُ شَخْصًا فَأَوَّلُ مَا يُرَاعَى مِنَ النَّصِيرِ
وهو الذي بنى « البيبرسية »^(٢) بالدرب الأصفر.

وهذه هي المرة الثالثة^(٣) لعود السلطان الناصر محمد إلى الملك، فدام في السلطنة ثلاثة وثلاثين عامًا بعد بيبرس المذكور، وعظم أمره جدًا وعمر العمائر الهائلة، حتى إنه صار أجل سلاطين مصر من جميع الوجوه، واستمر إلى أن مات يوم الأربعاء عشري ذي الحجة الحرام سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وتسلم من ولده لصلبه ثمانية نفر، وكانت مدة ولايته في المرات الثلاث أربعًا وأربعين سنة وخمسة عشر يومًا.

ثم تولى الأشرف على كجك بن محمد الناصر بن قلاوون^(٤)

تسلطن بعد قتل أخيه، وكان قوصون إذا حضرت العلامة يأخذ القلم بيده، ويجعله في يد الأشرف حتى يعلم على المناشير، واضطربت الأحوال ووقع التعصب على قوصون في الخاصة والعامة؛ لقبح سيرته معهم، فقتلوه ونهبوا داره وخلعوا كجك في يوم الإثنين عاشر شوال سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة بأخيه أحمد ابن الناصر محمد بن قلاوون، وحبس كجك بقلعة الجبل إلى أن مات في سلطنة أخيه الآخر، وهو الملك الكامل سنة ست وأربعين وسبعمائة.

(١) في نزهة الأساطين ص ٩٤ «كانت مدته أحد عشر شهرًا» .

(٢) وهى الخانقاه البيبرسية: بناها قبل أن يلى السلطة سنة ست وسبعمائة للهجرة واكتملت فى السنة التالية لها . راجع بشأنها: خطط المقرئى ٤١٦/٢ - ٤١٨ .

(٣) كان ذلك فى يوم الخميس ثانى شوال سنة تسع وسبعمائة . ينظر نزهة الأساطين ص ٨٧ .

(٤) تولى «كجك» السلطنة بعد خلع أخيه المنصور أبى بكر محمد بن قلاوون - الذى تولى فى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وخلع فى شهر صفر سنة اثنين وأربعين وسبعمائة فكانت مدة شهرين - وهذا ما لم يذكره مؤرخنا .

ينظر ترجمة الأشرف كجك فى: نزهة الأساطين ص ٩٦، بدائع الزهور ٤٩١/١، المخطط ٢٣٩/٢، النجوم الزاهرة ٢١/١٠، السلوك ٥٧١/٢، الجوهر الثمين ١٧٨/٢، تاريخ الملك الناصر للشجاعى ص ١٩١، الدرر الكامنة ٢٦٥/٣، البداية والنهاية ١٤/١٩٢-١٩٤، الأعلام ٢٢٠/٥ .

ثم تولى الملك الناصر أحمد بن قلاوون^(١)

تسلطن بعد خلع أخيه كجك^(٢)، واستمر إلى أن اختار ترك ملك مصر، وعاد إلى الكرك وأخذ الأموال والذخائر بعد أن ظلم وتعسف، فطلبوه للملك مراراً وهو ممتنع متعذر، وترد أجوبته بخط كاتب نصراني كان مقرباً عنده، فخلعوه بأخيه الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون، وأجلس على تخت الملك يوم الخميس ثاني عشر محرم الحرام سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فكانت مدته دون الأربعة أشهر، فجهز إليه أخوه الملك الصالح الجيوش مرة بعد أخرى، وحاصره بالكرك فلم يقدر الناصر أحمد على مقاومة الناصر إلى أن تلاشى أمر الناصر وهلك أهل الكرك من الجوع، وهو مع ذلك لا يمل ولا يكل من القتال والحصار، إلى أن قبض عليه يوم الإثنين وقت الظهر ثاني عشر صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة، وكتب بذلك إلى أخيه، فأرسل الملك منجك اليوسفي فحز رأسه، وتوجه به إليه إلى القاهرة.

ثم تولى الملك الصالح إسماعيل المذكور ابن محمد قلاوون^(٣)

تسلطن بعد توجه أخيه إلى الكرك، واستمر إلى أن مات في العشرين من ربيع الأول سنة ست وأربعين وسبعمائة، وكانت مدته ثلاث سنين وشهراً وثمانية عشر يوماً. وراثه الصفدي^(٤) بقوله: [من الطويل]

مَضَى الصَّالِحُ الْمَرْجُو لِلْبَأْسِ وَالنَّدَى وَمَنْ لَمْ يَزَلْ يَلْقَى الْمُنَى بِالْمَنَاحِ
فَيَا لَكَ مِصْرَ كَيْفَ خَالَكَ بَعْدَهُ إِذَا نَحْنُ أَتَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ !؟

(١) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ٩٧، تاريخ الملك الناصر ص ٢٠٤، الجواهر الثمين ١٧٩/٢، الخطط للمقريزي ٢/٢٤٠، السلوك ٢/٥٩٣، النجوم الزاهرة ١٠/٦٠، بدائع الزهور ١/٤٩٥، المنهل الصافي ٢/١٥٨، الدرر الكامنة ١/٢٩٤، البداية والنهاية ١٤/١٩٣ و ٢٠٢ و ٢٠٧ و ٢١٣، الأعلام ١/٢٢٣.

(٢) أشار ابن إلياس في (بدائع الزهور ١/٤٩١) إلى أن «كجك» لفظ أعجمي معناه بالعربية: «صغير» وقد تنبأ والده بأنه سيلى بعده الملك وهو صغير، والملوك لهم فراسة في الأمور.

(٣) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ٩٨، تاريخ الملك الناصر ص ٢٣١، الوافي بالوفيات ٩/٢١٩، الخطط ٢/٢٤٠، السلوك ٢/٦١٩، المنهل الصافي ٢/١٦٣ و ٤٢٦، النجوم الزاهرة ١٠/٧٨، الجواهر الثمين ٢/١٨٢، الدرر الكامنة ١/٣٨٠، البداية والنهاية ١٤/٢٠٢ - ٢١٦، بدائع الزهور ١/١٨١، الأعلام ١/٣٢٤.

(٤) الوافي بالوفيات ٩/٢٢٠.

ثم تولى الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون^(١)

تسلطن بعد موت أخيه الملك الصالح بعهد منه إليه بعد اختلاف من الأمراء في إقامته وإقامة أخيه حاجي، فاتفقوا عليه، وقال الأمير نائب السلطنة: بشرط أن لا يلعب بالحمام، فنقم عليه شعبان بعد أن تسلطن، وأخرجه إلى نيابة « صفد »، وكان جلوس الملك الكامل على سرير الملك يوم الخميس ثاني شهر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمئة، فقال فيه ابن نباتة المصري: [من مخلع البسيط]
 شَغْبَانُ سُلْطَانُنَا الْمُرْجَى مُبَارَكُ الطَّالِعِ الْبَدِيعِ
 يَا بَهْجَةَ الدُّهْرِ إِذْ تَبَدَّى هَلَالُ شَغْبَانَ فِي رَبِيعِ
 واستمر إلى أن خلعه الأمراء يوم الإثنين مستهل جمادى الآخرة سنة تسع وأربعين وسبعمئة بأخيه حاجي، فكانت مدته سنة واحدة وسبعة عشر يوماً^(٢).

قال الصفدي^(٣): حكى لي سيف الدين داود بن أرغون شاه قال: مَدَدْنَا السَّمَاطَ عَلَى أَنْ يَأْكُلَ الْمَلِكُ الْكَامِلَ، وَجَهَزْنَا طَعَامَ حَاجِي إِلَيْهِ فِي السَّجَنِ، فَخَرَجَ حَاجِي وَأَكَلَ عَلَى السَّمَاطِ وَدَخَلَ الْكَامِلُ السَّجْنَ، وَأَكَلَ الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ لِحَاجِي، وَقَلَّتْ فِي وَاقَعَتِهِ: [من السريع]

بَيْتُ قَلَاوُونِ مُعَادَاثُهُ فِي عَاجِلِ كَانَتْ بَلَا آجِلِ
 حَلٌّ عَلَى أَمْلَاكِهِ لِلرَّدَى ذَيْنَ قَدْ اسْتَوْفَاهُ بِالْكَامِلِ
 وقتل الكامل يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

ثم تولى حاجي^(٤)

ويقال: أمير الحاج ولقب بالملك المظفر. تسلطن بعد خلع أخيه الملك الكامل كما تقدم، واستمر إلى أن وقع بينه وبين الأمراء أشد المنافرة، وتفرقت عنه قلوب الناس، فخرج الأمراء بمن معهم إلى قبة النصر، فركب المظفر ومن معه إليهم،

(١) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ٩٩، الجواهر الثمين ١٨٥/٢، السلوك ٦٨٠/٢، النجوم الزاهرة ١١٦/١٠، الخطط ٢٤٠/٢، بدائع الزهور ١٨٣/١، البداية والنهاية ١٤/٢١٦ - ٢١٩، الدرر الكامنة ١٩١/٢، شذرات الذهب ١٥٠/٦، الأعلام ١٦٤/٣، الوافي بالوفيات ١٥٣/١٦.

(٢) في السلوك ٧١٣/٢، والنجوم الزاهرة ١٤٠/١٠ «أن مدته سنة وثمانية وخمسين يوماً».

(٣) ينظر: الوافي بالوفيات ١٥٥/١٦.

(٤) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٠٠، الدرر الكامنة ٣/٢، البداية والنهاية ٢١٩/١٤، =

فتفرق عنه أصحابه، فالتقاهم هو بنفسه فطعنه أمير يلبغا أمير مجلس فطرحه عن فرسه، وضربه الأمير طال برقه بالطبر من خلفه فجرح وجهه وأصابه، ثم ربطوه وأحضره إلى الأمير أرقطاي النائب ليقته، فلما رآه نزل عن فرسه ورمى عليه قباءه وقال: أعود بالله، هذا سلطان ابن سلطان ما أقتله، خذوه إلى القلعة، فأدخلوه إلى تربة هناك وقضى الله أمره فيه، وذلك في ثاني عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وكانت مدته سنة وثمانية أشهر واثني عشر يوماً^(١)، وكان أكبر أسباب عزله لعبه بالحمام، فقال الصفدي^(٢) رحمه الله تعالى في ذلك: [من الخفيف]
 أَيُّهَا الْعَالِمُ اللَّيْسِبُ تَفَكَّرْ فِي الْمَلِكِ الْمُظْفَرِ الضَّرْعَامِ
 كَمْ تَمَادَى فِي الْبَغْيِ وَالْغِيِّ حَتَّى كَانَ لَعْبُ الْحَمَامِ جِدَّ الْحِمَامِ

ثم تولى السلطان حسن بن محمد بن قلاوون^(٣) من أولاد الناصر محمد بن قلاوون

تسلطن بعد أخيه قبله، وكان اسمه قمارى، فلما جلس على سرير الملك سماه النائب قمارى، فقال له السلطان: يا عم ما اسمي إلا حسن، ما أنا مملوك، فقال النائب: المرسوم مرسومك يا خوند. واستمر في الملك إلى سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، ف وقعت بينه وبين الأمير طاز الناصري وحشة، فقام طاز في خلعه وسلطنة أخيه صالح فتم له ذلك، فأخذ السلطان حسن، وحبس بالدور من قلعة الجبل بعد أن خلع نفسه، وذلك في أوائل رجب من سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، وكانت

= بدائع الزهور ١/١٨٧، النجوم الزاهرة ١٠/١٤٨ - ١٧٤، الأعلام ٢/١٥٣، الخطط للمقريزى ٢/٢٤٠، الوافى بالوفيات ١١/٢٣٧، ذيل تذكرة الحفاظ ص ٣٨، الشذرات ٦/١٥٢، البدر الطالع ١/١٨٧.

(١) في نزهة الأساطين ص ١٠٠ «أن مدته - كانت - سنة ونحوًا من أربعة شهور» أما في السلوك للمقريزى ٢/٧٧٤ «فمدته - كانت - سنة وثلاثة أشهر واثني عشر يومًا».

(٢) ينظر الوافى بالوفيات (١١/٢٤٠).

(٣) ينظر ترجمته فى: نزهة الأساطين ص ١٠١، الدرر الكامنة ٢/٣٨، العقد الثمين ٤/١٨٠، النجوم الزاهرة ١٠/١٨٧، البداية والنهاية ١٤/٢٢٤، الوافى بالوفيات ١٢/٢٦٦، الجوهر الثمين ٢/١٩٥، الخطط ٢/٢٤٠، بدائع الزهور ١/١٩٠، ٢٠٢، الأعلام ٢/٢١٦، السلوك ٢/٧٤٥.

مدته ثلاث سنين وتسعة أشهر^(١).

ثم تولى الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون^(٢)

تسلطن بعد أخيه حسن، وصار مدبر مملكته الأمير أقي طاز، وليس للصالح فيها إلا الاسم فقط، إلى أن أخرج طاز الأمير شيخو اللال العمري الناصري من سجن الإسكندرية فبقي أمر المملكة إلى ثلاثة: شيخو أتابك العساكر، وهو أول من سمى بالأمير الكبير، ولبس لها خلعة فصارت الأتابكية وظيفه من يومئذ، والأمير طاز أمير مجلس^(٣)، والأمير صرغتمش رأس نوبة النوب، ونائب السلطنة إذ ذاك الأمير صلاي. واستمر الصالح إلى أن خلعه شيخو من السلطنة وأعاد حسن في يوم الإثنين ثاني شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة، فكانت مدة الصالح ثلاث سنين وثلاثة أشهر^(٤)، واحتفظ عليه بداره إلى أن توفي في ذي الحجة الحرام سنة إحدى وستين وسبعمائة.

وتولى أمر السلطان حسن وعظم شأنه إلى أن وقع بينه وبين غلامه مملوك يلغا العمري، فتحارباً فانكسر حسن إلى القلعة، فتبعه يلغا فهياً السلطان مماليكه للقتال فلم يجد لهم خيلاً لأن الخيل كانت في الربيع، فتزياً بغير زيه وهرب، فعرف وقبض عليه ولم يعلم ما وقع له، وكانت مدته هذه الثانية ست سنين وسبعة أشهر. والسلطان حسن هذا هو الذي بنى المدرسة التي بالرميلة بمصر، وهي من أحسن المدارس عالية البناء واسعة الفناء، ثم عمر لها عمارة بأربعة رءوس، وقد وصفها

(١) يشير مؤرخنا هنا إلى الفترة الأولى للسلطان حسن بن محمد بن قلاوون حيث إنه - نتيجة للخلاف بينه وبين الأمير طاز الناصري - خلع وتولى أخوه الملك الصالح صالح بن محمد ابن قلاوون. إلا أنه عاد للسلطنة للمرة الثانية سنة خمس وخمسين وسبعمائة. ينظر: نزهة الأساطين ص ١٠١ - ١٠٢.

(٢) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٠٤، الجواهر الثمين ١٩٩/٢، الخطط ٢٤٠/٢، السلوك ٨٤٣/٢، النجوم الزاهرة ٢٥٤/١٠، بدائع الزهور ١٩٤/١، البداية والنهاية ١٤/٢٣٩ - ٢٥١، الدرر الكامنة ٢٠٣/٢، الأعلام ١٩٥/٣، الوافي بالوفيات ٢٧٠/١٦.

(٣) أمير مجلس: هو الذي يتحدث على الأطباء والكحاليين ومن شاكلهم، ولا يكون إلا واحداً. ومن عمله أيضاً أنه يتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير في الترتيب وغيره.

ينظر: صبح الأعشى (١٨/٤)، و (٤٥٥/٥).

(٤) في نزهة الأساطين: أن مدته. ثلاث سنين وأربعة أشهر. ص ١٠٥.

المؤرخون وصفاً عجيباً^(١).

وقصة السلطان حسن مع الشيخ العلامة قوام الدين الأتقاني حين قال له السلطان: ما الفرق بينك وبين الحمار؟ فأجاب بقوله: هذه الوسادة، وقد كانت بينهما. وفي أيام السلطان حسن بنى شيخو جامع، وخانقاه، وبنى صرغتمش مدرسة، وقرر الشيخ قوام الدين في تدريسها، وكانت مدة تصرف السلطان حسن أولاً وثانياً عشر سنين وأربعة أشهر، ثم قتل بيد مملوكه يلغا سنة اثنتين وستين وسبعمائة.

ثم تولى محمد ابن الملك المظفر حاجي^(٢)

ويقال: أمير الحاج بن محمد بن قلاوون وتلقب بالملك المنصور، بويغ بعد قتل عمه حسن في العام المذكور، فأقام ستين وخمسة أشهر، ثم خلع فأقام بالقلعة محبوساً إلى أن مات سنة أربع وستين وسبعمائة.

ثم تولى الملك شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون^(٣)

ولقب بالملك الأشرف بعد ابن عمه قبله، إلا أن الأمور كلها بيد يلغا، وشاركه في ذلك طنبغا الطويل، فما زال يلغا وطنبغا حتى ظفر به وقبض عليه وظلم، فاتفق المماليك على قتله ففر، فاشتجاشوا بالسلطان شعبان عليه فوافقهم ونزل إلى بولاق وسلطن يلغا أيزك بن حسن أخا شعبان فلم يتم له ذلك، ثم انهزم يلغا فقتل، فأقام شعبان في الأتابكية بعده استدمر، وخلع عليه فأراد استدمر أن يحذو حذو يلغا في مشاركته السلطنة بعد أن سكن بالكبش فلم يوافق شعبان على شيء من ذلك، فأراد استدمر خلع شعبان وركب عليه، فانكسر استدمر ومسك وحبس، وفي ذلك يقول

(١) من ذلك قول المقرئ في الخطط (٣١٦/٢ - ٣٢٠) أنه لم يبن في الإسلام نظيرها، ولا حكاها معمار في حسن عملها، وينظر أيضاً: النجوم الزاهرة ٣٠٦/١٠.
(٢) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٠٦، الجواهر الثمين ٢١٦/٢، الخطط ٢٤٠/٢، السلوك ٦٥/٣، النجوم الزاهرة ٣/١١، بدائع الزهور ٢١١/١ و٢١٢، البداية والنهاية ٣١٨/١٤، الأعلام ٧٥/٦.

ويعتبر المنصور محمد بن حاجي بن محمد بن قلاوون هو أول من تسلطن من أحفاد الناصر محمد بن قلاوون.

(٣) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٠٨، بدائع الزهور ٢١٢/١، حسن المحاضرة ٢/١٠٤، الدرر الكامنة ١٩٠/٢، البداية والنهاية ٣٤٤/١٤، الأعلام ١٦٣/٣ - ١٦٤، السلوك ٨٣/٣، الجواهر الثمين ٢٤٠/٢، الخطط ٢٤٠/٢، النجوم الزاهرة ٦٧/١١، إنباء الغمر ١٠٣/١ - ١٠٤.

ابن العطار الشاعر: [من البسيط]

هَلَالٌ شَعْبَانٌ جَهْرًا لَاحَ فِي صَفَرٍ بِالنَّصْرِ حَتَّى أَرَى عِيدًا لَشَعْبَانَ
وَأَهْلُ كَبْشٍ كَأَهْلِ الْفِيلِ قَدْ أُخِذُوا رَجْمًا وَمَا انْتَطَحَتْ فِي الْكَبْشِ عِزَانِ
واستمر شعبان عظيم الشوكة إلى أن توجه للحج سنة ثمان وسبعين وسبعمئة،
وأقام جماعة في تدبير المملكة فاختلفوا عليه، وخلعوه في غييته، وسلطنوا ولده
عليًا وزعموا أن شعبان بالعقبة، وصادف قولهم هذا أن الأمراء الذين معه خرجوا
عليه بعقبة أيلة، وانهزم معهم وعاد إلى القاهرة واختفى في تربة عند قبة النصر، فبلغ
الأمراء الذين عصوه فأمسكوا غلامًا كان معه وضربوه فأقر، فتوجهوا إليه وقتلوه،
وقتلوا من معه من الأمراء، وكان قتله ليلة الثلاثاء خامس ذي القعدة سنة سبع
وسبعين وسبعمئة^(١).

قلت: ومن خيرات بناء منارة « الحزورة »، كما ذكره القطب وغيره، والعمود
المنقور عليه اسمه كان قريبًا منها .

فلما وقع الحريق بالمسجد -وعمر ذلك الجانب فرج بن برقوق ثاني ملوك
الشراكسة- نقل لا عن قصد، ووضع تحت منارة باب بنى سهم المعروف بباب
العمرة، فيظن الرائي ذلك التاريخ في العمود أن الإشارة فيه إليها لقرب مكانه منها،
وإنما هو لمنارة الحزورة وهي مؤرخة بعام اثنين وسبعين وسبعمئة.

وفي سنة ثلاث وسبعين وسبعمئة أحدثت العلامة الشطفة الخضراء على عمام
الشرفاء لتمييزوا بها، وكان ذلك بأمر هذا السلطان شعبان بن حسن بن الناصر محمد
ابن قلاوون المذكور، فقال في ذلك العلامة أبو عبد الله بن جابر الضرير النحوي
صاحب شرح الألفية المشهور بالأعمى والبصير رحمه الله تعالى: [من الكامل]
جَعَلُوا لِأَبْنَاءِ النَّبِيِّ عَلاَمَةً إِنَّ الْعَلَامَةَ شَأْنٌ مَنْ لَمْ يَشْهَرِ
نُورُ النَّبُوَّةِ فِي كَرِيمٍ وَجُوهِهِمْ يُغْنِي الشَّرِيفَ عَنِ الطَّرَازِ الْأَخْضَرِ
وفي هذه السنة كان ابتداء خروج الطاغية تيمورلنك، الذي خرب البلاد وأباد
العباد، فكان تاريخ خروجه عذاب وذلك سنة ٧٧٣، واستمر يعثو في الأرض
بالفساد إلى أن أهلكه الله في ليلة الأربعاء سابع عشر شعبان سنة سبع وثمانمئة،

(١) في نزهة الأساطين ص (١٠٩) «أنه مات مقتولاً في سنة ثمان وسبعين وسبعمئة» .

وسياتي ذكره عند ذكر ملوك آل عثمان في الباب السابع إن شاء الله تعالى .

ثم تولى بعده ولده علي بن الأشرف شعبان^(١)

وتلقب بالملك المنصور في عام السبع والسبعين والسبعمئة المذكور

تسلطن بعد والده وهو ابن سبع سنين ، واستمر إلى أن مات في يوم الأحد ثالث عشر صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمئة ، وكانت مدته خمسة أعوام وخمسة أشهر^(٢) وله من العمر ثلاثة عشر عامًا .

ثم تولى أخوه حاجي بن شعبان الأشرف^(٣)

وتلقب بالملك الصالح بعد موته في عام ثلاث وثمانين ، فدام سلطانه عامًا كاملاً وأشهرًا^(٤) ، وكان سنه ست سنين والكلام لبرقوق ، ثم خلعه برقوق بعد إلزام له من الأمراء لما وقع من الفتن ، وتسلطن برقوق يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين ، ثم إن برقوقا جعل حاجي بن الأشرف شعبان بعد خلعه في قلعة الجبل كما هي عادة أولاد السلاطين ، فاستمر إلى سنة خمس وثمانين ، فثار على برقوق يلبغا الناصري فخلعه ، وأعاد حاجي إلى الملك ، فتسلطن ثانيًا^(٥) ، واستمر إلى أن حف به منطاش ، واستعان به على حرب برقوق بعد أن أطلق من حبس الكرك ، فتوجه حاجي معه لقتال برقوق ، فانتصر عليهما ومعهما الخليفة العباسي ، فقتل منطاش ، وأمسك حاجي إلى أن دخل به إلى القلعة بمصر ، وفرش له الحرير ليمشي عليه فعزل نفسه ، ثم جعله بداره بقلعة الجبل مبعلاً إلى أن مات في ليلة الأربعاء تاسع عشر شوال سنة أربع عشرة وثمانمئة ، فكانت مدته الثانية هذه سبعة أعوام ونحو ستة

(١) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١١٠ ، الخطط للمقريزي ٢/ ٢٤٠ ، السلوك ٣/ ٢٨٤ ، تاريخ ابن قاضي شهبة ١/ ٦٠ ، إنباء الغمر ١/ ٢٣٢ ، الدليل الشافى ١/ ٤٥٧ ، ابن إياس ١/ ٢٣٨ ، الأعلام ٤/ ٢٩٣ .

وهو أول سلطان من أولاد أولاد الناصر محمد بن قلاوون .

(٢) في نزهة الأساطين ص ١١٠ أن مدته كانت «خمس سنين وثلاثة أشهر وخمسة عشر يومًا» .
(٣) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١١١ ، الخطط للمقريزي ٢/ ٢٤٠ ، السلوك ٣/ ٤٣٩ ، النجوم الزاهرة ١١/ ٢٠٦ ، تاريخ ابن قاضي شهبة ١/ ٨٦ ، إنباء الغمر ١/ ٢٥٧ ، الجواهر الثمين ٢/ ٢٥٩ ، ابن إياس ١/ ٢٥٥ و ٢٥٧ و ٢٧٤ ، الأعلام ٢/ ١٣ .

(٤) في الخطط للمقريزي ٢/ ٢٤٠ «فكانت مدته ستة وشهرين يتقصان أربعة أيام» .

(٥) كان ذلك - كما أشار ابن دقماق - «يوم الثلاثاء» سادس جمادى الآخرة ، سنة إحدى وتسعين وسبعمئة للهجرة ينظر: الجواهر الثمين ٢/ ٢٧٣ .

عشر يومًا.

وبعزل الصالح نفسه كما ذكر انقضت الدولة التركية، وأقبلت الدولة الشركسية وكانت مدتهم مائة وأربعًا وثلاثين سنة، وعدة ملوكهم خمسة وعشرين ملكًا، والملك لله الذي لا يزول ملكه ولا يتحول .

* * *

الباب السادس

في ذكر الدولة الشركسية^(١) بمصر والشام وأعمالهما

اعلم أن الشراكسة جنس من الترك في جنوب الأرض لهم مدائن عامرة، ولهم جمال ومزارع يرعون ويزرعون، وهم تابعون لسلطان سراي قاعدة ملك «خوارزم»، وملوك هذه الطوائف لملك سراي كالرعية يقاتلونهم، ويسبون منهم النساء والأولاد ويجلبونهم إلى أطراف البلاد والأقاليم، وكان الملك المنصور قلاوون الذي هو من ملوك الأتراك صاحب مصر قد استكثر من شراء المماليك الشركسية وكذلك أولاده وأولادهم، وأدخلوهم في الخدم الخاصة وصاروا سلحدارية وجمدارية وجاشنكيرية، وكبروا عمائمهم وسلكوا طرائق أستاذيهم ملوك الترك وأدخلوا السلطنة وغلبوا عليها واستكثروا من جنسهم وعملوا قواعد انتظمت بها دولتهم وولي منهم ومن أولادهم السلطنة بمصر اثنان وعشرون ملكا. وكان ابتداء ملكهم سنة أربع وثمانين وسبعمائة، ومدة ملكهم مائة وثمانية وثلاثون سنة. فأولهم:

السلطان الملك الظاهر سيف الدين^(٢)

أبو سعيد برقوق بن أنص العثماني. كذا ذكره المقرئ في خطه

قام بدولة الشراكسة، جلبه عثمان بن مسافر فلذلك يقال له : برقوق العثماني، فاشتره الأتابك يلبغا العمري، وهو من جملة الأتراك الذين مسهم الرق ممالك بني أيوب، وإنما سمي برقوق؛ لجحوظ في عينيه، وتقلبت به الأحوال إلى أن صار أمير

(١) سُميت دولة الشراكسة أو «الجراكسة» بهذا الاسم لأن مؤسسها الأمير «برقوق» من أصل جركسى، وجميع سلاطينها من أصل جركسى ما عدا اثنين هما «خشددم» و «تمريغا» كانا من أصل يوناني. ينظر: العصر المماليكي في مصر والشام د. سعيد عاشور ص ١٥١ وما بعدها، «الدولة المملوكية الثانية» د. محمد مصطفى زيادة، قيام دولة المماليك الثانية د. حكيم أمين عبد السيد، الحركة العلمية في دولة المماليك الجراكسة د. محمد كمال الدين عز الدين، الخطط للمقرئ ٢/٢٤١، النجوم الزاهرة ١١/٢٢١، نزهة الأساطين ص ١١٥.

(٢) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١١٥، الجواهر الثمين ٢/٢٦١، الخطط ٢/٢٤١، السلوك ٣/٤٧٧، تاريخ ابن قاضي شهبة ١/٨٦، إنباء الغمر ٢/٦٦، الدليل الشافي ١/١٨٨، المنهل الصافي ٣/٢٨٧، النجوم الزاهرة ١١/٢٢١، الضوء اللامع ٣/١١، بدائع الزهور ١/٢٥٨ و ٢٩٠، الأعلام ٢/٤٨، ديوان الإسلام ١/٢٠٢، درة الحجال (ت ٣١٤).

(٣) ينظر الخطط للمقرئ ٢/٢٤١.

مائة مقدم ألف، وكان أتابكًا للملك الصالح حاجي بن الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر بن محمد قلاوون، وهو الرابع والعشرون من ملوك الأتراك مماليك الأيووية المتغلبيين عليهم، وكان إذ ذاك سن الملك الصالح حاجي لما ولي السلطنة عشرة أعوام، وليس له من السلطنة إلا الاسم، فألزم الأمراء برقوق بخلع الملك الصالح حاجي وبتوليته السلطنة بدله، فخلع بعد سنة ونصف كما تقدم، وذلك يوم الأربعاء التاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة.

وكان برقوق متمكنًا من المملكة جمع الأموال والخزائن، واشترى المماليك الشركسية، فتمكنت من الملك، وتلاعبت بعده المماليك الشركسية بملك مصر، وصاروا ملوكها وسلاطينها بالقوة والغلب والاستيلاء، وكانت تقع بينهم فتن وجدال وجلاد، وقتل نفوس، وحرب بسوس، وخوف وبؤس، إلى أن يستقر الأمر لواحد منهم فيركب في شعار السلطنة.

وكان من شعار سلاطينهم عمامة كبيرة ملفوفة مكلفة يجعلون في مقدمها ويميناها ويسارها شكل ستة قرون بارزة من نفس العمامة ملفوفة من نفس الشاش، يلبسها السلطان في موكبها وديوانه وذلك عرف لهم، والعرف يحسن ويقبح، ويلبس قفطانًا يكون على كفه قطعة طراز مزركش بالذهب ومثله على كتفه الأيسر.

ويلبسه الأمراء أيضًا، فليس مخصوصًا بالسلطان، ويخلع بمثل هذا القفطان على من أراد، وتحمل على رأس السلطان قبة صغيرة لطيفة كالجسر في وسطها صورة طير صغير يظلل السلطان بتلك القبة، والذي يحملها على رأس السلطان هو أمير كبير وظيفته أن يصير سلطانًا بعد ذلك.

وأكابر أمراءه أربعة وعشرون أميرًا بطليخانة^(١) تضرب على أبوابهم صباحًا وعصرًا

(١) أمراء الطليخانة: تدل هذه التسمية على أنه كان عملهم دق الطبول وغيرها من الآلات الموسيقية في المواكب الرسمية أو في الأمور الهامة. وهذا التميز للقواد بدق الطبل تشريفًا لهم، عرف من قبل في العراق زمن البويهيين، فهم بمثابة أصحاب القضب في عهد الفاطميين، وسماوا بذلك لحملهم القضب في أيديهم. وقد سمي أمراء الطليخانات بعدد المماليك الذين يملكونهم - وهم أقل مما يملكه أمراء المئين - فسموا بأمراء ثمانين وسبعين، وأقلهم أمراء أربعين، فهذا الرقم هو أدناها. ومع أن المؤرخين لا يذكرون عدد الجنود تحت قيادتهم إلا أنه ولا ريب كانت تحت أيديهم أجناد أقل في العدد من الأجناد، التي تحت قيادة أمراء الألوف. وعلى هذا فأمراء الطليخانات كانوا تحت قيادة أمراء الألوف. وقد كان عدد =

كل واحد منهم أمير بابه مقدم ألف بمنزلة البيكلاريكية عندهم، ودونهم أمير عشرة^(١) مقدم مائة بمنزلة السنجق^(٢)، كل واحد منهم عمامة بقرنين فقط، ودونهم الخاصكية^(٣) يكون له فرس، وخادم، وعلى رأسه زنط عليه عمامة بعذبة يديرها تحت حنكه، ودونهم - وهم المشاة - على رءوسهم طواقٍ من جوخ أحمر ضيق مدخله واسع آخره لاطئ برأسه، وملبوس أكثرهم اللطأة البيضاء المصقولة يكون على كتفيه طرازان من مخمل وأطلس مزركش، وفي أوساطهم شذود بيض مصقولة يشدونها ويسدلونها، ويسدلون أطرافها إلى أنصاف سوقهم، وكأن خيال السلطنة في دماغ كل واحد منهم من حين يُجلب إلى السوق إلى أن يموت.

حتى إن واحداً منهم جلب، وهو حقير فاحش القرعة فاحش العرج، قال للدلال الذي يبيعه: هل اتفق تولي الأقرع الأعرج سلطاناً في مصر؟ وبالجملة فقد كانت

= أمراء الطبلخانات في الجيش أو الوظائف أكثر من عدد أمراء الألوف، فهم أربعون أو ثلاثون أميراً. ينظر: صبح الأعشى (٣/٤٨٠)، (٤/١٥ و ٦١)، النجوم الزاهرة (٦/٦٤٤).
(١) أمراء العشرات أو العشراوات: تسمى وظيفتهم أمريات عشرة، ليس لهم الحق في دق الطبول تشريفاً لهم، وكان لكل أمير من هؤلاء عشرة ممالك خاصة به، وقد يكون تحت إمرته أكثر كعشرين مثلاً: فيسمون أمراء العشرينات أو أقل مثل خمسة، فيسمون أمراء الخمسات أو الخمسوات. وهؤلاء الأمراء معظمهم من أبناء الأمراء المقدمين أو الطبلخانات تقديراً لخدمات آبائهم. وقد وصل عددهم في الجيش إلى عشرين أميراً من أمراء العشرينات وخمسين من أمراء العشرات وثلاثين من الخمسوات. ولا ريب أن عدد الأجناد تحت قيادتهم أقل من عدد الأجناد تحت قيادة فتى أمراء الممالك السابقين. ينظر: صبح الأعشى (٤/١٥)، والخطط (٣/٣٥٠)، وبدائع الزهور (٢/٢٥)، والسلوك (٢/٣١٤).
(٢) السنجق: لفظ تركي يطلق في الأصل على الرمح، والجمع سناجق، وهي رايات صفر صغار يحملها السنجدار. ويظهر أن العادة كانت أن يركب السلطان في المواكب زمن السلم بالسناجق فقط. أما مواكب الحرب فكان سير السلطان فيها بالأعلام، ومنها السناجق. ثم راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقابه واسمه وتسمى العصاية ثم راية أخرى عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش ويتولى أمر هذه الأعلام كلها الأمير علم. ينظر: صبح الأعشى (٤/٨) و (٥/٤٥٦ و ٤٥٨).

(٣) الخاصكية: هم الذين يلزمون السلطان في خلواته ويسوقون المحمل الشريف ويتعينون بكوامل الكفال ويجهزون في المهمات الشريفة والمتعينون للإمرة والمقربون في المملكة، وكان عدتهم في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكياً ثم ازدادوا على ذلك حتى صاروا في أيام الملك الأشرف برسباي نحو ألف ومنهم من هو صاحب وظيفة، ومنهم من لا وظيفة له. ينظر: زبدة كشف الممالك لابن شاهين الظاهري (ص ١١٦).

لهم سماحة وحماسة وصداقة لمن صادقوه، وكانت أرزاق مصر بأيديهم، وأهل مصر تتلاعب بهم فيما بيدهم من الأرزاق.

ثم لما تسلطن برقوق استمر سلطاناً، وأنشأ المدرسة التي بمصر بين القصرين^(١)، كان مشد عمارتها شركس الخليلي، ف قيل في ذلك العمل: [من البسيط]

قَدْ أَنْشَأَ الظَّاهِرُ السُّلْطَانُ مَدْرَسَةً فَأَقَتْ عَلَى إِرَمٍ فِي سُرْعَةِ الْعَمَلِ
يَكْفِي الْخَلِيلَ بِأَنْ جَاءَتْ لخدمته صُمَّ الْجِبَالِ لَهَا تَمْشِي عَلَى عَجَلٍ

فأقام سلطاناً إلى أن اختلف عليه الأمراء، فخرج عليه تمربغا الأفضلي وبلغا العمري فجُهِزَ عليهما عساكر فكسر، وقوى أمرهما وملكاً مصر، فإن برقوقاً عجز عن النهوض وقبض عليه، فأخرج حاجي من دور القلعة وأعيد إلى السلطنة، وحبس برقوق بالكرك ثم تسحب من الحبس، وجمع الجيوش، وقاتل وغلب على المملكة، وأعيد إلى السلطنة، وصار يتبع أعداءه ومن خرج عليه، ويقدم من وافقه وحالفه إلى أن اصطفاهم وما صفا له الزمان، وظن أنه آمن وأين الأمان، وبرق برق الزيال على برقوق وشاهد الانفصال، فعهد بالسلطنة إلى ولده الناصر فرج، وتوفى إلى رحمة الله تعالى ليلة الجمعة وقت التسبيح منتصف شوال سنة واحد وثمانمائة، وفي ذلك يقول أحمد المقرئ رحمه الله تعالى: [من الطويل]

مَضَى الظَّاهِرُ السُّلْطَانُ أَكْرَمَ مَالِكٍ إِلَى رَبِّهِ يَرْقَى إِلَى الْخُلْدِ فِي الدَّرَجِ
وَقَالُوا سَتَأْتِي شِدَّةٌ بَعْدَ مَوْتِهِ فَأَكْذَبَهُمْ رَبِّي وَمَا جَا سِوَى فَرْجِ

وخلف برقوق من الذهب العين ألفي ألف دينار وأربعمائة ألف دينار، ومن الخيل المسومة والبغال الفارسة ستة آلاف، ومن الجمال خمسة آلاف، وكان عليق دوابه كل شهر أحد عشر ألف أردب شعير وفول، وكانت مدة تصرفه ست عشرة سنة وأربعة أشهر^(٢).

(١) ينظر: الجواهر الثمين ٢/٢٦٥، السلوك ٣/٥٤٦، تاريخ قاضي شهبة ٣/١٨٣ - ١٨٥، إنباء الغمر ١/٣١٣، المنهل الصافي ٣/٢٨٨، النجوم الزاهرة ١١/٢٤٠، الضوء اللامع ٣/١٢.

(٢) في نزهة الأساطين ص ١١٩ « ست عشرة سنة وأياماً ».

ثم تولى ابنه الملك الناصر^(١)

أبو السعادات فرج بن برقوق عند وفاة أبيه كما تقدم، صبيحة يوم الجمعة منتصف شوال سنة ثمانمائة وواحدة، وصار الأمير أيتمش مدبر مملكته، والأمير يشبك خازن داره، فوقعت بينهما منافرات أدت إلى مشاجرة، ثم إلى قتال، فانكسر أيتمش، فهرب إلى نائب الشام وجيش جيوشاً على الناصر ويشبك، فخرج الناصر لقتالهم فهزمهم، واضطربت أحوال مصر؛ لاختلاف الكلمة.

ثم وصل تيمورلنك إلى بلاد الشام، وأخذها من سردون الظاهري، فخرج إليه الناصر فرج فوجده قد توجه إلى بلاد الروم، فأعطى الشام لتغري بردي، وعاد إلى مصر سنة ثلاث وثمانمائة.

ومن خيرات فرج: تعميره المسجد الحرام من الحريق الواقع به ليلة السبت لليلتين بقيتا من شوال سنة ثمانمائة واثنين، وسببه ظهور نار من رباط راشت الملاصق لباب الحزورة من أبواب المسجد في الجانب الغربي منه، وراشت هو الشيخ أبو القاسم إبراهيم بن الحسين الفارسي، وقف هذا الرباط على الرجال الصوفية أصحاب المرقعات في سنة ٥٢٩ خمسمائة وتسع وعشرين، فوشت النار من سراج تركه في الخلوة، فاحترق ما في الخلوة وعلق الحريق من شبك الخلوة إلى سقف المسجد فاشتعل سقف المسجد، وعجزوا عن إطفائه، لارتفاع السقف فاحترقت الأروقة من ابتداء الحريق إلى باب العجلة، فأرسل فرج الأمير ييسق سنة ثمانمائة وثلاث إلى مكة، وكان هو أمير الحاج المصري، فعمر المسجد الحرام في مدة يسيرة، وكملت في أواخر شعبان سنة أربع وثمانمائة.

ومن جملة خيراته: أنه لما رأى رباط راشت وما آل إليه بعد الحريق من الخراب حتى صار سباطة بذلك المحل، أمر بإعادته رباطاً كما كان، وصرف عليه من ماله إلى أن عاد أحسن من الأول، ويسمى هذا الرباط الآن رباط الخاص، سببه أنه استأجره وعمره بعد تهدمه في أواسط القرن العاشر، والخاص من طائفة المباشرين

(١) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٢٠، الخطط ٢/٢٤١، إنباء الغمر ٢/٥٣٠، النجوم الزاهرة ١٢/١٦٨، السلوك ٣/٩٥٩، بدائع الزهور ١/٣١٧ و ٣٥٤ و ٣٥٧، الضوء اللامع ٦/١٦٨، الأعلام ٥/١٤٠.

في ديوان السلطان بمصر من خدمة السلطان جقمق العلائي ومن بعده، وكان هذا بيسق الأمير من أهل الخير رحمه الله.

ثم كثرت الفتن بمصر من الأمراء الظاهرية على فرج، إلى أن ضجر من ذلك وهرب من القلعة بعد العشاء ليلة الإثنين سادس ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة، فاختفى عند سعد الدين بن عرب أحد رءوس المباشرين فأخفاه عنده، فأصبح الأمراء فاقديه، فأقاموا في السلطنة أخاه الملك المنصور عبد العزيز بن برقوق^(١)، فتلاشت أمور المملكة لصغر سنه واختلاف الأمراء عليه، فظهر الناصر فرج بعد هروبه واختفائه وركب معه أمراء من مماليك أبيه، فأخذ القلعة في جمادى الآخرة سنة ثمانمائة وثمان ونفى أخويه عبد العزيز وإبراهيم إلى الإسكندرية فتوفيا بها، واتهم فرج بقتلها في سنة تسع وثمانمائة.

ثم صار الملك الناصر يتتبع أعداءه من الأمراء فيقتلهم واحداً بعد واحد، فتجمعوا عليه وخرجوا عن طاعته، وقاتلوه فهزمهم، وخرجوا إلى الشام فتبعهم وصاروا يمحرون به ويهربون عنه، ويتعبونه في طلبهم، إلى أن مل منه الخدم والأتباع فصادفوه في طلبهم بعد التعب والدأب، وهو ومن معه قد أتعبوا خيولهم في طلبهم من العشاء إلى الصباح وأشرفوا عليه. فحمل الناصر ومن معه وهم نفر قليل على أعدائه وهم متوفرون كثيرون، فمنعه أصحابه من هذه الحملة، وعلموا أنهم في قلة فلم يطعمهم وأطاع غروره وجهله، واغتر بشجاعته وظن أن لا يقابله أحد، فدارت عليه الدوائر، فما كان للناصر من قوة ولا ناصر. فأخذ وقيد، وحبس بقلعة دمشق إلى أن قتل بأيدي المشاعلية بالسكاكين في ليلة السبت منتصف صفر سنة خمس عشرة وثمانمائة وألقي بعد هذه القتل على سباطة مزيلة، وهو عريان عن اللباس تمر به الناس تنظر إلى ذلك البدن الممتهن والجسد العاري الممتحن، إلى أن عطف الله بعض الأنام بعد عدة أيام فحملة وغسله وكفنه وواراه في مقبرة باب الفرديس.

ووقع في أيام فرج بن برقوق المذكور أن سلطان كاله من سلاطين الهند وهو غياث الدين أعظم شاه بن إسكندر شاه أرسل إلى الحرمين الشريفين صدقة كبيرة مع

(١) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٢٣، النجوم الزاهرة ١٣/٤١، الضوء اللامع ٤/٢١٧، بدائع الزهور ١/٣٤٩ و٣٥١، الأعلام ٤/١٥٠. وكانت مدته شهرين وعشرة أيام.

خادمه ياقوت الغياثي؛ ليتصدق بها على أهل الحرمين، ويعمر له بمكة مدرسة ورباطًا ويوقف على ذلك جهات يصرف ريعها على أفعال البر كالتدريس ونحوه، وكان ذلك بإشارة وزيره خان جهان، فوصل ياقوت المذكور بأوراق سلطانية إلى مولانا الشريف حسن بن عجلان شريف مكة يومئذ مع هدايا جلييلة إليه فقبلها وأن يفعل ما أمر به السلطان غياث الدين، لكنه أخذ ثلث الصدقة على معتاده ومعتاد آبائه، ووزع الباقي على الفقهاء والعلماء والفقراء، فاشترى ياقوت الغياثي لعمارة المدرسة والرباط دارين متلاصقتين على باب أم هانئ، هدمهما وبناهما رباطًا ومدرسة، واشترى أصيلتين وأربع وجبات من ماء الريحاني، وجعلها وقفًا على المدرسة، وجعل لها أربعة مدرسين، واشترى دارًا مقابلة للمدرسة المذكورة بخمسماية مثقال ذهبًا ووقفها على مصالح الرباط، وأخذ منه السيد حسن بن عجلان في الدارين اللتين بناهما رباطًا ومدرسة والأصيلتين والأربع وجبات من قرار عين الريحاني اثني عشر ألف مثقال ذهبًا، وأخذ منه مبلغًا لا يعلم قدره كان جهزه معه سلطانه؛ لتعمير عين عرفة. فذكر مولانا أنه يصرف ذلك على عمارتها، فعين الشريف أحد قواده وهو الشهاب بركوت المكياني لتفقد عين بازان وإصلاحها وإصلاح البركتين وكانتا معطلتين فأصلحهما.

وكان خان جهان المذكور أرسل مع ياقوت الغياثي المذكور خادمًا له يسمى إقبال أرسله بصدقة أخرى من عنده لأهل المدينة، وجهز معه مالا يبنى له به مدرسة ورباطا وهدية لأمير المدينة يومئذ، وهو الأمير جماز الحسيني، فانكسرت السفينة التي بها الأموال بقرب جدة؛ فأخذ الشريف حسن ربع ما خرج من البحر على عادتهم في المكسر، وأخذ ما يتعلق بالأمير جماز؛ لأنه عصى وظهر منه شنائع في المدينة من أخذ مفتاح خزانة النبي ﷺ من قاضي المدينة جبرًا بعد إهانتة، وهو القاضي زين الدين أبو بكر بن الحسين المراغي، وضرب شيخ الخدام، وأخذ من خزانة النبي ﷺ إحدى عشرة خوشخانه وصندوقين كبيرين، وصندوقًا صغيرًا كلها ممهورة فيها ذهب مودعة لملوك العراق، وخمسة آلاف كفن أرادته، وأخذ قناديل الذهب من الحجرة فمنعه الله ورجمته العامة، فهرب من المدينة الشريفة، وأخذته الله، ونهب العرب كل ما معه، فأرسل مولانا الشريف حسن بن عجلان إلى المدينة عسكريًا

وصلوا إليها بعد خراب البصرة، فولى عليها الشريف حسن بن عجلان غير الحسيني المذكور، وكل ذلك سنة إحدى عشرة وثمانمائة.

ولما قتل الناصر فرج ما أقدم أحد من الشراكسة على التلبس بالسلطنة خوفاً من مخاصمة العسكر.

ثم ولى الخليفة العباسي (١)

ولؤه بالجبر، وهو المستعين بالله أبو الفضل العباسي المصري بعد تمنع شديد.

وكان القائم بتدبير المملكة الأمير شيخ المحمودي، فاستمر المستعين بالله ستة أشهر وأياماً^(٢) وخلع، وكان استتاب المؤيد شيخ، وشاركه في الخطبة والأمر للمؤيد.

ثم تولى الأمير شيخ المحمودي (٣)

وتلقب بالملك المؤيد في مستهل شعبان من السنة المذكورة سنة خمس عشرة وثمانمائة، وكان أصله من ممالك الظاهر برقوق، اشتراه من تاجر يسمى محمود اليزدي، فأعتقه فلذلك يقال له : المحمودي، ثم جعله أمير عشرة ثم صاحب طبلخانة ثم مقدم ألف^(٤) ثم ولى نيابة طرابلس فأسره تيمور لما أسر نواب البلاد الشامية، ثم هرب منه إلى أن آل أمره أن صار سلطاناً فخدم المستعين وعصى عليه

(١) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٢٤، إنباء الغمر ٣/٤٤٥، الضوء اللامع ٤/١٩، النجوم الزاهرة ١٣/١٩٠، السلوك ٤/٢١٤، الدليل الشافي ١/٢٠٦، بدائع الزهور ١/٣٥٧، تاريخ الخميس ٢/٣٨٤، الخطط للمقريزي ٢/٢٤٢، التبر المسبوك ٢٥، الأعلام ٣/٢٦٥.

(٢) في السلوك ٤/٢٤٤ «سبعة أشهر وخمسة أيام».

(٣) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٢٦، الخطط للمقريزي ٢/٢٤٣، إنباء الغمر ٣/٢٣٧، السلوك ٤/٢٤٣، النجوم الزاهرة ١٣/٢٠٩، الدليل الشافي ١/٣٤٧، بدائع الزهور ٢/٢، شذرات الذهب ٧/١٦٤، الضوء اللامع ٣/٣٠٨، الأعلام ٣/١٨٢.

بالإضافة إلى من تخصصوا في كتابة سيرته كالبدري العيني الذي ألف سيرته في كتاب أسماه «السيف المهند في سيرة الملك المؤيد . شيخ المحمودي».

(٤) مقدم ألف (مقدمو ألوف): وظيفتهم تسمى مقدمة أو تقادم ألف أو ألوف أى تحت قيادتهم ألف من أمراء المئين - مفردها أمير مئين - أو ألوف من الجنود كما يسمون لأن الواحد منهم يملك مائة مملوك أو أكثر خاصة به، وقد وصل عدد هؤلاء الأمراء الكبار أربعة وعشرين، وإن نقص إلى الثمانية عشر أو العشرين، ولهم رئيس يسمى: رأس مقدمى الألوف .

ينظر: صبح الأعشى (٣/٤٥٠) و(٤/١٤).

نواب البلاد الشامية، فتوجه لقتالهم مرارًا كثيرة، وافتتح الشام وغيرها ثم عاد إلى مصر، وكان يعتريه ألم المفاصل فصار يُحمل على الأكتاف ويركب المحفة، وكان شجاعًا مقدامًا مهيبًا، وكانت أسواق ذوي الأدب نافقة عنده؛ لجودة فهمه وذوقه، وكان يحب العلماء والفضلاء ويجلُّ قدرهم، وبنى مدرسته الموجودة^(١) الآن فبدأ في عمارتها سنة سبع عشرة وثمانمائة وكان سنه عشرين سنة.

قلت: وهو الباني للجامع المشهور بجامع المؤيدية^(٢) وبه المنارة التي توارد عليها شيخا الإسلام: الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، والعلامة الإمام الهمام محمود العيني الحنفي، وذلك لما أن ظهر في المنارة اختلال بعد بنائها، فقال الحافظ المذكور هذين البيتين يعرض فيهما به في ستر التورية: [من الطويل]

لِجَامِعٍ مَوْلَانَا الْمُؤَيَّدِ بِنَهْجَةٍ مَنَارَتُهُ بِالْحُسْنِ تَزْهُو وَبِالزَّيْنِ
تَقُولُ وَقَدْ مَالَتْ عَنِ الْقَصْدِ أَنهَلُوا فَلَيْسَ عَلَى جِسْمِي أَضْرٌّ مِنَ الْعَيْنِ
فوصل خبر البيتين إلى الإمام العلامة محمود العيني، فقال في جوابهما معرضًا
ستر التورية كذلك: [من البسيط]

مَنَارَةٌ كَعُرُوسِ الْحُسْنِ إِذْ جُلِيَتْ وَهَدْمُهَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَالْقَدَرِ
قَالُوا: أَصِيبَتْ بِعَيْنٍ قُلْتُ: ذَا غَلَطٌ مَا أَوْجَبَ الْهَدْمَ إِلَّا خِسَّةُ الْحَجَرِ
قال الحافظ ابن حجر: والبيتان قد عملهما له النواجي لا سامحه الله، سامح الله الجميع. ومن أعجب ما وقع له في أيامه أن جملاً لجمال يقال له: الفاروني يحمله فوق طاقته فهرب أثناء جمادى الآخرة من تلك السنة، ودخل المسجد الحرام ولم يزل يطوف بالبيت، والناس حوله يريدون إمساكه فيعضهم ولا يمكن من نفسه، فتركوه حتى أتم ثلاثة أسابيع، ثم جاء إلى الحجر الأسود فقبله، ثم توجه إلى جهة مقام الحنفي، ووقف هناك تجاه الميزاب الشريف، فبرك عنده وبكى، وألقى نفسه على الأرض ومات، فحمله الناس إلى بين الصفا والمروة، ودفنوه هناك.

(١) هي المدرسة المؤيدية تلك البناء العظيم الهائل الحافل بداخل باب زويلة. ينظر: نزهة الأساطين ص ١٢٧، الخطط للمقريزي ٣٢٨/٢ - ٣٣٠.

(٢) أشار إليه «السخاوي» في الضوء اللامع ١٠/٣ بقوله: «لم يعمر في الإسلام أكثر منه زخرفة، ولا أحسن ترخيماً بعد الجامع الأموي».

وفي آخر سنة ثمان عشرة وثمانمائة أرسل المؤيد منبراً حسناً إلى المسجد الحرام، ودرجة الكعبة، ووصل ذلك في موسم السنة المذكورة، وخطب الخطيب على المنبر الجديد خطبة التروية يوم سابع ذي الحجة الحرام.

وكانت وفاة المؤيد شيخ المحمودي يوم الإثنين لتسع خلون من المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وكانت مدة سلطته ثمان سنين وخمسة أشهر^(١).

ثم تولى بعده ولده الملك المظفر^(٢)

أبو السعادات أحمد بن المؤيد بعهد منه، وعمره إذ ذاك سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام.

وصار مدبر مملكته الأمير ططر أمير مجلس أتابك العساكر، وخالف عليه أمير الشام ومن معه فتجهز ططر عليهم، ومعه الملك المظفر أحمد طفلاً وقاتلهم وقتل كثيراً منهم إلى أن صفا له الوقت فخلع الملك المظفر أحمد.

ثم تولى ططر^(٣)

وتسلطن عوضه يوم الجمعة لليلة بقيت من شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة، ورجع بالمظفر إلى مصر، واستمر بالقلعة إلى أن نقل إلى الإسكندرية، فتوفى بها مطعوناً في السنة المذكورة، وكانت مدة سلطته سبعة أشهر وعشرين يوماً^(٤)، ونقل إلى الجامع المؤيدي داخل باب زويله، رحمه الله تعالى.

وكان ططر من ممالك الظاهر برقوق أعتقه وقدمه، ولا زال يترقى إلى أن صار عند المؤيد رأس نوبة^(٥) ثم أمير مجلس، ثم تسلطن وتلقب بالملك الظاهر لقب

- (١) في الخطط للمقريزي ٢/٢٤٣ «ثمان سنين، وخمسة شهور، وستة أيام».
- (٢) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٢٨، الضوء اللامع ١/٣١٣، الخطط للمقريزي ٢/٢٤٣، السلوك ٤/٥٦٣، النجوم الزاهرة ١٤/١١٠، بدائع الزهور ٢/١٠، الأعلام ١/١٣٧.
- (٣) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٢٩، الدليل الشافي ١/٣٦٣، النجوم الزاهرة ١٤/١٩٨، الضوء اللامع ٤/٨، بدائع الزهور ٢/١٣، إنباء الغمر ٣/٢٥٠، الخطط ٢/٢٤٣، السلوك ٤/٥٨٢، الأعلام ٣/٢٢٦ - ٢٢٧. بالإضافة إلى كتاب «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» للبدر العيني وهو كتاب أفرد لسيرته وأخباره.
- (٤) في خطط المقريزي أن مدته - المظفر أحمد - كانت ثمانية أشهر تقص سبعة أيام.
- (٥) رأس نوبة: لصاحبها الحكم على الممالك السلطانية والأخذ على أيديهم. وفي هذه الوظيفة أربعة من الأمراء واحد مقدم ألف وثلاثة طبلخانات. ولكل أمير من أمراء المئين أو الطبلخانة رأس نوبة. ينظر: صبح الأعشى (٤/١٨ و ٦٠).

أستاذه، ومهد الممالك وقبض على المخالفين عليه، وقرب المحالفين له .
وله آثار جميلة ومقاصد حسنة جليلة من أعظمها أنه قرر لصاحب مكة الشريف حسن بن عجلان عشرين ألف دينار تحمل إليه من خزينة مصر كل عام، وجعل ذلك في مقابلة ترك المكس على الخضرة، والفواكه والحبوب، وغيرها بمكة، وأمر أن يكتب عهده واعترافه بذلك على سواري المسجد من ناحية باب السلام ومن ناحية باب الصفا، والسواري المكتوبة بهذا العهد موجودة إلى الآن في المسجد الحرام .
ثم توفي يوم الأحد لأربع بقين من ذي الحجة سنة أربع وعشرين وثمانمائة فكانت مدة ملكه أربعة وتسعين يومًا .

ثم تولى بعده ابنه الملك محمد بن الظاهر ططر^(١)

وعمره نحو العشر سنوات .

وأتابكه ومدبر مملكته الأتابك جان بيك الصوفي إلى أن تغلب على الأتابك برسباي الدقماقي، فقبض عليه وأرسله إلى سجن الإسكندرية فصار أتابكا مكانه، واستبد بأمر الملك من غير مشارك، فخلع الملك الصالح يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة، ومدة ملكه ثلاثة أشهر وأربعة عشر يومًا^(٢)، وعمره عشرون سنة، واستمر بعد الخلع عند والدته بالقلعة إلى أن توفي بالطاعون .

ثم تولى الملك الأشرف برسباي الدقماقي^(٣)

اشتراه الأمير دقماق الظاهري نائب « ملطية » وقدمه إلى الظاهر برقوق هدية فأعتقه وقربه ورقاه إلى أن ولاه الملك المؤيد مقدم ألف، واستمر إلى أن تسلطن بعد قبضه على محمد بن ططر .

ومن جملة مناقبه أنه أخذ بلاد قبرس، وأسر ملكها في سنة تسع وعشرين

(١) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٣٠، الخطط ٢/٢٤٤، السلوك ٤/٥٩٠، إنباء الغمر ٣/٢٧٠، الدليل الشافي ٢/٦٣٠، النجوم الزاهرة ١٤/٢٠٨، بدائع الزهور ٢/١٣، الضوء اللامع ٧/٢٧٤، الأعلام ٦/١٧١ .

(٢) في نزهة الأساطين ص ١٣٠: «كانت مدته أربعة شهور وأربعة أيام» .

(٣) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٣١، السلوك ٤/٦٠٧، إنباء الغمر ٣/٢٧٠، الدليل الشافي ١/٢٨٦، المنهل الصافي ٣/٢٦٢، النجوم الزاهرة ١٤/٢٤٢، الضوء اللامع ٣/٨، بدائع الزهور ٢/٨١، ديوان الإسلام ١/٢٠٢، الأعلام ٢/٤٨ .

وثمانمائة وهو في تخت مملكته لم يتحرك، وكان عاقلاً مدبراً سيوساً محباً لجمع المال، اشترى من ماله ثلاثة آلاف مملوك شركسي، وفتح آمد سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة، وبنى مدرسته الأشرفية^(١) التي أنشأها بمصر على رأس الوراقين، وعلق خوذة ملك آمد التي أخذها بعد قتله علقها بدھليز مدرسته بين البابين بسلسلة، وله خيرات كثيرة.

توفي سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، ومدة ولايته ستة عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام^(٢).
ثم تولى بعده ولده يوم موته^(٣)

الملك العزيز يوسف بن برسباي وعمره أربعة عشر عاماً

وصار مدبر مملكته^(٤) الأتابك جقمق العلائي^(٥)، ولا زال يقوى أمره والأقدار تساعده إلى أن خلع العزيز بعد أن تسلطن نحواً من ثلاثة أشهر وأربعة أيام، لم يكن له فيها سوى الاسم.

ثم ولي مكانه يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة ولقب بالملك الظاهر سيف الدين، وكني بأبي سعيد جقمق العلائي، وجلس على سرير المملكة، والعلائي نسبة إلى مشتره علاء الدين فنسب إليه فقيل: العلائي، ثم انتقل إلى الظاهر برقوق فقيل: الظاهري، وكان عند الظاهر

(١) هذه المدرسة كانت مدرسة وجامعاً في آن واحد، وعمل فيها صوفية، ومدرس لكل من المذاهب الفقهية الأربعة. وهذه المدرسة ما تزال باقية حتى الآن. ينظر: إنباء الغمر ٣/ ٣٤٣، الخطط للمقريزي ٢/ ٣٣٠ - ٣٣١. سعاد ماهر. مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ١٠٩/٤ - ١١٧.

(٢) في نزهة الأساطين ص ١٣٢ «كانت مدته ست عشرة سنة، وتسعة شهور، وعشرة أيام».

(٣) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٣٣، الخطط للمقريزي ٢/ ٢٤٤، السلوك ٤/ ١٠٥٣، الدليل الشافي ٢/ ٧٩٩ - ٨٠٠، المنهل الصافي ٤/ ٢٨٣، الضوء اللامع ١٠/ ٣٠٣، النجوم الزاهرة ١٤/ ١٠٨، الشذرات ٧/ ٢٣٩ و ٢٤٢ و ٣٠٩، بدائع الزهور ٢/ ٢٣ و ٢٥ - ٢٦، نظم العقيان ١٧٩، الأعلام ٨/ ٢٢١.

(٤) مدبر الملك: من ألقاب الوزراء. ينظر: صبح الأعشى (٦٩/٦).

(٥) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٣٤، السلوك ٤/ ١٠٨٦، الدليل الشافي ١/ ٢٤٦، المنهل الصافي ٤/ ٢٨٣، النجوم الزاهرة ١٥/ ٢٥٤، الضوء اللامع ٣/ ٧١، نظم العقيان ص ١٠٣، حوادث الدهور ١/ ٣٩٣، بدائع الزهور ٢/ ٢٤ و ٣٤، الشذرات ٧/ ٢٩١، الأعلام ٢/ ١٣٢.

برقوق خاصكيًا، ثم صار في دولة الناصر فرج بن برقوق ساقيًا، ثم أمير عشرة مقدم مائة، ثم في دولة المؤيد خازندارًا^(١). ثم من مقدمي الألوف، ثم في الدولة الأشرفية حاجب الحجاب^(٢)، ثم أمير آخور^(٣) كبير، ثم أمير سلاح، ثم صار أتابكا إلى أن تسلطن فخرج عن طاعته الأمير قرقماس، فقاتله وظفر به، وسجنه في الإسكندرية ثم قتله، ثم خرج عن طاعته نائب حلب تغري برمش، ثم أبنال الحكمي نائب الشام، فجهز عليهما العساكر فقتلتهما واحدًا بعد واحد، وبعد قتل هؤلاء صفا له الوقت فأخذ وأعطى وأقدم وسطًا. وكان متواضعًا محبًا للفقراء والعلماء والصالحين، يميل إلى تربية الأيتام ويحسن إليهم، عفيفًا عن المنكرات، طاهر الفم والذيل. لا يعلم من ملوك الشراكسة قبله ولا بعده أعف منه. وكان - على قاعدة الأتراك - الدعوى عنده لمن يسبق، يذاكر بمسائل فقهية، ويتعصب لمذهب الحنفية، وملك مصر نحو خمس عشرة سنة^(٤).

ومن أول ما عمل في ولايته أن أرسل إلى شريف مكة الشريف بركات بن حسن ابن عجلان بخلع ومراسيم، وأرسل إليه سودون المحمدي، ليكون أميرًا على خمسين فارسًا من الترك مقيمين بمكة.

وفي سنة سبع وخمسين وثمانمائة وردت القصاد من مصر تخبر أن الملك الظاهر جقمق زاد به المرض، فخلع نفسه من السلطنة يوم الخميس لسبع بقين من محرم السنة المذكورة

(١) الخازن: كاتب يتولى خزن الغلات وصرفها وعليه سداد ما يعجز من عهده. وقد تضاف إليها اللفظ الفارسي «دار» فتكون: الخازندار، وهو الذى يتولى أعمال خزانة السلطان أو الأمير أو غيرهما وفى عهده ما بها من أموال وغلل.

ينظر: صبح الأعشى (٥/٤٦٢ - ٤٦٣)، قوانين الدواوين لابن ممتى (ص ٣٠٦).
(٢) حاجب الحجاب: وظيفة حاجب الحجاب فى العصر المملوكى أن صاحبها ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب إن كان، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند وما ناسب ذلك. ينظر: صبح الأعشى (٤/١٩) و(٥/٤٤٩).

(٣) أمير آخور: وظيفة يتحدث متوليها على إسطنبول السلطان أو الأمير، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرها مما هو داخل فى حكم الإسطبلات. وهو مركب من لفظين وهو أمير والثانى فارس وهو آخور ومعناه المعلق، فيكون معنى أمير آخور أمير المعلق لأنه المتولى لأمر الدواب. ينظر: صبح الأعشى (٥/٤٦١).

(٤) فى نزهة الأساطين ص ١٣٥ «كانت مدته أربع عشرة سنة وعشرة شهور ويومين».

ثم تولى بعده أبو السعادات فخر الدين عثمان بن جقمق^(١)

ولقب بالملك المنصور، ورضي الناس به واطمأنوا، وسنه إذ ذاك دون العشرين، وركب في شعار السلطنة، وحمل الأتابك أينال العلاني أمير كبير القبة والطير على رأسه، وقد تقدم أن من قواعدهم أن لا يحملها إلا من يلي السلطنة بعد المتولي المحمولة له.

وجلس على تخت السلطنة في قلعة الجبل، وباشر الأمور إلى أن توفي والده بعد ولايته باثني عشر يوماً، ف وقعت فتنة بين الأمراء، فخلع عثمان بن جقمق، فقاتل بعد الخلع قتالاً شديداً، ثم حبس فتسحب من الحبس، فظفر به، وقبض عليه، وأرسل إلى سجن الإسكندرية، فسجن إلى سنة أربع وستين، فأطلقه السلطان خشقدم وأمر بإكرامه وهو بالإسكندرية. وكانت مدته نحو أربعين يوماً^(٢).

ثم تولى الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر أينال العلاني^(٣)

يوم خلع عثمان صبيحة يوم الإثنين لثمان مضي من ربيع الأول من السنة المذكورة، وأينال مملوك لبرقوق اشتراه، ثم أعتقه ابنه فرج، ثم رماه جقمق إلى أن جعله أتابكاً، واستمر إلى أن تسلطن، وطالت أيامه نحو ثمان سنين وشهرين. وكان طويلاً خفيف اللحية بحيث اشتهر بأينال الأجرود، وكان قليل الظلم، قليل سفك الدماء متجاوزاً عن التقصير.

وفي أيامه ولي الأمير جان بك مشدا على جدة، وهو الذي التمس منه الشريف بركات أن يلتمس من السلطان إقامة ولده محمد بن بركات مقامه في شرافة مكة، كما سيأتي في ذكر بركات بن حسن بن عجلان في الخاتمة - إن شاء الله تعالى - وهو الباني للبستان - أعني جان بك - الذي على يسار الذهاب إلى منى، المعروف ببستان جان بك، وحفر فيه عدة آبار، وغرس ما قدر عليه من الأشجار

(١) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٣٦، النجوم الزاهرة ٢٤/١٦، بدائع الزهور ٣٧/٢ و٢٤٢، الأعلام ٢٠٤/٤، حوادث الدهور ٣٣٥/١.

(٢) في نزهة الأساطين ص ١٣٦ «أن مدته ثلاثة وأربعين يوماً».

(٣) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٣٧، حوادث الدهور ٣٥٧/١، النجوم الزاهرة ١٦/٣٦ - ٥٦، الدليل الشافي ١٧٦/١، الضوء اللامع ٣٢٨/٢، بدائع الزهور ٣٩/٢، الأعلام ٣٦ - ٣٥/٢.

حتى شجر التمر هندي. قلت: وهو الآن موجود وفيه المربعة التي تحتها السبيل المعطل، وفي البستان شيء من الأشجار، وقليل من الخضر. واستمر أينال سلطاناً إلى أن خلع نفسه من السلطنة لولده الملك المؤيد شهاب الدين أبي الفتح أحمد بن أينال العلاني.

ثم تولى ابنه أحمد المذكور ابن أينال ولقب بالملك المؤيد^(١)

كما مر آنفاً يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة خمس وستين وثمانمائة، وتوفي والده أينال بعد ولايته بيوم واحد، فاستمر خمسة أشهر، وخمسة أيام^(٢)، ثم خلع، فإن الطوائف اتفقوا على خلعه من غير موجب بالأتابك خشقدم، فخلعوه، ثم حبسوه بالإسكندرية إلى أن أطلقت تمبرغا في أيام سلطته يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان من السنة المذكورة.

ثم تولى أتابكه الملك العادل سيف الدين خشقدم الناصري^(٣)

وهو رومي اشتراه الملك المؤيد، وأعتقه وصار خاصكياً عنده، ثم تنقلت به الدولة إلى أن جعله أينال أتابكاً لولده فخلعه بعد خمسة أشهر وتسلطن مكانه. وكان خشقدم محباً للخير، وكسا الكعبة في أول ولايته على العادة. وكان حسن السيرة إلا أنه كان فيه شح وطمع، ويرضى بإفساد مماليكه في أمور المسلمين، فلذلك تمنى الناس زواله، حتى اليهود والناصرى.

ثم مرض، وطال مرضه، وتوفي يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، ومدة ملكه ست سنين وخمسة أشهر وأيام

(١) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٣٩، النجوم الزاهرة ٢١٨/١٦، الضوء اللامع ١/ ٢٤٦، بدائع الزهور ٦٥/٢ و ٢٨٤، حوادث الدهور الفصل ٣ ص ٣٩٥ حوادث سنة ٨٦٥، الأعلام ١٠٢/١.

(٢) في نزهة الأساطين ص ١٣٩ «أن مدته كانت أربعة شهور وثلاثة أيام».

(٣) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٤٠، الدليل الشافى ٢٨٦/١، النجوم الزاهرة ١٦/ ٢٥٣، الضوء اللامع ١٧٥/٣، نظم العقيان ص ١٠٩، بدائع الزهور ٧٠/٢، حوادث الدهور ٥٥٤/٣ و ٦٥٧، الأعلام ٣٠٦/٢.

ثم تولى بعده في ذلك اليوم أتابكه بلباي المؤيد^(١)

تلقب بالملك الظاهر أبي النصر وخلع على الأمير تمرغا الظاهري الأتابكية عوضاً عن نفسه، وكان بلباي ضعيفاً عن تدبير الملك وتنفيذ الأمور، فخلعه الأمراء من السلطنة يوم السبت لسبع مضي من جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، وكانت مدة سلطنته شهرين إلا أربعة أيام.

ثم تولى مكانه الملك الظاهر أبو سعيد تمرغا الظاهري^(٢)

ويقال : إنه رومي الأصل من ممالك الظاهر جقمق أعتقه ورباه صغيراً ورقاه إلى أن جعله خاصكياً ثم سلحداراً ثم خازنداراً، ثم إلى أن صار أتابكاً للعساكر ثم تسلطن، وكان له فضل وتودد إلى الناس، وحذق ببعض الصنائع بحيث كان يعمل القبي الفائقة بيده ويعمل السهام عملاً فائقاً، ويرمى بها أحسن رمي مع الفروسية التامة.

وما زال به الأمر حتى خلعه ونفوه إلى الإسكندرية، وكانت مدة ولايته ثمانية وخمسين يوماً.

ثم إن السلطان قايتباي اعتذر إليه من وثوبه عليه، وأكرمه وأحسن مثواه، وأرسله إلى دمياط على أحسن حال، فقبل عذره ولم يقع لملك من الإكرام بعد الخلع ما وقع له لكونه جديراً بذلك.

ثم تولى السلطنة أتابك العساكر يومئذ السلطان الأشرف قايتباي^(٣)

المحمودي الظاهري الشرکسي

ظهر يوم الإثنين لست مضي من شهر رجب سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة يوم خلع تمرغا، وقيل له : المحمودي؛ لأنه جلبه الخوجا محمود إلى مصر، فنسب

(١) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٤١، النجوم الزاهرة ٣٥٦/١٦، الضوء اللامع ١٠/٢٢٨، بدائع الزهور ٨٤/٢ و١٠١، الشذرات ٣١٥/٧، الأعلام ٢٠٨/٨.

(٢) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٤٢، النجوم الزاهرة ٣٧٣/١٦، الضوء اللامع ٣/٤٠، نظم العقيان ص ١٠٢، بدائع الزهور ٨٧/٢ و١٥٦، الأعلام ٨٧/٢.

(٣) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٤٣، النجوم الزاهرة ٣٩٥/١٦، الكواكب السائرة ٢٩٨/١، أخبار الدول ص ٢١٦، الشذرات ٧/٨، الضوء اللامع ٢٠٢/٦، بدائع الزهور ٩٠/٢ - ٣٠٣، الأعلام ١٨٨/٥.

إليه ، فاشتره الأشرف برسبائي ، وأعتقه الظاهر جقمق وإليه انتسب بالظاهري .
 وكان محباً للخير معتقداً في الصالحين . حكى عن نفسه أنه لما جلبه سيده إلى
 مصر للبيع وهو إما مراهق أو بالغ كان معه رفيقه أحد المماليك والجلب ، فتحدثا مع
 الجمال ليلة من الليالي في شهر رمضان فقالوا : لعل هذه الليلة ليلة القدر ، والدعاء
 فيها مستجاب ، فليدع كل واحد منا بدعاء يحبه . قال قايتبائي : فقلت : أما أنا فأطلب
 سلطنة مصر من الله تعالى . فقال رفيقي : وأنا أطلب أن أكون أميراً كبيراً ، والتفتنا إلى
 الجمال ، فقلنا له : أي شيء تطلب أنت ؟ فقال : أنا أطلب من الله خاتمة الخير ،
 فصار قايتبائي سلطاناً وصار صاحبه أميراً كبيراً ، فكنا إذا اجتمعنا نقول : فاز الجمال
 من بيننا .

وكان رحمه الله ملكاً جليلاً وسلطاناً نبيلاً ، له اليد الطولى في الخيرات ، والطول
 الطائل في إسداء المبرات ، بنى في المساجد الثلاثة عدة رُبط ومدارس ، وجوامع
 عظيمة الآثار باهرة الأنوار ، وله بمصر والشام وغزة وغير ذلك آثار جميلة ، وخيرات
 جزيلة ، أكثرها باق إلى الآن ، وجميع عمائره يلوح عليها لوائح النورانية والأنس ،
 وفي أول ولايته أرسل إلى شريف مكة ، بالمراسيم والخلع ، وهو الشريف محمد بن
 بركات بن حسن بن عجلان ، وإلى قاضي القضاة إبراهيم بن علي بن ظهيرة تقليداً
 لقضاء مكة ، ومراسيم تتضمن الأمر بإبطال جميع المكوسات والمظالم ، وأن ينقر
 ذلك على أسطوانة من أساطين الحرم الشريف في باب السلام .

وفي أواخر سنة أربع وسبعين وثمانمائة - أو التي قبلها - بنى مسجد الخيف بناء
 عظيماً محكمًا ، وجعل في وسط المسجد قبة عظيمة هي حد مسجد رسول الله ﷺ ،
 وبنيت جدرانها المحيطة به وبنى أربع بوائك من جهة القبلة فصارت قبة عالية فيها
 محراب النبي ﷺ ، ويلصق القبة مثذنة غير المثذنة التي على باب المسجد ، وبنى
 داراً بلصق باب المسجد كانت مسكن أمير الحاج ، وعلى باب الدار سبيل على
 صهريج كبير جعل في صحن المسجد يمتلئ من المطر ، وجدد العلمين الموضوعين
 لحد عرفة ، والعلمين الموضوعين لحد الحرم ، وجدد عين عرفات ، وابتدأ العمل
 فيها من سفح جبل الرحمة إلى وادي نعمان ، فوجد الماء بكثرة ، فاقتصر على ذلك
 ولم يصل إلى أم العين ، وكانت قد انقطعت منذ مائة وخمسين عامًا ، فكان الحجاج

يقاسون في يوم عرفة من قلة الماء ما لا صبر عليه، ثم أصلح البرك وملأها بالماء، ثم أصلح عين خليص وأجراها وأصلح بركتها وبنى قبتها، وكان ذلك سنة تسع وسبعين وثمانمائة.

وفي سنة اثنين وثمانين وثمانمائة أمر السلطان وكيله وتاجره الخوجا شمس الدين محمد بن عمر الشهير بابن الزمن وشاد عمائره الأمير سنقر الجمالي أن يحصل له موضعاً مشرقاً على الحرم الشريف ليبنى فيه مدرسة ليدرس فيها على المذاهب الأربعة، ورباطاً يسكنه الفقراء، ويعمل له ربوعاً ومسقفات، يحصل منها ريع كبير، يصرف منه على المدرسين وعلى القراء، وأن تقرأ له أربعة في كل يوم يحضرها القضاة الأربعة، والمتصوفون، ويقرر لهم وظائف، ويعمل مكتباً للأيتام، وغير ذلك من جهات الخير، فاستبدل له رباط السدرة، ورباط المراغي، وكانا متصلين، وكان إلى جانب رباط المراغي دار الشريفة شمسية من شرائف بنى حسن اشتراها وهدم ذلك جميعه، وجعل فيه اثنين وسبعين خلوة، ومجمعاً كبيراً مشرقاً على المسجد الحرام وعلى المسعى، وصير المجمع المذكور مدرسة، بناها بالرخام الملون، والسقف المذهب، وقرر فيها أربعة مدرسين على المذاهب الأربعة، وأربعين طالباً، وأرسل خزانة كتب وقفها على طلبة العلم وجعل مقرها المدرسة المذكورة، وجعل الواقف في ذلك المجمع للقضاة الأربعة حضوراً بعد العصر مع جماعة من الفقهاء، يقرءون ثلاثين جزءاً من القرآن، وجعل لها معلم أربعين صبيّاً من الأيتام، ورتب لكل واحد من الأيتام وأهل الخلاوي ما يكفيهم من القمح كل سنة، وللمدرسين وقراء الربعة، وأهل الخدم مبالغ من الذهب تصرف لهم كل سنة، وبنى عدة ربوع ودور تغل في كل عام نحواً من ألفي دينار، ووقف عليهم بمصر قرى وضياعاً كثيرة تغل حبوباً كثيرة تحمل كل عام إلى أهالي مكة، وعمل من الخيرات العظيمة ما لم يعملها سلطان قبله، وذلك باقٍ إلى الآن إلا أن الأكلة استولت على تلك الأوقاف فضعفت جداً.

قلت: هذا في زمان قطب الدين رحمه الله تعالى، وأما الآن فقد تضاعفت لا ضعفت، إلا أنها - كما قال رحمه الله - : قد استولت عليها أكلة النظار، وقد صارت المدرسة سكناً لأمرء الحج إذا وصلوا مكة أيام الموسم. وكان الفراغ من

بناء هذه المدرسة، والرباط والبيتين أحدهما: من ناحية باب السلام، والثاني: من ناحية باب الحريريين في سنة أربع وثمانين وثمانمائة على يد مُشَيِّدِ عمائر الأمير سنقر الجمالي.

وفي هذه السنة وردت أحكام سلطانية من السلطان قايتباي إلى صاحب مكة الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان رحمه الله تتضمن أنه رأى مناماً وأن بعض المعبرين عبر له ذلك المنام بغسل البيت الشريف من داخله وخارجه وغسل المطاف، وأنه أمره أن يفعل ذلك.

فحضر مولانا الشريف محمد بن بركات رحمه الله بنفسه، وقاضي القضاة إبراهيم ابن ظهيرة وناس من الترك المقيمين بمكة الأمير قاتي باي اليوسفي، والأمير سنقر الجمالي، والدوادار الكبير جان بك نائب جدة المعمورة، وبقية القضاة والأعيان، وفتح الكعبة عمر بن أبي راجح الشيبى، والشييون والخدام، وغسلوا الكعبة الشريفة من ظاهرها وباطنها قدر قامة، وغسلوا أرض الكعبة وأرض المطاف الشريف، وطبوها بالطيب والعود، وكان ذلك يوم الخميس لثمان بقين من ذي الحجة الحرام من السنة المذكورة.

ومن أعظم ما وقع في أيام السلطان قايتباي - من الأمور الموهلة - حريق المسجد النبوي في ثلث الليل الأخير من ليلة الإثنين ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وثمانمائة، فعمره رحمه الله أحسن عمارة وبنى المقصورة، وأدار عليها الشبك الحديد جميعها^(١).

وكان تمام ذلك في عام ثمان وثمانين وثمانمائة كما رأيته مرسوماً بالقلم الحديد في جهة الباب من الحجرة الشريفة. وقد ذكر السيد السمهودي ذلك مفصلاً وغيره، وعمر السلطان المذكور بالمدينة مثل ما عمر بمكة من المدرسة والرباط، وأوقف كتباً على طلبة العلم الشريف، فأرسل مصاحف كثيرة وكتباً لخزانة المسجد الشريف، عوضاً عما احترق.

ولم يحج من ملوك الشراكسة غير السلطان قايتباي المذكور، وذلك لتمكنه في

(١) ينظر: تفاصيل ذلك في: الضوء اللامع ٢٠٦/٦ - ٢١٠، الكواكب السائرة ٢٩٩/١، الخطط . لعلى مبارك ٣١٤/٢، ٣٢٢.

الملك وحسن تدبيره وضبطه للممالك فحج سنة أربع وثمانين وثمانمائة .
 فأقام الأمير يشبك الدوادر الكبير نائباً عنه بمصر، وخرج بعد الحاج بثلاثة أيام .
 وكان أمير الحاج الخارج بالمحمل الشريف خشقدم، فخرج السلطان قاصداً
 للحج والزيارة، ووصلت القصاد إلى شريف مكة يومئذ جمال الدين الشريف محمد
 ابن يركات بن حسن بن عجلان سقى الله رمسه صوب الرحمة والرضوان، فتهياً هو
 والقاضي إبراهيم بن ظهيرة القاضي الشافعي لملاقاة السلطان؛ فإن القصاد أخبرهما
 أنهم فارقوه من عقبة « أيلة »، فأرسل الشريف أحد قواده يسبقه إلى ملاقاته السلطان
 بسماط حلوى. فوصل إلى « الحوراء »، ولاقى السلطان، ومد له سماط الحلوى
 هنالك فوصل عليه وأظهر غاية اللطف والمجاجة، وأكل وقسم على أمرائه
 وعسكره، وكان سماطاً كبيراً جميلاً. ويحكى من لطافة السلطان أنه تناول شيئاً من
 الحلوى، وسأل الذي جاء به: ما اسم هذا عندكم؟ فقال له القائد: اسمه: « كل
 واشكر ».

فقال له: سلم على سيدك، وقل له: أكلنا وشكرنا.

ثم لما وصل إلى ينبع عدل إلى المدينة الشريفة فأقام الشريف محمد ومن معه من
 القضاة والأعيان بيدر منتظرين قدوم السلطان، فلما وصل الخبر بعود السلطان من
 المدينة ركب الشريف محمد ومن معه لملاقاته، فاجتمعوا به في مسجد الصفراء،
 وتلاقوا على ظهور الخيل وتصافحا، ومشى الشريف عن يمينه، والقاضي إبراهيم
 عن يساره، وباقي من معهما سلموا على السلطان من بُعد، ومشوا أمامه، وصار
 السلطان يلاطفهما، ويسألهما عن أحوالهما، ويشكر مساعيهما ويطن خواطرهما،
 وينصت لهما إذا تكلمتا، واستمر كذلك إلى أن وصل السلطان إلى وطاه فرجعا عنه
 إلى مخيمهما، وصاروا يسايرونه في الطريق، ويبدى لهم وافر الانبساط وكمال
 النشاط، وألبسهم خلعة فاخرة مراراً عديدة، وتقدموا إلى وادي « مر » ورتبوا له
 سماطاً حافلاً، ولما كان صبح يوم الأحد مستهل ذي الحجة وصل السلطان إلى
 مخيمه بوادي مر ووجد السماط ممدوداً فجلس هو ومن معه عليه، وأكل وأطعم
 وخلع على الخدام خلعة متعددة جميلة، ووصل بقية القضاة والخطباء والأعيان،
 فسلموا على السلطان فانصرفوا أمامه، وركب السلطان هو وشيخ الإسلام إبراهيم بن

ظهيرة وولده أبو السعود، وأخوه أبو البركات وأمام السلطان إبراهيم بن الكركي الحنفي، ودخلوا مكة عصرًا من أعلاها وشيخ الإسلام هو الذي تقدم لتطويف السلطان، وصار يلقيه الأدعية إلى أن دخل من باب السلام الأقصى، وطلع بفرسه منه فجفل به الفرس، فسقطت عمامته واستمر مكشوف الرأس إلى أن تقدم المهتار فشالها من الأرض ومسحها، فناولها السلطان فلبسها، وكان ذلك تأديبًا له من الله تعالى حيث كان يتعين عليه أن ينزعها، ويدخل مكشوف الرأس متواضعًا.

ولما وصل إلى العتبة الداخلة من باب السلام الأدنى، ترجل وقرأ الرئيس بين يديه بصوت جهوري ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ...﴾ [الفتح: ٢٧] الآية. ثم رفع يديه يدعو للسلطان، وأمن من حوله من أهل الأصوات، فقبل الحجر وطاف، والرئيس يدعو له من أعلى قبة زمزم، والناس محيطون بالطواف يشاهدونه ويدعون له، إلى أن تم طوافه وصلى خلف المقام ثم خرج إلى الصفا، فلما فرغ من سعيه عاد إلى الزاهر فبات به في مخيمه، وركب في الصباح في موكب، ولاقاه الشريف وأولاده والقاضي، فخلع السلطان على الشريف والقاضي، وغيرهما، ومشوا أمامه في الموكب العظيم، والأبهة الجليلة، ولم يتخلف أحد بمكة حتى النساء المخدرات.

ودخل مكة بهذه الصفة إلى أن وصل مدرسته، فترجل له الناس، وسلم عليهم، ودخل المدرسة، ومد له الشريف سماطًا، واستمر على ذلك تمد له صبحًا وليلاً الأسمطة الجليلة الجميلة، ومد له ثاني يوم القاضي إبراهيم بن ظهيرة سماطًا بالمدرسة، واستمر بالمدرسة ما ظهر لأحد إلى أن طلع عرفة، وكانت الوقفة بالإنثين فأفاض مع الناس، وأتم حجه، وقرب أغنامًا كثيرة، وكان يناسب أن ينحر شيئًا من الإبل فما أشار عليه به أحد.

وركب مرة إلى درب اليمن يشاهد ما قدمه له الشريف محمد من الإبل، والخيول وتشكر من فضل الشريف، ثم سافر ظهر يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة بعد أن طاف للوداع، والرئيس يدعو له على قبة زمزم، ومشى القهقري إلى أن خرج من باب الحزورة وركب معه الشريف وأولاده، والقاضي إبراهيم إلى الزاهر، ثم ودعهم ووادعهم وسافر إلى مصر وعاد إلى مملكته، ولم يختل شيء من ملكه مع

غيبته عن تخت مصر نحو ثلاثة أشهر، وذلك لإتقانه أمر الملك وتدبيره وضبطه. ولقد كان واسطة عقد الشراكسة وأقربهم إلى قلوب الرعية، وأجملهم حالاً وأحسنهم إحساناً وأفضلهم عقلاً، وأكملهم نبلاً، وأكثرهم في جهات الخير إيثارةً وآثارةً، وأكبرهم عمائر وأوقافاً وأدواراً، وأطولهم طولاً وزماناً، وأمكنهم ملكاً وقوة وإمكاناً. وكانت أيامه كالطراز المذهب، ودولته تنجلي كالعروس في حلل الجواهر والذهب، حتى قدم عليه بريد الأجل، وما أغنى عنه ما جمعه من الخيل والخول، وكان انتقاله إلى رحمة الله تعالى يوم الأحد لثلاث بقين من ذي القعدة سنة ٩٠١ إحدى وتسعمائة، وكانت مدة تصرفه ثلاثين سنة إلا ثلاثة أشهر^(١).

ثم تولى الملك الناصر أبو السعادات محمد ابن السلطان قايتباي^(٢)

وكان يغلب عليه الجنون والسفه، وما كان له التفات إلى الملك، ولا تدبير السلطنة، بل غلب عليه اللهو واللعب والحركات المستبشعة.

يحكى عنه أمور قبيحة منها: أنه كان إذا سمع بامرأة حسناء هجم عليها، وقطع دائر فرجها ونظمه في خيط أعده لنظم فروج النساء.

ومنها: أن والدته كانت من عقلاء النساء وأجملهن هيأت له جارية جميلة، وجمعتها به في بيت مزين أعدته لهما فدخل بها وقفل الباب على نفسه وعليها، وربطها وشرع يسلخ جلدتها عنها كالجلاد، وهي بالحياة، وهي تصرخ، فلما سمعوا صراخها أرادوا الهجوم عليه فما أمكنهم لأنه قفل الباب من داخل واستمر كذلك إلى أن سلخها، وحشا جلدتها بالاثواب السندسية وخرج يظهر للناس أستاذيته في السلخ، وأن الجلادين يعجزون عن كماله في صنعة قُبْح هو وصنعة. ومنها: أنه مر في موكبه بديكان حلواني، ودار حوله أمراؤه فأقامه من دكانه، وجلس كأنه يبيع الحلوة، وأخذ بيده الميزان فصار يزن لهم حتى جبرت الحلوة. وكان يقلي الجبن المقلي بنفسه يبيعه للجنود ويأمرهم بشرائه منه، ويأخذ أكياس الذهب إلى طرف النيل فيرمي ديناراً فيقول: هذا قال: بق، ويرمى الآخر فيقول:

(١) في نزهة الأساطين ص ١٤٦ «أن مدته كانت تسعاً وعشرين سنة وأربعة شهورٍ وأحدًا وعشرين يوماً».

(٢) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٤٧، بدائع الزهور ٣٠٣/٢، وليم موير ١٦٣، النور السافر ٤٠، الشذرات ٢٢/٨، الأعلام ٩/٧.

هذا ما قال : بق، ثم يحضر الأمراء الكبار ويأمر بذبحهم في الديوان، فصار الشخص منهم إذا أضجع للذبح صوت صوت الغنم، فيضحك ويطلقه. وكانت له حركات من هذه الخرافات منها ما يضحك ومنها ما يبكي، إلى أن سقط من أعين الناس والعسكر وسطوا عليه كما سطا بالحسام الأبتري، وسلخواه من الملك كما سلخ الضعيفة بالخنجر، ومزقوه كل ممزق ولعذاب الآخرة أكبر. وسبب قتله أنه من غروره خرج مختفياً منفرداً من خدمه وعبيده متباعدًا عن خوله وحشمه، فتوجه يمشي وحده إلى بر الجزيرة، فكمن له عشرة أنفس من مماليك أبيه في خيمة على ممره، فلما وصل إليهم خرجوا له من الخيمة، فأمسكوا بلبجام فرسه، وضربوه بالسيوف إلى أن قطعوه، وجاءوا به مقتولاً إلى القاهرة ودفنوه في تربة أبيه سنة ٩٠٤ أربع وتسعمائة، وكانت مدة سلطنته ثلاث سنين^(١).

ثم تولى بعده خاله الملك الظاهر قانصوه^(٢)

وهو خال هذا المقتول، وكان أمياً لا يعرف إلا بلسان الشركس قريب العهد ببلده؛ لأنه جلب للسلطان قايتباي من بلاده وهو كبير قد خطه الشيب، وصار يرقيه بواسطة أخته زوجة قايتباي خوندام الناصر ولده، وهي التي أقامته مقام ولدها الناصر، وبذلت له الأموال والخزائن، وأرادت إقامته وإصلاحه، ولن يُصْلِحَ العَطَاُ ما أفسد الدهر، فما استكملته الإيالة، وما أهلوه للسلطنة والولاية، فخلعوه من الملك أواخر سنة ٩٠٥ خمس وتسعمائة، وكانت مدته سنة وسبعة أشهر^(٣).

ثم تولى بعده السلطنة أمير كبير جانبلاط^(٤)

وتلقب بالملك الأشرف في أوائل سنة خمس وتسعمائة، ولم يتهنَّ بالسلطنة، ولا وافقه أحد عليها، وخلع بعد ستة أشهر.

(١) في نزهة الأساطين ص ١٤٨ «كانت مدته ستين وعشرين يوماً» .
 (٢) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٥٠، بدائع الزهور ٣٤٩/٢، الأعلام ١٨٧/٥ .
 (٣) في نزهة الأساطين ص ١٥١ «أن مدته كانت عشرين شهراً وتسعة أيام» .
 (٤) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٥٢، الكواكب السائرة ١/١٧١، أخبار الدول ٢١٨، شذرات الذهب ٢٨/٨، بدائع الزهور ٣٧٠/٢، الأعلام ١٠٧/٢ .

ثم تولى مكانه الملك العادل طومان باي (١)

وما استكمل يوماً واحداً بل هجم عليه العسكر وقتلوه، فما أقدم أحد على السلطنة، وكانت الأمراء متوفرة، وبعضهم يشير إلى بعض في الجلوس على تخت الملك فاتفقوا على تولية قانصوه الغوري، لأنهم رأوه سهل الإزالة أي وقت أرادوا إزالته أزالوه؛ لأنه كان أقلهم مالا وأضعفهم حالاً وأوهنهم قوة، وأشاروا أن يتقدم فأبى فالزموه بذلك، فقال: أقبل ذلك بشرط أن لا تقتلونني، فإذا أردتم خلعي من السلطنة فأخبروني بما تريدون وأنا أوافقكم على ذلك وأترك لكم الملك وأمضى حيث أريد، فعاهدوه على ذلك فقبل.

ثم تولى قانصوه الغوري السلطنة (٢)

ولقبوه الملك الأشرف أبا النصر قانصوه الغوري، وذلك في سنة ٩٠٦ ست وتسعمائة، وفرح العسكر بولايته لأنهم سثموا تعدد السلاطين وسرعة تقضي ملكهم، بل فرح العامة وأمنوا على أنفسهم وأموالهم في الجملة. وكان قانصوه الغوري كثير الدهاء ذا رأى وفطنة وتيقظ، إلا أنه كان شديد الطمع كثير الظلم والفسق، بخيلاً محباً للعمارة، فمن جملة عمارته: الجامع والتربة، وكان في نيته أن يدفن بها، ووقف عليها أوقافاً كثيرة وما قدر له دفنه بها بل ذهب تحت سنابك الخيل وما عرف شخصه، ﴿وَمَا تَدْرِي نَقَسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَقَسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

وله آثار جميلة في طريق الحاج في عقبة أيلة ومآثر بمكة المشرفة وغيرها، وكان يتنزل مع الأمراء من غير تشديد عليهم ولا إظهار عظمة وأمر ونهى، وذلك في ابتداء أمره إلى أن تمكن من قوته وبأسه.

حكى العلامة قطب الدين عن شيخه أحمد بن عبد الغفار عن والده وكان من

(١) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٥٤، بدائع الزهور ٦٨/٣ - ١١٦، وليم موير ١٧٦، الأعلام ٢٣٤/٣، أخبار الدول ٢١٩.

(٢) ينظر ترجمته في: نزهة الأساطين ص ١٥٥، مفاكهة الخلان ٢٣٧/٢، الكواكب السائرة ١/ ٢٩٥، الشذرات ٢٨/٨ و ١١٣، أخبار الدول ص ٢١٩، ديوان الإسلام ٣/ ٣٩٥، معجم المؤلفين ٨/ ١٢٧، بدائع الزهور ٨٥/٣، سير أعلام النبلاء ١١٢/٣ - ١٦٤ ثم ٣٩٠/٥، البدر الطالع ٥٥/٢، الأعلام ١٨٧/٥.

أرباب الأقلام في ديوان قانصوه قال: استشم الغوري مبادئ فتنة أراد الأمراء إحداثها، وأرادوا أن يجعلوها مقدمة لخلعة من السلطنة، فلما استشعر ذلك منهم عمل ديوانًا وجمع فيه الأمراء والمقدمين، وأمرهم بالجلوس، وجلس بينهم كأحدهم، وكانت عادة الأمراء الوقوف بين يدي السلطان ولا يجلسون معه إلا في السماط فقط، فلما جلسوا وجلس، أنكروا ذلك وكانوا يتعجبون من ذلك وكل مصنع إلى ما يقول السلطان؛ فقال: ما جمعتكم يا أغوات إلا لأسألكم سؤالاً خطري، وأطلب منكم جوابه على الوجه الذي ترونه صوابًا. فقالوا: نعم، فقال: أسألكم عن جماعة جاءوا إلى رجل، وأودعوه صرة من الدراهم مربوطة مختومة، فقال: أنا أستودع منكم هذه الوديعة بشرط أن تأتوني وتطلبوا وديعتكم بلا نزاع معي ولا خصومة فأرد وديعتكم إليكم، فقالوا: نعم قبلنا منك هذا الشرط، وأودعوه ومضوا، ثم عادوا إليه بعد مدة وقالوا: نريد الوديعة بنزاع شديد ومخاصمة ومضاربة قوية، فقال لهم: هذه وديعتكم حاضرة خذوها بلا نزاع ولا ضراب معي كما شرطت عليكم، فقالوا: لا بد من المخاصمة والنزاع معك، فأيهم على الباطل، وأيهم على الحق؟ ففهموا مراده واستغفوا منه، فقال لهم: أنا ما جلست معكم إلا لتعلموا أنني كأحدكم لا أمتاز عليكم بشيء، وهذه السلطنة أسلمها لأبيكم أرادها ولا أنازع عليها، فإنما أنا رجل من الجند، فقبل كل منهم يده، وأذعنوا له بالسلطنة وسألوه استمراره فيها.

وسكنت الفتنة بهذا التدبير، وغفلوا عنه مدة واشتغلوا عنه بضروريات وطالت معه الحيل إلى أن صار يأخذ منهم واحدًا بعد واحد، ويتغافل عنهم، ثم يحصل حيلة أخرى، وعلة أخرى لأحدهم، فيأخذ بها، ويوقع بين الاثنين، ويأخذ هذا بذاك، وذاك بهذا، ويدس لهم الدسائس من الطعام والسم ونحوه، حتى أفنى قرانصتهم ودهاتهم إلا قليلًا منهم.

واتخذ ممالك جددًا، واستجلب جلبًا وأعد عددًا، وصاروا يظلمون الناس ويعاملون الخلق عسفًا وغشما، وهو يغضي عنهم ويتغافل، فأظهروا الفساد، وأهلكوا العباد، وأكثروا العناد، وطغوا في البلاد، وصار يصادر الناس، ويأخذ أموالهم بالقهر والبأس.

وكثر العوانية في أيامه؛ لكثرة ما يصغي إليهم، وصاروا إذا شاهدوا أحدًا توسع

في دنياه، وأظهر التجميل في ملبسه ومثواه، وشوا به إلى السلطان فيرسل إليه يطلب القرض، ويصفي أمواله، ويسلمه إلى الصوباشي ليأخذ ماله، ويهلك أهله وعياله. وجمع من هذا الباب أموالاً عظيمة، وخزائن واسعة ذهبت في آخر الأمر سدى وتفرقت بيد العدى، وتمزقت بدداً.

وأما الميراث فبطل في أيامه، وصار إذا مات أحد يأخذ ماله جميعه للسلطنة، ويترك أولاده فقراء إلا إن اعتني به اعتناء كبيراً جعل له نزرًا يسيرًا من مال أبيه، وأخذ لنفسه باقية. وكثر ظلمه في آخر أيامه، فاستجاب الله فيه دعاء المظلومين، وقُطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين.

وحكي عن شخص من أولياء الله تعالى مجاب الدعوة أنه رأى بمصر في أيام الغوري جندياً من الشراكسة أخذ متاعاً من دلال ولم يُرضه في قيمته، فتبعه الدلال يطلب منه حقه وهو ممتنع، فقال له الدلال: بيني وبينك شرع الله، فضربه الجندي باللبوس، فشج رأسه، وقال: هذا شرع الله، فسقط الدلال مغشياً عليه، ومضى الجندي بالمتاع وما قدر أحد من المسلمين على منعه من فعله. قال الشخص: فصعب عليّ هذا الحال، فرفعت يدي إلى الله تعالى، ودعوت الله عز وجل على الجندي المزبور وسلطانه وحزبه وإخوانه، وعلى الظلمة من أعوانه، فصادف ساعة إجابة وقبول، واقرن السؤال بحصول المسئول، فبت تلك الليلة على طهارة، وأنا أفكر في أمرهم، وأحدث نفسي كيف يزول ملك هذا السلطان الجائر، وقد ملأت جنوده الأرض. وأتئى للمسلمين بسلطان رءوف رحيم، عادل كريم؟ فتمت فرأيت فيما يرى النائم ملائكة من السماء بأيديهم مكانس يكنسون الشراكسة من أرض مصر، ويلقونهم في بحر النيل، فلم يكن إلا كلمح البصر أو هو أقرب حتى وقع ذلك.

ثم إنني استيقظت من نومي وسمعت قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿فَأَنقَضْنَا مَنَّهُمْ فَأَعْرَفْنَاهُمْ فِي آيَةٍ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦]، فعلمت أن الله سوف يأخذهم أخذاً وييلاً.

فما مضى على هذه الواقعة قليل من الزمان إلا وبرز الغوري بجنوده، وأمواله وبنوده، وأثقاله وخزائنه، وأنصاره وأعوانه من مصر لقتال السلطان سليمان خان إلى حلب، فجاء الخبر بعد قليل بأنه كسر وقتل أكثر جنوده وفقد هو تحت سنايك الخيل

في « مرج دابق » ، وكان قتله بين الظهر والعصر ، يوم الأحد خامس عشر رجب سنة ٩٢٢ اثنتين وعشرين وتسعمائة .

وقيل : إنه فقد من الحرب وأنه عاش مدة ببلاد المغرب ، وقيل : بل عاش بمصر مدة طويلة .

قال شيخنا : وعلم بما قدمته من أن شخصاً مات بالقرب من زمن الواقعة ببعض مدارس مصر فوجد في عنقه كيس فيه ختم باسم الغوري فقيل : إنه هو ، وكانت مدة الغوري خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً .

وللأشرف قانصوه الغوري مآثر جميلة وعمائر حسنة جليلة . فمما عمره بمكة المشرفة باب إبراهيم بعقد كبير ، جعل علوه قصرًا ، وجعل في جانبه مسكنين لطيفين ، وبيوتًا ممتدة حول باب إبراهيم ، ووقف الجميع على جهات خير ، ولا يصح وقف ذلك ؛ لأنه في المسجد ، وكذلك السكنان ؛ لأن أكرهما في المسجد الحرام ، وما أمكن العلماء أن ينكروا عليه ذلك في أيام سلطنته ؛ لعدم إصغائه إلى كلام أهل الشرع ، وبنى أيضًا ميضأة خارج باب إبراهيم على يمين الخارج ، وقد أبطلت ؛ لأن روائحها تصل إلى المسجد فيتأذى المصلون ، فأبطلت وأغلق بابها قريبًا في سنة ٩٨٠ تسعمائة وثمانين بأمر شريف سلطاني .

قلت : هي الآن مفتوحة ينتفع بها المسلمون عامرة .

ومن أثره الترخيم الواقع في الحجر الشريف ، عمل بأمره في أيامه ، واسمه مكتوب فيه وفرغ من عمارته سنة ٩١٧ سبع عشرة وتسعمائة ، وبنى بركة بدر وعدة خانات وآبار في طريق الحاج المصري ، وبنى خانًا في عقبة أيلة والأزلم ، ومدرسة أنشأها علو سقف الجملون بالقاهرة ، وأنشأ مجرى الماء من مصر العتيقة إلى قلعة الجبل .

ومن آثاره بناء سور جدة وكانت العربان تهجم في أيام الفتن وتنهبها ، ونهبت مرارًا أيام الوقائع بين الشريف بركات وأخيه هزاع ، وبعد هزاع جازان ، فأرسل الغوري أحد أمرائه المقدمين ، وهو الأمير حسين الكردي ، وجهاز معه عسكريًا من الترك والمغاربة واللوند في خمسين غرابًا لدفع ضرر الفرنج في بحر الهند ، فلما وصل إلى جدة بنى سورها وهدم كثيرًا من بيوتها وأخذ حجارتها ، وبنى بها السور في شدة وبأس ، واستخدم عامة الناس في حمل الحجر واللبن حتى التجار المعبرين

وسائر المنتسبين، وضيق على الناس بحيث يحكى أن أحدهم تأخر قليلاً عن المجيء، فلما جاء أمر أن يبنى عليه فبنى، واستمر قبره جوف البناء إلى يوم الجزاء إلى غير ذلك من الظلم الشديد والجور العتيد، وبنى السور جميعه في أقل من سنة. وكان ظلوماً غشوماً أكلوا يستوفي الخروف مع عدة أرغفة ونفائس له معدة. واستمر حاكماً بـ « جدة » إلى أن تقوى بالمال، وتأثّل وجمع جنوداً من كل صنف، ثم توجه إلى « الهند » سنة إحدى وعشرين وتسعمائة ثم رجع إلى مكة.

وقد انقضت دولة الشراكسة بمصر، وملكها السلطان سليم خان، فورد حكم سلطاني إلى شريف مكة بركات بن محمد بن حسن بن عجلان بقتل الأمير حسين الكردي المذكور، وكان الشريف بركات هو المستخرج لذلك الحكم لعداوة سابقة بينه وبين حسين المذكور، فأخذ مقيداً إلى جدة، وربط في رجله حجر كبير، وغرق في بحر جدة في موضع يقال له: « أم السمك » فأكلته الأسماك بعد أن كان يعد من الأملاك.

ولما قتل الغوري وانكسرت عساكره هرب بقية الشراكسة من السيوف إلى مصر وصيروا الدوادر الكبير طومان باي سلطاناً، فتولى والسلطان سليم في إثرهم، هم في الهرب وهو من ورائهم للطلب، فأرسل إليه السلطان سليم بعد أن ملك حلب والشام وما بينهما من البلاد بقاصد، وكتب معه كتباً يستميل بها خاطره، ويستجلب بها قلبه، ويعدّه بكل جميل إن دخل في الطاعة، وكف القتال بين المسلمين، فلم يلتفت لشيء من ذلك، بل قتل القاصد وعين من يهجم في العسكر والأمراء، وسير من الممالك الخاصة ألفين وخمسمائة، وجمع من مشايخ العربان ما كمل به سبعة آلاف خيال، وساروا جميعاً إلى العريش.

ثم إن السلطان سليم خان أرسل إلى الوزير الأعظم سنان باشا بأربعة آلاف خيال ليلحق من قدّمه من العسكر، وهم ألفان عليهم الأمير محمد بير بن عيسى، وقصد بتقدمتهم تمهيد الطريق، فلما خشي عليهم أتبعهم بالوزير المذكور، فأدركهم بـ « غزة ». فلما بلغ الشراكسة ذلك توقفوا عن الحرب، لكنهم سعوا في جمع الناس من القرى والنواحي، فأقاموا في العريش ثلاثة أيام، فجمع سنان باشا من معه من الأمراء والأعيان، واستشارهم في المقاتلة أو الانتظار حتى يرد السلطان فأجمعوا

على المقاتلة؛ خشية من الهجوم.

ففي ليلة السبت سابع عشري ذي القعدة الحرام ركب سنان، وخرج من غزة وأظهر أنه راجع لجهة الرملة، فسار طول ليلته، وأصبح بالقرب من خان يوسف، وكان بالقرب منه عسكر الشراكسة، فلما رأى جانبرد الغزالي وكان رئيس من تقدم من الشراكسة العسكر العثماني هياً عسكره، وعين الميمنة والميسرة، وكذلك سنان باشا جعل على ميمنته فرهاد بمن معه، وعلى ميسرته محمد بن عيسى، فلما رأى الغزالي ذلك عين بعض جماعة من عسكره مع المشاة وأمرهم أن يقرؤا على ساقه العسكر أولاً، فلما رأى سنان باشا ذلك أخرج من عسكره مقدار ألف خيال وماش ترمي البندق، وأمرهم أن يكونوا خلف العسكر وحوله، فلما رأى الشراكسة ذلك تربصوا وسايروا العسكر قليلاً قليلاً ينتهزون الفرصة، فلما نزل سنان بمحل المنزل هجم الغزالي، وكان سنان أمر الينيشرية، وغالب العسكر أن لا يخرجوا سلاحهم وأن يكونوا حول ثقلهم، فلما هجم الغزالي قابله طائفة الينيشرية برمي البندق، ثم ركب سنان وتلاحق العسكر، والتحم القتال إلى وقت الغروب، فانهزم الغزالي وقتل غالب الأمراء الذين معه وأرسلت رؤوسهم مع من قبض عليه أيضاً إلى السلطان سليم فسر بذلك، وذهب الغزالي إلى مصر، وسار السلطان سليم حتى نزل ببركة الحج، ونهياً منها لفتح قلعة مصر، وأخذ البلاد، فاتفقت الشراكسة المقيمون بها، وغيرهم من العرب على إعانة طومان باي، فبلغت عدتهم عشرين ألفاً، فجمع طومان باي المدافع الكثيرة، وأخرجها للريدانية وقررها في الأرض، وأرسل إلى الإسكندرية، وطلب من يضرب بالمدافع، فاجتمع عنده خلق كثير، فنزل بمخيمه، فلما بلغ السلطان ذلك وكان قد صف عسكره ميمنة وميسرة ترك استقبال طومان باي، وسلك طريقاً أخرى من خلف جبل المقطم من وراء عسكر الشراكسة، واستمرت مدافع الشراكسة مركوزة لمن يأتي من أمام الريدانية بلا نفع ولا دفع، وبادروهم برمي المدافع والبنادق، واستقبلته خيول الجند وفرسانها، والتحم الحرب وحمي الوطيس، حتى أظلمت الدنيا ولم تزل الشراكسة تهجم مع تلك الظلمات على العساكر العثمانية المرة بعد المرة وتكر وتفر، والقتل فيهم وهم لا يصدهم شيء حتى قتل منهم جانب عظيم من أعيانهم، وقتل من العساكر العثمانية أقل من ذلك،

فانكسرت الشراكسة، ولم يزل عسكر السلطان خلفهم إلى أن أدخلوهم بيوتهم فنهبت بيوتهم وأموالهم، وكان ذلك يوم الخميس تاسع عشر ذي الحجة الحرام سلخ سنة ٩٢٢ اثنتين وعشرين وتسعمائة.

وفي صبح يوم الجمعة غرة محرم الحرام افتتاح سنة ٩٢٣ ثلاث وعشرين وتسعمائة أمر السلطان في المسجد والجوامع بالخطبة باسمه الشريف، وضرب السكة كذلك باسمه، وأقام بالعادية ثلاثة أيام، ثم ارتحل ودخل البلاد وتعدى إلى الجيزة، ونزل بعسكره فيها، فجمع طومان باي من بقي من الشراكسة نحو سبعة آلاف، وهجم على البلاد ليلاً، واتفق معه بعض العرب وتبعه خلق من أهل مصر، وقتلوا جميع من وجد في البلد من العسكر العثماني، وقصد الهجوم ليلاً على السلطان في الجيزة، وهياً مراكب البحر للذهاب، فلما بلغ ذلك السلطان سليم خان عين جماعة على المعابر، وأمر العساكر بالتقيد، وعدم الغفلة، فلم يقدر طومان باي على الهجوم ليلاً، وبعث جماعة وأمرهم بالهجوم على مصر، وكل من وجدوه من آدمي أو بهيمة قتلوه أو محل قابل للحرق أحرقوه، وأغاروا على الناس، والمصريون يقاتلونهم من الأماكن الحصينة بالسهم والحجارة، واستمر الحرب على هذا الأسلوب ثلاثة أيام، فوصل السلطان بنفسه، وسار على البلاد، ورمى المدافع على جميع من لاقاه، واشتد الحرب في الرميّة، وهلك خلق كثير من الجهتين، ثم هرب طومان باي إلى جامع الشيخونية وحارب، هناك ضجت الرعايا بطلب الأمان وكثر الصياح منهم، فأمنهم السلطان وأمر بتتبع الشراكسة خاصة، فلم يجد طومان باي بداً من الهروب، فخرج في نحو عشرة أنفس هارباً لجهة الصعيد، وقتل ذلك اليوم ما ينيف على أربعة آلاف نفس حتى سالت الدماء، وتكدر بحر النيل وتعفن الهواء لذلك، فرميت أجسامهم في البحر، وجمعت رءوسهم أكواماً بعد أكوام، فعاد السلطان لمخيمه بالجيزة، وبنى له كوشكاً عاليًا يسكنه مدة مقامه بمصر هرباً من العفونة، ونقل إليه من قبض عليه من أعيان أمراء الشراكسة، فأمر بضرب أعناقهم على ضوء المشاعل، وقتل سنان باشا ذلك اليوم، فأسف عليه السلطان سليم وقال: أي فائدة في مصر بلا يوسف؟ لأن سنان لقبه يوسف.

وفي صبيحة ذلك اليوم دون ديواناً رتب فيه للعساكر العطايا، وعين أرباب

المناصب فأرسل إليه الغزالي - وكان قد هرب في الواقعة الأولى من الريدانية إلى جهة الصالحية - فطلب الأمان، فلما علم السلطان أنه لم يحضر الواقعة التي داخل البلد عفا عنه وطلبه، فجاء تائبًا مستغفرًا، فأنعم عليه ببلدة « سجاج »، ثم أقام السلطان في محله إلى ثالث عشري محرم، وارتحل وصعد إلى القلعة.

ثم إن طومان باي أرسل بطلب الأمان والعفو عما مضى، فقبل السلطان منه ذلك واستمال خاطره، وأرسل بجوابه وإجابته كيخية عسكر أنادول مصطفى شلبي والقضاة الأربعة قضاة مصر، وكتب إليه بالعهد والأمان معهم، فلما وصلوا إليه منعه بعض المفسدين من الشراكسة وحرضوه على العصيان فقتل مصطفى شلبي المذكور والقضاة الأربعة، وأظهر عدم الانقياد، واجتمع عنده بقية الشراكسة وطائفة من العربان، وقصد العود إلى مصر وتعدى على المراكب ووصل قريب مصر حتى نزل ببركة الحبش، فعين السلطان بعض الأمراء والعساكر لحربه، فتوجهوا لقتاله، وخرج السلطان أيضًا بنفسه فنزل بالقرب من النيل، فارتحل طومان باي من محله وهرب، فتبعه العسكر منازل، فعلم الأمراء أنه لا راحة لهم ما دام موجودًا فتركوا أثقالهم وسعوا في طلبه فأدركوه بين الإسكندرية ورشيد، فحصل حرب عظيم وقبض على جماعة ممن معه، وهرب هو، وتوجه في طلبه بعض الأمراء فأدركه في بحيرة، وأحاط به وقتل جميع من معه، فألقى طومان باي نفسه في البحر، فلما أشرف على الغرق طلب الأمان، فرموا له حبلًا وتمسك به فجروه إلى البر ومسكوه، وقيدوه وجاءوا به إلى السلطان، ويقال: إنه هرب واستجار بشيخ عرب بنى جذام عبد الدائم ابن مقر، وأنه هرب إلى خياط السلطان سليم وسلم إليه السلطان طومان باي، ذكر هذا العلامة قطب الدين رحمه الله تعالى، فقصد السلطان العفو عنه لما رآه، ثم تذكر جرائمه، ونقض العهد وقتل القضاة الأربعة والكيخية وعلم أن الفتنة لا تنام ما دام موجودًا فأمر بشتقه فشنق على باب زويلة فتم أمر السلطان سليم خان على مصر.

وقد مهد القوانين والقواعد ونصب القضاة الأربعة على المذاهب الأربعة، وولى ملك الأمراء الأمير خير بك على مصر المحروسة، وولى جان بردي الغزالي على الشام، وكان وعدهما بذلك وهما من خواص أمراء الغورى، وكانا يكرهانه في الباطن، ويكرههما كذلك فأرسل لهما السلطان الأمان وعهد لهما أن يوليهما مصر

والشام، فوافقه على ذلك، فلما تلاقى العسكران فرا باليمينه والميسرة، فبقي الغوري وخواص من معه في القلب، فغار الغوري تحت سنابك الخيل، ومحي كما يمحي النهار بالليل، كما تقدم ذكر ذلك عند ذكر حرب الغوري.

ومهد السلطان سليم الأمور على ما ينبغي، وسار إلى الإسكندرية وعاد إلى مصر، ثم توجه من مصر إلى تخت الملك القسطنطينية، وقد تمهدت له البلاد، وعم حكمه العباد، ودخل أمر الحرمين الشريفين تحت حكمه، وخطب له فيهما بأمره ورسومه، وفي سائر هذه الأقطار بشريف لقبه واسمه. وانقضت دولة الشراكسة عن آخرها^(١). ولله البقاء سبحانه.



(١) عن سقوط هذه الدولة يمكن مراجعة د. محمد مصطفى زيادة: نهاية السلاطين المماليك في مصر، ضمن أبحاث مجلة الجمعية التاريخية، مج ٤ لسنة ١٩٥١، د. سعيد عاشور. العصر المماليكي في مصر والشام ص ١٧٩ - ١٩١، د. عبد المنعم ماجد. طومان باي آخر سلاطين المماليك.

الباب السابع

في ذكر ملوك آل عثمان^(١)

خلد الله سلطتهم القائمة إلى آخر الزمان، أصلح الدول بعد الصحابة والتابعين دولتهم وذلك لانقيادهم للشرع، وتمكنهم من رتبة العبادة كالصلاة والصوم والحج، والجهاد وملازمة الجماعة، واتباع السنة وحسن العقيدة، والشفقة على الأمة، وكشف كل كربة وغمة، وقل أن يوجد جميع ذلك في دولة من الدول السابقة.

فأصلهم ومبدأ ظهورهم وسبب ملكهم أن آل سلجوق لما تركوا وطنهم من فتنة جنكز خان ملك التتار، وعزموا إلى جانب بلاد الروم جاء معهم من طائفة أغوز رجل اسمه أرطغرل^(٢) يتصل نسبه بياث بن نوح عليه الصلاة والسلام، وكان بصحبته نحو ثلاثمائة وأربعين رجلاً، وكان شجاعاً ثم تشمر في خدمة السلطان علاء الدين كيقياد بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن طغرل السلجوقي، وكان يحبه السلطان علاء الدين لكونه شجاعاً، وفتحت على يديه بلاد كثيرة من بلاد الكفار.

(١) تمتد جذور الدولة العثمانية إلى جماعات الأتراك التي اتصلت بالدولة الإسلامية أيام الخلافة الأموية وازدادوا أيام العباسيين وخاصة المعتصم . ثم اجتذب السلاجقة كثيراً من القبائل التركية من بلاد ما وراء النهر نحو العراق وغيره من البلاد الإسلامية في غرب آسيا . . ثم لما تفككت دولة السلاجقة استقر «أرطغرل» - وهو أبو عثمان مؤسس الخلافة العثمانية - بجزء منها ثم جاء عثمان فنظم الجيوش وفتح الفتوحات معلناً - هو ومن جاء بعده - قيام خلافة إسلامية أرهبت الأعداء . . . وتوهمت أوروبا ونصرت الإسلام قروناً عديدة وهكذا شاءت الإرادة الإلهية أن تحفظ الأمة الإسلامية في ظل شجرة الخلافة التي استمرت وارفقة الظلال على مدى ثلاثة عشر قرناً ونيف رغم تقلب العهود والحكام حتى كان السقوط في غفلة منها على أيدي القوى الصليبية والصهيونية الطامعة والحاكمة والمغرضة تحت شعارات الحرية والإخاء والمساواة والأمن والسلام العالمي!!!

ينظر في الخلافة العثمانية: الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب - د . سيد رجب حراز، التاريخ الموحد للأمة الإسلامية - د . علي حسن الخربوطلي، الإسلام والخلافة - د . علي حسن الخربوطلي، العرب والعثمانيون - د . عبد الكريم رافق، الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية - د . علي حسون، الدولة الإسلامية - تقى الدين النبهاني، الخلافة - تقى الدين النبهاني، معالم التاريخ في العصور الوسطى - لمحمد رفعت ومحمد أحسن حسونه، السلطان عبد الحميد الثاني ومشروع الجامعة الإسلامية - لموفق بني المرجة، تاريخ الدولة العثمانية العلية - إبراهيم بك حليم .

(٢) ينظر: الدولة العثمانية - دولة إسلامية مفترى عليها . . د . عبد العزيز محمد الشناوي، تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ٣١ .

ولما كانت سنة ٦٩٧ سيع وتسعين وستمائة توفي الغازي أرطغرل فكتب السلطان علاء الدين لعثمان بن أرطغرل^(١) بموافقة السلطنة وأرسل إليه خلعة وسيفاً ونقارة وخصه بالغزو على الكفار، فسار عثمان بن أرطغرل ففتح اينه كولي ويني شهر وكوبري حصار وبلجك وغير ذلك.

ثم لما توفي السلطان علاء الدين سنة تسع وتسعين وستمائة، اجتمع أكثر الغزاة عند عثمان بن أرطغرل، فتسلطن **عثمان الغازي** وجلس على تخت السلطنة في السنة المذكورة، واشتغل بالجهاد وافتتاح البلاد، وكان مولده سنة ست وخمسين وستمائة، دأب في خدمة والده في الجهاد، وتمرس بالغزو في سبيل الله، واستمر بعد والده مع الكفار في الجلال فرأى السلطان علاء الدين السلجوقي جده وجهده في الجهاد، وعلم قابليته ونجابهته في فتح أطراف البلاد، فأكرمه وأمره، وأمدّه بأنواع الإعانة والإمداد، وأرسل الراية السلطانية والطلب والزمزم إليه، وعملوا نوبة بين يديه، فعند أول سماعه صوت الطبل والزمزم قام على قدميه تعظيماً لذلك فصار ذلك قانوناً لآل عثمان باقياً مستمراً إلى الآن، فإنهم يقومون على أقدامهم عند ضرب النوبة على أبوابهم.

وكان جلوس السلطان عثمان على تخت السلطنة عام تسع وتسعين بتقديم التاء في الموضوعين وستمائة، وافتتح فيها كوبري حصار من الكفار، وأمر بصلاة الجمعة وخطب باسمه فقيه حوله من أهل العلم اسمه طورسن، ثم افتتح قلعة قره حصار، ثم قلعة اينه كولي، ثم قلعة يني شهر، وافتتح قلعة يار حصار، وصارت من جملة مملكته، فزوج ولده أورخان على نيلوفر خان ابنة صاحب يار حصار، واستمر في الغزاة والجهاد وفتح البلاد، وقتل الكفار أهل العناد، إلى أن دعاه الله إلى جنته، وأبدله سلطنة خيراً من سلطنته، فأجاب داعي الحق لما دعاه، وبادر إلى إجابته ولبي نده، فعاش سعيداً، ومات حميداً إلى رحمة الله عن ست وستين سنة.

وكان للسيف والضيف كثير الإطعام فاتك الحسام، كثير البذل واسع العطاء، شجاعاً مقداماً على الأعداء، ما خلف نقداً ولا متاعاً إلا درعاً وسيفاً يقاتل بهما الأعداء الكفار، وبعض خيل وقطيعاً من الغنم اتخذها للضيفان، وأنسالها باقية إلى

(١) ينظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية ص ٣١: ص ٣٤، الشذرات ٦/٦٨ و ٧٨.

الآن ترعى حول بلاد بروسا أبقوها تيمناً وتبركا، وهو أول من أظهر عظمة هذا الملك، وسلك سبيل العدل فيه حتى قيل فيه : ثالث العمرين .
 وكان جميل الصورة حتى قيل : ثالث القمرين . وكان يحب الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والأيتام فيجمع أنواع الطعام وأصناف الحلوى ، فيطبخ لهم بعد كل ثلاثة أيام سماطاً عظيماً يأكل منه الخاص والعام ممن ذكر وغيرهم .
 وكان الموجود له عند موته فرس وسيف ودرع ونحو ذلك من اللباس والفراش .
 كذا قاله العلامة محمد شلبي والد أحمد شلبي النشازجي قاضي محكمة مكة الشريفة سابقاً، وهو ابن أرطغرل بن سليمان شاه، وكان لجده سليمان أربعة أولاد منهم اثنان توجهوا إلى بلاد العجم وهما سنقر وندار، وتوجه إلى بلاد الروم اثنان أرطغرل وكون وقدا على السلطان علاء الدين السلجوقي وكان سلطان بلاد قرمان، فأكرمهما وأذن لهما في الإقامة، وصار دأبهم الجهاد في سبيل الله إلى أن صار أمر أرطغرل إلى ما صار كما تقدم ذكر ذلك . وخلف أرطغرل أولاداً نجباء أقواهم جأشاً السلطان عثمان، فاستمر إلى أن توفي سنة خمس وعشرين وسبعمائة وكانت مدته ستا وعشرين سنة .

ثم تولى السلطان أورخان الغازي^(١) ابن السلطان عثمان خان

مولده سنة سبع وثمانين وستمائة، وجلس على تخت السلطنة سنة ست وعشرين وسبعمائة وفتح إزنيق وبروسا وغيرهما .
 وأرسل ابنه سليمان باشا إلى روم إيلي مع أربعين نفرًا ففتحوا قلعة ملقرة وأبسالة وبولاير، ووزه، وكان السلطان أورخان فاق والده في الجهاد وفتح البلاد وبذل الاجتهاد، وهو الذي افتتح بروسا في حياة والده ثم جعلها مقر سلطنته، واتسعت مملكته ونفذت كلمته .

واجتمعت ملوك النصارى وجميع الكفرة على قتال العساكر السلطانية الإسلامية واجتمعوا على أن يتعدوا من بلاد روميلي إلى جهة أنادول ويقاتلوا السلطان أورخان، وكان له ولد نجيب اسمه سليمان بك، فاستأذن والده في قتالهم، فوقع حرب شديدة كان الظفر فيه لسليمان بك، وهو أول من كتب على السكة من آل

(١) ينظر ترجمته في: تاريخ الدولة العلية ص ٣٦ - ٣٨، الشذرات ١٨٩/٦ .

عثمان فكتب في وجهه : محمد رسول الله، وفي الوجه الآخر اسمه الشريف، وهو أول من رتب طبقات العساكر وسمى الطبقات المذكورة بأسمائها المشهورة، وكان أول سلطنته بـ « بروسا » وأعمالها، ثم ملك عدة من البلاد الإسلامية وغزا الكفار وفتح ممالك متعددة، وغنم بلادًا وأموالًا، وبنى الجوامع ومساجد ومدارس ومطبخًا للمسافرين، وللمقيمين في غالب الممالك التي تحت سلطانه، وعمر في الطرقات والمفاوز، ومحال الخوف والمقطعة سبلا وخانات وقصورًا وجسورًا وأمثال ذلك من الخيرات العظيمة، وسلك سبيل العدل والجود والفضل والإحسان على نمط والده المرحوم الساكن بأعلى الجنان. وتوفي السلطان أورخان حميدًا سنة إحدى وستين وسبعمائة عن ثلاث وثمانين سنة.

ثم تولى السلطان مراد خان^(١) الغازي خدا وندكار ابن السلطان أورخان

وجلس على سرير الملك والسلطنة سنة إحدى وستين وسبعمائة في « بروسا »، ولي السلطنة وعمره أربع وثلاثون سنة، وافتتح كثيرًا من البلاد منها أدرنة سنة إحدى وستين وسبعمائة، وهو أول من اتخذ الماليك، وسماه ميني شري يعني: العسكر الجديد، وألبسهم اللباد الأبيض المثني إلى خلف، وسماه بُركلة بالضم للموحدة وسكون الراء، ثم توجه إلى فتح قوصوة، فلما وصل إليها التقى الجمعان، وانهزمت الكفار، ثم اجتمعت النصارى على سلطانهم أسبوت فقاتلهم السلطان مراد قتالًا عظيمًا فقتل سلطانهم، فأظهر واحد من ملوكهم الطاعة، وتقدم ليقبل يد السلطان، فلما قرب أخرج خنجرًا فضرب به السلطان مرادًا فاستشهد، فصار من يومئذ لا يدخل على السلطان أحد بسلاح، بل يدخل بين رجلين يكتنفانه، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة.

وفي « مورد اللطافة، فيمن ولي السلطنة والخلافة » عن السلطان مراد ما نصه: كان ملكًا جليلاً، ذا هبة وعظمة، وشدة بطش، فتح الممالك العظيمة كقلعة نكبولي ونحوها، وحاصر الفرنج برًا وبحرًا، وضيق عليهم المسالك فانتدب لحربه بعض ملوكهم، فلما التقى الجمعان، وتصاف العسكران تحاربا وتعاركا وتضاربا،

(١) ينظر ترجمته في: تاريخ الدولة العلية ص ٣٩ - ٤٥، الشذرات ٦/ ٣٣٢.

فقصده السلطان ملك الفرنج وحمل عليه مرة بعد أخرى فتقاربا وتعاركا وتضاربا وهما على ظهور الخيل، فسقطا معاً على الأرض فانقلب عدو الله على السلطان وضربه بالخنجر صادف مقتله، فأدركه عسكره، واحتملوه إلى خيمته وهو يوجد بنفسه، فعهد بالملك إلى ابنه يلدزم بايزيد في التاريخ الآتي ذكره، ومات بعد ذلك سنة ست وتسعين وسبعمائة رحمه الله تعالى.

ثم تولى السلطان يلدزم بايزيد^(١) ابن السلطان مراد الغازي

ولما سمع بوفاة أبيه خنق أخاه يعقوب شلبي واشتغل بالفتوحات، ففتح الأفلاق وقونية وآق سراي ونيكده وقيصرية وسلانيك، وغيرها من البلاد، ثم هرب بعض الأمراء من خدمة السلطان يلدزم ودخلوا عند تيمورلنك، فحركوه وجاءوا به إلى بلاد الروم، فالتقى العسكران في موضع يقال: جبوق أواسي، فانكسر السلطان يلدزم، لكثرة من مع تيمور من العسكر كالجراد المنتشر، فأخذ السلطان يلدزم وحبس ثم توفي بالحمى المحرقة سنة سبع وثمانمائة وكان ابنه الأمير محمد أمير أماسية فلما سمع بذلك خرج بعسكر أماسية خلف تيمور فأخذ جثة والده بعد حرب شديدة. وكانت مدة سلطته ست عشرة سنة.

وتيمور ويقال: تيمورلنك^(٢)، واللنك - في اللغة الفارسية - : الأعرج؛ لأنه كان به عرج، كان ظهوره في عام سبعمائة وثلاث وسبعين، وكان تاريخ ذلك لفظ «عذاب» قاله العلامة السيوطي في «تاريخه».

وكان أول أمره راعياً للغنم، ثم صار أمير آخور لبعض سلاطين العجم في سمرقند و«بخارى» فتغلب على مخدمه، ولم يزل حتى تفرد بالسلطان وملك البلاد طرفاً بعد طرف في أسرع زمن على أعجب أسلوب، وذلك أنه إذا قصد محلاً ورى بغيره فيهجم على ذلك المحل وأهله غافلون، ثم يبدأ بقتل جميع من فيه من كل ذي روح، ثم يملك البلاد ويأخذ جميع ما فيها من الأموال والسلاح والطعام

(١) ينظر ترجمته في: تاريخ الدولة العلية ص ٤٦ - ٤٩، الشذرات ٣٢٩/٨، عجائب المقدور في نواب تيمور ص ١٧١ وما بعدها.

(٢) ينظر ترجمته الوافية في: «تاريخ بخارى» لأرمينوسي بن فامبري. ترجمة أحمد بن محمود الساداتي مراجعة يحيى الخشاب. بالإضافة إلى مؤلف خاص بسيرته وهو «عجائب المقدور في نواب تيمور» لابن عرب شاه.

بحيث خربت جميع الممالك التي دخلها مما وراء النهر. فلما خرج إلى البلاد الإسلامية كبغداد والروم والشام وحلب كان عادته يقتل أعيان البلاد وأركان دولتها، ثم ينصب فيها من يقوم بأمرها من جماعته، فهابته أكثر سلاطين الإسلام وملوكه، وقصدوه بالهدايا والتحف اتقاء شره. ومولانا السلطان يلدرم صاحب الترجمة لم يلتفت إليه، ولم يكثر بشأنه لاشتغاله بالغزوات وما فيه سعادة الدنيا والآخرة فهجم على بلاد الروم على غرة وأسرع في السير إلى المحل الذي فيه السلطان المشار إليه قبل أن يعلم أحد بوصوله، فما وسع السلطان إلا مقابله لأن شهامته أبت أن يعرض عنه ويترك قتاله، فاتفق بمراد الله أن كسر عسكر السلطان المذكور وحبسه إلى أن كانت وفاته بالحمى كما تقدم ذكر ذلك.

وفي «عجائب المقدور في أخبار تيمور» للإمام العلامة أحمد بن محمد الحنفي الدمشقي عرف بابن عرب شاه رحمه الله تعالى: ومعنى يلدرم البرق فوجه الأخذ المذكور من هذا اللقب سرعة الحركة، وقوة الظهور مع النور واللمعان، رحمه الله تعالى.

قلت: أخبرني بعض فضلاء أهل الهند أن ملكهم الآن، وهو المسمى أورنك زيب ابن شاه جهان يتصل نسبه بتيمور هذا، ومنه إلى جنكرخان طاغية التتار، وينكرون كونه راعياً أو خادماً لبعض ملوك العجم فتغلب على مخدمه في السلطنة، ويدعون عراقته فيها. والله أعلم بالحقائق.

قلت: وذكر الإمام المذكور في كتابه المذكور واقعة لتيمور مع العلامة القاضي محب الدين أبي الوليد محمد بن محمد بن محمود الحلبي قاضيها الحنفي المعروف بابن الشحنة أحببت ذكر نصها^(١):

لما كان يوم الخميس تاسع ربيع الأول من عام ثمان وثمانمائة أخذ يعني تيمور قلعة حلب بالأمان والأيمان التي ليس معها إيمان، فاستحضر علماءها وقضاةها فحضرُوا إليه، وطلب من معه من أهل العلم فقال لكبيرهم عنده، وهو المولى عبد الجبار ابن العلامة نعمان الدين الحنفي، قل لهم: إني سألتهم عن مسائل سألت

(١) ينظر تفاصيل تلك المناظرة في: «عجائب المقدور» ص ١٣٨ - ١٤٣.

عنها علماء « سمرقند » و« بخارى » و« هراة » و« خراسان »، وسائر البلاد التي افتتحتها، فلم يفصحوا الجواب، فلا تكونوا مثلهم، ولا يجاوبني إلا أعلمكم وأفضلكم وليعرف ما يتكلم به، فإني خالطت العلماء ولي بهم اختصاص وألفة، ولي في العلم طلب قديم. قال صاحب الكتاب: وكان يبلغنا عنه أنه يتعنت العلماء في الأسئلة، ويجعل ذلك سبباً إلى قتلهم أو تعذيبهم.

قال القاضي ابن الشحنة: فقال القاضي شرف الدين موسى الأنصاري الشافعي: هذا شيخنا ومدرس هذه البلاد ومفتيها - مشيراً إلى - سلوه والله المستعان. قال: فقال لي قاضيه عبد الجبار: سلطاننا يقول إنه بالأمس قتل منا ومنكم، فمن الشهيد: قتلنا أم قتلكم؟ فوجم الجميع، وقلنا في أنفسنا: هذا الذي كان يبلغنا عنه من التعنت. وسكت القوم، ففتح الله على بجواب سريع بديع. فقلت: هذا سؤال سئل عنه سيدنا رسول الله ﷺ، قال لي صاحبي شرف الدين المذكور بعد أن انقضت الحادثة: والله العظيم لما قلت: هذا السؤال سئل عنه رسول الله ﷺ وأنا محدث زمني، قلت: عالماً قد اختل عقله، فإن هذا سؤال لا يمكن الجواب عنه في هذا المقام، ووقع في نفس عبد الجبار قاضيه مثل ذلك وألقى إليّ تيمور سمعه وبصره، وقال لعبد الجبار يسخر من كلامي: كيف سئل رسول الله ﷺ عن هذا، وكيف أجاب؟ فقلت: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الرجل يقاتل حميةً، ويقاتل لئري مكانه من الشجاعة، فأينا الشهيد في سبيل الله؟ فقال ﷺ: « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ الشَّهِيدُ ».

فقال تيمور لنك: خوب خوب. فانفتح باب المؤانسة فكثر منه السؤال، وكثر مني الجواب.

وكان آخر ما سأل أن قال: ما تقولون في علي ومعاوية ويزيد؟ فأسر إلى القاضي شرف الدين: أن اعرف كيف تجاوبه فإنه شيعي، فلم أفرغ من سماع كلامه إلا وقد قال القاضي علم الدين القفصي المالكي كلاماً معناه: إن الكل مجتهدون، فغضب لذلك غضباً شديداً، وقال: عَلِيٌّ عَلَى الْحَقِّ، ومعاوية ظالم، ويزيد فاسق، وأنتم حلييون تبع لأهل دمشق، وهم يزيديون قتلوا الحسين.

قال: فأخذت في ملاطفته والاعتذار عن المالكي بأنه أجاب بشيء وجده في

كتاب لا يعرف معناه، فعاد إلى دون ما كان عليه من البسط.
قال: ولما كان آخر شهر ربيع المذكور طلبني ورفيقي القاضي شرف الدين وأعاد السؤال عن علي ومعاوية، فقلت: لا شك أن الحق كان مع علي في نوبته، وليس معاوية من الخلفاء فإنه صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة» وقد تمت بعلي وابنه الحسن.

فقال تيمور لك: قُلْ عَلِيٌّ عَلَى الْحَقِّ، ومعاوية ظالم. فقلت: قال صاحب الهداية: يجوز تقلد القضاء من ولاية الجور فإن كثيرًا من الصحابة والتابعين تقلدوا القضاء من معاوية، وكان الحق مع علي في نوبته، فأنس لذلك. انتهى من الكتاب المذكور ملخصًا.

قلت: في قوله: «في نوبته» احتراز لطيف عن نسبة التعدي إلى الصديق، وتاليه كما هو مذهبنا معشر أهل السنة والجماعة، ومرت على تيمور ولم يفتن لذلك.
وفي رواية: لما استولى على كثير من قلاع النصارى، هرب بعض وزرائه وحلق لحيته وحواجبه وصار في صورة قلندري، ووصل معه جماعة إلى تيمور، وشكوا من السلطان يلدزم وحسنوا له الوصول إلى بلاد الروم، فوصل إلى البلاد الشامية والحلبية، وقتل من بها وأسر ونهب، واستمر إلى أن وصل أذربيجان، وخرج إليه السلطان فغدر به العساكر، وذهبوا إلى تيمور، ووثب هو ومن بقي معه وقتل ولده السلطان مصطفى واستمر يقاتل إلى أن وصل بسيفه إلى تيمور، فألقى عليه بساط، فأمسك وتوفي. كما تقدم ذكر ذلك.

ثم تولى السلطان محمد ابن السلطان يلدزم (١)

واستقر في السلطنة سنة ست عشرة وثمانمائة، وكانت مدته تسع سنين.
وافتح عدة من الحصون منها: بلدة اسكب وآق شهر وغيرهما.
وكان شجاعًا مقدامًا مجاهدًا في سبيل الله تعالى، وله خيرات متعددة منها «برسا» جامع عظيم، ومدرسة علمية، وتربة سلطانية، ومنها بولاية مرزفون جدد، وأنشأ جامعين وحمامين، وأوقفًا عديدة كثيرة الغلة، وقفها وشرط أن تحمل غلتها إلى الحرمين الشريفين.

فهو أول من عمل الصر لأهل الحرمين الشريفين من آل عثمان أدام الله دولتهم وصولتهم.

ولما تم أجله المسمى في أم الكتاب، دعاه ملك الفناء إلى دار البقاء المستطاب. فعاش سعيداً، ومضى حميداً، وتحول من دار البلى إلى دار البقا ﴿ إِنَّ إِلَـهَ لِرَبِّكَ الْأَرْحَمَ ﴾ [العلق: ٨].

وكانت وفاته بمرض الإسهال، فتكون له مرتبة الشهادة، وذلك في سنة خمس وعشرين وثمانمائة.

ثم تولى السلطان مراد الثاني^(١) ابن السلطان محمد بن يلدرم

وجلس على تخت السلطنة سنة خمس وعشرين وثمانمائة، وظهر في أيامه رجل وادعى أنه ابن السلطان يلدرم، واسمه مصطفى الذي فقد في فتنة تيمور، فظهر تزويره فصلبوه في برج قلعة أدرنة. وفتح في زمنه سمندرة ومورة. ثم إنه بحسن اختياره أقعد ولده محمداً الآتي بعده واختار التقاعد ببلدة « مغنيسا » مدة. ثم قامت عليه طائفة الينيشرية، فأرسلوا إلى مغنيسا وأتوا بوالده منها، وأجلسوه ثانياً على سرير السلطنة.

فلما توفي أجلس ابنه السلطان محمد على تخت السلطنة، وعمره ثمانية عشر عاماً، وعاش تسعاً وخمسين سنة، وكان ملكاً عظيماً مطاعاً، عين للحرمين الشريفين من خاصة صدقاته ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهباً، وللشرفاء مثلها في كل عام، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين عاماً.

قال ابن تغري بردي في « تاريخه »: لم يكن في زمانه شرقاً ولا غرباً مثله في غزو الكفار أهلك الله على يده الملك قزال، عظيم ملوك الفرنج؛ في عام ثمانية وأربعين وثمانمائة، وكانت وقعة عظيمة مشهورة هلك فيها من الفريقين ما يزيد على عشرين ألفاً، كانت طوائف الكفار اجتمعوا من كل ناحية في هذه الوقعة، وعزموا على استئصال ثغور الإسلام خصوصاً بيت المقدس، فلما التقى الجمعان ظهر أن طائفة الكفار فوق عدد المسلمين بأضعاف مضاعفة، فلما وقع الحرب ظهرت الغلبة على المسلمين.

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ٥٦ - ٦٣ .

فأرسل الله تعالى ريحاً عاصفاً بتراب عظيم على جانب الكفار فأدبروا وركب المسلمون أكتافهم قتلاً وأسراً، وغنموا غنائم جزيلة لا حد لها ولا عد، من النقود والخيول والسلاح وغير ذلك، ومحاسنه كثيرة ومآثره شهيرة.

ثم تولى السلطان محمد خان فاتح القسطنطينية^(١) ابن مراد

مولده: عام خمس وثلاثين وثمانمائة، جلوسه أولاً بفراغ من والده له في عام سبع وأربعين وثمانمائة، وتقاعد والده بولاية مغنيسا إلى نيف وخمسين، فقامت طائفة الينيشرية واجتمعت على عود السلطان مراد خان لصغر ولده محمد المذكور، فعاد السلطان مراد مدة يسيرة ثم أدركته الوفاة.

واستقر السلطان محمد المذكور في الملك عام وفاة والده الموافق لسنة ست وخمسين وثمانمائة.

ثم إن السلطان محمد سلك طريق العدل وأقام نظام الملك، وأظهر أبهة السلطنة وذلك جميعه ببركة والده ونفع ما جمعه له من المال والرجال، والمدن الواسعة، والأمصار النافعة، وهابته الملوك ودخلت في طاعته أكابر الممالك وأعيانها، فملك تسعة سلاطين أربعة من المسلمين وخمسة من النصارى، أما المسلمون فسلطان ولاية « قرمن »، وسلطان « كرميا »، وسلطان « النكا »، وسلطان « اسفنديار »، وفتوحاته مشهورة.

وكان من أعظم سلاطين آل عثمان وأقواهم اجتهداً، له غزوات كثيرة لا تحصى، من أعظمها: فتح القسطنطينية في اليوم الحادي والخمسين من حصارها، وهو الرابع والعشرون من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وله كرامات عجيبة وآثار بديعة، وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة. ولما افتتح القسطنطينية صلى فى أكبر كنائسها وهي أيا صوفية صلاة الجمعة وهي باقية تسامي قباب السماء وتحاكي في الاستحكام متين الأهرام، فما وهت ولا وهنت كبراً ولا هرمأ. دام سلطانه إلى أن مات سنة ست وثمانين وثمانمائة.

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ٦٤ - ٦٩، صحوة الرجل المريض ص ٤٠ - ٤١ .

ثم تولى السلطان بايزيد^(١) ابن السلطان محمد وجلس في سنة ست وثمانين وثمانمائة، وافتتح الفتوحات

وفي أيامه في سنة ثمان وثمانين أو خمس وتسعين وثمانمائة ظهر من بلاد العجم شاه إسماعيل ابن حيدر الصفوي وكان له ظهور عجيب وفتك في البلاد، وسفك دماء العباد، فأظهر مذهب الرفض والإلحاد، وغير اعتقاد أهل العجم إلى الانحلال والفساد بعد الصلاح والسداد. وأخرب ممالك العجم، وأزال من أهلها حسن الاعتقاد، والله تعالى يفعل في ملكه ما أراد، وتلك الفتنة باقية إلى الآن في جميع البلاد.

وظهر من أتباع شاه إسماعيل المذكور ببلاد الروم شخص ملحد زنديق، يقال له: سلطان قولي. أهلك الحرث والنسل، وعم بالفساد والقتل، فأرسل السلطان وزيره الأعظم على باشا بعسكر كثير إلى قتال هذا الطاغوي وأمدّه بجيش عظيم لقطع جاذرة هذا الباغي فاستشهد على باشا في ذلك القتال، ووفد بأكفان شهادته على الكبير المتعال، وانكسر الشيطان فولى المفسد التعيس وعسكره جنود إبليس، وأسكن الله تلك الفتنة بعد ما أطلقت، وكفى الله شر أولئك الأشرار بعد أن عظمت محتهم وعمت.

وفي سنة سبع وثمانين وثمانمائة قاتله أخوه السلطان جم شيد، فبرز السلطان بايزيد لقتاله فهزمه، ففر إلى مصر ونجح زمن السلطان قايتباي، وعاد فأكرمه السلطان قايتباي إكرامًا عظيمًا، فذهب إلى دوسق وجمع طائفة من الغزاة، ونازع أخاه على الملك ثانيًا، فقاتله السلطان بايزيد فانكسر السلطان جم ثانيًا، وفر إلى بلاد النصارى في سنة ٨٨٨ ثمان وثمانين وثمانمائة، فأرسل إليه السلطان بايزيد أحد عبيده في صورة حلاق، فاستخدمه وأمره أن يحلق رأسه فحلق رأسه بموسى مسموم، وهرب في الحال، وأثر السم في رأسه وسرى إلى بدنه فمات سنة خمس عشرة وتسعمائة.

وكان السلطان بايزيد ملكًا جليلاً عالمًا عاملاً، ترقى في مراتب الكمال الجلية وتسئم ذرى المفاهر الأئيلة، جمع الله له بين السلطنة العظمى الظاهرة، والإمامة

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ٧٠ - ٧٨ .

الكبرى الباطنة حتى نقل عنه أنه كان يرى القبلة المعظمة في افتتاح كل صلاة، وكانت أيامه كثيرة الخيرات والفتوحات.

وكان يجهز إلى أهل الحرمين الشريفين في كل عام أربعة عشر ألف دينار ذهبًا يصرف نصفها على فقهاء مكة والآخر للمدينة.

وممن ورد عليه في شبابه خطيب مكة الشيخ محيي الدين عبد القادر بن عبد الرحمن العراقي، والشيخ شهاب الدين أحمد بن العُليّ شاعر البطحاء، وفاضلها فنال منه خيرًا كثيرًا. وصنف له العليّ تاريخًا «سماء الدر المنظوم، في مناقب السلطان بايزيد ملك الروم»، وامتدحه بقصيدة رائية طنانة أولها: [من الطويل]

خُذُوا مِنْ ثَنَائِي مُوجِبَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَمِنْ دُرِّ لَفْظِي طِيبِ النِّظْمِ وَالنَّشْرِ
فِيَا رَاكِبًا يَسْرَى عَلَى ظَهْرِ ضَامِرٍ إِلَى الرُّومِ يَهْدِي نَحْوَهَا طِيبِ النَّشْرِ
لَكَ الْخَيْرُ إِنْ وَافَيْتَ بَرُوصَ عُجْبِهَا رَوِيدًا لِإِسْطَنْبُولَ سَامِيَةِ الذِّكْرِ
لَدِي مُلْكٌ لَا يَبْلُغُ الْوُضْفُ كُنْهَهُ شَرِيفِ الْمَسَاعِي نَافِذِ النَّهْيِ وَالْأَمْرِ
إِلَى بَايَزِيدِ الْخَيْرِ وَالْمَلِكِ الَّذِي حَمَى بِيضَةَ الْإِسْلَامِ بِالْبِيضِ وَالسَّمْرِ
وَجَرَّدَ لِلدِّينِ الْحَنِيفِيِّ صَارِمًا أَبَادَ بِهِ جَمْعَ الطَّوَاعِيَةِ وَالْكُفْرِ
وَجَاهَدَهُمْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ رَجَاءً لِمَا يَبْقَى مِنَ الْفَوْزِ وَالْأَجْرِ
لَهُ هِمَّةٌ تَمَلَأُ الصُّدُورَ وَصَوْلَةٌ مَقْسَمَةٌ بَيْنَ الْمَخَافَةِ وَالذِّكْرِ
أَطَاعَ لَهُ مَا بَيْنَ رُومٍ وَفَارَسٍ وَدَانَ لَهُ مَا بَيْنَ بُصْرَى إِلَى مِصْرٍ
هُوَ الْبَحْرُ إِلَّا أَنَّهُ دَائِمُ الْعَطَا وَذَلِكَ لَا يَخْلُو مِنَ الْمَدِّ وَالْجَزْرِ
هُوَ الْبَدْرُ إِلَّا أَنَّهُ كَامِلُ الضِّيَا وَذَاكَ حَلِيفُ النَّقْصِ فِي مَعْظَمِ الشَّهْرِ
هُوَ الْغَيْثُ إِلَّا أَنْ لِلْغَيْثِ مَسْكَةٌ وَذَا لَا يَزَالُ الدَّهْرُ يَنْهَلُ بِالْقَطْرِ
هُوَ السِّيفُ إِلَّا أَنْ لِلسِّيفِ نَبْوَةٌ وَفَلَا وَذَا مَاضِيَ الْعَزِيمَةِ فِي الْأَمْرِ
سَلِيلُ بَنِي عَثْمَانَ وَالْقَادَةِ الْأَلَى عَلَا مَجْدُهُمْ فَوْقَ السَّمَائِينَ وَالنَّسْرِ
مُلُوكُ كِرَامِ الْأَصْلِ طَابَتْ فُرُوعُهُمْ وَهَلْ يَنْسَبُ الدِّينَارُ إِلَّا إِلَى التَّبْرِ
مَحَا أَثَرَ الْكُفَارِ بِالسِّيفِ فَاعْتَدَتْ بِهِ حَوْزَةَ الْإِسْلَامِ سَامِيَةَ الْقَدْرِ
فِيَا مُلْكًا فَاقَ الْمُلُوكَ مَكَارِمًا فَكُلُّ إِلَى أَدْنَى مَكَارِمِهِ يَجْرِي
لَنْ فَتَقْتَهُمْ فِي رَتْبَةِ الْمُلْكِ وَالْعَلَا فَإِنَّ اللَّيَالِي بَعْضُهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ

فدتك ملوك الأرض طرأ لأنها
تعاليت عنهم رفعة ومكانة
لك العزة القعساء والرتبة التي
سموت علواً إذ دنوت تواضعاً
غدت بك أرض الروم تزهو ملاحه
إليك ابن عثمان الذي سار ذكره
يمينك تروى عن يسار ونائل
وإني لصوآن لدر قلائدي
فقابل رعاك الله شكري بمثله
فلا زلت محروس الجناب مؤيداً
فأمر للعليف بعد وصولها إليه، وفرحه بها بألف دينار ذهباً جائزة، ورتب له في
دفتر الصر لكل عام مائة دينار ذهباً فصارت بعده لأولاده رحمهم الله تعالى .
وكان للسلطان بايزيد أولاد، ولم يخلع بالملك إلا لولده سليم خان، ودام
سلطانه اثنين وثلاثين عاماً، إلى أن مات سنة ٩١٨ تسعمائة وثمانية عشر .

ثم تولى السلطان سليم ابن السلطان بايزيد كاسر العجم وفاتح بلاد العرب^(١)

وجلس في سنة ثمان عشرة وتسعمائة، وفي سنة عشرين وتسعمائة ركب على
إسماعيل شاه العجم ابن الشيخ حيدر ابن الشيخ جنيد ابن الشيخ إبراهيم ابن سلطان
خوجه شيخ على ابن الشيخ صدر الدين موسى ابن الشيخ صفي الدين إسحاق
الأردبيلي، وإليه ينسب أولاده فيقال لهم : الصفويون .
وكان الشيخ صفي الدين صاحب زاوية في أردبيل، وله سلسلة في المشايخ أخذ
عن الشيخ زاهد الكيلاني، وتنتهي بوسائط إلى الإمام حجة الإسلام أحمد الغزالي
فرجع بالظفر المبين .
ثم في سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ركب على السلطان الغوري، وكسره في
مرج دابق قرب حلب وأباد ملكه، وقد مرت قصته .

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ٧٩ - ٨٦ .

ومن وزرائه الأجلة بير باشا، وابن هرسك أحمد، وسان باشا، وزنبيلي وغيرهم.

مولده في « أماسية » سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، وكان عمره جميعه أربعاً وخمسين سنة ولم تطل سلطنته لأنه كان سفاكاً، وهذه عادة الله تعالى في السلاطين والأمراء إذا أكثروا من القتل، وكان سلطاناً قهاراً، ملكاً جباراً، يغير زيه في لباسه ويتجسس في الليل والنهار ويطلع على الأخبار، وله عدة مصاحبين يدورون تحت القلعة، وفي الأسواق والمحافل والجمعيات ومهما سمعوه ذكروه له فيعمل بمقتضى ما يسمعه، وله معرفة باللسانين الرومي والفارسي، وشعر رائق ونظم فائق، ورأيت له بيتين في الكوشك الذي بنى له، لما فتح مصر وهما بالعربي بخطه قوله: [من البسيط]
 الْمُلْكُ لِلَّهِ مَنْ يَظْفَرُ بِنَيْلِ مَنْى يَتْرُكُهُ قَسْرًا وَيَضْمَنُ بَعْدَهُ الدَّرَكَا
 لَوْ كَانَ لِي أَوْ لِعَيْرِي قَدْرُ أُتْمَلَةٍ فَوْقَ التُّرَابِ لَكَانَ الْأَمْرُ مُشْتَرَكَا
 وتحتها ما صورته: كتبه سليم بذلك الخط والقلم.

كذا ذكره العلامة قطب الدين النهروالى عن نفسه فهو فاعل رأيت. وسليم هذا هو أول من ملك مصر من آل عثمان سلاطين الزمان أدام الله تعالى دولتهم إلى يوم القيامة، ومد على ملكهم فسطاط الإجلال والكرامة. فإنهم ظل الله تعالى الممدود على الأرض، والقائمون بشعائر الإسلام من السنة والفرض. كان عظيم الهيبة، سعيد الحركة، كثير المبرات دائم الأسفار، مستيقظاً للأمر الجليل، نظره إلى معالي الأمور، لو انتظم في سلوكه كل لحظة أعظم الأمصار هو عنده في غاية الاحتقار والاستصغار، ويكفيه فتح مصر أم الدنيا، طاب ثراه في الجنان العليا.

ولد السلطان سليم سنة خمس وسبعين وثمانمائة، وتولى السلطنة بعد أبيه في حياته بنزوله له عن الملك لأمر اقتضاه الحال.

وأما سبب ركوبه، ومقاتلته لإسماعيل شاه، فإن إسماعيل هذا طغى وبغى وصار يقتل من ظفر به قتلاً ذريعاً، ولا يمسك شيئاً من الخزائن بل يفرقها في الحال على عساكره، إلى أن ملك تبريز وأذربيجان وبغداد وعراق العجم وخراسان. وكان يدعي الربوبية، وكان عسكره يسجدون له، وقتل خلقاً لا يحصون ينفون

على ألف ألف أو يزيدون بحيث لا يعهد في الإسلام ولا في الجاهلية مقدار ما قتله شاه إسماعيل هذا، وهو من ملوك العجم الموسومين بقزل باش وكان ركوبه عليه سنة عشرين وتسعمائة، فحاربهم الحرب الشديد، وانتصر عليهم، وملك غالب بلادهم مع مزيد قوتهم وعزتهم، وكان قبل الحرب كتب إليهم كتاباً فلم يعبتوا به ثم كتب إليهم كتاباً آخر أغلظ عليهم فيه، ووسمهم بالخوف والجبن عن اللقاء فاستنهضهم به؛ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وصورة الكتاب الأول: ليعلم إسماعيل بهادر أصلح الله أحواله أن جميع أهل الشرائع والأحكام، وعلماء الدين والإسلام، المحبين لشريعة سيد الأنام، قد أفتوا بكفره وفسادك، وضلالك وعنادك، لارتكابك العقائد الفاسدة، والضلالات الكاسدة، والأحوال الفظيعة، والأقوال القبيحة الشنيعة. ومن استحل ما حرم الله فلا شك في كفره، فلذلك نشرت الأعلام الإسلامية، والرايات الدينية. وسرْتُ إلى بلادك لإمحاء رسمك ووجودك. واضمحلال اسمك وجنودك. لكن لما كان من سنة الدين، وطريق الحق المبين، الإخبار والإعلام بالدعوة إلى اتباع شريعة الإسلام، قبل الإلجاء بالسيف حين لا يفيد أين ولا كيف؛ أرسلت إليك مخبراً بأنك إن أخلصت التوبة، وصدقت في الأوبة، ورجعت عن تلك العقائد القبيحة الفظيعة فقد فزت بالمقصد الأسنى، ولك الأمان مع الزيادة في الحسنى.

وإن لم ترجع فلتعلم أنني قد سرت إليك بآيات النصر والتمكين، ورايات الظفر المبين، عملاً بقوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾ [التوبة: ١٢٣]، لترمى بالعذاب مجاهرة، والنكال مباهرة، والسلام على من اتبع الهدى.

فلم يرتدع لذلك، فأرسل إليه بكتاب ثانٍ بديع اللفظ والمعاني، فلم يرتدع لفرط العتو والطغيان. فسار إليه السلطان سليم، فتلاقيا في « شالدران » بقرب « تبريز ». وأراد أن يقيم بتبريز لأخذ إقليم العجم جميعه فما أمكنه ذلك لكثرة الغلاء والقحط، وسبب ذلك أن القوافل التي كان أعدها السلطان سليم لأن تتبعه بالميرة والعليق تخلفت عنه في محل الاحتياج إليها وما وُجد في تبريز شيء من المأكولات والحبوب؛ لأن إسماعيل شاه حرقها عند انكساره، فاشتد الغلاء بحيث بيعت العليقة بنحو مائتي درهم، والرغيف الخبز بمائة درهم، فاضطر السلطان سليم إلى العود

عن تبريز إلى بلاد الروم، وتركها خاوية على عروشها، ثم تفحص عن سبب انقطاع القوافل وتأخرها عنه وقت الحاجة، فأخبر أن سبب ذلك أن سلطان مصر الغوري قانصوه كان بينه وبين إسماعيل شاه محبة ومودة ومراسلات، بحيث كان السلطان الغوري يتهم بالرفض وعقيدته سبب ذلك، فلما ظهر للسلطان سليم أن الغوري هو الذي أمر بقطع القوافل عنهم صمم على قتال الغوري أولاً، وبعد استيلائه عليه وعلى بلاده يتوجه على شاه إسماعيل ثانيًا.

فلما استقر ركابه في تخت ملكه، تهيأ لأخذ مصر، وإزالة دولة الشراكسة عنها. وتوجه إلى ناحيته من جهة حلب، فالتقى بـ «مرج دابق» كما تقدم ذكر ذلك مفصلاً.

كانت مدته ثمان سنين وأيامًا، وتوفي سنة ست وعشرين وتسعمائة رحمه الله برحمته، وأسكنه بحايح جنته.

ثم تولى السلطان سليمان بن سليم خان^(١)

سنة ست وعشرين وتسعمائة

ولد سنة تسعمائة تقريبًا، فتكون سُنُّه حين التولية ستًا وعشرين سنة، سلك طريق المعدلة وجادة الإنصاف، وتفقّد أحوال الرعايا والعساكر، ورفع الظلم والاعتساف، وأعرض عن المنهيات.

وله خيرات لا تحصى معروفة في الآفاق، وفتوحات وغزوات، رفعت أهل الإيمان، وخفضت أرباب الشقاق والنفاق، منها: انكروس ورودس وبُدين وبلغراديج وغزوة العجم، وألمان وأولونية وبغداد واسطنبول والستوراغون وسكتوار آخر غزواته، وتوفي فيها سنة ٩٧٤ أربع وسبعين وتسعمائة.

ومن مشاهير العلماء في أيام دولته المفتي على شلبي وكمال باشا زاده وسعدي شلبي وجوي زاده ومفتي خواجه شلبي وأبو السعود أفندي صاحب التفسير وغيرهم. ووزراؤه بيري باشا وإبراهيم باشا وإياس باشا ولطفى باشا وسليمان باشا ورستم باشا وعلي باشا ومحمد باشا، كلهم كانوا أرباب خيرات ومبرات.

افتتح البلدان الواسعة بالقهر والحرب، وأخذ الكفار والملاحدة بالطعن

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ٨٧ - ٩٦، صحة الرجل المريض ص ٤٢ - ٤٣ .

والضرب. وأيد الدين الحنفي بمجده وسيفه الباتر.
وأقام الملة الحنيفية، وأحيا ما لها من مآثر، ونصر مذهب السنة السنية، وأظهر شعائر الإسلام البهية، وردع أهل الإلحاد فما لهم من قوة ولا ناصر.
وكان مجدد دين هذه الأمة المحمدية في هذا القرن العاشر، كما ورد: « لِكُلِّ قَرْنٍ مُّجَدِّدٌ ظَاهِرٌ » .

وبنى المدارس المعروفة بالسليمانية للأربعة الأئمة : المالكي ثم الحنفي ثم الشافعي ثم الحنبلي.

وقد جعلت مدرسة دار حديث لعدم متأهل من الحنابلة، وبسط بساط العدل في سائر الممالك، وفتح القلاع والحصون، ومهد المسالك.

وكانت أيام سلطته باسمه الثغور، ودولته الشريفة غرة في جباه الدهور.
وله فتوحات عديدة منها، وهو أولها: رودس، وغيرها مما تقدم ذكره.
ومنها: الأقطار اليمنية وثغورها الإسلامية، وكانت في القديم لعدة سلاطين وملوك.

وهنا أحببت ذكر رسالته إلى الإمام المطهر بن شرف الدين الحسني الداعي بقطر اليمن لحسن تنميقها وكثرة تحقيقها ومئات ألفاظها وإبراقها، ورصانة إرعادها وإبراقها. وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا مثالنا الشريف السلطاني، وخطابنا المنيف العالي الخاقاني، لا زال نافذاً مطاعاً بالعون الرباني، واليمن الصمداني، أرسلناه إلى الأميري الكبير، العوني النصيري، الهمامي المطهري، الشريف الحسيبي النسيبي، فرع الشجرة الزكية، طراز العصاة النبوية العلوية، ونسل السلالة الهاشمية السنية المطهر بن شرف الدين. نخصه بسلام أتم، وثناء أعم.

ونبدي لعلمه الكريم أنه لا يزال يتصل بمسامعنا الشريفة إخلاصه لدينا، وقيامه بقلبه وقالبه بمروضة سلطاننا وانقياده إلى جانبنا، وبمقتضى ذلك حصل شكرنا التام، والثناء العام، على مناصحته ومكاتبته.

ولما برز أمراؤنا الشريفة مسابقين متتابعين مع وزيرنا المعظم سليمان باشا إلى البلاد الهندية لفتح تلك الجهات السنية؛ إحياء لسنة الجهاد، وقطع دابر الفساد وأهل

العناد. فاستبشر بذلك كل مسلم وصار فرحا مسرورا، فوقع قدر الله وكان أمر الله قدرا مقدورا.

فرجع وزيرنا المشار إليه فوجد طائفة من اللوند قد تملكوا « زيد » من المملكة اليمنية، وحصل منهم غاية المشاق بأذى الرعية، وزاد ظلمهم على العباد والبلاد، وعم ضررهم كل حاضر وباد، فتتبع آثارهم وقطع دابرهم، واستنقذ الرعايا من أيديهم وصارت مملكة زيد من ممالكنا الشريفة، وعاد إلى أعتابنا المنيفة، وأبرز من يديه مكتوبكم ومكتوب والدكم يتضمن الإخلاص لطاعة سلطاننا، وأنهما صارا من أتباعنا، اللائذين بأعتابنا، وبموجب ذلك حصل عندنا لكم زيادة المحبة الصادقة وحسن المودة، وتحققنا ما كان يبلغنا عنه على السنة الناس السفار، المترددين على أعتابنا الشريفة من تلك الديار، وبلغنا الآن عنهما خلاف ذلك وتغير ما كاتبنا به في السابق، مثل غير مطابق. وأنه وقع بينهما وبين أمرائنا وعساكر دولتنا بتلك البلاد خُلف كبير، ووقائع عم ضررها المأمور والأمير، وهذا عين الخطأ المحض الذي يترتب عليه ذهاب الروح لمن عقل وفهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]، فالآن ملكنا الشريف السامي قد ملك بعون الله تعالى بساط الأرض شرقا وغربا، وصارت سلطتنا القاهرة كالإبريز المصفى، بعون النبي المصطفى، ورقم سجل سعادتنا بآيات النصر، على أهل العصر، وعلى سائر الملوك بإحياء سنة الجهاد إلى يوم العرض ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [الجمعة: ٤]، ﴿ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَبِمَكِّكَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧]، وعساكرنا المنصورة أينما انخرطت خرطت، وأينما سقطت التقطت، وحيثما سلكت ملكت، وأين حلت فتكت، لا يعجزهم صغير ولا كبير، ولا جليل ولا حقير، ولو شئنا لعينا من عساكرنا المنصورة شردمة قليلون. نحو مائة ألف أو يزيدون، مشاة وركبانا من البر والبحر، لأمرائنا ولأمرنا ممثلون، ونقوى عددهم بالاستعداد، ونشدهم بالقوة والآلة والزاد، ونتبع العسكر بالعسكر، ونملأ البر والبحر، ونلحق الجيش بالجيش من كل أسود وأحمر، حتى يتصل أول عساكرنا بآخرهم، وواردهم بصادرهم، ويكون أولهم في البلاد اليمنية، وآخرهم في بلادنا المحمية.

ولا نحتاج نعرفكم بقدرة سلطاننا وتشديد أركان دولتنا وتشديد عزمنا. فإن

الملوك ذوي التيجان، وأصحاب القوة والإمكان، لا يزالون خاضعين لهيئتنا الشريفة قهراً عليهم، مطأطين رءوسهم خشية مما يلحق بهم عند المخالفة ويصير إليهم، وذلك مشهور ومعلوم، وظاهر ليس بمكتوم، لكن غلب حلمنا عليه من تعجيل النكاية إليه كونه من سلالة سيد المرسلين، ومن أهل بيت النبوة الطاهرين، ولازم على ناموس سلطنتنا الشريفة أن ننبه قبل اتساع الخرق عليه، ونعرفه بما يحل به ويصير إليه، وكونه آوى إلى الجبال يتحصن بها عن الزوال، ويزعم أن ذلك ينجيه فهذا عين المحال، وتدبيره تدميره على كل حال، جهل ذلك أم علم ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعٌ﴾ [هود: ٤٣]، ﴿إِنَّ الْفَرْقَ كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١٠، ١١] ولا لهارب من سلطنتنا مفر.

وقد اقتضت أوامرنا الشريفة تعيين افتخار الأمراء الكرام، صاحب العز والاحتشام، المختص بعناية الملك العلام مصطفى باشا، دامت معدلته، ونفذت كلمته باشا على العساكر المنصورة، وصحبته ثلاثة آلاف من الجند المؤيدة بالله مشاة ورماة، حماة كفاة، إعانة لأمر الأمراء الكرام، ذوي القدر والاحترام، المخصوص بمزيد عناية الملك العلام، ازدمر باشا دامت معدلته وحرست نعمته، وعينا من البر ألفي فارس، وهياناً مثلها بعددها وعليقتها من البحر، فعرض على مسامعنا الشريف مصطفى باشا أن أن يؤخر تجهيز الجيش المذكور من البحر إلى حين يتوجه إلى تلك الجهات وينظر في الأحوال، وما عليه أهل تلك الأقطار من الحال، وإذا وقع من أحد خلاف، واحتاج إلى الخيول المذكورة فيجهز إلينا لطلبهم فتصل إليه على ما يحب، فأخرنا ذلك إلى حين يعود الجواب بتحقيق الأخبار عن الإمام وولده. فحال وصول مصطفى باشا المشار إليه إلى تلك الديار، واستقراره بتلك الأقطار، ولا بد أن تحضر إلى خدمته، ممثلاً لكلمته، وتقابله بقلب منشرح، وصدر منفسح، وتمشي تحت صناجقنا الشريفة، وتدخل تحت طاعتنا المنيعة، وتكون مع عساكرنا منضمماً لأوامرنا المذكورة على قلب رجل واحد، غير متقاعس ولا متقاعد. فإن مصطفى باشا المشار إليه، باشا عساكرنا وخليفة أمرنا، وكلامه من كلامنا. وأمره من أمرنا، ونهيه من نهينا، ومن أطاعه فقد أطاعنا، ومن خالفه فقد خالفنا، ونعوذ بالله من المخالفة، وعدم الانقياد والمؤالفة، فليتفكر المطهر في

نفسه، قبل حلول رمسه، وليتنبه من رقدته، ويصحو من غفلته، ويفيق من سكرته. فإن فعل ذلك وانضم إلى سلطنتنا الشريفة، فقد رحم نفسه وصان مهجته ويرى من دولتنا العادلة غاية الرعاية، وبلوغ الأمانة مع الزيادة إلى حد النهاية.

وأنه إذا دخل تحت طاعتنا ومشى على الاستقامة لدينا، وانضم إلى عساكرنا فننعم عليه بأمرنا الشريف بما يستحق به في مملكته مستقلاً به من غير معارض له في ذلك، ولا منازع له فيما هنالك، فحيث فعلت فأنت من الفائزين، لا تخف ولا تحزن، إنك اليوم لدينا مكين أمين، وإن حصل والعياذ بالله مخالفة، واستمر على العناد والمجانفة، وانهمك في الضلال، والمكابرة والخيال، فيصبح ذنبه في رقبته، ويهلك نفسه بيده ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]، ويدخل في قول أصدق القائلين: ﴿يُخْرِتُونَ يُؤْتُهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: ٢] ويصير بعد الوجود إلى العدم، ويندم حيث لا ينفعه الندم، وقد حذرنا رافة به وتحتنا عليه، بإصدار هذا الكتاب إليه، فإن خالف أتيناه بجنود لا قبل له بها، وأخرجناه منها ذليلاً حقيراً، لا ملجأ له من سلطنتنا إلا إليها التي هي لمن سالمها ظلاً ظليلاً، وعلى من خالفها عذاباً وبليلاً، ومثله لا يدل على الصواب فليعتمد على ذلك وعلامتنا الشريفة حجة عليه والسلام عليه.

فكتب إليه الإمام المطهر الجواب وهو: نور الله شمس الإسلام وأطلعها، وفجر عيون الشريعة وأنبعها، ولألا كواكب الدين الحنفي وأسطعها، وأعلى منار الملة البيضاء ورفعها، وزلزل جموع الظلم والعداوة وزعزعها، وأرعد قلوب الجبابرة المردة وأرعبها، وألف بين قلوب المسلمين وجمعها، بدوام دولة مولانا السلطان المعظم العظيم، ذي الملك الباهر القاهر العقيم، القاطع بسيف عزمه عنق كل جبار أثيم، الذي أوتي الحكمة والتحية والله يؤتي من يشاء فضله العيم. شمس الخلافة المضيئة في الليل البهيم، ظل الله في أرضه القائم بستته وفرضه القويم، حجة الله الواضحة للحق على التعميم. أمينه على خلقه، وخليفته القائم بحقه بتقدير العزيز العليم. المتسم بحماية آل الرسول، وأبناء فاطمة البتول، سلالة النبي الكريم، الباسط عليهم ظل عدله فلا ينالهم حر الجحيم، فهم راتعون في رياض إحسانه ولها نبت وسيم، وكارعون من حياض امتنانه التي لا يشوب صفوها الدهر المليم. سامي

الفخار، زكي الأصل والنجار.

الفائز بحوز قصبات السبق في الحسب الصميم. الكاف لأكف من تعاشى عن الهداية، وسلك مسالك الغواية، وكان له في العجرفة تصميم.

الذي لا تحصى صفاته بتعداد، ولو أن الشجر أقلام والبحر مداد، وأسأل بذلك كل خبير عليم. الخنكار الكبير، والخاقان الشهير سليمان بن سليم.

أهدي إلى مقامه نجائب التحية والتسليم، ورحمته الطيبة، وبركاته الصيبة، الموصولة بنعيم دار النعيم. وحرس جنابه العالي، وحرمة المحترم من صروف

الليالي، بما حفظ به الآيات والذكر الحكيم. فإنه ورد من تلقائه - أطال الله للمسلمين في بقاءه - مرسوم سطعت أنواره، وطلعت بالمسرة شموسه وأقماره،

وتضاحكت في عرصات المجد كمائمه وأزهاره، وجرت في جداول الحمد أنهاره، وتحاسد على مشرفه ليل الزمان ونهاره. مرسوم تقر به العيون، وتصلح به الأحوال

والشئون. أنشئ لله نجاره فوجدناه أشفى من الترياق، وأبهى من الإثم في دمع الأحداق. يتبلج تبلج البرق، ويحلب الخيرات تحلب الودق، يفوق اللؤلؤ الثمين

منشورًا، ويفضح شقائق النعمان زهورًا، ويجعل ممدود الثناء عليه مقصورًا. فتعطرت الأندية بنشره، وأعلنت الألسن بحمده وشكره، وهب في البوادي

والأمصار نسيم ذكره، ودخلت الناس أفواجًا تحت نهيهِ وأمره: [من الخفيف]

حَبِّدَا مُدْرَجًا كَرِيمًا جَلِيلًا زَانَهُ مُنْشِئٌ كَرِيمٌ جَلِيلٌ

لَفْظُهُ الدُّرُّ فِي السُّمُوطِ وَفَخْرًا وَبِمَعْنَاهُ سَلْسَلٌ سَلْسَبِيلٌ

وَإِذَا الْمُدْرَجَاتُ كَانَتْ مُلُوكًا فَهُوَ فِيهَا وَبَيْنَهَا إِكْلِيلٌ

مُدْرَجٌ فِيهِ لِلْبَهَاءِ غُدُوٌّ وَمَرَّاحٌ وَمَسْرَحٌ وَمَقِيلٌ

فلله در أنامل صاغته بالبلاغة، وضمته ما يعجز عنه قدامة وابن المراغة، فلو رأه الملك الضليل لطأطأ رأسه خاضعًا، أو ليبدَّ خر ساجدًا وراكعًا.

وعرفنا ما ذكره سلطان الأمم، وملك رقاب العرب والعجم، المتسم بحماية الحرم، من الإحاطة بطاعتنا، ودخولنا تحت لوائه وأقواله وأفعاله، والحمد لله الذي وفقنا لطاعته، وردنا عن السلوك في مخالفته، فإن لنا بكم الحظ الأوفر مع زيادة

الحسنى، والنصيب الأفخر الأهنى.

ونرجو نيل الشرف الكامل الأكمل، ونجح المُنَى والمطالب، وبلوغ نهاية الأمانى والمآرب. فمن استمسك بعروتكم الوثقى فاز بمطالبه، ونال الغاية القصوى من مآربه، ورفع له الدرجات السامية العلية، وتم له بذلك كل سؤال وأمنية، ويحظى بعيشة هنية، راضية مرضية. وهذه طريقة معروفة، وسنة قديمة مألوفة. لا تميل عن الوفا، ولا تكدر من ذلك المشرب ما صفا. كيف وطاعتكم من طاعة الملك الخالق، ومعصيتكم تظلم منها المغارب والمشارق، ونحن من مودتكم على يقين، ونرجو أن لا تصغوا أذنًا لكلام الفاسقين، ولا تهملوا رعاية الصالحين المتقين، ولا تقطعوا حق ذرية النبي الأمين، وأبناء عليّ الأنزع البطين، كرم الله وجهه في عليين ﴿قُلْ لَا أَتَكْبَرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، وذلك نص الكتاب المبين.

فأنتم أولى برعاية من أمر الله أن يرضى، ومن تقر به من عِثَرَةِ النبي أذنًا وسمعًا، فكم لكم من محامد مشكورة، ومفاخر مشهورة، ومعاني جميلة مثورة، تؤمل أن تشقوا بحسامها نوافج الوشاة، وتردوا كيد كل كذاب لا يراقب الله ولا يخشاه، والذي ينقله إليكم أبواب الزور، والإفك والفجور. من تحولنا عن طاعة السلطان الأعظم، ومخالفتنا لما سبق من مودتنا وتقدم. كذب يعلمه الداني والقاصي، ومن التمويه الذي لناقله أشد الاقتصاص. حاشا وكلا أن نرضى مخالفة، أو نميل عن الأحوال السالفة، أو ننكر تلك المعارف العارفة، نعوذ بالله من الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ، أو نكون ممن تعدى الحد بعد الطور، وتقاعد عن طاعتكم وهي محل السعي إليها على الفور، فنكون كمن اشترى الضلالة بالهدى، وتحول عن السلامة إلى مخاوف الردى، وآل الرسول عليه الصلاة والسلام أعرف الناس بالصواب. وأعلمهم بمعاني السنة والكتاب. أطيعوا الحديث. ومن نسب إليهم خلاف ذلك فهو خبيث نبيث. فثقوا منا بالمحبة الراسخة أطنابها، والمودة الشامخة قبابها، والرعاية المفتحة أبوابها.

والذي أشرتم إليه في سامي الخطاب، وبطاقة الكتاب، من بلوغ مخالفتنا لعاكركم المنصورة، وكتائبكم الواسعة الموفورة، ليس له صحة ولا ثبات، ولا كان لنا إلى حربهم تعد ولا التفات، بل قصدونا إلى تلك الجهات، وجلبوا علينا

أترাকা وأروامًا، وهتكوا أستاذًا كانت بيننا وبينهم وذمًا، ولا راعوا لأوامركم الشريفة فينا أحكامًا، وضيقوا علينا مسالك المعيشة خلفًا وأمامًا، ورمونا بمدافع لا يرمى بها إلا الذين يعبدون أوثانًا وأصنامًا.

ونحن من الذين أوجب الله لهم احترامًا، نقيم الشرائع ونميت البدائع ولم نلق أثامًا، ومن الذين يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا. فدافعنا عن أنفسنا وأولادنا بما أمكن من الدفاع، وترك الزيادة عنها لا يستطيع. ونحن في مهاجر يسير، ومكان يأوي إليه البائس الفقير، لا ينافس من اعتصم به، واقتصر على طاعة ربه.

ولو أن عساكركم المنصورة الألوية، المسلمة من صروف الأقضية، وجهوا همهم العلية، وعزائمهم الصلبة القوية، إلى الجهات العصية الكفرية. إذاً لنالوا من الخيرات نيلاً عظيمًا، ولسلكوا سبيل السعادة صراطًا مستقيمًا، وأدركوا من فضل الله سبحانه وتعالى خيرًا ونعيمًا.

بيد أن تشاغلوا بحربنا عن جميع الحروب، وفوتوا بذلك كل غرض لهم ومطلوب، وأهملوا جهات الكفار حتى سقط الجنوب، وهبت في دار الإسلام للشرك جنوب. وحين وصل المرسوم المشرف، والمثال الكريم المعرف، طبنا به نفوسًا، وسلطنا به محلا من الأمن مأنوسًا، ودفعنا به عن وجوه الحق ظلامًا وعبوسًا، وضلالا وبوسًا.

وخمدت نيران الحرب، وغلت أيدي الطعن والضرب. فقررنا بما قررتموه كل قلب، فإن امثل من حوالينا من الأمراء الأكابر، لما صدر عنكم من الموارد والمصادر، فتلك المنية المقصودة، والضالة المفقودة، والدرة الثمينة المنقودة، والغنيمة العظيمة الشاملة الممدودة. وإن خالفوا أوامركم المطاعة، وقابلوا نواهيكم بالإضاعة، فحسبهم عذابكم الوبيل، وما تعدونه لمن خالفكم من التثكيل. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وكنا نود أن نرسل إلى الأبواب الشريفة ما تكتنُّ القلوب والصدور. إلا أن هؤلاء الذين يلوننا قطعوا وسدوا من التواصل أوصالا، وقعدوا لرسلنا بكرًا وأصالا، وصدوهم عن الوصول إلى أبوابكم العالية عن جميع الأبواب، ومنعوهم عن مناهج الذهاب والإياب.

فلولا ما كان منهم من المنع لما نريد، لكان يصدر إلى أبوابكم العالية في كل شهر بريد.

وحين وصل وكيلكم المعظم الباشا مصطفى إلى الجهات اليمنية، والديار التي هي بسيف قهرم محمية. بسط عدله في أهل اليمن، وأحمد نيران الفتن والمحن، وأصلح من الأمور ما ظهر وما بطن، واطلع على الحقائق في الماضي واللاحق، وما نحن عليه بحمد الله من حسن المساعي والطرائق، وكرم الأصول الشريفة والمعارق. وقد أرسل إلينا قصاد أمجاد، محبوب أوداد، عرفوا جميع الأمور، وأحاطوا بالظاهر منها والمستور.

ولعل الله سبحانه وتعالى يهيئ قدومه إلى صنعاء. ويحيى به للإله دينًا وشرعًا، ويقطع به دابر من خالف أمركم قطعًا.

ولعمري إنه رجل عظيم، وذو خطب جسيم، بأرباب الدين رءوف رحيم. قد طابت شمائله، وراقت أوصافه ومخايله. فهو بكل خير يجود، ويحمل من طاعتكم ما يشق على غيره ويثود.

فالله يجعل سعيه مشكورًا، ويشرح بأعماله من الاستقامة قلوبًا وصدورًا، ويدفع بعين عنايته عن الأنام والإسلام شرورًا. ويملا الأنفس والأفئدة جبورًا إن شاء الله وسرورًا. وبعد : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ومنها: بغداد وأعمالها والمشاهد الشريفة النبوية العلوية الحسنية، والموسوية الكاظمية، والعلوية الرضوية.

ومنها: بلاد المغرب وما فيه من الجزائر، وكانت في القديم جامعة لعدة سلاطين، بل كانت دار الخلافة الأموية ثم العباسية ثم العمرية الحفصية ثم الشريفة الحسنية ثم للخلافة العبيدية.

ومنها: الممالك المعروفة بروملي وما اتصل بها من بلاد الكفار على اختلاف أنواعهم وأجناسهم مما لا يحصى كثرة.

ومنها: ما فتح من الممالك الإسلامية بناحية العجم لما خرج لمقابلة قزل باش طهماسب.

ومنها: السفر الأخير وهي الغزاة العظمى التي شرفه الله تعالى فيها بالشهادة، فهو

الملك الذي عاش سعيدًا، ومات شهيدًا. وهذه الفتوحات بعض ما اشتهر. وأما ما هو حقير من جهة أهله أو من قلة محصوله أو مما يكون تابعًا لغيره فذلك لا يحصى ولا يحصر. وأما الخيرات التي فعلها في الحرمين الشريفين والقدس، وغيرها من البلاد فلا يمكن حصرها، يذكر شيء منها على سبيل الاختصار نتشرف بذكره. منها: الصرة العظيمة الرومية الواصلة كل عام وقدرها أحد وثلاثون ألفًا من الدنانير الذهب في كل عام على الدوام. ومنها: عمارة سور المدينة المنورة، وقدر مساحته: أربعة آلاف ذراع، وعرض جداره: ثلاثة أذرع، وارتفاعه: سبعة عشر ذراعًا، وجميعه بالحجر والنورة، وأبوابه: ستة مصفحة جميعها بالحديد. قلت: المعروف أن أبواب سور المدينة الشريفة أربعة، باب غربي وباب قبلي وباب شامي وباب شرقي: يسمى الأول في عرف الناس باب المصري. والثاني الباب الصغير. والثالث باب الشامي؛ لنزوله عنده ذهابًا وإيابًا. والرابع: باب الجمعة. فلعل المؤرخ عد باب القلعة وبابا صغيرًا في أسفل أكبر البروج وأعلاها يسمى عند أهل المدينة باب السر، فهما الخامس والسادس، فيصح العدد حينئذ. وقدر النفقة عليه من الذهب الجديد سبعون ألفًا، ومن الحبوب أربعة عشر ألف إردب حنطة وفولا وغير ذلك، وذلك غير الواصل من مصر المحروسة من الحديد والخشب والرصاص والنحاس والجمال والحمير. ومنها: محراب السادة الحنفية بقرب الروضة النبوية. قلت: ويعرف اليوم بالمحراب السليمانى منقوش بالرخام الملون. ومنها: تجديد عدة من المساجد النبوية، وأنشأ عدة من القباب على من عرف قبره من أعيان السلالة المحمدية. ومنها: ترصيص القبة الشريفة النبوية وهلال القبة المذكورة أعلاه ذهب خالص صرف وباقيه مموه وأهلة المنابر ومنبر الحرم النبوي. ومنها: إنشاء الجدار الغربي بالحرم النبوي وإنشاء منارة عظيمة به.

ومنها: عدة شماعدين من النحاس المطلي بالذهب بالحجرة المطهرة. وإنشاء عدة من الربط وترميم بعضها مما يقرب عددًا إلى العشرين. ومنها: شراؤه ديار العشرة لاتصالها بقبلي المسجد النبوي والغرض الأعظم من ذلك هدمها ليذهب عين ما فيها من المراحيض والبلايع، وما فيه رائحة كريهة، فهدمت جميعها وبقيت بعد هدمها وتعميرهما نافعة لكل خير تجدد بها، قابلة للإلحاق بالمسجد النبوي.

ومنها: عمارة تكية باسم والدته السلاطين العظام يعمل فيها في كل يوم للفقراء خبز وطعام.

ومنها: أنه لما بلغه احتياج المطاف الشريف إلى أساطين، وعرضوا له أن أساطين المسجد الحرام جميعها بالرخام وعرضوا بتعظيم ذلك وكونها من حجر واحد أمر أن تجعل أعمدة من النحاس، فجعلت وقيمتها تعدل وزنها فضة في القياس.

ومنها: منبر عظيم للبيت العتيق الكريم كانت النفقة عليه ثلاثين ألفا من الدنانير الذهب الجديد خارجا عما حمل معه من آلات الحديد والفولاذ والرصاص والمؤن العديدة، ووصل إلى مكة عام ست وستين وتسعمائة. فقال بعض علماء مكة فيه تاريخًا أبياتا آخرها بيت التاريخ هو: [من مجزوء الخفيف]

لُسْلَيْمَانَ مِثْبَرٌ شَاهِدٌ بِالدُّعَا لَهُ

ومنها: تعمير المدارس التي هي من العجائب برسم المدرسين من الأربعة المذاهب كما تقدم ذكره، ومنارة عظيمة من جنسهن جنب أولاهن.

ومنها: عمارة مهبط الوحي والأماكن الشريفة.

ومنها: إجراء الماء من الفرات إلى مشهد الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما. ومنها: بالمسجد الأقصى خيرات لا تحصى.

ومنها عمارة قبة عظيمة على الصخرة الرفيعة الدرجات وجعل عوض التجصيص ألواح من فخار إزنيق بأنواع النقوش وأجل الكتابات.

ومنها: للمساجد الثلاثة المشرفة المذكورة قدر الكفاية من الحبوب والمرتببات والخبز والطعام والصلة المبرورة.

ومنها: بدار الخلافة العظمى قسطنطينية الكبرى إجراء عين من مسيرة ستة أيام أنفق على ذلك من الأموال ما لا يحصره كتب ولا ثروة أقلام.

ومنها: عمارة عظيمة سلطانية جامعة للخيرات الدينية والدنيوية بالشام بالمحل المعروف بالصالحية، وما ذكر هو من بعض خيراته السنية.

ومنها: وهو أعظمها إجراء عين عرفات إلى مكة. وسبب ذلك: أن العين التي كانت بمكة هي عين حنين التي أجرتها زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوجة الرشيد، واسمها: أمة العزيز، لأن جدّها المنصور كان يرقصها وهي طفلة ويقول: أنت زبيدة. فغلب على اسمها، وكانت من أهل الخيرات فصرفت عليها خزائن أموال إلى أن جرت وهي في واد قليل الأمطار بين جبال شواهق عاليات خاليات من المياه والنبات، وشقت له القناة في الجبال إلى أن سلك الماء من أرض الحل إلى الحرم، وجعلت لها شحاحيد من كل جبل يكون ذيله مظنة للماء وجعلت منه قناة متصلة، ومنبع هذه العين جبل شامخ من تلك الجبال يقال له: « طاد » بالطاء المهملة والألف بعدها دال مهملة من جبال الثنية من طريق الطائف، وكان الماء يجري إلى أرض حنين تسقى به مزارع ونخل مملوكة للناس، فاشتريت زبيدة ذلك المحل وأبطلت تلك المزارع والنخل فصارت تلك الشحاحيد يحصل منها المدد لهذه العين، وصار كل شحاذ عينا يساعده عين حنين، منها: عين مشاش، وعين ميمون، وعين الزعفران، وعين البارود، وعين الطان، وعين ثقبه، كلها تنصب في ذيل عين، ويزيد بعضها، وينقص بحسب الأمطار إلى أن وصلت عين حنين إلى مكة المشرفة.

ثم إنها أمرت بإجراء عين وادي نعمان إلى عرفة وهي عين منبعها ذيل جبل كرا وهو جبل معروف فيصب الماء من ذيله في قناة إلى موضع يقال له: الأوجر من وادي نعمان، ومنه إلى موضع بين جبلين شاهقين علو عرفات، ثم منه يجري في القناة إلى أرض عرفات، ثم أدارت القناة إلى جبل الرحمة محل الموقف الشريف، وجعلت الماء ينصب إلى البرك التي في أرض عرفات فتملأ ماء يشرب منه الحاج يوم عرفة، ثم استمرت في عمل القناة إلى أن خرجت من عرفات إلى مزدلفة، ثم إلى جبل خلف منى في قبلتها، ثم ينصب الماء إلى بئر عظيمة مطوية بالأحجار كبيرة جداً تسمى بئر زبيدة إليها انتهى عمل زبيدة فوقف، وهي من الأبنية المهولة ربما يوهم بناؤها أنه من عمل الجن، ثم صارت عين حنين تنقطع عن الوصول إلى مكة،

وكذلك عين عرفات تنقطع عن وصولها إلى متنهاها لتهدم قنواتها وتخريبها بالسيول.

وكانت الخلفاء والسلاطين إذا بلغهم ذلك أرسلوا وعمروها عند انتظام سلطتهم وقوة تمكنهم فتجرى تارة وتنقطع أخرى، فعمرها مظفر الدين صاحب إربل سنة خمس وستمائة ثم المستنصر العباسي سنة ستمائة وتسع وعشرين. ثم في ستمائة وثلاث وثلاثين، ثم في سنة ستمائة وأربع وثلاثين، وجد ذلك مكتوباً في حجر مبني في قرب الموقف الشريف، ثم عمر عين حنين الأمير جويان نائب السلطنة بالعراقين سنة ست وعشرين وسبعمائة، فأجراها إلى مكة وتم نفعها فإنهم كانوا في جهد عظيم لقلّة الماء، ثم عمرها شريف مكة الشريف حسن بن عجلان جد ساداتنا الأشراف أشراف مكة وملوكها الآن، أدام الله سعادتهم مدى الزمان في سنة إحدى وثمانمائة فجرت وانفجرت وكثر الدعاء له من أهل البلاد والحجاج والعباد، ثم انقطعت ولقي الناس لذلك شدة عظيمة إلى أن عمرها الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، ثم عمرها وعمر عين عرفات السلطان قايتباي أجرى الأولى إلى أن دخلت مكة، وأجرى الثانية إلى أن وصلت إلى أرض عرفات، وذلك بمباشرة الأمير يوسف الجمالي وأخيه سنقر الجمالي في سنة ثمانمائة وسبعين، ثم عمر عين حنين آخر ملوك الشراكسة قانصوه الغوري إلى أن جرت وملأت برك الحجاج بالمعلاة، ثم جرت إلى بازان، ثم إلى بركة الماجن بأسفل مكة، ثم انقطعت في أوائل الدولة العثمانية وصار أهل مكة يستقون من آبار حول مكة يقال لها: العسيلات علو مكة ومن آبار بأسفلها بمكان يقال له: الزاهر وسُمي الآن بالجوخي في طريق التنعيم، وكذلك انقطعت عين عرفات وتهدمت قنواتها وكان الحجاج يحملون الماء إلى عرفات من الأماكن البعيدة، وصار الفقراء من الحجاج وغيرهم في يوم عرفة لا يطلبون إلا الماء لغلو الماء وعزته جداً.

قال العلامة القطب: وإنني أذكر سنة تسعمائة وثلاثين، وأنا يومئذ مراهق في خدمة والذي أني اشتريت قربة صغيرة جداً يحملها الإنسان بإصبعيه بدينار ذهب، والفقراء يصيحون من العطش يطلبون ما يبيل حلوقهم في ذلك اليوم الشديد، فلما كان وقت الوقوف، والناس عطاش يلهثون أمطرت السماء وسالت السيول من فضل

الله والناس واقفون، فصاروا يشربون من السيل من تحت أرجلهم ويسقون دوابهم، وذلك من رحمة الله ولطفه بعباده.

فبرزت الأوامر السلطانية السليمانية بإصلاحهما، وعُيِّن لذلك ناظر اسمه مصلح الدين مصطفى من المجاورين بمكة، فبذل جهده في عمارتهما، فجرت عين حنين إلى مكة، وعين نعمان إلى عرفات وذلك سنة ٩٣١ إحدى وثلاثين وتسعمائة، ثم اشترى الناظر المذكور عبيدًا سودًا من مال السلطنة وزوجهم بمثلهم وجعل لهم جرايات وعلوفات برسم خدمة العين، وإصلاح قنواتها، فهي خدمتهم دائمًا وهم باقون إلى الآن طبقة بعد طبقة، ثم توجه الناظر إلى الأبواب لعرض أمور في شأن العين، فأجيب إلى ما أراد وعاد إلى مصر.

ثم ركب من بندر السويس قاصدًا مكة فغرق في بحر القلزم شهيدًا، وما غرق إلا في بحر رحمة الله تعالى سنة ٩٣٩ تسع وثلاثين وتسعمائة.

ثم انقطعت سنة ستين وتسعمائة فعرضت أحوال العيون لى الأبواب السلطانية السليمانية، فالتفت الخاطر السلطاني وتوجه العطف العثماني إلى تدارك ذلك بأي وجه يكون، وأمر بالفحص عن أحوال العيون، فاجتمع قاضي مكة يومئذ عبد الباقي بن علي الغزي، والأمير خير الدين سنجق جدة يومئذ، وغيرهما من الأعيان، وتفحصوا وداروا، وكشفوا فأجمع رأيهم أن أقوى العيون عين عرفات، وطريقها ظاهر ودبولها مبنية إلى بئر زبيدة، وأن الذي يغلب على الظن أن دبولها من البئر إلى مكة مبنية أيضًا وأنها مخفية تحت الأرض وأنها تحتاج إلى الكشف عنها والحفر، فإذا وجدوا من الدبل متهدمًا بنوه، وإذا وجدوا مختلا أصلحوه، فخمنوا أنهم يحتاجون في ذلك إلى ثلاثين ألف دينار ذهبًا، وذرعوه وقاسوه فكان من الأوجر إلى بطن مكة خمسة وأربعين ألف ذراع بذراع العمل، وهو أزيد من الذراع الشرعي بنحو الربع.

وهذا الذي ظنوه من وجود دبل تحت الأرض من بئر زبيدة إلى مكة لم يوجد في كتب التاريخ ولم يذكره أحد، وإنما أذاهم إلى ذلك مجرد الظن بحسب القرائن وعرضوا على المسامع الشريفة السلطانية في أوائل سنة ٩٦٠ ستين وتسعمائة، فلما وصل علم ذلك التمسست جانم سلطان كريمة السلطان سليمان أن يأذن لها في عمل هذا الخير، حيث كانت صاحبة الخير أولًا أم جعفر زبيدة العباسية فناسب أن تكون

هي صاحبة هذا الخير أخيرًا، فاختارت بعد أن استطارت لهذه الخدمة إبراهيم بن تغري بردي الدفتردار، وأعطته خمسين ألف دينار ذهبًا زيادة على ما خمنوه، فسار بحرًا فوصل إلى جدة يوم الجمعة لثمان بقين من ذي القعدة من سنة تسع وستين وتسعمائة ونزل بوطاقه خارج جدة من الجهة الشامية وركب من جدة إلى سيدنا ومولانا الشريف محمد أبي نمي وكان نازلا بوادي « مر » فقابلته بالإجلال والتعظيم ومد له سماطًا عظيمًا ولاطفه وواكله وباسطه وجابره، فعرض على حضرته الشريفة الخط السلطاني، وبذل الهمة والاجتهاد في إتمام هذا الأمر، فأجاب الشريف أبو نمي بالسمع والطاعة، ثم ركب إبراهيم المذكور من عنده متوجهًا إلى مكة، فلاقاه عند دخوله مولانا الشريف حسن بن أبي نمي وقابله بالترحيب والإكرام وغاية الإجلال والاحترام، واستمر معه إلى أن فارقه من باب السلام، فدخل فطاف طواف القدوم وكان محرماً بالحج وسعى. وعاد إلى مجمع السلطان قايتباي، وهو المحل الذي عين لنزوله، ومد له من قبل الشريف حسن سماط عظيم، ثم جاء إليه مولانا القاضي الحسين المالكي ثم كان أول ما بدأ به تنظيف الآبار التي يستسقي الناس منها، وإخراج ترابها وزيادة حفرها ليكثر ماؤها، وحصل للناس بذلك رفق عظيم، ثم توجه للكشف إلى أعلى عرفات وكثر تردده إليها، ثم أسرع في الكشف عن دبول عين عرفة وضرب أوطاقه في الأوجر من وادي نعمان علو عرفات، وشرع في حفر فقرها، وتنظيف دبولها بهمة عالية جدًا.

وكانت مماليكه القائمون في خدمته نحو أربعمئة مملوك في غاية الجمال والرشاقة والحذاقة واللباقة، وكتب نحو ألف نفس من العمال والمهندسين والحفارين، وجلب من مصر وبلاد الصعيد والشام وحلب واسطنبول طوائف بعد طوائف من خدام العيون والآبار والحدادين والحجارين والبنائين. وأتى بآلات العمارة من مكاتل ومساحي ومجاريف وحديد وبولاد ورصاص ونحاس.

وعين لكل طائفة قطعة من الأرض تحفرها وتنظف ما فيها، واستمر إلى أن وصل عمله إلى بئر زبيدة التي انتهى عملها إليها، ولم يجد بعدها دبلا، ولا أثر عمل ولا بقايا قناة، فضاق ذرعه لذلك، وعلم أن الخطب كبير والعمل كثير وتحقق أن القدر

الباقى من هذا العمل إنما تركته زبيدة اضطرارًا لا اختيارًا وعدلت إلى عمل حنين، وتركت العمل من بعد البثر لصلابة الحجر وصعوبة إمكان قطعه وطول مسافة ما يجب قطعه، وأنه يحتاج من بثر زبيدة إلى دبل منقور تحت الأرض في الحجر الصوان طوله ألفا ذراع بذراع البنائين حتى يتصل بدبل عين حنين وينصب فيه فيصلاً إلى مكة. ولا يمكن نقر ذلك الحجر تحت الأرض فإنه يحتاج في النزول إلى خمسين ذراع في العمق، وصار لا يمكن ترك ذلك بعد الشروع فيه حفظاً لناموس السلطنة، فأوجد الأمير إبراهيم حيلة هي أن يحفر وجه الأرض إلى أن يصل إلى الحجر الصوان ثم يوقد عليه بالنار مقدار مائة جمل من الحطب الجزل ليلة كاملة في مقدار سبعة أذرع في عرض خمسة أذرع من وجه الأرض والنار لا تعمل إلا في العلو، وأما السفلى فعملها فيه مقدار قيراطين من أربعة وعشرين قيراطاً من ذراع. فيكسر بالحديد إلى أن يصل الحجر الشديد فيوقد عليه الحطب الجزل ليلة أخرى إلى أن ينزل في ذلك الحجر مقدار خمسين ذراعاً في العمق في عرض خمسة أذرع إلى أن يستوفي ألفي ذراع تقطع على هذا الحكم، وذلك يحتاج إلى عمر نوح ومال قارون وصبر أيوب، وما رأى عن ذلك محيصاً، فأقدم عليه إلى أن فرغ الحطب من جميع جبال مكة وصار يجلب من المسافة البعيدة، وغلا سعره وضاق الناس لذلك، وتعب الأمير وذُهِبَت أمواله وخُدَّامه ومماليكه وهو يتجلَّد، إلى أن قطع من المسافة ألف ذراع وخمسمائة ذراع، وصار كلما فرغ المصروف أرسل وطلب فجاءه، ثم مات له ولد طفل كان خلفه بمصر احترق عليه كثيرًا، ثم مات له ولدان مراهقان، ثم مات أكثر مماليكه، ثم مات هو غريباً شهيداً ليلة الإثنين ثاني رجب سنة ٩٧٤ أربع وسبعين وتسعمائة، وكانت جنازته حافلة، وأسف الناس على فقده لكثرة إحسانه ودفن فيها ولديه قبله.

ثم أقيم في هذه الخدمة سنجق جدة الأمير قاسم بك، أقامه سيدنا شيخ الإسلام القاضي الحسين إلى أن يصل من تعينه السلطنة العلية.

وفي هذا العام المذكور انتقلت السلطنة من السلطان سليمان صاحب الترجمة إلى ولده الآتي بعده مولانا السلطان سليم بن سليمان، فعين لهذه الخدمة دفتر دار مصر يومئذ محمد بك يكمكجي زاده وكان من أعبد السناجق، فوصل إلى هذه الخدمة

وبذل فيها نفسه وماله، وقطع مسافة وما بلغ التمام، بل وافاه الحِمام ليلة الثلاثاء لأربع ليال بقين من جمادى الأولى سنة ست وسبعين وتسعمائة ودفن بالمعلاة قبالة تربة الأمير إبراهيم الدفتردار على يسار الذهاب إلى الأبطح، ثم رجع في خدمة العين الأمير قاسم سنجق جدة المذكور آنفاً أرجعه فيها القاضي الحسين وعرض ذلك إلى الأبواب، فأنهى الأمر باستقرار قاسم بك في الخدمة أميناً على مصارفها. وأن يكون مولانا القاضي الحسين ناظرًا على ما بقي من عمل هذه العين إلى أن يصل إلى عرفات، فاستمر قاسم بك مباشرًا لهذه الخدمة، إلى أن طرقة الحين فصار ثالثًا للأميرين السابقين، وصار من شهداء العين، وذلك لليلة خلت من رجب الحرام سنة ٩٧٩ تسع وسبعين وتسعمائة، ودفن بالمعلاة إلى جانب الأمير محمد بك اليكمكجي المتوفى بمكة.

ثم توجه مولانا القاضي الحسين توجهًا تامًا إلى تكميل عمل ما بقي من العين باعتبار ما بيده من النظر، وعرض للسلطنة الشريفة بوفاة قاسم بك فبرزت الأوامر إلى حضرته الشريفة فأقدم بهمته العالية أتم إقدام، فساعدته السعادة والإقبال على الإتمام، فأكمل عملها فيما دون خمسة أشهر، بعد أن عجزوا عنه في قريب من عشرة أعوام، فجرت عين عرفات ووصل الماء، وهو يجري في تلك الدبول والقنوات إلى أن دخل مكة لعشر بقين من ذي القعدة الحرام سنة ٩٧٩ تسع وسبعين وتسعمائة، وكان ذلك اليوم يوم عيد أكبر عند الناس، وعمل في ذلك اليوم أسمطة بالأبطح ببستانه الواسع الأفيح، جمع الأكابر والأعيان، ونصب لهم السراقات والصوان، وذبح أكثر من مائة من الغنم، وقدم للناس على قدر طبقاتهم أنواع الموائد والنعم، وخلع على أكثر من عشرة أنفس من المعلمين والمهندسين خلعا فاخرة، وأحسن إلى باقيهم بالحسنات الوافرة.

ومما رأيته بخط جدي العلامة جمال الدين بن إسماعيل العصامي ما نصّه: لما أكمل مولانا وعزيزنا شيخ الإسلام والمسلمين ناظر النظار ببلد الله الأمين مولانا السيد الشريف القاضي الحسين بن أحمد المالكي عمارة عين عرفات كتبت إليه قولي: [من مخلص البسيط]

أَقْضَى الْقَضَاةَ الْحُسَيْنُ أَغْنَى مَكَانَ أُمِّ الْقُرَيْ بِعَيْنِهِ

وجاء بالعَيْنِ بَغْدَ يَأْسٍ فَشَكَرُهُ وَاجِبٌ لِعَيْنِهِ
 ففتح لقبولهما كل باب، وأعجب به غاية الإعجاب.
 قلت: يمكن أن يقصد فيه التورية فيراد بقوله: «لعينه» الذهب، ويرشحه قوله:
 «أغنى» إلى آخره.

وأن يراد بها الماء الجاري ويرشحه «جاء بالعين بعد يأس».
 وعندي: سلبهما من لباس التورية أستر، وأذكرى لشذى المدح وأعطر، بأن يكون
 المراد بالعين ذاته وشخصه، ليكون وجوب الشكر لذاته في كماله، لا لعارض يزول
 بزواله.

ثم جهز أخبار هذه البشائر إلى السلطان سليم ابن السلطان سليمان خان، وإلى
 سرادقات الحجاب الرفيع مليكة الملكات بلقيس الزمان جانم سلطان أخت مولانا
 السلطان سليمان، فأنعمت بالإنعامات الجزيلة، والترقيات الكثيرة الجميلة على سائر
 العمالين والمباشرين والمتعاطين لهذه الخدمة، ورقت مدرسة مولانا القاضي
 حسين - وهي الأولى مما يلي باب الزيادة - فصارت بمائة عثمانى.
 واستمرت هذه العين من جملة الآثار الباقية على صفحات الليالي والأيام،
 والأعمال الصالحات الباقيات على تكرار السنين والأعوام.

وما عنده سبحانه من تضعيف الأجر والثواب، خير وأبقى عند أولي الألباب.
 وكان جملة النفقة خمسة لكوك وسبعة آلاف دينار ذهباً أحمر جديداً، وذلك غير ما
 صرف على إحضار أرباب الصناعات من الحدادين والحجارين والقطّاعين والتجارين،
 وأهل الصناعات الدقيقة من البلاد البعيدة، وغير ما صرف على خدامها وخدامهم.
 وقد كانت عمارتها في آخر الدولة السلطانية السليمانية وفي أول الدولة السلطانية
 السليمية.

وكان له من الأولاد مصطفى وهو أكبرهم؛ توهّم منه والده أمراً، فأمر بخنقه
 طائفةً من البكمان أواخر شوال سنة ستين وتسعمائة.

قال في «بغية الخاطر» للعلامة الكاتبي: وفي سنة ستين وتسعمائة أمر السلطان
 سليم بقتل ولده مصطفى، وكان ذلك من مكر رستم باشا الوزير، فجاء تاريخ وفاته
 «مكر رستم» وقال آخر باللغة الفارسية: «ظلم بي حد در آخر شوال» ذكره
 الكاتبي في تاريخه.

قلت: يريد أن لفظ لا حد له؛ أي لا نهاية؛ أي لا ميم فيبقى حرفان الظاء واللام وهما بتسعمائة وثلاثين، وآخر شوال اللام، وهى بثلاثين، فيتم العدد تسعمائة وستين وهى سنة وفاته، وهو آخر شوال، وهذا اتفاق عجيب يروق كل أديب. وطفل اسمه مراد كذلك خنقه فالحقه بولده مصطفى.

وولده الثاني: محمد بن سليمان مات على فراشه مولده سنة ثمان وعشرين وتسعمائة، وولده الآخر با يزيد بن سليمان، وقعت بينه وبين أخيه السلطان سليم محاربات قتل فيها نحو خمسين ألفاً.

ثم لما عجز عن محاربة أخيه السلطان سليم هرب هو وأولاده الأربعة وهم: أورخان ومحمود خان وعبد الله خان وعثمان، فظفر بهم السلطان سليم وأخذ أنفاسهم بالأوتار وما لهم من آثار.

وكان له ابن خامس طفل في « بروسا » فأمر بخنقه أيضاً فتبع والده وإخوته. ومن أولاد سليمان: السلطان جهان كير، كان أحذب ظريفاً لطيف الروح خفيفاً، كان يحبه والده ولم يفارقه، توفي بأجله بمرض الخناق سنة ٩٦٥ خمس وستين وتسعمائة.

ومنهم السلطان شاه زاده بن سليمان توفي بأجله سنة ٩٦٧ سبع وستين وتسعمائة.

وعدة غزواته الكبار المشهورة ثلاث عشرة غزوة السادسة، منها: غزوة العراق كانت أواخر ذي القعدة سنة ٩٤١ إحدى وأربعين وتسعمائة.

وأنشأ القاضي عبد اللطيف بن عبد الله باكثير عند ورود خبر النصر في تلك الغزوة تاريخاً وضمنه بيتين هما: [من المتقارب]

وَلَمَّا أَحَلَّتْ ظَبَانَا لَنَا دَمَ الشَّاهِ وَاسْتَحْكَمَتْ سَلْخَهُ
فَتَحْنَا الْعِرَاقَ وَذَا اللَّفْظُ مِنْ لَطَافَتِهِ جَاءَ تَارِيخُهُ

وكان عبد اللطيف المذكور سافر إلى الديار الرومية، واجتمع فيها بالسلطان سليمان خان بواسطة قاضي العسكر قادري أفندي فصادف قدومه إلى الروم توجه مولانا السلطان إلى حرب العجم، ثم ورد خبر النصر - كما تقدم - فعمل ذينك البيتين وقدمهما إلى صاحبه قاضي العسكر قادري أفندي، فبعد ورود السلطان من

السفر أشرفه على التاريخ وجمعه بقائله عبد اللطيف المذكور فنال منه مزيد الإكرام، وأنعم عليه بقضاء مكة المشرفة.

وكانت سلاطين مصر وغيرهم يعقدون ولاية منفردين على المذاهب الأربعة، وكان غالبًا لا يقيم النواب إلا قاضي القضاة الشافعي، والباقيون يتعاطون الأحكام ولا يقيمون نوابًا. واستمر القاضي عبد اللطيف متوليًا إلى أن عزل بأول قضاة الأروام من الحنفية وهو القاضي صدر الدين، فورد إلى مكة عام ثلاث وأربعين وتسعمائة، ومن حينئذ صار الأفندي الأعظم يرد من الجهات الرومية، ويعقد له الولاية من هناك، إلا أن القضاة كانوا يقيمون القاضي الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي بطريق النيابة. ففي زمن الأفندي ميرزا مخدوم أقام عم جدي القاضي العلامة نور الدين على زاده ابن مولانا المرحوم إسماعيل العصامي قاضيًا شافعيًا، وأقام القاضي نجم الدين المالكي نائبًا مالكيًا، وأراد إقامة حنبلي فلم يتيسر ذلك لعدم وجود حنبلي يقوم بهذا الشأن.

وآخر من أقام ذلك بمكة الأفندي عبد الرحيم الشعراوي عام توليته لها عام خمس وثلاثين وألف.

ولما كان اليوم الثاني من استقراره في الملك جعل ديوانا وأنعم على الوزراء وأمرهم بترك شعار الحزن، ورقى العسكر في الجوامك على حسب مراتبهم وانتظم الحال.

وكان ملكًا صالحًا يترجم بالولاية كثير الخير والإحسان، للقاضي والدان. وكانت مدة سلطنته ثمانًا وأربعين سنة، وهي عديمة النظير، فيمن مضى من هذا البيت المنير.

واستقر بها إلى أن توفي سنة أربع وسبعين في سابع عشر صفر وهو في محاصرة العدو، فأخفى الوزير موته وأركان الدولة وأرسلوا أوراقا إلى كوتاهية لمولانا السلطان سليم - وبين المحليين نحو ثلاثة أشهر بسير الأثقال - فركب مولانا السلطان سليم وجدًا في السير إلى بلاد اسطنبول، ودخلها في ثامن ربيع الأول سنة ٩٧٤ أربع وسبعين وتسعمائة.

وحمل السلطان سليمان إلى دار الخلافة ودفن في المحل الذي عمره في عمارته

المذكورة، طاب ثراه.

ورثاه عالم زمانه أبو المسعود أفندي المفتي بقصيدة بليغة وهي هذه: [من

البيسط]

فَالْأَرْضُ قَدْ قُلِبَتْ مِنْ نَقْرِ نَاقُورٍ
وَذَاقَ مِنْهَا الْبَرَايَا صَعْقَةَ الصُّورِ
وَانْهَدَّ مَا كَانَ مِنْ دُورٍ وَمِنْ سُورٍ
مَا فِي الْمَنَازِلِ مِنْ دَوَّارٍ دُيُورٍ
كَأَنَّهَا قَلْبُ مَرْغُوبٍ وَمَذْغُورٍ
وَكَادَ تَمْتَلِي الْعِبْرَاءُ بِالْمُورِ
عَانَ بِسِلْسِلَةِ الْأَحْزَانِ مَأْسُورٍ
يَعَافُهُ السَّمْعُ مَكْرُوهٍ وَمَنْفُورٍ
فَأَصْبَحُوا بِمِثْلِ مَخْمُورٍ وَمَسْخُورٍ
يَكَادُ يُوجَدُ قَلْبٌ غَيْرُ مَكْسُورٍ
تَجْرِي بِبَحْرِ مِنَ الْعِبْرَاتِ مَسْجُورٍ
كَأَنَّهَا غُرَّةٌ شَيْبَتْ بِدَيَجُورٍ
مَضَتْ أَوَامِرُهُ فِي كُلِّ مَأْمُورٍ
وَسَخَّرَتْ كُلَّ جَبَّارٍ وَقِيهُورٍ
خَلِيفَةَ اللَّهِ فِي الْآفَاقِ مَذْكَورٍ
فِي الْعَالَمِينَ بِسَعْيٍ مِنْهُ مَشْكُورٍ
وَصَدَقَ عَزْمٌ عَلَى الْأَلْطَافِ مَقْصُورٍ
بِغَايَةِ الْقِسْطِ وَالْإِلْطَافِ مَوْقُورٍ
مُؤَيَّدٌ مِنْ جَنَابِ الْقُدْسِ مَنْصُورٍ
وَمَشْرِفِي عَلَى الْكُفَّارِ مَشْهُورٍ
تَلْوِي عَلَى عِلْمٍ بِالنَّصْرِ مَنْشُورٍ
مِنْ كُلِّ قَطْرِ مِنَ الْأَقْطَارِ مَخْشُورٍ
أَخْبَارُهَا زُبْرَتْ فِي كُلِّ طَامُورٍ

أَصَوْتُ صَاعِقَةٍ أَمْ نَفْخَةُ الصُّورِ
أَصَابَ مِنْهَا الْوَرَى ذَهْيَاءُ ذَاهِيَةٍ
فَهْدَمْتُ بِنِعَةِ الدُّنْيَا لَوْفَعَتِهَا
أَمْسَتْ مَعَالِمُهَا بِهِمَاءَ مُفْهِرَةٍ
تَهْدَمْتُ قُلُلُ الْأَطْوَادِ وَازْتَعَدْتُ
وَغَبْرَ نَاصِيَةِ الْخَضِرَاءِ وَانْكَدَرْتُ
فَمِنْ كَيْبٍ وَمَلْهُوفٍ وَمِنْ دَنِفٍ
فَيَا لَهُ مِنْ حَدِيثٍ مُوجِسٍ نَكِرٍ
تَاهَتْ عُقُولُ الْوَرَى مِنْ هَوْلٍ وَخَشْيَةٍ
تَقَطَّعَتْ قِطْعًا مِنْهُ الْقُلُوبُ فَلَا
أَجْفَانَهُمْ سَفُنٌ مَشْحُونَةٌ بِدَمٍ
أَتَى بِوَجْهِ نَهَارٍ لَا ضِيَاءَ لَهُ
أَمْ ذَاكَ نَعْنَى سُلَيْمَانَ الزَّمَانِ وَمَنْ
حَقًّا وَمَنْ مَلَأَ الدُّنْيَا مَهَابَتُهُ
مَدَارِ سُلْطَنَةِ الدُّنْيَا وَمَرْكَزَهَا
مُعْلِي مَعَالِمِ دِينِ اللَّهِ مُظْهِرَهَا
وَحُسْنِ رَأْيٍ إِلَى الْخَيْرَاتِ مُنْصَرِفٍ
لَايَةِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ مُمْتَثِلٍ
مُجَاهِدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُجْتَهِدٍ
بِلَهْذَمِيٍّ إِلَى الْأَعْدَاءِ مُنْعَطِفٍ
وَرَايَةِ رُفِعَتْ لِلْمَجْدِ خَافِقَةٍ
وَعَسْكَرٍ مَلَأَ الْآفَاقَ مُحْتَشِدٍ
لَهُ وَقَائِعٌ فِي الْأَكْنَافِ شَائِعَةٍ

مِنْ بَعْدِ رِخْلَتِهِ مِنْ هَذِهِ الدُّورِ
 لَكِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ غَيْرُ مَقْدُورِ
 تَأْتِي عَلَى قَدَرٍ فِي اللُّوْحِ مَسْطُورِ
 وَمَذْخَلٍ مَا بِتَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرِ
 فَأَنْتِ مَنْظُومَةٌ فِي سِلْكِ مَقْدُورِ
 بِمَا سِوَى بَذْلِ مَجْهُودٍ وَمَيْسُورِ
 حَيَّ بِنَصٍّ مِنَ الْقُرْآنِ مَزْبُورِ
 تَجْرِي عَلَيْهِ بِوَجْهِ غَيْرِ مَشْغُورِ
 عَلَى شَهِيدٍ جَمِيلِ الْحَالِ مَزْبُورِ
 مَعَارِكَ الْحَنْفِ بِالرَّضْوَانِ مَأْجُورِ
 عَنْ عَيْشٍ فَإِنْ بِكُلِّ الشَّرِّ مَعْمُورِ
 دُنْيَا فَأَعْظَمُ بِرِنَجٍ غَيْرِ مَخْصُورِ
 مَنْ لَمْ يُغَايِزْهُ فِي أَمْرِ وَمَأْمُورِ
 سِرٌّ سَرِيٌّ لَهُ فِي الدَّهْرِ مَشْهُورِ
 بَرًّا وَيَخْرَأُ بِعَيْنِ اللَّطْفِ مَنْظُورِ
 وَمُلْتَجَا كُلِّ مَشْهُورٍ وَمَذْكَورِ
 وَكُلِّ أَمْرِ عَظِيمِ الشَّأْنِ مَأْثُورِ
 وَهَلْ يُمَيِّزُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالثُّورِ
 تَخْتِ الْخِلَافَةِ فِي عِزٍّ وَتَيْقُورِ
 صَارَا كَأَنَّهُمَا مِنْكَ بِكَافُورِ
 مَا كَانَ مِنْ مَجْهَلٍ مِنْهَا وَمَعْمُورِ
 وَسُوءِ حَالٍ مِنَ الْأَخْوَالِ مَنْكُورِ
 وَعَادَ أَكْنَافُهَا نُورًا عَلَى نُورِ
 بَخَرِ الْبَيَانِ بِمَنْظُومٍ وَمَنْثُورِ
 بَخَرِ حَمِيسٍ إِلَى مِنْقَارِ عُضْفُورِ
 بَيْنَ الْبَرِيَّةِ حَتَّى نَفْخَةِ الصُّورِ

يَا نَفْسُ مَا لَكَ فِي الدُّنْيَا مُخَلَّفَةٌ
 حَقٌّ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ أَسَى
 فَلِلْمَنَائِيَا مَقَادِيرٌ مُعَدَّةٌ
 وَلَيْسَ فِي شَأْنِهَا لِلنَّاسِ مِنْ أَثَرِ
 يَا نَفْسُ فَاتَّبِدِي لَا تَهْلِكِي أَسَفًا
 إِذْ لَسْتَ مَأْمُورَةٌ بِالْمُسْتَجِيلِ وَلَا
 وَلَا تَطْنِيئُهُ قَدْ مَاتَ بَلْ هُوَ ذَا
 لَهُ نَعِيمٌ وَأَزْزَاقٌ مُقَدَّرَةٌ
 إِنَّ الْمَنَائِيَا وَإِنْ عَمَّتْ مُحَرَّمَةٌ
 مُرَابِطٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُقْتَحِمِ
 مَا مَاتَ بَلْ نَالَ عَيْشًا بَاقِيًا أَبَدًا
 إِبْتِنَاعَ سُلْطَنَةِ الْعُقْبَى بِسُلْطَنَةِ الذِّ
 بَلْ حَارَ كِلْتَانِيهِمَا إِذْ حَلَّ مَنْزِلَةٌ
 أَمَا تَرَى مُلْكُهُ الْمَخْمِيُّ آلَ إِلَى
 وَلِيٍّ سُلْطَنَةِ الْأَقَاقِ مَالِكِيهَا
 ظِلُّ الْإِلَهِ مَلَاذِ الْخَلْقِ قَاطِبَةٌ
 فَلِإِنَّهُ عَيْنُهُ فِي كُلِّ مَأْثَرَةٍ
 وَلَا اِمْتِيَازَ وَلَا فُرْقَانَ بَيْنَهُمَا
 سَمِينِدَعٍ مَاجِدٍ زَادَتْ مَهَابَتُهُ
 جَدُّ الْجَدِيدَانِ فِي أَيَّامِ دَوْلَتِهِ
 أَضْحَتْ بِقَبْضَتِهِ الدُّنْيَا بِرُمْتِهَا
 بَدَا بِطَلْعَتِهِ وَالنَّاسُ فِي كَرْبِ
 فَأُضْهِبَتْ صَفَحَاتُ الْأَرْضِ مُشْرِقَةً
 سُبْحَانَ مَنْ مَلِكٍ حَلَّتْ مَفَاخِرُهُ
 كَأَنَّهَا وَيرَاعُ الْوَاصِفِينَ لَهَا
 لَا زَالَ أَحْكَامُهُ بِالْعَدْلِ جَارِيَةً

ثم تولى السلطان سليم الثاني ابن سليمان خان^(١) وجلس على سرير السلطنة في سنة أربع وسبعين وتسعمائة

ببيع بعد موت والده في التاريخ المذكور، فلما جلس على سرير السلطنة سار على نمط والده في العدل والإنصاف، ثم بادر في قيام شرائع الدين، فبنى جامعاً عظيماً بأربع منائر كاملة الارتفاع بـ «أدرنة»، ومدرسة عظيمة للعلم بعمومه ومدرسة مفخمة برسم القراءات، وهو أول من عمر ذلك المحل المذكور، وعمر عمارة برسم الطعام للخاص والعام بمدينة قونية، وعمر خانات للمسافرين فيها كفاية النازلين بها مع دوابهم من الطعام والشراب، وأنشأ بلدة كاملة تعرف بقره نكار، وكانت خبرة جميعها فحصل بها غاية النفع للمسلمين سيما المسافرين لأنها كانت معقلاً لقطاع الطريق الكسجية.

وله فتوحات عظيمة من أعظمها الأقطار اليمنية؛ لأنها في آخر الدولة السليمانية اختل أمرها وهجم أهلها الطاغون على أعظم مدنها وملكوه، بل سمعنا أنه لم يبق في الحماية العثمانية إلا مدينة «زيد» فقط، فلما جلس مولانا صاحب الترجمة على سرير السلطنة أمر بالتجهيز إليها، فعين لذلك وزيره الأكبر سنان باشا، فبرز من الديار المصرية أواخر عشر السبعين وتسعمائة في جيش كثيف بالخييل المسومة، والعساكر الشجعان المعظمة، وطوائف من السناجق السلطانية، وعدة من المدافع فوق المائة، فلما وصلوا إلى مكة البهية عرضوا لها عرضة عظيمة وأظهر أبهة الملك والسلطان.

قال السيد محمد الحسيني في تاريخه المسمى «الروضة الأنيقة في سلطان الحجاز على الحقيقة»: أخبرني الثقة أنه سمع كاتب العساكر أنهم يعلقون كل ليلة أربعة وعشرين ألف عليقة.

وله فتوحات عظيمة منها: فتح جزائر ساقس، وكل جزيرة فيها مدن عظيمة وكنائس وقلاع حصينة.

وعاد على المسلمين من هذه الفتوحات غنائم وأسرى لا تعد ولا تحصى، وانتفع بها بيت المال وجميع أركان الدولة، وسائر الرعايا انتفاعاً ظاهراً غزير المحصول كثير المنافع، وأمن بذلك الصادر والواردون بحراً وبراً.

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ٩٧ - ١٠٢ .

وله خيرات كثيرة بالحرمين الشريفين من الأجزاء القرآنية، والنقود والحبوب المرتبة كل عام أسوة أسلافه الكرام طاب ثراهم بدار السلام.

وكان مولانا صاحب الترجمة من طاعة والده المرحوم المبرور السلطان سليمان بمحل لا يمكن عنه التعبير، بحيث يراجع في الجليل والحقير، ويصبر في رضاه على مضض الدهر وضيق العيش والظنك والقهر، وكل ما يبلغه من حاسد ونمام عن والده بالانتقاص والإعراض عنه، والإشارة بالسلطنة إلى غيره من إخوته بالإعطاء، وتمهيد أحوال السلطنة لغيره لا يمنعه ذلك من أنواع البر لوالده بالقول والفعل، ولا يحمله على العقوق، خصوصًا عن والدته فإنها كانت تصرح بعدم صلاحه للملك وقابلية غيره للدولة، وهو على غاية من الصبر وتحمل الجفاء، والتصريح بالتفويض إلى رب السماء، فكانت طاعته لوالديه موجبة لإنعام الله بالملك عليه، فانقرضت إخوته وأعقابهم ووالدته في حياة والده طاب ثراه. فلما مات والده كما ذكرنا شرفه الله بالملك على حالة هينة لم تقع لأحد من أهل هذا البيت أبدًا. ودام سلطانه إلى أن مات على سرير ملكه وعزه في ثامن شهر رمضان المعظم قدره في عام اثنين وثمانين وتسعمائة، فدرج عتيق رمضان تغمده الله بالرحمة والرضوان.

ومن أعظم حسناته عمارة العين، فقد تقدم أن ابتداء العمارة في أواخر دولة والده السلطان سليمان وتمامها في أول دولته. وقد قدمنا ذكرهما ومعاناتهما وما صرف على ذلك.

ومن خيراته: ابتداء عمارة المسجد الحرام سنة ثمانين وتسعمائة قبل وفاته بستين وإن كان تمامها إنما كان في دولة ولده الآتي بعده مولانا السلطان مراد بن سليم كما سيأتي ذكر ذلك.

وله غزوات شهيرة بالإرسال وهو جالس مكانه، فتح في أيامه السعيدة جزيرة قبرس بالسين المهملة لا بالصاد كما تقوله العامة، ومدينة تونس الخضراء، وممالك اليمن بأسرها. وتوفي إلى رحمة الله تعالى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، ومدة سلطته ثمان سنين، وعمره الشريف ثلاث وخمسون سنة. وكان شجاعًا كريمًا مهابة كثير الإحسان من قبل أن يجلس على سرير الملك وبعده.

ومن غزواته: فتح تونس الغرب وحلتي الوادي، وفتح ممالك اليمن واسترجاعها من أيدي العصاة البغاة أهل الإلحاد.

ومنها: فتح جزيرة قبرس بسيف الجهاد، وهي جزيرة على البحر الشامي كثيرة القطر، ومقدارها مسيرة عشرين يومًا، وبها قرى ومزارع وأشجار ومعادن الزاج القبرسي وهي على مر الأيام، رخاؤها شامل، وخيرها كامل، وبها معادن الصفر واللدن الذي يغلب العود في طيبه.

وكان معاوية رضي الله عنه غزاها وصالح أهلها على سبعة آلاف دينار، فنقضوا عليه، فغزاهم ثانية فقتل وسبى شيئًا كثيرًا.

وبين جزيرة قبرس وساحل مصر خمسة أيام، وبينها وبين جزيرة رودس يوم واحد.

وإنما سميت جزيرة قبرس بوثن كان هناك يسمى قابرس. وكانت أم حرام بنت ملحان الصحابية شهدت غزوة قبرس فتوفيت بها. وأهل قبرس يتبركون بقبرها، ويقولون: هذا قبر المرأة الصالحة، وكانت سألت رسول الله ﷺ أن يدعو لها أن يجعلها الله من الذين يركبون ثبج البحر مجاهدين في سبيل الله ففعل، وهو حديث معروف.

وكان الأوزاعي يقول: إنا نرى هؤلاء - يعني أهل قبرس - أهل عهد، وإن عهدهم وقع على شرط، وأنه لا يسع المسلمين نقضه إلا بأمر يعرف به غدرهم، ورأى عبد الملك بن صالح في حدث أحدثوه أن ذلك نقض لعهدهم، فكتب إلى عدة من الفقهاء يشاورهم في أمرهم منهم الليث بن سعد وسفيان بن عيينة وأبو إسحاق الفزاري ومحمد بن الحسن فاختلفوا عليه، وأجاب كل واحد بما ظهر له. وقد فتحت أيضًا في دولة الشراكسة في دولة الملك الأشرف برسباي، وأسر ملكها، وذلك سنة سبع وعشرين وثمانمائة، ثم فتحت على يد السلطان سليم خان هذا المذكور، وكانت مدة سلطنته ثمان سنين كما تقدم ذكر ذلك.

ثم تولى السلطان مراد الثالث ابن السلطان سليم ابن السلطان سليمان خان^(١)

وجلس بعد وفاة والده سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة.

كان مولده الشريف سنة إحدى وخمسين وتسعمائة، وبذلك انتظم في سلك كريمة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، بحساب الجمل لأن لفظ الذكر تسعمائة وأحد وخمسون والقاعدة في ذلك مقررة في محلها.

ثم ظهر من خالق السموات، عنايات له وخصوصيات.

منها: أنه نشأ في ظل والده وجده المذكورين على مهاد العز والسلطان في حجر الخلافة، راضعاً ثدي العلم والعرفان. لم تعلم له صبوة مع توفر دواعيها، ولم يتناول شيئاً من المحرمات، بل ولا من المكروهات لما فيها، حتى قال أعظم عرفاء العصر: مولانا المشار إليه ليس له نظير في هذا الدهر.

ومنها: أنه منذ ترعرع في شبابه صانه الله عن المحاربة والمخاصمة الناشئة عن حظوظ النفس وحب الرئاسة، واستعمل نفسه في العلم والعمل، ثم في الاستعداد للخلافة الإسلامية مع كمال النزاهة والعفة والنفاسة.

ومنها: أن طريقته في الملبس والمأكل والمشرب والمركب طريقة الصالحين والزهاد، ما عدا ما فيه خلل لنظام الملك أو ضرر للعباد.

وكان جلوسه على تخت الخلافة الإسلامية في ثامن شهر رمضان في اليوم الذي توفي أبوه فيه من عام اثنتين وثمانين وتسعمائة، فجلس جلوساً جامعاً لفضل الزمان والمكان، والافتنان في فعل الخيرات والمرتبات في مبادئه. مما فعله أسلافه في غاياتهم مما لا شك فيه. ومنحه الله تعالى من كثرة الخراج والخزائن والعساكر ما لم يجمعه أحد من أسلافه الأكابر. فإذا عزم على فتح أعظم الممالك جهز شردمة من عساكره المنصورة ففتح كل صعب المسالك.

ومن النعمة العظمى: إتمام عمارة المسجد الحرام، وكان ترميمه في زمان جده مولانا السلطان سليمان، ثم كان ابتداء هدمه وتعميره في زمان والده السلطان سليم

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١٠٣ - ١٠٧ .

سنة تسعمائة وثمانين. وتمام التعمير في زمانه، فأرخ ذلك جدي العلامة جمال الدين العصامي بشرط بيت هو قوله: [من الرجز]

تاريخ هَدمِ المَسْجِدِ فِي رَابعِ العَشرِ بُدِي
وهو تاريخ عجيب إذا معناه الحسابي يؤدي إلى تعيين السنة، ومعناه اللفظي يؤدي إلى تعيين يوم البدأ.

وسبب أمره الشريف بتعمير المسجد أن الرواق الشرقي منه مال إلى نحو الكعبة الشريفة بحيث برزت رءوس خشب سقفه الثاني لأنه كان مسقفًا سقفين بينهما قدر ذراعين بذراع العمل عن محل تركيبهما من جدر المسجد، وذلك الجدر هو جدر مدرسة السلطان قايتباي، وجدر مدرسة الأفضل التي هي الآن وقف عباد الله، وقدر مفارقة الخشب عن موضع تركيبه أكثر من ذراع، ومال وجه الرواق الشرقي إلى صحن المسجد ميلا ظاهرًا، فبادر نظار الحرم يصلحون ذلك المحل الذي فارق بتعديل خشب السقف بأطول منه، وأعمدوا الرواق المائل إلى صحن المسجد بأخشاب كبار حفر لها في المسجد تمسكه عن السقوط، وذلك كله في دولة السلطان سليمان، واستمر متماسكا على هذا الأسلوب من أواخر دولته إلى صدر دولة ابنه مولانا السلطان سليم، ففحش ميل ذلك الرواق، وعرض على الأبواب فبرزت الأوامر من السلطان سليم بالمبادرة إلى بناء المسجد جميعه على وجه الإقتان والإحكام، وأن يجعل عرض السقف قبة دائرة بأروقة المسجد ليؤمن تآكل الخشب، فعين لذلك بكربكي مصر سابقًا فخر الأمراء العظام أحمد بك، وأضيف إليه في هذه الخدمة سنجق جدة، فوصل الأمير أحمد بك في آخر ذي الحجة الحرام سنة ٩٧٩ تسع وسبعين وتسعمائة، وكانت الأوامر الشريفة وردت أن يكون الناظر على هذه العمارة والمتكلم عليها عن جانب السلطنة سيدنا ومولانا القاضي الحسين المالكي ففرح بهذه الخدمة الفرح التام، وشد نطاق حزمه على ناطق عزمه، وقام. وحصل بين مولانا القاضي وبين أحمد بك الملاءمة والاتفاق، وبذلك يحصل تمام النجاح والارتفاق، فاتفق رأي الناظر والأمين والمعمار على الشروع في الهدم، فشرع فيه رابع عشر ربيع الأول من سنة ثمانين وتسعمائة كما تقدمت الإشارة إليه بتاريخ الجد جمال الدين العصامي، وكان ابتداء الهدم مكانًا من باب السلام من

تحت منارته إلى باب على، ومنه أيضًا إلى باب بني سهم المعروف بباب العمرة، وأخذت المعاول تعمل في شرفات المسجد وطبّاطب سقفه ثم كشفوا عن أساسه فوجدوه مختلا، وكان جدارًا عظيمًا نازلا في الأرض على هيئة بيوت رقعة الشطرنج، وكان على موضع التقاطع على وجه الأرض قاعدة تركيب الأسطوانة عليها فشرع في وضع الأساس على وجه الإتقان والإحكام بالنورة المخمرة إلى أن طلع الأساس على وجه الأرض، وكانت الأسطوانات المبنية سابقًا على نسق واحد في جميع الأروقة من الرخام جميعها، إلى أن وقع الحريق في الجانب الغربي بالنار الناشئة من رباط « رشت » سنة أربع وثمانمائة في دولة الملك الناصر فرج بن برقوق من الشراكسة فاحترق منه أساطين الرخام وذابت، فأرسل - من أمرائه - الأمير يسق إلى مكة فعمر الجانب الذي احترق، وأبدل من الأعمدة الرخام المحترقة أعمدة من الحجر الصوان المنحوت، وصارت الجوانب الثلاثة بالأعمدة الرخام ما عدا هذا الجانب الغربي فهو من الحجر الصوان المنحوت، فلما وقع هذا التعمير أدخلت في هذه العمارة العثمانية دعائم من الحجر الشميسي الأصفر غلاظ بعد كل ثلاث دعائم من الرخام دعامة منها لتقوى على تركيب القبة فوقها، وي إدخال الدعائم الشميسي الأصفر، صارت الأساطين كلها على نسبة واحدة، وهي أن كل ثلاث من الرخام رابعتها واحدة من الشميسي، وذلك في غالب الأروقة من الجوانب الأربع من المسجد الشريف كأنها قائمة بغاية الأدب حول بيت الله المنيف، وهي أعلى من ارتفاع سقفها السابق كأنها تنشُد بلسان حالها مفتخرة على أمثالها: [من الكامل]

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَهَا بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

واستمر الحال في هذه العمارة على هذا المنوال إلى أن تم منه الجانب الشرقي والجانب الشمالي إلى باب العمرة فما عمر مولانا السلطان سليم - أسكنه الله جنات النعيم - إلى أن تتم العمارة، وسلم ملكة الشريف السعيد إلى نجله السعيد صاحب الترجمة مولانا السلطان مراد ابن السلطان سليم خان فبرز أمره الشريف لأمر العمارة الشريفة المشار إليه أحمد بك المذكور، وأن يبذل جهده وجده في الإتمام لعمارة المسجد الحرام، فأعانه الله تعالى على إتمامها وأمد كذلك سائر خدامها، إلى أن تمت عمارة الجانبين الغربي والجنوبي من المسجد الحرام بجميع أبوابه وأعتابه،

ودرجاته من داخله وخارجه، وكان ذلك في أواخر سنة أربع وثمانين وتسعمائة، وصار المسجد الحرام نزهة المناظر، وبغية للخواطر، وجلاء للنواظر والخواطر، بحيث صار ما عمره الخلفاء العباسيون قبل ذلك لا يحسن عنده أن يذكر ويوصف؛ لأن هذا البناء أمكن وأزين وأعلى وأشرف.

وكان جملة ما أنفق على عمارته مائة ألف وعشرة آلاف دينار ذهباً غير الآلات والرصاص والنحاس والخشب، وأهلة القرب المعمولة بمصر المطلية بالذهب. وجدد خيرات تفرد بها منها: مدرسة وتكية بالمدينة الشريفة، ومدرسة بمكة، وسبيل عظيم في بنائه وفرشه وعدوية مائه.

وجدد بالروضة جملة من الدروس العلمية بمعلوم قدره كل عام مائة وخمسون ديناراً ذهباً جديداً للمدرس ومائة دينار جديد للطلبة لكل واحد عشرة على الدوام، وحدد في كل عام ألف دينار ذهباً لمائة نفر من الحجاج يدعون له بخير الدنيا والآخرة عند البيت العتيق.

وفي عام ست وثمانين وتسعمائة شرع في فتح الممالك العجمية الطهماسية وعساكره المنصورة يتبع بعضها بعضاً من غير انقطاع، فملكه الله تعالى أعظم تلك البقاع وأحصن تلك القلاع.

وفي سنة ٩٨٨ ثمان وثمانين وتسعمائة أمر بكتب أسماء الخلفاء الأربعة بعد الله ورسوله بخط كبير عظيم نقراً في جدر المسجد الشرقي مموهاً بالذهب الصرف على أحسن قاعدة خط بديع رائق قل أن تحاكيه المهرة في بطون المهارق بين الباب المنسوب إلى سيدنا على كرم الله وجهه، والباب المنسوب إلى عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه، ولم أظفر على حقيقة السبب لذلك إلا ما يسمع من أفواه الرواة ولم تروه أخبار الثقات.

وجملة عدد الأسطوانات الرخام ثلاثمائة وأحد عشر، والأسطوانات الشمسية مائتان وأربع وأربعون، وعدد القرب مائة واثنان وخمسون فيه شرقية أربع وعشرون ومثلها غربية، وشامية ست وثلاثون ومثلها جنوبية، وواحدة في ركنه من جهة منارة « حزورة »، والطواجن مائتان واثنان وثمانون طاجناً. وعدد شرفاته ألف وثلاثمائة وثمانون شرفة.

وجملة أبوابه تسعة عشر بابًا تفتح على تسعة وثلاثين طاقًا كل ذلك مسمى معلوم مشاهد.

وجعلت في عمارة المسجد الشريف تواريخ عديدة.
قال القطب النهروالي: رأيت لبعض الفضلاء تاريخًا لتمام عمارته وذلك في سنة ٩٨٤ أربع وثمانين وتسعمائة في بيت مفرد فأعجبني نظمه لحسن سبكه واستيفاء المعنى فيه فذكر به وهو هذا البيت: [من الخفيف]

جَدَّدَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ مُرَادًا دَامَ سُلْطَانُهُ وَطَالَ أَوَانُهُ
قلت: هذا البيت هو لجدي العلامة جمال الدين العصامي كما رأيته بخطه في تذكرته عزاه إلى نفسه.

ولمولانا القاضي الحسين تاريخ منشور هو قوله: « أطل الله لمن أتمه عمرا »
وورد تاريخ من الأبواب السلطانية معه حكم شريف برسمه على طراز باب سيدنا العباس في ظاهر الرواق فرسم هنالك وهو لقاضي العسكر نثرًا قوله: « الحمد لله الذي أسس بنيان الدين المتين بنبي الرحمة والرشاد، وخصه بمزيد الفضل والكرامة والإسعاد » وهو فيه بعض تطويل وفي آخره نظم ثلاثة أبيات تتضمن التاريخ وهي هذه: [من الرمل]

جَدَّدَ السُّلْطَانُ مُرَادُ بْنُ سَلِيمٍ مَسْجِدَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ الْمُخْتَرَمِ
سُرَّ مِنْهُ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ دَامَ مَنْصُورَ الْلِوَاءِ وَالْعَلَمِ
قال رُوحُ الْقُدْسِ فِي تَارِيخِهِ عَمَّرَ سُلْطَانُ مُرَادُ الْحَرَمِ

وفي سنة الألف عزل مولانا السلطان مراد آغا الينيشرية، وكان ظالمًا فأرخ عزله شاعر نظما باللغة التركية معناه: لو قطع السلطان رأس الأغا ورجله لكان له تاريخًا عجيبًا: رأس الأغا الهمزة من لفظه، ورجله الألف الأخيرة فيبقى الغين بألف هي سنة عزله.

وكانت وفاة مولانا السلطان مراد سنة ١٠٠٣ ثلاث بعد الألف، وسنه الشريف يوم ولي ثلاثون سنة، ومدة سلطنته عشرون سنة وتسعة أشهر وستة أيام.

ثم تولى السلطان محمد^(١) ابن السلطان مراد ابن السلطان سليم ابن السلطان سليمان خان

وجلس سنة ثلاث وألف، وغزا بعسكره إلى غزوة مجر، وحصل هناك قتال،
ومَنَّ الله عليه بالنصر فعاد مؤيدًا منصورًا.

ولي الملك بعد وفاة أبيه، وبدأ بترخيم المطاف الشريف، والتجهز بنفسه إلى
جهاد الفرنج أعداء الدين وأيده الله بالنصر والظفر المبين، وأبدى في مباشرته الحرب
بنفسه ما أبهر، وأنبأ بعلو همته وقوة سجيته، فإن ذلك لم يتفق إلا نادرًا، ثم عاد
بالنصر التام إلى تحت مملكته وفي تاريخ ترخيم المطاف أبيات للإمام عبد القادر
مطلعها: [من الكامل]

يَا مَنْ يَلُودُ بِكَغَبَةٍ وَحَظِيمٍ وَبِهَا يَطُوفُ بِخَالِصِ التَّعْظِيمِ
وهي نحو أربعة وعشرين آخرها بيت التاريخ وهو:
قَدْ دَبَّرَ السُّلْطَانُ أَيْدِ مُلْكِهِ بَدَأَ الْمَطَافِ جَرَى بِكُلِّ نَعِيمٍ
توفي إلى رحمة ربه سنة اثنتي عشرة وألف.
وكانت مدة سلطته تسع سنين ونصف شهر، تغشاه الله بالرحمة والرضوان.

ثم تولى السلطان أحمد ابن السلطان محمد ابن السلطان مراد ابن سليم بن سليمان بن سليم خان^(٢)

وجلس على سرير الملك سنة اثنتي عشرة وألف وبنى جامعه المعروف،
المزخرف بأنواع الزينة، وقتل من كان في أيامه من البغاة والجلالية.
وله خيرات عديدة.

وكان كثير الخير والمعروف بحيث إنه جعل لأهل الحرمين وقفًا بمصر يجمع
مغله في كل عام ويرسل إلى مكة صحبة الركب المصري عوضًا عن مال بندر جدة
المعمورة لانقطاعه بموجب عدم وصول المراكب الهندية فهو المعروف بالأحمدية.
وفي سنة ست وعشرين بعد الألف أرسل إلى أعيان مكة المشرفة من شريفها
وقضاتها وأئمتها وخطبائها كسوة عظيمة، فلبس كل من المذكورين ما أرسل به إليه،

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١٠٨ - ١١٢ .

(٢) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١١٣ - ١١٨ .

وكان ذلك أول النهار تجاه البيت الشريف .

وأرسل في عام عشرين الباشا حسن المعمار لعمارة عين مكة المشرفة، فوصل في أوائل ذي الحجة من العام المذكور وعمّر العين وأصلح بعض إصلاحات كانت بالكعبة الشريفة جزاء الله خيرًا .

وموجب الإصلاح حصول تشعب قليل في الجانب الشمالي، فأصلحه بحزام حديد تحت الطراز كالطراز مصفح بالفضة مطلي بالذهب .

ووصل معه من الديار الرومية بميزاب الكعبة الشريفة ثم ركب بمحله بعد أن قلع الميزاب الأول، وأرسله إلى الحضرة الشريفة السلطانية، واستمر بها إلى أن وقع سقوط الجدران في دولة السلطان مراد بن أحمد سنة تسع وثلاثين، فرفع ذلك الإزار الحديد، وسبك فضته متعاطو العمارة ولم يجعلوا عوضه عليها لعدم الاحتياج إليها بعد عمارتها .

قلت : وكان تمام ذلك الإصلاح عام أحد وعشرين بعد الألف . وفي مصلى الجمعة لوح رخام مثبت في شاذروان البيت الشريف منقور فيه ذكر ذلك .

وفيه « وقد جاء تاريخه من القرآن العظيم : أسس بنيانه على تقوى من الله » ، وهو حساب إحدى وعشرين وألف وهو من عجيب الاتفاق وأيمنه . وكانت مدة سلطنته أربع عشرة سنة وأربعة أشهر .

ثم تولى السلطان مصطفى بن محمد أخوه^(١)

وجلس على تخت الملك سنة سبع وعشرين وألف، كان السلطان أحمد بن محمد عند موته عهد بالسلطنة له، وذلك لصغر سن السلطان عثمان ابنه، فاستقر فيها بعد موت أخيه السلطان أحمد بن محمد ثلاثة أشهر، ثم دبر كزلاز أغاسي الطواشي في خلع السلطان مصطفى وتولية السلطان عثمان بن أحمد، فخلع مصطفى وبقي في السرايا مخلوعًا إلى أن تولى التولية الثانية كما سيأتي، وكان خلعه ليلة الأربعاء ثالث ربيع أول من سنة ١٠٢٨ ثمان وعشرين وألف فكانت مدته هذه ثلاثة أشهر وعشرة أيام .

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١١٩ .

ثم تولى السلطان عثمان بن أحمد خان بن محمد خان^(١)

فهو ابن أخي السلطان مصطفى بن محمد، وجلس على تخت الملك ثالث ربيع الأول سنة ١٠٢٨ ثمان وعشرين وألف، تولى بعد القبض على عمه مصطفى في التاريخ المذكور.

وكان عالمًا فاضلاً شجاعاً مطاعاً شريفاً يدور بالسيف والسنان، ويحمي بطوقه وطوعه بيضة الإسلام والإيمان، ثم شغب الجند على قزлар أغاسي، فنفوه إلى مصر بعد أن أرادوا قتله، وكان مقرب الحضرة السلطانية، ومدير الدولة العثمانية. ثم قبضوا على السلطان عثمان، وأحضروا عمه مصطفى وأجلسوه على تخت السلطنة ثانيًا، وقتلوا عثمان وكانت سنه حين التولية نحو عشر سنين، وسنه عند القتل نحو تسع عشرة سنة.

وسبب قتله أنه عزم على الحج سنة إحدى وثلاثين وألف، وصمم على ذلك، وأمر بالخيام والمضارب والوطاق أن يضرب ظاهر القسطنطينية، فأجمع رأى أرباب دولته، وأركان سلطنته على خلعه إن لم يرجع، فدخلوا عليه وأشاروا عليه بالترك وقالوا: إنك غزوت الفرنج وقتلتهم وسبيتهم، وفي قلوبهم منك أمر عظيم فنخاف بعد عزمك، وانفصالك عن التخت إلى الحجاز مع بعد المسافة أن تثب الفرنج على المملكة، ويصعب خروجهم منها، مع أن هذا ليس قانون آبائك وأجدادك، وخوفوه بذلك فلم يمتنع، وصمم على العزم إلى الحج وخرج لذلك وسلك أول طرق هذه المسالك فكتب له الثواب، وحصل له أجر القصد في الحال والمآب. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ [النساء: ١٠٠] الآية، فلما عرفوا منه التصميم قتلوه وأعادوا عمه السلطان مصطفى كما ذكرنا، كذا في «منهل الظمان لأخبار دولة آل عثمان» للشيخ العلامة محمد علي بن علان.

وكان قتله يوم الخميس سابع رجب الأصب من سنة ١٠٣١ وفيه يقول بعض أدباء الشام مؤرخًا: [من الوافر]

قَضَى عُثْمَانُ سُلْطَانُ الْبَرَايَا بِأَسْيَافِ الْعَسَاكِرِ وَالْجُنُودِ
وَوَافَتْهُ الْمَنِيَّةُ فِي السَّرَايَا مَوْرَخَةً كَعُثْمَانَ الشَّهِيدِ

سنة ١٠٣١

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١٢٠ - ١٢٥ .

وقال آخر مؤرخًا أيضًا: [من مجزوء الرمل]
 قَدْ قَضَى عُثْمَانُ ظُلْمًا حِينَ خَانَتْهُ الْجُنُودُ
 وَاللَّيَالِي أَرْخَتْهُ إِنَّ عُثْمَانَ شَهِيدُ
 سنة ١٠٣١

ومدة تصرفه ثلاث سنين وأربعة أشهر وأربعة أيام.
 ثم تولى السلطان مصطفى^(١) بن محمد خان
 وهذه هي التولية الثانية

وذلك أنه لما كان يوم خامس رمضان سنة إحدى وثلاثين ورد الخبر بوفاة
 السلطان عثمان، وتولية السلطان مصطفى عمه، وكان ذلك في سابع رجب من السنة
 المذكورة، فزينت مكة سبعة أيام ودعى له على المنبر الشريف المكي يوم الجمعة
 عاشر ذي القعدة الحرام من السنة المذكورة، وصلي على السلطان عثمان صلاة
 الغائب، وقرئت له ربعة حضرها الأعيان وذلك بأمر مولانا الشريف إدريس، واستمر
 إلى أن خلع في منتصف ذي القعدة الحرام من السنة الثانية والثلاثين بعد الألف،
 فكانت مدة تصرفه في التولية الثانية سنة وثلاثة أشهر ونصفًا.

ثم تولى السلطان مراد الغازي ابن أحمد
 ابن محمد بن مراد بن سليم بن سليمان بن سليم خان^(٢)

جلس على سرير الملك منتصف ذي القعدة الحرام عام اثنين وثلاثين وألف
 جلوسًا عامًا، وأخذ السيف في يده، وأخذ ثأره من الأعداء، وهم قتلة أخيه عثمان
 ابن أحمد، وفتح قلعة وان.

ثم بعد سنين توجه بعسكر عظيم، وفتح بغداد، وذلك سنة ثمان وأربعين وألف
 وجعل جميع من كان فيها من الروافض طعمة سيفه.

وهو السلطان القائم بشعائر الإسلام المتأيد بعناية الملك العلام. فارس ميدان
 المنازلة إذا حمي الوطيس، وقيل: هل من مبارز، ومسقي رءوس الأسل من صدور
 يؤكد الشر فيها الضمير البارز، ذو الهمة التي لو تعلقت بالجو لاستنزلت منه ما تعلق
 بالثرى، والفواضل التي لو كفت سحائب المزن لكفت القلوب ريه، والشيم التي لا

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١١٩ .

(٢) ينظر السابق (ص ١٢٦ - ١٣٥) .

يدانيه فيها أحد، والمزايا التي لا تحصرها العبارة ولا يستقصيها العد.
ولي بعد عمه السلطان مصطفى في التاريخ المتقدم ذكره، وورد الخبر أوائل ذي
الحجة منها إلى مصر فخطب له بها وزينت مكة سبعة أيام وقام بالملك على وجه
السداد، وأعلى ذكره على السبع الشداد.
وكانت سنه حين ولي أربع عشرة سنة. وفي ذلك يقول فخر الأدباء بكري
الصراف: [من الكامل]

لَمَّا أَرَادَ اللّهُ نَفْعَ عِبَادِهِ وَلَّى مُرَادًا مُلْكَ خَيْرِ بِلَادِهِ
وَأَمَدَّهُ مِنْ فَضْلِهِ بَعْنَايَةٍ جَعَلَتْ عِدَاهُ تَحْتَ نَعْلِ جَوَادِهِ
وَشَدَا لِسَانُ الْحَالِ فِي تَارِيخِهِ بُشْرَى لَهُ قَدْ نَالَ كُلَّ مُرَادِهِ

سنة ١٠٣٢

ولم يزل قائما بشعار الملك مقيما لشعائر الإسلام، مجهزا عساكره المنصورة إلى
افتتاح البلدان، وتوجه بنفسه الشريفة في عام خمس وأربعين إلى غزو العجم فافتتح
كثيرا من بلدانهم وافتتح بغداد عام ثمان وأربعين بعد الألف، ثم رجع إلى تخت
مملكته اسطنبول، وأبقى على عسكره المنصور سردارا معينا.

ويحكى أنه أرسل إلى مصر المحروسة درقة نحو إحدى عشرة طبقة ضربها بعود
فثبت فيها، وبرز أمره الشريف إلى العساكر المصرية بإخراج العود منها، وأن من
أخرجه يزداد في جامكيته كذا وكذا، فحاولوا إخراجه فعجزوا عن ذلك.

ثم أرسل قوسا ومعها همايون شريف يخاطب به وزير مصر مضمونه أمر العساكر
والأجناد بجر هذا القوس وزيادة علوفة من يفعل ذلك، فحاول العسكر جره فلم
يقدرُوا، ثم علقت الدرقة بالديوان الشريف العالي بمصر المحروسة وعلق القوس
بباب زويلة.

وقد جعل بعض الأروام تاريخا بالتركي لسنة مجيء القوس وهي سنة ١٠٣٣
ثلاث وثلاثين وألف، وترجم بالعربية بما نصه « يا سلطان الوجود لساعدك القوة ».
ومما يدل على سعادته العظمى توجه خاطره الشريف إلى أهالي الحرمين، وأمره
المتولي الجهات خصوصا مصر بإجراء حبوبهم وإرسال مغلات أوقافهم، فما من
همايون يرد منه إلا وفيه الحث على ذلك.

ومما يدل على عناية الله به أن كانت عمارة بيت الله الشريف في زمنه ابتداءها

وانتهاؤها في أيام دولته، وقد أرخ تلك العمارة مولانا الإمام عبد القادر الطبري في قصيدة قدمها إلى السيد محمد المتولي عمارة البيت الشريف، وهي نحو الثمانية عشر بيتًا مطلعها: [من الخفيف]

عَادَ بَيْنْتُ إِلَهِ بَعْدَ انْهْدَامِهِ وَعَدَا فَائِقًا بِحُسْنِ نِظَامِهِ
إلى أن يقول:

فَلِهَذَا طَيَّرُ الْمَسْرَّةَ أَمْسَى مُنْشِدًا عِنْدَ بَدْئِهِ وَخَتَامِهِ
حَالِمًا أَتَمَّهُ بِمُرَادٍ شِيدَ بَيْنَ إِلَهِ تَارِيخِ عَامِهِ

وسجدوا البيت الشريف وعمارته وما يتعلق بهما مذكور مفرد بالتصنيف لا تطول بذكره، وسنشير إلى طرف من أخباره في دولة مولانا الشريف مسعود بن إدريس فإنها موافقة لدولة السلطان مراد في الزمان المذكور سقوطًا وابتداءً تعمير، واستمر مولانا السلطان مراد إلى أن توفي سنة ١٠٤٩ تسع وأربعين وألف، وكانت مدة سلطته سبع عشرة سنة.

ثم تولى السلطان إبراهيم بن السلطان أحمد^(١) أخو السلطان مراد المذكور قبله

جلس على تخت الملك سنة وفاة أخيه السلطان مراد وهي سنة تسع وأربعين وألف، وشرع في أيامه في فتح جزيرة كريد، ففتحها إلا قلعة واحدة؛ وذلك لمتانتها غاية المتانة، فاستمر في الملك إلى أن انفتل من مدته سنة ثمان وخمسين وألف، وكانت مدة سلطته ثمان سنين وثمانية أشهر^(٢).

ثم تولى السلطان محمد خان الغازي المجاهد^(٣)

السلطان محمد خان ابن المرحوم السلطان إبراهيم خان ابن مولانا السلطان أحمد خان ابن مولانا السلطان محمد خان ابن مولانا السلطان مراد خان ابن مولانا السلطان سليم خان ابن مولانا السلطان سليمان خان ابن مولانا السلطان سليم خان فاتح مصر والشام ابن مولانا السلطان بايزيد خان ابن مولانا السلطان محمد خان

(١) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١٣٦ - ١٤٠ .

(٢) بياض بالمخطوط بقدر ستة أسطر.

(٣) ينظر: تاريخ الدولة العلية ص ١٤١ - ١٤٧ .

فاتح القسطنطينية العظمى ابن مولانا السلطان مراد خان ابن مولانا السلطان محمد خان ابن مولانا السلطان يلدرم بايزيد ابن مولانا السلطان مراد خان ابن مولانا السلطان أورخان ابن مولانا السلطان عثمان خان الغازي.

مولده: سنة تسع وأربعين وألف، وهي السنة التي توفي فيها عمه السلطان مراد ابن أحمد.

وجلس على تخت السلطنة في شهر رجب المبارك من شهور سنة ١٠٥٨ ثمان وخمسين وألف، وعمره الشريف إذ ذاك تسع سنين.

له الفتوحات التي لا تحصى والمغازي التي لا تستقصى، أذل بغزواته أعداء الدين، واستباح قلاعهم، وجعلها دارا للمسلمين.

لم تزل أعلام نصره ظاهرة، وآيات سعده باهرة.

فمن فتوحاته الميمونة التي لم تزل بالعز والنصر مقرونة، مدينة قوش آضه وأيوار وزغره ويانتق وورط ويانوا وقمانيصه وقندية التي هي كريد؛ لأنها جزيرة وقندية في طرفها، وكان فتحها سنة ثمانين أعني قلعة كريد.

وخذل بذلك كل جبار عنيد وحصل للمسلمين به المسرة ولأعينهم أعظم قرة، وكان الفتح بها مع عقد هدنة إلى مدة مائة عام.

وهذا على مقتضى مذهب أبي حنيفة النعمان، لأن عقدها موكل إلى نظر السلطان.

وأما عند إمامنا الشافعي فلا يجوز عقدها فوق أربعة أشهر عند قوتنا وفوق عشر سنين عند ضعفنا. ثم إنهم نقضوا العقد ونكثوا العهد فعاد نقضهم عليهم ورجع وباله إليهم.

وقد أرخ الفتح المذكور الشيخ عبد الباقي بن أحمد الشامي في أبيات يقول آخرها: [من السريع]

وَجِينَ كَرْبَ زَالَ أَرْخَتْهُ نَضْرُ مِنْ اللَّهِ وَقَتَّحَ قَرِيبَ

قلت: هو تاريخ لطيف، وحسن الإخراج فيه ألطف، يشير إلى أن مدلول لفظ كرب الحسابي وهو مائتان واثان وعشرون يسقط فيصير الباقي تاريخ تلك السنة.

وأرخه أيضا الشيخ إبراهيم ابن الشيخ عبد الرحمن الخياري المدني بأبيات أولها قوله: [من السريع]

يَا مَعْشَرَ الْإِسْلَامِ قَدْ عَمَّكُمْ فَضْلٌ عَظِيمٌ يَفْتَضِي شُكْرَكُمْ
وآخر قوله:

إِنْ قِيلَ مَا تَارِيخُ عَامِ أَتَى أَلْفَتْحُ وَالنَّضْرُ إِلَى شَهْرِكُمْ
فَقُلْ مُجِيبًا صَحَّ تَارِيخُهُ نَضْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ لَكُمْ

هذه المدن الكبار، ولا يحصى ما سواها من الصغار.

واستمر إلى أن ثار عليه الجند فخلعوه وأدخلوه معتقلاً، وأخرجوا من كان فيه معتقلاً أخاه مولانا السلطان سليمان بن إبراهيم، وسلموا عليه بالولاية، وضربت باسمه السكة وخفق في موكبه اللواء والراية، فهو سلطان زماننا الآن، أيده الله في المكانة والإمكان. ولم يمكث أن التفت إلى قتال أعداء الدين، وتهايا لغزو الكفرة الملحدين، فطلبوا الهدنة أربع سنين، فوافقهم على ذلك لما اقتضاه نظره في مصالح المسلمين.

وكان توليته يوم خلع أخيه، وهو يوم السبت ثاني محرم الحرام مفتتح سنة تسع وتسعين وألف، جل من لا يزول ملكه ولا يتبدل، لا إله غيره.

الخاتمة: نسأل الله تعالى حسنها، تحتوي على ثلاثة أبواب

الباب الأول: في ذكر نسب الطالبين، وذكر المشاهير من أعقابهم.

الباب الثاني: في ذكر من دعا منهم إلى المبايعة، وذكر مكان دعائه إليها وزمانه، وما جرى على كل قائم منهم من خليفة زمانه، وتعدادهم من على بن أبي طالب إلى يومنا هذا، حتى لا تخلو الأرض من قائم من آل محمد يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم إلى أن يظهر مهديها المنتظر، وهذا على غير رأى الإمامية، أما على رأيهم فلا يجوزون الإمامة لغير الاثنى عشر الإمام كما سنذكر ذلك.

الباب الثالث: في ذكر من ولى مكة المشرفة من آل أبي طالب إلى يومنا هذا

ف نقول وبالله العون:

الباب الأول

في ذكر نسب الطالبين، وذكر المشاهير من أعقابهم

أما أنساب الطالبين فأكثرها راجع إلى الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب من فاطمة عليهم السلام، وهما سبطا الرسول ﷺ، وإلى أخيهما محمد بن الحنفية، وإن كان لعلي رضي الله تعالى عنه غيرهم من الولد، إلا أن الذين طلبوا الحق في الخلافة، وتعصب لهم الشيعة، ودعوا لهم في الجهات إنما هم من هؤلاء الثلاثة لا من غيرهم.

فأما الحسن: فمن ولده: الحسن المثنى وزيد، ومنهما العقب المشهود له في الدعوة والإمامة. أما الحسن المثنى، فكان جليلاً فاضلاً ورعاً، أمه خولة بنت منظور بن ريان بن سيار بن عمرو بن جابر بن عقيل بن مازن، وكانت قبل الحسن السبط تحت محمد بن طلحة بن عبيد الله التيمي أحد العشرة رضوان الله تعالى عليهم، فقتل عنها يوم الجمل وله منها أولاد، فتزوجها الحسن بن علي بن أبي طالب، فسمع بذلك أبوها منظور فدخل المدينة الشريفة، وركز راية سوداء عند باب مسجد رسول الله ﷺ فلم يبق قيسي إلا دخل تحتها، ثم قال: أمثلي يفتات عليه في ابنته؟ فقالوا: لا.

فلما رأى الحسن ذلك سلم إليه ابنته فحملها في هودج، وخرج بها من المدينة، فلما صارت بالبقيع قالت: يا أبت أين تذهب بي؟ إنه الحسن ابن أمير المؤمنين عليه السلام، فقال لها: إن كان له فيك حاجة فسيلحقنا.

فلما صاروا في نخل المدينة إذا بالحسن والحسين وعبد الله بن جعفر قد لحقوا بهم، فأعطاه إياها فردها إلى المدينة، وفي ذلك يقول جد حفيز العبسي: [من البسيط]

إِنَّ النَّدَى مِنْ بَنِي دُبَيَّانَ قَدْ عَلِمُوا وَالْجُودَ فِي آلِ مَنْظُورٍ بِنِ سَيَّارِ
الْمَاطِرِينَ بِأَيْدِيهِمْ نَدَى دِيمَا وَكُلَّ غَيْثٍ مِنَ الْوَسْمِيِّ مِذْرَارِ
تَزُورُ جَارَهُمْ وَهَنًا هَدِيَّتُهُمْ وَمَا نَهَاہُمْ لَهَا وَهَنًا بَزْوَارِ
وكان الحسن وصي أبيه، وولى صدقة علي بن أبي طالب في عصره.

قال في كتاب «أنساب قريش»: كان الحجاج بن يوسف قال للحسن وهو

يسايره في موكبه بالمدينة، والحجاج يومئذ أمير المدينة: أدخل عمك عمر بن على معك في صدقة على، فإنه عمك وبقية أهلك. فقال: لا أغير شرط على ولا أدخل فيها من لم يدخل.

قال: إذن أدخله معك. فنكص عنه الحسن حتى غفل عنه الحجاج، ثم كان وجهه إلى عبد الملك حتى قدم عليه، فوقف ببابه يطلب الإذن، فمر به يحيى بن الحكم فلما رآه يحيى، عدل إليه فسلم عليه، وسأله عن مقدمه وخبره وتحفى به، وقال له: إني سأنفكك عند أمير المؤمنين يعني عبد الملك.

فدخل الحسن على عبد الملك فرحب به وأحسن مسأله: وكان الحسن قد أسرع إليه الشيب، ويحيى بن الحكم في المجلس، فقال له يحيى: وما يمنعه يا أمير المؤمنين شيبته أمانى أهل العراق كل عام يقدم عليه منهم ركب يمنونه الخلافة. فأقبل عليه الحسن بن الحسن، فقال: بشس والله الرشد رفدت، وليس كما قلت، ولكننا أهل بيت يسرع إلينا الشيب، فأقبل عليه عبد الملك، فقال: هلم ما قدمت له؟ فأخبره بقول الحجاج فقال له: ذلك إليك، اكتبوا إليه كتابا لا يجاوزه ووصله، فلما خرج من عنده لقيه يحيى بن الحكم، فعاتبه الحسن على سوء محضره، وقال: ما هذا الذي وعدتني.

فقال له: إيها عنك فوالله لا يزال يهابك، ولولا هيته إياك ما قضى لك حاجة، وما أكونك رفداً.

وكان عبد الملك بن مروان غضب عليه، فكتب إلى هشام بن إسماعيل بن هشام ابن الوليد بن المغيرة عامله على المدينة، وكانت بنت هشام تحت عبد الملك بن مروان، وولدت له هشام بن عبد الملك: أن أقم آل على يشتمون على بن أبي طالب، وأقم آل الزبير يشتمون الزبير. فقدم كتابه على هشام، فأبى كل منهما ذلك، وكتبوا وصاياهم، فركبت أخت هشام إليه وكانت جزلة عاقلة فقالت: يا هشام أترك الذي تهلك عشيرته على يده؟ راجع أمير المؤمنين. فقال: ما أنا بفاعل، قالت: فإن كان لابد من ذلك فمر آل على يشتمون الزبير، وآل الزبير يشتمون علياً.

قال: هذه أفعالها. فاستبشر الناس بذلك وكان أهون عليهم. فكان أول من أقيم إلى جانب المرمر الحسن المذكور وكان رجلاً رقيق البشرة عليه يومئذ قميص كتان

رقيق، فقال له هشام: تكلم فاسب الزبير، فقال: إن لآل الزبير رحماً أبلاها ببلالها وأربها بربابها، يا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار.

فقال هشام لحرسه عنده: اضربه، فضربه سوطاً واحداً من فوق قميصه، فخلص إلى جسده، فشرحه حتى سأل دمه تحت قدميه في المرمز. فقام أبو هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية، فقال: أنا دونه أكفيك أيها الأمير فنال من آل الزبير فشتهم. ولم يحضر على بن الحسين - كان مريضاً أو تمارض - ولم يحضر عامر بن عبد الله بن الزبير، فهم هشام أن يرسل إليه، ف قيل له: لا تفعل أفقتله؟ فأمسك، وحضر من آل الزبير من كفاه.

وكان عامر يقول: إن الله لم يرفع شيئاً فيستطيع الناس خفضه، انظروا إلى ما تصنع بنو أمية يخفضون علياً، ويغرون بشتمه، وما يزيده الله بذلك إلا رفعة. وكان ثابت بن عبد الله بن الزبير غائباً، فقدم فقال لهشام بن إسماعيل: إني لم أحضر هذا الجمع فاجمع الناس حتى آخذ بنصيب. فقال هشام: وما تريد بذلك ولود من حضر أنه لم يحضر.

فقال: لتفعلن أو لأكتبن إلى أمير المؤمنين بعرضي نفسي عليك فلم تفعل، فجمع له الناس فقام فيهم فقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ إلى ﴿كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨: ٧٩] لعن الله من لعن، ولعنته قوارع القرآن، لعن الله المندوب يلعنه الله بين عينيه إلا شدة لطيم الشيطان، المتناول ما ليس له هو أقصر ذراعاً وأضيق باعاً.

لعن الله الأتعل المترادف الأسنان المتوثب في الفتن توثب الحمار في القيد محمد ابن أبي حذيفة الرامي أمير المؤمنين عثمان برءوس الأفانين. ثم قال: إن الله رماك، وكذب، لو رماه الله ما أخطأه.

لعن الله الأعور بن سمرة ابن شر العضاء، وألأمها مرعى، وأقصرها فرعا، لعنه الله ولعن من أخذ حباه، يعرض بأم هشام بن إسماعيل، وكان عبيد الله بن عبد الرحمن بن سمرة خلف عليها بعد إسماعيل بن هشام. وعبيد الله بن عبد الرحمن هو الذي عناه ثابت بن عبد الله بن الزبير. فلما بلغ ثابت هذا من القول في هشام أمر به إلى السجن وقال: ما أراك تشتم إلا رحم أمير المؤمنين. فقال له

ثابت: إنهم عصاة مخالفون، فدعني حتى أشفى أمير المؤمنين منهم. فلم يزل ثابت في السجن حتى بلغ خبره عبد الملك فكتب: أن أطلقه فإنما شتم أهل الخلاف. أولاده: محمد وبه كان يكنى، وعبد الله وفيه البقية، وحسن وإبراهيم، وزينب وأم كلثوم ولما خطب الحسن بن الحسن إلى عمه الحسين بن علي بن أبي طالب، قال له الحسين: يا بن أخي قد انتظرت هذا منك قبل اليوم، فخرج به حتى أدخله منزله، ثم أخرج له ابنتيه فاطمة وسكينة فقال: اختر. فاختار فاطمة فزوجه إياها. فكان يقال: إن امرأة سكينة مرذولتها لمنقطة الحسن.

وأنت منه بأولاده المذكورين حسن المسمى حسن المثلث، وعبد الله وزينب وأم كلثوم ما عدا محمد فإن أمه رملة بنت سعيد بن زيد أحد العشرة. فلما حضرت الوفاة الحسن قال لفاطمة: إنك امرأة مرغوب فيك، فكأنني بعبد الله ابن عمرو بن عثمان بن عفان قد جاء على فرس مرجلا جمته، لابسا حلته، يسير في جانب الناس يتعرض لك، فانكحي من شئت سواء، فإني لا أدع من ورائي هما غيرك.

ف قالت: آمن من ذلك وأثلجته بالإيمان من العتق والصدقة لا نتزوجه. ومات الحسن رضي الله عنه وخرج به فوافي عبد الله بن عمرو بالحال التي وصفها الحسن.

وكان يقال لعبد الله بن عمرو «المطرف» من حسنه. فنظر إلى فاطمة حاسراً تضرب وجهها فأرسل إليها: إن لنا في وجهك حاجة فارفقي به. فاسترخت يداها وعرف ذلك فيها وخمرت وجهها. فلما جاءت رسله تخطبها قالت: كيف يميني التي حلفت بها؟ فأرسل إليها: لك مكان كل مملوك مملوكان ومكان كل شيء شيان، فعوضها عن يمينها فنكحته وزوجها به ابنها عبد الله بن الحسن، وولدت له محمداً الديباج والقاسم ورقية بني عبد الله بن عمرو بن عثمان، فكان عبد الله بن الحسن، وهو أكبر أولادها يقول: ما أبغضت بغض عبد الله بن عمرو أحداً، ولا أحببت حب ابنه محمد أخي أحداً. مات الحسن وسنه خمس وثلاثون سنة في حياة أخيه زيد بن الحسن السبط، ولم يدع الإمامة ولا ادعاه لها أحد، والعقب منه في خمسة أشخاص: عبد الله المحض،

والكامل يلقب بهما، وسيأتي ذكره عند ذكر قيام ولده محمد النفس الزكية .
ومن بنيه: الملوك الأدارسة بالمغرب الأقصى، وهم بنو إدريس بن إدريس
المحض، ومن عقبهم بنو حمود ملوك الأندلس الدائلون بها من بني أمية آخر
دولتهم، وهم بنو حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن
إدريس .

ومنهم: بنو سليمان بن عبد الله المحض الملوك بنو احي « تلمسان » .
ومنهم: بنو موسى الجون بن عبد الله المحض، كان من عقبه ملوك اليمامة بنو
محمد الأخضر بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله المحض .
ومنهم: بنو صالح بن موسى بن عبد الله الثاني، ويلقب بأبي الكرام بن موسى
الجون، وهم الذين كانوا ملوكا بـ « غانة » من بلاد السودان بالمغرب الأقصى
وعقبهم هنالك معروف .

ومن عقبه أيضاً: الهواشم بنو أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد الأكبر بن
موسى الثاني ابن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون، كانوا أمراء مكة بعهد
العباسيين .

ومن عقبه: بنو قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن
سليمان بن موسى الجون، ملكوا مكة بعد الهواشم على يد قتادة أبيهم هذا، فمنهم
بنو أبي نمى بن أبي سعيد الحسن بن علي بن قتادة أمراء مكة إلى عهدنا الآن .
والثاني من أولاد الحسن المثنى الخمسة: داود بن الحسن المثنى، وكان رضيع
جعفر الصادق، وكان المنصور حبسه فأفلت منه بالدعاء الذي علمه جعفر أمه،
ويعرف بدعاء أم داود .

ومن عقبه السليمانيون، الذين كانوا بمكة وهم بنو سليمان بن داود، وغلبهم
عليها الهواشم آخرًا وهم المسمون بآل أبي الطيب، كما ذكر ذلك الفاسي في
تاريخه: « شفاء الغرام » فساروا إلى اليمن، فقامت الزيدية بدعوتهم، وغلبوا على
بني طباطبا بـ « صعدة » .

والثالث من أولاد الحسن المثنى الخمسة: حسن المثلث بن الحسن المثنى بن
الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، ومن عقبه قتيل فخ حسين بن علي بن الحسن

المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط الفخي الخارج على الهادي بن الرشيد، وسيأتي ذكره.

والرابع من أولاد الحسن المثنى: إبراهيم الغمر بن الحسن المثنى. ومن عقبه بنو طباطبا أبي الأئمة بـ «صعدة» الذين غلبهم عليها بنو سليمان بن داود بن الحسن المثنى حين جاءوا من مكة ثم غلبهم عليها بنو الرسي، ورجعوا إلى إمامتهم بصعدة، وهم فيها إلى عهدنا الآن.

والخامس جعفر بن الحسن المثنى، وكان يكنى أبا الحسن، وكان أكبر إخوته سناً. ومن عقبه من بني علي: باغرآل حمزة ويعرفون ببني الشجري، منهم: السيد أبو السعادات بن الشجري، له «أمالي» في النحو. انقرض عقبه. ومن عقبه أيضاً: بنو الكشيش، وآل أبي زيد، لهم أعقاب. فهذه خمسة أسباط من الحسن المثنى. وأما أخوه زيد بن الحسن السبط فكنيته أبو الحسين، عاش تسعين سنة، وقيل: خمساً وتسعين، وقيل: مائة.

وكان زيد قد تخلف عن عمه الحسين بن علي فلم يخرج إلى العراق معه، مات زيد ولم يدع الإمامة، ولا ادعاها له مدع من الشيعة. والإمامة لأولاد الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو أعقب سبطاً واحداً، وهو مع الخمسة الأول.

السبط السادس من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب: وهو الحسن بن زيد، ويكنى أبا محمد، وكان أمير المدينة من قبل أبي جعفر المنصور، وعمل له على غيرها.

وكان مظاهراً لبني العباس على بني عمه الحسن المثنى. وهو أول من لبس السواد من العلويين، ولا عقب لزيد إلا من ابنه الحسن هذا.

وكانت لزيد بنت اسمها نفيسة أخت للحسن بن زيد، وهي التي يسميها أهل مصر الست نفيسة ويعظمونها ويقسمون بها، وكانت زوجة الوليد بن عبد الملك.

وكان زيد يفد على الوليد فيقعه على السرير معه، ويكرمه لمكان ابنته، ووهب له ثلاثين ألف دينار دفعة واحدة.

وزعم بعض الناس أن نفيسة المذكورة بنت الحسن بن زيد بن الحسن لا أخت

له، وقد كانت تزوجت بإسحاق بن جعفر الصادق، وكان الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه يروى عنها، ولما مات أدخلت جنازته عليها فصلت عليه. والله أعلم.

قال الزبير بن بكار: حدثني نوفل بن ميمون، قال: حدثني أبو مالك محمد بن مالك بن علي بن هرمة، أنه قال يمدح الحسن بن زيد بن الحسن السبط، ويعرض بعبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، وبابنيه محمد النفس الزكية، وإبراهيم بن عبد الله المحض: [من البسيط]

إني امرؤ من رعى غنبي رَعَيْتَ لَهُ
أَمَّا بَنُو هَاشِمٍ حَوْلِي وَقَدْ رَدَعُوا
فَمَا يَبْتَرِبُ مِنْهُمْ مَنْ أَعَاتَبَهُ
وَذَاكَ مَنْ يَأْتِيهِ يَغْمِذُ إِلَى رَجُلٍ
لَا يُسْلِمُ الْحَمْدَ لِلَّوَامِ إِنْ شَحَطُوا
مَا زَالَ يَنْمَى وَزَالَ اللَّهُ يَرْفَعُهُ
أَمَاتَ فِي جَوْفِ ذِي الشُّخْنَاءِ ظَنَّتَهُ
إِذَا بَنُو هَاشِمٍ آلَتْ بِأَقْدِحِهَا
حَازَتْ يَدَا حَسَنِ قَدْخَيْنِ مِنْ كَرَمٍ
لَا يَسْتَرِيحُ إِلَى إِثْمٍ وَلَا كَذِبٍ
مَا قَالَ أَفْعَلُ أَمْضَاهُ لَوِجْهَتِهِ
مَا أَطْلَعْتَ رَأْسَهَا كَيْمَا تَهْدِدَنِي
إِلَّا ذَكَرْتُ ابْنَ زَيْدٍ وَهُوَ دُوْ صِلَةٍ
فَاسْلَمْ وَلَا زَالَ مِنْ عَادَاكَ مُحْتَمَلًا
لَمْ يَعْتَبِ اللَّهُ أَنْفًا فِيكَ أَرْغَمَهُ
إِذَا خَلَوْتَ بِهِ نَاجَيْتَ ذَا طَهْرٍ
طَلَّقَ الْيَدَيْنِ إِذَا أَضْيَافُهُ طَرَقُوا
بَاتُوا يَعْذُونَ نَجْمَ اللَّيْلِ بَيْنَهُمْ
ثُمَّ اغْتَدَوْا وَهُمْ دُسَمُ شَوَارِبِهِمْ
قَدْ جَعَلَ النَّاسَ حَقَبًا نَحْوَ مَنْزِلِهِ

غَيْبَ الدَّمَامِ، وَمَنْ أَنْكَرْتُ أَنْكَرَنِي
تَبْلِي الصِّيَابِ الَّتِي جَمَعْتُ فِي قَرْنٍ
إِلَّا عَوَائِدُ أَرْجُوهُنَّ مِنْ حَسَنِ
مِنْ كُلِّ صَالِحَةٍ أَوْ صَالِحِ قَمِينٍ
بَلْ يَأْخُذُ الْحَمْدَ بِالْغَالِي مِنَ الثَّمَنِ
طَوْلًا عَلَى بَغْضَةِ الْأَعْدَاءِ وَالْإِخْنِ
وَكَانَ دَاءٌ لَدِي الشُّخْنَاءِ وَالظَّنِّ
إِلَى الْمَفِيزِ وَخَافَتْ ذَوْلَةَ الْعَبْنِ
لَمْ يُغْمَلَا بِشَبَا الْمَبْرَاةِ وَالسَفْنِ
عِنْدَ السُّؤَالِ وَلَا يَجْتَنُّ بِالْجُنِّ
وَمَا أَبَى لِحَ مَا يَأْتِي فَلَمْ يَكُنْ
حَضْبَاءُ تَطْرَحُ مِنْ نَفْسِي عَلَى شَرَنِ
عِنْدَ السَّنِينِ وَعَوَادَ عَلَى الزَّمَنِ
غِيظًا وَلَا زَالَ مَعْفُورًا عَلَى الذَّقَنِ
حَتَّى تَزُولَ رَوَاسِي الصُّخْرِ مِنْ حَضَنِ
يَأْوِي إِلَى عَقْلِ صَافِي الْعَقْلِ مُؤْتَمِنٍ
يَشْكُونَ مِنْ قَرَّةِ شَكْوَى وَمِنْ وَسَنِ
فِي مُسْتَجِيرِ النُّوَاحِي زَاهِقِ السَّمَنِ
وَلَمْ يَبِيتُوا عَلَى ضَنِحٍ مِنَ اللَّبَنِ
شَقَا كَقَرْنِ أَثِيثِ الرَّأْسِ مَذْهَنِ

فهم إلى نائل منه ومنفعة
أوصاك زيد بأعلى الأمر منزلة
خلأت صدق وأخلاق خُصِصَتْ بها
يلقى الأيا من لاقاك سائحة
وأنت من هاشم حقاً إذا نسبوا
بنوك خيرُ بنيتها إن حفلت بهم
والله أعطاك فضلاً من عطيته
قال: فقال له إبراهيم بن عبد الله بن الحسن - وجاءهم بعد ذلك - : لا أنعم الله
بك عينا يا فاسق، ألسنت الذي تقول للحسن بن زيد:

اللَّهُ أَعْطَاكَ فَضْلاً مِنْ عَطِيَّتِهِ عَلَى هَنٍ وَهَنٍ فِيمَا مَضَى وَهَنٍ
تريد أبي عبد الله المحض، وأخي محمداً النفس الزكية وإياي؟ فقال ابن هرمة:
والله ما أردتكم بذلك. قال له إبراهيم: فمن أردت؟ قال: قارون وفرعون وهامان.
قلت: هذا التوجيه عما الكلام فيه أبعد من زمان المذكورين عن زمان نحن فيه.
لكنه قد حلف بالله والله عليم بالنيات. ثم قال ابن هرمة يعتذر إلى إبراهيم الغمر من
ذلك ويمدحه وأباه وأخاه [من البسيط]

يا ذا النبوة يدعوني لِيُسْمِعَنِي
أَقْبِلْ عَلَيَّ بَوَجْهِ مَنكَ أَغْرِفُهُ
لا والذي أنت مِنْهُ رَحْمَةٌ نَزَلَتْ
لَقَدْ أَتَيْتُ بِأَمْرِ مَا أَبْهَتْ لَهُ
إِلَّا مَقَالَةَ أَقْوَامِ ذَوِي إِحْنٍ
لَمْ يُخَسُّوا الظَّنَّ إِذْ ظَنُّوا لِذِي حَسَبٍ
ما غيرت وجهه أم مقصرة
وكَيْفَ أَمْشِي مَعَ الْأَقْوَامِ مُعْتَدِلًا
وكيف يأخذ مثلي في تحيزه
وقد صَحِبْتُ وَجَاوَزْتُ الرِّجَالَ فَلَمْ
وَمَا بَرِخْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ فِي سَنٍ

مواعظاً من جَمِيلِ رَأْيِهِ الْحَسَنِ
فَقَدْ فَهَمْتُ وَسُدَّ السَّمْعُ لِلأُذُنِ
نَرْجُو عَوَاقِبَهَا فِي غَايِرِ الزَّمَنِ
وَلَا تَعَمِّدْهُ قَضْدِي وَلَا عَنِي
وما مَقَالُ ذَوِي الشُّخْنَاءِ وَالْإِحْنِ!
وفِيهِمُ الْعَذْرُ مَقْرُونٌ إِلَى الظَّنِّ
إِذَا الْقِتَامُ تَغَشَّى أَوْجَهُ الْهَجَنِ
وَقَدْ رَمَيْتُ صَحِيحَ الْعُودِ بِالْأُبَنِ؟
وسط المعاشِرِ مَبْخُوسًا مِنَ الثَّمَنِ
أَمْلُلُ إِخَاءَ وَلَمْ أَغْدِزْ وَلَمْ أَخْنِ
مِنْ صَالِحِ الْعَهْدِ أَمْضِيهَا إِلَى سَنٍ

يَا بَنَ الْفَوَاطِمِ خَيْرَ النَّاسِ كُلَّهُمْ
 إِنَّ لِي نَحْوِي فَإِنَّ اللَّهَ جَابِرُنَا
 وَمَا لَيْسَتْ عَنَانِي فِي مَسَاءَتِكُمْ
 وَأَنْتَ مِنْ هَاشِمٍ فِي سِرٍّ تَبَعْتَهَا
 لَوْ رَاهَنْتُ هَاشِمًا عَنْ خَيْرِهَا رَجُلًا
 وَاللَّهِ لَوْلَا أَبُوكَ الْخَيْرُ قَدْ نَزَلَتْ
 تَبْرِي الْعِظَامِ قُبْدِي عَنْ جَنَاحِيهَا
 أَنْتَ الْجَوَادُ الَّذِي نَدْعُو فَتَلْحَقْنَا
 فَمَا أَبَالِي إِذَا مَا كُنْتُ لِي كَنَفًا
 وَمَا أَبَالِي عَدُوَّ اللَّهِ شَاخِنِي
 أَنْتَ الْمَرْجَى لِأَمْرِ النَّاسِ إِنْ أَرَمْتُ
 يَاوُونَ مِنْكَ إِلَى حِضْنِ يُلَاذُ بِهِ
 بَيْنَنَا وَأَوْلَاهُمْ بِالْفَوْزِ لَا الْعَبَنِ
 وَلَا اخْتِيَارَ لَنَا إِنْ أَنْتَ لَمْ تَلِنِ
 وَلَا خَلَعْتُ لَغَشٍّ نَحْوَكُمْ رَسَنِي
 وَطِينَةَ لَمْ تُقَارِفْ هُجْنَةَ الطَّيْنِ
 لَكَانَ أَبُوكَ الَّذِي يَخْتَصُّ بِالرَّهْنِ
 مَتَى قَوَافٍ بِأَهْلِ اللَّؤْمِ وَالْوَهْنِ
 أَخَذَ الشَّرِيحَةَ بِالْمِبرَةِ وَالسَّفَنِ
 إِذَا تَرَخَى الْمَدَى بِالْقَرْحِ وَالْحَصَنِ
 مَنْ صَدَّ أَوْ بَتَّ مِنْ أَقْرَانِهِ قَرْنِي
 أَمْ زَاخَمْتُ شَعْفَاتِ الصُّمِّ مِنْ حِضْنِ
 جَدَاءٍ صَرَمَاءَ لَمْ تَصُدُّزْ عَلَى لَبَنِ
 تَأْوِي إِلَيْهِ الطَّرَادَى وَاسِعَ الْعَطَنِ

وأعقب الحسن بن زيد من سبعة رجال، ثلاثة منهم مكثرون: أبو محمد القاسم، وعلي الشريد، وأبو محمد إسماعيل. وأربعة مقلون أبو الحسن إسحاق، وأبو طاهر زيد، وأبو زيد عبد الله، وأبو إسحاق إبراهيم.

أعقب القاسم بن الحسن، وهو الفرع الأول من رجلين: محمد البطحاني، وعبد الرحمن الشجري.

أما محمد البطحاني ونسبه إلى بطحان بالضم. موضع بالمدينة، وبالفتح إلى البطحاء، وكلاهما ورد، وكان فقيها له عقب كثير منهم: إبراهيم بن محمد البطحاني، أعقب في بلاد شتى وفيهم مجانيين وبه ونقص وسفهاء.

من ولده الوزير أبو منصور ناصر بن مهدي، كان فاضلا تولى الوزارة ببغداد للخليفة الناصر العباسي في عشر ذي الحجة سنة اثنتين وستمائة. وعزل في ثالث عشر جمادى الآخرة، ونقل وعياله إلى دار الخلافة وأجري عليه النفقة إلى أن مات ليلة السبت ثمان خلون من جمادى الأولى سنة سبع عشرة وستمائة في السنة التي توفي فيها الشريف قتادة النابغة جد ساداتنا ولادة مكة المشرفة وانقرض عقبه.

قال في «عمدة الطالب»: كان فيه تجبر وتكبر. فحكى أنه وجد يوما في دواته

رقعة فأنكرها فأخذها فإذا فيها [من السريع]

لَا قَاتِلَ اللَّهِ يَزِيدًا وَلَا مُدَّتْ يَدُ السُّوءِ إِلَى نَعْلِهِ
لَأَنَّهُ قَدْ كَانَ ذَا قُدْرَةٍ عَلَى اجْتِثَاثِ الْفَرْعِ مِنْ أَصْلِهِ
لَكِنَّهُ أَبْقَى لَنَا مِثْلَكُمْ أَخْيَاءَ كَيْ يُغْدَرَ فِي فِعْلِهِ
فاضطرب لذلك واجتهد أن يعلم واضعها.

قلت: هذا تجرؤ إلى الغاية والعياذ بالله لكن الابن السوء يكسب الآباء الكرام السوء.
ومنهم: الداعي الصغير بالري وطبرستان وهو الحسن بن القاسم بن علي بن
عبد الرحمن بن القاسم بن محمد البطحاني بن القاسم بن الحسن بن زيد. وكان بين
هذا الداعي الصغير وبين الأطروش حروب.

وقتل هذا الداعي سنة تسع عشرة وثلاثمائة.

ومن عقبه أيضا: القاسم بن علي بن إسماعيل أحد قواد الحسن بن زيد وهم
غيروا نعم أهل تلك الآفاق، وأذهبوا بهجتهم، وكانوا سبباً لتورد الديلم دار الإسلام
بما يستجيشونهم، خرج معهم ومع الحسيني ماكان بن ماهان ملك الديلم.

وكان مرداويج وبنو بويه من بعض رجاله، وكان لهم من عشيرتهم قواد ورجال
يسمون بأسماء الديلم من أجل مرباهم بينهم. والله يخلق ما يشاء.

وأما عبد الرحمن الشجري: فنسبته إلى قرية قريبة من المدينة الشريفة، يكنى
أبا جعفر، له عقب من ثلاثة: علي ومحمد وجعفر. ومنهم بنو المنقوب، وبنو أبي
الغيث، وبنو أبي نفيسة، وبنو شكر، وبنو أسود.

الفرع الثاني: علي الشريد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب،
سمي بذلك لقوته. مات في حبس المنصور. وأعقب من ولده عبد الله. ولعبد الله
هذا عقب منهم السبعية، وهذه نسبة إلى محلة بالكوفة.

الفرع الثالث: أبو محمد إسماعيل، ويلقب جالب الحجارة بالجيم، وقيل بالحاء
لشدته وقوته. ويلقب بالمهفهم أيضا. أعقب من محمد وعلي النازوكي. أما علي
هذا فله عقب منهم: بنو طرخان. وأما محمد فأعقب من ولده زيد. ومنه محمد
الداعي، وأخوه الحسن ملكا طبرستان فملكها أولا الحسن ولقب بالداعي الكبير
وبالداعي الأول سنة خمسين ومائتين. وتوفي سنة سبعين ومائتين ولم يعقب. وكان

جريثا على سفك الدماء على ما حكاه صاحب « عمدة الطالب » .

الفرع الرابع: أبو الحسن إسحاق بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان أعور ويلقب بالكوكبي، وكان مع الرشيد، قيل: إنه كان يسعى بآل أبي طالب فكان عينا للرشيد عليهم، وسعى بجماعة من العلويين فقتلوا برأيه. وغضب الرشيد عليه آخر الأمر فحبسه حتى مات في الحبس.

قال أبو عبد الله: أولد من هارون والحسن، وقيل: إسحاق ليس له ولد.

الفرع الخامس: أبو طاهر زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب. عقبه من ولد طاهر، ومنه في محمد بن طاهر.

الفرع السادس: أبو زيد عبد الله بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب. له خمسة: علي والحسن ومحمد ويزيد وإسحاق. لهم أعقاب.

الفرع السابع: أبو إسحاق إبراهيم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب. أعقب من ولده إبراهيم بن إبراهيم، وأعقب إبراهيم من الحسن ومحمد لهما عقب.

قال ابن خلدون^(١): ومن عقب إبراهيم بن الحسن: محمد بن الحسن بن محمد ابن إبراهيم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أقام بالمدينة أيام المعتمد، وجاهر بالمنكرات والقتل إلى أن تعطلت الجماعات، ولا قوة إلا بالله. وأما الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما وهو القتل بالطف أيام يزيد. أولاده اثنا عشر، وقيل أقل، قتل غالبهم بـ « كربلاء » ولم يعقب منهم إلا علي زين العابدين فقط، فجميع بني حسين ينسبون إليه، وهو الإمام بعد أبيه الحسين، ولد بالمدينة يوم الخميس خامس شعبان سنة ثمان وثلاثين من الهجرة في حياة جده علي ابن أبي طالب قبل وفاته بستين. كنيته أبو الحسن، وقيل أبو محمد، وقيل أبو بكر، ألقابه زين العابدين، والزكي، والأمين، وذو الثغفات، وزين العابدين أشهرها.

صفته: أسمر قصير رقيق. معاصروه: مروان وعبد الملك والوليد ابنه. عمره سبع وخمسون سنة أقام منها مع جده علي بن أبي طالب ستين، ومع عمه الحسن بعد وفاة جده عشر سنين، ومع أبيه بعد وفاة عمه إحدى وعشرين سنة، وبقي بعد

(١) ينظر: تاريخ ابن خلدون: المجلد الرابع، القسم الأول ص ٢٤٦ .

وفاة أبيه أربعاً وعشرين سنة وهي مدة إمامته.

قال السيد نور الدين على السمهودي مؤرخ المدينة الشريفة في كتابه «جواهر العقدين»: كانت أمه سلامة بنت يزدرج آخر ملوك الفرس. وكانت له ثلاث بنات، وسين في زمن عمر بن الخطاب، فحصلت واحدة منهن لعبد الله بن عمر بن الخطاب، فأولدها سالم بن عبد الله بن عمر، وحصلت الأخرى لمحمد بن أبي الصديق، فأولدها القاسم بن محمد بن أبي بكر، وحصلت الثالثة للحسين بن علي، فأولدها عليا زين العابدين المذكور، فهم بنو خاله.

كان زين العابدين مع أبيه رضي الله عنهما بـ «كربلاء» فاستبقي، قيل لصغر سنه لأنهم قتلوا كل من أنبت، وكان قد أمرهم عبيد الله بن زياد بقتله ثم صرفه الله تعالى عنه. وأشار بعض الفجرة على يزيد بقتله أيضاً فحماه الله منه، والحمد لله والمنة. ثم إن يزيد صار يكرمه ويعظمه، ويجلس معه ولا يأكل إلا وهو معه. ثم بعثه إلى المدينة فكان بها محترماً معظماً.

قال ابن عساكر: ومسجده بدمشق معروف وهو الذي يقال له «مشهد» على بجامع دمشق.

قال الإمام الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل منه.

وقال محمد بن سعد: كان زين العابدين ثقة مأموناً، كثير الحديث عن رسول الله ﷺ عالماً لم يكن في أهل بيته مثله، وكان إذا توضأ يصفر لونه، فإذا قام إلى الصلاة أرعد من الفزع، فقيل له في ذلك. فقال: أتدرون بين يدي من أقوم ولمن أناجي؟ ويروى أنه احترق البيت الذي هو فيه وهو قائم يصلي، فلما انصرف قيل له ما بالك لم تنصرف حين وقعت النار؟ فقال: إني شغلت عن هذه النار بالنار الأخرى.

وروى أنه لما حج وأراد أن يلبي أرعد واصفر وخر مغشياً عليه. فلما سئل قال: إني أخشى إذا قلت لييك اللهم لييك أن يقول لي لا لييك ولا سعديك. فشجعوه وقالوا: لا بد من التلبية، فلما لبى غشي عليه حتى سقط من الراحلة. وكان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة. وكان رضي الله عنه يقول: صدقة الليل تطفئ غضب الرب عز وجل.

وكان إذا خرج من منزله قال: اللهم إني أتصدق اليوم وأهب عرضي لمن

يغتاني.

ومات لرجل ولد مسرف على نفسه فجزع عليه فقال له على رضي الله عنه: إن من وراء ذلك لخلالا ثلاثا: شهادة أن لا إله إلا الله، وشفاعة رسول الله ﷺ، ورحمة الله تعالى.

واختلف في تاريخ وفاته، والجمهور أنها سنة أربع وتسعين في أولها. وأغرب المدائني فقال: في سنة مائة، ودفن بالبقيع في القبر الذي فيه عمه الحسن ابن علي بقبة العباس بن عبد المطلب، ودفن في هذا القبر ابنه محمد الباقر وابنه جعفر الصادق فهم أربعة في قبر واحد فأكرم به قبرا ويقال: إن رأس الحسين أرسل به إلى المدينة فدفن فيه. والله أعلم.

أولاده خمسة عشر ولدًا، وقيل أكثر، وقيل أقل. العقب منه في ستة أسباط فقط وهم: محمد الباقر، وعبد الله الباهر، وزيد الشهيد، وعمر الأشرف، والحسين الأصغر، وعلي الأصغر السبط الأول الإمام بعد أبيه هو: محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وسيأتي ذكر ترجمته أيضا عن ذكر الأئمة الاثني عشر قريبا. أولاده ستة العقب منه في جعفر.

السبط الثاني: عبد الله الباهر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. لقب بالباهر لجماله. قالوا: ما حضر مجلسا إلا بهر جماله وحسنه من حضر.

توفي وهو ابن سبع وخمسين سنة. يكنى أبا محمد. وعقبه قليل. أعقب من ابنه محمد الأرقط وحده. ويكنى محمد هذا أبا عبد الله، وكان محدثا. وأقطعه السفاح عين خالد بن سعيد ويلقب بالأزرق. قال العمري: كان مجدرًا فلقب بالأرقط. قال أبو نصر البخاري: من يطعن في الأرقط فلا يطعن من حيث النسب وإنما يطعن بشيء آخر جرى بينه وبين جعفر الصادق.

ويقال: إنه بصق في وجه الصادق فدعا عليه فصار أرقط الوجه به نمش كرية المنظر، وأما نسبه فلا مطعن فيه.

وأعقب الأرقط من إسماعيل وحده، وإسماعيل من اثنين محمد والحسين البنفسج.

أما محمد فله أحمد الدح وإسماعيل الناصب ولهما أعقاب. وأما الحسين فعقبه

في عبد الله وأحمد وإسماعيل الدح لهم أعقاب. ومن ولد الأرقط الحسين الكوكبي ابن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن الأرقط.
السطب الثالث: زيد الشهيد بن علي زين العابدين بن الحسين يكنى أبا الحسن وستأتي ترجمته عند ذكر قيامه في الباب الثاني المعقود لمن دعا من الأهل إلى المبايعه.

أعقب من ثلاثة: الحسين ذي الدمعة، قيل له ذلك لكثرة بكائه. وعيسى موتم الأشبال وهو الذي حارب المنصور أول خلافته. ومحمد. وأما ابنه يحيى فلم يعقب وخرج بعد قتل أبيه. وسيأتي ذكره في الدعاة في الباب المشار إليه.
أعقب الحسين من ثلاثة: يحيى والحسين وعلي، وأعقب عيسى من أربعة: أحمد المختفي وزيد ومحمد والحسين عصارة.
وأعقب محمد من رجل واحد وهو أبو عبد الله جعفر الشاعر. وأعقب الشاعر من ثلاثة: محمد الخطيب وأحمد مسكين والقائم.
ولهم أعقاب منهم: علي بن محمد الخطيب. ولعلي المذكور قوله [من المتقارب]

وَأَنَا لِنُضْبِحُ أَسْيَافَنَا إِذَا مَا اضْطَبَخْنَا بَيَوْمَ سَفْوِكَ
مَنَابِرُهُنَّ بَطُونُ الْأَكْفِ وَأَغْمَاذُهُنَّ رُءُوسُ الْمُلُوكِ
وله أيضا [من الوافر]

لَنَا مِنْ هَاشِمٍ هَضْبَاتُ غُرِّ مُطَنَّبَةٍ بِأَوْتَادِ السَّمَاءِ
تُطِيفُ بِنَا الْمَلَائِكُ كُلَّ يَوْمٍ وَنَكْفُلُ فِي حُجُورِ الْأَنْبِيَاءِ
وَيَهْتَزُّ الْمَقَامُ لَنَا ارْتِيَا حَا وَيَلْقَانَا صَفَاهُ بِالْصَفَاءِ

ومن ولد الحسين ذي الدمعة: الحسن بن الحسين بن زيد. وقتل مع أبي السرايا، ويحيى بن الحسين الذي كان من عقبه يحيى بن عمر بن يحيى القائم بالكوفة أيام المستعين، وسيأتي ذكره في الباب الثاني المذكور، وعلي بن زيد بن الحسين بن زيد قام بالكوفة ثم هرب إلى صاحب الزنج بالبصرة، فقتله وأخذ جارية له كان سبها من البصرة.

السطب الرابع: عمر الأشرف بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله

تعالى عنهم. وهو أخو زيد الشهيد لأبويه وأسن. ويكنى أبا علي وقيل أبا جعفر. وكان محدثًا فاضلاً أعقب من رجل واحد وهو علي الأصغر والعقب من علي الأصغر هذا في ثلاثة: القاسم وعمر الشجري وأبو محمد الحسن من ابنه علي، وأعقب علي من ثلاثة رجال أبو علي الصوفي، وأبو عبد الله الحسين الشاعر المحدث، وأبو محمد الحسن الناصر الكبير الأطروش إمام الزيدية ملك الديلم صاحب المقالة، إليه تنتسب الناصرية من الزيدية، ورد الديلم سنة سبعين ومائتين وكان بطبرستان، فلما غلب رافع عليها أخذه فضربه ألف سوط فطرش، وأقام بأرض الديلم يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى، وإلى الإسلام أربع عشرة سنة، ودخل طبرستان في جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثمائة فملكها ثلاث سنين وثلاثة أشهر، ويلقب بالناصر للحق، وأسلموا على يده وعظم أمره. وتوفى بـ «آمل» عن سبع وتسعين سنة، له عقب، وعمر الشجري له عقب.

السبط الخامس: أبو عبد الله الحسين الأصغر ابن علي زين العابدين بن الحسين رضي الله تعالى عنهم.

كان عفيفاً محدثاً عالمًا توفي سنة تسع وخمسين ومائة عن سبع وخمسين سنة ودفن بالبقيع، وعقبه عالم كثير بالحجاز والعراق والشام والمغرب وبلاد العجم، منهم أمراء المدينة، وسادات العراق، وملوك الري. أعقب من خمسة رجال: عبيد الله الأعرج وعبد الله وعلي وأبي محمد الحسن وسليمان.

أما سليمان بن الحسين الأصغر بن علي زين العابدين فأعقب من ابنه سليمان بن سليمان، وعقبه بالمغرب يقال لهم الفواطم.

وأما أبو محمد الحسن بن الحسين الأصغر، فعقبه من ابنه محمد بن الحسن، ومنه من عبد الله ولعبد الله محمد السليق وعلي المرعش وعقبهما كثير ببلاد العجم. وأما علي بن الحسين الأصغر، فأعقب من ثلاثة: عيسى الكوفي وأحمد جفينة وموسى حمضة لهم أعقاب.

وأما عبد الله بن الحسين الأصغر مات في حياة أبيه فعقبه من جعفر صحصح بن عبد الله، وكان له عشرة وانقرضوا. ابنته زينب بنت عبد الله بن الحسين الأصغر

تزوجها الرشيد، وفارقها ليلة دخوله بها، وذلك أنه بعث إليها تلك الليلة خادماً ومعه تكة يريد أن يربطها لثلاث تمتنع على الرشيد فلما دنا الخادم منها ركضت برجلها فكسرت ضعفين من أضلاعه، فخافها الرشيد، ولم يدخل بها، وردّها من غدها إلى الحجاز، وأجرى عليها في كل سنة أربعة آلاف مثقال، وأدرّها عليها بعده ابنه المأمون. فأعقب جعفر صحصح بن عبد الله بن الحسين الأصغر من ثلاثة: محمد العقيقي وإسماعيل المنقذي ويقال لولدهما المنقزيون سموا بذلك لأنهم سكنوا دار المنقذ بالمدينة فنسبوا إليها.

وبنو محمد العقيقيون لهم أعقاب، وتنسب إليهم بنو ميمون، وآل البكري، وآل عدنان.

قال ابن خلدون: ومن ولد الحسين عبد الله العقيقي بن الحسين، كان من ولده الحسين بن محمد بن جعفر بن عبد الله العقيقي، قتله الحسن بن زيد صاحب «طبرستان».

وأما عبيد الله الأعرج بن الحسن الأصغر بن علي زين العابدين، فيكنى أبا علي، كان في إحدى رجليه نقص.

وفد على أبي العباس السفاح، فأقطعه ضيعة بالمدائن تغل في السنة ثمانين ألف دينار.

وكان عبيد الله قد تخلف عن بيعه محمد النفس الزكية لما خرج بالمدينة، فحلف محمد إن رآه ليقتلنه فلما جرى به إليه غمض محمد إحدى عينيه مخافة أن يحنث.

توفي عبيد الله في حياة أبيه عن سبع وثلاثين سنة.

وانقسم عقبه بطوناً وأفخاذاً وعشائر.

أعقب من أربعة رجال: جعفر الحجة وعلي الصالح ومحمد الجوابي وحمزة مختلس الوصية.

أما حمزة مختلس الوصية، فأعقب من ثلاثة رجال محمد والحسين وعلي، وكان له عبيد الله لم يطل له ذيل.

وأعقب محمد من رجلين: أبي علي ويلقب سنّور الله، له عقب ببلاد العجم، والحسين الحرون وكان أحد الأبطال المشهورين، مات في حبس المهدي العباسي.

وأما الحسين بن حمزة، ويكنى أبا الشنف له عقب من ابنه محمد. منهم بنو ميمون وبنو حمزة. وأما على فأعقب على بن على وله عقب وقيل انقرض. وأما محمد الجوابي بن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر - والجواب قرية بالمدينة إليها نسب - له عقب من ولده الحسن بن محمد.

وأما على الصالح بن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر، أعقب من رجلين عبيد الله الثاني وإبراهيم، ولهما أعقاب مبسوطة التفاريع في محالها. ومن أعقاب عبيد الله الثاني: الأمير أبو الحسين محمد الأشتر، ممدوح أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبّي بالقصيدة الدالية التي مطلعها: [من المنسرح]

أَهْلًا بَدَارِ سَبَاكَ أَغِيدَهَا
.....

وأما جعفر الحجة ابن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن على زين العابدين فكان من أئمة الزيدية، وكان له شيعة يسمون الحجة، وكان القاسم الرسي بن طباطبا يقول: جعفر بن عبيد الله إمام آل محمد وكان فصيحاً.

ومن عقبه الملقب بمسلم الذي يريد مصر أيام كافور وهو محمد بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى المحدث بن الحسن بن جعفر حجة الله، وابنه طاهر بن مسلم.

ومن عقب طاهر هذا أمراء المدينة إلى هذا العهد بنو جماز بن هبة بن جماز بن منصور بن جماز بن شيحة بن هاشم بن القاسم بن مهنا. ومهنا هو الحسن بن طاهر بن مسلم.

قال ابن خلدون: هكذا قال المسيحي مؤرخ العبيديين.

وقال العتبي مؤرخ دولة بني سبكتكين: إن مهنا هو ابن داود بن القاسم أخي مسلم وعم طاهر.

قلت: رأيت في « جواهر العقدين » ما نصه: جد أهل بيت بني مهنا أمراء المدينة من الولاة والمعزولين يحيى المحدث ابن الحسن بن جعفر الحجة ابن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب؛ لأن مهنا المذكور هو ابن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى المذكور.

بل غالب من بالمدينة اليوم من أشرف بني حسين من نسله، وهو مؤيد لما قاله العتبي لا كما تراه كما قال المسيحي.

وزعم ابن سعيد أن بني جماز بن شيحة أمراء المدينة من عقب عيسى بن زيد الشهيد وفيه نظر.

ومن ولد عبد الله الأعرج حمزة بن الحسن بن سليمان بن سليمان بن حسين ملك هاز في أرض المغرب، وملك قطيعا بلد « صنهاجة » وإليه ينسب سوق حمزة هنالك فيما قاله ابن حزم وولده بها كثير، وعم أبيه الحسن بن سليمان من قواد الحسن بن زيد بطبرستان.

السبط السادس: على الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم يكنى أبا الحسن.

أعقب من ابنه الحسن الأفطس. مات أبوه وهو حمل وأعقب الأفطس وأنجب وأكثر.

وعقبه من خمسة رجال: على حروري وعمر والحسين والحسن المكفوف وعبد الله الشهيد قتيل البرامكة.

وأما الحسين بن الحسن الأفطس الذي قام بمكة أيام أبي السرايا من قبل محمد الديباج بن الصادق ثم دعا لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم الغمر وأخذ مال الكعبة وفيه يطعنون لقبح سيرته.

وقد تكلم فيه قوم، منهم: الشريف أبو جعفر بن معية الحسنی صاحب المبسوط وأبو عبد الله الحسين بن طباطبا، وأثبتته أكثر العلماء.

وعمل شيخ الشرف العبيدلي كتابا سماه «الانتصار، لبني فاطمة الأبرار». ذكر الأفطس وولده بصحة النسب وذم الطاعن عليهم. قال العمري: وهو في الجرائد والمشجرات ما دفعهم دافع.

وقال الشيخ تاج الدين بن النقيب لما سئل عن الأفطس وولده قال: إن رسول الله ﷺ وعد أن يفرق من ذريته عدد أسباط بني إسرائيل، وقد افترق من ولد الحسين ستة أسباط هم أولاد علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. فلو توجه الطعن على الأفطس لم يكن لعلي بن علي بن الحسين عقب ولا يكون أولاد فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها اثني عشر سبطا.

قال: وهذه حجة ظاهرة على صحة نسبهم.

وقيل: إن الحسين بن الحسن الأفطس كان حامل راية محمد النفس الزكية، ولم يخرج معه أسمع منه ولا أبصر.

وكان يقال له رمح أبي طالب، لطوله وطوله.

ولما قتل محمد النفس الزكية اختفى الحسن الأفطس، فلما دخل الصادق العراق ولقى المنصور قال له: يا أمير المؤمنين أتريد أن تسدي إلى رسول الله ﷺ يداً.

قال: نعم يا أبا عبد الله. قال الصادق: تعفو عن الحسن بن علي بن علي زين العابدين بن الحسين فعفا عنه.

قال أبو نصر البخاري: فهذه شهادة قاطعة من الصادق أنه ابن رسول الله ﷺ. وعلى ومحمد ابنا الأفطس قتلها المأمون.

وأما محمد الباقر يكنى أبا جعفر الغاية الساكن والهادي وأشهرها الباقر لقول النبي ﷺ لجابر بن عبد الله الأنصاري: إنك ستعيش حتى ترى رجلاً من أولادي اسمه اسمي يقر العلم بقرأ فإذا لقيته فأقره مني السلام فلقبه جابر وأقرأه السلام من رسول الله ﷺ، ومات جابر بعد ذلك بقليل.

ولد بالمدينة يوم الخميس ثالث صفر سنة سبع وخمسين من الهجرة قبل قتل الحسين جده بثلاث سنين.

صفته: معتدل السمرة، معاصره الوليد، وولده يزيد وإبراهيم.

عمره ثمان وخمسون سنة وقيل ستون، أقام منها مع جده الحسين ثلاث سنين، ومع ابنه علي زين العابدين ثلاثاً وثلاثين سنة وقيل خمساً وثلاثين سنة، وبقي بعد موت أبيه سبع عشرة سنة وهي مدة إمامته.

يقال: مات بالسم في زمن إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك سنة عشر ومائة، وقيل: سنة أربع عشرة، ودفن بالبقيع بالقبر الذي فيه أبوه، وعم أبيه الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهم.

أولاده ستة: أربعة ذكور: جعفر الصادق، وعبد الله الأفطح أمهما زُرَيوَةُ بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وإبراهيم وعلي.

وبنتان: زينب وأم سلمة، والعقب منه في جعفر الصادق فقط.

فأما عبد الله الأفطح فكانت له شيعة يدعون إمامته، منهم زرارة بن أعين الكوفي،

ثم قام بالمدينة، وسأله عن مسائل من الفقه فألفاه جاهلا، فرجع عن القول بإمامته، وانقطعت الشيعة الأبطحية، وزعم ابن حزم أن بني عبيد ملوك مصر ينتسبون إليه، وليس ذلك بصحيح.

وأما الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو القائم بعد أبيه، وهو سادس الأئمة فيكنى أبا عبد الله، وقيل: أبا إسماعيل، وله ألقاب: الفاضل والطاهر، وأشهرها الصادق، وكان يقال له عمود الشرف.

صفته: معتدل، آدم اللون، معاصره أبو جعفر المنصور، أمه فُرَيوَةُ بنت القاسم ابن محمد كما تقدم ذلك، وولد بالمدينة يوم الإثنين لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ثمانين من الهجرة وقيل ثلاث وثمانين. عمره ثمان وستون سنة.

أقام منها مع جده علي زين العابدين اثنتي عشرة سنة وأياما، ومع أبيه محمد الباقر ثلاث عشرة سنة وأياما، وبقي بعد موت أبيه أربعًا وثلاثين سنة وهي مدة إمامته. وتوفي بالمدينة يوم الإثنين منتصف رجب سنة ثمان وأربعين ومائة.

يقال: مات بالسم في زمن المنصور، ودفن مع أبيه وجده، وعم جده الحسن بن علي بن أبي طالب، وعم جد جده العباس بن عبد المطلب بالبقيع بقبة العباس، فله دره من قبر ما أشرفه وأطهره وأكرمه وأنوره.

أولاده سبعة، وقيل أكثر، العقب منه في خمسة رجال، وهم الإمام موسى الكاظم وإسماعيل وعلي العريضي، ومحمد المأمون وإسحاق، وليس له ابن اسمه ناصر معقب ولا غير معقب بإجماع أهل النسب، وبنواحي أهل خراسان قوم ينسبون إلى ناصر بن جعفر وهم أدعياء كذابون لا محالة، وهم هناك يخاطبون بالشرف، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن أولاد جعفر الصادق محمد الديباج خرج بمكة أيام المأمون، وباع له أهل الحجاز بالخلافة، وحمله المعتصم لما حج وجاء به إلى المأمون فغفا عنه، ومات سنة ثلاث ومائتين بجرجان.

وأما إسماعيل الإمام، وموسى الكاظم فعليهما وعلى بينهما مدار اختلاف الشيعة، وكان الكاظم على زي الأعراب مائلا إلى السواد، وكان الرشيد يؤثره،

ويتجافى عن قبول السعاية فيه ثم حبسه .

ومن عقبه بقيه الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية من لدن على بن أبي طالب فهو أولهم ، وقد تقدم ذكره عند ذكر خلافته ، ثم ابنه الحسن بن على وقد تقدم كذلك ، وبيان ترجمته ، وتاريخ وفاته في سنة خمس وأربعين ، ثم أخوه الحسين بن على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم ، ثم ابنه على زين العابدين ، ثم ابنه محمد الباقر ، ثم ابنه جعفر الصادق ، وقد ذكرت تراجم هؤلاء .

ومن عقب جعفر الصادق من غير الأئمة محمد وعلي ابنا الحسين بن جعفر قاما بالمدينة سنة إحدى وسبعين ومائتين ، وسفكا الدماء ، وانتها الأموال واستلحما آل جعفر بن أبي طالب ، وأقامت المدينة شهرا لا تقام فيها جمعة ولا جماعة .

ومن عقب إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق العبيديون خلائف القيروان ومصر بنو عبيد الله المهدي بن محمد بن جعفر بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وقد تقدم ذكرهم . وما للناس من الخلاف في نسبهم وهو مطرح كله وهذا أصح ما فيه ، هذه عبارة ابن خلدون وهو ممن يرجح القول بصحة نسبهم ، وأنه إلى إسماعيل بن جعفر الصادق كما ترى ، والله أعلم بالحقائق .

الإمام السابع موسى الكاظم : يكنى إسحاق وأبا إبراهيم ، وهو موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم .

لقابه : الكاظم والصابر والصالح أشهرها الأول ، لقب به لفرط تحمله وتجاوزه عن المعتدين عليه . أمه أم ولد اسمها حميدة .

ولد بالأبواء بين مكة والمدينة يوم الأحد لسبع ليال خلون من صفر سنة ثمان وعشرين ومائة .

وأقدمه المهدي بغداد ثم رده إلى المدينة فأقام بها إلى أيام الرشيد ، فلما قدم الرشيد المدينة حمله معه وحبسه ببغداد إلى أن توفي في رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة .

وفي « شواهد النبوة » : مات في حبس الرشيد ببغداد يوم الجمعة لخمس خلون من رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة فقبه ببغداد .

ويقال : إن يحيى بن خالد البرمكي سمه في رطب بأمر الرشيد ، وقيل لف في

بساط، وغم حتى مات رحمه الله من شهيد.

معاصره: المهدي والهادي والرشيد. عمره خمس وخمسون سنة منها مقامه مع أبيه عشرون سنة، وبقي بعد وفاة أبيه خمسًا وثلاثين سنة وهي مدة إمامته ودفن في مقابر قریش.

أولاده سبعة وثلاثون ولدًا بين ذكر وأنثى، العقب منهم في أربعة عشر رجلاً هم: الحسن والحسين وعلي الرضا وإبراهيم المرتضى وزيد النار وعبد الله وعبيد الله والعباس وحمزة وجعفر وهارون وإسحاق وإسماعيل ومحمد العابد، وإبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم هو الذي ولي محمد بن طباطبا وأبو السرايا على اليمن فذهب إليها ولم يزل بها أيام المأمون يسفك الدماء حتى لقبه الناس بالجزار، وأظهر الإمامة عند ما عهد المأمون لأخيه على الرضا بن موسى الكاظم، ثم اتهم المأمون بقتله، فجاء هو وطلب الإمامة لنفسه، ثم عقد المأمون على حرب الفاطميين باليمن لمحمد بن زياد بن أبي سفيان لما بينهم من البغضاء، فأوقع بهم مرارًا وقتل شيعتهم وفرق جماعتهم.

ومن عقب إبراهيم المرتضى هذا الشريف الرضى وأخوه المرتضى واسم كل منهما على بن الحسين بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم. وزيد النار بن موسى الكاظم هو الذي ولاه أبو السرايا أيضًا على الأهواز، فسار إلى البصرة وملكها، وأحرق دور العباسيين بها فسمى زيد النار، ومن عقبه زيد الجنة بن محمد بن زيد بن الحسين بن زيد النار، من أفاضل أهل البيت وصلحائهم، حمل إلى بغداد في محنة الفاطميين أيام المتوكل ودفع إلى ابن أبي دواد يمتحنه فشهد له وأطلقه. ومن عقب موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم من غير الأئمة السيد أبو جعفر محمد ابن موسى بن أحمد بن محمد بن القاسم بن حمزة بن موسى الكاظم.

قال العتبي في تاريخه المسمى باليميني لدولة محمود بن سبكتكين وابنه يمين الدولة - والعتبي صاحب هذا التاريخ نسبة إلى عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب ابن أمية بن عبد شمس - في ترجمته السيد المذكور: ألفاظه منابع العلوم، وأقواله مراتع العقول، ومجاله حدائق الجد والهزل، وجوامع الكلم الفصل. فلم تبق يتيمة

خطاب، ولا كريمة صواب، ولا غرة حكمة، ولا درة نكتة، ولا طرفة حكاية، ولا
فقرة رواية إلا هي عرضة خاطره، وثمره هاجسه، ونصب تذكره، ومثال تصوره. لا
تصدأ صفيحة حفظه، ولا تدرس صحيفة ذكره، ولا يكشف بدر معارفه، ولا ينزف
بحر لطائفه. هو واحد خراسان من بين الأشراف العلوية في قوة الحال، وسعة
المجال، واشتداد باع العز، وامتداد شعاع الجاه، والعلم الغامر، والأدب الباهر،
والشعر الزاهر. فمن شعره قوله [من البسيط]

وَشَادِنِ وَجْهَهُ بِالْحُسْنِ مَخْطُوطُ وَخَذَهُ بِمَدَادِ الْخَالِ مَنَقُوطُ
تَرَاهُ قَدْ جَمَعَ الضَّدَّيْنِ فِي قَرْنٍ فَالْخِضْرُ مُخْتَصِرٌ وَالرُّذْفُ مَبْسُوطُ
وقد أكثر الشعراء والأدباء في مدائحه، فمن ذلك قول أبي الفتح البستي [من
الخفيف]

أَنَا لِلسَّيِّدِ الشَّرِيفِ غُلَامٌ حَيْثُ مَا كَانَ فَلْيُبَلِّغْ سَلَامِي
وَإِذَا كُنْتُ لِلشَّرِيفِ غُلَامًا فَأَنَا الْحُرُّ وَالزَّمَانُ غُلَامِي
وقد اتفق في مجلس السيد المذكور - وكان مجمعا للعلماء الفضلاء والجهابذة
النبلاء - مناظرة بين أبي الفضل الهمداني المعروف بالبدیع، وبين أبي بكر
الخوارزمي سببها معارضة الهمداني والمجلس غاص، والمصدر فيه السيد أبو جعفر
المذكور، وكان الخوارزمي ينسب البدیع الهمداني إلى مذهب الخوارج والنواصب،
يريد بذلك الوضع من قدره عند السيد أبي جعفر المذكور، فقال البدیع هذه الأبيات
الخمسة مخاطبا بها السيد ومبيئا له طهارة اعتقاده مما نسبته إليه الخوارزمي من
النصب.

قلت: قد خلبت خلبي، واستلبت لبي، بجنسها وفصلها، فكانت هي السبب
لذكر الترجمة من أصلها وهي [من مجزوء الكامل]

أَنَا فِي اعْتِقَادِي لِلتَّسْنِ نُنِ رَافِضِيٌّ فِي وَلَائِكَ
فَلَنْ شَغِلْتُ بِهِؤَلَا ءِ فَلَسْتُ أَغْفُلُ عَنْ أَوْلِيكَ
يَا عَقْدَ مُنْتَظِمِ الثُّبُ وَةَ بَيْنَ مُخْتَلِفِ الْمَلَائِكِ
يَابْنَ الْفَوَاطِمِ وَالْعَوَا تِكَ وَالتَّرَائِكِ وَالْأَرَائِكِ
أَنَا حَائِكُ إِنْ لَمْ أَكُنْ عَبْدًا لِعَبْدِكَ وَابْنُ حَائِكِ

وقوله « يابن الفواطم » يريد بهن فاطمة بنت عمرو المخزومية أم أبي طالب وعبد الله والزيبر بني عبد المطلب فإن هؤلاء أشقاء أمهم فاطمة بنت عمرو المذكورة، والثانية فاطمة بنت الأصم أم خديجة بنت خويلد زوج رسول الله ﷺ.

والثالثة: فاطمة بنت أسد أم على بن أبي طالب.

والرابعة: فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

وقوله « والعواتك » يريد بهن عاتكة بنت هلال بن فالح بن ذكوان أم عبد مناف ابن قصي، وعاتكة بنت مرة بن هلال أم هاشم بن عبد مناف، وعاتكة بنت الأوقص ابن هلال أم وهب أبي آمنة أم رسول الله ﷺ، وهذه العواتك كلهن من سليم، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: « أنا ابن العواتك من سليم » (١) وقوله « والتراثك »: جمع تريكة وهي الخوذة. قال الشاعر البحرى [من الكامل]

حَصَّ التَّريكَ رُءُوسَهُمْ قَرُوءُسَهُمْ فِي مِثْلِ لَأَلَاءِ التَّريكَ المَذْهَبِ
وأراد بالتراثك أسلحة الحرب جميعها مجازا مرسلا.

فكانه قال: يابن الفواطم والعواتك وابن أسلحة الحرب لملازمتك إياها وملازمة آبائك من قريش. وابن الأرائك يعني ابن الجالسين عليها من الملوك.

وقوله: أنا حائك... إلى آخره، هذه طريقة للشعراء يدعون على أنفسهم تأكيداً وحثاً على فعل ما يحمد أو ترك ما يذم، فمن ذلك قول مالك الحارثي بن الأشتر النخعي من شيعة عليٍّ - كرم الله تعالى وجهه - وأمرائه المشهورين [من الكامل]

بَقِيْتُ وفَرَى وانحرفْتُ عَنِ العلا وَلَقِيْتُ أَضيافي بِوَجْهِ عُبُوسٍ
إِنْ لَمْ أَشْنُ عَلَى ابْنِ هِنْدٍ غَارَةً لَمْ تَخُلْ يَوْمًا مِنْ ذَهَابِ نَفُوسٍ
والحائك من شأنه الرذالة والسقاطة وقلة العقل، فكيف إذا كان أبوه أيضاً حائكاً، فجعل الهمداني كونه حائكاً وابن حائك دعاء على نفسه إن لم يكن عبداً لعبد السيد

(١) ذكره المتقى الهندي في الكثر (٣١٨٧٤) باللفظ المذكور، وعزاه لسعيد بن منصور، والطبراني في الكبير، وقد أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٨٤١). والطبراني في الكبير (٦٧٢٤) عن هشيم ثنا يحيى بن سعيد عن عمرو بن سعيد بن العاص أنا سيابة بن عاصم السلمى أن رسول الله (قال يوم حنين: أنا ابن العواتك. وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٢): ورجاله رجال الصحيح.

المذكور يريد بذلك تبين محبته له وصدق ولائه وإكذاب ما رماه الخوارج به .
الإمام على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين
العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو ثامن الأئمة والإمام بعد أبيه يكنى
أبا الحسن ككنية أبيه .

اللقاب: الصابر والمزكى والولي، وأشهرها الرضا . أمه أم ولد اسمها أروى . ولد
بالمدينة يوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين ومائة .
معاصره: الأمين والمأمون . عمره خمس وخمسون سنة .

مدة إمامته: عشرون سنة . كان أولها في بقية ملك الرشيد ثم ملك ولده محمد
الأمين بعده ثلاث سنين وخمسة وعشرين يوما، ثم خلع الأمين وجلس مكانه عمه
إبراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة أربعة عشر يوما، ثم أخرج الأمين ثانية،
وبويع له وبقي سنة وسبعة أشهر وقتله طاهر بن الحسين، ثم ملك بعده المأمون بن
هارون الرشيد عشرين سنة .

عهد المأمون له بالخلافة، وزوجه ابنته أم الفضل، دخل عليه دعبل الخزاعي
الشاعر بمرو فقال: يا بن رسول الله، إني قلت فيكم أهل البيت قصيدة وآليت على
نفسي لا أنشدتها أحدا قبلك .

فقال له الرضا: هاتها . فأنشد [من الطويل]

ذَكَرْتُ مَحَلَّ الرُّنَجِ مِنْ عَرَفَاتٍ	فَأَجْرَيْتُ دَمْعَ الْعَيْنِ بِالْعَبْرَاتِ
وَقَدْ عَزَّنِي صَبْرِي وَهَاجَتْ صَبَابَتِي	رُسُومُ دِيَارِ قَفَرَةٍ وَعِزَاتِ
مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ	وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرِ الْعَرَصَاتِ
لَا لِرَسُولِ اللَّهِ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنَى	وَبِالْبَيْتِ وَالتَّغْرِيفِ وَالْجَمَرَاتِ
دِيَارِ عَلِيٍّ وَالْحُسَيْنِ وَجَعْفَرٍ	وَحِمَزَةِ وَالسَّجَادِ ذِي الثَّنَاتِ
دِيَارَ لَعْنَةِ اللَّهِ وَالْفَضْلِ صَنْوِهِ	نَجِيَّ رَسُولِ اللَّهِ فِي الْخَلَوَاتِ
مَنَازِلُ كَانَتْ لِلصَّلَاةِ وَلِلتَّقَى	وَلِلصُّومِ وَالتَّطَهِيرِ وَالْحَسَنَاتِ
مَنَازِلُ جَنْبَرِ الْأَمِينِ يَحُلُّهَا	مِنْ اللَّهِ بِالتَّسْلِيمِ وَالرَّحِمَاتِ
مَنَازِلُ وَحْيِ اللَّهِ مَعْدِنِ عِلْمِهِ	سَبِيلِ رِشَادٍ وَاضِحِ الطَّرَقَاتِ
فَأَيْنَ الْأَلَى شَطَّتْ بِهِمْ غُرْبَةُ النَّوَى	فَأَمْسَيْنَ فِي الْأَفْطَارِ مُفْتَرَقَاتِ

هُمُ آلُ مِيرَاثِ النَّبِيِّ إِذَا انْتَمَوْا
مَطَاعِيمَ فِي الْإِغْسَارِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ
أُتِمَّةٌ عَدَلٍ يُفْتَدَى بِفَعَالِهِمْ
فَيَا رَبِّ زِدْ قَلْبِي هُدًى وَبَصِيرَةً
لَقَدْ أَمَنْتُ نَفْسِي بِهِمْ فِي حَيَاتِهَا
أَلَمْ تَرَ أَنِّي مَذْ ثَلَاثِينَ حِجَّةً
أَرَى فَيْئَهُمْ فِي غَيْرِهِمْ مُتَقَسِّمًا
سَابِكِيهِمْ مَا دَرَّ فِي الْأَفْقِ شَارِقٌ
وَمَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَحَانَ غُرُوبُهَا
دِيَارُ رَسُولِ اللَّهِ أَضْبَحْنَ بَلَقًا
وَأَلْ زِيَادِ فِي الْقُصُورِ مَصُونَةٌ
فَلَوْلَا الَّذِي أَرْجُوهُ فِي الْيَوْمِ أَوْ عَدِ
خُرُوجِ إِمَامٍ لَا مَحَالَةَ خَارِجٌ
يُمَيِّزُ فِينَا كُلَّ حَقٍّ وَبَاطِلٍ
فَيَا نَفْسَ طَيِّبَى ثُمَّ يَا نَفْسَ فَاضِرِي

قلت: دعبل هذا محب لأهل البيت، ومن ذا الذي لا يحبهم فمن لا يحبهم لا يحبه الله، ولكنه كان مولعاً بالهجو والخط من أقدار الناس، هجا الخلفاء وغيرهم، هجا المأمون بأبيات منها [من الكامل]

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سَيُؤْفَهُمْ
شَادُوا بِحُسْنِ فَعَالِهِمْ لَكَ مَنْصِبًا
يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى مَا فَعَلَهُ طَاهِرُ بْنُ الْحُسَيْنِ، مُقَدِّمُ عَسَاكِرِ الْمَأْمُونِ فَإِنَّهُ خَزَاعِي،
ودعبل هذا خزاعي. ولما بلغ هذا المأمون قال: تعس دعبل، ومتى كنت حاملاً
فرفعني قومه. وطال عمر دعبل، وكان يقول لي خمسون سنة أحمل خشبتي على
كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجِدُ من يفعل ذلك. كان مولده بين واسط
العراق وكور الأهواز سنة ثمان وأربعين ومائة. والدعبل بكسر الدال المهملة
وإسكان العين وكسر الباء الموحدة اسم الناقة الشارف وهو لقبه. واسمه على بن

رزين بن سليمان، قاله ابن الأثير.

واستشهد الرضا في أيام المأمون مسموماً بطوس في قرية شاه باز يوم الجمعة لسبع بقين من رمضان سنة ثلاث ومائتين ودفن إلى جنب قبر الرشيد. أولاده خمسة، العقب منه في ابنه:

الإمام محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب وهو التاسع من الأئمة، ولد بالمدينة يوم الجمعة لعشر خلون من رجب سنة تسعين ومائة. كنيته: أبو جعفر.

ألقابه: القانع والمرضى وأشهرها الجواد، زوجه المأمون ابنته أم حبيب. صفته: أبيض اللون معتدل القامة. معاصره: المأمون والمعتصم. عمره: خمس وعشرون سنة وأشهر.

مات ببغداد يوم الثلاثاء لخمس خلون من ذي الحجة سنة عشرين ومائتين، وكانت مدة إمامته سبع عشرة سنة أوائلها في بقية ملك المأمون، وآخرها في أول ملك المعتصم، قيل: مسموماً، ولكن لم يصح، ودفن بمقابر قريش إلى جنب قبر جده موسى الكاظم.

أولاده أربعة، العقب منه في رجلين هما الهادي وموسى المبرقع. فالإمام علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق: هو الإمام بعد أبيه وعاشر الأئمة.

أمه أم ولد: اسمها شهامة. ويلقب: بالتقي والهادي، أشهرهما الأول. ولد بالمدينة ثالث عشر رجب سنة أربع عشرة ومائتين. مات بـ «سر من رأى» مسموماً يوم الإثنين لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومائتين، ودفن في داره بـ «سر من رأى».

أولاده أربعة. أعقب من ثلاثة: أبي جعفر محمد وأبي عبد الله جعفر، وأبي محمد:

الإمام الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم، وهو الإمام بعد أبيه وحادي عشر الأئمة. أمه أم ولد، اسمها سوسن.

كنيته: أبو محمد.

ألقابه: الخالص والسراج وأشهرها العسكري.

ولد بالمدينة سنة إحدى أو اثنتين وثلاثين ومائتين.

صفته: بين السمرة والبياض.

معاصره: المعتر والمهدي والمعتمد.

عمره ثمان وعشرون سنة، ومدة إمامته ست سنين.

مات في أوائل خلافة المعتمد مسمومًا في يوم الجمعة لثمان خلون من شهر ربيع الأول سنة ستين ومائتين بلاسر من رأى «، ودفن عند قبر أبيه الهادي. خلف ولده محمدًا أوحده.

وهو الإمام محمد المهدي بن الحسن العسكري بن علي التقي بن محمد الجواد ابن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم أجمعين. ولد يوم الجمعة منتصف شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين، وقيل: سنة ست وهو الصحيح.

أمه أم ولد: اسمها أصقيل، وقيل سوسن، وقيل نرجس.

كنيته: أبو القاسم.

ألقابه: الحجة، والخلف الصالح، والقائم، والمنتظر، وصاحب الزمان، والمهدي وهو أشهرها.

صفته: شاب مربع القامة، حسن الوجه والشعر، أفنى الأنف، أجلى الجبهة. ولما توفي أبوه كان عمره خمس سنين وشيعته يقولون: إنه دخل السرداب سنة خمس وسبعين ومائتين، وعمره سبع عشرة سنة، وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان من السرداب، وأفاديلهم فيه كثيرة، والله أعلم أي ذلك يكون.

قال الشيخ علاء الدين أحمد بن محمد السمانى في ذكر الأبدال والأقطاب: وقد وصل إلى رتبة القطبية محمد المهدي بن الحسن العسكري، وهو إذ اختفى دخل في دائرة الأبدال متدرجًا طبقة بعد طبقة إلى أن صار سيد الأبدال.

وكان القطب حيثئذ على بن الحسين البغدادي، فلما حانت منيته صلى عليه

المهدي هذا، ودفنه وجلس مجلسه، وبقي في رتبة القطبية تسع عشرة سنة، والله أعلم.
وأما محمد بن الحنفية - وهو الفرع الثالث من أولاد علي بن أبي طالب لصلبه
الذين ذكرنا أن أنساب الطالبين أكثرها راجع إلى الحسن والحسين وإليه - فهو
محمد بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب المشهور بابن الحنفية، يكنى أبا القاسم،
روى أنه عليه الصلاة والسلام رخص لأمر المؤمنين في تسمية ابنه هذا، وتكنيته بأبي
القاسم (١).

قال في «أنساب قريش»: يقولون أمه خولة بنت جعفر بن قيس بن سلمة بن
عبد الله بن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة بن لجيم وتسميه الشيعة... [المهدي] (٢)
حدثني محمد بن إسماعيل بن جعفر عن قيس بن سعيد بن عقبة الجهني عن أبيه،
قال: سمعت كثيرا ينشد على بن عبد الله بن جعفر لنفسه في محمد بن الحنفية [من
الوافر]:

أَقْرَّ اللهُ عَيْنِي إِذْ رَعَانِي أَمِينُ اللهِ يُلْطِفُ فِي السُّؤَالِ
وَأَثْنَى فِي هَوَايَ عَلَى خَيْرَا وَسَاءَلَ عَن بَنِي وَكَيْفَ حَالِي
وَكَيْفَ ذَكَرْتُ شَأْنَ أَبِي خَبِيبٍ وَزَلَّةَ نَعْلِهِ عِنْدَ النُّضَالِ
هُوَ الْمَهْدِيُّ خَبَرْنَاهُ كَعْبٌ أَخُو الْأَخْبَارِ فِي الْحَقِّ الْخَوَالِي

وكان كثير كيسانيا يقول بإمامة محمد بن الحنفية، ويزعم أن الأرواح تتناسخ
ويحتج بقول الله عز وجل: ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٨] ويقول:
ألا ترى أنه يحوله في صورة بعد صورة. فقال له علي بن عبد الله بن جعفر: يا أبا
صخر ما يشي عليك في هواك خيرا إلا من كان على مثل رأيك.
وقيل له: إنك تقول خبرناه كعب، ألقيت كعب الأحبار؟ قال: لا. قيل: فلم
قلت: خبرناه كعب؟ قال: هو بالوهم.

وكانت شيعة محمد يزعمون أنه لم يموت.

وفي ذلك يقول كثير أيضا [من الوافر]

أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَلَأَ الْحَقُّ أَزْبَعَةُ سَوَاءٍ

(١) تقدم هذا في فضائل علي بن أبي طالب.

(٢) بياض بالأصل والمثبت من نسب قريش (٤١/١)

عَلَيَّ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ هُمْ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءُ
فَسَبَّطُ سَبَّطِ إِيْمَانٍ وَبِرٍّ وَسَبَّطُ غَيْبَتِهِ كَرْبَلَاءُ
وَسَبَّطُ لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ حَتَّى يَقُودَ الْخَيْلَ يَقْدُمُهَا اللُّوَاءُ
تَغَيَّبَ لَا يُرَى عَنْهُمْ زَمَانًا بَرَضَوِي عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءُ

وفي محمد بن الحنفية يقول الحميري [من الوافر]

أَلَا قُلْ لِلْوَصِيِّ قَدَتَكَ نَفْسِي أَطَلَّتْ بِذَلِكَ الشُّعْبِ الْمُقَامَا
أَضْرَّ بِمَعَشِرٍ وَالْوَكَّ مِثْنَا وَسَمَّوْكَ الْخَلِيفَةَ وَالْإِمَامَا
وَعَادُوا فِيكَ أَهْلَ الْأَرْضِ طُرَا مَقَامَكَ عَنْهُمْ سِتِّينَ عَامَا
وَمَا ذَاقَ ابْنُ خَوْلَةَ طَعْمَ مَوْتٍ وَلَا وَازَتْ لَهُ أَرْضُ عِظَامَا
لَقَدْ أَمْسَى بِمُورِقِ شَعْبِ رَضَوِي تُرَاجِعُهُ الْمَلَائِكَةُ الْكَلَامَا
وَأَنَّ لَهُ بِهِ لِمَقِيلٍ صَدِيقٍ وَأَنْدِيَّةٌ تُحَدِّثُهُ كِرَامَا
هَذَا اللَّهُ إِذْ حَرَّثَ لَأَمْرِ بِهِ وَعَلَيْهِ تَلْتَمِسُ التَّمَامَا
تَمَامَ مَوَدَّةِ الْمَهْدِيِّ حَتَّى تَرَوْا رَايَاتِنَا تَثْرَى نِظَامَا
وقال أيضا [من الكامل]

يَا شِغْبَ رَضَوِي مَا لِمَنْ بِكَ لَا يُرَى وَبِنَا إِلَيْهِ مِنَ الصَّبَابَةِ أَوْلَقُ
حَتَّى مَتَى وَإِلَى مَتَى وَكَمِ الْمَدَى يَابْنَ الْوَصِيِّ وَأَنْتَ حَيٌّ تُرْزَقُ؟!

قال المسعودي في « المروج »^(١): وشيعته تسمى الكيسانية وقد تنازعوا بعد قولهم بإمامته: فمنهم من قطع بموته، ومنهم من زعم أنه لم يمت وأنه حي مقيم بجبل رضوى المعروف بقرب ينبع.

وإنما سموا الكيسانية؛ لإضافتهم إلى المختار بن أبي عبيد وكان اسمه كيسان، ويكنى أبا عمرو، كان يدعي أن على بن أبي طالب لقبه بذلك.

أولاد محمد بن الحنفية أربعة وعشرون، منهم أربعة عشر ذكرا.

وقال النقيب تاج الدين: أولاد محمد بن الحنفية قليل جدا، ليس بالعراق ولا بالحجاز منهم أحد، وإن كان فبالكوفة.

وقال في « عمدة الطالب »: بشيراز وأصفهان وقزوین وبمصر والصعيد منهم

(١) ينظر: المروج (٣/٨٧).

جماعة. والعقب المتصل الآن من ولده في رجلين: على وجعفر قتيل الحرية. وأما عقب ابنه أبي هاشم عبد الله الأكبر إمام الشيعة الكيسانية فمتقارض، وهذا أبو هاشم هو الذي أسند وصيته فيما قاله الشيعة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وأخوه علي بن محمد بن الحنفية وابنه الحسن بن علي بن محمد بن الحنفية، وكلهم ادعت الشيعة إمامتهم.

قال ابن خلدون ^(١): وخرج باليمن على المأمون، ومن ولد علي بن أبي طالب من غير هؤلاء عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب. ومن ولد جعفر بن أبي طالب عبيد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب القائم بفارس وبويع بالكوفة، وأراد بعض شيعة العباسية تحويل الدعوة إليه فمنعه أبو مسلم الخراساني من ذلك، وكانت له شيعة ينتظرونه وساقوا الخلافة من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية بالوصية. وكان فاسقاً.

وكان ابنه معاوية بن عبيد الله نظير أبيه في الشر. سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

* * *

(١) ينظر: تاريخ ابن خلدون، المجلد الرابع، القسم الأول (ص ١٨).

الباب الثاني

في ذكر من دعا منهم إلى المبايعة

وذكر مكان دعائه وزمانه، وما جرى على كل قائم من خليفة زمانه وتعدادهم من لدن علي بن أبي طالب إلى يومنا هذا، وهذا على رأي غير الإمامية من الشيعة وهم الزيدية.

أما على رأي الإمامية فلا يجوزون الإمامة لغير الاثني عشر الإمام الذين أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم الإمام محمد المهدي المنتظر، وسيأتي الدليل على تصحيح جوازها لغير الاثني عشر الإمام بل تعينه بحيث لا تخلو الأرض من قائم من آل بيت محمد يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

قد تقدم ذكر شيعة أهل البيت لعلي بن أبي طالب، وبنه رضي الله تعالى عنهم وما كان من شأنهم بالكوفة ومؤاخذتهم الحسن في تسليم الأمر لمعاوية، واضطراب الأمر على زياد ابن أبيه بالكوفة من أجلهم حتى قتل المتولون كبر ذلك، منهم حجر ابن عدي وأصحابه، ثم استدعوا الحسين بن علي بعد وفاة معاوية فكان من قتله بـ « كربلاء » ما هو معروف، ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان، وخروج عبيد الله بن زياد عن الكوفة، وسموا أنفسهم التوابين، وولوا عليهم سليمان بن صُرْد الخزاعي، ولحققتهم جيوش ابن زياد بأطراف الشام فاستجمعوهم، ثم خرج المختار بن أبي عبيد بالكوفة طالبا بدم الحسين، وداعيا لمحمد بن الحنفية، وتبعه على ذلك جموع من الشيعة، وسماهم شرطة الله، وزحف عليه عبيد الله بن زياد، فهزمه المختار وقتله.

وبلغ محمد بن الحنفية من أحوال المختار ما نقمه عليه فكتب إليه بالبراءة منه، فصار المختار إلى الدعاء لعبد الله بن الزبير، ثم استدعى الشيعة من بعد ذلك زيد بن علي بن الحسين - رضي الله تعالى عنهم - إلى الكوفة أيام هشام بن عبد الملك فقتله صاحب الكوفة يوسف بن عمر، وصلبه كما سيأتي ذكر ذلك عند ذكر قيامه بالدعوة، وخرج يحيى بن زيد بالجوزجان من خراسان فقتل وصلب لذلك، وطلت دماء أهل البيت في كل ناحية.

ثم اختلف الشيعة، وانقسمت مذاهبهم في مصير الإمامة إلى العلوية، وذهبوا

طرائق مع اتفاقهم على تفضيل على كرم الله وجهه على جميع الصحابة: إلى الزيدية القائلين بإمامة بني فاطمة لفضل على وبنيه على سائر الصحابة على شروط يشترطونها، وإمامة الشيخين عندهم صحيحة وإن كان على أفضل منهما لأنهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل، وهو مذهب زيد وأتباعه المسمين بالزيدية، وهم جمهور الشيعة وأبعدهم عن الانحراف والغلو.

وإلى الرافضة: وسموا رافضة قالوا: لأنه لما خرج زيد الشهيد بالكوفة، واختلفت عليه فرقة من الشيعة، وناظروه في أمر الشيخين، ودعوه إلى البراءة منهما، وأنهما ظلما عليا أنكر ذلك عليهم وامتنع عن البراءة منهما. فقالوا له: وأنت أيضا لم يظلمك أحد ولا حق لك في الأمر فنحن نرفضك. فقال: اذهبوا فأنتم الرافضة. فانصرفوا عنه فسموا الرافضة. وأقام معه أتباعه الآخرون فسموا زيدية.

ثم ساق الرافضة الإمامة من على كرم الله وجهه - إلى ابنه الحسن ثم إلى الحسين ثم إلى ابنه زين العابدين ثم إلى ابنه محمد الباقر ثم إلى ابنه جعفر الصادق، كل هؤلاء بالوصية، وهم ستة أئمة لم يخالف فيهم أحد من الرافضة المذكورين. ثم افرقوا من ههنا إلى فرقتين: إلى الاثنى عشرية، واختصوا باسم الإمامية إلى هذا العهد، ومذهبهم أن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم. وخرج دعائه بعد موت أبيه، فحمله هارون الرشيد معه من المدينة، وحبسه عند عيسى بن جعفر ثم إسخاذه إلى بغداد وحبسه عند ابن شاهك.

ويقال: إن يحيى بن خالد سمه في رطب فتوفى سنة ١٨٣ ثلاث وثمانين ومائة. وزعم شيعته أن الإمام بعده ابنه علي الرضا، وكان عظيمًا في بني هاشم، وكانت له مع المأمون صحبة، وزوجه ابنته أم الفضل، وعهد له بالأمر من بعده.

وقد تقدم ذكرنا لكتاب العهد في خلافة أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - وكان عهد المأمون لعلي الرضا بالأمر سنة ٢٠١ إحدى ومائتين عند ظهور الدعاة للطالبيين في كل ناحية، وكان المأمون بـ « خراسان » لم يدخل العراق بعد مقتل أخيه الأمين، ففكر ذلك عليه شيعة العباسيين ويابغوا لعمه إبراهيم بن المهدي ببغداد، فارتحل المأمون من العراق وعلي الرضا معه، فهلك على الرضا في طريقه

سنة ثلاث ومائتين ودفن بـ « طوس » .

ثم زعموا أن الأمر بعده لابنه محمد التقي، وكان له من المأمون مكان، وأصهر إليه في ابنته أم حبيب، فأنكحه المأمون إياها سنة خمس ومائتين، ثم هلك سنة عشرين ومائتين ودفن بمقابر قريش .

ثم زعموا أن الأمر من بعده إلى علي، ويلقبونه بالهادي ومات سنة أربع وخمسين ومائتين وقبره بـ « قم »، وزعم ابن سعيد أن المعترز سمه (١).

ثم إلى ابنه الحسن العسكري ويلقب بذلك لأنه ولد بـ «سر من رأى»، وكانت تسمى العسكر وجلس بها بعد أبيه إلى أن هلك سنة ستين ومائتين، ودفن إلى جنب أبيه بالمشهد، وترك حملا ولد منه ابنه محمد، فاعتقل، وقيل: دخل السرداب بدار أبيه، قيل مع أمه، وقيل وأمه تنظر إليه ففقد، فرزعت شيعتهم أنه الإمام بعد أبيه ولقبوه المهدي والحجة، وزعموا أنه حي لم يمت، وهم الآن ينتظرونه ووقفوا عند هذا الانتظار (٢).

وهذا هو الثاني عشر من ولد علي ولذلك سموا شيعته الاثنى عشرية .

وهذا المذهب بالمدينة والكرخ والشام والحلة والعراق .

قال العلامة ابن خلدون (٣): [والسرداب بالحلة]، وهم حتى الآن على ما بلغنا يصلون المغرب فإذا قضوا الصلاة قربوا مركبا إلى باب السرداب بجهازه وحليته، ونادوا بأصوات متوسطة: أيها الإمام اخرج إلينا فإن الناس منتظرون، والخلق حائرون، والظلم عام، والحق مفقود، فخرج إلينا نتعرف الرحمة من الله في آثارك . ويكررون ذلك إلى أن تبدو النجوم ثم ينصرفون إلى الليلة القابلة هكذا دأبهم، وربما يحتجون لحياته بقصة الخضر، فسبحان عالم الحقائق .

قلت: قد ذكر غير ابن خلدون أن السرداب ببغداد لا بالحلة، فالله أعلم أيا كان ذلك .

لطيفة: قال ابن العربي، قال أصحابنا النصرية بالمسجد الأقصى: إن شيخنا

(١) ينظر: تاريخ ابن خلدون المجلد الرابع القسم الأول ص ٦٠ .

(٢) ينظر: تاريخ ابن خلدون المجلد الرابع القسم الأول ص ٦١ .

(٣) ينظر: تاريخ ابن خلدون المجلد الرابع القسم الأول ص ٦١ .

وعبارة [السرداب بالحلة] لم ترد عند ابن خلدون .

أبا الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي اجتمع برئيس من رؤساء الشيعة، فشكا إليه فساد الخلق، وأن هذا الأمر لا يصلح إلا بخروج الإمام المنتظر، فقال له نصر: فهل لخروجه ميقات معلوم أم لا؟ فقال الشيعي: نعم إذا فسد الخلق.

فقال له نصر: فلم تحبسونه عن الخلق؟ قد فسد جميعهم إلا أنتم، فلو فسدتم لخرج، فأسرعوا به وأطلقوه من سجنه، وعجلوا بالرجوع إلى مذهبنا لتفسدوا فيخرج، فبهت الشيعي انتهى. كذا في «العواصم من القواصم».

وإلى الإسماعيلية: وهم الذين نقلوا الخلافة من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل ثم ساقوها في عقبه فمنهم من أنهى بها إلى عبيد الله المهدي أحد الخلفاء العبيديين ابن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق بن محمد الباقر وهم الفرقة الزاعمون أن الإمام بعد جعفر الصادق ابنه إسماعيل وتوفى قبل أبيه، وكان أبو جعفر المنصور طلبه فشهد له عامل المدينة أنه مات. وفائدة النص عندهم على إسماعيل، وإن كان مات قبل أبيه بقاء الإمامة في ولده كما نص موسى على هارون صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهما، ومات قبله، والنص عندهم لا يرجع وراءه، لأن البداء على الله محال.

ويقولون في ابنه محمد: إنه السابع التام من الأئمة الظاهرين، وهو أول الأئمة المستورين عندهم الذين يستترون، ويظهرون الدعاة وعددهم ثلاثة ولن تخلو الأرض من إمام، إما ظاهر بذاته، أو مستور، فلا بد من ظهور حجته ودعائه.

والأئمة يدور عددها عندهم على سبعة، سبعة عدد الأسبوع والسموات والكواكب.

وأول الأئمة المستورين عندهم: محمد بن إسماعيل المذكور، وهو محمد المكتوم، ثم ابنه جعفر المصدق ثم ابنه محمد، ثم ابنه عبيد الله المهدي صاحب الدولة بإفريقية جد الخلفاء العبيديين بها أولا و«مصر» ثانيا المتقدم ذكرهم في الباب الثالث من المقصد الرابع، ومنهم من ساقها إلى يحيى بن عبد الله بن محمد المكتوم، وهؤلاء طائفة من القرامطة، وهذا من كذباتهم ولا يعرف لمحمد بن إسماعيل ولد اسمه عبد الله.

ومن شيعة آل البيت: الكيسانية نسبة إلى كيسان وهو المختار بن أبي عبيد، يذهبون إلى إمامة محمد بن الحنفية، وبنه من بعد الحسن والحسين، ومن هؤلاء

كانت شيعة بنى العباس القائلون بوصية أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بالإمامة.

وانتشرت هذه المذاهب وهي: مذهب الزيدية، ومذهب الرافضة المنقسمين إلى الإمامية الاثنى عشرية وإلى الإسماعيلية، ومذهب الكيسانية، وهم شيعة محمد بن الحنفية الذين صاروا شيعة لبنى العباس بإيضاء أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى جدهم محمد بن عبد الله بن العباس المذكور.

وكان أكثر الكيسانية بالعراق، وخراسان بين الشيعة، وافترق أهل كل مذهب منها إلى طرائق بحسب اختلافهم: [من الوافر]

وَكُلُّ يَدْعَى وَضْلاً بِلَيْلَى

واعلم أن سبب انتصاب الأشراف للإمامة وادعائهم لها مع ما يشاهدونه من النكد والشدائد والقتل والحبس والمكائد بعد قتل علي بن أبي طالب لما تقلد الخلافة والعقد عليه إجماع أهل بدر واختيار أكابر الصحابة وبإيعوه علانية، نازعه في الخلافة معاوية بن أبي سفيان وتعلل بعلة كثيرة لبلوغ المنى وكل منهما مجتهد، لكن معاوية مجتهد مخطئ.

قال الإمام الغزالي في «قواعد العقائد» ولم يذهب لتخطئة عليّ ذو تحصيل أصلاً ولا شبهة أن الحق مع عليّ، وأن معاوية ليس ممن يعادل أحد العشرة المبشرة بالجنة فضلاً عن أن يعادل عليّاً، وأين الحسام من المنجل، وأين معاوية من عليّ، فاشتبه على العامة أمرهما وصاروا فريقين، فوقعت الحرب بينهما كما قدره الله تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا يقع في ملكه إلا ما أراد ﴿لَا يَسْتَكْبِرُ عَنْهَا يَعْلَمُ وَهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]

فلما استشهد عليّ - رضي الله تعالى عنه - بعد ذلك قام الحسن بن علي بعده، وقد سبق في خلافته تفصيل ذلك، وذكر صلحه مع معاوية بن أبي سفيان، فلما سم ومات رضي الله عنه قام أخوه الحسين بن علي تالياً ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرِوَايَةِ سُلْطَانًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، الآية، وكان قيامه زمن يزيد بن معاوية فقتل بـ«كربلاء» عطشاناً، سير عليه عبيد الله بن زياد سرية عليها عمر بن سعد بن أبي وقاص، وكان من أمره ما شرح فيما تقدم مما يجرح القلوب، ويجرى الغروب.

ثم قام من بعده على زين العابدين، ثم قام من بعده زيد بن علي فقتل وصلب، ثم قام ولده يحيى بن زيد فقتل، ثم هلم جرا.

فذهب الزيدية من الشيعة أن القيام افترض عليهم لطلب الحق وأن إظهار الدعوة والقيام بأمر الإمامة للأمة واجب عليهم، وهذا مكتوب في تواريخ الزيدية.

وأما الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، فلا يجوزون الإمامة لغير الاثنى عشر الإمام الذين أولهم علي، وآخرهم المهدي محمد المنتظر صاحب السرداب.

ودليل الزيدية على تصحيح جوازها لغير الأئمة الاثنى عشر أو تعيينه - وهو ما وعدنا به سابقا - هو ما أخرج أبو إسحاق بن راهويه في «مسنده»، والدولابي في «الذرية الطاهرة» أن النبي ﷺ قال: «إني تارك فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله طرف بيده وطرف بأيديكم، وأهل بيتي»^(١) ورواه الجعابي في «الطالبيين» ولفظه: «إن رسول الله ﷺ قال: «إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله تعالى طرف بيد الله وطرف بأيديكم، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يرثي عليّ الحوض»^(٢). ورواه البزار، ولفظه: «إني مقبوض وإني قد تركت فيكم الثقلين كتاب الله، وعترتي أهل بيتي وإنكم لن تضلوا بعدهما»^(٣)، وفي رواية: «والله

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥٥٨) والطحاوي في مشكل الآثار (٣٠٧/٢) من طريق «أبي عامر، حدثنا كثير بن زيد، عن محمد بن عمر بن علي عن أبيه، عن عليّ مرفوعاً: إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله . سببه بيد الله وسببه بأيديكم، وأهل بيتي» وهذا إسناد رجاله ثقات .

(٢) أخرجه أحمد (٣/١٤، ١٧، ٢٦، ٥٩)، والترمذي (٣٧٨٨) . والطبراني في الصغير (١/١٣١)، وفي الكبير (٢٦٧٨، ٢٦٧٩) . وابن أبي عاصم في السنة (١٥٥٣، ١٥٥٤) من طريق عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً . إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى: أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض . وعترتي: أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يرثي عليّ الحوض . فانظروا كيف تخلفوني فيهما « وعند الترمذي عن أبي سعيد وزيد بن أرقم، وقال: هذا حديث حسن غريب . وللحديث شواهد كثيرة . ينظر كنز العمال (١/١٧٢) وما بعدها ومجمع الزوائد (٩/١٦٥-١٦٧) .

والحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٦١) بلفظ: « يا أيها الناس، إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله، وعترتي أهل بيتي» . وهذا لفظ الترمذي (٣٧٨٦) من حديث جابر بن عبد الله .

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/١٦٦)، وعزاه للبزار من حديث علي بن أبي طالب . وقال: فيه الحارث، وهو ضعيف .

سائلكم كيف خلفتموني في كتابه وأهل بيتي». وأخرج محمد بن جعفر الرزاز عن أم سلمة: «ألا إني مخلف فيكم كتاب ربي عز وجل وعترتي أهل بيتي. ثم أخذ بيد علي فرفعها فقال: هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا على الحوض فأسألهما ما خلفت فيهما»^(١)، وأخرج أبو سعد والملا في سيرته حديث: «استوصوا بأهل بيتي خيرا، فإنني أخاصمكم عنهم غدا، ومن أكن خصمه أخصمه، ومن أخصمه دخل النار».

قال في «جواهر العقدين»: ولما كان كل من القرآن العظيم، والعترة الطاهرة معدنًا للعلوم الدينية والأسرار، والحكم النفيسة الشرعية، وكنوز دقائقها، واستخراج حقائقها أطلق عليه الصلاة والسلام عليهما الثقلين، ويرشد لذلك حثه على الاقتداء والتمسك والتعلم من أهل بيته.

ولا شك أن الذين وقع الحث على التمسك بهم من أهل البيت النبوي والعترة الطاهرة هم العلماء بكتاب الله، إذ لا يحث عليه الصلاة والسلام بالتمسك بغيرهم وهم الذين لا يقع بينهم وبين الكتاب اقتراب، ولهذا قال: «لا تقدموها فتهلكوا ولا تقصروا عنها فتهلكوا»^(٢).

وقال في طريق آخر في عترته: «فلا تسبقوهم فتهلكوا ولا تعلموهم فهم أعلم منكم» فاختصوا بمزيد الحث عن غيرهم من العلماء لما تضمنته الأحاديث في ذلك، ولحديث أحمد: ذكر عند النبي ﷺ قضاء قضى به علي، فأعجب النبي ﷺ وقال: «الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت»^(٣).

وكل هذا يفهم وجوب من يكون أهلا للتمسك به من أهل البيت والعترة الطاهرة في كل زمان وجدوا فيه إلى قيام الساعة حتى يتوجّه الحث المذكور على التمسك به

(١) تقدم تخريجه في مناقب علي بن أبي طالب.

(٢) هاتان الروايتان ورد نحوهما في حديث زيد بن أرقم المطول أخرجه الطبراني في الكبير (٥/١٦٦ - ١٦٧) رقم (٤٩٧١) وفيه «كتاب الله طرفه بيد الله. وطرفه بأيديكم، فاستمسكوا به لا تضلوا، والآخر عترتي وإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض وسألت ذلك لهما ربي، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهم، فإنهم أعلم منكم». قال الهيثمي في المجمع (٥/١٦٧): فيه حكيم بن جبير، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد في المناقب، كما في الرياض النضرة (٣/١٦٩) من طريق جميل بن عبد الله بن يزيد المدني.

كما أن الكتاب العزيز كذلك، ولهذا كانوا أمانًا لأهل الأرض فإذا ذهبوا ذهب أهل الأرض.

وأما احتجاج الشيعة لمنعهم ذلك بالحديث: «يكون من أهل بيتي اثنا عشر خليفة»،^(١) أو كما قال ﷺ، فليس لهم في ذلك حجة، إذ مفهوم العدد^(٢) غير معتبر دليلاً يبطل معنى الحث والتمسك إذ لو لم نقل بوجود ذلك التمسك به لم يتعقل الحث على التمسك بمعدوم^(٣).

وأخرج أبو الحسن بن المغازلي من طريق موسى بن القاسم عن علي بن جعفر: سألت الحسن عن قوله تعالى: ﴿كَيْشْكُوفٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، قال: المشكاة فاطمة والشجرة المباركة: إبراهيم. لا شرقية ولا غربية: لا يهودية ولا نصرانية. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ تُوِّرُّ عَلَى ثَوْرٍ﴾ [النور: ٣٥] قال: منها إمام بعد إمام يهدي الله لنوره من يشاء. قال: يهدي لولايتنا من يشاء.

وقوله: منها إمام بعد إمام، يعني أئمة يقتدى بهم في الدين، ويتمسك بهم فيه ويرجع إليهم، وهذا أوضح دليل على صحة إمامة غيرهم بل تعيينها.

وهنا نقل غريب وهو وإن كان لا تعلق له بما نحن فيه من وجه فله تعلق من وجه آخر إذ هو في شأن العترة الطاهرة الذين الكلام في شأنهم على بن أبي طالب كرم الله وجهه، ونصه: روى الثعلبي في تفسيره: أن سفيان بن عيينة رحمه الله: سئل عن قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] فيمن نزلت؟ فقال للسائل: سألتني عن مسألة ما سألتني عنها أحد قبلك، حدثني أبي عن جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله ﷺ لما كان بغدير «خم» فنادى في الناس فاجتمعوا، فأخذ بيد علي وقال: «من كنت مولاه فعلى مولاه» إلى آخر

(١) أخرجه البخاري (٧٢٢٢، ٧٢٢٣) من حديث جابر بن سمرة مرفوعاً: يكون اثنا عشر أميراً كلهم من قريش.

(٢) ينظر: البحر المحيط للزركشي ٣٧/٤، البرهان لإمام الحرمين ٤٦٦/١، التمهيد للإسنوي ٢٥٢، نهاية السؤل له ٢٢١/٢، غاية الوصول للشيخ زكريا الأنصاري ٣٩، حاشية البتاني ٢٥١/١، الآيات البيّنات لابن قاسم العبادي ٣٠/٢، حاشية العطار على جمع الجوامع ١/١، ٣٢٨، تفسير التحرير لأمر بادشاه ١٠٠/١.

(٣) أخرجه النسائي في التفسير (٦٤٠)، والحاكم (٥٠٢/٢) عن ابن عباس، مختصراً، وليس فيه موضع الشاهد «من كنت مولاه فعلى مولاه».

الحديث، فشاع ذلك وطار في البلاد، فبلغ ذلك الحارث بن النعمان الفهرى فأتى رسول الله ﷺ على ناقة له، فنزل بالأبطح عن ناقته وأناخها، فقال: يا محمد أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنتك رسول الله فقبلناه منك، وأمرتنا أن نصلي خمسا فقبلناه منك، وأمرتنا بالزكاة فقبلنا، وأمرتنا أن نصوم شهرا فقبلنا، وأمرتنا بالحج فقبلنا، ثم لم ترض بهذا حتى ترفع بضبعي ابن عمك تفضله علينا، وقلت: من كنت مولاه فعلى مولاه، فهذا شيء منك أو من الله عز وجل؟.

فقال رسول الله ﷺ: «والله الذي لا إله إلا هو إن هذا من الله عز وجل». فولى الحارث بن النعمان يريد راحلته وهو يقول: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِكْمًا﴾ [الأنفال: ٣٢] الآية، فما وصل إلى راحلته حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره فقتله فأنزل الله عز وجل: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، كذا في «جواهر العقدين في فضل الشرفين، شرف العلم الجلى، وشرف النسب العلى».

وها أنا أذكر من قام منهم من لدن على بن أبي طالب إلى زماننا اليوم، وهو عام سبع وتسعين وألف، فأقول:

أولهم على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وبعده ابنه الحسن في زمن معاوية، ثم الحسين في زمن يزيد، وقد سبق ذكرهما بما لا مزيد عليه، ثم بعد الحسين الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب قام في زمان عبد الملك بن مروان ثم استتر، فلما ولي الأمر الوليد بن عبد الملك شدد في طلبه فلم يظفر به، وكان مستترا بالحجاز فدس إليه من سقاه السم فمات مسموما، وحمل إلى المدينة المنورة ودفن بالبقيع، وكان قيامه سنة ثلاث وثمانين ووفاته سنة ست وثمانين، وعمره ثمان وثلاثون سنة.

قلت: قد تقدم في الرواية السابقة أن الحسن المثنى لم يدع الإمامة، ولم يدع إلى مبايعة، ولم يدعها له أحد فعده ههنا في الدعاة على غير تلك الرواية.

ثم قام بالدعوة الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

ظهر زيد بالكوفة خارجا على هشام بن عبد الملك داعيا للكتاب والسنة وإلى

جهاد الظالمين وإعطاء المحرومين، والعدل في قسمة الفئ، ورد المظالم ونصر أهل البيت.

واختلف في سبب خروجه فقيل: إن يوسف بن عمر لما نكب خالد بن عبد الله القسري كتب إلى هشام أنه شيعة لأهل البيت، وأنه ابتاع من زيد أرضاً بالمدينة بعشرة آلاف دينار، وأنه رد الأرض عليه وأنه أودع زيدا وأصحابه مالا، وكان زيد قد قدم على خالد بالعراق، هو ومحمد بن عمر بن أبي طالب، وداود بن علي بن عبد الله بن عباس، فأجازهم ورجعوا إلى المدينة، فبحث هشام عنهم، وسألهم فأقروا بالجائزة، وحلفوا على ما سوى ذلك فصرفهم هشام، وبعث إلى يوسف بن عمر فقابلوا خالدًا، وصدقهم وعادوا إلى المدينة، ونزلوا القادسية.

وراسل أهل الكوفة زيدا فعاد إليهم.

وقيل: سبب ذلك أن زيدا اختصم مع ابن عمه جعفر بن الحسن المثنى في وقف على، ثم مات جعفر فخاصم أخوه عبيد الله زيدا، وكانا يحضران عند عامل خالد فوقعت بينهما في مجلسه مشاتمات، وأنكر زيد من خالد إطالته للخصومة ويسمع مثل هذا فأغلظ له زيد وسار إلى هشام فحجبه ثم أذن له بعد حين، فحاوره طويلا ثم عرض له بأنه يذكر الخلافة وتنقصه ثم قال اخرج، قال: نعم ثم لا أكون إلا بحيث تكره فسار إلى الكوفة وقال له محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب: ناشدتك الله الحق بأهلك ولا تأت الكوفة، وذكره بفعلهم مع جده وجده.

فأخذ يتظلم مما وقع به، وأقبل إلى الكوفة، وأقام بها مستخفياً يتنقل في المنازل، واختلفت إليه الشيعة، وبإيعه جماعات، وناس من وجوه أهل الكوفة يذكر لهم دعوته، ثم يقول: أتبايعون على ذلك؟ فيقولون: نعم، فيضع يده على أيديهم، ويقول: عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة نبيه لتبغنى، ولتقاتلن عدوى، ولتنصحن لي في السر والعلانية.

فإذا قال: نعم، مسح يده على يده، ثم قال: اللهم اشهد، فبايعه على ذلك خمسة عشر ألفاً وأمرهم بالاستعداد، وشاع أمره في الناس، وبلغ الخبر إلى يوسف ابن عمر، فأخرجه من الكوفة. ولحقه الشيعة بالقادسية أو الثعلبية، وعذله داود بن علي بن عبد الله بن عباس على الرجوع معهم وذكره حال جده الحسين، فقالت

الشيعة لزيد: هذا إنما يريد الأمر لنفسه ولأهل بيته، فرجع معهم ومضى داود إلى المدينة.

ولما أتى زيد الكوفة، جاءه مسلمة بن كهيل، فصده عن ذلك، وقال: أهل الكوفة لا يفون لك، وقد كان مع جدك منهم أضعاف من معك ولم يفوا له، وكان أعز عليهم منك على هؤلاء.

فقال له زيد: قد بايعوني ووجبت البيعة في عتقي وعنقهم.

قال: فتأذن لي أن أخرج من هذه البلد فلا آمن أن يحدث حدث وأنا لا آمن نفسي، فخرج إلى اليمامة.

وكتب عبد الله المحض بن الحسن المثنى إلى زيد يعذله ويصده فلم يصغ إليه. وتزوج نساء بالكوفة وكان يختلف إليهن والناس يبايعونه، ثم أمر أصحابه يتجهزون.

ونمی الخبر إلى يوسف بن عمر فطلبه، وخاف زيد فتعجل الخروج، وكان يوسف بالحيرة وعلى الكوفة الحكم بن الصلت، وعلى شرطته عمر بن عبد الرحمن.

ولما علم الشيعة أن يوسف يبحث عن زيد جاء إليه جماعة منهم، فقالوا له: ما تقول في الشيخين؟ فقال زيد: رحمهما الله وغفر لهما، وما سمعت أحدًا من أهل بيتي يذكرهما إلا بخير، وغاية ما أقول: إنا كنا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس فدفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك الكفر، وقد عدلا في الناس، وعملا بالكتاب والسنة.

قالوا: فإذا كان أولئك لم يظلموك، وهؤلاء لم يظلموك فلم تدعونا إلى قتالهم؟ فقال: إن هؤلاء ظلموا المسلمين أجمعين، وإنا ندعوهم إلى الكتاب والسنة، وأن نحبي السنن، ونطفيء البدع، فإن أجبتكم سعدتم، وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل. فقالوا: إذن نرفضك.

فقال: اذهبوا فأنتم الرافضة. ففارقوه ونكثوا بيعته.

وقالوا: سبق الإمام الحق، يعنون محمدًا الباقر، وإن جعفرًا ابنه إمامنا بعده، فمن ذلك سموا بهذا الاسم.

ثم بعث يوسف بن عمر إلى الحكم بن الصلت عامل الكوفة أن يجمع أهل الكوفة في المسجد فجمعوا، وطلبوا زيدًا في دار معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة فخرج منها ليلاً، واجتمع عليه ناس من الشيعة الذين بقوا معه ولم يفارقوه، وهم الفرقة المخصوصة باسم الزيدية، وأشعلوا النيران، ونادوا يا منصور حتى طلع الفجر.

وأصبح جعفر بن أبي العباس فلقى اثنين من أصحاب زيد ينادون بشعاره، فقتل واحداً وأتى بالآخر إلى الحكم بن الصلت فقتله، وغلق أبواب المسجد على الناس، وبعث إلى يوسف بن عمر بالخبر، فسار من الحيرة.

وقدم الريان بن سلمة الأراشي في ألفين خيالة، وثلاثمائة ماشية، وافتقد زيد الناس فقيل له: إنهم بالجامع محصورون، ولم يجد معه إلا مائتين وعشرين رجلاً، وخرج صاحب شرطته في خيل فلقى نصر بن خزيمة العبسي من أصحاب زيد ذاهباً إليه، فحمل عليه نصر وأصحابه فقتلوه، وحمل زيد على أهل الشام فهزمهم، وانتهى إلى دار أنس بن عمرو الأزدي ممن بايعه فناداه ولم يجبه ولم يخرج إليه. ثم سار زيد إلى الكناسة فحمل على أهل الشام، فهزمهم ثم دخل الكوفة والريان في اتباعه، فلما رأى زيد خذلان الناس قال لنصر بن خزيمة: أفعلتموها حسينية؟ فقال نصر: أما أنا فوالله لأموتن معك، وإن الناس بالمسجد فامض بنا إليهم، فجاء زيد إلى المسجد ينادى في الناس بالخروج إليه، فرماه أهل الشام بالحجارة من فوق المسجد وانصرفوا عند المساء، وأرسل يوسف بن عمر العباس بن سعد المزني في أهل الشام، فجاءه في دار الرزق وقد كان آوى إليها عند المساء، فلقاه زيد وعلى مجنبته نصر بن خزيمة، ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن ثابت، فاقتتلوا فحمل نصر على أصحاب العباس، فهزمهم زيد وأصحابه، وعبأهم يوسف بن عمر من العشي ثم سرحهم، فكشفهم أصحاب زيد، ولم تثبت خيلهم لخيله، وبعث إليه يوسف بن عمر بالناشبة، واشتد القتال وقتل معاوية بن زيد، ثم رمي زيد عند المساء بسهم أثبته فرجع أصحابه، وأهل الشام يظنون أنهم تحاجزوا، ولما نزل النصل من جبهته مات فدفنوه وأجروا عليه الماء، وأصبح الحكم يوم الجمعة يتبع الجرحى من الدور، ودله بعض الموالي على قبر زيد فاستخرجه، وقطع رأسه وبعث به إلى يوسف بن عمر بالحيرة فبعثه إلى هشام فصلبه على باب دمشق، وأمر يوسف الحكم بن الصلت

أن يصلب جثة زيد بالكناسة ونصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق ويحرسهم، واستمر نحوًا من سنتين أو أربع مصلوبًا، ويذكر أن العنكبوت نسجت على عورة زيد رضى الله تعالى عنه، فلما ولى الوليد أمر بإحراقهم فإن الله وإنه إليه راجعون.

قلت: كان يوسف بن عمر هذا متولى العراقيين لهشام بن عبد الملك ومروان وهو الأمر للحكم بن الصلت أن يصلب جثة زيد بالكناسة مذمومًا في عمله مخدوشًا في عقله منتطعًا في حمقه. حدث عنه المدائني قال: وزن يوسف بن عمر درهمًا فنقص حبة فكتب إلى صاحب دار الضرب بالعراق فضرب ألف سوط، وخطب في مسجد الكوفة فتكلم إنسان مجنون فقال: يا أهل الكوفة ألم أنهكم أن تدخل مجانينكم المسجد اضربوا عنقه فضربت.

وتخلف عنه يومًا كاتبه، فقال له: ما حبسك؟ فقال: اشتكيت ضرسي. فقال: تشكى ضرسك وتقعّد عن الديوان، فدعا بالحجام وأمره بقلع ضرسين من أضراسه. وعنه أيضًا قال: حدثني رضيع ليوسف بن عمر من بني عبس قال: كنت لا أحجب عنه ولا عن حريمه، فدعا ذات يوم بجوار له ثلاث، ودعا بخصي له أسود، يقال له: خديج فقرب إليه واحدة، فقال لها: إني أريد الشخوص فأخلفك أم أشخصك معي. فقالت: صحبة الأمير أحب إلى ولكن أحسب أن مقامي وتخلفي أعفى عليه وأخف.

فقال: أحببت التخلف للفجور. اضربها يا خديج. فضربها حتى أوجعها. ثم أمره بأن يأتيه بالأخرى، فقال لها: إني أريد الشخوص - مثل قوله للأولى - فقالت وقد رأت ما لقيت صاحبها المتقدمة: ما أعدل بصحبة الأمير شيئًا بل يخرجني معه. فقال: أحببت الجماع ما تريد أن يفوتك، اضربها يا خديج، فضربها حتى أوجعها. ثم أمره أن يأتيه بالثالثة وقد رأت ما وقع لأولتيها. فقال لها كما قال لهما. فقالت: الأمير أعلم. لينظر أخف الأمرين عليه فليفعله. فقال لها: اختاري لنفسك. فقالت: ما عندي لهذا اختيار فليختار الأمير. فقال: هل فرغت أنا الآن من كل عملي ولم يبق على إلا أن أختار لك. أوجعها يا خديج ضربًا. قال الرجل: فكأنما هو يضربني في الثلاث من شدة غيظي عليه وعلى أمره. فولت الجارية وتبعها الخصي، فلما بعدت قالت: الخيرة والله في فراقك لا تقر عين أحد بصحبتك فلم يفهم

يوسف كلامها فقال: ما تقول يا خديج؟ قال: قالت كذا وكذا. قال: يابن الخبيثة، من أمرك أن تخبرني؟ يا غلام: خذ السوط من يده فأوجع به رأسه، فما زال يضربه حتى اشتفيت منه. كذا في «المحاسن والمساوي» للبيهقي.

قلت: فانظر إلى هؤلاء المتخلفين وإلى من يولونه تجد الوصلة بينهما قريبة غير غريبة.

واستجار يحيى بن زيد بعبد الملك بن بشر بن مروان، فأجازه حتى سكن الطلب، ثم سار إلى خراسان في نفر من الزيدية فقام بالدعوة كما سيذكر. كان قتله في شهر شعبان سنة ١٢١ إحدوي وعشرين ومائة.

وقتل في صفر سنة اثنتين وعشرين. عمره ثلاث وأربعون سنة.

ثم قام بالدعوة ابنه الإمام يحيى بن زيد بن علي زين العابدين بن علي بن أبي طالب، وذلك في أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك بخراسان.

ثم انتقل إلى «بيهق» وأظهر دعوته هناك فقصدته جنود الوليد، فقاتلهم فضعف عن المقاتلة، فتوجه إلى «جوزجان»، واجتمع عليه الجنود فقاتلوا فأصابه سهم آخر نهار الجمعة من شهر رمضان سنة ست وعشرين ومائة، فحز رأسه وحمل إلى الوليد ابن يزيد، وصلبت جثته على جذع عند باب جوزجان، وبقي مصلوبًا إلى أن ظهر أبو مسلم الخراساني صاحب دعوة العباسيين، فأنزله من الجذع وصلى عليه وعمره ثمان وعشرون سنة. فهؤلاء [في] دولة بني أمية.

وأما في دولة العباسيين فكان زمان عبيد الله السفاح - أول من ولي منهم - زمان صلح وسداد وبر منه بهم، ما ظهر في زمانه أحد ولا دعا داع، وكانوا شيئًا واحدًا على ما تقتضيه القرابة واللحمة.

فلما مات السفاح وولي أخوه المنصور عبد الله الدوانيقي قام بالدعوة محمد الملقب بالنفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب.

وسبب ذلك أنه لما صار أمر بني أمية إلى الاختلاف، واضطرب أمر مروان بن محمد اجتمع أهل البيت بالمدينة الشريفة، وتشاوروا فيمن يعقدون له الخلافة، فاتفقوا على محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن

السيط، وبايعوه سرًا وسلم له جميعهم.

ويقال: إنه حضر هذه البيعة أبو جعفر عبد الله المنصور، وبايع فيمن بايع له من أهل البيت، وأجمعوا على ذلك لتقدمه فيهم بما علموا له من الفضل عليهم، ولهذا كان مالك وأبو حنيفة - رحمهما الله تعالى - يجنحان إليه حين خرج من الحجاز، ويريان إمامته أصبح من إمامة أبي جعفر لانعقاد هذه البيعة من قبل، وربما صار إليه الأمر عند الشيعة بانتقال الوصية إليه من زيد بن علي، وكان أبو حنيفة يقول بفضله، ويجنح إلى حقه، فتأدت إليهما المحنة بسبب ذلك أيام أبي جعفر المنصور حتى ضرب مالك على الفتيا في طلاق المكره، وحبس أبو حنيفة على القضاء.

ولما حج المنصور أيام أخيه السفاح سنة ست وثلاثين تغيب عنه محمد هذا وأخوه إبراهيم ولم يحضرا عنده مع بني هاشم، فسأل عنهما، فقال له زياد بن عبيد الله الحارثي: أنا آتيك بهما وكان معه بمكة فرده المنصور إلى المدينة.

ولما صارت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور سعى عنده ببني حسن، وأن محمد ابن عبد الله يروم الخروج وأن دعائه ظهروا بخراسان، فطفق يسأل عن محمد ويختص بني هاشم بالسؤال سرًا فكلهم يقول: إنك ظهرت على طلبه بهذا الأمر فخافك ويحسن العذر عنه، إلا الحسن بن زيد بن الحسن بن علي، فإنه قال: والله ما آمن وثوبه عليك، فإنه لا ينام عنك، فكان موسى الجون بن عبد الله المحض يقول بعد هذه: اللهم اطلب الحسن بن زيد بدمائنا.

ثم إن المنصور حج سنة أربعين ومائة، وألح على عبد الله بن حسن في إحضار ابنه محمد، فاستشار عبد الله بن سليمان بن علي في إحضاره.

فقال له سليمان: لو كان عافيًا لعفا عن عمه، فاستمر عبد الله على الكتمان. ثم استعمل المنصور على المدينة رياح بن عثمان المري في رمضان سنة أربع وأربعين فقدم المدينة.

وتهدد عبد الله المحض في إحضار ابنه محمد وإبراهيم، فقال له عبد الله: إنك لأزرق قيس المذبوح فيها كما تذبح الشاة، فاستشعر ذلك ووجم، فقال له حاجبه أبو البختری: إن هذا ما اطلع على الغيب، فقال له: والله ما قال هذا إلا ما سمع، فكان كذلك كما سيذكر.

ثم جد رياح في طلب محمد فأخبر أنه في شعاب رضوى من عمل ينبع وهو جبل جهينة، فبعث عامله في طلبه فأفلت.

ثم إن رياح حبس بني حسن وقيدهم، وهم عبد الله المحض وإخوته حسن وإبراهيم وجعفر وابنه موسى الجون بن عبد الله المحض، وسليمان وعبد الله ابني أخيه داود وإسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم بن الحسن، ولم يحضر معهم أخوه على العابد، ثم حضر من الغد وقال: جثتك لتحبسنى مع قومي فحبسه، وكتب إليه المنصور أن يحبس معهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان المعروف بالديباجة وكان أخا عبد الله المحض لأمه، أمهما فاطمة بنت الحسين، وكان عامل مصر قد عثر على بن محمد بن عبد الله المحض بعثه أبوه محمد النفس الزكية إلى مصر يدعو له فأخذه عاملها وبعث به إلى المنصور.

ثم إن المنصور حج سنة أربع وأربعين فلما قضى حجه وخرج إلى الريزة، وجاء رياح بن عثمان ليودعه أمره بإشخاص بني حسن ومن معهم إلى العراق، فأخرجهم في القيود والأغلال وأركبهم في محامل بغير وطاء وجعفر الصادق يعاينهم من وراء ستر ويكي، وجاء محمد وإبراهيم مع أبيهما يسايرانه مستترين بزي الأعراب، ويستأذنان في الخروج، فيقول: لا تعجلا حتى يمكنكما وإن منعتما أن تعيشا كريمين فلا تمنعا أن تموتا كريمين.

وانتهوا بهم إلى الريزة، وأحضر العثماني محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ابن عفان المعروف بالديباجة عند المنصور فضربه مائة وخمسين سوطاً بعد ملاحاة جرت بينهما أغضبت المنصور، ويقال: إن رياحا أغرى المنصور به، وقال له: إن أهل الشام شيعته ولا يتخلف منهم عنه أحد، ثم كتب أبو عون عامل خراسان إلى المنصور: إن أهل خراسان ينتظرون محمد بن عبد الله المحض وأنه جفل منهم، فأمر المنصور بقتل العثماني وبعث برأسه إلى خراسان وبعث معه من يحلف أنه رأس محمد بن عبد الله المحض وأن أمه فاطمة بنت رسول الله، ثم قدم المنصور بهم الكوفة وحبسهم بقصر ابن هبيرة ويقال: إنه قتل محمد بن إبراهيم بن حسن، بنى عليه أسطوانة وهو حي فمات، ثم مات بعده عبد الله المحض، ثم على بن حسن. ويقال: إن المنصور أمر بهم فقتلوا ولم ينج منهم إلا سليمان وعبد الله ابنا داود

وإسحاق وإسماعيل ابنا إبراهيم بن حسن وجعفر بن حسن .
ثم إن المنصور أرجع رياحًا إلى المدينة وأمره بإمعان الطلب لمحمد فوصلها
وألح في طلب محمد وهو مختف ينتقل في اختفائه من مكان إلى مكان ، وقد أرهقه
الطلب حتى تدلى في بئر وانغمس في مائها وحتى سقط ابنه من جبل فتقطع ، ودل
عليه رياح بالمدينة فركب في طلبه فاخفى عنه ولم يره ، ولما اشتد الطلب عليه
أجمع على الخروج ، وأغراه أصحابه بذلك .

وجاء الخبر إلى رياح بأنه الليلة خارج ، وحضر العباس بن عبد الله بن الحارث بن
العباس ومحمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد قاضي المدينة وغيرهما ، وقال لهم :
أمير المؤمنين يطلب محمدًا شرق الأرض وغربها وهو بين أظهركم ، والله لئن خرج
ليقتلنكم أجمعين .

فأمر القاضي بإحضار عشيرته بني زهرة فجاءوا في جمع كثير وأجلسهم بالبواب ،
ثم أحضر نفرًا من العلويين فيهم جعفر بن محمد بن الحسين وحسين بن علي بن
حسين بن علي وحسن بن علي بن حسين بن علي ورجالا من قریش ، وبينما هم
عنده سمعوا التكبير وقيل خرج محمد ، فقال ابن مسلم بن عقبة لرياح بن عثمان :
أطعني واضرب أعناق هؤلاء العلويين ، فأبى .

فأقبل محمد النفس الزكية في مائة وخمسين رجلًا ، وقصدوا السجن ، وأخرج
محمد بن خالد بن عبد الله القسري وابن أخيه ومن كان معهم محبوسًا بالظلم ، وأتى
دار الإمارة وهو ينادي بالكف عن القتل ، فدخلوا من باب المقصورة وقبضوا على
رياح بن عثمان عامل المدينة وأخيه عباس وابن مسلم بن عقبة وحبسهم ، ثم خرج
إلى المسجد فخطب الناس ، وذكر المنصور بما نقمه عليه ، ووعد الناس
واستنصرهم ، واستعمل على المدينة عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير ، وعلي
قضائها عبد الملك بن عبد المطلب بن عبد الله المخزومي ، ولم يتخلف عن محمد
ابن المحض من وجوه الناس إلا نفر قليل ، منهم خبيب بن ثابت بن عبد الله بن
الزبير .

واستفتى أهل المدينة مالكا في الخروج مع محمد وقالوا : في أعناقنا بيعة
المنصور ، فقال الإمام مالك : إنما بايعتم مكرهين ، فتسارع الناس إلى محمد ، ولزم

مالك بيته، وأرسل محمد المذكور إلى إسماعيل عبد الله بن جعفر يدعو به إلى بيعته - وكان شيخاً كبيراً - فقال: أنت والله يا ابن أخي مقتول، فكيف أبابك، فرجع الناس عنه قليلاً قليلاً، وأسرع بنو معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى محمد، فجاءت أختهم حمادة إلى عمها إسماعيل وقالت: يا عم إن مقاتلك ثببت الناس عن محمد، وإخوتي معه فأخشى أن يقتلوا، فطردها. فيقال: إنها غدت عليه فقتلته.

ولما استوى أمر محمد بن المحض المذكور ركب رجل من آل أويس بن أبي سرح اسمه الحسين بن صخر، وجاء إلى المنصور في تسع وخبره الخبر، فقال: أنت رأيته؟ قال: نعم، وكلمته على منبر رسول الله ﷺ، ثم تتابع الخبر، وأشفق المنصور من أمره فاستشار أهل بيته ودولته، فبعث إلى عمه عبد الله وهو محبوس يستشيره، فأشار عليه بأن يقصد الكوفة فإنهم شيعة أهل البيت، فيملك عليهم أمرهم، ويحفظها بالمسالح حتى يعرف الداخل والخارج، ويستدعي سالم بن قتيبة من الري فيحشد معه كافة أهل الشام وبيعه، وأن يثبت العطاء في الناس.

فخرج المنصور إلى الكوفة وتبعه عبد الله بن الربيع بن عبيد الله بن عبد المدان. ولما قد الكوفة أرسل إلى بديل بن يحيى - وكان السفاح يشاوره - فأشار عليه بأن يشحن الأهواز بالجنود، وأشار عليه جعفر بن حنظلة البهراني بأن يبعث الجند إلى البصرة، فلما ظهر إبراهيم أخو محمد المذكور بتلك الناحية تبين وجه إشارتهما.

وقال المنصور لجعفر بن حنظلة: كيف خفت البصرة؟ قال: لأن أهل المدينة ليسوا أهل حرب حسبهم أنفسهم، وأهل الكوفة تحت قدمك، وأهل الشام أعداء الطالبيين، ولم يبق إلا أهل البصرة.

ثم إن المنصور كتب إلى محمد بن عبد الله المحض المذكور كتاب أمان فأجاب عنه بالرد والتعريض بأمور في الأنساب والأحوال، فأجابه المنصور بمثل ذلك، وانتصف كل منهما لنفسه بما ينبغي الإعراض عنه مع أنهما صحيحان مرويان.

وذكرهما المبرد في كامله. فمن أراد الوقوف عليهما فليلتسهما في أماكنهما. ذكر جميع هذا العلامة ابن خلدون في كتابه المسمى «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في دولة العرب والعجم والبربر». قلت: قد أحبيت ذكرهما تجميلاً للجامع

القاصر، وتكميلاً يكون فيه شفاء الخاطر.

قال لسان الأدب وترجمان العرب أبو العباس محمد بن يزيد الشهير بالمبرد في كتابه المسمي «الكامل»^(١): وفي سنة خمس وأربعين ومائة اشتد الطلب على محمد النفس الزكية خرج بالمدينة الشريفة، وبعث أخاه إبراهيم إلى البصرة داعياً له فغلب عليها وعلى الأهواز وفارس، وبعث الحسن بن معاوية أو محمد بن معاوية من أولاد جعفر بن أبي طالب إلى مكة فملكها، وبعث عاملاً إلى اليمن فملكه. ودعا لنفسه وخطب على منبره عليه الصلاة والسلام، وكان يدعى بالنفس الزكية وتلقب بالمهدي، وحبس رياح بن عثمان المرى عامل المدينة للمنصور، وبلغ الخبر إلى المنصور بذلك فكتب إليه كتاباً نصه بعد البسملة:

من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله أما بعد ف ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ . . . ﴿ إِلَى ﴾ ﴿ عَفْوَ رَجِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣: ٣٤]، ولك ذمة الله وعهده وميثاقه وحق نبيه محمد ﷺ إن تبنت من قبل أن نقدر عليك أن أؤمنك على نفسك وولدتك وإخوتك ومن بايعك وجميع شيعتك وأن أعطيك ألف ألف درهم وأنزلك من البلاد حيث شئت وأقضى لك ما شئت من الحاجات وأطلق من في سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ثم لا أتبع أحداً منكم بمكروه، وإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من يأخذ لك الميثاق والعهد والأمان إن أحببت. والسلام.

فأجابه محمد المهدي بكتاب نصه بعد البسملة^(٢):

من عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد. أما بعد ﴿ طَسَمَ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ تَتْلُوا عَلَيْهِ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ . . . ﴿ إِلَى ﴾ ﴿ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ١: ٦]، وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتنى، فقد تعلم أن الحق حقنا وأنكم إنما أعطيتموه^(٣) بنا ونهضتم فيه بشيعتنا وخطبتموه بفضلنا، وإن أبانا علياً - عليه

(١) ينظر: الكامل للمبرد ٣/ ١٤٨٧ - ١٤٨٨.

(٢) ينظر: الكامل للمبرد ٣/ ١٤٨٨ - ١٤٩٠.

(٣) فى الكامل: طلبتموه.

السلام - كان الوصى والإمام، فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء، وقد علمتم أنه ليس أحد من بنى هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا، وإنا بنو أم رسول الله ﷺ فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم، وبنو ابنته فاطمة في الإسلام من بينكم، فإنا أوسط بني هاشم نسباً وخيرهم أمّاً وأباً، لم تلدني العجم ولم تعرق بي أمهات الأولاد، وإن الله عز وجل لم يزل يختار لنا فولدني من النبيين أفضلهم محمد ﷺ، ومن أصحابه أقدمهم إسلاماً وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً على بن أبي طالب، ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة، ومن بناته أفضلهن، وسيدة نساء أهل الجنة، ومن المولودين في الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة. ثم قد علمت أن هاشمًا ولد عليًا مرتين، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين.

وأن رسول الله ﷺ ولدني مرتين من قبل جدى الحسن والحسين سيدى شباب أهل الجنة، فما زال الله يختار لي حتى اختار لي في النار فولدني أرفع الناس درجة في الجنة، وأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة، فأنا ابن خير الأخيار، وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة، وابن خير أهل النار.

ولك عهد إن دخلت في بيعتى أن أؤمنك على نفسك وولدك وكل ما أصبته، إلا حداً من حدود الله تعالى، أو حقاً لمسلم أو معاهد، فقد علمت ما يلزمك في ذلك، فأنا أوفى بالعهد منك، وأنت أخرى بقبول الأمان مني إليك.

وأما أمانك الذى عرضت على فأى الأمانات هو؟! أمان ابن هبيرة، أم أمان عمك عبد الله بن علي، أم أمان أبي مسلم الخراساني؟! والسلام.

فأجابه المنصور بقوله بعد البسملة^(١):

من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله.

أما بعد فقد أتانى كتابك، وبلغني كلامك، فإذا جل فخرك بالنساء لتضل به الجفافة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة والأولياء، وقد جعل الله العم أباً، وبدأ به على الولد الأدنى، فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨]، ولقد

(١) ينظر: الكامل للمبرد (٣/ ١٤٩٠ - ١٤٩١)

علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمدًا ﷺ وعمومته أربعة، فأجابه اثنان أحدهما أبي، وكفر اثنان أحدهما أبوك. وأما ما ذكرت من النساء وقرابتهن، فلو أعطين على قدر الأنساب وحق الأحساب لكان الخير كله لآمنة بنت وهب، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه.

وأما ما ذكرت عن فاطمة بنت عمرو أم أبي طالب، فإن الله لم يهد أحدًا من ولدها إلى الإسلام، ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الآخرة والأولى، وأسعدهم بدخول الجنة، ولكن الله أبى ذلك فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب وفاطمة أم الحسن [والحسين] وأن هاشمًا ولد عليًا مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين فخير الأولين والآخرين رسول الله ﷺ لم يلد هاشم إلا مرة واحدة، ولم يلد عبد المطلب إلا مرة واحدة. وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله ﷺ، فإن الله قد أبى ذلك له فقال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ولكنكم بنو ابنته وإنها لقربة قريبة غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم، فيكف تورث الإمامة من قبلها؟! ولقد طلب بها أبوك من كل وجه، فأخرجها تخاصم ومرضاها سرًا، ودفنها ليلاً، وأبى الناس إلا تقديم الشيخين.

ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله ﷺ فأمر بالصلاة غيره^(١)، ثم أخذ الناس رجالًا رجالًا فلم يأخذوا أباك فيهم، ثم كان في أصحاب الشورى فكل دفعه عنها، بايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان، وحارب أباك طلحة والزبير ودعا سعدًا إلى بيعته فأغلق بابه دونه، ثم بايع معاوية بعده، وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن، فسلمه إلى معاوية بخرق ودراهم، وأسلم في يديه شيعة، وخرج إلى المدينة، ودفع الأمر إلى غير أهله، وأخذ مالاً من غير حله، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه.

وأما قولك: إن الله اختار لك في الكفر، فجعل أباك أهون أهل النار عذابًا فليس في الشر خيار ولا من عذاب الله هين، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفتخر بالنار، وسترد فتعلم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا...﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، الآية. وأما

(١) يعني أبا بكر، وقد تقدم ذلك في مناقب أبي بكر الصديق .

قولك: لم تلدني العجم، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد وأنتك أوسط بني هاشم نسباً، وخيرهم أمّا وأباً، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طراً، وقدمت نفسك على من هو خير منك أولى وأخرى وأصلاً وفصلاً، فخرت على إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وعلى والد ولده، فانظر ويحك أين تكون من الله غداً، وما ولد فينا مولود بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من علي بن الحسين وهو لأم ولد، ولقد كان خيراً من جدك حسن بن حسن، ثم ابنه محمد بن علي خير من أبيك عبد الله وجدته أم ولد، ثم ابنه جعفر الصادق وهو خير منك.

ولقد علمت أن جدك علياً حكم الحكّمين، وأعطاهما عهد الله وميثاقه على الرضا بما حكما به فأجمعا على خلعه، ثم خرج عمك الحسين بن علي فحاربه ابن مرجانة، وكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ثم أتوا بكم على الأقتاب كالسبي المجلوب إلى الشام.

ثم خرج منكم غير واحد فقتلتكم، بنو أمية وحرقوكم بالنار، وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم، فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه، ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك في أديار كل صلاة مكتوبة كما تلعن الكفرة، فعنفناهم وكفرناهم وبيننا فضله، وأشدنا بذكره، فاتخذت ذلك علينا حجة، وظننت أنا - بما ذكرنا من فضل علي - أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر، كل أولئك مضوا سالمين مسلماً منهم، وابتلي أبوك بالدماء.

وقد علمت أن مآثرنا في الجاهلية سقاية الحاج الأعظم، وولاية زمزم، وكانت للعباس دون إخوته، فنازعنا فيهما أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر بهما، وتوفي رسول الله ﷺ وليس أحد من عمومته حياً إلا العباس، فكان وارثه دون بني عبد المطلب، وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم فلم ينلها إلا ولده، فاجتمع للعباس أنه أبو رسول الله ﷺ خاتم النبيين، وبنوه القادة الخلفاء، فقد ذهب بفضل القديم والحديث، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها لمات عمك طالب وعقيل جوعاً أو يلحسا جفان عتبة وشيبة ابني ربيعة فأذهب عنهما العار والشنار.

ولقد جاء الإسلام والعباس يمون أبا طالب للأزمة التي أصابتهم، ثم فدى عقيل يوم بدر، فقدمناكم في الكفر، وفديناكم من الأسر، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء،

وحزنا شرف الآباء، وأدركنا من تأركم إذ عجزتم عنه، ومنعناكم حيث لم تمنعوا أنفسكم. والسلام.

ثم عقد أبو جعفر المنصور على حربته، لعيسى ابن عمه موسى بن علي بن عبد الله بن العباس، فسار في الجنود، ومعه محمد بن أبي العباس السفاح، وكثير بن حصين العبدي، وحמיד بن قحطبة، وهزار مرد وغيرهم. وهؤلاء المذكورون كل رجل منهم مذكور في مقاتلة ألف مشهور مخبور. وقال له: إن ظفرت بمحمد، فأغمد سيفك وابذل له الأمان، وإن تغيب، فخذ أهل المدينة به؛ فإنهم يعرفون مذهبهم. ومن لقيك من آل أبي طالب، فعرفني به. ومن لم يلقك فاقبض ماله. وكان جعفر الصادق فيمن تغيب، فقبض ماله.

ويقال: إن المنصور لما قدم المدينة بعد ذلك، طلبه جعفر بالمال، فقال المنصور: قبضه مهديكم. ولما وصل عيسى بن موسى إلى زيد، كتب إلى نفر من أهل المدينة يستدعيهم، واستشار محمد المهدي أصحابه في المقام بالمدينة، ثم في الخندق عليها، فأثر ذلك؛ اقتداء برسول الله ﷺ، فحفر الخندق الذي حفره - عليه الصلاة والسلام - للأحزاب، ونزل عيسى بن موسى بالأعوص، وكان محمد قد منع الناس من الخروج فخيرهم؛ فخرج كثير منهم بأهلهم إلى الجبال، وبقي في شردمة قليلة، ثم تدارك أمره، وأمر بردهم فأعجزوه.

ونزل عيسى بن موسى على أربعة أميال من المدينة، وبعث عسكرياً إلى طريق مكة يعترضون محمداً أن ينهزم إلى مكة، وأرسل إليه بالإحسان والدعاء إلى الكتاب والسنة، ويحذره عاقبة البغي. فقال: إنما أنا رجل فررت من القتل. ثم نزل عيسى ابن موسى بالجرف، لثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان، سنة خمس وأربعين، فأقام يومين، ثم وقف على سلع، ونادى بالأمان لأهل المدينة، وأن يخلوا بينه وبين صاحبه، فشتموه؛ فانصرف وعاد من الغد، وقد فرق القواد من سائر جهات المدينة، وبرز مع أصحابه، ورايته مع عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وأبلى محمد المهدي يومئذ - بلاء عظيماً، وقتل بيده سبعين رجلاً.

ثم أمر عيسى بن موسى حميد بن قحطبة، فتقدم في مائة من الرجال إلى حائط دون الخندق فهدمه واجتاز الخندق، وقاتلوا من ورائه، وصابروهم أصحاب محمد

إلى العصر. ثم أمر عيسى أصحابه فردموا الخندق بالحقائب، ونصبوا عليه الأبواب، وجازت الخيل، فاقتتلوا، وانصرف محمد فاغتسل وتحنط، ثم رجع، وقال له عبد الله بن جعفر: لو أتيت الحسن بن معاوية - يعني: عامله الذي أرسله إلى مكة - فإن معه جلّ أصحابك، وليس لك بهؤلاء طاقة. فقال: أترك أهل المدينة يقتتلون؟! والله! لا أفعل أو أقتل، وأنت مني في سعة. فمشى معه قليلا ثم رجع، وافترق عنه جلّ أصحابه، وبقي في ثلاثمائة أو نحوها، فقال له بعض أصحابه: نحن في عدة أهل بدر، ثم جمع بين الظهر والعصر، ومضى فأحرق الديوان الذي فيه أسماء من بايعه، وجاء إلى السجن فقتل رياح بن عثمان، عامل المدينة قبله من قبل المنصور، وأخاه عباسا.

وتقدم محمد إلى بطن سلع ومعه بنو شجاع من الخمس؛ فغرقبوا دوابهم وكسروا جفون سيوفهم واستماتوا، وهزموا أصحاب عيسى مرتين أو ثلاثا. وصعد نفر من أصحاب عيسى الجبل، فانحدروا منه إلى المدينة، ورفع بعض نسوة آل العباس خمارا لهن أسود على منارة المسجد، فلما رآه أصحاب محمد وهم يقاتلون؛ هربوا. وفتح بنو غفار طريقا لأصحاب عيسى فجاءوا من وراء أصحاب محمد، ودعا محمد حميد بن قحطبة للبراز فأبى، ونادى ابن خفير عن أصحاب محمد بالأمان، فلم يصغ إليه، وكثرت فيه الجراحة، ثم قتل. وقاتل محمد على شلوه يهذ الناس عنه هذا، حتى ضرب فسقط لركبته، فطعنه ابن قحطبة في صدره، ثم أخذ رأسه فأتى به عيسى، فبعثه إلى المنصور، وأرسل معه رءوس بني شجاع، وكان قتله منتصف رمضان، سنة خمس وأربعين ومائة.

وأرسل عيسى الألوية فنصبت بالمدينة بالأمان، وصلب محمد وأصحابه ما بين ثنية الوداع والمدينة، واستأذنت أخته في دفنه فدفنته بالبقيع، وقبره مشهور، عليه قبة يزار بها، رحمه الله تعالى، عمره اثنان وخمسون سنة. وقيل: خمس وأربعون. ثم قام أخوه إبراهيم بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، وكان قيامه بالبصرة، قد أرسله أخوه محمد النفس الزكية إليها فاستولى عليها، فبلغه الخبر بمقتل أخيه يوم العيد، غرة شهر شوال سنة خمس وأربعين، فخطب الناس

ونعاه إليهم، وأنشد [من الطويل]:

سَأَبْكِيكَ بِالْبَيْضِ الْقَوَاضِبِ وَالْقَنَا فَإِنَّ بِهَا مَا يُدْرِكُ الطَّالِبُ الْوُثْرَا
وَلَسْتُ كَمَنْ يَبْكِي أَخَاهُ بِعَبْرَةٍ يُعْصِرُهَا مِنْ جَفْنٍ مُقْلَتِهِ عَصْرَا
فبايعوه بالإمامة، واستولى على واسط والأهواز، وكورها، وما والاها من بلاد
فارس، ونهض لقتال المنصور، وكان يلاحظ آخرته أكثر من دنياه. فالتقى الجمعان
بـ « باخمر » من أرض الأهواز، فجاءه سهم غرب، وحمل [عليه] جند المنصور
وحزوا رأسه، وأرسلوه إلى المنصور.
وكان قتله غرة ذي الحجة من السنة المذكورة، وعمره: ثمان وستون سنة،
وقيل: و خمسون.

ثم قام إبراهيم الغمر بن الحسن المثنى، أخو عبد الله المحض، بعد قتل ابني
أخيه: محمد، وإبراهيم؛ فعاجله المنصور قبل أن يستحكم أمره؛ فأسره وحبسه مع
إخوته وأهل بيته، ومات في الحبس. وكان قيامه آخر سنة خمس وأربعين ومائة،
عمره سبع وستون سنة.

ثم قام الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، في
أيام المنصور - أيضا - وكان بالبصرة مستترا، وأرسل دعائه منها إلى كل ناحية؛
فسعى به إلى المنصور قر بن جلال الأزدي، فأعطاه ثلاثة آلاف درهم، وأرسل رجلا
معه، يقال له: مرعيد النصراني، في جماعة من الأعوان، وكتب إلى عامله بالبصرة
بالسمع والطاعة فيما يشير به مرعيد، فدخل في زي أهل الصلاح مظهرا للتشيع
والعبادة، ومضى قر إلى الحسن وأخبره بقدوم رجل صالح في وصفه، ثم عرف
قرين بين مرعيد وبين شيعة الحسن، فأروا نسكه وصلاحه؛ فأنسوا به، وجعل الشيعة
تصف صلاح حاله للحسن؛ حتى أحب لقاءه، ومرعيد مع ذلك - يحسن صلة
الحسن بالأموال، ويرسل الجيران يستعين بهم في أمره ووصفه، وكلما كتب إليه
الحسن كتابا قبله، ووضعه على رأسه وعينه، وأكل خاتمه، يظهر أنه يريد التبرك
به، إلى أن قالت له الشيعة: إن الحسن يشتهي لقاءك، فقال لهم: أخشى من اشتها
أمري، ولكن أنا في حجرة، فلو جاءني مع هذا - وأوماً إلى قرين - رجوت أن
يكون الأمر مستورا. فأجابته الشيعة إلى ذلك. وعمد مرعيد فهياً القيد والرجال،

فخبأهم في مجلسه. فلما وصل قيده، وحمل بساعته إلى المنصور، فلما أوصلوه إليه أمر بحبسه وغيبه، ثم آل أمره إلى أن مات بالسم في حبسه، سنة نيف وستين ومائة.

ثم قام في أيام المنصور - أيضا - عبد الله الأشتر ابن محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وكان ظهوره بالسند؛ لأنه هرب بعد قتل أبيه إليه، وبقي بالسند بأرض كابل يدعوهم إلى الإسلام؛ لأنهم كانوا مشركين، فأسلم على يده خلق كثير. وكان على السند من جهة المنصور: هشام بن عمرو التغلبي، فوقع بينهما قتال كثير، قدر خمسين وقعة في سنة واحدة، وقتل هناك ظلما. وكان قيامه سنة ست وأربعين ومائة، وقتل سنة إحدى وخمسين، وعمره: ثلاث وثلاثون سنة.

ثم قام الحسن بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط في البصرة، أيام المهدي بن المنصور، وتوارى لقلّة أصحابه، إلى أن مات.

ثم قام عيسى بن زيد بن علي زين العابدين، في أيام المهدي، فبايعه أهل الكوفة وأهل البصرة والأهواز، ووردت عليه بيعة أهل الحجاز، وهو متوارٍ. واشتد الطلب له من المنصور وأخذ الناس على الظنة، فاستتر عيسى بالأهواز، وأكثر مقامه بها في زمن المنصور. فلما ولى الأمر المهدي أظهر نفسه، فدس إليه المهدي رجلا من أصحابه، قيل: إنه أعطاه مقدار مائتي ألف دينار؛ فسمه في طعامه، وهو بسواد الكوفة مما يلي البصرة؛ فمات فجر اليوم الثالث، ودفن سرّا، ولا يعرف قبره. وكان قيامه سنة ست وخمسين ومائة، ووفاته سنة ست وستين ومائة. عمره: ست وأربعون سنة.

ثم قام علي بن العباس بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، في أيام المهدي - أيضا - ببغداد، فبايعه جماعة سرّا. وهم بالانتقال من بغداد إلى غيرها من البلاد، فقبضه المهدي قبل استحكام أمره وحبسه، فلم يزل في حبسه إلى أن وفد عليه الحسين بن علي الفخي - الآتي ذكره بعده - فكلم المهدي فيه واستوهبه منه؛ فوهبه له، ثم دس له شربة سم، فلم يزل يعمل فيه السم حتى قدم المدينة، فتفسخ لحمه، وتباينت أعضاؤه، بعد دخول المدينة بثلاثة أيام، ومات.

ثم قام الحسين بن علي بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، أيام الهادي بن المهدي بن المنصور، سنة تسع وستين ومائة، وهو بالمدينة، وجده: الحسن المثلث: أخو عبد الله المحض؛ ببيع بالمدينة، وخطب على منبرها، وهرب عاملها. فلما استقر أمره بالمدينة وصار إلى مكة، كتب الهادي إلى محمد بن سليمان بن علي - وقد كان قدم حاجاً من البصرة - فولاه حربه، فقتله بفخ على ثلاثة أميال من مكة بل دونها، فتقاتلوا يوم التروية، فقتل الحسين في أكثر من مائة من أصحابه، ولم ينج منهم إلا اليسير، كانوا بين القتلى إلى أن جن عليهم الليل هربوا، ودفن الحسين وأصحابه هنالك، وقبره مشهور يزار إلى الآن، في بناء على يمين الداخل إلى مكة من وادي مر. وحمل رأسه إلى الهادي موسى بن المهدي العباسي، فلم يحمد ذلك. وكان الحسين هذا شجاعاً جواداً كريماً، يحكى أن المهدي أعطاه لما قدم عليه ألف دينار فقرقها في الناس ببغداد والكوفة، وخرج لا يملك ما يلبسه إلا فروة ليس تحتها قميص رحمه الله وغفر له وأعاد علينا من بركاته. روى أبو الفرج الأصبهاني في «مقاتل الطالبين» بإسناده إلى النبي ﷺ قال: «انتهى رسول الله ﷺ إلى فخ فصلى بأصحابه ثمة صلاة الجنائز ثم قال: تقتل ههنا رجال من أهل بيتي وعصابة من المسلمين تنزل لهم أكفان وحنوط من الجنة تسبق أرواحهم إلى الجنة أجسادهم». وكان عمره حين قتل إحدى وأربعين سنة.

ثم قام يحيى بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في زمان الهادي أيضاً بعد أن نجا من وقعة الفخ فجال في البلدان، ولم يقر بمكان وآخر الأمر استقر بجبل الديلم وكان إذا ذاك في زمان هارون الرشيد، فشرح الرشيد لحربه الفضل بن يحيى البرمكي، فبلغ الفضل إلى الطالقان وتلطف في استئزال يحيى بن عبد الله من بلاد الديلم على أن يشترط ما أحب ويكتب له الرشيد بذلك خطه فتم بينهما ذلك؛ وجاء به الفضل فوفى له الرشيد بكل ما أحبه، وأجرى له أرزاقاً سنية حسنة. ثم توجه يحيى بإذنه إلى المدينة ثم استرجعه هارون الرشيد من المدينة إلى بغداد بسعاية كانت فيه من بعض آل الزبير. فيقال: إنه لما حلف الزبيري بتلك اليمين التي فيها البراءة من حول الله وقوته والالتجاء إلى الحول والقوة ومات الزبيري بعد الثلاثة

الأيام أطلق الرشيد يحيى ووصله بمال، ثم بعد [ذلك] بمديدة أظهر له ذلك أنه قد صح عنده أنه يطلب الناس سرًا إلى بيعته، فكلم الرشيد الفقهاء فيما أعطاه من الأمان. فمنهم من أثبتته، ومنهم من نقضه، ثم آخر الأمر أرسله إلى الحبس فمات بعد شهر من اعتقاله في الحبس.

واختلف في موته فقيل: خنقه، وقيل: بنوا عليه، وقيل: سموه، وقيل: قتلوه بالجوع، ويقال: أطلقه الفضل بن يحيى افتتاتاً على الرشيد، فكان ذلك سبب نكبة البرامكة والله أعلم أيا كان ذلك.

قلت: ذكر المسعودي^(١) أن هذه المباهلة بهذه اليمين وقعت مع الزبير نفسه منسوبة إلى موسى الكاظم معه، والله أعلم من أيهما كانت. كان قيام يحيى سنة ست وسبعين ومائة.

ثم قام من بعده أخوه إدريس بن عبد الله المحض، وذلك أنه لما أفلت ونجا من واقعة الحسين الفخي لحق بمصر إلى الغرب، وعلى بريد مصر يومئذ واضح مولى صالح بن المنصور ويعرف بالمسكين وكان يتشيع، فعلم بشأن إدريس، وهو جد الأدارسة بالمغرب ومنهم طائفة بمكة أتوا إليها، وأتاه إلى المكان الذي كان به مستخفياً وحمله على البريد إلى المغرب ومعه راشد مولاه فنزل بوليلي سنة ثنتين وسبعين وبها يومئذ إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير «أورند» من قبائل البربر، وكبيرهم، فأجاره وأكرمه، وأجمع البربر على القيام بدعوته، وخلع الطاعة العباسية وكشف القناع، فبايعوه وقاموا بأمره، وكان فيهم مجوس فقاتلهم إلى أن أسلموا وملك المغرب الأقصى، وملك تلمسان سنة ثلاث وسبعين، ودخلت ملوك زنانة أجمع في طاعته، واستفحل ملكه، وخافه إبراهيم بن الأغلب صاحب القيروان، وراسل الرشيد يخبره فدرس إليه الرشيد مولى من موالى أبيه المهدي اسمه سليمان بن جرير، ويعرف بالشماخ وأنفذه بكتاب إلى ابن الأغلب، فأجازه ولحق بإدريس مظهرًا للزوع إليه فيمن نزع من وحدان العرب ومتبرئًا من الدولة العباسية، فاختصه الإمام إدريس وحلا بعينه وكان قد تأبط سما في سنون فناوله إياه عند شكايته من وجع سنونه فكان فيما زعموا حثفه.

(١) ينظر: مروج الذهب (٣/ ٣٥١ - ٣٥٣).

ودفن ببوليلي سنة سبع وسبعين ومائة.

ثم قام بالدعوة محمد بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل الديباج بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، وأبوه إبراهيم طباطبا لقب بذلك للكنة كانت به صغيرا سببها أنه طلب يوما غلامه أن يأتيه بقاء فلم يفهم مراده فقال له إبراهيم: «طباطبا» يريد قبا قبا فلقب به.

حبسه المهدي وبقي في الحبس إلى زمان هارون ومات فيه، فظهر ابنه محمد هذا. وسبب ظهوره: أنه لما بعث المأمون الحسن بن سهل وزيره إلى العراق وولاه ما كان افتتحه طاهر بن الحسين من البلاد والأعمال، تحدث الناس أن الحسن بن سهل غلب على المأمون واستبد عليه وحجبه عن أهل بيته وقواده، فغضبت بنو هاشم ووجوه الناس وأجهزوا على الحسن بن سهل وهاجت الفتنة.

وكان أبو السرايا السري بن منصور ويذكر أنه من بني شيبان من ولد هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود، وقيل من بني تميم كان بالجزيرة، وطلب ففر إلى شرقى الفرات، وأقام هنالك يخيف السابلة، ثم لحق بيزيد بن يزيد بأرمينية في ثلاثين فارسا فقوده أي جعله قائدا، وقاتل معه الخرمية وأثر فيهم، وأخذ منهم غلامه المسمى أبا الشوك، ومات يزيد بن يزيد، فكان أبو السرايا مع ولده أسد كذلك، فعزل أسد فسار أبو السرايا إلى أحمد بن يزيد، ولما بعث الأمين أحمد بن يزيد لحرب هرثمة بن أعين أحد قواد المأمون بعثه أحمد طليعة إلى عسكر هرثمة فاستماله هرثمة فمال إليه فلحق به وقصده قومه بنو شيبان من الجزيرة، فاجتمع إليه منهم أكثر من ألفي فارس، واستخرج لهم الأرزاق من هرثمة بن أعين، فلما قتل الأمين نقص هرثمة من أرزاقهم، فغضب أبو السرايا واستأذن في الحج فأذن له هرثمة وأعطاه عشرين ألف درهم فصرفها في أصحابه ومضى وأوصاهم باتباعه فاجتمع له منهم نحو مائتين، وسار بهم أبو السرايا إلى عين التمر فأخذوا عاملها وقسموا ماله. ولقوا عاملا آخر بمال موقر على ثلاثة أبغال فاقسموه، فأرسل هرثمة خلفه فهزمهم ودخل البرية، ولحق به من تخلف من أصحابه فكثير أصحابه وجمعه، وسار نحو دقوقا، وعليها أبو ضرغامة العجلي في سبعمائة فارس فخرج وقاتله، فهزمه أبو السرايا، ورجع أبو ضرغامة إلى القصر فحاصره أبو السرايا حتى نزل على الأمان، وأخذ

أمواله وسار إلى الأنبار، وعليها إبراهيم الشروني مولى المنصور عاملا فقتله وأخذ ما فيها. ثم عاد إليها عند إدراك الغلال فافتتحها. ثم قصد الرقة ومر بطوق بن مالك التغلبي واستجاشه على قيس، فأقام عنده أربعة أشهر يقاتل قيسا بعصية ربيعة، حتى انقادت قيس إلى طوق بن مالك، وسار أبو السرايا إلى الرقة فلقى محمد بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط صاحب الترجمة فدعاه إلى الخروج، واتعدوا إلى الكوفة فدخلاها وباعه أهلها على بيعة الرضا من آل محمد، ونهب أبو السرايا قصر العباس بن موسى بن عيسى، وأخذ معه من الأموال والجواهر ما لا يحصى، وذلك منتصف جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين.

ولما ملك الكوفة هرع الناس إليه والأعراب من النواحي وباعوه، وأرسل أخاه أبا القاسم بن إبراهيم إلى مصر وكان على الكوفة سليمان بن منصور من قبل، الحسن بن سهل، فبعث إليه زهير بن المسيب الضبي في عشرة آلاف، فخرج إليه ابن طباطبا، وأبو السرايا فهزمه، واستباحا عسكره وأصبح محمد بن إبراهيم طباطبا من الغد ميتا، فنصب أبو السرايا مكانه غلاما من العلويين وهو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين.

فتقول: ثم قام محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين المذكور، واستبد عليه أبو السرايا، وبعث الحسن بن سهل عيدروس بن محمد بن خالد المروروذي في أربعة آلاف، فلقى أبو السرايا منتصف رجب، وقتله ولم يفلت من أصحابه أحد كانوا بين قتيل وأسير، وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة باسمه، وبعث جيوشا إلى البصرة وواسط.

وولى بالبصرة العباس بن محمد بن عيسى الجعفري، وعلى مكة الحسين الأفضس بن الحسين بن علي زين العابدين بن الحسين وجعل إليه الموسم.

وعلى اليمن محمد - أو إبراهيم - بن موسى بن جعفر الصادق. فسار أبو السرايا إلى البصرة، وأخرج ابن سهل فقر أمامهم، فبعث الحسن بن سهل إلى هرثمة يستدعيه لحرب أبي السرايا، وقد كان سار إلى خراسان مغاضبا له، فرجع بعد امتناع، وسار إلى الكوفة، وبعث الحسن بن سهل إلى المدائن وواسط على بن سعيد، فبلغ الخبر أبا السرايا وهو بقصر ابن هيرة بالكوفة، فوجه جيشا إلى

المدائن، فملكوها في رمضان، وتقدم فنزل نهر صرصر، وعسكر هرثمة بإزائه غدوة، وسار على بن سعيد في شوال إلى المدائن، فحاصرهم بها أصحاب أبي السرايا، فرجع أبو السرايا من نهر صرصر إلى قصر ابن هبيرة وهرثمة في اتباعه، ثم حاصره هرثمة وقتل جماعة من أصحابه، فانحاز إلى الكوفة، فوثب الطالبيون على دور العباسيين، وشيعتهم فنهبوا وخربوا وأخرجوهم، واستخرجوا ودائعهم عند الناس، وأقام هرثمة بنواحي الكوفة يحاصرها، واستدعى منصور بن المهدي، وكاتب رؤساء الكوفة، واشتد الحصار على أبي السرايا بالكوفة فهرب عنها في ثمانمائة فارس، ومعه صاحبه الذي نصبه، وهو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين صاحب الترجمة.

ودخلها هرثمة منتصف محرم ابتداء سنة ٢٠٠ مائتين وأقام بها يوما، وولى عليها بعض قواده.

وقصد أبو السرايا القادسية وسار منها إلى السوس. ولقي بخوزستان مالا حمل من الأهواز فقسمه في أصحابه، وكان على الأهواز الحسن بن علي المأموني فخرج إلى أبي السرايا فهزمه الحسن وافترق أصحاب أبي السرايا، وجاء إلى منزله برأس عين زحلولا ومعه صاحبه الذي نصبه وهو محمد بن محمد صاحب الترجمة المذكورة وغلामه أبو الشوك، فظفر بهم حماد الكندغوش وجاء بهم إلى الحسن بن سهل في النهروان، فقتل أبا السرايا وبعث إلى المأمون برأسه وبمحمد بن محمد مع الرأس حيا فحبسه المأمون إلى أن مات قيل مسموما.

كان قيامه في رجب سنة تسع وتسعين ومائة، وبعد موت محمد بن محمد هذا استقل كل واحد من دعائه ودعا كل واحد منهم إلى نفسه، وسار على بن سعيد الحرشي إلى البصرة فملكها من يد زيد بن موسى بن جعفر الصادق وكان يسمى زيد النار لكثرة ما أحرق من دور العباسيين وشيعتهم، فاستأمن إليه زيد فأمنه على وأخذه، وبعث المعتصم الجيوش العباسية إلى مكة والمدينة واليمن لقتال من بها من العلويين، وكان إبراهيم بن موسى بن جعفر - لما ولاه أبو السرايا اليمن - سار إليها وبها إسحاق بن موسى بن عيسى، فهرب إسحاق إلى مكة واستولى إبراهيم على اليمن وكان يسمى الجزار لكثرة قتله، ثم بعث رجلا من بني عقيل بن أبي طالب إلى

مكة ليحج بالناس، وقد جاء لذلك أبو إسحاق في جماعة من القواد فيهم حمدويه بن على بن عيسى بن ماهان واليا على اليمن من قبل الحسن بن سهل فَحَمَّ العقيلي عن لقائهم، واعترض قافلة الكسوة والطيب، فأخذها ونهب أموال التجار، ودخل الحُجاج إلى مكة عراة، فبعث الجلودى من القواد فصحبهم وهزمهم، وأسر منهم وتنقذ كسوة الكعبة وطبيها وأموال التجار وضرب الأسرى كل واحد عشرة أسواط وأطلقهم.

وحج بالناس تلك السنة المعتصم العباسي قبل خلافته.

وفي سنة مائتين وجه المأمون رجاء بن أبي الضحاك ليشخص إليه على الرضا بن موسى الكاظم، فوصل إليه على الرضا، فولاه العهد من بعده ولقبه الرضا وضرب الدراهم باسمه وكتب له بالبيعة إلى الآفاق وزوجه بابنته أم الفضل، وصورة كتاب العهد قد ذكرناها فيما تقدم عند ذكر خلافة الصديق رضي الله تعالى عنه.

ثم قام من بعده محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق وكان داعية لمحمد ابن محمد المذكور قبله، فاستحكم أمره باليمن وكان له بها وقائع، ثم انتقل إلى خراسان فقتل بها بجرجان بالسم.

ثم قام محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى فخذلته أنصاره، فتواری بالمدينة إلى أن مات بها.

ثم قام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى في بلاد المغرب بعد أبيه واستفحل أمره، ثم بقي أولاده إلى الآن أمرهم قائم بالمغرب.

ثم قام القاسم الرسي بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط أيام المأمون أيضا، وكان القاسم بمصر، وبث دعائه في الأقطار، وحثوه على إظهار دعوته وكان مستترا بمصر عشر سنين، فاشتد طلب عبيد الله بن طاهر عامل المأمون على مصر له فانتقل إلى الحجاز. ولم يزل مختفيا إلى أن مات المأمون وولى أخوه المعتصم، فكثرت طلب المعتصم له فلم يتم أمره، فاستأوى جبلاً بالحجاز وهو المسمى بالرس وتحصن به هو وأولاده وسكن به إلى أن مات فنسب إليه وكان يقال له نجم آل الرسول، وكان قيامه سنة عشرين ومائتين، وتوفي سنة ست وأربعين ومائتين في أيام المتوكل بن المعتصم العباسي.

ثم قام صاحب الطالقان محمد بن القاسم بن علي بن عمر الأشرف بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكانت العامة تسميه الصوفي لاختياره لبس الصوف الأبيض، وكان له وقعات مع آل طاهر بن الحسين أيام المعتصم، وعظم أمره، ودخل بعدها إلى « نساء » وبقي فيها مستترا، ثم أخذ من نساء فحبس ثم هرب من الحبس، فاختلّفوا في أمره، فقليل رجع إلى الطالقان، وقيل إلى واسط فدرس المعتصم له سما فمات به.

ثم قام محمد بن جعفر بن يحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط. قيامه أيام الواثق بن المعتصم غلب على هراة السفلى وملكها، وأولاده بعده إلى سنة تسعين ومائتين.

ثم قام بعده محمد بن صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ظهر بسويقة قرية معروفة بقرب المدينة المنورة. وكان أبو الساج المتولى للموسم من قبل الخليفة المتوكل العباسي في جند كثيف، فخودع محمد بن صالح حتى لزمه أبو الساج فحبس بـ « سُرْمَنْ رَأَى » إلى أن مات في السجن، وفي زمانه انضوى أكثر الأشراف واستتروا وتوقفوا عن إظهار الدعوة.

ثم قام الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب غلب على طبرستان ونواحي الديلم وملكها أربعين سنة، وتوفي سنة خمسين ومائتين.

ثم قام محمد بن جعفر بن الحسن بن عمر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، كان قيامه ببلاد العجم في زمان المتوكل فأسره المتوكل أيضا.

وقيل: إن من الطالبين من قام غير هؤلاء في زمن المتوكل وظهر من ظهر واستتر من استتر وحبس من حبس، وقتل من قتل فله الأمر سبحانه.

ثم قام يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن علي زين العابدين، ظهر بالكوفة وأحبه الناس حباً شديداً كان قيامه في خلافة المستعين.

ثم قام الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن علي زين العابدين،

فأسره المستعين وحبسه ومات في الحبس .

ثم قام محمد بن جعفر بن الحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن ، قيامه في أيام المستعين بأرمينية وقيل بالكوفة فخودع ، وأسر فحبس ومات في الحبس سنة خمسين ومائتين .

ثم قام الكوكبي أحمد بن عيسى بن علي بن الحسين بن علي زين العابدين .

قيامه بالكوفة في خلافة المهدي سنة خمس وخمسين ومائتين .

ثم قام أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط .

قيامه في خلافة المعتمد ، وكانت له حروب مع ابن طولون ، ثم قتل على باب أسوان وحمل رأسه إلى المعتمد .

ثم قام الداعي محمد بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن ابن علي بن أبي طالب سنة سبع وسبعين ومائتين في خلافة المعتضد ، وله وقائع قتل في إحداها في بلاد جرجان .

ثم قام الناصر الأطروش الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر الأشرف بن علي زين العابدين .

قيامه في الجيل والديلم سنة أربع وثمانين ومائتين ، واستفحل أمره إلى أن مات في خلافة المقتدر سنة أربع وثلاثمائة .

ثم قام الداعي الحسن بن القاسم بن الحسن بن علي بن عبد الرحمن بن القاسم ابن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب .

كان قيامه بعد الناصر قبله في خلافة الراضي بالله العباسي .

وكان أولاد الناصر قد تملكوا بعد الناصر ، وقاتلوا الداعي المذكور ، فاستفحل أمر الداعي ، وملك طبرستان ونيسابور والري ، ثم توفوا ، فصفا له الأمر اثنتي عشرة سنة .

ثم قام ولده المهدي محمد بن الحسن بن القاسم بن الحسن ، وكان قيامه أيام المطيع العباسي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ، فملك الجيل والديلم ، ثم توفي سنة ستين وثلاثمائة .

ثم قام الثائر في الله جعفر بن محمد بن الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن

عمر الأشرف بن علي زين العابدين، واستفحل أمره إلى أن مات سنة سبع وستين وثلاثمائة.

ثم قام ولده أبو الحسين المهدي بن جعفر الثائر بن محمد بن الحسين في خلافة القادر بالله العباسي، ولم تطل أيامه ومات بالجدري.

ثم قام من بعده أخوه الحسين بن جعفر الثائر في أيام القادر بالله أيضا، واستقام أمره إلى أن مات.

ثم قام أحمد بن الحسين بن هارون بن الحسين بن محمد بن هارون بن محمد بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

قيامه في خلافة القادر أيضا سنة ثمانين وثلاثمائة وكانت له وقائع، ولم يزل على حالته في الحروب إلى أن ملك طبرستان، ثم مات سنة، إحدى عشرة وأربعمائة، وعمره تسع وسبعون سنة.

ثم قام من بعده أخوه الناطق بالحق أبو طالب يحيى بن الحسين بن هارون بن الحسين، قيامه في زمان القائم بأمر الله العباسي، واستقام له الأمر إلى أن توفي سنة أربع وعشرين وأربعمائة وعمره نيف وثمانون سنة.

ثم قام من بعده العقيقي علي بن جعفر بن الحسن بن عبد الله بن علي بن أحمد بن علي بن الحسين بن علي زين العابدين.

قيامه في خلافة القائم أيضا سنة أربع وأربعمائة.

ثم قام مانلديم سنديم أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن الحسن بن محمد ابن أحمد الأعرابي بن محمد بن الحسن بن علي بن عمر الأشرف بن علي زين العابدين وكان على منهاج سلفه.

كان قيامه بأنجاشية سنة سبع عشرة وأربعمائة. ووفاته في نيف وعشرين وأربعمائة.

ثم قام الناصر الحسين بن جعفر بن الحسين بن الحسن بن علي بن الناصر الأطروش، سبق ذكره في جهات الديلم.

ثم قام الموفق بالله الحسين بن إسماعيل بن زيد بن جعفر بن الحسن بن محمد بن جعفر بن عبد الرحمن ابن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

ثم قام ولده المرشد بالله يحيى بن الحسين بن إسماعيل على منهاج سلفه .
ثم قام أبو طالب يحيى بن أحمد بن الأمر أبي القاسم الحسين بن المؤيد بالله
أحمد بن الحسين بن هارون المتقدم ذكره .

قيامه سنة نيف وتسعين وأربعمائة في خلافة المستظهر العباسي بالجيل والديلم .
وكان حربه مع الباطنية .

وكان بنو العباس يظهرون المحبة إليه . وكانت وفاته سنة عشرين وخمسمائة .
والذين لم يعرف تاريخهم وزمان قيامهم : الإمام محمد بن أبي الأعرابي بن
محمد بن الحسن بن علي بن عمر الأشرف بن علي زين العابدين .
والإمام علي العراقي بن الحسين بن عيسى بن زيد بن زين العابدين .
والإمام أحمد بن عيسى بن زيد بن زين العابدين .
والإمام الهادي بن المهدي بن الحسن بن عبد الله بن علي بن الحسن بن علي بن
أبي طالب .

والإمام الراضي بالله ناصر بن الحسين بن زيد بن صالح بن محمد بن عبد الله بن
محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي
طالب .

والإمام زيد بن صالح بن الحسن بن زيد بن صالح بن الحسن بن زيد بن صالح
ابن عمر الناصر المذكور .

والإمام علي بن محسن بن أحمد بن عبيد الله بن الحسن السلق بن علي بن محمد
ابن الحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .
والإمام الحسين بن محمد بن علي بن جعفر بن عبيد الله بن السلق المذكور .
وأخوه الإمام الحسن بن محمد بن علي المذكور .

والذين لم تعرف كيفية اتصال أنسابهم الإمام أشرف بن زيد من ذرية زيد بن
الحسن بن علي بن أبي طالب ، مات سنة أربع وأربعين وخمسمائة .

والإمام السيد الأزرق . والإمام أبو الرها الكيتمي .
وهؤلاء جميعًا في جهات قزوین وطبرستان والجيل والديلم وجرجان والحجاز
والعراق وبالمغرب .

أما الذين ظهروا باليمن خاصة فأولهم: الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ابن القاسم بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم الغمر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. مولده بـ « الرس » سنة خمس وأربعين ومائتين.

قيامه في صعدة من بلاد اليمن سنة ثمانين ومائتين.
وقال في تاريخ الخزرجي: قام سنة أربع وثمانين، ودخل صنعاء في المحرم سنة ثمان وثمانين ومائتين في خلافة المعتضد العباسي.

فاجتمعت همدان وغيرها من قبائل العرب فأخرجوه من صنعاء ثم رجع إلى صعدة وأخذها.

وكان في زمنه قد تغلب على بن الفضل القرمطي الحميري - ينتهي نسبه إلى سبأ الأصغر - على اليمن في سنة ثلاث وستين ومائتين، فسار على المذكور بسيرة شنيعة، وأعلن بالكفر والفجور، وقهر العالم، وأمرهم بارتكاب كل محرم ومحذور.

وكان عنوان كتبه إذا أرسل إلى أحد من الملوك: من باسط الأرض وداحيها ومزلزل الجبال ومرسيها على بن الفضل إلى عبده فلان.

وكان مؤذنه يؤذن في حضرته: وأشهد أن على بن الفضل رسول الله.

ومن شعره ما أنشده الخبيث على منبر جامع صنعاء قوله [من المتقارب]

خُذِي الدَّفَّ يَا هَذِهِ واضربي	وَعَنَى هَزَارِيكَ ثُمَّ اطربي
تَوَلَّى نَبِيٌّ بَنِي هَاشِمٍ	وَهَذَا نَبِيٌّ بَنِي يَغْرُبِ
لِكُلِّ نَبِيٍّ مَضَى شِرْعَةٌ	وَهَاتَانِ شِرْعَةٌ هَذَا النَّبِيِّ
فَقَدْ حَطَّ عَنَّا فُرُوضُ الصَّلَاةِ	وَفَرَضَ الصَّيَامَ وَلَمْ يُغَقِّبِ
إِذَا النَّاسُ صَلُّوا فَلَا تَنْهَضِي	وَإِنْ صَوَّمُوا فَكُلِّي واشربي
وَلَا تَطْلُبِي السَّعْيَ عِنْدَ الصُّفَا	وَلَا زُورَةَ الْقَبْرِ فِي يَثْرِبِ

وهذا كاف في بيان مزيد كفره، فحاربه الإمام الهادي المذكور إلى أن مات

بـ « صعدة » مسموماً سنة ثمان وتسعين ومائتين في خلافة المقتدر بالله العباسي.

ثم قام ولده المرتضى محمد بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم في بلاد صعدة في مكان أبيه زمن المقتدر العباسي أيضاً فأقام سنة واحدة، ثم تنحى عن

الإمامة، فطلب الفقهاء الزيدية أخاه أحمد بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم طلبوه من الرس، ثم توفي محمد سنة عشر وثلاثمائة وعمره اثنان وثلاثون سنة. ثم قام أخوه الناصر لدين الله أحمد بن الهادي يحيى بعد أن دعاه فقهاء الزيدية من الرس كما ذكر.

وكان قيامه في خلافة المقتدر أيضا سنة إحدى وثلاثمائة.

ووفاته فيها بـ « صعدة » سنة خمس عشرة وثلاثمائة.

ثم قام ولده المنصور يحيى بن أحمد الناصر بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم، وكان مقره صعدة إلى أن توفي سنة ست وسبعين وثلاثمائة. ثم قام أخوه المختار القاسم بن أحمد الناصر بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم.

كان قيامه في صعدة وقتله في « زبيد » .

ثم قام ولده المنتصر محمد بن القاسم بن أحمد الناصر، وأكثر وقائع مع همدان، وهي قبيلة كبيرة باليمن.

ثم قام الداعي يوسف بن المنصور يحيى بن أحمد الناصر بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم، فعانده فقهاء مذهبه وأرسلوا الإمام القاسم العياني وتعارضوا. كان قيامه سنة ثمان وستين وثلاثمائة في خلافة الطائع لله العباسي. مدته خمس وثلاثون سنة.

ثم قام المنصور العياني بن علي بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن إبراهيم طباطبا.

ولما كان في « بيشة » من بلاد ربيعة فراسله فقهاء الزيدية، فطلع إلى صعدة ثم تقدم إلى صنعاء فضبطها.

وتعاقد الإمام يوسف الداعي في مدة العياني.

وكان قيام العياني سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، ووفاته سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وقبره في بلدة يقال لها « العيَّان » في طريق صعدة من صنعاء.

ثم قام ولده الحسين بن القاسم العياني، وكان له وقائع مع همدان.

وكان قيامه سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة.

وقتل في ريدة من البون سنة أربع وأربعمئة .
 وخلف الحسين المذكور ابن أخيه ويسمى الفاضل ، وهو القاسم بن جعفر بن
 القاسم بن علي العياني ، وكان بينه وبين الصليحي وقعات ، ولم يكن إماماً .
 ثم قام الإمام أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين
 ابن القاسم بن إبراهيم طباطبا .

وكان قيامه في قرية « الناعط » فوق « البون » ودخل صنعاء .
 قيامه سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة ، ومات بقرية « الناعط » .
 ثم قام الناصر الديلمي ، وهو : أبو الفتح الناصر بن الحسن بن محمد بن عيسى
 ابن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن بن
 علي بن أبي طالب ، دعا في الديلم ثم خرج إلى أرض اليمن فاستولى على كثير من
 البلاد مذحج وهمدان وخولان ، وكان وصوله من الديلم في سني الثلاثين
 وأربعمئة ، وكانت الحرب تدور بينه وبين الصليحي ، فقتله الصليحي بنجد الحاج .
 وقبره بـ « ردمان » من بلاد « عنس » قبل سنة أربع وأربعين وأربعمئة .
 ثم قام علي بن زيد بن إبراهيم المليح بن المتصر بن محمد المختار قاسم بن
 الناصر بن الهادي يحيى .

وتقدم إلى « شطب » لحرب بني الصليحي ، فقتل في « شطب » سنة إحدى
 وثلاثين وخمسائة .

ثم قام أحمد بن سليمان بن محمد بن المطهر بن علي بن الناصر بن الهادي
 يحيى ، وولى صعدة ونجران والجوف وصنعاء ، وقصد زييد فرجع بغير حصول
 مرامه في سنة ثلاث وخمسين وخمسائة .

مات بحيدان من مغارب صعدة وعمره ست وستون سنة .
 ثم قام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان بن حمزة بن علي بن حمزة بن
 أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن القاسم بن
 إبراهيم طباطبا فملك صعدة وتقدم إلى صنعاء ، وكان يقف في كوكبان بعد
 ما أخرجه من صنعاء ، ثم خلطوا عليه فمات فيها .

قيامه سنة أربع وتسعين وخمسائة ، ووفاته سنة أربع عشرة وستمئة .

ثم قام الداعي يحيى بن المحسن بن محفوظ بن محمد بن يحيى بن يحيى بن الناصر بن الحسن بن عبد الله بن المنتصر محمد بن المختار قاسم بن الناصر أحمد ابن الهادي، قام في بلاد خولان وصعدة.

وفي مدينة صعدة ولد المنصور محمد بن المنصور، فحارب الداعي، مات سنة ست وثلاثين وستمائة.

ثم قام المهدي أحمد بن الحسين بن القاسم بن عبد الله بن القاسم بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن القاسم بن إبراهيم طباطبا، قام في حصن «ثلا» فحاربه ولده المنصور، ثم اتفقا، ثم تعاديا فتحاربا فقتل الإمام.

وكان قيامه في صفر سنة ست وخمسين وستمائة، وكانت هذه السنة هي انتهاء دولة بني العباس بالعراق؛ لأنها هي السنة التي قتل التتار فيها الخليفة المستعصم العباسي كما قدمت ذلك مستوفى في بابهم.

ثم قام المنصور بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى السابق ذكره، فقام من هجرة قطابر وملك مغارب صعدة.

وكان بينه وبين أولاد المنصور محاربات. فقتل سنة ست وخمسين وستمائة.

ثم قام المهدي بن إبراهيم بن تاج الدين أحمد بن بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن يحيى. قيامه سنة سبعين وستمائة.

أسره فحبسه الملك المظفر الغساني في سنة أربع وسبعين وستمائة، ومات في الحبس سنة ثمانين وستمائة.

ثم قام المتوكل المطهر بن يحيى بن المرتضى بن القاسم بن المطهر بن محمد بن المطهر بن علي بن أحمد بن الهادي.

قيامه سنة ست وسبعين. ومات سنة سبع وثمانين وستمائة.

ثم قام ولده المهدي بن محمد بن محمد بن المطهر بن يحيى بن المرتضى بن القاسم.

قيامه سنة إحدى وسبعمائة. مات سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

ثم قام السراجي يحيى بن أحمد بن محمد بن عبيد الله بن سراج الدين الحسن بن محمد بن عبد الله بن سراج الدين الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي

ابن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

ثم قام المؤيد يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم بن يوسف بن علي بن إبراهيم ابن محمد بن أحمد بن إدريس بن جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى الكاظم بن جعفر بن محمد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. قيامه سنة تسع وعشرين وسبعمائة. مات سنة تسع وستين وسبعمائة. عمره ثمانون سنة.

ثم قام بعده علي بن صلاح بن إبراهيم بن تاج الدين أحمد بن بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن يحيى ثم قام بعده الواثق المطهر بن محمد بن المطهر بن يحيى ابن المرتضى بن القاسم بن المطهر بن محمد بن المطهر من أولاد سابق الذكر. ثم قام أحمد بن علي بن مدافع بن محمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين الديلمي. سبق ذكر نسبه.

ثم قام المهدي علي بن محمد بن علي بن يحيى بن منصور بن مفضل بن الحجاج ابن عبد الله بن علي بن يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل ابن إبراهيم الغمر بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب. قيامه سنة خمس وخمسين وسبعمائة. وفاته سنة أربع وسبعين وسبعمائة. عمره تسع وستون سنة.

ثم قام من بعده ولده الناصر صلاح الدين بن المهدي بن علي بن محمد بن علي. قيامه سنة أربع وسبعين وسبعمائة. وفاته سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة. ثم قام من بعده المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى بن أحمد بن المرتضى بن مفضل بن الحجاج.

قيامه سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة. وفاته سنة أربعين وثمانمائة. ثم قام من بعده الهادي علي بن المؤيد بن جبريل بن المؤيد بن أحمد بن يحيى بن أحمد بن يحيى بن يحيى سنة ست وتسعين وسبعمائة. وفاته سنة ست وثمانين وثمانمائة.

ثم قام من بعده المطهر بن محمد بن حمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن

ابن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل .
ثم قام من بعده صلاح بن علي بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن جعفر بن
محمد بن الحسن بن جعفر بن الحسين بن أحمد بن يحيى بن عبد الله بن يحيى بن
المنصور بن أحمد بن الناصر بن الهادي .

ثم قام الناصر بن محمد بن الناصر بن أحمد بن المطهر بن يحيى بن المرتضى بن
المطهر بن القاسم بن المطهر بن محمد بن المطهر بن علي بن أحمد بن الهادي .
ثم قام الهادي عز الدين بن الحسن بن علي بن المؤيد بن جبريل بن المؤيد بن
أحمد بن يحيى بن أحمد بن يحيى بن يحيى بن الناصر بن الحسن بن عبد الله بن
محمد بن القاسم بن الناصر بن أحمد بن الهادي يحيى .

قيامه سنة ثمانين وثمانمائة . وفاته سنة تسع وعشرين وتسعمائة . عمره سبع
وستون سنة .

ثم قام ولده مجد الدين بن الحسن بن الحسن بن عز الدين بن الحسن بن علي بن
المؤيد . قيامه سنة تسع وعشرين وتسعمائة . وفاته سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة .
ثم قام الوشلي محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن أحمد بن يحيى بن
محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سراج الدين الحسن بن محمد بن عبد الله
ابن الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد
ابن الحسن بن علي بن أبي طالب .

ثم كانت دعوة الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين ابن الإمام المهدي أحمد
ابن يحيى بن المرتضى بن أحمد بن المرتضى بن المفضل بن الحجاج بن علي بن
يحيى بن القاسم بن يوسف الداعي بن يحيى بن أحمد بن الهادي يحيى بن الحسين
بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي
طالب - رضي الله تعالى عنهم - حادي عشر جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة
وتسعمائة ، وكان أول ظهوره بجهات المغرب من جهات صنعاء ، وما ساعدته القبائل
لقوة سلطان اليمن إذ ذاك عامر بن عبد الوهاب .

فلما انقضت دولته باستيلاء الشراكسة ، وتملكهم أرض اليمن كانت بصنعاء طائفة
من الشراكسة فكاتب أهل صنعاء الإمام شرف الدين المذكور ، وتكفلوا له بإدراك

ذلك سنة أربع وعشرين وتسعمائة.

وفي شوال قصد صنعاء فلما وصل إليها مال إليه أهلها، وأخرج من كان فيها من الجند المصري بالأمان، ودخل صنعاء، ودانت له البلاد إلى أن كانت وفاته سنة خمس وستين وتسعمائة في دولة السلطان سليمان خان بن سليم خان.

ثم قام الهادي أحمد بن عز الدين بن الحسن بن عز الدين بن الحسن بن علي بن المؤيد. قيامه سنة ثمان وخمسين وتسعمائة، ووفاته سنة سبع وثمانين وتسعمائة. ثم قام الناصر الحسن بن علي بن داود بن الحسن بن علي بن المؤيد. قيامه سنة ست وثمانين وتسعمائة.

ثم قبض عليه الوزير حسن باشا سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة وأرسله إلى الأبواب العالية سنة أربع وتسعين وتسعمائة.

ثم قام المتوكل عبد الله بن علي بن الحسين بن عز الدين بن الحسن بن علي بن المؤيد. قيامه سنة أربع وتسعين وتسعمائة. وفاته سنة سبع عشرة وألف.

ثم قام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن الرشيد بن أحمد بن الحسين بن علي بن يحيى بن محمد بن يوسف الأشل بن القاسم بن محمد بن يوسف الأكبر بن المنصور بن يحيى بن الناصر بن أحمد بن الهادي إلى الحق يحيى ابن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

نشأ منشأ آبائه الأئمة حتى بذ بعلمه وبهر بجودة فهمه، وصار في أيام طلبه يشار إليه، مقصورة خلال الخلافة عليه. كانت دعوته في صفر الخير سنة ست وألف. وله وقائع في أيامه مشهورة، ومواطن معروفة مأثورة. كان آية في العلوم، ومعجزة في المنطوق والمفهوم.

له التصانيف المشهورة، والنظم والنثر. وكان محط رحال الأفاضل، ومقصد الأكابر من كل قنة وساحل.

ولم يزل قائماً بأعباء الخلافة حتى توفاه الله تعالى في شهر ربيع الأول عام تسع وعشرين وألف.

ثم قام من بعده ولده الإمام العظيم المؤيد بالله محمد بن أمير المؤمنين المنصور

بالله القاسم بن محمد، وظهرت فضائله في البلاد، وأذعن لفضله الحاضر والباد، وأوتى من الإحاطة بالعلوم، وصدق الفراسة، وتنوير القلب، وصفاء الخاطر، ما لم يؤت غيره، وأقبلت عليه الفتوحات من كل جهة، وقام بنصرته أخواه السيدان الإمامان الحسن والحسين وأخوهما شمس الإسلام أبو طالب ابن الإمام المنصور. وفي سنة خمس وأربعين وألف استولى الإمام المؤيد المذكور على جميع إقليم اليمن ما عدا زيد والمخا، وذلك أن الباشا قانصوه لما توجه إلى اليمن عام تسع وثلاثين بعد أن قتل الشريف أحمد بن عبد المطلب وولي مسعود بن إدريس صار كلما دخل قرية ظلم أهلها ونهبهم أرسل إلى عابدين باشا، وخنقه واستولى على خزائنه، وعساكره، ونهب البلد، ونهب من يرد إليه من البنادر، وأرسل أغربة في البحر يأخذون من ظفروا به، واغتصب أماكن مأثورة وعمرها بزخارف في الصورة، فأكت أمواله إلى يد العدى ﴿وَلَا يَظِلُّ رُكْبَكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. والتقى عسكره مع عسكر الإمام المؤيد محمد بن القاسم صاحب الترجمة، وعليهم أخوه الإمام الحسين بن القاسم، وكنوا له ثم هجموا عليهم، وهم غارون، فقتلوا من عسكر قانصوه أكثرهم، ولم ينج منهم إلا القليل، وتحصن هو ومن بقي بزيد، فتنزل عليه أخوه الآخر الإمام الحسن بعساكر كثيرة، وحاصروا زيد، وأنفق قانصوه ما حازه من الأموال على عسكره، ثم صاروا يهددونه، ويعزرونه لضيق أرزاقهم، فتعب لذلك وكاتب الإمام الحسن على أن يصل إليه آمنة، فأرسل الحسن له بالأمان، فركب هو وخواصه وأظهر أنه يريد زيارة بعض الأولياء وهرب إلى محطة الإمام الحسن فأكرمه وجهزه إلى مكة. فرجع راضيا من الغنيمة بالإياب لا يملك إلا ما عليه من الثياب، فوصل إليها في دولة مولانا المرحوم الشريف زيد بن محسن ومعه من أتباعه دون العشرين، ونزل بحوش السلطان في الكوشك المطل على البركة المعروفة ببركة الشامي، فحصل من أتباعه نوع تعدد إلى بعض الرعايا فألزمه مولانا الشريف زيد بالرحيل من يومه، وأحضر له الرحلة، فلم تغرب عليه شمس ذلك اليوم في مكة، ولما تحقق عسكره فراه عنهم بتلك الحيلة أقاموا عليهم أميرًا منهم يقال له مصطفى فضبط زيد، واستمر محاصرا فوق ستين متظرًا المدد يأتيه من مصر فلم يصل إليه شيء، ولما سنم طلب الأمان فأعطاه الإمام الأمان وجهزه بعشرين ألف قرش،

فخرج إلى مكة سنة تسع وأربعين وألف ومعه المحمل اليماني السلطاني، ووضع بالقبة المبنية في محل سقاية العباس بالمسجد الحرام.

قلت: قد رأيته كثيراً ملقى في القبة المذكورة عام سبع وستين وألف، وهو أكبر من المحمل المصري شكلاً. ومن عامئذ استبدت الأئمة الزيدية بالممالك اليمنية، وقضت ما في نفسها من الأمنية، فهم حتى اليوم ولايتها حزناً وسهلاً، ورؤساؤها فتى وكهلاً. وأخرجوا جميع الأروام منها، وكفوا أكف المتغلبين عنها، بعد أن قتلوهم القتل الذريع. وتركوهم بين سليب وصريع.

وفي سنة ثمان وأربعين كانت وفاة أخيه السيد الحسن ابن الإمام القاسم وهو والد أحمد بن الحسن.

وكان أخوه الإمام محمد المؤيد صاحب الترجمة يقدمه على العساكر في الحروب كلها رحمه الله، واستمر الإمام المؤيد إلى أن حانت وفاته وانقضت أوقاته في سبع عشرى رجب الفرد سنة أربع وخمسين وألف.

ثم قام من بعده أخوه الإمام الشهير المتوكل على الله إسماعيل ابن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن الرشيد بن أحمد.

وقد تقدم بقية نسبه إلى علي بن أبي طالب في ترجمة والده المنصور بالله القاسم. كانت له الكرامات الظاهرة، والمفاخر السائرة، مع الإحاطة بجميع العلوم. وأقبلت الفتوحات إليه من كل أوب، وجاءت إليه الوفود من كل أرض وصوب. أرخ ابتداء دعوته السيد ناصر بن عبد الحفيظ بن عبد الله المهلا فقال [من الخفيف]

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ عَزَّ تَارِيخُ دَعْوَةِ مَنْ كَرِيمٍ
آيَةً يُعْرِفُ التَّوَكُّلُ مِنْهَا مَعَهُ الْعِزُّ لِلْإِمَامِ الْكَرِيمِ
وأرخه أيضاً نثرًا فجاء التاريخ «توكلت على الله وحده أبداً».

وفي سنة ست وخمسين: جهز ابن أخيه أحمد بن الحسن إلى حضرموت، فوصل إلى الجوف، واستولى عليه الخوف، فرجع مكسوراً، وفي سنة ثمان وخمسين: استولى بدر بن عبد الله الكثيري على حضرموت وقبض على عمه السلطان بدر بن علي، ومسيبه أنه ظلم وتعدى الحدود، فأشار بعض السادة على بدر ابن عبد الله بالقبض على عمه، فهجم عليه ليلاً وحبسه هو وأولاده.

وفي سنة خمس وستين جهز الإمام إسماعيل ابن أخيه الإمام أحمد بن الحسن على حضرموت ونواحيها لكونهم لم يخطبوا له، فالتقى هو والأمير حسين الرصاص لكون بلده أقرب البلدان إلى دولة الإمام إسماعيل وحصل منهم قتال، فلما عجز الإمام أحمد بن الحسن أرسل إلى قبيلة يافع - وهم قبائل كثيرون - بالأموال خفية وطلب منهم أن يكونوا معه على الرصاص ووعدهم بأشياء كثيرة فاعتروا بكلامه، وتجهزوا على الرصاص، وأتوه على غرة، وبقي الرصاص بين الإمام أحمد، وبين قبائل يافع، فأبلى بلاء شديدا حتى قتل شهيدا وتولى أخوه، وأرسل أحمد بن الحسن يرهبه، ويرغبه، والتزم له بجميع ما يطلبه، فطلب أشياء كثيرة فوفى له الإمام أحمد بها وملك البلاد.

وقبيلة الرصاص مشهورة بالشجاعة والكرم والصدق ولذلك كانوا مجلدين محترمين، واستولى الزيدية على غالب حضرموت. ثم في سنة سبعين استولى على حضرموت كلها وأمرهم أن يزيدوا في الأذان « حي على خير العمل » وترك الترضي عن الشيخين، ومنع الدفوف واليراع في راتب السقاف. وانتهت دولة آل كثير من تلك الديار وقد انتهى صعود شرف آل كثير بالسلطان عبد الله بن عمر، وفي المثل: إذا تم شيء بدأ نقصه؛ فإنه لما خلع نفسه لعبادة ربه عن الملك الفاني، وصار إبراهيم بن أدهم ثاني، وتولى أخوه بدر الدين بن عمر، وفي آخر دولته ظلم وطفى، فهجم عليه ابن أخيه بدر الدين بن عبد الله وحبسه فدانت له العباد، وعمرت به البلاد إلى أن ظلم بالعدوان وصادر السادة والأعيان، ففوقوا إليه سهام الدعاء، فقدر الله أن كتب عمه المحبوس بدر بن عمر وهو بالحبس إلى الإمام إسماعيل وهون له أمر حضرموت، فكتب الإمام إسماعيل إلى السلطان بدر بن عبد الله بإخراج عمه بدر بن عمر من الحبس فأخرجه، ثم اتصل بالإمام وطلب منه التجهيز على حضرموت وتكفل له بأشياء وساعده على ذلك الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن العمودي شيخ العموديين وكان والده على أكثر وادي دوعن، فكاتبوا مشايخ العرب وأرسلوا لهم بالأموال، وصار إليه أحمد بن الحسن، فلما التقى الجيشان، انكسر جيش السلطان بدر، ولم يقاتل معه إلا خواصه، ثم انهزم منكسرا وولى مديرا إلى جبل أخواله فطلب الأمان لنفسه فأعطيه. ولما لم يطب لأحمد بن الحسن المقام بحضرموت أقام

بها بدر بن عمر الكثيري ورجع إلى عمه الإمام إسماعيل صاحب الترجمة. ثم لم يزل الإمام إسماعيل قائماً بأعباء الإمامة الكبرى إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته سنة ٨٧ سبيع وثمانين.

ثم قام بعده ابن أخيه الإمام الشهير أحمد بن الحسن ابن الإمام القاسم ولقب المهدي لدين الله، فقام بأمر الخلافة أحسن قيام. وانتظم به الأمر أتم نظام. وكانت حضرته محط رحال العلماء الأعلام. وفي أثناء دعوته دعا ابن عمه مولانا علم الإسلام وإمام علماء آل الكرام القاسم ابن الإمام المؤيد بالله، وخطب له على سابر الشرفين والأهنوم وشهارة وظليمة ولحج وأكثر التهائم، وبعد أمور كثيرة يطول شرحها حصل الاتفاق على إمامة المهدي لدين الله هذا.

وهو - أيده الله - من أعيان العترة كرماً وشجاعة وتفقداً للمساكين وتعظيماً للعلماء، ومستقره شهارة المحروسة، واستمر إلى أن كانت وفاته في شهر جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعين وألف.

ثم قام من بعده الإمام العظيم المؤيد بالله رب العالمين محمد الملقب بالعزى ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله إسماعيل بن المنصور بالله القاسم بن محمد بن على ابن محمد بن الرشيد، اتفق على خلافته رأى علماء العصر، وفضلاء الدهر، وغمر الناس برد ظل عدله، وسار سيرة الأئمة الهادين، وأمر بإحياء العلوم والمدارس، مقرباً للعلماء، متعهداً لأحوال الفضلاء، مؤدياً لحقوق الضعفاء. متبعاً في أمره ونهيه لكتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ، وقام من إخوته وبني عمه بنصرته عظماء كالإمام القاسم ابن الإمام المؤيد بالله، وكأخويه الحسن ابن الإمام المتوكل وعلى ابن الإمام المتوكل، ومن بني عمه السيدان العظيمان جمال الإسلام محمد ابن الإمام أحمد المهدي وشرف الإسلام الحسين ابن الإمام المهدي أيدهما الله تعالى، واستمر على سرير الخلافة، وما استطاع أحد خلافة، إلى أن ورد إلينا خبر وفاته أواسط سنة ١٠٩٧ سبيع وتسعين وألف.

ثم كثر الشجار في كل ناحية، وطلبها عدة أشخاص في أماكن متناحية، ووقعت حروب وأهوال، وفنيت أموال وأبطال، حتى استقر عمود رحاها، وأسفر بدر ديجور رجاها، عن جمال وجودها الأجد أمير المؤمنين الناصر لدين الله محمد بن أحمد،

فهو الآن الخليفة بهذا الزمن ، في هذا القطر الشريف أعني قطر اليمن ﴿ إِنَّكَ الْأَرْضَ
 لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨] : [من
 مجزوء الرجز]

سِلْسَلَةٌ مِنْ ذَهَبٍ مَنُوطَةٌ بِالشُّهُبِ
 أَكْرَمَ بِهَا سِلْسَلَةٌ بَيْنَ وَصِيِّ وَنَبِيِّ
 قَدْ صَانَهَا رَبُّ السَّمَاءِ مِنْ شَائِبَاتِ النَّسَبِ

وصلى الله على من لا نبي بعده خاتم النبيين ، وآله الطيبين الطاهرين ، وصحبه
 الهداة المهتدين .

* * *

الباب الثالث

من خاتمة الخير

في ذكر من ولي مكة المشرفة من آل أبي طالب إلى يوم تاريخه
ولمع من أخبارهم، ونوادير حوادث أيامهم

مكة^(١) زادها الله شرفاً، أشهر من أن تعرف أو أن يصفها واصف، إلا أنها انقرض
سكانها من قريش بعد المائة الثانية بالفتن الواقعة بالحجاز من العلوية مرة بعد
أخرى، فأقترت من قريش ولم يبق بها إلا أتباع بني حسن أخلاط من الناس،
ومعظمهم موالي سود من الحبشة والزيلع.

وكان أول من وليها بعد الفتح المحمدي عتاب بن أسيد باستخلاف محمد ﷺ
بعد الفتح^(٢)، حين عزمه إلى غزوة حنين عام ثمان من الهجرة. والخلفاء الأربعة،
ثم خلفاء بني أمية وعمالهم، ثم خلفاء بني العباس، وتعداد عمالهم فرداً فرداً مبسوط
في التواريخ لا حاجة بنا إليه، وكان في خلال ذلك يتغلب بعض الطالبيين والعلويين
عليها.

فأول من وليها منهم بالتغلب محمد بن الحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن
أبي طالب عاملاً عليها، ومؤمراً من جهة محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية ابن
عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، فإنه لما
تغلب على المدينة الشريفة سنة خمس وأربعين ومائة في دولة المنصور العباسي، أمر

(١) اختلف في معنى تسميتها مكة فقليل: لأنها تمك الجبارين أي تذهب نخوتهم وقيل لأنها تمك
الفاجر عنها أي تخرجه، وقيل كانها تجهد أهلها من قولهم تمككت العظم إذا أخرجت
مخه، وقيل لأنها تجذب الناس إليها من قولهم امتك القصيل ما في ضرع أمه إذا لم يبق فيه
شيئا، وقيل لقلّة ماها .

وقد ذكر لمكة أسماء كثيرة منها: العروض والسيل ومخرج صدق والبنية وأم رحم وأم
راحم وأم زحم وأم القرى والبلد والبلدة والبلد الأمين والبلد الحرام والرتاج والناسة والناشة
وحرم الله تعالى وبلد الله تعالى وطيبة والقادس والمقدسة وقرية النمل ونقرة الغراب وقيل في
أسمائها غير ذلك .

ينظر: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (١/٤٧، ٤٨).

(٢) ينظر: الإصابة (٤/٣٥٦).

على مكة محمد بن الحسن هذا وسيره إليها.

فخرج إليه السري بن عبد الله بن الحارث بن العباس بن عبد المطلب أمير مكة من جهة المنصور، فتحارباً بأذاخر فهزم السري، ودخل محمد مكة، فأقام بها سيراً، فأثابه كتاب محمد النفس الزكية يخبره بمسير عيسى بن موسى لمحاربتة، ويأمره بالمسير إليه، فسار محمد بن الحسن إليه من مكة، هو والقاسم بن إسحاق فبلغه وهو سائر بنواحي قيد قتل النفس الزكية فهرب هو وأصحابه وتفرقوا، فلحق محمد بن الحسن بإبراهيم بن عبد الله المحض حتى قتل إبراهيم. ذكر هذا ابن الأثير^(١)، ورجع السري إلى ولاية مكة.

ثم وليها كذلك بالتغلب سنة ١٦٩ تسع وستين ومائة في دولة الهادي بن الرشيد الحسين بن علي بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط. وقد تقدم خبره في الباب قبل هذا عند ذكر الدعاة.

ثم وليها كذلك بالتغلب الحسين بن الحسن الأفطس بن علي الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب - وهو المعروف بالأفطس - وذلك في خلافة المأمون سنة ١٩٩ تسع وتسعين ومائة، وسببه أن أبا السرايا السري بن منصور الشيباني داعية ابن طباطبا لما تغلب على العراق ولي مكة الحسين بن الحسن الأفطس هذا، فسار إلى أن وصل وادي سرف المعروف في وقتنا اليوم بالنوارية على نصف مرحلة من مكة فتوقف عن الدخول إلى مكة خشية من أميرها من جهة المأمون، وهو داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فلما بلغ داود توجيه أبي السرايا للحسين الأفطس فارق مكة هو ومن بها من شيعة بني العباس.

فلما بلغ الحسين خروج داود دخلها ليلة عرفة فطاف وسعى، ثم مشى إلى عرفة فوقف ليلاً، ثم دفع إلى المزدلفة فصلى بالناس الصبح، ثم دفع إلى منى، فلما انقضى الحج عاد إلى مكة.

فلما كان مستهل محرم الحرام افتتاح سنة ٢٠٠ مائتين نزع الحسين المذكور كسوة

(١) ينظر: الكامل لابن الأثير (٥/٥٤٢).

الكعبة التى كانت عليها من قبل المأمون ثم كساها كسوتين أنفذهما معه أبو السرايا من قز إحداهما صفراء والأخرى بيضاء، ثم عمد الأفطس إلى خزانة الكعبة، فأخذ جميع ما فيها من الأموال فقسمها مع كسوة الكعبة على أصحابه، وهرب الناس من مكة؛ لأنه كان يأخذ أموالهم ويزعم أنها ودائع لبنى العباس عندهم. ولما هرب الناس هدم دورهم، فكرهه الناس لظلمه، وطغى أصحابه وبغوا، وقلعوا شبايك البيوت الحديد التى على المسجد وباعوها حتى قلعوا شبايك زمزم، ولم يزل كذلك على ظلمه إلى أن بلغه قتل مرسله أبى السرايا سنة مائتين، فلما علم بذلك ورأى الناس قد تغيروا عليه لما فعله معهم من القبيح واستباحة الأموال، جاء هو وأصحابه إلى محمد بن جعفر الصادق الملقب بالديباجة لجمال وجهه وسألوه المبايعه له بالخلافة فكره ذلك، فاستعان الأفطس عليه بولده على بن محمد بن جعفر الصادق ولم يزالوا به حتى بايعوه بالخلافة، وذلك فى ربيع الأول سنة مائتين، وجمعوا الناس على بيعة محمد طوعاً وكرهاً، وبقي أشهراً وليس له من الأمر شيء، وإنما ذلك للأفطس ولابنه على بن محمد وهما على أقبح سيرة مع الناس، ووثب الأفطس على امرأة جميلة فانتزعها قهراً من زوجها، وعلى بن محمد أخذ ابن قاضى مكة وحجزه عنده.

فلما رأى الناس ذلك اجتمعوا بالمسجد الحرام، وقالوا لمحمد بن جعفر إن لم تحضر المرأة والصبى خلعتك، فأغلق بابه خوفاً من العامة وكلمهم من الشباك، ثم طلب الأمان ليخرج يخلصهما، فأعطى فخرج وخلص الصبى من ابنه على، والمرأة من الأفطس. كذا ذكره الأزرقى.

قلت: عندى فى صحة هذين الأخذين نظر، خصوصاً أخذ ابن الديباجة ابن قاضى مكة، فالنفس أبته كل الإباء، والله أعلم.

فلم تكن إلا مدة يسيرة حتى قدم إسحاق بن موسى العباسى من اليمن فاراً من إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، فنزل بالمشاش، واجتمع إليه جماعة من أهل مكة هربوا من العلويين، واجتمع الطالبيون إلى محمد بن جعفر المذكور، وجمع الناس من الأعراب وغيرهم وحفروا خندقاً وقابلهم إسحاق، ثم كره القتال، فسار إلى نحو العراق فلقيه جند أنفذهم هرثمة بن أعين قائد المأمون، وكان فيهم

الجلودى وورقاء بن جميل فقالا لإسحاق: ارجع معنا ونحن نكفيك القتال، فرجع معهما، ولقيهم محمد بن جعفر والطالبون ببئر ميمونة، وقد انضم إلى محمد غوغاء مكة وسواد البادية، فلما التقى الفريقان قتل جماعة ثم تحاجزوا ثم التقوا من الغد، فانهزم محمد والطالبون ومن معهم، ثم طلب محمد الأمان من الجلودى وإلا أجله ثلاثة أيام، فآمنه وأجله، ثم خرج من مكة، ودخل الجلودى مكة بالجيش فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة أعنى سنة ٢٠٠ مائتين.

وتوجه الديباجة إلى بلاد جهينة فجمع منها جيشًا وسار إلى المدينة، وقاتل واليها من جهة المأمون وهو هارون بن المسيب، فانهزم الديباجة أيضًا، وفقت عينه بنشابة، وقتل من عسكره خلق كثير، ثم عاد إلى مكة وطلب الأمان من الجلودى، فآمنه فدخل مكة فى أواخر ذى الحجة من السنة المذكورة فأصعده الجلودى المنبر، والجلودى فوقه بمرقأتين عليه قباء أسود، فاعتذر محمد بأنه إنما وافق على المبايعة؛ لأنه بلغه موت المأمون، ثم قدم على المأمون بـ « مرو » واعتذر واستعفى، فقبل عذره وعفا عنه وأكرمه، فلم يلبث قليلاً حتى مات فجأةً بجرجان، فصلى عليه المأمون، ونزل فى لحده وقال: هذه رحم قطعت مذ سنين.

وكان موته فى شعبان سنة ثلاث ومائتين. وسبب موته على ما قيل أنه جامع واقتصد ودخل الحمام فى يوم واحد.

وفى موسم سنة ٢٠٢ اثنتين ومائتين وليها كذلك بالتغلب إبراهيم بن موسى الكاظم ابن جعفر، جاء إليها من اليمن وعليها إسحاق بن موسى بن عيسى العباسى، فلما سمع بوصوله خندق عليها وبنى سورًا على الجبال دائرًا بالبنيان.

وكان فى السنة التى قبلها سنة إحدى ومائتين وصل إلى مكة صنم من ذهب على صورة إنسان لملك من ملوك الهند، أرسل به إلى الكعبة، وعلى رأس الصنم تاج مكلل بالجواهر والياقوت والزبرجد، والصنم جالس على سرير من فضة وعلى السرير أنواع الفرش من الحرير والديباج، فوضع السرير عليه الصنم فى وسط المسعى ثلاثة أيام ومعه معرّف لمن كان له هذا الصنم وأنه أسلم وأرسل به هدية للكعبة فاحمدوا الله تعالى أن هداه للإسلام. ثم أخذ أمير مكة العباسى المذكور ذلك الصنم من الحجة قهراً وضربه دنانير وأنفقها على العسكر، وحارب إبراهيم بن

موسى فكسر الأمير وهرب ودخل إبراهيم بن موسى مكة .

ثم وليها فى سنة خمسين ومائتين فى خلافة المستعين بالتغلب أيضا إسماعيل بن يوسف الأخيضر بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، فهرب منها عامل المستعين، وهو جعفر بن الفضل ابن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس المعروف بشاشات، قتل إسماعيل الجند الذين بمكة وجماعة من أهلها .

ونهب منزل جعفر شاشات وغيره وأخذ من الناس نحو مائتى ألف دينار، وعمد إلى الكعبة الشريفة فأخذ كسوتها، وما جدد فى خزانها من الأموال، وما كان أعد من المال لإصلاح العين، ونهب مكة وأحرق بعضها، ثم خرج منها بعد مقامه بها خمسين [يوماً] فى شهر ربيع الأول، وقصد المدينة الشريفة فتوارى عنه عاملها فظلم أهلها، وأخرب دورهم، وعطلت الجماعة من مسجده عليه الصلاة والسلام أكثر من نصف شهر، ثم رجع إلى مكة فحصر أهلها حتى ماتوا جوعاً وعطشاً وبلغ الخبز ثلاث أواق بدرهم واللحم رطل بدرهم والشربة الماء بثلاثة دراهم، ولقى أهل مكة منه بلاء شديداً .

ثم سار إلى جدة فحبس عن الناس الطعام وأخذ أموال التجار وأصحاب المراكب، ووافى الموقف والناس بعرفات فقتل من الحجاج نحواً من ألف ومائة نفس فهرب الحجاج ولم يقف بعرفة أحد ليلاً ولا نهاراً سوى إسماعيل وعسكره، ثم بعد انفصاله من عرفة رجع إلى جدة ثانياً وأفنى أموالها وفعل أموراً قبيحة لا حاجة بنا إلى ذكرها. كذا ذكره العلامة ابن جبار الله، وقبله التقي الفاسى فى تاريخه «شفاء الغرام»^(١) . انتهى .

قلت : لا يظن ظان أن صدور هذا الفعل وشبهه من مثل هؤلاء السادة لنقص فى دينهم واختلال فى يقينهم حاشا وكلا، وإنما ذاك والله أعلم مما جرّت إليه الحمية والأنفة والشهامة التى تناسب أقداسهم من استيلاء ولالة الجور على ما هم الأحقون به، فيقصدون بذلك ثلم وجوههم وتفريق جموعهم ما أمكن لتعديهم بأصل الدخول فى الخلافة، ولم ينعتقد إذ ذاك إجماع على حرمة الخروج على أئمة الجور، فقد

(١) ينظر: شفاء الغرام للفاسى (١٨٦/٢) .

أفتى الإمام أبو حنيفة بجواز الخروج على أبي جعفر المنصور منهم، وكذلك الإمام مالك رحمهما الله تعالى، وإنما انعقد الإجماع على ذلك بعد زمنهم بكثير هذا ما ظهر لجامعه الفقير. على أنى أعلم أن هذا الجواب ينسب إلى الإقناع، فلا يكن منك أيها الناقد لرأس الاعتراض إقناع.

ولم يزل العمال عليها من بنى العباس وشيعتهم والخطبة بها لهم إلى أن اشتغلوا بالفتن أيام المستعين والمعتز وما بعدهما، فحدثت الرئاسة فيها لبني سليمان بن داود ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط.

ذكر دولة السليمانيين

ومنهم آل أبي الطيب

قال ابن خلدون: وكان كبيرهم آخر المائة الثانية محمد بن سليمان، وليس هو سليمان بن داود بن الحسن المثنى؛ لأن ذاك ذكر ابن حزم أنه قام بالمدينة أيام المأمون وبين العصرين نحو مائة سنة فيبعد أن يكون محمد بن سليمان هذا هو محمد بن سليمان بن داود القائم بالمدينة، إلا أنه من ولده.

كان أول من خطب لنفسه منهم بالإمامة محمد بن سليمان سنة ٣٠١ إحدى وثلاثمائة أيام المقتدر العباسي وخلع طاعة العباسية وخطب في الموسم فقال: الحمد لله الذي أعاد الحق إلى نظامه، وأبرز زهر الإيمان من أكامه، وكمل دعوة خير الرسل بأسباطه لا ببني أعمامه. صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين. وكف عنهم ببركته إساءة المعتدين. وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين. ثم أنشد:

[من المجتث]

لَأَظْلَبَنَّ بِسَيْفِي مَا كَانَ لِلْحَقِّ دَيْنًا
وَأَسْطُوْنَ بِقَوْمٍ بَغَوْا وَجَارُوا عَلَيْنَا
يُهْدُونَ كُلَّ بَلَاءٍ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَيْنَا

وكان يلقب بالزبيدي نسبة إلى نحلته من مذهب الإمامية، وبقي ركب العراق يتعاهد مكة إلى أن اعترضه أبو طاهر القرمطي سنة ثنتي عشرة، وأسر أبا الهيجاء حمدان والد سيف الدولة وجماعة معه، وقتل الحجاج وترك النساء والأطفال

بالقفر، فهلكوا وانقطع الحاج من العراق بسبب القرامطة.

ثم أنفذ المقتدر سنة سبع عشرة وثلاثمائة منصوراً الديلمي من مواليه فوافاه بمكة يوم التروية أبو طاهر القرمطي، فنهب الحاج، وقتلهم حتى في الكعبة والحرام، وطم بئر زمزم بالقتلى والحجاج يصيحون: كيف تقتل جيران الله ووفاده؟ فيقول: ليس بجار من خالف أوامر الله ونواهيه، ويتلو ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ ﴾ [المائدة: ٣٣] الآية. وصعد على عتبة الكعبة يقول: [من الرمل]

أَنَا بِاللَّهِ وَبِاللَّهِ أَنَا يَخْلُقُ الْخَلْقَ وَأُفْنِيهِمْ أَنَا

وكان يخطب لعبيد الله المهدي جد الخلفاء العبيديين نسبة إلى عبيد الله المذكور صاحب إفريقية، ثم قلع الحجر الأسود وحمله إلى « الأحساء » وهي مستقر ملكه، والأحساء هذه بناها أبو طاهر بعد أن خرب جده مدينة البحرين، ولنذكرهما وإن كان ذكرهما اعتراضاً في البين.

أما البحرين: فأقليم واسع مسافة شهر على بحر فارس بين البصرة وعُمان، شرقيها بحر فارس، وغربيها متصل باليمامة، وشمالها بالبصرة، وجنوبيها عمان، كثيرة المياه ينبطونها على القامة والقامتين، كثيرة البقل والفواكه، مفرطة الحر، منهالة الكثبان، يغلب الرمل عليهم في مساكنهم.

وكانت في الجاهلية لعبد القيس وبكر بن وائل من ربيعة، وملكها الفرس، ثم صارت في صدر الإسلام لبني العارود، ثم ملكها أبو سعيد القرمطي بعد حصار ثلاث سنين واستباحها قتلاً وإحراقاً وتخريباً.

ثم بنى أبو طاهر القرمطي مدينة الأحساء، وتوالت دولة القرامطة فيها وهم أخلاط من الفرس، وبني تغلب، وبني عقيل، وبني سليم. وكان بناؤها في المائة الثالثة، وسميت بهذا الاسم - يعني الأحساء - لكثرة أحساء المياه في الرمال بها ومراعى الإبل، وكانت للقرامطة بها دولة، وجالوا في الأقطار والشام والعراق ومصر والحجاز، وملكوا الشام وعمان.

ثم انقضت دولة القرامطة وغلبت على البحرين وما والاها بنو عامر بن عقيل، قال ابن خلدون قال ابن سعيد: والملك الآن منهم في بني عصفور.

ثم رجع: وقلع باب البيت وحمله، وأطلع رجلاً لقلع الميزاب فسقط ومات.

فقال: اتركوه فإنه محروس حتى يأتي صاحبه - يعنى المهدي المنتظر - فلما بلغ عبيد الله المهدي ما فعله كتب إليه ما نصه:

والعجب من كتبك إلينا ممتثلاً علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التي لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها، ثم تعديت ذلك فقلعت الحجر الذي هو يمين الله في أرضه يصافح بها عباده وحملته إلى أرضك ورجوت أن نشكرك، فلعنك الله ثم لعنك، ثم لعنك، السلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده، وفعل في يومه ما عمل فيه حساب غده. فانحرفت القرامطة عن طاعة العبيدين لذلك.

ثم قتل المقتدر على يد مؤنس سنة عشرين وثلاثمائة وولى أخوه القاهر. وانقطع الحاج من العراق بعد هذه السنة إلى أن كاتب أبو على عمر بن يحيى الفاطمي سنة ٢٧ سبع وعشرين من العراق أبا طاهر القرمطي، فأطلق السبل للحاج على مكس أخذه منهم. وكان أبو طاهر يعظمه لدينه ويؤمله. فأجابه إلى ذلك وأخذ المكس من الحاج ولم يعهد مثله في الإسلام.

وخطب في هذه السنة بمكة للراضى بن المقتدر، وفي سنة تسع وعشرين وثلاثمائة لأخيه المتقى من بعده، ولم يصل ركب العراق في هذه السنة من القرامطة.

ثم ولى المستكفي سنة ٣٣٣ ثلاث وثلاثين وثلاثمائة على يد توزون أمير الأمراء ببغداد فخرج الحاج في هذه السنة بمهادنة القرامطة بعهد أبي طاهر ثم خطب للمطيع ابن المقتدر بمكة بمعز الدولة بن بويه سنة ٣٣٤ أربع وثلاثين وثلاثمائة عند ما استولى معز الدولة على بغداد وعزل المستكفي واعتقل، ثم تعطل الحج بسبب القرامطة.

وردوا الحجر الأسود سنة تسع وثلاثين بأمر المنصور العبيدي صاحب إفريقية وخطابه في ذلك لأمرهم أحمد بن أبي سعيد. ثم جاء الحاج إلى مكة سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة مع أمير العراق وأمير من مصر ف وقعت الحرب بينهما على الخطبة لابن بويه ملك العراق، وابن الإخشيد ملك مصر، فانهزم المصريون وخطب لابن بويه، واتصل وفود الحاج من يومئذ.

فلما كانت سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة جاء الحاج من بغداد ومن مصر؛ كان أمير الحاج العراقي محمد بن عبيد الله العلوي فمكر بأمير مصر وقال: نتفق على إفراذ الخليفة ونترك صاحبي وصاحبك، فأجابه إلى ذلك، ثم جاء المنبر مستعداً وأمر بالخطبة لمعز الدولة بن بويه، فوجم الآخر وتمت عليه الحيلة وعاقبه أميره كافور ويقال قتله.

ووقع معز الدولة بن بويه بعد موت أبيه والخليفة يومئذ المطيع، وسببه: أن سابور بن أبي طاهر قتل عمه أحمد بن سعيد الأمير القرمطي وكان مجمعا على اعتراض ركب العراق وقطع الخطبة على ابن بويه بمكة، فلما قتل أحمد وقعت الفتنة بين أولاد أبي طاهر وأولاد أحمد بن أبي سعيد فأصلح المطيع بينهم، وقدم عليه الحسن بن أحمد وخطب في الموسم للمطيع وللحسن بعده بالإمارة.

وفي سنة ٣٦٠ ستين وثلاثمائة خلع الحسن بن أحمد القرمطي طاعة العبيديين وخطب للمطيع وبعث المطيع إليه بالرايات السود، ونهض إلى دمشق فقتل عاملها من جهة العبيديين جعفر بن فلاح وخطب للمطيع، ثم وقعت الفتنة بين بني الحسن أهل مكة وبني الحسين أهل المدينة وزحف أهل المدينة مع أمير المعز لدين الله العبيدي صاحب مصر ليقوموا له الخطبة بمكة، فجاءت القرامطة مدداً لبني حسن بمكة فانهزم أهل المدينة، ثم وقعت الفتنة بين بني الحسن وبني جعفر، وحصلت بينهم دماء، وبعث المعز العبيدي من أصلح بينهم، وتحمل ديات القتلى الفاضلة من مال المعز فمذ ملك مصر بادر جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود، وكان بالمدينة فملك مكة ودعا للمعز العبيدي فكتب له المعز بالولاية.

ثم مات جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود، فوليها بعده ابنه عيسى ابن جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب. ودامت ولايته إلى أن مات سنة أربع وثمانين وثلاثمائة.

ثم ولي بعد عيسى أخوه أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود، وكانت ولايته سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، ثم جاءت عساكر عضد الدولة الديلمي، ففر الحسن بن جعفر.

ولما مات المعز العبيدى وولى ابنه العزيز بعث إلى مكة أميراً علوياً فخطب له بالحرمين. وفى سنة سبع وستين بعث العزيز العبيدى باديس بن زيرى الصنهاجى أميراً على الحاج، واستولى له على الحرمين، وأقام له الخطبة، وشغل عضد الدولة فى العراق بقتال ابن عمه بختيار فبطل ركب العراق، ثم عاد فى السنة التى بعدها وخطب لعضد الدولة أحمد الموسوى وانقطعت بعدها خطبة العباسيين من مكة، وعادت إلى خلفاء مصر إلى حين من الدهر، وعظم شأن أبى الفتوح واتصلت إمارته فى مكة، وكتب إليه القادر سنة ست وثمانين ورغبه فى الطاعة ووعد به باتصال الإمارة فى بنيه، فأنفذ أبو الفتوح الكتب إلى العزيز العبيدى صاحب مصر فأرسل إليه العزيز بالأموال والخلع فقسمها فى قومه، وكسا الكعبة بالبياض، ثم خاطبه القادر سنة تسعين وثلاثمائة فى الإذن لحاج العراق، فأجابه على أن الخطبة للحاكم صاحب مصر العبيدى، وبعث الحاكم إلى ابن الجراح أمير طى باعتراضهم، وكان على الحاج الشريف الرضى أميراً وأخوه المرتضى، فلاتفا ابن الجراح حتى خلى سبيل الحاج على أن لا يعود.

قال ابن خلدون: وفيها ولى المدينة المشرفة، وأزال عنها إمرة بنى المهنا الحسينى، ثم اعترض حاج العراق سنة أربع وتسعين وثلاثمائة الأصفر التغلبى عند ملكه الجزيرة، فوعظه قارئان كانا فى الركب، ثم اعترضهم فى السنة التى بعدها أعراب خفاجة ونهبوهم، ثم كتب الحاكم سنة ثنتين وأربعمئة إلى عماله بالبراءة من أبى بكر وعمر فنكر ذلك أبو الفتوح وامتنع له وخرج عن طاعته بسبب ذلك. كذا فى تاريخ العلامة ابن خلدون.

ورأيت فى «شفاء الغرام» ^(١) للعلامة التقي الفاسى ما نصه: كان سبب عصيان أبى الفتوح عن طاعة الحاكم العبيدى أن الوزير أبا القاسم ابن المغربى لما قتل الحاكم أباه وأعمامه هرب من الحاكم، واستجار بكبير آل الجراح أمير طى فعند ذلك حسن لهم الوزير مبايعة أبى الفتوح بالخلافة، فمالوا إلى ذلك، فقصده الوزير أبو القاسم أبا الفتوح وحسن له طلب الخلافة، فاعتذر أبو الفتوح بقله ذات يده، فحسن له الوزير أخذ ما فى الكعبة من المال فأخذه مع مال عظيم لبعض التجار

(١) ينظر: شفاء الغرام للفاسى (٢/١٩٤، ١٩٥).

بجدة، وخطب لنفسه وتلقب بالراشد بالله، وبايعه بالخلافة شيوخ الحسينيين وغيرهم بالحرمين، وخرج من مكة إلى الرملة قاصداً آل الجراح في جماعة من بنى عمه، وألف عبد أسود ومعه سيف زعم أنه ذو الفقار، وقضيب زعم أنه قضيب رسول الله ﷺ، فلما قرب الرملة تلقته العرب، وقبلوا الأرض بين يديه، وسلموا عليه بالخلافة، ونزل الرملة ونادى بالعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فانزعج الحاكم العبيدى، وقطع الميرة عن الحرمين وما وسعه إلا الخضوع لآل الجراح لقوة شوكتهم، فاستمال حسان بن مفرج منهم وبذل له وإخوته أموالاً جزيلة، فتخلفوا عن أبى الفتوح، فعرف أبو الفتوح ذلك، فاستجار بمفرج من الحاكم العبيدى، فكتب مفرج إلى الحاكم مستشفعاً لأبى الفتوح فشفعه فيه ورده إلى مكانه من إمرة مكة وراجع طاعة الحاكم العبيدى.

وقد كان الحاكم ولى على إمرة مكة عند عصيان أبى الفتوح أبا الطيب فى المدة التى خرج فيها عن طاعته، وأبو الطيب هذا هو أبو الطيب بن عبد الرحمن بن قاسم بن أبى الفاتك بن داود بن سليمان بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب، ومن أحفاد أحفاده الأمير يحيى ابن الأمير المؤيد ابن الأمير قاسم بن غانم بن حمزة بن وقاص بن أبى الطيب بن عبد الرحمن المذكور. وذكر ابن حزم أبا للطيب هذا، وساق نسبه كما ذكرنا، ثم قال: كان لعبد الرحمن والد أبى الطيب اثنان وعشرون ذكراً، فذكرهم، وذكر أبا الطيب منهم، ثم قال: سكنوا كلهم أذنة حاشا نعمة وعبد الحكيم وعبد الحميد فإنهم سكنوا أمج بقرب مكة.

ولعل سكناهم أذنة للخوف من أبى الفتوح بسبب تأمر أبى الطيب بعده بمكة حال خروج أبى الفتوح إلى آل الجراح. ولم يحج من العراق فى هذه السنة أحد.

قال ابن السبكي: ولما كان موسم ثلاث عشرة وأربعمئة: جرت فيه كائنة غريبة هى: أن رجلاً من المصريين من أصحاب الحاكم العبيدى اتفق مع جماعة من الحجاج المصريين على أمر سوء، فلما كان يوم الجمعة وهو يوم النفر الأول طاف هذا الرجل بالبيت، فلما انتهى إلى الحجر الأسود جاء كأنه يريد تقبيله فضربه بدبوس كان معه ثلاث ضربات متواليات وقال: إلى متى يعبد هذا الحجر؟! إلى متى

يقبل!؟، ولا محمد ولا على فيمنعني من ذلك فإنني أهدم اليوم هذا البيت، وجعل يرتعد، فاتفاه أكثر الحاضرين وتأخروا عنه، وذلك أنه كان رجلاً طويلاً جسيماً أحمر اللون أشقر الشعر، وعلى باب المسجد جماعة من الفرسان وقوف ليمنعوه ممن أراده بسوء، فتقدم إليه رجل من أهل اليمن معه خنجر فوجأه به، وتكاثر عليه الناس فقتلوه وقطعوه قطعاً وحرقوه. وتبعوا أصحابه فقتل منهم جماعة، ونهب أهل مكة ركب المصريين وتعدى النهب إلى غيرهم، ثم إنه سكن الحال، غير أنه سقط من الحجر ثلاث فلق مثل الأظفار وبدا ما تحتها أسمر يضرب إلى صفرة محبباً مثل الخشخاش، فأخذ بنو شيبة تلك الفلق، فعجنوها بالمسك واللادن واللک وحشوا بها تلك الشقوق التي بدت، فاستمسك على ما هو عليه الآن، وهو ظاهر لمن تأمله.

ولما بويع القائم العباسي سنة ثنتين وعشرين وأربعمائة أمر أن يجهز الحاج فلم يقدر لاستيلاء العرب، وانحلال إمرة بني بويه، ثم خطب بمكة سنة سبع وعشرين وأربعمائة للمستنصر بن الظاهر العبيدي.

ولما كان سنة ثلاثين وأربعمائة: تولى أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان رئيس مكة وبني سليمان وكانت مدة إمارته ثلاثاً وأربعين سنة. ثم ولى بعده ابنه شكر بن أبي الفتوح، وجرت له مع أهل المدينة خطوب ملك في أثنائها المدينة وجمع بين الحرمين، واستمر إلى أن مات سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، فكانت مدته ثلاثاً وعشرين سنة، ولم يعقب ولا ولد له قط، وقبل خلف بنتاً هي التي تزوجها محمد بن جعفر أول أمراء الهواشم الآتي ذكرهم الآن. وذكر ابن حزم أن عقب جعفر بن الحسن بن محمد بن سليمان انقرض، وأن مكة وليها بعد شكر عبد كان له لأنه قال وقد انقرض عقب جعفر المذكور لأن ابنه أبا الفتوح لم يكن له ولد إلا شكر ولم يولد له، وصار أمر مكة إلى عبد له. انتهى كلام ابن حزم.

قال العلامة محمد بن جار الله في تاريخه «الجامع اللطيف»: ثم ولى بعد شكر بنو أبي الطيب الحسينيون وهم من جماعة شكر الذين يقال لهم: السليمانيون، ولم يذكر العلامة الفاسي عدتهم، وأما العلامة ابن خلدون فلم يذكر بني أبي الطيب

أصلاً، بل ذكر بعد موت شكر استيلاء أول أمراء الهواشم أبي هاشم محمد بن جعفر ابن محمد أبي هاشم بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله أبي الكرم بن موسى ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .
وعلى موت شكر انقرضت دولة بنى سليمان بمكة وجاءت دولة الهواشم .

ذكر دولة الهواشم

هؤلاء الهواشم من ولد أبي هاشم محمد بن الحسن بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله أبي الكرم بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، كانت بين هؤلاء الهواشم وبنى السليمانيين فتن متصلة . ولما مات شكر ذهب الرئاسة من بنى سليمان؛ لأن شكرًا آخرهم ولم يعقب .

وتقدم فيهم طراد بن أحمد لم يكن من بيت الإمارة وإنما كانوا يؤملونه لإقدامه ورأيه وشجاعته، وكان رئيس الهواشم يومئذ أبو هاشم محمد بن جعفر بن أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد المذكور، وكان قد ساد فى الهواشم، وعظم ذكره فاقتتلوا سنة أربع وخمسين وأربعمائة بعد موت شكر فهزم الهواشم بنى سليمان، وطردوهم عن الحجاز، فساروا إلى اليمن وكان لهم به ملك، فاستقل بإمارة مكة الأمير أبو هاشم محمد بن جعفر بن أبي هاشم محمد بن الحسن المذكور وخطب للمستنصر العبيدى .

ثم ابتداء الحاج من العراق سنة ست وخمسين وأربعمائة بنظر السلطان ألب أرسلان بن داود ملك السلجوقية حين استولى على بغداد والخلافة، طلب منه القائم العباسى ذلك فبذل المال وأخذ رهائن من العرب، وحج بالناس أبو الغنائم نور الهدى الزينى نقيب الطالبيين، ثم جاور فى السنة التى بعدها واستمال الأمير أبا هاشم محمد بن جعفر المذكور عن طاعة العبيديين فخطب لبنى العباس سنة ثمان وخمسين وأربعمائة وانقطعت ميرة مصر عن مكة فعذله أهله عما فعل فرد الخطبة للعبيديين .
ثم خاطبه القائم العباسى وعاتبه وبذل له الأموال فخطب له سنة ثنتين وستين وأربعمائة بالموسم فقط، وكتب إلى المستنصر العبيدى معتذراً .

ثم بعث القائم العباسي أبا الغنائم الزيني نقيب المذكورين سنة ثلاث وستين وأربعمائة أميرًا على الركب العراقي، ومعه عسكر ضخم لأمير مكة من عند ألب أرسلان وثلاثون ألف دينار، وتوقيع بعشرة آلاف دينار واجتمعوا بالموسم، وخطب الأمير أبو هاشم محمد بن جعفر للقائم العباسي فقال:

الحمد لله الذي هدانا أهل بيته إلى الرأي المصيب، وعوض بنيه لبسة الشباب بعد لبسة المشيب، وأمال قلوبنا إلى الطاعة، ومتابعة إمام الجماعة. فانحرف المستنصر بن الظاهر بن الحاكم العبيدي صاحب مصر المذكور عن الهواشم ومال إلى السليمانيين، وكتب إلى علي بن محمد الصليحي صاحب دعوتهم باليمن أن يعينهم على استرجاع ملكهم وينهض معهم إلى مكة، فنهض وانتهى إلى المهجم. وكان سعيد بن نجاح الأحول موتور بني الصليحي قد جاء من الهند ودخل صنعاء، فثار بها واتبع الصليحي، وهو في سبعين رجلًا والصليحي في خمسة آلاف فييته بالمهجم وقتله. كذا في تاريخ العلامة ابن خلدون.

ورأيت في تاريخ العلامة محمد بن جار الله بعد أن قال: ثم ولي بعد شكر بنو أبي الطيب: وهم الذين يقال لهم السليمانيون من جماعة شكر، ولم يذكر الفاسي^(١) عدتهم.

قال: ثم ولي علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن وذلك سنة خمس وخمسين وأربعمائة في شهر الحجة، وأظهر العدل بها، واستعمل الجميل مع أهلها، وكثر الأمن، وطابت قلوب الناس، ورخصت الأسعار في أيامه وكثرت له الأدعية، وكسا البيت ثوبًا أبيض، ورد للبيت الحلي الذي أخذه بنو أبي الطيب لما ملكوا بعد شكر، وأقام بمكة إلى ربيع الأول سنة ست وخمسين وأربعمائة.

ثم ولي عنه نائبًا أبا هاشم محمد بن جعفر هذا، وسبب ذلك أن الصليحي لما دخل مكة كان الأشراف بنو أبي الطيب قد أبعدها عن مكة وجمعوا عليه، ثم راسلوه بأن يخرج من مكة ويؤمر بها من يختار منهم، وكان قد وقع في عسكره الوباء فمات منهم سبعمائة رجل ولم يبق إلا نفر يسير، فاختر أبا هاشم محمد بن جعفر هذا، وهو أول الهواشم، وأقامه نائبًا عنه وأمره على مكة واستخدم له عسكرًا، وأعطاه

(١) ينظر: شفاء الغرام للفاسي (١٩٦/٢).

ملا وسلاحًا وخمسين فرسًا، ثم عاد إلى اليمن فجاء الأشراف بنو سليمان ومعهم حمزة بن أبي وهاص، وحاربوا محمد بن جعفر فحاربهم ولم يكن له بهم طاقة، فخرج هاربًا من مكة فتبعوه، فكر راجعًا، وضرب واحدًا منهم ضربة قطع بها درعه، وجسده وفرسه ووصل إلى الأرض فرجعوا عنه، وكان تحته فرس، يقال لها: دنانير لا تكل ولا تمل، وقيل: إنه كان صهر شكر على ابنته.

ثم عاد محمد بن جعفر إلى مكة بعد خروجه منها.

فهذا الذى ذكره ابن جبار الله مخالف لما ذكره العلامة ابن خلدون مخالفة ظاهرة^(١). أما أولاً: ففى تاريخه فإنه - أى ابن جبار الله - ذكر أن إتيان الصليحي إلى مكة، وإقامته أبا هاشم محمد بن جعفر نائبًا عنه كان فى سنة ست وخمسين وأربعمائه، وأنه دخلها وأقام أبا هاشم محمد بن جعفر أول أمراء الهواشم، والذى ذكره ابن خلدون: إن الصليحي أمره المستنصر العبيدى لما مال عن الهواشم إلى السليمانيين بسبب عدولهم بالخطبة عنه إلى العباسيين أن ينهض مع السليمانيين، ويعينهم على استرجاع ملكهم، وأرخ ذلك الأمر له بسنة اثنتين وستين وأربعمائه فهذا تخالف فى التاريخ.

وأما ثانيًا: فمخالفته من جهة المعنى، إذ كيف يؤمر بإعادة السليمانيين إلى ملكهم، وإزالة الهواشم عن مكة فيفر السليمانيون عن مكة، ويرسلون له أقم من تختاره منا فيقيم عليهم أبا هاشم وهو من الهواشم المغضوب عليهم من جهة مرسله المستنصر العبيدى، وكيف يفر السليمانيون عنه، وهو آت لنصرتهم، وإرجاع دولتهم إليهم من يد الهواشم، فما علمت وجه التوفيق بينهما فى ذلك والله أعلم. وأيضًا لم يذكر ابن خلدون أن الصليحي دخل مكة، بل إنه لما انتهى إلى المهجم - اسم محل - هجم عليه سعيد بن نجاح الأحول فقتله.

وإذ قد انجر الكلام إلى ذكر الصليحي فلنذكر طرْفًا من خبره ومبدأ منتهى أمره. قال العلامة ابن السبكي: الصليحي هو على بن محمد بن على الصليحي. كان أبوه محمد قاضيًا باليمن ونشأ له هذا الولد فتوسم فيه بعض من عنده علم من الملاحم، وقال له: أنت تلى ملك اليمن، فاشتغل على هذا وحوى علومًا كثيرة،

(١) ينظر: تاريخ ابن خلدون، المجلد الرابع، القسم الأول (ص ٢٢٠، ٢٢١).

وحج بالناس دليلاً سنين متعددة. ثم توافق مع جماعة من أولاد رؤساء اليمن نحو الستين وخرجوا إلى رأس جبل منيع باليمن فحاصروهم الجند في عشرين ألف مقاتل فلم يقدرُوا عليهم، ثم استفحل أمره وبنى برأس ذلك الجبل حصناً منيعاً. ثم تدلى فأخذ البلاد بلدًا بلدًا حتى استحوز على اليمن كلها وخطب بنفسه ودعا للخليفة المستنصر العبيدي واستمر كذلك نحوًا من ثلاثين سنة.

فلما كانت سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة - كذا قاله ابن السبكي .

وقال ابن خلدون سنة اثنين وستين وأربعمائة - خرج في طائفة من الجيش يريد الحج، فلما كان بالمهجم اعترضه سعيد بن نجاح الأحول صاحب التهائم، وكان الصليحي قد وتره في أول دولته، فاعترضه سعيد هذا وأخوه حناش في سبعين رجلاً مع كل رجل منهم جريدة في رأسها مسمار، فنذر بهم الصليحي، فأرسل سرية في ألفي مقاتل ليردوهم فاختلفوا في الطريق فخلص إليه سعيد وأخوه في أصحابهما، وهو على غرة فوصلوا إليه، وقتلوه بسيفه، وقتلوا جميع أقاربه، وكانوا نحو مائة وستين، ومالوا على بقية العسكر فقتلوا وأسروا، ورجعوا إلى اليمن فملكوه مع بلاد تهامة وهذا أمر لم يتفق مثله إلا نادرًا.

وكان مقتله عند قرية يقال لها: الرهيم وبئر أم معبد وليست بأم معبد السعدية .

قلت: ومن شعر الصليحي بيتان في حفظي هما: [من الكامل]

أَنْكَحْتُ بِيضَ الْهِنْدِ سُمْرَ رِقَابِهِمْ فَرَّؤُسُهُمْ دُونَ النَّشَارِ نِشَارُ
وَكَذَا الْعَلَا لَا يُسْتَبَاحُ نِكَاحُهَا إِلَّا بِحَيْثُ تُطْلَقُ الْأَعْمَارُ

ولما رجع سعيد بن نجاح برأس الصليحي منصوبًا فوق المظلة التي كانت يظلل

بها فوَّقه إذا ركب في جنده، قال في ذلك أبو بكر العثماني: [من الكامل]

بَكَرَتْ مِظْلَتُهُ عَلَيْهِ فَلَمْ تَرُخْ إِلَّا عَلَى الْمَلِكِ الْأَجَلِ سَعِيدُهَا
مَا كَانَ أَقْبَحَ وَجْهَهُ فِي ظِلِّهَا مَا كَانَ أَحْسَنَ رَأْسَهُ فِي عُودِهَا

رجع: ولما عاد محمد بن جعفر إلى مكة بعد خروجه منها جمع أنجاذًا من

الأتراك فزحف بهم إلى المدينة فأخرج منها بنى الحسين، وجمع بين الحرمين. ثم

مات القائم العباسي وانقطع ما كان يصل إليه منه، فقطع محمد بن جعفر الخطبة

للعباسيين، ثم جاء الزينبي من قابل بالأموال فأعادها.

ثم بعث المقتدى سنة سبعين وأربعمائة منبرًا إلى مكة استجيد خشبه ونقش عليه بالذهب اسمه، وبعث على الحاج ختلغ التركي وهو أول تركي تأمر على الحج، وكان واليًا على الكوفة وقهر العرب من بني خفاجة، فبعثه المقتدى أميرًا على الحاج فوقعت الفتنة بين العسكر العراقي والمصرى فكسر المنبر وأحرق، ثم عاود الفتنة سنة ثلاث وسبعين وقطعت الخطبة عن المستنصر العبيدى وأعيدت للمقتدى العباسى واتصلت إمارة ختلغ على الحاج وبعده خمارتكين. إلى أن مات السلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك فانقطعت الخطبة للعباسيين وبطل الحاج من العراق لاختلاف ملوك السلجوقية وتغلب العرب.

ومات المقتدى العباسى خليفة بغداد وبويع ابنه المستظهر.

ومات المستنصر العبيدى خليفة مصر، وبويع ابنه المستعلى وخطب له بمكة. واستمر هذا محمد بن جعفر متوليًا على مكة إلى أن مات سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وهو أول من أعاد الخطبة العباسية بمكة بعد أن قطعت نحو مائتى سنة بسبب استيلاء العبيديين على مصر والحرمين.

وذكر ابن خلدون: أن مدة إمارته على مكة ثلاث وثلاثون سنة، إلا أنه خرج منها هاربًا من التركمان الذين استولوا عليها سنة أربع وثمانين وأربعمائة.

قال ابن الأثير: قال العلامة الفاسى: وهو أول من أعاد الخطبة العباسية ونال بسبب ذلك مالاً عظيماً من السلطان ألب أرسلان السلجوقى، فإنه خطب له بعد القائم العباسى، ثم كان يخطب لابن ابنه عبد الله الملقب بالمقتدى العباسى حيناً، وحيناً للمستنصر العبيدى صاحب مصر يقدم فى ذلك من تكون صلته أعظم، ولعل ذلك بسبب إرسال التركمان إليه.

ثم ولى بعده ابنه القاسم بن محمد بن جعفر بن محمد بن أبى هاشم فكثر اضطرابه، ومهد بنو زيد أصحاب الحلة طريق الحاج من العراق، فاتصل حجهم وحج سنة ثنتى عشرة وخمسمائة نظر الخادم من قبل المسترشد العباسى بركب العراق، وأوصل الخلع، والأموال إلى مكة، وأمن الاضطراب الذى وقع فى ولايته استيلاء أصبهيد بن سارتكين على مكة فى أواخر سنة سبع وثمانين، فهرب منها قاسم بن محمد المذكور، وأقام أصبهيد بها إلى شوال، فجمع قاسم عسكرًا وكبسوا

أصبهذ فانهزم إلى الشام ودخل قاسم مكة ودامت ولايته عليها إلى أن مات سنة ثمان عشرة وخمسمائة. ومن شعر قاسم يصف قومه قوله: [من الكامل]

قَوْمِي إِذَا خَاضُوا الْعَجَاجَ حَسِبْتَهُمْ لَيْلًا وَخِلْتُ وُجُوهَهُمْ أَقْمَارًا
لَا يَتَخَلَّوْنَ بِزَادِهِمْ عَنْ جَارِهِمْ عَدَلَ الزَّمَانُ عَلَيْهِمْ أَوْ جَارًا
وَلِذَا الصَّرِيخُ دَعَاهُمْ لِمِلْمَةٍ بَذَلُوا الثُّفُوسَ وَفَارَقُوا الْأَعْمَارًا
وَلِذَا زِنَادُ الْحَرْبِ أَذَكَّتْ نَارَهَا قَدَحُوا بِأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ نَارًا
وكانت مدته ثلاثين سنة.

قال ابن خلدون: ثم ولي بعده ابنه فليته وقيل أبو فليته، فافتتح بالخطبة العباسية، وحسن الثناء عليه بالعدل ووصل نظر الخادم أميرًا إلى مكة على الحاج، ومعه الأموال والخلع، ثم استمر فليته إلى أن مات سنة سبع وعشرين وخمسمائة، وكانت مدته عشر سنين.

ثم ولي بعده ابنه هاشم بن فليته واستمر متوليًا إلى أن مات سنة تسع وأربعين، وقيل إحدى وخمسين وخمسمائة، ولم يختلف عليه اثنان مدة ولايته. ثم تولى بعده ابنه قاسم بن هاشم بن فليته، والخطبة للعباسيين، وإمارة حاج العراق لنظر الخادم.

ثم كانت فتنة المسترشد العباسي مع السلطان مسعود السلجوقي، ومقتل المسترشد، وتعطل ركب العراق.

ثم حج نظر في السنة بعدها، ثم انقطع الركب العراقي للفتن والغلاء، ثم حج سنة أربع وأربعين وخمسمائة نظر الخادم ومات في طريقه. فولى مكانه قيماز، واعترضه رعب من الأعراب فذهب الركب واتصل حج قيماز.

ثم صنع المقتفى الخليفة العباسي بابًا للبيت مصفحًا أوصله نظر الخادم إلى مكة سنة ثنتين وخمسين وخمسمائة.

وبويع المستنجد الخليفة العباسي فخطب له قاسم بن هاشم الأمير المذكور كما كان يخطب لأبيه المقتفى، ثم قتل قاسم سنة ست وخمسين وخمسمائة.

وبويع المستنجد، قتلته الحشيشية، يقال كان ذلك بإشارة صاحب مصر وهو يومئذ العاضد العبيدي والمتغلب عليه.

ثم ولى بعده عمه عيسى بن فليته، وحج العراق متصل.
وتوفى المستنجد الخليفة العباسى سنة ست وستين وخمسمائة.
وبعث المستضىء بن المستنجد بركب العراق طاشتكين التركى.
وانقضت دولة العبيديين، ووليها صلاح الدين يوسف بن أيوب، واستولى على
مكة واليمن وخطب له بالحرمين، ثم مات المستضىء العباسى سنة خمس وسبعين.
وبويع ابنه الناصر العباسى وخطب له بالحرمين.

ودامت ولاية عيسى بن فليته على مكة نصف يوم؛ لأنه دخل مكة فى يوم
عاشوراء سنة ست وستين وخمسمائة، وجرى بينه وبين عسكر أخيه عيسى فتنة إلى
الزوال، ثم خرج...، ثم أصلحا بعد ذلك.

ثم ولى بعده ابنه داود بن عيسى، واستمر إلى الليلة النصف من رجب سنة إحدى
وسبعين فعزل، وسبب عزله أن أم الناصر الخليفة العباسى حجت فى زمنه ثم أنهت
إلى ابنها الناصر عن داود ما اطلعت عليه من أحواله فعزله لذلك.

ثم ولى أخوه مكث بن عيسى، واستمر إلى موسم هذه السنة ثم عزل، وجرى بينه
وبين أمير الركب العراقى طاشتكين حرب شديد فى ذلك الموسم كان الظفر فيه
لطاشتكين، وذلك أنه وصل الخبر إلى مكث أن صحبة الحاج العراقى عسكرًا كثيرًا،
وسلاحًا وعددًا، وأن معهم الأمير قاسم بن مهنا، فجمع مكث الشرفاء والعرب، ولم
يحج من أهل مكة إلا القليل، ولم يوف أكثر الحاج المناسك، ولم يبيتوا بمزدلفة،
ولم ينزلوا بمنى، ولم يرموا، وإنما رمى بعضهم وهو سائر، ونزل الحاج يوم النحر
الأبطح، فخرج إليهم ناس من أهل مكة، فحاربوهم فى بقية يوم النحر واليوم الثانى
والثالث، فاشتد القتال على أهل مكة، وقتل من الفريقين جماعة، ثم هاجموا مكة
على مكث، فصعد إلى الحصن الذى بناه بأبى قبيس، فصعدوا وراءه، فتركه وسار
عن مكة فدخلوها، وأمر أمير الحاج بهدم الحصن، ونهب غالب بيوت مكة،
وأحرق دورًا كثيرة.

ومن عجيب ما جرى أن إنسانًا زرافًا ضرب دارًا بقارورة نبط فأحرقها، وكانت
لأيتام فاحترق ما فيها، ثم أخذ قارورة أخرى ليضرب بها مكانًا آخر، فأتاه حجر
فأصاب القارورة فكسرها فاحترق هو بها، وبقي ثلاثة أيام يعذب بالحريق ثم مات،

وكانت هذه الواقعة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة المذكورة.

وتسلمت مكة إلى الأمير قاسم بن مهنا الحسيني أمير المدينة، وكان وصل صحبة الحاج العراقي كما سبق خبره إلى مكث؛ لأنه سافر إلى العراق فوليهام الأمير قاسم بن مهنا المذكور بعد انهزام مكث، فأقام متولياً ثلاثة أيام، ثم رأى من نفسه العجز عن القيام بإمرة مكة فاستعفى فأعاد الأمير طاشتكين أمير الحاج المذكور داود بن عيسى إلى إمارة مكة، وشرط عليه شروطاً في ترك المكوس، والعدل بين الرعايا، ولم تعلم ولاية داود هذه إلى متى استمرت، غير أنه يتداول هو وأخوه مكث إمرة مكة، ثم انفرد بها مكث عشر سنوات متواليات آخرها سنة ٥٩٧ سبغ بتقديم السين وتسعين بتقديم التاء وخمسمائة، غير أن في ولايته أو في ولاية أخيه داود - على الشك - كان ممن ولى مكة سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب وذلك سنة ٥٨١ إحدى وثمانين وخمسمائة؛ لأنه قدم مكة في هذه السنة ومنع الأذان بحى على خير العمل، وقتل جماعة من العبيدين المفسدين، وضرب السكة الدراهم والدنانير باسم أخيه السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب، وفر منه أمير مكة مكث أو أخوه داود على الشك.

قلت: ذكر العلامة ابن جبير في رحلته أنه رأى سيف الإسلام طغتكين المذكور داخلاً إلى الحرم الشريف.

قال: وشاهدته وعن يمينه مكث، وعن يساره قاضى الشرع الشريف، ورأيت مكثاً لابساً ثوباً أبيض، وعمامة من صوف أبيض، فطاف بالبيت والريس يدعو له إذا أقبل من الركن اليماني حتى يجاوز مصلى جبريل مولياً، ثم يسكت، ثم يدعو إذا أقبل من الركن اليماني، وهكذا في كل شوط، فلما فرغ من صلاته فرش له خلف مقام الخليل شقة من كتان، فصلى عليها سنة الطواف، فاتضح - بما ذكره ابن جبير - أن الفار هو داود لا مكث، فانتفى الشك الذى ذكره ابن جبار في «تاريخه».

وفي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة أسقط السلطان صلاح الدين المكس عن الحجاج إلى مكة في البحر على طريق عيذاب؛ لأنه كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حجاج المغرب على عدد الرؤوس ما ينسب إلى الضرائب والمكوس، ومن دخل منهم ولم يفعل به ذلك حبس حتى يفوته الوقوف بعرفة، ولو كان فقيراً لا يملك

السلطان صلاح الدين إسقاط ذلك وأن يعرض عنه أمير مكة، فقرر معه أنه يحمل إليه كل عام ألفى دينار وثمانية آلاف أردب قمح إلى ساحل جدة، ووقف على ذلك أوقافاً وخلدها، فانبسطت لذلك النفوس وزاد السرور وزال البؤس، وصار يرسل [الإنعام] للمجاورين بالحرمين من العلماء والفقراء.

ومدحه العلامة ابن جبير بقصيدة أولها: [من المتقارب]

رَفَعْتَ مَعَارِمَ مَكْسِ الْحِجَازِ بِإِنْعَامِكَ الشَّامِلِ الْكَافِلِ
ثم ذكر ابن جبير شيئاً من أخبار هذا المكس، فقال: إنه كان يؤخذ من كل إنسان سبعة دنائير مصرية ونصف، فإن عجز عن ذلك عوقب بأنواع العذاب الأليم من تعليقه بالخصيتين وغير ذلك، وكانت هذه البلية في مدة دولة العبيديين المتخلفين بمصر جعلوها معلوماً لأمير مكة فأزالها الله تعالى بعد أن أزالهم على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وعوّض أمير مكة ما تقدم ذكره.

وضعف أمر الهواشم وكان مكثراً هو آخرهم، وكان أبو عزيز قتادة يناسبهم من جهة النساء، فورث أمرهم وملك مكة من أيديهم وطردهم عنها بالسيف. وأما ما يسمع على الأفواه من أن الشريف قتادة إنما دخل مكة سابع عشر رجب في عمرة ابن الزبير التي يخرج فيها كل أهل مكة رفيع ووضيع، فلم أطلع على أصل في ذلك، وانقرضت دولتهم، والبقاء لله وحده لا شريك له في ملكه سبحانه وتعالى.

ذكر بني قتادة أمراء مكة بعد الهواشم إلى وقتنا هذا

كان من ولد موسى الجون الذين مر ذكرهم في بني حسن عبد الله أبو الكرم، وكان له على ما نقل نسبتهم ثلاثة من الولد: سليمان وزيد وأحمد، ومنه تشعب ولده.

فأما زيد فولده اليوم بالصفراء بنهر الحسنية، وأما أحمد فولده بالدهناء، وأما سليمان فكان ولده مطاعن بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن سليمان بن عبد الله أبي الكرم.

وكان لمطاعن إدريس وثعلب. فالثعلبية شعب بالحجاز، وكان لإدريس ابنان: قتادة النابغة وصرخة.

فأما صرخة: فولده يبنيع يعرفون بالشكرة.

وأما قتادة النابغة ^(١): فكان يكنى أبا عزيز.

وكان من ولده على الأكبر وشقيقه حسن. فمن ولد حسن إدريس وأحمد ومحمد وجماز.

وإمارة يبنيع في أعقابهم حتى الآن فيرجعون إلى إدريس بن حسن بن إدريس. وأما أبو عزيز قتادة: فمن ولده بنو أبي نمي أمراء مكة لهذا العهد، وكان بنو الحسن بن الحسن كلهم متوطنين بنهر العلقمية من وادي يبنيع لعهد إمارة الهواشم وكانوا ظواغن بادية.

ولما نشأ فيهم قتادة هذا جمع قومه ذوى مطاعن، وأركبهم الخيول، واستبد بإمارتهم، وكان بوادي يبنيع بنو حراب من ولد عبد الله بن الحسن بن الحسن، وكان بها بنو عيسى بن سليمان بن موسى الجون، فحاربهم بنو مطاعن هؤلاء، وأميرهم أبو عزيز قتادة، فأخرجهم، وملك يبنيع، والصفراء، واستكثر من الجند والمماليك، ثم استألف بنى محمد وبنى إبراهيم، وسار إلى مكة فانتزعها من أيدي الهواشم، وخطب للناصر العباسي، كذا في تاريخ العلامة ابن خلدون.

فوليها الشريف قتادة: وهو أول من وليها من هذا الفخذ الشريف.

قال في الوسيلة: وسبب طمعه في ملك مكة ما بلغه من انهماك ولاتها الهواشم على اللهو، وتبسطهم في الظلم، وإعراضهم عن صونها ممن يريد بها بسوء اغترارا منهم بما هم فيه من العز والسيف لمن عارضهم في مرادهم وإن كان ظلماً، فتوحش عليهم بذلك خواطر جماعة من قوادهم، ولما عرف قتادة ذلك منهم استمالهم إليه، وسألهم المساعدة على ما يرومه من الاستيلاء على مكة، وبعثه على المسير إليها أن بعض الناس فزع إليه مستغيثاً به في ظلامة ظلمها، فوعده بالنصر، وتوجه إلى مكة في جماعة من قومه، فما شعر أهل مكة إلا وهو معهم بها، وولاتهم على ما هم فيه من اللهو والانهماك، فلم تكن لهم بمقاومته طاقة، فملكها.

(١) ينظر ترجمته في: الكامل لابن الأثير ١٢/١٦٥، أبي شامة: ذيل الروضتين: ص ١٢٣، السلوك ١/٢٠٦، النجوم الزاهرة ٦/٤٩ - ٥٠، الشذرات ٥/٧٦، التكملة للمندري ٣/١٧، سير أعلام النبلاء ١٧/١٥٧، العقد الثمين ٣/٨ - ١٣، شفاء الغرام ٢/١٩٨ - ١٩٩.

وقيل: إنه لم يأت إليها بنفسه في ابتداء ملكه، وإنما أرسل إليها ابنه حنظلة فملكها له، وذلك في سنة تسع وتسعين وخمسائة بتقديم التاء في اللفظتين، وخرج منها مكثر بن عيسى إلى وادي نخلة.

وفي سنة ستمائة مات مكثر بنخلة، وجاء ولد محمد بن مكثر، وقاتل حنظلة بن قتادة عند المتكا، ولم يحصل لمحمد ظفر، وتمت البلاد لقتادة، ذكر ذلك ابن محفوظ وابن فهد في «إتحاف الوري بأخبار أم القرى».

قال صاحب «عمدة الطالب في مناقب آل أبي طالب» وهو العلامة السيد النسيب والشريف الحسيب أبو جعفر شهاب الدين أحمد بن علي بن مهنا الداودي الموسوي: كان قتادة جباراً فتاكاً فيه قسوة وتشدد وحزم، وكان الخليفة في زمانه الناصر العباسي، فاستدعى الناصر الشريف قتادة إلى بغداد ووعدته ومنه فأجابه إلى ذلك، وسار إلى أن وصل إلى العراق ثم إلى المشهد الغروي، فخرج أهل بغداد لتلقيه، وكان ممن خرج في غمار الناس رجل درويش معه أسد مسلسل، فلما نظر إليه الشريف قتادة تطير وقال: مالي وبلد تذل فيها الأسود؟ فرجع من فوره إلى الحجاز. وكتب إلى الخليفة العباسي بقوله [من الطويل]

بِلَادِي وَلَوْ جَارَتْ عَلَيَّ مُرِيفَةٌ وَلَوْ أَنَّنِي أَعْرَى بِهَا وَأَجُوعُ
وَلِي كَفْ ضِرْعَامٍ إِذَا مَا بَسَطْتُهَا بِهَا أَشْتَرِي يَوْمَ الْوَعَى وَأَبِيعُ
مُعَوَّدَةٌ لَنَّمِ الْمُلُوكُ لِطَهْرَهَا وَفِي بَطْنِهَا لِلْمُجْدِبِينَ رَبِيعُ
أَتَرُكُهَا تَحْتَ الرِّهَانِ وَأُبْتَغِي بِهَا بَدَلًا إِنِّي إِذْنًا لَرَقِيعُ
وَمَا أَنَا إِلَّا الْمِسْكُ فِي غَيْرِ أَرْضِكُمْ أَضُوعُ وَأَمَّا عِنْدَكُمْ فَأَضِيعُ
فلما وقف الناصر العباسي على هذه الأبيات استشاط غضباً، وامتلاً حقاً وحرباً.

وكتب إلى الشريف قتادة [كتاباً] يقول فيه:

أما بعد: فإذا نزع الشتاء جلبابه، ولبس الربيع أثوابه، قاتلناكم بجنود لا قبل لكم بها، ولنخرجكم منها أذلة وأنتم صاغرون.

فلما قرأ الكتاب الشريف قتادة ارتاع لذلك أشد ارتياح. وأرسل إلى بني عمه بني الحسين بالمدينة يستنجدهم ويسألهم المعونة، وصدر الكتاب بقوله: [من الطويل]

بَنِي عَمَّنَا مِنْ آلِ مُوسَى وَجَعْفَرٍ وَآلِ حُسَيْنٍ كَيْفَ صَبْرُكُمْ عَنَّا

بَنَى عَمْنَا إِنَّا كَأَفْتَانِ دَوْحَةٍ فَلَا تَتْرُكُونَا يَتَّخِذْنَا الْفَنَّا فَنَّا
إِذَا مَا أَخْ خَلَّى أَخَاهُ لَأَكِيلٍ بَدَا بِأَخِيهِ الْأَكْلُ ثُمَّ بَدَا ثَنَى
فَأَتَتْهُمْ مِنْهُمْ رِجَالُ النَّجْدَةِ، ذُوو الْعَدَدِ وَالْعِدَّةِ.

فلما أقبلت تلك الكتيبة الناصرية كسرها وبدد شملها وقهرها، فلما بلغ ذلك
الناصر العباسي وإلى عليه الإنعامات الكاملة وأقطعه الإقطاعات الهائلة.
وذكر ابن الأثير^(١) في سنة إحدى وستمئة: كان الحرب بين قتادة الشريف أمير
مكة وبين الأمير سالم بن قاسم الحسيني أمير المدينة، ومع كل واحد منهما جمع
كثير.

وفي ذلك يقول الشريف قتادة: [من الطويل]
مَصَارِعَ آلِ الْمُضْطَفَى عُدَّتْ مِثْلَ مَا بَدَأَتْ وَلَكِنْ صِرَتْ بَيْنَ الْأَقَارِبِ
فَاقْتُلُوا قِتَالًا شَدِيدًا، وَكَانَ الْحَرْبُ بَذَى الْحَلِيفَةِ.

وقد كان قتادة قصد المدينة ليحصرها ويأخذها فحصرها مدة معلومة، فلقبه سالم
بعد أن قصد الحجرة الشريفة وصلى عندها، ودعا وسار إلى قتال قتادة، فانهزم قتادة
وتبعه سالم إلى مكة، وحصرها وأرسل إلى قتادة يقول بعد أن حصرها المدة
المعلومة: حصر بحصر يا ابن عم. فأرسل قتادة إلى من مع سالم فأفسدهم عليه
فمالوا معه، فلما علم بذلك سالم رحل عنه عائداً إلى المدينة.

ثم إن قتادة خرج لحرب ثقيف فتحصنوا بحصونهم فلم يقدر عليهم، فأمّنهم
وحلف، فحضره عنده فقتل منهم طائفة من أكابرهم، واستخلف على بلادهم نواباً
من عنده، وعضدهم بعيده له، فلم يبق لأهل الطائف معهم كلمة ولا حرمة، فعند
ذلك اجتمع أهل الطائف ودفنوا سيوفهم في الرمل - وذلك في المجالس التي جرت
عادتهم بالجلوس فيها مع أصحاب قتادة - واستدعوا أصحاب قتادة وأوهموهم أن
ذلك بسبب كتاب ورد عليهم، فلما اجتمعوا أخرجوا سيوفهم وقتلوا أصحاب قتادة
عن آخرهم، ولم يسلم منهم إلا واحد وصل إلى قتادة وهو واله العقل لما شاهد من
الهول، وكان ذلك في سنة ثلاث عشرة وستمئة.

وذكر الميورقي: أن في هذه الواقعة فقد كتاب رسول الله ﷺ لأهل الطائف لما

(١) ينظر: الكامل لابن الأثير (٢٠٥/١٢).

نهب جيش قتادة البلاد.

وذكر أبو شامة في أخبار سنة تسع وستمائة قال: فيها قتل قتادة صاحب مكة إمام الحنفية وإمام الشافعية ونهب اليمنيين.

وذكر أيضًا في سنة ثمان وستمائة نهبه الحاج العراقي وكان أمير الركب علاء الدين محمد بن ياقوت نيابة عن أبيه ومعه ابن أبي فراس يدبره.

وحج من الشام الصمصام إسماعيل، وكانت ربيعة خاتون أخت العادل بن أيوب في الحج، فلما كان يوم النحر بعد رمى الجمرة وثب بعض الإسماعيلية على رجل شريف من بنى عم قتادة أشبه الناس به وظنه إياه فقتله عند الجمرة، ويقال: إن الذى قتله كان مع أم جلال الدين، فثار عبيد مكة عند ذلك والأشراف، وصعدوا على الجبلين بمنى، وهللوا وكبروا وضربوا الناس بالحجارة والمقاليع والنشاب، ونهبوا الناس يوم العيد والليلة واليوم الثانى، وقتل من الفريقين جماعة، فقال ابن أبي فراس لمحمد بن ياقوت: ارحل بنا إلى الزاهر إلى منزلة الشاميين، فلما حصلت الأثقال على الجمال حمل قتادة والعبيد، فأخذوا الجميع إلا القاتل، وقال قتادة: ما كان المقصود إلا أنا، والله لا أبقيت من حاج العراق أحدًا، وكانت ربيعة خاتون بالزاهر ومعها ابن السلاحور سياروج وحاج الشام، فجاء محمد بن ياقوت أمير الحاج العراقي فدخل خيمة ربيعة خاتون مستجيرًا بها ومعه أم جلال الدين، فبعث قتادة يطلبه، فبعثت خاتون مع ابن السلاحور إلى قتادة تقول له: ما ذنب المسلمين؟ قد قتلت القاتل وجعلت ذلك وسيلة إلى نهب المسلمين، واستحللت الدماء فى الشهر الحرام فى الحرم، وقد عرفت من أنا، والله لئن لم تنته لأفعلن وأفعلن.

فجاء ابن السلاحور إلى قتادة فأخبره وخوفه عاقبة ما يروم وقال: إن فعلت غير ما فعلت قصدك الخليفة من بغداد ونحن من الشام، فكف عنهم، وطلب مائة ألف دينار فجمعوا له ثلاثين ألفًا من أمير [الركب] العراقي ومن خاتون أم جلال الدين، وأقام الناس ثلاثة أيام حول خيمة ربيعة خاتون بين جريح وقتيل ومسلوب وجائع وعريان، ويقال: إن قتادة أخذ من المتاع ما قيمته ألف ألف دينار، وأذن للناس فى الدخول إلى مكة، فدخل الأصحاء الأقوياء وطافوا، ومعظم الناس ما دخل مكة، ورحلوا إلى المدينة، ثم إنهم دخلوا إلى بغداد على غاية الفقر والذل والهوان.

وفى سنة تسع وستمائة: وصل من قبل الخليفة الناصر العباسى إلى قتادة مع الركب العراقى مآلٌ وخلعة وكسوة ولم يظهر له الخليفة إنكاراً على ما تقدم من نهب الحاج، وجعل أمير الحاج يتدرجه، ويخدعه بأنه لم يصح عند الديوان العزيز إلا أن الشرفاء وأتباعهم نهبوا أطراف الحاج ولولا تلافيك لهلكوا، وقال له: يقول لك مولانا الوزير: وليس كمال الخدمة الإمامية إلا بتقيل العتبة، ولا عز الدنيا والآخرة إلا بنيل هذه الرتبة. فقال الشريف قتادة: سأنظر فى ذلك ثم تسمع الجواب. واجتمع بنى عمه الأشراف وعرفهم أن ذلك استدراج لهم وله حتى يتمكن من الجميع. ثم قال لهم: يا بنى الزهراء، عزكم إلى آخر الدهر مجاورة هذه البنية والاجتماع فى بطائعها، فلا يرغبونكم بالأموال والعدة والعدد، وقد عصمكم الله وعصم أرضكم بانقطاعها وإنها لا تبلغ إلا بشق الأنفس. ثم عاد أبو عزيز قتادة إلى أمير الركب العراقى وقال له: اسمع الجواب. ثم أنشده الأبيات المتقدمة، فقال له أمير الركب الشريف: يا شريف، حاشا الله أن أحمل مثل هذه الأبيات منك، وأنت ابن بنت رسول الله ﷺ والخليفة ابن عمك، وأنا مملوك تركى لا أعلم من الأمور التى فى الكتب ما علمت، ولكنى قد رأيت أن هذا من سرف العرب الذين يسكنون البوادرى، وترغاب قطاع الطريق، والله لا حملت هذه الأبيات عنك فأكون قد جنيت على بيت الله وبنى بنت نبيه، والله لو وصل إليه ما ذكرت لجعل سائر الوجوه إليك، ولكن لى رأى أعرضه عليك، فأصغى إليه أبو عزيز وعلم أنه رجل عاقل، قال: الرأى أن ترسل أحد أولادك من لا تهتم له إن جرى عليه ما توقعه، ومعاذ الله أن يجرى عليه إلا ما تحبه، وترسل معه جماعة من ذوى الأسنان والهيئات، فيدخلوا مدينة السلام وفى أيديهم أكفانهم منشورة، وسيوفهم مسلولة، ويقلبون العتبة، ويتوسلون بالنبي ﷺ، وبصفح أمير المؤمنين، وسترى ما يكون من الخير لك وللناس. قال: فشكره قتادة ووجه صحبته ولده راجح بن قتادة، وأشياخ الشرفاء، ودخلوا بغداد على تلك الهيئة التى ذكرها، وهم يضجون ويتضرعون ويبكون، والناس ييكون لبكائهم، فاجتمع الخلق كأنه المحشر، ومالوا إلى باب النوبة من أبواب مدينة الخليفة، فقبلوا هنالك العتبة.

وبلغ الخبر الناصر العباسى فعفا عنهم وعن مرسلهم، وأنزلوهم فى الديار

الواسعة، وأكرموا الكرامة التي ظهرت، واشتهرت وعادوا إلى أبي عزيز بما أحب، فكان بعد ذلك يقول: لعن الله أول رأى عند الغضب، ولا عدنا عاقلاً ناصحاً يثبتنا عنده.

قال المنذرى فى « التكملة » ^(١): كان قتادة المذكور مهيباً وقوراً قوى النفس شجاعاً مقداماً فاضلاً له شعر، تولى إمرة مكة، رأيته بها يطوف بالبيت، ويدعو بتضرع وخشوع، والرئيس على زمزم يدعو له وهو كالأسد شجاعة والقطب خشوعاً وتضرعاً والبدر كمالاً وبهاء.

وكان مولده بوادى ينبع وبه نشأ. وكانت مملكته قد اتسعت من حدود اليمن إلى خلف مدينة النبى ﷺ، وكثر عسكره واستكثر من الممالك، وخافته العرب فى تلك البلاد خوفاً عظيماً، وسار فى مكة سيرة حسنة، وأزال عنها العبيد المفسدين، وحمى البلاد وأحسن إلى الحجاج وأكرمهم وبقي كذلك مدة، ثم أساء السيرة وجدد المكوس وفعل أفعالاً شنيعة، ونهب الحجاج، وكان يخطب للناصر أحمد العباسى ابن المستضىء، ثم يخطب لنفسه بالأمير المنصور، ودام ملكه نحو سبع وعشرين سنة.

وكان وراثته الملك عن مكش بن عيسى الذى ورثه من آبائه الهواشم، ولم يكن أبو عزيز من الهواشم إلا من جهة النساء.

ثم زاد ظلم قتادة فى الناس وأذاه للحجاج من العراقيين وغيرهم، وأظهر التعدى حتى ضج الناس وفسدت نيته على الخليفة الناصر العباسى، فارتفعت الأيدى بالدعاء عليه، فقتله الله على يد ابنه حسن بن قتادة.

وكان قتله فى جمادى الأولى، هكذا ذكره أبو شامة فى سنة ٦١٧ سبع عشرة وستمائة.

وقال المنذرى ^(٢): بل فى جمادى الأخرى من سنة ٦١٨، ثم استقر بعده فى ملك مكة ابنه حسن بن قتادة. قيل قتله خنقاً.

وسبب قتله: أن قتادة جمع جموعاً وسار من مكة يريد المدينة الشريفة فنزل

(١) ينظر: التكملة لوفيات النقلة للمنذرى (١٧/٣) ت (١٧٤٩).

(٢) ينظر: تكملة المنذرى (١٨٦/٢).

بوادى الفرع، وهو مريض وبعث أخاه على الجيش ومعه ابنه حسن هذا، فلما بعد وأبلغ حسن أن عمه قال لبعض الجند: إن أخى قتادة مريض وهو ميت لا محالة، وطلب منهم أن يحلفوا له ليكون هو الأمير بعده.

فلما بلغ الحسن ذلك أرسل إلى عمه من خنقه وخرج للناس فى الحرم، وطلب الأشراف ووجوه الناس، وقال لهم: إن أبى اشتد به المرض وأنا أحب أن تبايعونى، فبايعوه وحلفوا له، فأحضر تابوتاً مغطى وقال: هذا أبى مات. وكان قد دفنه ليلاً.

فلما استقرت الإمارة لحسن، وثبتت قدمه أرسل إلى أخيه، وكان بينع وطلبه ولم يخبره بحال أبيه، فلما وصل إليه قتله، وكان له أخ اسمه راجح كانت بينهما مباينة أقام فى الأعراب هارباً بظاهر مكة حتى كان من أمره مع آق باش أمير الركب العراقى ما كان كما سيأتى قريباً.

ولما بلغ قتادة قتل حسن لعمه قامت قيامته وحلف ليقتلن حسناً، فبلغ ذلك حسناً، فدخل على أبيه بعد عوده من المدينة، فبالغ قتادة فى ذمه وتهديده، فوثب إليه حسن، واستعان بغلام وجارية كانا يخدمان أباه فأمسكا يديه، فقتله خنقاً ثم قتلهما ليخفى سبب قتله، وقيل بل قتله سمّاً. فهذا سبب قتل حسن أباه قتادة. وكانت وفاته كما تقدم فى جمادى الآخرة عام ٦١٧ سبع عشرة وستمائة أو ثمان عشرة، والأول هو الذى رأيت أكثر.

وكان قتادة يقول: أنا أحق من الناصر العباسى بالخلافة، وكان فى زمنه فى المسجد يؤذن بحى على خير العمل، ومدة عمره نحو سبعين سنة. ومدة ولايته من سنة ٥٩٩ تسع وتسعين وخمسمائة إلى سنة ٦١٧ سبع عشرة وستمائة.

ولما وصل الملك المنصور صاحب اليمن أمر بنش قبر قتادة وإحراقه لما فعل من نهب اليمنيين، فوجدوا فى القبر تابوتاً ليس فيه شيء، فعرف الناس بذلك أن حسن قتل أباه ودفن التابوت فى قبر آخر ليخفى قبره على الناس. وكان لقتادة من الولد راجح وهو الأكبر الذى فر إلى الأعراب بظاهر مكة كما تقدم، وحسن وعلى الأكبر جد الأشراف المعروفين بذوى على، وعلى الأصغر جد

أبى نemy جد الأشراف الذين كانوا ولاية خليص، وهم الآن ولاية مكة، ألا ترى أن عجلان بن رميثة بن أبى نemy محمد بن أبى سعد الحسن بن على هذا الأصغر بن قتادة، ولكل من هؤلاء ذرية وأعقاب.

ومما صنع الشريف قتادة أن أدار على مكة سورًا من أعلاها؛ ليحفظها عمن يريدونها بسوء.

ثم وليها الشريف حسن بن قتادة عام سبع عشرة وستمائة، ووقع فيها قتال بينه وبين آق باش أمير الركب العراقي، وهو مملوك تركي للناصر العباسي عقد له الولاية على مكة وعلى كل بلد يدخلها، ومعنى آق باش: أبيض الرأس.

وسبب القتال أنه لما ورد آق باش المذكور أميرًا، تعرض راجح لقطع الطريق بين مكة وعرفة، فأمسكه الأمير المذكور، فأرسل أخوه حسن إلى الأمير موعداً له بمال جزيل أن يسلم إليه أخاه راجحًا، فبلغ ذلك راجحًا، فقال للأمير: أنا أعطيك أضعاف ما وعدك فأعنى على ولاية مكة، فوعده بذلك، فأرادا جميعًا دخول مكة فمنعهما حسن ووقع الحرب، فصعد آق باش على جبل عرفة بما عنده من المنعة، فأحدثت به أعراب الشريف حسن فقتل، وعلق رأسه فى ميزاب الكعبة، وقيل: رفع على رأس رمح بالمسعى، وأرسل يعتذر إلى دار الخلافة، كذا فى «عمدة الطالب». وفى موسم تسعة عشرة وستمائة وليها الملك المسعود يوسف من بنى أيوب، وصل إليها وكان قد تفرق عن حسن والأشراف، لشحه ولم يبق عنده إلا جماعة من عشيرته.

وجاء مع صاحب اليمن المذكور أخو الشريف حسن الشريف راجح بن قتادة فتقاتلا بالمسعى، فانكسر حسن وفارق مكة فنهبها الملك المسعود، وراجح حتى سلبوا الناس أشياء من على أجسادهم، وولى الملك المسعود راجح بن قتادة حلياً ونصف المخلاف، وأمر المسعود بنش قبر قتادة فلم يجدوا إلا التابوت كما تقدم ذكر ذلك، وعمل المسعود فى مكة من المنكرات ما لم يُرَ.

منها: أنه يطلع على قبة زمزم، ويرمى الحمام بالبندق، ويجلس عبيده بالمسعى فيضربون أرجل الناس بالسيوف يقولون: إن السلطان سكران نائم، امشوا قليلاً قليلاً لئلا توقظوه. كانت داره على المسعى تسمى دار السلطنة، وكانت تسمى دار القوارير.

قلت: عثرت فى بعض التواريخ أن محلها كان محل المدرسة القايتبائية الآن. انتهى.

ثم خرج من مكة واستتاب عليها نور الدين على بن رسول الغسانى الملقب بالملك المظفر ورتب معه ثلاثمائة فارس، وولى راجحاً حلياً وأعمالها.

ثم وصل حسن بجيش عظيم من الينبع إلى مكة سنة عشرين وستمائة فخرج إليه أميرها على بن رسول المذكور، فكسره على بن رسول، فتوجه إلى الشام فلم ير بها وجهها ولم يفلح بعد قتل والده وعمه، وقد دعا عليه أبوه قتادة فى قصة اتفقت له نقلها الزنجانى وزير أبيه الشريف قتادة هى: أنه كان الشريف قتادة بالحرم الشريف مع الأشراف فهجم عليه ولد لولده حسن وترامى فى حجره مستجيراً، وإذا بوالده حسن يشتد فى إثره حتى ألقى يده فى شعره وجذب الصبى من حجر جده. فاغتاظ الشريف قتادة، وقال الحسن: هكذا ربيتك، ولهذا ادخرتك؟ فقال حسن: ذاك الإخلال أوجب هذا الإدلال.

فقال الشريف قتادة: ليس هذا بإدلال ولكنه إذلال، وانصرف حسن بولده ففعل فيه ما اقتضاه عقله، فالتفت الشريف قتادة إلى الأشراف، وقال لهم: والله لا أفلح هذا، فلم يمر به إلا زمن يسير حتى قتل أباه وذاق عقوبة العقوق والقطيعة، ثم توجه إلى العراق، فلم ير بها وجهها، بل أرادوا قتله بسبب قتله آق باش الناصرى مملوك الخليفة الناصر العباسى فى الواقعة التى جرت فى أيامه بمكة زمن الحج، فخرج منها خائفاً، ولم يزل طريداً شريداً خائفاً إلى أن وصل بغداد، فأدركه أجله فى الجانب الغربى على دكة، فلما علم به غُسل وصُلّي عليه، وحمل فدفن فى مشهد موسى الكاظم سامحه الله تعالى، هذا حاصل ما ذكره المؤرخون فى مصنفاتهم مفرقاً غير مجتمع فى كتاب ولا مستوفى، جمعت ما ذكروه، وسقته مجتمعاً كل حديث فى محله، وكل فرع إلى أصله، وكل نوع إلى جنسه وشكله. وهذا شأنى فى ترجمة كل واحد من هؤلاء السادة الأعلام، أذكرها كافلة للمرام، بعون الملك العلام.

على أنى لا أخلو من قول جاهل خامد، أو فاضل حاسد، أو مبغض جاحد: هل زاد على الجمع؟ وما درى أنه تفتير للفؤاد تقطير للدمع، إذ تتبع ذلك من مظانه المتفرقات، وضم شمل القصة وسبكها فى ألطف قالب من العبارات، يعرف قدره

من أشرق فى أفق الفضل وما غاض بدر تمه، ولا يجحد حقه إلا كل عاض بظر أمه .
على أن لى فيه فلتوتات، كأنها ياقوتات، ينظرها بنور العدل والإنصاف، زاكى
السريرة ذاتًا وسمى، ويتخونها من عم بصره وبصيرته عمه وعمى .
لكن الأعمال بمقاصدها، والله عالم بصحيح النية من فاسدها .

ولم تزل مكة فى ولاية الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل محمد ابن
الملك العادل أبى بكر بن أيوب، ونائبه عليها نور الدين على بن رسول إلى سنة
خمس وعشرين وستمائة، فتوفى الملك المسعود بعد أن فلج ويبست يده ورجلاه،
ورأى فى نفسه العبر، نعوذ بالله من سوء قضاه .

وفىها وصل إلى مكة جيش من صاحب مصر وعلى الجيش طغتكين ومعه مائتا
فارس، ففر منها نائبها نور الدين على بن رسول نائب الملك المسعود، وأنفق
طغتكين على أهل مكة نفقة جيدة، وحلفهم، وتوثق منهم .

فلما كان سنة سبع وعشرين وستمائة وصل إلى مكة جيش صاحب اليمن على بن
رسول الغسانى وصحبته السيد راجح بن قتادة، فنزلوا بالأبطح وحاصروا مكة،
وأرسل الشريف راجح إلى أهل مكة يذكرهم إحسان السلطان نور الدين أيام نيابته
بمكة عن الملك المسعود، فمال رؤساء مكة إليه، فلما أحس بذلك الأمير طغتكين
خاف على نفسه فخرج خائفاً وقصد وادى نخلة، فدخل راجح ومن معه .

فوليها الشريف راجح بن قتادة وكان أمير الجيش يسمى ابن عبدان، فدخل إلى
مكة واستولى عليها وخطب للملك المنصور ابن الملك المسعود .

وتوجه طغتكين إلى ينبع وكان بها رتبة للكامل صاحب مصر الأيوبي، فأقام
هناك، وعرف الكامل بالخبر، فجهز جيشًا كبيرًا من مصر، وأمر صاحب ينبع،
وصاحب المدينة أن يخرجوا مع ذلك الجيش إذا وصل إليهما، ففعلا، ووصلوا إلى
مكة جميعًا فى رمضان، وحاصروا راجحًا وابن عبدان وقتلوهما فانكسروا،
واستولى على مكة أميرها الأول طغتكين، فقتل من أهل مكة خلقًا كثيرًا وأنهبت
ثلاثة أيام وأظهر حقه عليهم، وأخافهم خوفًا شديدًا .

وفى سنة ثلاثين وستمائة جمع الشريف راجح جموعًا عظيمة، وأمدد الملك
المنصور صاحب اليمن بعساكر، فقدم مكة، وطرد طغتكين وعسكر الملك الكامل

صاحب مصر، فلما علم بذلك الكامل جهز عسكرًا فى شوال سبعمائة فارس، فلما أن وصل الحاج واتضح أمر العسكر خرج الشريف راجح من مكة فدخلها العسكر المصرى من غير محاربة وطببوا قلوب أهلها وعدلوا فيهم وأحسنوا، وحج بالناس أمير يسمى الزاهد، وترك فى مكة أميرًا يقال له ابن مجلى فى خمسين فارسًا أقام بمكة فعدل وأحسن السيرة.

وفى سنة إحدى وثلاثين: جهز الملك المنصور صاحب اليمن إلى السيد راجح عسكرًا جرازًا، وخزانة عظيمة، فنهض راجح ومن معه من العسكر، ودخلوا مكة، وأخرجوا ابن مجلى ومن معه، فلما أن وصل الحاج سمع الشريف راجح أن الملك الكامل حاج على النجب لوعده بينه وبين الخليفة العباسى، فخرج راجح من مكة فتغير عليه خاطر الملك المنصور، فلما رجع الملك الكامل عاد راجح إلى مكة وكان بها غلاء عظيم، سموه غلاء ابن مجلى.

وفى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة: وصل من صاحب مصر عسكر ألف فارس، فخرج الشريف راجح إلى اليمن، فجهزه الملك المنصور بخزانة وعسكر أيضًا، وأرسل قتاديل ذهب وفضة لتعلق فى جوف الكعبة فلم يقدر راجح ومن معه لمقاومة العسكر المصرى فلم يدخل، فلما سمع بهم العسكر المصرى خرجوا إليهم من مكة، فالتقوا بمحل يقال له الخلف والخليف، فانهزمت الأعراب أصحاب راجح، وأسر أمير عسكره ابن عبدان فقيد، وأرسل به إلى مصر.

وفى سنة خمس وثلاثين وستمائة خرج السلطان نور الدين على بن رسول من اليمن قاصدًا مكة فى ألف فارس، وأرسل للجند الذين بمكة أن كل من جاء إليه يعطيه ألف دينار وحصانا وكسوة، فمال إليه كثير من الجند، وآثروه على مولاهم، ووفى لهم بما وعدهم، وأرسل إلى الشريف راجح، فتلقاه من أثناء الطريق، فقدمه صحبة ثلاثمائة فارس من أهل النجدة من عسكره، وأعطاه النقارات والكثوسات، وتقدم إلى مكة.

فلما تحققت عساكر مصر وصول السلطان أحرقوا ما كان عندهم من الأثقال والأقوات، وخرجوا من مكة، فأرسل الشريف راجح يبشر السلطان نور الدين بما وقع، فأحرم بعمره ودخل مكة فى رجب، وتصدق على أهل مكة بأموال جزيلة.

وفى ذلك العام مات الكامل صاحب مصر، فخطبوا للملك المنصور ابن الملك المسعود صاحب اليمن.

وفى سنة سبع وثلاثين وستمائة: أرسل صاحب مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل إلى مكة ألف فارس عليهم الشريف شيحة بن قاسم الحسينى أمير المدينة الشريفة، فلما سمع بهم راجح ومن معه من عساكر الملك المنصور، فروا إلى اليمن وأخلوا مكة، فدخلها شيحة وملكها ونهبها، فلما بلغ ذلك المنصور صاحب اليمن جهز السيد راجحًا بعسكر معه إلى مكة، فلما أحس بهم الحسينى فر هاربًا من مكة وأخلاها.

وفى موسم سنة تسع وثلاثين وستمائة دخل من صاحب مصر عسكر إلى مكة، فلما بلغ صاحب اليمن تجهز، وخرج إلى مكة بجيش كثيف، فهرب المصريون، وأحرقوا دار السلطنة بمكة، فدخل السلطان نور الدين على بن رسول الغسانى، وصام رمضان، وأقام بها وأبطل المكوس والجبايات والمظالم، وكتب ذلك فى رخامة مربعة جعلت قبالة الحجر الأسود فى حائط زمزم، وأرسل يطلب أبا سعيد الحسن بن على بن قتادة من ينبع، فلما أتاه أكرمه وأنعم عليه، فاستخدمه على مكة، واشترى منه قلعة الينبع وأمر بخرابها لأجل أهل مصر، وأبقى عنده مملوكه ابن فيروز، والأمير فخر الدين بن السلاح، فأقام ابن السلاح أميرًا سبع سنين، فولى بعده الأمير ابن المسيب سنة خمس وأربعين.

وفى سنة ست وأربعين وستمائة ولى مكة الشريف أبو سعد الحسن بن على بن قتادة، وذلك أن الملك المنصور قبل ذلك لما دخل مكة أقام أبا سعد هذا بوادى مر ليساعد عسكره الذين أقاموا بمكة، فحسن مشايخ العرب من زبيد وغيرهم لأبى سعد الحسن بن على بن قتادة أخذ مكة والاستيلاء عليها، والفتك بمن فيها من العسكر اليمنى، وهونوا عليه أمرهم، وكانوا فرقتين، فرقة تخرج إلى أعلى المعلاة، والفرقة الأخرى تخرج إلى أسفلها هكذا كل يوم. فحمل أبو سعد على إحدى الفرقتين، فكسرهما فضعفت الأخرى، فقبض على ابن المسيب وأخذ خيله وعدده ومماليكه، واستولى على مكة، وأحضر الأعيان من أهلها، وقال: ما لزمته إلا لتحقيقى خلافه ونيته الخروج على الملك المنصور صاحب اليمن، والذهاب بهذا المال إلى

العراق، والمال عندى محفوظ إلى أن يصل مرسوم السلطان فأسلمه إليه، فوردت الأخبار بعد أيام يسيرة بموت الملك المنصور على بن رسول، فقوى أمر أبى سعد الحسن بن على بن قتادة المذكور، فخرج الشريف راجح من مكة لما رأى أن ابن أخيه أبى سعد الحسن المذكور استولى عليها، وسكن المحل المعروف بالواديين. وكان الشريف الحسن هذا شجاعاً جلدًا كريم الأخلاق شديد الحياء، جمع الشجاعة والكرم والعلم والعمل، وكانت أمه حبشية، ووقع له معها أنه حارب بعض العرب، فلما تراءى الجمعان، جاءته فى هودجها فقالت له: اعلم أنك وقفت فى موقف إن ظفرت أو قتلت قالت الناس: ظفر ابن رسول الله أو قتل ابن رسول الله، وإن هربت قالوا: هرب ابن السوداء، فانظر أى الأمرين تحب أن يقال. فقال لها: جزاك الله خيرًا لقد نصحت فأبلغت، ورجع فقاتل حتى ظفر، فقال الناس كما قالت. ودامت ولايته على الحجاز نحو أربع سنين وأشهر إلى أن قتله ابن عمه جماز ابن حسن بن قتادة لثلاث خلون من شعبان سنة إحدى وخمسين وستمائة، وقيل فى شهر رمضان، وقيل: فى شوال.

وأبو سعد هذا هو والد عبد الكريم جد الأشراف ذوى عبد الكريم ووالد أبى ندى صاحب مكة الآتى ذكره.

كان الشريف أبو سعد هذا فاضل الأخلاق، طيب الأعراق شديد الحياء، جمع الشجاعة والكرم والعلم والعمل، له الشعر الرائق والنثر الفائق، فمن شعره القصيدة المشهورة: [من المتقارب]

خُذُوا قَوْدَى مِنْ أُسِيرِ الْكَلَلِ
نسبها العلامة الفاسى إليه.

والمشهور أنها لابن مطروح والشهرة تساعده.

قال: إلا أن فى القصيدة أبياتًا ترجح أنها لأبى سعد لأن إنشاءها إنما يليق بالملوك، منها قوله فيها: [من المتقارب]

وإن قيلَ إِنِّى عَدَا مَيِّتٌ بِأَيْدِى الصُّبَابَةِ ظُلْمًا فَهَلْ
تموتُ نفوسٌ بِأَجَالِهَا وَنَفْسِى تَمُوتُ بِغَيْرِ الْأَجَلِ
فَلَيْتَ إِذَا مَا أَتَانِى الْجَمَامُ يُؤَخِّرُ عَنِّى الْإِلَهَ الْأَجَلِ

لَأَتَى غِيُوْثٌ إِذَا الْغَيْثُ مَلَ وَيَوْمَ الْكِفَاحِ أَرَوَى الْأَسْلَ
فيحتمل ويحتمل والله أعلم.

قلت: الاستدلال على أنها لأبي سعد بأن فيها أبياتاً لا يليق بإنشائها إلا بالملوك
استدلال لا ينهض، إذ كل كريم شجاع يسوغ له أن يتمدح ويقول عن نفسه ذلك، بل
صناعة الشعر ومبالغاته تسوغ للشاعر القول، وإن لم يتصف بإنالة نائل ولا طول
طائل.

ثم وليها جمار بن حسن بن قتادة في رمضان من السنة المذكورة.
وذلك أنه لما كانت سنة إحدى وخمسين وستمائة، قدم الشريف جمار هذا
بعسكر من عند الناصر بن العزيز بن الظاهر بيبرس، ووعد أنه يخطب له بمكة،
فأمده بعسكر صحبة الركب الشامي، فتقدم أمام الركب ودخل مكة في رمضان من
السنة المذكورة، واستولى على مكة وقتل ابن عمه أبا سعد الحسن بن علي بن قتادة
وحج بالناس، ثم نقض عهد الناصر، ولم يخطب له، وخطب للملك المظفر بن
المنصور بن المسعود صاحب اليمن، فلما كان آخر يوم من ذي الحجة من السنة
المذكورة قدم عمه راجح بن قتادة ففر منه جمار بلا قتال إلى ينبع.

ثم وليها راجح بن قتادة وكان بمكة غلاء عظيم، وعطش بيعت شربة الماء بدرهم
والشاة بأربعين درهماً، واستمر إلى سنة اثنتين وخمسين وستمائة، فلما كان شهر
ربيع الأول منها هجم عليه ابنه غانم بن راجح، وأخرجه من مكة بلا قتال.
فوليها غانم بن راجح في شهر ربيع الأول، واستمر إلى شهر شوال من السنة
المذكورة.

ثم وليها أبو نمي بن أبي سعد بن قتادة، وعمه إدريس بن حسن بن قتادة، وأخرج
غانم بن راجح منها.

وأبو نمي هذا: هو والد أبي سعد الحسن المذكور، وذلك أنه في شوال آخر
السنة المذكورة أعنى سنة اثنتين وخمسين وستمائة قبل وصول الحج إلى مكة قدم
الشريف أبو نمي، وعمه إدريس وأخذوا مكة من غانم بن راجح بعد قتال شديد قتل
فيه من الأشراف ثلاثة.

فلما كان أول الحجة وصل من جانب الملك المظفر صاحب اليمن عسكر عليه

أمير ابن برطاش فبرز له الأشراف أبو نمى وإدريس ومن معهما إلى خارج مكة، وتقاتلوا بالسرحة من قوز المكاسة، وكان معهم الشريف جماز بن شيحة، فقتل بين الصفيين خلق كثير، وانهزم الأشراف، ودخل مكة عسكر الملك المظفر.

وفى عام ثلاث وخمسين وستمائة جمع الشريف أبو نمى محمد بن أبى سعد الحسن بن على بن قتادة، وعمه الشريف حسن بن قتادة جمعًا عظيمًا، وقصدوا مكة فدخلوها من رءوس الجبال، وتقاتلوا وسط مكة هم وعسكر الملك المظفر صاحب اليمن فقتلوا غالب العسكر، وأسروا الأمير ابن برطاش، وسفكت الدماء بالحرم الشريف، وامتألت البلد منهم رعبًا بحيث لم يصل فى الحرم أحد، ووقع بينهم فى أيام الحج وبين أمير الحاج العراقى فتنة درأها الله تعالى بالصلح فسلم المسلمون، وفدى نفسه ابن برطاش الأمير، ورجع من حيث جاء.

وفى سنة أربع وخمسين وستمائة: استظهر إدريس على أبى نمى بإمرة مكة ثم اشتركا. وفى موسم خمس وخمسين وستمائة لم يحج أحد من أهل الحجاز، ولم ترفع راية من رايات الملوك لأحد بمكة.

وفى سنة ست وخمسين وستمائة خرج أبو نمى إلى ثقيف، وبقي إدريس بالبلد فهجم عليه أولاد حسن بن قتادة إخوته بعد أن لزموه. فولىها أولاد حسن بن قتادة فى غيبة أبى نمى، فلما جاء أخرجهم منها فى السنة المذكورة بغير قتال. وكانت مدتهم ستة أيام.

وفى سنة تسع وخمسين وستمائة حج الملك المظفر يوسف بن الملك المنصور صاحب اليمن معه المراكب تسايه فى البحر مشحونة بالعلوفات والأطعمة، وأكثر فى طريقه من الصدقات وفعل الخيرات والمبرات، والشريف أبو نمى، وعمه إدريس متولين إمرة مكة، فلما سمعا به خرجا خوفًا منه، فدخلها المظفر فى عساكر كثيرة محرما خاشعًا حاسر الرأس حتى دخل المطاف، ثم نزل عسكره بالحجون، ولم يزل بمكة إلى أن قضى ما عليه من الوقوف بعرفة وبقيّة المناسك، ولم يزل مدة إقامته بمكة يصلى المغرب على قبة زمزم، وخدم البيت وغسله مع الخدام وصب عليه وكنس، وكسا البيت الشريف من داخله، ولم يكسه ملك قبله بعد الخلفاء العباسية، وقام بمصالح الحرم وأهله، ثم أقام بمكة عشرة أيام يفرق الصدقات حتى

وصلت صدقاته إلى كل منزل بمكة، ونثر على الكعبة الذهب والفضة، وعمل للكعبة بابًا وقفلًا، وودع البيت باكيا وعاد إلى بلاده، وفي غالب سلطنته كان يخطب له بمكة.

واستمر أبو نemy وعمه إدريس متولين إمرة مكة إلى سنة سبع وستين، ثم انفرد بها أبو نemy، وأخرج عمه إدريس منها، وخطب لصاحب مصر الملك الظاهر بيبرس البندقدارى، واشترط عليه السلطان أن لا يمنع زائرا لا ليلا ولا نهارا، ولا يعترض تاجرا بظلم، وأن تكون الخطبة والدعاء له، ولأبى نemy، وجعل له عشرة آلاف درهم فى كل سنة، فأجاب الشريف أبو نemy بقبول هذه الاشتراطات، فلما ورد إلى السلطان من أبى نemy الإجابة بالسمع والطاعة وقبول ما اشترطه كتب السلطان إليه مرسوماً بإمرة مكة منفردا.

ففى سنة ثمان وستين: حج السلطان الملك الظاهر بيبرس على تجريدة خيل وركاب، وكان قدم له مع الحج خيلا وحملًا ومتاعًا فى المنازل كلما أصبح فى منزل ترك الخيل الأولى وأخذ المهيئات له، فارتحل إلى أن وصل مكة ثامن ذى الحجة آخر النهار، وقد طلع الناس عرفة، ولم يبق فى مكة غير الشريف أبى نemy وعسكره، فاستكروا ذلك وقالوا: ما يصل فى هذا الوقت إلا من قصد إدراك الحج قبل فواته أو غريب ما قدم قبل ذلك لا يعرف العادة، ورأوهم جميعهم على الخيل البلق. فقالوا لهم: من أين أنتم، من العراق أو من الكوفة أو من العجم أو من الترك؟ فقال السلطان: قولوا له: أليس قد قلت لا يجيئنى إلا على خيل بلق فقد جئناك على البلق، ونحن محرمون، وهذا صاحب مصر معه أمراء مصر والشام وعرفوه كل أمير باسمه فإن تقتل الجميع فاقتلهم، وكان الشريف أبو نemy قد قال مثل هذا القول فى العام الماضى، فاستغفر وتقدم إلى السلطان وقال: العفو يا مولانا السلطان، ثم ركب وسعى مع السلطان، وأشهد على نفسه أن لا يمكس أحدا من الحجاج القادمين برًا وبحرًا ويبطل الجباية والمظالم إلى أن تقوم الساعة وكتب عليه الإشهاد بذلك، فبطل ذلك وكان فى صحائف الملك الظاهر بيبرس، وتصدق السلطان بالحرم وفرق كساوى على أهله وعلق كسوة الكعبة بيده وزار من بمكة من الصالحين، وأحسن إحسانًا كثيرًا إلى الشريف أبى نemy، وكذلك لأمير المدينة، وكتب لأبى نemy وإدريس

أن يكون حالهما واحدًا في إمرة مكة فعادا شريكين. ثم انفرد إدريس بها أربعين يومًا، ثم قتل أبو نمى عمه إدريس في حرب كانت بينهما بخليص، وانفرد بها، وذلك أنه لما استظهر عمه إدريس عليه، وأخرجه من مكة، وانفرد بالإمارة خرج أبو نمى هاربًا من عمه إدريس من مكة، ووصل إلى ينبع، واستنجد بصاحبها وحشد، وجمع وقصد مكة بالجيش، فالتقى هو وعمه إدريس بخليص وتحاربا فطعن أبو نمى عمه فألقاه من ظهر الفرس ونزل واحتر رأسه، واستقل بالولاية منفردًا وذلك في سنة ٦٦٩ تسع وستين وستمائة.

وله وقائع مشهورة مع ملوك مصر وغيرهم، منها أنه في سنة ٦٨٣ ثلاث وثمانين وستمائة كانت فتنة بينه وبين واحد من أبناء أخيه لأجل ما يؤخذ من الحاج، قيل: كانوا يأخذون من حج اليماني في كل جمل ثلاثين درهماً، ومن حاج مصر على كل جمل خمسين درهماً، ومع هذا لا يسلمون من النهب والعسف، فلما حج الظاهر بيبرس أزاله ثم أعادوه، فأرسل الملك المظفر عسكرياً ملكوا مكة، فجمع أبو نمى عسكرياً، ودخل إلى مكة، وأخرج عسكر اليمن، وزاد على الحجاج في الجباية، ووصله جيش من مصر، فلما وصلوا إلى قرب مكة قفل أبو نمى أبواب سور مكة، ومنعهم من الدخول، فاجتمع الحجاج فهدموه، وأحرقوا باب المعلاة ودخلوا مكة هجماً بعد فرار أبي نمى من مكة زمن الحج، فخشى الملك من عوده فترك بها ثلاثة آلاف مع نائب من قبله فأقاموا بها، فاتفق أن ألفاً منهم خرجوا لناحية منى للتنزه فكمن لهم الشريف أبو نمى في خيل، ورجل بمسجد الخيف، فلما عادوا قاصدين إلى مكة هجم عليهم فقصدهم أميرهم فقتله ثم قال: كل من قتل فارساً فله فرسه، فعاد أكثر رجله خيالة، ثم صدقوا المحاربة والمجالدة معه، فكسروا الألف عن آخرهم، وانتصروا وغنموا خيولهم وسلاحهم وتفكك منهم أفراد فلاحقوا بالباقيين بمكة، وعرفوهم الحال وأن لا طاقة لكم به فهزم الجميع إلى مصر، فلما بلغ ذلك ملك مصر جهز جيشاً كثيفاً لقتال أبي نمى المذكور، ثم عزم على الوصول إلى مكة بنفسه، فاتاه أحد العلماء الصالحين، وسأله عن توجهه، فقال: إنه لقتل الشريف أبي نمى وأهله، فقال له ذلك العالم إنك حسنت العبارة، ولكن الناس يقولون إنك ذاهب إلى حرم الله تعالى، وقتل أولاد حبيبه رسول الله ﷺ، فوقع ذلك من الملك

موقعًا ورجع عن عزمه، ثم راسل الشريف أبا نمى بالمراسيل والهدايا والكلام اللين حتى زالت الوحشة بينهما وأقره على إمرة مكة.

وفى سنة تسع وثمانين وستمائة وقع بين الشريف أبى نمى وبين الحاج فتنة عند الثانية - أعنى الشبيكة - وانتهى الأمر إلى أن دخلوا الحرم، ورؤى فى الحرم الشريف أكثر من عشرة آلاف سيف، وقتل بين الفريقين فوق أربعين نفسًا، وقتل ولد السيد أحمد بن على بن قتادة وأصيب بسهم، وأما الجرحى فكثيرون، ونهبت أموال الناس.

وفى موسم إحدى وتسعين وستمائة وقعت بعرفة جفلة عظيمة، ولزم راجح بن إدريس أمير الينبع، ثم عزموا به إلى مصر وسلم الله المسلمين.

وكانت الوقفة بالثلاثاء، وتعبت الناس من قلة الماء فبيعت الراوية بأربعة دنانير، ورحل الحاج قبل وقته المعتاد، واستمر إلى أن أخرجه جماز منها.

ثم وليها جماز بن شيحة أمير المدينة وغانم بن إدريس بن حسن بن قتادة أمير الينبع المبارك، وأخرجوا أبا نمى المذكور منها فى صفر من سنة ٦٩٠ تسعين وستمائة.

ثم عاد أبو نمى بعد أربعين يومًا وأخرجهما منها.

ثم وليها جماز بن شيحة بمفرده عام سبع [وتسعين] وستمائة بمعاونة أمير يقال له الحكاحكى كان بمكة من قبل الملك المنصور قلاوون صاحب مصر والشام، وخطب لجماز بمكة المشرفة، وضربت السكة باسمه فيها، وبطل ذلك بعد مدة يسيرة من السنة المذكورة، ثم عاد أبو نمى، وتفرد بها ودامت ولايته عليها إلى أن مات عام إحدى وسبعمائة، فقبل موته بيومين ولى ولديه حميضة ورميثة أمر مكة كما سيأتى.

ولنذكر طرفًا من محامده فنقول: ولى أبو نمى محمد هذا مكة نحو خمسين سنة مشاركًا لأبيه وعمه ومنفردًا، أما مشاركته لأبيه فكانت أيام صباه وسنه سبع عشرة سنة وكان يكنى أبا مهدى، ويلقب بنجم الدين، وسبب مشاركته لأبيه أبى سعد الحسن ابن على بن قتادة أن راجحًا بن قتادة عم والده أبى سعد استنجد أخواله بنى حسين بالمدينة وطلب منهم الإعانة على إخراج ابن أخيه أبى سعد الحسن بن على المذكور والد أبى نمى المذكور من مكة وأخذها منه، فسار معه من المدينة سبعمائة فارس من

بنى حسين وجماعتهم وعليهم الأمير عيسى الملقب بالحرون فارس بنى حسين فى زمانه، وكان أبو نمى فى الينبع، فلما بلغه خبر راجح وخروجه ببنى حسين معه من المدينة إلى قتال أبيه، وإخراجه من مكة قصد مكة لنصرة أبيه فى أربعين فارساً، فصادف راجحاً وعيسى وجماعتهم سائرين إلى مكة ليس لهم خبر، فلما تراءى الجمعان حمل أبو نمى عليهم فما حملوه لحظة حتى ولوا هارين إلى المدينة، وانتشرت عمامة عيسى الحرون، وذهب يجرها خلفه، فقال السيد جعفر الحسينى النسابة - وهو لسان بنى حسن بالعراق - قصيدة يذكر فيها الواقعة، ويمدح أبا نمى محمد بن أبى سعد المذكور، منها: [من الوافر]

أَلَمْ يَبْلُغْكَ شَأْنُ بَنَى حُسَيْنٍ وَقَرَّهُمْ وَمَا فَعَلَ الْحَرُونَ
فَيَا لِلَّهِ فِعْلُ أَبِي نُمَيٍّ وَبَعْضُ الْبَأْسِ يُشَبِّهُهُ الْجُنُونُ
يَصُولُ بِأَرْبَعِينَ عَلَى مِائَاتٍ وَكَمْ مِنْ كَثْرَةٍ ظَلَّتْ تَهُونُ

وكان إذ ذاك عمره سبع عشرة سنة، ثم دخل مكة مسروراً منصوراً، فقابله أبوه بالإعزاز والإكرام، وأشركه معه فى الملك من حيثئذ، ثم شاركه عمه إدريس إلى آخر ما تقدم. وكانت له شجاعة مشهورة، وخصال حميدة مذكورة. قال ولده حميضة: كانت لأبى خمس خصال: العز والكرم والحلم والشجاعة والشعر.

من شعره مدحاً فى المنصور لاجين ملك مصر لما تسلطن بعد كتبغا سنة ست وتسعين وستمائة وأرسل بها إليه، وهى: [من الطويل]

أَمَّا وَتَعَادَى الْمُقَرَّبَاتِ الشَّوَارِبِ بِفُرْسَانِهَا فِي ضَيْقِ ضَنْكِ الْمَقَانِبِ
وَبِالْجَحْفَلِ الْجَرَّارِ أَفْرَطَ جَمْعُهُ كَأَسْرَابِ كُذْرَى [أو] سَوَارِ قَوَارِبِ
وَبِالزَّرْدِ الْمَوْضُونِ ضَمَّتْ غُضُونُهُ عَلَى كُلِّ مَاضِي الْعَزْمِ حَتْفَ الْمَحَارِبِ
وَبِالْبَيْضِ وَالْبَيْضِ الرِّقَاقِ أَلْيَّةُ لِنَثْرِ عِدَاتِي حَلْفَةَ غَيْرِ كَاذِبِ
لَقَدْ نُصِرَ الْإِسْلَامُ بِالْمَلِكِ الَّذِي رَفَى فِي سَمَاءِ الْمَجْدِ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ
حُسَامُ الْهَدَى وَالِدِينَ مَنْصُورَ الَّذِي تَرَعَّرَعَ مِنْ شَمِّ الْمُلُوكِ الشَّنَاجِبِ
مُلُوكُ جِهَاتِ الْأَرْضِ تَغْنُو لِقَهْرِهِ فَمَزْهُوبُهَا مِنْ سَيْفِهِ أَيْ رَاهِبِ
تَفَرَّدَ بِالْمَلِكِ الْعَظِيمِ فَلَمْ يَزَلْ لَهُ خَاضِعًا صِيدُ الْمُلُوكِ الْأَغَالِبِ
مَضَى كَتَبُهَا خَوْفَ الْجَمَامِ وَقَدْ أَتَتْ إِلَيْهِ أَسُودُ الْخَيْلِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وَأَخَيَّنَتْهُ بِالْعَفْوِ مِنْكَ وَزِدْتَهُ لِبَاسَ أَمَانٍ مِنْ عِقَابِ الْعَوَاقِبِ
وَأَحْرَزْتَ مُلْكَ الْأَرْضِ بِالسَّيْفِ عَثْوَةً وَعَبَدْتُ مَنْ فِي شَرْقِهَا وَالْمَغَارِبِ
تَوَلَّيْتُ هَذَا الْأَمْرَ فِي خَيْرِ طَالِعٍ لِأَسْعِدِ نَجْمٍ لِلْسَّعَادَةِ ثَاقِبٍ
قلت: والله إنها لقصيدة فصيحة، في اللفظ والمعنى صحيحة. وما أحسن بيتها
الثاني، وتشبيهه البديع المعاني.

وكانت وفاته بمكة المشرفة رابع شهر صفر سنة إحدى وسبعمائة بتقديم السين
وقد أناف على السبعين.

ووقعت له كرامة بعد موته ذكرها العلامة تقي الدين الفاسي قال: لما مات
أبو نemy محمد بن أبي الحسن بن علي بن قتادة امتنع الشيخ عفيف الدين الدلاصي
من الصلاة عليه، فرأى في منامه تلك الليلة السيدة فاطمة ابنة رسول الله ﷺ وعلى
أبيها وعليها وذويها بالمسجد الحرام والناس يسلمون عليها، فجاء الشيخ ليسلم
عليها فأعرضت عنه ثلاث مرات ثم إنه تحامل وسألها عن سبب إعراضها عنه، فقالت:
يموت ولدي ولم تُصَلِّ عليه، فاعتذر منها وتاب عن مثل ذلك واعترف بالخطأ.
وله من الولد ثلاثون ذكراً واثنان عشرة أنثى، منهم: زيد الأكبر، وزيد الأصغر،
وأبو الغيث، وشميلة، وعطيفة، ورميثة، وسيف، وأسد، ومقبل، وحميضة،
وعبد الله.

ثم وليها بعد أبي نemy ولداه حميضة يلقب معز الدين، ورميثة يلقب أسد الدين في
حياته، ودعى لهما على زمزم قبل وفاته بيومين في السنة المذكورة سنة إحدى وسبعمائة.
واستمر شريكين في الإمرة. فلما وصل الحاج وصل صحبته ثلاثون أميراً، فجاء
إليهم أبو الغيث وعطيفة، وشكوا إليهم من حميضة، ورميثة أنهما أسراهما
وربطاهما، واستبد بالإمرة دونهما وأنهما أحق منهما، فمال الأمراء إليهما، فلما
انقضى الموسم أمسك الأمراء رميثة وحميضة، وأوثقوهما في الحديد، وذهب بهما
إلى مصر، وولوا أبا الغيث وأخاه عطيفة فأقاما إلى عام ثلاث وسبعمائة.

ثم عاد كل من حميضة ورميثة إلى إمرة مكة المشرفة عام أربع وسبعمائة، وأظهرا
عدلا وأسقطا بعض المكوس، ثم ساءت سيرتهما فبعث الملك الناصر محمد ابن
الملك المنصور قلاوون من يقبض عليهما فانهزما.

ثم فى سنة اثنتى عشرة حج الناصر ففرا منه .

ثم فى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة وصل عسكر من صاحب مصر المذكور نحو ثلاثمائة فارس ، وأمدهم صاحب المدينة بخمسمائة فارس ، ووصل معهم أبو الغيث ، فلما سمع بهم رميثة وحميضة خرجا إلى حلى بن يعقوب .
ثم وليها أبو الغيث بمفرده ، فعزلهما بأخيها أبي الغيث منفردًا ، وجهاز معه عسكريًا قويًا فاستولى على مكة أيام الموسم من السنة المذكورة ، ثم أقام العسكر عند أبي الغيث شهرين ، وكانت مكة مقحطة جدًّا ، فتعب الجند من الغلاء ، وضجر أبو الغيث من النفقة عليهم ، فكتب لهم خطة بالاستغناء عنهم ففارقوه ، فلم يلبث بعدهم سوى جمعة حتى قصده أخوه حميضة فقاتله ، فانهزم أبو الغيث ، وقتل من أصحابه جماعة ، وفر هو إلى أخواله هذيل بوادى نخلة ، وأرسل حميضة إلى الملك الناصر يستعطفه فلم يرض عنه ، وأرسل أبو الغيث يستنصره فوعده بالنصر ، ثم التقى الأخوان فى رابع ذى الحجة عام أربع عشرة وسبعمائة فغلب حميضة أخاه أبا الغيث فأسره ، ثم أمر بعد ذلك بعض عبيده بقتله فقتله بخيف بنى شديد ذبحًا بحضرة الناس فهالهم ذلك .

قال فى « عمدة الطالب » : إن حميضة قتل أخاه أبا الغيث على فراشه ، وحمله إلى داره ثم استدعى إخوته للضيافة ، فاجتمعوا فما راعهم إلا أبو الغيث مقتولاً فى جفنة مسلوقًا كما هو وقد وضع بين أيديهم ، وعلى رأس كل واحد منهم غلامان أسودان من غلمان حميضة معهم السلاح ، فأذعنوا له بالملك قهراً ، ودامت له الولاية على مكة حتى فارقها فى رمضان سنة خمس عشرة وسبعمائة لما سمع بوصول أخيه رميثة .

ثم وليها رميثة منفردًا متوليًا إمرة مكة المشرفة فى عسكر معه من مصر ، وذلك فى سنة خمس عشرة وسبعمائة ، فلما سمع حميضة فزع لذلك ، وقبل وصولهم إلى مكة بستة أيام أخذ المال من النقد والبز وهو مائة حمل ، وأحرق الباقي فى الحصن الذى فى الجديدة من وادى مر وقطع ألفى نخلة .

وكان وصول العسكر صحبة الشريف رميثة إلى مكة يوم السبت منتصف رمضان من السنة المذكورة ، فأقاموا بها ثلاثة عشر يومًا ، ثم توجهوا جميعًا إلى الحليف وهو حصن بينه وبين مكة ستة أيام كان حميضة بعد فعل ما فعله التجأ إلى صاحبه ،

وصاهره لعله يحتمى به، فواقع العسكر حميضة، وصاحب الحصن، وأخذوا جميع أموال حميضة وخزائنه، ونهب الحصن وأحرق وأسر ولد حميضة ابن اثنتي عشرة سنة، وسلم إلى عمه رميثة، ثم رجع الجيش إلى مكة فى الخامس والعشرين من ذى القعدة، واستمروا إلى أن حضر الموقف ورجعوا، واستمر رميثة بمكة ونجا حميضة بنفسه، فقصده أخوه الشريف رميثة والعسكر فحاربوه، فهرب حميضة، ثم احتال عليه الناصر ملك مصر واعتقله، ثم احتال فى الهرب، وذلك أنه أمر بعض غلمانه الخاصة أن يهيبء له فرسًا سابقًا ليهرب عليه، فلما تم له ذلك حضر الغلام إلى باب السجن والفرس معه، فأوقفه ناحية، ثم دخل إلى سيده، ثم لبس السيد لباس الغلام، والغلام لباس السيد، فلما خرج على الموكلين لم يشكوا أنه الغلام، فهرب على فرسه وقصد العراق واستنصر بملكه خدابنده بن أرغون بن ابغا بن هولكو ملك التتار، وطلب منه جيشًا يغزو به مكة فجهاز معه جيشًا عدتهم عشرة آلاف فارس، وأمر عليهم السيد أبا طالب الدلقندى، وأمرهم بطاعة حميضة، فساروا إلى البصرة، ومنها إلى القطيف طالبين أطراف الشام، وأرسل حميضة إلى أمراء العرب من كل ناحية، فأجابوه والتجثوا إلى أمراء طيئ بالبادية فقدر الله موت السلطان خدابنده، وكتب الوزير رشيد الدين الطبيب إلى عسكر المغول بالخبر فلم يدبروا، واشتهر الخبر فطمع العرب فى عسكر المغول، ونكثوا العهد، وثاروا وأوقدوا نار الحرب فحارب حميضة بنفسه، ودافع عن عسكر المغول دفاعًا شديدًا بحيث إن أبا طالب قال: ما زلت أسمع بحملات على بن أبى طالب حتى رأيتها عيانًا فى حميضة بن أبى ندى، وتسحب حميضة ومعه أبو طالب، وملك شاه ومعه ثلاث وعشرون راحلة إلى أن قرب إلى مكة، وكتب إلى أخيه رميثة يستأذنه فى دخول مكة فمنعه إلا بإذن سلطان مصر، وأرسل إلى مصر يستأذن له وإن حميضة لم يكن معه إلا فرس واحد، فكتب السلطان جوابًا لرميثة: إن حضر حميضة إلى الديار المصرية على عزم الإقامة بها قابله السلطان بالأمان وسامحه من ذنوبه السالفة، وأما الحجاز فلا يقيم به.

وكتب إلى أبى طالب الدلقندى وملك شاه بالأمان، وأرسل عدة أمراء إلى مكة لإحضار حميضة، ولو حضر من التتار، فوصلوا إلى مكة وأرسلوا إلى حميضة فى معاودة الطاعة وأن يتوجه معهم إلى الأبواب، فاعتذر بالعدم، وطلب ما يستعين به

فأعطوه، فلما قبض المال تغيب، فعادوا إلى القاهرة فى سادس عشر جمادى الآخرة من سنة سبع وعشرين وسبعمائة، فلما كان سنة ثمان وعشرين وسبعمائة أو فى أواخر السنة التى قبلها وثب على أخيه رميثة، واستولى على مكة فخرج منها أخوه رميثة إلى نخلة، فقطع حميضة الخطبة عن الناصر وخطب لأبى سعيد بن خدابنده ملك التتار، فانزعج الناصر لذلك، وأرسل عسكريًا لإحضار حميضة بسبب ما فعل فى مكة من خطبته لصاحب العراق خدابنده، وأخذ أموال التجار، ومحاربتة أخاه رميثة، وإخراجه إياه من مكة، وقد كان فعل ذلك كله فلما بلغه فر من مكة، فلما دخلها عسكري الناصر ومنعوا العبيد من حمل السلاح، ونادوا بالأمان، وأظهروا العدل، فأرسلوا فى طلب حميضة فإن السلطان ألزمهم بتحصيله وحمله إلى مصر وألا يعودوا إلى الديار المصرية إلا بحميضة، وأرسلوا إلى العسكري أميرًا يقال له بهادر الإبراهيمي كان من أهل ينبع، فلما وصلوا توجه الإبراهيمي لمحاربة حميضة، وتقاربًا فلم يقدم الإبراهيمي على مواجهته وفر حميضة، فاقتضى رأى العسكري أن يلزموا رميثة والإبراهيمي باتهامهما أنهما باطنا على حميضة حتى فر، وكان القبض عليهما رابع عشر ذى الحجة الحرام بعد انقضاء أيام التشريق وأرسلوا بهما تحت الاحتفاظ إلى مصر، فلما وصلا مصر رسم على الشريف رميثة، ثم شفع فيه، فأكرمه السلطان، ورتب له كل يوم [شريحتين]^(١) ذهبًا، وكان يطلع إلى الديوان إلى يوم من الأيام خرج إلى أطراف مصر، وكان قد هيئت له النجب فركب وفر، فلما علم السلطان به أرسل فى إثره، وألزم بعض مشايخ العرب وكتب إلى شيخ آل حرب يقول له هذا هرب إلى بلادك معتمدًا عليك، ولا أعرفه إلا منك، وإن لم تأتني به فأنت خصمى فأنت الذى أعتته على الخروج، فركب شيخ آل حرب بالهجن السبق وسار مجدًا حتى أدرك الشريف رميثة تحت العقبة - وقد اطمأن فنام - فجلس عند رأسه، وقال له: قم يا أسود الوجه. فقال له الشريف رميثة: صدقت لو لم أكن أسود الوجه مانمت حتى أدركتنى. فلزمه ودخل به إلى مصر فوضع فى السجن الكبير، واحتفظ عليه، وكان القبض عليه فى شهر جمادى الأولى سنة تسع عشرة وسبعمائة، وتوجه إلى مكة وكان أمرها لأخيه عطيفة الآتى ذكره على الفور وولوا على مكة الشريف عطيفة.

(١) فى ط: شريفين.

ثم وليها الشريف عطيفة بن أبي ندى من الملك الناصر وأنفذ معه عسكرياً فبلغوها سنة تسع عشرة وسبعمائة، وعليهم أميران وأقاموا عنده، ثم توجه الأميران اللذان كانا بمكة العام الماضى وكتب الشريف عطيفة أن القواد أطاعته وأن الشريف حميضة عزم اليمن، وتفرق عنه العربان، وبنو شعيب الذين كانوا معه جنده، ورخصت البلاد وأمنت الناس على أموالهم ودمائهم. فلما بلغ الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر ذلك خرج إلى الحج تاسع ذى القعدة بعد الحاج، ووصل إلى مكة بتواضع وانكسار وذلل بحيث إن بعض الناس حسن له الطواف راكباً كما فعله عليه السلام فقال: ومن أنا حتى أتشبه بالنبي ﷺ؟ والله ما أطوف إلا مع الحجاج، فكانوا يدفعون عنه الناس، وهو ينضم إليهم يقول: لعلى أقبل برحمة واحد منهم.

وأبدى من المعروف والإحسان والخير فى الحرمين ما لا يوصف، وسأله التجار وأهل مكة أن يبقى عندهم عسكرياً لثلا يرجع إليهم حميضة ففعل.

وافق ذلك العام أن شخصاً من أكابر خدام الدولة طلع إلى البيت لياشر فى الكسوة، وجلس على طُنف البيت الشريف، فأنكر الناس جلوسه وعدم أدبه، فأخذه النعاس فسقط من أعلى البيت إلى المطاف فكان أعظم عبرة لمن اعتبر.

وعزم السلطان إلى مصر. فقدم حميضة من اليمن بجيش سنة عشرين وسبعمائة، فأراد دخول مكة فلم يظفر، وانتصر عليه عطيفة ومن معه من العسكر المقيمين بمكة الذين أبقاهم الناصر، فلما ولى هارباً خرج معه ثلاثة من المماليك، وأقاموا عنده. وكان بمكة أمير العسكر يسمى بيبرس الحاجب أرسل إلى الشريف حميضة يرغبه فى مكة والصلح والحلف، وكان الشريف حميضة بقرب نخلة، فقال له الشريف حميضة: أرسل إلى أحد أولادك يكون عندى رهينة، فأرسل إليه الأمير بهدية صحبة ولده وجماعة، ففى حال خروجهم إليه جاء الخبر بموت الشريف حميضة وأنه وثب عليه بعض مماليكه، وهو نائم فقتله، جاء بهذا الخبر رجل من الأعراب، فأنكر الأمير وقوع ذلك وظن أن ذلك مكيدة فتوقف عن إرسال ولده والهدية، فلما كان المساء طرق باب المعلاة بمكة ففتح فإذا مملوك اسمه استدمر وهو على حجرة حميضة وصل إلى مكة فأرسل الأمير ولديه ناصر الدين محمد وشهاب الدين أحمد إلى الأبواب السلطانية بهذا الخبر، وجهز من توجه لإحضار سلب حميضة

والمملوكين الباقين، فأحضر السلب وأحد المملوكين، وقيل: إن الثالث مات، فالزم صاحب نخلة بإحضاره، وتوعده إن تأخر فأحضره، واستمر الأمير بيبرس إلى أن عاد الجواب بطلبه، فتوجه في شعبان، ووصل إلى مصر أوائل رمضان فشمله الإنعام السلطاني، وكان مع الشريف حميضة هذه المهرة عزيزة اسمها جمعة طلبها منه السلطان في السابق فلم يسمح له بها، ولما وصل الخبر إلى السلطان أمر بقتل المملوك القاتل وهو أحد ممالك ثلاثة للسلطان هربوا لما كان بمكة للحج، ووصلوا إلى حميضة اسمه استدمر، أخبر أنه قتل حميضة اغتاله، وهو نائم وفر على حجرة حميضة المسماة جمعة المشهورة، ثم جرد سيفه وإذا به أثر الدم، وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة عشرين وسبعمئة.

وذكر الياقبي أن حميضة كان يقول: لأبي خمس فضائل: الشجاعة، والكرم، والحلم، والشعر، والسعادة. فالشجاعة لعطيفة، والكرم لأبي الغيث، والحلم لرميثة، والسعادة لى حتى لو قصدت جبلا لدهكته. ومما قيل في حميضة قول موفق الدين الحديدي قصيدة هي: [من الخفيف]

قَدَحَ الْوَجْدُ فِي فُؤَادِي زَنَادَا	مَنَّ الْجَفْنَ أَنْ يَذُوقَ الرُّقَادَا
وَفُؤَادُ الشَّجِيِّ يَوْمَ الْآلِ	سَاقَهُ سَائِقُ الطُّغُونِ وَقَادَا
بَدَلْنِي بِالْوَضْلِ هَجْرًا وَبِالزُّو	رَةٍ صَدًّا وَبِالتَّدَانِي بِعَادَا
يَا مُعِيدَ الْحَدِيثِ غُذِيهِ عَنْهُمْ	مَا أَلَذَّ الْحَدِيثِ عَنْهُمْ مُعَادَا
هَاتِ بِاللَّهِ يَا مُحَدِّثُ حَدَّثْ	بِحَيَّادِ جَادِ الْعَمَامِ حَيَّادَا
بَلَدًا بِالشَّرِيفِ شَرَفُهُ الدِّ	هَ بِقَاعًا شِيحَانُهُ وَوَهَادَا
مَلِكُ مَنْ قَتَادَةَ مَلَأَ الْأَزْ	ضَ نِصَالًا مَخْشُودَةً وَصِعَادَا
إِنْ أَكُنْ فِي حَمِيضَةٍ زِدْتُ فِي الْمَذْ	حِ فَقَدْ زَادَ فِي تَوَالِي وَزَادَا
رَجُلٌ سَالَمَ الْمَسَالِمَ فِي الدِّ	هِ وَفِي اللَّهِ لِلْمُعَادِينَ عَادَا
عَادَ أَبْدَى أَوْلَى قَوْلَى تَعَالَى	عَزَّ أَعْطَى سَطَا أَقَادَ أَبَادَا
جَادَ أَغْنَى عَلَا سَمَا جَلَّ جَلَّى	ظَلَمَ الظُّلَمِ عَذْلُهُ سَارَ سَادَا
حَسَنُ السُّمْتِ لَيْسَ يَخْسُنُ أَنْ تَشْ	مَعَ إِلَّا فِي مِثْلِهِ الْإِنْشَادَا
إِنْ بِنْتَ النَّبِيِّ لَمْ يَجْعَلِ الدِّ	هُ سِوَاكُم لِأَرْضِهِ أَوْتَادَا

يَا رِكَابَ الْأَمَالِ وَيَحْكُ بِالنُّجْجِ حِجْ بِحَصْنِ الْجَدِيدِ أُمِّي نِجَادَا
يَا جَوَادَ الزَّمَانِ مَا زُرْتَ مَعْنَا هُ ابْتُ مِنْ عِنْدِهِ أَقْوَدُ جَوَادَا
كُلُّ شَيْعِرٍ أَتَاكُمْ غَيْرُ شَيْعِرِي يَا أَبَا زَيْدٍ لَيْسَ يَسْوَى الْمِدَادَا

وقال فى العمدة: إن السلطان الناصر هو الذى دس عليه من قتله غيلة والله أعلم بالحقائق ثم إن السلطان أطلق الشريف رميئة حينئذ من السجن وأحسن إليه، وأشركه فى إمرة مكة مع أخيه عطيفة وذلك فى سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة، وكانت سنة قحط لعدم الأمطار وعدم الواصل من البحر، فتوجه الشريف عطيفة إلى مصر وشكا ذلك، فرسم السلطان بحمل الحب إليها ورتب لصاحب مكة كل عام شيئاً يحمل إليه من بلدين بالصعيد، وألزمه أن يسقط المكوس التى تؤخذ من مكة على المأكولات التى تجلب إليها ففعل ذلك.

وفى موسم سنة ٧٣٠ ثلاثين وسبعمائة اتفق أن أهل العراق جاءوا بفيل عظيم جعلوا محملهم عليه، فتطير العالم منه، وقالوا: هذا عام الفيل، ثم دخلوا به مكة، ووقفوا به بعرفة ثم توجهوا به إلى المدينة المشرفة، فلما وصلوا الفريش، وقدموا على البيداء، أوقفه الله فلم يستطع المشى، فضر به ضرباً مبرحاً فلم يبرح، فلم يزالوا يضربونه حتى مات هنالك، وقدر الله بعد إتمام الحج بمكة أن سافر أمير أول وتأخر أمير المحمل المصرى المسمى أزدمر الخازندار تأخر لصلاة الجمعة، فلما صعد الخطيب المنبر عبث بعض العبيد بخطف شيء من أمتعة الحجاج بباب إبراهيم، فصرخت الناس، فارتج المسجد، ففزع السيد مبارك بن عطيفة وقواده بألة الحرب وركبوا الخيل، وتبعهم الشريف عطيفة، فبادر ولد أمير الحاج لتخميد الفتنة فأصابته حربة، ففزع والده أمير الحاج أزدمر وهم بقتل الضارب فأصابته حربة أخرى فماتا جميعاً، فاشتد الأمر وعظم وهجم بالخيول إلى المسجد الحرام، ونهبت الأسواق، وتعب الشريف عطيفة، وتحير فى أمره ولم يستطع ردهم ولا قهرهم، وكان حتى الحاج نفسه يذهب بعضه بعضاً.

فلما بلغ السلطان ذلك أمر بقتل الأشراف، وقطع الأشجار من وادى نخلة والأودية، وأجلى نساءهم وأولادهم، وجhez عسكرياً وأمرهم أن يقيموا بمكة ولا يرتحلوا حتى يقضوا حاجته فى المأمور فيهم بذلك. وكان شخص من أهل العلم

يسمى قاضى القضاة جلال الدين القزوينى واعظًا فقام ووعظ السلطان ونهاه أن يحدث فى حرم الله أو أبناء رسول الله ﷺ وقال له: يا مولانا الرأى أن ترضيهم وتأخذهم بالطيب، فأرسل إليهم بعض الأمراء بدون ما كان جهزه ونواه، وعزل الشريف عطيفة لأنهم اتهموه بقتل الأمير أزدمر الخازندار المذكور بعد أن دام سلطانه عليها إلى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، ورضى عن الشريف رميثة، وأعاد له لولاية مكة.

فوليها رميثة بمفرده، وولاه إمرتها مفردًا مستقلًا إلى عام أربع وثلاثين، ومضى عطيفة إلى مصر بعد عزله، ووصل متوليًا لإمرة مكة شريكًا لرميثة، ثم أخرجه رميثة ليلة رحيل الحاج من مكة من هذه السنة، ثم اشتركا فى ذى الحجة من سنة خمس وثلاثين وسبعمائة.

ثم فى رمضان من سنة ست وثلاثين هجم رميثة مكة وخرج منها بعد قتل وزيره الرباع وبعض أصحابه وعاد إلى الجديدة، ثم اصطلحا واشتركا فى الإمرة سنة سبع وثلاثين وتوجها إلى مصر للملك الناصر مطلوبين، فعوق عطيفة فيها ولزم حتى مات بها فى سنة ثلاث وأربعين بالقبيبات ظاهر القاهرة ودفن هناك، وكان موصوفًا بشجاعة مفرطة رحمه الله تعالى ومما قيل فيه قول العلامة شرف الدين يحيى المعروف بالقشر المكى قصيدة منها: [من الكامل]

تَجْرِى مَقَادِيرُ الْإِلَهِ بِمَا تَشَاءُ	وَالدَّهْرُ قَدْ أَلْقَى إِلَيْكَ زِمَامَهُ
أَلَلَهُ أَعْطَاكَ الَّذِى أَمْلَتْهُ	فَدَعَ الْحَسُودَ ثُمِيتُهُ أَوْهَامَهُ
مَا لِلسُّكُوتِ إِفَادَةٌ عَنْ كُلِّ مَنْ	أَمَدَّتْ بِهِ بَيْنَ الْوَرَى أَجْرَامُهُ
هَا قَدْ قَدَرْتَ فَلَا تَكُنْ مُتَوَانِيًا	فَالْأَفْعَوَانُ قَوِيَّةُ أَسْمَامُهُ
لَا تَخْلَمَنَّ عَنِ الْعَدُوِّ تَكْرُمًا	كَمْ سَيِّدٌ ضَرَّتْ بِهِ أَخْلَامُهُ
لَا تَحْقِرَنَّ أَحَا الْعَدَاوَةِ إِنَّهُ	كَالْجَمْرِ يُوشِكُ أَنْ يَضُرَّ ضِرَامُهُ
أَنْتَ الْمَلِكُ ابْنُ الْمَلِكِ أَصَالَةٌ	فَالْجُودُ مِنْكُمْ وَفَرَّتْ أَقْسَامُهُ
أَوْ مَا عَلِمْتَ بَأَنَّ فِيكَ فَصَاحَةٌ	مَا حَازَهَا قُسٌّ وَلَا أَقْوَامُهُ
لَيْتَ تَخَافَ الْأَسَدُ مِنْ سَطَوَاتِهِ	غَيْثٌ يَجُودُ عَلَى الْأَنَامِ غَمَامُهُ
مَنْ لَيْسَ مَشْغُولَ الْبَنَانِ عَنِ الثَّدَى	يَوْمًا إِذَا شَعَلَ الْيَمِينُ حُسَامُهُ

وعاد رميثة متوليًا مفردًا، فوصل فى سنة سبع وثلاثين، ولم يزل مفردًا بها

مستقلاً إلى سنة أربع وأربعين وسبعمائة كما سيأتى .

ووقع فى ولاية الشريف رميثة بن أبى نمى واقعة وهى أنه لثلاث وأربعين وسبعمائة وقعت فتنة بعرفة بين الحجاج المصريين، وبين أهل مكة من أهل مكة من قبل الظهر إلى غروب الشمس قتل فيها جماعة، ومن الترك ستة عشر نفرًا، ومن أتباع الأشراف ناس قليل، ونفر الناس من عرفة قبل الغروب، وسلكوا طريق المظلمة، ولم يقفوا بمزدلفة، ورحل الحجاج جميعهم يوم النفر، ونزلوا الزاهر، ولم يطوفوا خوفًا على أنفسهم، وتعرف هذه السنة عند أهل مكة بسنة الظلمة، وأصيب فى هذه السنة السيد محمد بن عقبة بن إدريس بن قتادة بن إدريس بن مطاعن يوم الثلاثاء حادى عشر ذى الحجة الحرام .

ثم فى سنة أربع وأربعين وسبعمائة: وقع بين أهل مكة كذلك وأمير الحاج حرب، وقتل جماعة، وسلم الله الأشراف، ولله الحمد والمنة .

وسلم الله الحج من النهب ببركة الشريف رميثة، غير أنه كان غلاء عظيم بيعت الويبة الشعير بدينارين، والرطل البقسماط بثلاثة دراهم، والويبة الدقيق بخمسين درهما والإردب القمح بمائتى درهم، وكان الحاج المصرى والشامى كبيرًا جدًا .

وفى أعنى سنة أربع وأربعين وسبعمائة: اشترى الشريف عجلان بن رميثة، وأخوه الشريف ثقبه بن رميثة اشتريا مكة من أبيهما رميثة بستين ألف درهم، لأنه كبر سنًا، وصار أولاده كل منهم يحكم فى البلاد بما شاء واختار، فما رضى بذلك ملك مصر لما بلغه، وأرسل إلى الشريف ثقبه وخدعه وطلبه إليه، فلما وصل إليه بمصر حبسه، فعند ما بلغ الشريف عجلان حبس أخيه ثقبه أخذ جلاب اليمن جميعًا فكان ذلك بعض أسباب الغلاء، وأعاد رميثة إلى إمرة مكة فعاد واستمر إلى سنة ست وأربعين وسبعمائة، فعزل عنها بابنه عجلان، وكان الملك الكامل ولاه ذلك من مصر .

فوصل مكة متوليًا ودخلها فى حياة أبيه .

وتوفى والده رميثة فى النصف من شهر ذى القعدة الحرام من السنة المذكورة .

وكان الشريف رميثة سيدًا جليلًا فاضلاً نبيلًا، شاعرًا كريمًا، حازمًا حليمًا .

ولما تغلب ابنه أحمد على الحلة وأعمالها من العراق كتب إليه أبوه رميثة قصيدة يذكر فيها شرف مكة وفضائلها ويذم العراق وأهله، فلما قتل أحمد وصل الخبر إلى

أبيه فقال: قد علمت منذ تعرض لبلاد المغول أنه مقتول.

وانقطع الحاج عن مكة خوفاً من أبيه رميته.

وكانت وفاة رميته يوم الجمعة الثامن من ذى القعدة الحرام سنة ست وأربعين

وسبعمائة كما تقدم وطيف به أسبوعاً كما هي عادة أسلافه.

وذلك وقت صلاة الجمعة والخطيب على المنبر، فكف حتى فرغوا من الطواف به.

وكان ابنه عجلان يطوف مع الجنازة، ثم جعله في مقام الخليل على نبينا وعليه

أفضل الصلاة والتسليم.

ودفن بالمعلاة عند قبر أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ.

كانت ولايته على مكة سبع مرات ومجموعها ثلاثون سنة أو أكثر، مستقلاً أربع

عشرة سنة ونصف سنة أو أزيد، وشريكا لأخيه حميضة في مرتين مجموعهما نحو

عشر سنين، وشريكا لأخيه عطيفة ست سنين أو أزيد.

وكان يكنى أسد الدين ويلقب أبا عراة. وكان له من الأولاد أحمد وسند وثقة

وعجلان ومغامس، رحمه الله تعالى

ومما قيل فيه قول موفق الدين الحيدى: [من الكامل]

بالله هاتِ عَنِ اللّوى وطلّولِهِ	وَعَنِ الْعَصَا وَجَلَالِهِ وَخُلُولِهِ
أَطلِ الحَدِيثَ فَإِنَّ تَقْصِيرَ الَّذِي	يَلْقَى مِنَ التَّبْرِيحِ فِي تَطْوِيلِهِ
عَلَّلَ بِذِكْرِ الْعَامِرِيَّةِ قَلْبَهُ	فَشِفَاءُ عِلَّةٍ ذَاكَ فِي تَغْلِيلِهِ
وَإِذَا عَلِيلُ الرِّيحِ أَهْدَى نَحْوَهُ	نَشْرًا فَتَنْشُرُ عَلَيْهِ بِعَلِيلِهِ
رَشَاءً رَنَا فَرَمَى فُوَادَ مُحِبِّهِ	عَنْ قَوْسِ حَاجِبِهِ بِسَهْمِ كَجِيلِهِ
وَحَوَى الْقُلُوبَ بِأَسْرِهَا فِي أَسْرِهِ	وَسَبَى الْبَهَا بِرَسِيلِهِ وَأَسِيلِهِ
وَبَيَاضِهِ وَسَوَادِهِ وَقُوِيهِ	وَضَعِيفِهِ وَخَفِيفِهِ وَثَقِيلِهِ
وَتَقَيًّا الظِّلِّ الَّذِي ضَمِنَتْ لَهُ أَلْ	أَيَّامَ بَيْنِ مَبِيتِهِ وَمَقِيلِهِ
حَطَّ الرُّحَالَ بِمَكَّةِ وَأَقَامَ فِي	حَرَمِ الْخِلَافَةِ بَعْدَ طُولِ رَجِيلِهِ
جَلَبَ المَدِيحَ لِمَنْجَبِ بْنِ مُحَمَّدٍ ابْنِ	نِ تَبِيهِ ابْنِ وَصِيهِ ابْنِ بَتُولِهِ

ومنها:

واقرأ تحيته البطين ومجد إِيهِ رَاهِيمِهِ فِي صُلْبِ إِسْمَاعِيلِهِ

مَا بَيْنَ شَبْرِهِ وَبَيْنَ شَبِيرِهِ
 نَسَبَ كُمُشْتَقَّ الشُّمُوسِ وَمَفْخَرِ
 أَمَّا الْفُرُوعُ فَلَيْسَ مِثْلَ فُرُوعِهِ
 يَابَنَ الْمُظَلَّلِ بِالْعِمَامَةِ وَالَّذِي
 مَاذَا عَسَى مَدْحِي وَقَدْ نَزَلَ الثَّنَا
 فِي هَلْ أَتَاكَ، وَهَلْ أَتَى، وَحَدِيدِهِ
 قَالُوا مَدَحْتَ رُمَيْثَةَ فَأَجَبْتُهُمْ
 وَلَكَيْفَ لَا أَثْنِي عَلَى مَنْ عَمَّنِي
 بِنُضَارِهِ وَلُجَيْنِهِ وَثَوَابِهِ
 هَذَا مَا وَجَدْتُ، وَلَا أَعْلَمُ هَذَا آخِرَهَا أَمْ لَهَا آخِرٌ، وَهِيَ عَظِيمَةُ الشَّانِ مِنَ الْحَسَنِ
 فِي الْمَبْنَى وَالْمَعْنَى بِمَكَانٍ.

وللأديب أبي عامر منصور بن عيسى بن سحبان الزيدى فيه قصيدة أولها: [من

الكامل]

مَا أَوْمَضْتُ سَحْرًا بُرُوقَ الْأَبْرِقِ
 صَنَّمْتُ شَغِفْتُ بِهِ وَغَضَضْتُ شَبَابَهُ
 شَقَّتُ عَرَى كَبِدِي شَقَائِقُ خَدِّهِ
 مَا فَاتَ مِنْ عُمْرٍ فَلِلْغَيْدِ الدُّمَى
 ومن مديحها قوله: [من الكامل]

رَجُلٌ إِذَا اشْتَبَهَ الرِّجَالَ عَرَفْتُهُ
 وَمُظْفَرُ الْحِمَالِ يَرْقُصُ مِنْهُ قَدْ
 عَلَّمَ يَدُ عَلَى كَمَالِ صِفَاتِهِ
 يَلْقَى بِوَجْهِ الْبَشْرِ طَارِقَ بَابِهِ
 عَزَّتْ بَنُو حَسَنِ بِدَوْلَتِهِ الَّتِي
 هُوَ صُنِجَ لَيْلَتِهَا وَبَذَرُ ظَلَامِهَا
 لَا يَتَّقَى مِنْ كُلِّ حَادِثَةٍ بِهَا
 وَلَهُ فِيهِ أَيْضًا: [من الخفيف]

إِلَّا شَرَقْتُ بِدَمْعِي الْمُتَرَقِّقِ
 غَضُّ وَبَزْدُ شَبِيبَتِي لَمْ يَخْلُقِ
 وَبِكَأْسٍ فَنَتَيْهِ سُقَيْتُ وَمَا سُقِي
 لَا أَرَشُ فِيهِ وَلِلصَّبَابَةِ مَا بَقِيَ

بِجَلَالِ صُورَتِهِ وَحَسَنِ الْمُنْطَقِ
 بَ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَقَلْبُ الْمَشْرِقِ
 كَرُمُ الْفُرُوعِ لَهُ وَطِيبُ الْمَعْرِقِ
 [لَيْلًا] وَيَرْزُقُ مِنْهُ مَنْ لَمْ يَرْزُقِ
 عَزُّ الدَّلِيلِ بِهَا وَأَمْنُ الْمَفْرِقِ
 وَلِسَانُ حِكْمَتِهَا وَصَدْرُ الْفِيلِقِ
 وَبِهِ بِمَكْرُوهِ الْحَوَادِثِ نَتَقِي

حَفِظَ الْعَهْدَ بَعْدَنَا أَمْ أَضَاعَا
وَرَعَى حَرَمَةَ الْجَوَارِ وَرَاعَى
مَنْ يَكُنْ يَحْمَدُ الْوَدَاعَ فَإِنِّي
جِيرَتِي مَا لَنَا حَفِظْنَا هَوَاكُم
إِنَّ مَنْ قَدَّرَ الْفِرَاقَ عَلَيْنَا
قُلْ لَذَاتِ الْقِنَاعِ هَلْ جِئْتُ ذَنْبًا
إِنَّ مَنْ أَشْبَعَ السَّوَارِينَ يَذِي
ومنها: [من الخفيف]

قُلْ لِأَهْلِ الزَّمَانِ إِنِّي وَإِنْ رِي
نَحْنُ فِي دَوْلَةٍ إِذَا مَدَّتِ النَّا
طَلَبْتُ بِي أَبَا عِرَادَةَ عَيْسُ
عَرَسْتُ مِنْ رَمِيثَةَ بَعْرَاصِ
نَزَلْتُ سَوْحَهُ عَطَاشًا جِيَاعًا
رَجُلٌ لَا تَرَاهُ بِالْمَالِ مَفْرَا
وَعَلِيهِ بِكَرُ الْخِلَافَةِ أَلَقْتُ
لَيْسَ بِالنَّازِلِ الْوَهَادِ مِنَ الْأَرِ
مَوْقِدًا نَارَهُ عَلَى نَشْرِ الْأَرِ
نَمْ هَنِئًا يَا جَارَهُ مِلءَ عَيْنِي

ثم وليها بعده ابنه عجلان بن رميثة بن أبي نُمى بن محمد بن أبي سعد الحسن بن
على بن أبي عزيز قتادة يلقب عز الدين .

ولى مكة غير مرة نحو ثلاثين سنة منفردًا إلى سنة ثمان وأربعين، ثم شريكا لأخيه
ثقة إلى سنة خمسين وسبعمئة ولولده أحمد بن عجلان .

ووقعت بينه وبين أبيه وإخوته ولولده أحمد منازعات اقتضت عزمه إلى مصر مرارًا
أولها سنة موت والده رميثة سنة أربعين وسبعمئة، فوافق وصوله إليها موت ملكها
الملك الصالح وتولية ابنه الكامل، فولى الكامل الشريف عجلان مكة منفردًا فوصل
إليها وقرئ مرسومه بالتولية ودعى له بعد المغرب بأعلى زمزم على العادة، وقطع

الدعاء عن والده رميثة. وذهب أخوه ثقبه إلى وادي نخلة وأعطى عجلان أخاه مغامس - أو مباركا - المكان الذي عرف بالواديين، وأظهر الشريف عجلان العدل في مكة وأبطل المكوس والنهب والقتل وخرج ربيع الجبايات.

ففي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وصل ثقبه من مصر، ويده مرسوم بنصف البلاد، وأن الشريف عجلان يكون له النصف الآخر.

وفى سنة تسع بتقديم التاء وأربعين وصل إلى مكة إليه مبارك بن عطيفة من اليمن وهم أن يدخل مكة فالتقى الله في قلبه الرعب فرجع، ووصل إلى سواكن ومات بها. ثم وقع بين الشريف عجلان وأخيه الشريف ثقبه سنة خمسين وسبعمائة فتنة، وكان ثقبه بالجديد وعجلان بمكة فخرج إليه الشريف عجلان، فلما هم بالقتال منعه الأشراف والقواد وأصلحوا بينهما، وعزم الشريف عجلان إلى خيف بنى شديد ودخل ثقبه مكة.

ثم عزم عجلان إلى مصر، وهذه هي السفرة الثانية، فقطع الشريف ثقبه الدعاء لأخيه عجلان، فلما وصل الشريف عجلان إلى مصر كتب له مرسوم بإمرة مكة وأرسل معه أمير واشترى الممالك لنفسه، واستخدم حملة عسكر وتجهز، وصحب معه حمل نشاب وقسي، ووصل إلى مكة بهذا الجمع، فعزم الشريف ثقبه وأخواه سند ومغامس إلى اليمن، وتلقوا الجلاب ونجلوها بحلى، واستمر الشريف عجلان في ولاية مكة.

فلما كان موسم إحدى وخمسين وسبعمائة وقع بمنى قتل ونهب من أول النهار إلى غروب الشمس، وذلك أن السلطان الملك المجاهد صاحب اليمن حج في عسكر كبير، ووصلوا مع الأشراف السيد ثقبه وأخويه سند ومغامس، فأوحى الشريف عجلان إلى أمراء الحاج المصرى والشامى أن الملك المجاهد نيته أن يولى ثقبه إذا عزمتم، ويخلع كسوتكم ويكسو البيت بالكسوة التى صاحبها معه، فأرسلوا إليه وعرفوه بما ذكر، فأنكر ذلك.

فقالوا: أعطنا ثقبه يكون رهنا عندنا حتى ندعك تدخل، فأرسل إليهم بالشريف ثقبه فأجلوه وعظموه، فلما وصل وحج هجموا عليه بمنى وهو نائم، وقد تفرق عنه جماعته فنهبوا محطته، وبعض الحريم فنجا بنفسه إلى أعلى الجبل، فلما رأى

ما وقع صاح عليهم الأمان: إن كان لكم غرض بى أنا آتيكم، ما فعل هؤلاء الضعفاء؟ فسكن الحرب ونزل إليهم، فترجلوا له عن الخيل وأركبوه بغلا وذهبوا به، فما صفت المسألة حتى قتل خلق ونهبت الناس، وألزم الأمراء الشريف عجلان بحفظ الحاج، غير أن العرب وبعض العبيد نهبوا الناس ما بين منى ومكة.

ولما وصل الحاج والأمراء وادى مر فى موسم أربع وخمسين وسبعمئة واجههم الشريف عجلان وشكا عليهم ما فعله أخوه الشريف ثقبه فى السنة التى قبل هذه سنة ثلاث وخمسين وأنه أخذ أمواله وخيله وعبيده، وقيده فخلصه الله تعالى، فوعده بالولاية وطمنوا خاطره.

فلما وصلوا الزاهر خرج إليهم الشريف ثقبه على المعتاد، فتكلموا معه فى الصلح مع أخيه الشريف عجلان، فامتنع فلم يزالوا يلاطفونه حتى دخل إليهم. فقال لهم الشريف ثقبه: إن كان هذا بأمر السلطان فنعم وإلا لا أفعل، فقبض بعض الأتراك على سيف ثقبه والباقون احتاطوا بمن معه، فأنزلوهم عن خيولهم وكبلوهم فى الحديد هو وأخويه سند ومغامس وابن عمه محمد بن عطيفة وفر القواد والعبيد، ثم أحضروا عجلان، وألبسوه الخلعة، ودخلوا به مكة ولم يختلف عليه اثنان، فلما أتموا الحج ذهبوا بالأشراف إلى مصر، ووضعوهم فى الحبس، ودام عجلان على ولاية مكة منفردًا مستقلا إلى أن فك ثقبه، والأشراف الذين معه وشاركه فى سنة ثمان وخمسين وسبعمئة، واستمر حتى عزلا بأخييهما سند بن رميثة وابن عمهما محمد بن عطيفة.

ثم وليها سند ومحمد بن عطيفة فى سنة ستين وسبعمئة شريكين، واستمرا إلى أوائل سنة اثنتين وستين وسبعمئة، ففيها قدم الشريف عجلان من مصر متوليًا، وأشرك أخاه ثقبه، فمات ثقبه، واستقل عجلان كما سيأتى ذكر ذلك آخر السوادة، وأخذ الشريف عجلان وولده أحمد، وذهب بهما إلى مصر فحبسا، وجهاز الملك الناصر حسن بن قلاوون عسكريًا لتأييد سند ومحمد بن عطيفة مقدمهم الأمير بكتم الماردينى، وانصلح لذلك حال مكة حتى انقضى الحج من سنة إحدى وستين وسبعمئة.

ثم قامت فتنة بين بنى حسن والعسكر الذى وصل من مصر والشام للإقامة بها

عوض بكتم الأمير ومن معه، كان الظفر فيها للأشراف، وسبب ذلك أنه أشيع بمكة أن من نية العسكر المقيمين بمكة القبض على شريفها الشريف سند، ففرت الأشراف لما قاسوه من هذا الأمر، فإن الشريف عجلان وولده أحمد إلى الآن محبوسان بمصر، فأشيع ذلك قبل قدومهم، فلما وصل العسكر إلى مكة أرادوا أن ينزلوا بيتًا بالصفاء للأشراف، فطالبهم الشريف صاحب البيت بالأجرة، فضرب التركي الشريف، فقتله الشريف، فتراكم الأتراك على الشريف فصاح لرباعته، فاجتمعوا إليه جماعة، واشتد الأمر، فقصدت الأشراف أجيادًا فوجدوا خيلًا للترك على باب الصفاء كان الأمراء اعتمروا فهم في الطواف فركبت الأشراف تلك الخيل، فبلغ الأمراء ذلك وهم يطوفون، فقطعوا الطواف وقصدوا المدرسة ليحفظوها ووقفوا أبواب المسجد الحرام وتحصنوا به، وأمروا بهدم الظلة التي على رأس زقاق أجياد الصغير ليروا من يقدم عليهم منه، وكان غالبهم بسطح المسجد يرمى بالنشاب، وسدوا الطريق بالأخشاب لئلا يخرج عليهم أحد من أجياد الكبير.

هذا خبر الترك.

وأما بنو حسن فإنهم استدلوا أيضًا على إصطبل لبعض الأمراء، وقصدوا الأمير قندس، وكان نازلًا بأجياد بالزباهية فقاتلوه من خارج، ودخلوا عليه الدار، فقتلوا جماعته وأسروه، ونهبوا ما كان عنده جميعه، واستجار نساؤه ببيت السيد مبارك بن رميثة، وجاء السيد مغامس من أجياد ليقاثل الترك الذين في المسجد، فجفلت به فرسه فسقط فقتلوه، وبقي في مصرعه إلى المغرب، وأراد محمد بن عطيفة أن يتعصب للترك، فتهدده بنو حسن بالقتل، وكان محمد بن عطيفة تأخر عن نصره العسكر، فخرج خائفًا يترقب، فدخل الشريف ثقبه مكة سادس عشر ذي الحجة، وشارك أخاه سندًا عوض محمد بن عطيفة، وانقطع عن محمد هذا فأراد الاجتماع بالترك فلم يمكنه لما حل بهم من خوف الأشراف، وما فعلوه بهم بحيث إنهم باعوا بعضهم في الحراج ينادى عليه الدلالون في الأسواق، ثم ذهبوا فلم يبق منهم إلا أمير واحد وأولاده، فاقترض ما تزود به، وترحل عن مكة، وفر غالب أهل مكة أرباب الأموال خوفًا من الأشراف، إلا أن الله سلمهم من النهب، اكتفوا بما أخذوه من أموال الأتراك.

وتوجه محمد بن عطيفة إلى مصر فلم ير بها وجهًا، واستمر بها إلى أن مات سنة أربع وستين وسبعمائة.

ومما قيل فيه من المدح قول الشاعر المعروف بالنشو قصيدة هي: [من الطويل]
 أترضى بإتلاف المحب ظلاماً فتأخذه بالعنف والرفق أليق؟!
 أعندك علم أنه بك هائم وأكباده من لوعة الهجر تحرق
 فأحواله تنبئ بما فى ضميره إذا لم يكن للقول منه مصدق
 بلوث بنى الدنيا جميعاً بأسرهم وجربتهم إن التجارب تصدق
 فلم أر فى ذا العصر مثل محمد إماماً به الدنيا تضىء وتشرق
 جواذا إذا جار الزمان على الورى يجود بما تحوى يده وينفق
 لقد جلّ عن قدر الملوك الألى مضوا إلى الغاية القصوى من الفضل يسبق
 يجود على العافى ويبدى اعتذاره فأوراقه بالجلود والبذل تورق
 لقد عجز المداح فى بعض وصفه عليهم بأنواع المكارم يغدق
 على أنه والله واحد عصره وهل مثله من بعد ذا العصر يخلق
 ومن لامنّى فى مدحه فهو جاهل فجيدى بالإحسان منه مطوق
 وإن كان مدح الغير عندى سئة فمدحى له فرض على مُحقق

فلما بلغ صاحب مصر فعل الأشراف بالترك، أرسل بالشريف عجلان وولده أحمد من سجن القاهرة إلى سجن الإسكندرية بالبرج.

قلت: ذرية بعضها من بعض، سبحانه الله، هكذا وقع فى سنة ثمان وسبعين بعد الألف لما أوقع مولانا السيد حمود بن عبد الله بن حسن بالترك قريباً من ينبع فكسرهم وبدد شملهم وقهرهم، وكان قد أرسل ولده المرحوم السيد أبا القاسم بن حمود والسيد محمد ابن المرحوم السيد أحمد بن محمد الحارث بن حسن إلى باشا مصر بهدية وقواد من الخيل، فاحتفظ بهم أولاً فى المحل المعروف بالسُلطان قايتباى ثم فى بيت أغاة الأنكشارية، فلما جاءهم خبر جماعتهم وما جرى عليهم من أوبههما تحركت حمية الغضب على هذين الشريفين، فنقلا إلى السجن الكبير المسمى عرق خانة سجن الدم، فقدر الله إطلاقهما بعد ذلك ولله الحمد. فذكرت بتلك الواقعة هذه الواقعة، إلا أن الشريف عجلان وولده فكا وأعطيا إمرة مكة وهذان

لم يعطيها وتلك قسمة إلهية. انتهى.

وأمر السلطان بإرسال عسكر إلى الحجاز يتبعون الأشراف وجندهم وعزلهم عن إمرة مكة وقال: لا حاجة لنا بهم.

فلم يستمر بعد هذه النية إلا أياماً حتى ركب عليه عسكر مصر عزلوه، وولوا الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر، فأطلق الشريف عجلان وولاه مكة وأشرك معه أخاه ثقبه بن رميثة بسؤاله لذلك، فلما أقبل الشريف عجلان ووصل إلى وادي مر اجتمع فيه بثقبه عليلاً مدنفًا، فمات ثقبه بقرب ذلك في شوال سنة اثنتين وستين وسبعمائة بالجديد، وحمل إلى مكة فدفن بالمعلاة.

وكان موصوفًا بالكرم والشجاعة. ومما قيل فيه قول ابن غنائم من قصيدة: [من

المنسرح]

ما خَفَقَتْ فَوْقَ مَنْكِبٍ عَذْبَةٌ عَلَى فَتَى كَابِنٍ مُنْجِدٍ ثَقْبَةٌ
ولا اعتَزَى بِالْفَخَارِ مُنْتَسِبٌ إِلَّا وَفَاقَتْ عِلَاهُ مُنْتَسِبَةٌ
مُنْتَخَبٌ مِنْ سَلِيلِ مُنْتَخِبٍ مُنْتَخَبٌ مِنْ سَلِيلِ مُنْتَخِبَةٍ
كَمْ جَبَرَتْ رَاحَتَاهُ مِنْكَسَرًا وَفَكَ مِنْ أَسْرِ عُشْرَةِ رَقَبَةٍ
فولى الشريف عجلان ولده أحمد عوض ثقبه، وجعل له ربع الحاصل، ثم جعل له ربعاً آخر.

ثم فى سنة ست وستين وسبعمائة ورد الأمر من صاحب مصر على يد الأمير بهادر والأمير سفيان الطولونى إلى شريف مكة بإسقاط المكوس والضرائب، وعوض أمير مكة عن ذلك فى كل سنة مائة وستين ألف درهم وألف إردب قمحاً ونقر ذلك فى دعائم المسجد الحرام جهة باب الزيادة وباب العجلة المسمى باب الباسطية أو باب الصفا، وهى موجودة إلى الآن مؤرخة بالسنة المذكورة أعنى سنة ست وستين وسبعمائة.

ولما عزل سند ومحمد وولى عجلان من مصر فوصل إلى مكة، وأشرك أخاه ثقبه ثم مات ثقبه فأمر ولده أحمد بالاجتماع بالقواد ليسألهم أن يسألوا له والده أن يشركه معه فى إمرة مكة وكانوا يخدمون سندا، فاجتمع بهم أحمد فأقبلوا عليه وعرف ذلك سند فخاف على نفسه فهرب إلى نخلة، وقيل بل أقام بوادى مر بالجديد واستجار

بابن أخيه محمد بن عجلان، ثم وقع بين بعض غلمان سند وبين بعض غلمان أحمد شيء أوجب تغير خاطر أحمد عليه فأمره بالانتقال من الجديد، فانتقل إلى وادي نخلة ثم إلى الطائف ثم إلى الشرق ثم إلى المدينة ثم إلى ينبع، فوصله وهو بها أوراق بنى حسن يأمرونه بالقدوم إليهم ليساعدوه على ولايتها فوصل وقصد محاربته فلم يتم له ذلك، فعرض له مرض مات به سنة ٧٦٣ ثلاث وستين وسبعمائة بالجديد. واستولى ابن أخيه عنان بن مغامس بن رميثة على خيله وسلاحه وذهب به إلى اليمن.

ومما قيل في الشريف سند بن رميثة قول حمزة بن أبي بكر الشاعر المشهور قصيدة هي: [من الطويل]

خَلِيلِي إِمَّا جِئْتُمَا رَبْعَ ثَهْمِدِ
وَأَنْتُمَا أَبْصَرْتُمَا بَانَةَ الْحِمَى
فَأَوَّلُ مَا تَسْتَنْشِدَانِ عَنْ حُلُولِهِ
عَسَى تَخْبِرَ الْأَطْلَالُ عَمَّنِ سَأَلْتُمَا
ومنها: [من الطويل]

وَفِي سَنَدٍ أَسْنَدْتُ مَدْحًا مَنْصُودًا
هُوَ الْقَيْلُ وَابْنُ الْقَيْلِ سُلْطَانُ مَكَّةِ
وَصَفْوَةُ آلِ الْمُضْطَفَى طُودَ فَخْرِهِمْ
بَنَى مَا بَنَى قَدَمًا أَبَوَهُ رَمِيثَةَ
وَشَنَّ عَتَاقَ الْخَيْلِ شُعْنًا ضَوَامِرًا
فَرَوَى صَفَاحَ الْبَيْضِ مِنْ مُهْجِ الْعَدَى
وَأَبْيَضَ طَلْقَ الْوَجْهِ يَهْتَرُّ لِلْنَدَى
كَرِيمٍ حَلِيمٍ مَاجِدٍ وَابْنُ مَاجِدِ
إِمَامُ الْهَدَى بَخَرُ النَّدَا مَهْلِكُ الْعَدَى
أَشْمُ طَوِيلُ الْبَاعِ نَدَبٌ مُهَذَّبٌ
فَدُوْحَتُهُ بَيْنَ الْوَرَى خَيْرُ دُوْحَةٍ
إِلَيْكَ جَلَبْتُ الْمَدَحَ إِذْ أَنْتَ كَفُوْهُ

غَرِيبَ الْقَوَافِي كَالْجَمَانِ الْمَنْصُودِ
وَحَامِي حَمَاهَا بِالْحَسَامِ الْمَهْدِ
وَبَنَى عَلَاهُمْ فَوْقَ نَسْرِ وَسُرْدِ
وَشَادَ الَّذِي قَدْ شَادَ مِنْ كُلِّ سُوْدِ
وَأَفْنَى عَلَيْهَا كُلَّ طَاغٍ وَمَعْتَدِ
وَسُمِرَ الْقَنَا مَهْمَا اعْتَلَى ظَهَرَ أَجْرِدِ
وَيُجْدِي إِذَا شَحَّ الْحَيَا كُلَّ مَجْتَدِ
ظَرِيفٌ شَرِيفٌ سَيِّدٌ وَابْنُ سَيِّدِ
وَبَدَّرُ بَدَا مِنْ آلِ بَيْتِ مُحَمَّدِ
أَغْرُ رَحِيبُ الصَّدْرِ ضَخْمُ الْمُقْلَدِ
وَمَحْتَدُهُ بَيْنَ الْوَرَى خَيْرُ مَخْتَدِ
وَأَنَا أَجْلِبُهُ لَغَيْرِكَ يَكْسِدِ

وما مدحكُم إلا عَلَيْنَا فَرِيضَةً . ومدحُ سِوَاكُم سِنَّةٌ لَمْ تُؤَكَّدِ
ثَنَاؤُكُم أَثْنَى بِهِ اللَّهُ جَهْرَةً . وأنزله وَحِيًّا عَلَى الطَّهْرِ أَحْمَدِ
فولى الشريف عجلان ولده أحمد عوض ثقبه، وجعل له ربيع الحاصل، ثم جعل
له ربعا آخر، ثم ترك له الإمرة على أن لا يسقط اسمه من الخطبة وغير ذلك، فوفى
له أحمد بذلك حتى توفى فى جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وسبعمائة .

وكان عجلان فى سنة ثلاث وستين وسبعمائة حارب أحمد بن عيسى الحرامى
صاحب حلى بمكان يقال له فجرة، فظهر عجلان على أحمد بن عيسى المذكور .
وكان عجلان رحمه الله تعالى شيخًا صالحا سعيدًا اتفق له ما لم يتفق لأسلافه من
السعودات فإنه أول من ملك بلاد حلى من أهله السابقين، وبنى الحصون بأجياد،
وأرض حسان والمدارس بمكة، وملك العبيد والخيول، والدروع الكثيرة، وأنشأ
بمكة سبيلا للماء بالمروة واستمرت خيراته وحسناته .

ومدحه جماعة من الشعراء منهم الشاعر المعروف بالنشو وغيره وكان له جملة من
الأولاد منهم: أحمد وكيش ومحمد وعلى وحسن .

وتوفى عجلان ليلة الإثنين حادى عشر جمادى الأولى سنة سبع وتسعين
وسبعمائة فى جمادى الأولى كما تقدم آنفاً بأرض الجديد، وحمل إلى مكة، ودفن
بالمعلاة، وبنى عليه قبة، وبلغ من العمر نحو سبعين سنة رحمه الله تعالى .

ومما مدح به الشريف عجلان قول الشاعر المعروف بالنشو قصيدة هى: [من

الكامل]

لَوْلَا الْغَرَامُ وَوَجْدُهُ وَنَحْوُهُ	مَا كُنْتُ تَرْحُمُهُ وَأَنْتَ عَذُولُهُ
إِنْ كُنْتُ تَنْكَرُهُ فَسَلِّ عَنْ حَالِهِ	فَالْحُبُّ دَاءٌ لَا يَفِيقُ عَلَيْهِ
يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى الْهَوَى أَهْلَ الْهَوَى	دَغْ لَوْمُهُمْ فَالْصَبْرُ مَاتَ حَمِيلُهُ
دَغْ عَنْكَ مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ مِنَ الْوَرَى	لَا تَمْتَدِّحْهُ وَفَى الْأَنَامِ بِدِيلُهُ
وَامْدَحْ مَلِيكَ الْعَصْرِ وَابْنَ مَلِيكِهِ	مَنْ شَاعَ مَا بَيْنَ الْمَلَا تَفْضِيلُهُ
عَجْلَانُ نَجَلُ رُمَيْثَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ	أَمِنْ الْحَوَادِثِ وَالْخَطُوبِ نَزِيلُهُ
وَرِثَ الْمَكَارِمَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ	فَنَوَالُهُ لِلْعَالَمِينَ يَنْبِيلُهُ
مِنْ آلِ أَحْمَدَ وَاحِدٌ فِي عَصْرِهِ	فَهُوَ الشَّرِيفُ ابْنُ الشَّرِيفِ سَلِيلُهُ

ماذا يقول المذبح فيه وما عسى إذ كان يخدم جدكم جبريلهُ
أما الملوك فكلهم من دونه كالبنر في أفق السماء حلولهُ
سلطان مكة والمشاعر والصفاء من لا يخاف من الزمان نزيلهُ
لو حاول النجم العظيم لناله تنبيك عنه رماحه ونصولهُ
سكنت محبته القلوب جميعها لما تقارن سغده وقبولهُ

ثم وليها أحمد بن عجلان قبل وفاة أبيه، وذلك بسبب أنه لما جعل له ربيع المحصول عوض عمه ثقة طلب أحمد ربعا آخر، فأجازه له والده، ثم إن والده لما رأى إقبال الناس على أحمد، ومحبتهم له أراد إغاضته بأخيه محمد بن عجلان فأعطاه خيلاً ودرعاً، فلم ينهض محمد لما أريد منه، فبلغ ذلك أحمد فعاتب أباه عجلان فاعتذر له، وقال له: أنا أترك لك البلاد كلها، فوقع الاتفاق على أن أحمد يعطى أباه عجلان النقد الذى شرط له، وأن يكون له أيضاً فى كل سنة الجزء الذى قرر لعجلان بديار مصر فى مقابلة إسقاط المكس عما يصل إلى مكة من المأكولات، وعن مكس الحجاج من الديار المصرية والشامية الواردين بحراً وبراً وهو مائة ألف درهم وستون ألف أردب قمح، وأن لا يقطع اسم عجلان من الدعاء فى الخطبة مدة حياته، فالتزم أحمد بجميع ذلك، فآلح عجلان فى تحصيل النقد المشروط على أحمد استعجاًزاً منه له ليكون سبباً لرجوع الأمر إليه، فيسر الله لأحمد من أعانه على إحضار المال فأحضره، فلم يجد بدا من قبوله فوفاه بجميع ما التزمه من الوعود، واستمر أحمد حتى مات حادى عشر شعبان سنة ثمان وستين وسبعمائة: وكانت مدته ستاً وعشرين سنة.

قال فى « الدرر الكامنة فى أخبار المائة الثامنة » كان أحمد بن عجلان عظيم الأبهة واسع الحرمة كثير الرئاسة ملك جملة من العقار والعبيد وعدل وقمع المفسدين.

ثم وليها الشريف محمد بن أحمد بن عجلان ثمان سنين شريكاً لأبيه ومائة يوم مستقلاً بعده، ثم قتل فى مستهل ذى الحجة من السنة المذكورة لما حضر لخدمة المحمل المصرى بظاهر مكة.

سبب ذلك أن أباه الشريف أحمد بن عجلان كان قد وقع بينه وبين ابن عمه عنان

ابن مغامس منافرة، فسافر عنان ومعه حسن بن ثقبه إلى مصر فبالغا في شكوى أحمد، وسألا من السلطان برفوق أمورًا أجابهم إليها لصدور رقة عنان، فأرسل أحمد بن عجلان بهدية سنية صحبة كيش إلى السلطان، فلما رأى كيش رواج عنان عند السلطان ما أمكنه إلا أن يلتزم على أحمد جميع ما أراده عنان وما أمر به السلطان خشية من حصول مكدر على أحمد وعليه، فوصلوا جميعًا إلى مكة فعرف كيش أحمد بالأمر، وقال له: لا بد لك من الموافقة على ما رسم به السلطان لكما أو الفتك بعنان، فاختر الثاني. فاجتمع عنان وحسن بأحمد بعد التوثق منه فما أجاب لمرادهما، ثم فطن عنان لقصد أحمد فيه ففر إلى الينبع وتلاه حسن بن ثقبه، ثم حسن لهما أمير الحاج المصري أبو بكر بن سنقر الجمالي الرجوع إلى مكة، وحسن لمحمد بن عجلان أن يرجع معهما إلى مكة، وكان قد توجه من مكة مغاضبًا لأخيه أحمد وضمن لهم الأمر المذكور أن أحمد يقضى حوائجهم إذا وصلوا إليه ورجعوا، فلما اجتمعوا بأحمد قبض عليهم، وضم إليهم أحمد بن ثقبه وابنه عليا بن أحمد بن ثقبه، وقيد الخمسة وسجنهم بالعلقية من أول سنة سبع وثمانين وسبعمئة إلى موسمها، ثم نقلهم إلى أجياد، ثم أعادهم بعد الموسم إلى العلقمية فدبروا حيلة للخروج منها، وربطوا سررا كانت عندهم بثياب معهم، وصعدوا غير محمد بن عجلان حتى بلغوا طاقة تشرف على منزل ملاصق لسجنهم، فنزلوا منها إليه ففطن لهم بعض الساكنين فصاح عليهم يظنهم لصوصًا فسمع الصباح الموكلون بهم وعرف الأشراف تيقظ الموكلين بهم، فأحجموا عن الخروج إلا عنانا فإنه أقدم، ولما بلغ إلى باب الدار وثب وثبة انفك القيد بها عن إحدى رجليه وما شعر به أحد حين خرج، فسار إلى جهة سوق الليل وما كان غير قليل حتى رأى كيشًا والعسكر يفتشون عليه بضوء معهم فدنا إلى مزبلة بسوق الليل وأظهر أنه يبول، فأخفاه الله عن أعينهم، فلما رجعوا سار إلى أن لقيه بعض معارفه فعرفه خبره، وسأله في تغيبه فغيبه في بيت بشعب على في صهريج فيه ووضع على فمه حشيشًا ودابة ليخفي موضع الصهريج، وفي الصباح أتى كيش إلى ذلك البيت فما وجده فيه فقيل له إن في البيت صهريجًا فأعرض عن ذلك لما أراده الله من سلامة عنان، ثم بعث عنان إلى أقاربه من ذوى راجح وسألهم الإعانة بمركوب له ولمن يسافر معه فأجابوه وأخرجوا له

ركائب إلى المعابدة وحملوا عليها فخارا ليخفوا أمرها على من رآها، فخرج عنان إلى المعابدة ونزل عند امرأة يعرفها فألبسته لباسها، ونمى الخبر لكيش، فأتى منزلها وسألها فنالت من عنان كثيرا فصدقتها كيش، فلما كان الليل ركب مع رجلين أو ثلاثة الرواحل التي أعدت لهم، فوقفت بعض ركابهم قبل وادى مر، وما وصل هو إلى خليص إلا وقد كلت راحلته، فسأل بعض أهل خليص عن راحلة لبعض أصحابه بلغه أنها بخليص فأخبر بوجودها فأخذها. ويقال: إن صاحبها كان إذا خلص من علفها يقول: ليت عنانا يخلص فينجو عليك فكان ما تمناه، فوصل إلى ينبع ثم منها إلى مصر، واستجار بملكها برقوق أول ملوك الشراكسة بمصر.

فأرسل الشريف أحمد بن عجلان يطلبه، فكتب إليه السلطان يقول: وأما ما ذكرت من جهة عنان فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة: ٦] فكيف إذا استجار بنا ابن رسول الله ﷺ؟ وأمره بإطلاق الأشراف فامتنع من ذلك، ثم قدر الله أن الشريف أحمد مات في سنة ثمان وثمانين وسبعمائة كما تقدم ذكره، وأقيم عوضه في إمارة مكة ولده محمد هذا ابن أحمد بن عجلان، كان المدير لأمر ملكه عمه كيش بن عجلان، فبعد موت أحمد بن عجلان عمد كيش إلى الأشراف المذكورين وسمل أعينهم جميعا فتألم الناس لذلك غاية التألم. ولم يحصل له بعد ذلك راحة، وتوهم كيش أن ذلك يكون حسما لمادة الشر ونجاحا، فكان للشر مفتاحا.

فلما بلغ السلطان ذلك تغير خاطره على محمد بن أحمد وعلى عمه كيش بن عجلان، وولى إمارة مكة للسيد عنان بن مغامس، وكنم ذلك عن الناس، وخادع محمد بن أحمد وعمه كيش بن عجلان بإرسال الخلع والمراسيم وزينت مكة، فلما تجهز الحاج خرجوا معهم بالسيد عنان بن مغامس كأحاد الناس لا يلتفت إليه إذا حضر كل ذلك لما أضمره، فلما وصل الحاج إلى الزاهر بعثت أم محمد الشريفة فاطمة بنت ثقبه إلى أمير الحاج شركس الخليلي أمير آخور بعد أن أهدت إليه هدايا تسأله عن حال ابنها محمد وعنان فذكر لها أنه لا يعلم على ابنها سوءا وربما حلف لها على ذلك، فأنشراح لذلك خاطرها وحسنت لابنها الإقدام على ملاقة المحمل المصري، وما زالت به حتى وافقها فخرج في عسكره إلى لقائه على العادة هو وعمه

كبيش، فلما أراد أن يقبل الجمل - على ما كان يفعله الشراكسة من الجهل - وثب إليه اثنان من الزعر من المحمل كل واحد بيده خنجر طعنانه فمات من حينه، فعوجل بالعقوبة في هذه المدة اليسيرة إذ قد تقدم أن مدة ولايته مستقلا مائة يوم، نسأل الله حسن الخاتمة ونعوذ به من سوء القضاء.

وفر عمه كبيش إلى جده فتبعوه فلم يحصلوه، وألبسوا الشريف عنان بن مغامس الخلعة، ودخلوا به مكة فوليها عنان بن مغامس، فلما وصلوا إلى أجياد تلقاهم بعض أصحاب الشريف محمد من العبيد والقواد، فتقاتلوا معهم فلم يلبثوا أن ولوا هرباً. وَحَجَّ بِالنَّاسِ الشَّرِيفُ عَنانُ وَالنَّاسُ فِي غَايَةِ الاضطرابِ والخوفِ.

ثم لما عزم الحاج أرسل عنان إلى كبيش عسكرياً ليخرجه من جدة ففر منها. وسامح الشريف عنان الشيبين فترك ما كان تأخذه الأشراف منهم بالقوة وهو خمسة آلاف درهم في كل عام وجانب من الكسوة مع البرقع وثوب مقام الخليل. وجرى بينه وبين كبيش فتن وجموع، ولم تصف البلاد له بحيث إنه عجز عن إقامة الجند والأشراف، فأخذ حاصل السلطان وما فيه، ونهب جدة وأموال التجار والمراكب غير مرة.

ثم إن كبيش المذكور عاد إلى جدة وحده، فنهبا وعاث عبيده في الطرقات، فخشى عنان من كثرتهم، وأشرك معه في الإمرة ابني عمه أحمد بن ثقبه، وعقيل بن مبارك ثم أخاه على بن مبارك ثم دعا لهم معه على المنبر وزمزم، وظن بذلك أن يقوى أمره، ولم يساعده القدر فبلغت أحواله إلى السلطان برقوق بمصر، فعزل عنان في رجب سنة تسع وثمانين وسبعمائة ثم ولى عوضه على بن عجلان.

فوليها على بن عجلان في السنة المذكورة بعد عزل عنان حنقاً عليه لما اتفق في ولايته من استيلاء كبيش، وجماعة عجلان وابنه أحمد ومن انضم إليهما وعجز عنان عن دفعهم عن الاستيلاء على جدة، فوصل النجاشي إلى عنان ليسلم مكة لعلي بن عجلان، وجماعته في النصف الثاني من شعبان من السنة المذكورة، فأقبل على بن عجلان في جموع متقدماً فمنعهم عنان وأصحابه من دخول مكة، وامتنع هو وجماعته من آل أبي ندى من تسليم مكة لآل عجلان، فتحارب الفريقان بالقرب من ثنية أذاخر في التاسع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وسبعمائة فقتل كبيش بن

عجلان، وطائفة من عسكر على بن عجلان.
فتمّ النصر لعنان ورجع على ومن معهم إلى محلهم وهو القصر من وادى مر
وذلك فى سلخ شعبان من السنة المذكورة.

وفى شهر رمضان توجه على إلى مصر، فأقبل عليه السلطان، وولاه إمرة مكة
فأقبل صحبة الحاج المصرى فى ظل من ولاه.

واستمر عنان بعد خروج على إلى القصر، ومن معه مقيما لم يبرح حتى فارقتها
هو ومن معه عند وصول الحاج المصرى إليها وصحبته على بن عجلان المذكور،
فخرج عنان ومن معه وقصدوا الزيمة، فدخلها على وقرئ توقيعه على مقام
الحنابلة، وحج بالناس، وعنان مقيم بالزيمة بوادى نخلة اليمانية وكان أصحابه
سبقوه إليها، فقصدهم على بن عجلان فى طائفة من الترك فوجدوهم محاربين لقافلة
بجيلة فلما أحسوا بهم هربوا وقتل أصحاب على بن عجلان منهم مبارك بن
عبد الكريم من الأشراف وابن شكران من أتباعهم، وعادوا إلى مكة ومعهم من خيل
الأشراف خمس، ومن دروعهم ثلاثة عشر درعا ووصلت قافلة بجيلة إلى مكة فانتفع
الناس بها، وعادوا إلى مكة عشرى ذى الحجة الحرام.

وبعد رحيل الحاج نزل عنان وأصحابه الوادى وشاركوا على بن عجلان فى أمر
جدة، ثم سافر عنان فى أثناء سنة تسعين وسبعمئة واصططح على بن عجلان
والأشراف واستمر متوليا منفردا بالإمارة إلى أن شاركه فيها عنان فى عام اثنين وتسعين
وسبعمئة، فوصل إلى مكة فى شعبان من السنة المذكورة واصططح مع آل عجلان،
وكان معه القواد ومع على الأشراف، وكانا غير متمكنين فى القيام بمصالح البلد
لمعارضة بنى حسن لهما فى ذلك، واستمر عنان شريكا لعلى بن عجلان حتى فارق
عنان مكة متخوفا من آل عجلان حين أرادوا الفتك به فى المسعى وذلك فى صفر
سنة أربع وتسعين وسبعمئة، وقطع ذكره من الخطبة.

ثم دخل مكة ليتجهز منها إلى مصر بعد أن أخليت له ثلاثة أيام من آل عجلان، ولم
يدخل مكة إلا بعد أن استدعى من السلطان إلى مصر هو وعلى، فتوجه إلى الديار
المصرية، وتلاه إليها الشريف على بن عجلان بطلب من الملك الظاهر برقوق كما ذكر.
فأقام عنان بمصر معزولا مطلقا ثم مسجونًا بقلعة الجبل، ثم بالإسكندرية ثم

بالقاهرة حتى مات بها فى ربيع الأول سنة خمس وثمانمائة.

قال صاحب «نشأة السلافة»: وكان فى هذا التاريخ صاحب مكة الشريف حسن ابن عجلان، ثم ذكر سبب موت عنان فقال: حصل لعنان مرض خطر يقتضى إبطال بعض جسده فعولج من ذلك بإضجاعه بمحل فيه آثار النار حتى يخلص ذلك إلى أعضائه فيقويها بها ففعل به ذلك فكان أثر النار الذى أضجعوه عليه شديداً، فأحرقه فمات فى التاريخ المذكور رحمه الله تعالى.

ورأيت فى تاريخ خلفاء الزمن وملوكه، وولاية السالكين أحسن سنن للسيد محمد بن الحسين الحسينى السمرقندى فى ترجمة الشريف عنان بن مغامس هذا ما نصه: ويقيا يعنى الشريف عنان بن مغامس، والشريف على بن عجلان على ذلك مدة بعد أن جعلت إمرة مكة بينهما نصفين ما بين وفاق وشقاق، وكيف ينتظم أمر الأملاك مع الاشتراك؟ إلى أن مات عنان قتيلاً فى شوال سنة سبع وتسعين وسبعمائة.

وسبب قتله أن أعيان الأشراف والقواد بعد أن قبض على جماعة منهم خودع فى ذلك، فأطلقهم فصاروا يكلفونه ما لا تصل إليه قدرته من أخذ الأموال من التجار والحبوب من أهل الوادى والزراع، فكثر بسبب ذلك الهرج والمرج وقل الأمان، وشق على أهل مكة الشريفة قلة الواصل وكثرة الخوف، وافترت الكلمة بين السادة الأشراف والقواد والعبيد، فاقتتلوا بسبب ذلك ومات عنان بتلك المسالك. هذه ألفاظه فى الكتاب المذكور، والله أعلم بالحقائق.

ولما وصل الشريف على بن عجلان إلى الديار المصرية، وقبله عنان بن مغامس أقام عنان معزولاً مطلقاً ثم مسجوناً إلى آخر ما تقدم، وأما الشريف على فأكرمه السلطان الملك الظاهر، وفوض إليه أمر مكة المشرفة، وأحسن إليه هو والأمراء، ثم سار إلى مكة المشرفة فدخلها وقت الموسم من السنة التى خرج منها فيها سنة أربع وتسعين وسبعمائة، وفى آخر يوم منها قبض على سبعين نفرًا من الأشراف والقواد، فلم يزل يخادع فيهم حتى أطلقهم فكنتموا له ذلك، وشوشوا عليه حتى قتلوه يوم الأربعاء سابع شوال سنة سبع وتسعين وسبعمائة بوادى مر وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وحمل إلى مكة المشرفة ودفن بها ليلاً، وكان أخوه الشريف حسن قد حاصره

بالزاهر مدة أيام من هذه السنة، ثم توجه إلى الديار المصرية بها، فاعتقل في السنة المذكورة، فلما وصل الخبر بوفاة أخيه على بن عجلان أطلقه الملك الظاهر برقوق وفوض إليه أمر مكة، وجميع الأقطار الحجازية لوفاة أمير مكة على بن عجلان قتلا، وجاء الخبر بولايته وقت الموسم.

وكان أخوه محمد بن عجلان وعبيد أبيه، وأخيه أحمد بن عجلان قد استولوا على مكة، وحفظوها حتى وصل إليهم من مصر في رابع عشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة ومعه يلبغا الناصري وسنقر وعدة من المماليك الأتراك يزيدون على المائة أو دونها، ومن الخيل دون المائة.

ولم تتم السنة حتى وقع بين الشريف حسن وقتلة أخيه على واقعة عظيمة في الخامس والعشرين من شوال من السنة المذكورة، وكان الظفر فيها له عليهم بحيث لم يقتل ممن معه سوى مملوك وعبد، وقتل من الأشراف نحو سبعة ومن أتباعهم نحو الثلاثين، ولم يقتل من أصحاب الشريف حسن فيما قيل غير مملوك وعبد، وكان معه ألف رجل ومائتا رجل من الترك والمولدين والعبيد وأهل مكة من الأعراب.

وأجار على حلة الشريف منصور من النهب فسلمت وكانت الوقعة بمكان يقال له الزبارة بوادي مر قريب من «أبو عروة»، فقصد الأشراف جهة الهدية، وأقام الشريف حسن بالجديد حتى أتى الموسم، وعظم بذلك أمره واستفحل بذلك قهره حتى أذل كل من عانده وناواه، وساس الأمور بجدة مع التجار وراعاهم حتى قدموها، وأقاموا بها بعد أن تركوها، واستمر في زيادة قدر وهيبته في القلوب.

قال العلامة الفاسي^(١): فضبط البلاد وحسم مواد الفساد، وأخذ بثأر أخيه يوم الثلاثاء خامس عشر شوال من سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، واستمر مستقلا بالولاية إلى أن أشرك معه ابنه السيد بركات في نصف الإمرة وذلك سنة تسع وثمانمائة، ووصل توقيعه بذلك في موسم هذه السنة وهو مؤرخ بشعبان منها.

ثم سعى لابنه السيد شهاب الدين أحمد في نصف الإمارة فأجيب إلى ذلك وولى نصف الإمرة شريكا لأخيه بركات، وولى أبوهما نيابة السلطنة بجميع بلاد الحجاز

(١) ينظر: شفاء الغرام للفاسي ٢٠٨/٢.

وذلك فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة وثمانمائة، وقرئ توقيعهم بذلك فى أوائل النصف الثانى من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، وصار يدعى له ولولديه بمكة وعلى زمزم ويدعى للشرىف حسن بمفرده فى الخطبة بالمدينة النبوية، وسبب ذلك أنه كان والى المدينة عجلان بن نعيم بن منصور بن جماز بن شيحة الحسينى عوض أخيه نابت بن نعيم فإنه كان ولى أمرها فى هذه السنة، ثم مات نابت فى صفر من هذه السنة قبل وصول توقيع، واستمرت الخطبة باسم الشرىف حسن بالمدينة الشرىفة إلى أن عزل عنها عجلان بابن عمه سليمان بن هبة بن جماز بن منصور فى موسم اثنى عشر وثمانمائة، وكان يقدم فى الدعاء فى الخطبة على عجلان.

واستمر الشرىف حسن وولده إلى أن عزل هو وولده فى هذه السنة وهى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة عن إمرة مكة بسعى الحساد، ونقل أهل الفساد، ولم يظهر لذلك أثر بمكة، فإن السلطان الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق أسر أمر عزلهم لقرب الموسم خوفاً من الهرج والمرج، وولى ابن عمه على بن مبارك بن رميثة، فلما بلغ السادة الأشراف عزلهم كتبوا ذلك عن الخاص والعام، فوصل أمير الحج ببشو المذكور فى موكب عظيم، ونظام تام وعساكر عديدة وهو على غاية الوجل من عدم مقابلة الأشراف، ونقص حرمة بذلك وحفظ أموال الحجاج وحقن دمائهم.

وكان من عناية الله أن مولانا الشرىف حسن قابل المحامل الكريمة على العادة القديمة ولبس الخلع السلطانية على أكمل حال وأطيب بال، ثم قابل الأمير المذكور خاصة وأكرمه إكراماً جزيلاً، فانقضى زمن الحج على أحسن الأحوال، وسافرت المحامل وتوجه كل غريب إلى بلده، ولما لم يبق إلا تجهيز الأمير، وتوديعه جهز الشرىف حسن هدية عظيمة إلى الحضرة السلطانية صحبة الأمير المذكور بعد كمال رعايته وعظيم العناية به، فبعد الوداع قال له: يعلم الأمير أنا قد بلغنا أن السلطان عزم على عزلنا تصديقاً للإنهاء الباطل الصادر عن فساد كل مفسد وقول كل قائل، فلما بلغنا ذلك لم نفعل فعل أهل الظلم والجهالة الذين إذا وصل إليهم علم العزل نهبوا البلاد، وأكثروا فى الأرض الفساد.

فأجابه الأمير بأن هذه بلادكم خلقاً عن سلف، ومولانا السلطان نصره الله محب

لكم، وعلامة محبته لكم إخفاء ذلك وسوف تعلمون صحة قولى بما يأتيكم من جواب مشرفاتكم.

فلما وصل الأمير إلى مصر المحروسة وأخبر السلطان بما وقع وقدم الهدية والمكاتيب قابل ذلك بحسن القبول، ثم أرسل إلى مولانا الشريف حسن بهدايا مفخمة، وتوقيعات شريفة مكرمة، فَشَكَرَهُ فيها شُكْرًا عَامًّا على ما فعله ظاهرًا وما صبر عليه باطنًا، ثم صَرَّحَ باستِمْرار ولديه على ما كانوا عليه من ولاية مكة والأقطار الحجازية جميعها، واستمروا كذلك إلى سنة ثمان عشرة وثمانمائة فعزلوا بالشريف رميثة بن محمد، ثم أعيد فى عام تسع عشرة وثمانمائة بعد محاربة شديدة بينه وبين رميثة المذكور من قبل الملك المؤيد، كما يأتى قريبًا إن شاء الله تعالى، وهذا كله ببركة الصبر والتحمل والنظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى فى حفظ دماء المسلمين وأموالهم، لا سيما الحجاج وجيران بيت الله الحرام لا برحت عناية الله شاملة لحماة بلده الأمين آمين.

وَسَبَبُ الْعَزْلِ أَنَّ رَجُلًا يَسْمَى جَابِرًا الْجَرَشِيَّ مِنْ أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ بِجِدَّةٍ لَمَّا تَغَيَّرَ عَلَيْهِ الشَّرِيفُ حَسَنٌ وَصَادَرَهُ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ جِدَّةٍ لِأَمْرِ اقْتَضَى ذَلِكَ - عَزَمَ إِلَى مِصْرَ، وَكَدَّرَ خَاطِرَ السُّلْطَانِ عَلَى مَوْلَانَا الشَّرِيفِ حَسَنٍ وَدَبَّرَهُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ، وَأَنْ يُولَوْا عَلَى بْنِ مَبَارَكٍ هَذَا وَكَانَ مَحْبُوسًا عَنْدهُمْ بِالْقَلْعَةِ سَنِينَ فَوَلَّوهُ، وَأَرْسَلُوا صَحْبَتَهُ الْأَمِيرَ بَيْسُقَ أَمِيرًا عَلَى الْحَاجِّ الْمِصْرِيِّ، وَاسْتَعَدَّ لِحَرْبِ الشَّرِيفِ حَسَنٍ، فَلَمَّا تَحَقَّقَ مَوْلَانَا الشَّرِيفُ حَسَنٌ هَذَا الْخَبَرَ اسْتَعَدَّ هُوَ أَيْضًا لِلْحَرْبِ وَجَمَعَ مِنَ الْخَيْلِ وَالرَّجُلِ مَا لَمْ يَجْمَعَهُ غَيْرُهُ.

قيل: كان عدة الخيل ستمائة والرجل يزيدون على خمسة آلاف، وتعب الناس لذلك وضاعت بهم مكة، وتعبت الخواطر وكادت القلوب أن تبلغ الحناجر.

ثم رضى السلطان الملك الناصر على الشريف حسن وأولاده بعد توجه الحاج من القاهرة فى السنة المذكورة فأعادهم إلى ولاية مكة، فبعث الأمير بتقليد وخلع صحبة خادمه فيروز ساقى، وكتب إلى أمير الحاج المصرى بيسق يأمره بالكف عن محاربتهم، وكان تاريخ تقليد ولايتهم هذه فى هذه السنة هى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة فى الثانى عشر من ذى القعدة الحرام، ودامت ولايتهم على ذلك إلى أثناء

صفر الخير سنة ثمان عشرة وثمانمائة كما سنذكره.

وقبل وصول الحج بأيام أحمده الله الفتنة بوصول الأمير فيروز الطواشي الساقى المذكور بالخلع والمراسيم يعتذرون إلى الشريف حسن ويطمئنونه أن البلاد بلاده، وسألوا فضله أن يأذن للحاج فى دخول مكة ويعطيهم الأمان، فإنهم لما بلغهم تهيؤة تأخروا ولم يقدموا على الدخول.

فقال الشريف حسن: لا يدخلوا إلا إذا سلموا إلينا جميع ما معهم من السلاح وآلات الحرب وإلا ما دخلوها فوافقوه على ذلك ووافقهم على إعادته إليهم عند السفر فدخلوا مكة رابع ذى الحجة الحرام، وجاء الأمير إلى بيت الشريف حسن بأجساد وسلم عليه واعتذر.

قيل: ولم يحج الشريف حسن ولا أحد من أهل مكة إلا ناس قليل مخفون بحيث أن يوم النحر صلوا العيد بمكة ولم يشاهد ذلك قط.

وأصاب الحجيج مشقة عند المأزمين، ووقع قتل ونهب، ولو لم يغث الحجيج أهل الخيل جماعة الشريف حسن لذهب الحاج جميعه، وكذلك ليلة النحر بمنى وكان الفاعل لذلك غوغاء الأعراب.

وفى موسم خمس عشرة وثمانمائة قتل من آل جميل جماعة أهل شر وفساد ففزع الحاج وركب الشريف حسن بنفسه حتى أحمده الفتنة وسلم الله المسلمين.

وفى خامس ذى الحجة عام سبع عشرة وثمانمائة وقع بين القواد وأمير الحاج والناس فى صلاة الجمعة أن هجم القواد بخيولهم ملبسة إلى مقام الحنفى يطلبون الأمير، وكان قد أمسك شخصاً منهم يسمى جرادا وحبسه فتشفعوا بالشريف حسن إليه فامتنع من إطلاقه، فعظم الأمر وجرى القتال وسال الدم فى المسجد الحرام، وخرج الأتراك فى إثرهم إلى جهة سوق باب إبراهيم، فانهزم القواد ورجع الأمير، ودخل المسجد وأدخل خيله، وسمر أبواب المسجد جميعها ما عدا أربعة أبواب، وباتت خيولهم ملابس والمشاعل تقدر فى المسجد وغالب الحجيج به، واجتمع القواد فى أسفل مكة بمحل يسمى الطنبداوى، وانتهبت البيوت والأسواق، وسلم الله الحاج ببركة الشريف حسن، وصادف ذلك أن مكة فى ذلك العام مغلقة، فأنشد إذ ذاك بعض الأدباء وفيه تورية حسنة: [من مجزوء الكامل]

وَقَعَ الْغُلَاءُ بِمَكَّةَ وَالنَّاسُ أَمْسَوْا فِي جَمَادٍ
وَالْخَبْرُ قَلَّ فَهَاهُمْ يَتَقَاتُلُونَ عَلَى جَرَادٍ

والسبب في إمساكه أن أمير الحاج منع الناس من حمل السلاح بمكة، فرأى جرادًا هذا وهو حامل سلاح فأمسكه فوق ما وقع.

قلت: عتو هذا الجيل قديم غير جديد، فلعل الشر إن لم ينقص منهم لا يزيد. ودامت ولاية الشريف حسن مع ولديه بركات وأحمد إلى شهر صفر من عام ثمان عشرة وثمانمائة.

ثم وليها الشريف رميثة بن محمد بن عجلان بن رميثة بن أبي نمي بن أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة، تولى عشرين في صفر من السنة المذكورة، وما دخل مكة ولا دعا له في الخطبة ولا على زمزم إلا في العشر الأول من ذي الحجة من السنة المذكورة، وكانت قراءة توقيعه في يوم دخول مكة وهو يوم الجمعة مستهلاً ذي الحجة سنة ثمان عشرة وثمانمائة، فدعا له الخطيب ودعا له على قبة زمزم حين طوافه بعد صلاة الجمعة، وذكر في توقيعه الشريف بعد الترجمة أنه تولى نيابة السلطنة عن عمه حسن، وإمرة مكة عن ولديه بركات بن حسن وأحمد بن حسن، وذلك أنه لما عزل الشريف حسن برميثة بن محمد بن عجلان فارقه الشريف حسن إلى «الشقان» فجبا الجلاب هناك، وأمر أهلها بالتدبير أو المضى إلى ينبع، ثم وصل إلى الجديد من وادي مر، واستولى على غلال أصحاب رميثة، واستمر بالجديد إلى جمادى الآخرة من سنة تسع عشرة وثمانمائة.

وفي رجب منها بعث ولده الشريف بركات ومولاه القائد زين الدين شكر لاستعطاف السلطان الملك المؤيد، فأنعم عليه بولاية مكة.

وكتب له بذلك توقيعا مؤرخا من عشر رمضان من السنة المذكورة، وجهاز له خلعة صحبة بعض الخاصكية المؤيدية والنجابة السلطانية فانتهوا إليه وهو في ناحية جدة في أوائل العشر الأوسط من شوال، فقصد مكة متوليا منفردا دون ولديه من قبل الملك المؤيد، ثم شاركه ابنه السيد بركات بن حسن سنة أربع وعشرين وثمانمائة بإشارة من الملك المظفر ابن الملك المؤيد صاحب مصر كما سيأتي، فدخل مكة في بكرة يوم الأربعاء سادس عشر شوال من سنة تسع عشرة وثمانمائة، وبأثر طوافه

بالبيت قرئ توقيعه وكان يومًا مشهودًا.

وفى ليلة الأربعاء المذكور فارق مكة السيد رميثة بن محمد ومن معه بعد حرب شديد كان بينه وبين عسكر عمه الشريف حسن بالمعلاة يوم الثلاثاء خامس عشر الشهر المذكور استظهر فيه الشريف حسن على من عانده لأنهم لما أقبلوا من الأبطح، ودنوا من باب المعلاة أزالوا من كان على الباب وقربه من أصحاب رميثة بالرمي بالنشاب والأحجار، وعمد بعضهم إلى باب السور فدهنه وأوقد تحته النار، فاحترق الباب حتى سقط إلى الأرض، وقصد بعضهم طرف السور الذى يلى الجبل الشامى مما يلى المقبرة فدخل منه جماعة من الترك أصحاب الشريف حسن ورقوا موضعًا مرتفعًا من الجبل، ورموا منه بالنشاب والأحجار من كان داخل الدرب من أصحاب رميثة فتعبوا لذلك كثيرًا، ونقب بعضهم فى السور نقبًا متسعًا حتى اتصل بالأرض فدخل منه جماعة من الفرسان من عسكر الشريف حسن إلى مكة، ولقيهم جماعة من أصحاب رميثة، فقاتلوهم حتى أخرجوهم من السور، وقد حصل فى الفريقين جراحات وهى فى أصحاب رميثة أكثر.

وقصد بعض عسكر الشريف حسن السور مما يلى بركة الصارم، فنقبوا فيه نقبًا متسعًا ولم يتمكنوا من الدخول منه لأجل البرك فإنها مهواة، فنقبوا موضعًا آخر فوقه.

ثم إن بعض الأعيان من أصحاب الشريف حسن أجار من القتال، وكان الشريف حسن كارهاً للقتال رحمة منه لمن مع رميثة من القواد والعمرة، ولو أراد الدخول إلى مكة بكل عسكره من الموضع الذى دخل منه بعضهم لقدّر على ذلك، ولكنه أمضى الجيرة بترك القتال، وبأثر ذلك وصل إليها - لما تعب الناس من النهب والقتل والخوف - جماعة من العلماء والصلحاء من أهل مكة والمجاورين وحملوا المصاحف والربعات على رؤوسهم، وسألوا فضل الشريف حسن فى كف عسكره، فأجابهم إلى ذلك بشرط أن يخرج من عانده من مكة المشرفة، فمضى الفقهاء إليهم وأخبروهم بذلك، فتأخروا عنه إلى جوف مكة، ودخل الشريف حسن ومن معه السور وخيم حول بركتى المعلاة، وأقام هناك حتى أصبح فدخل مكة بكرة يوم الأربعاء سادس عشر شوال كما تقدم ذكر ذلك آنفًا، وطلب الشريف رميثة وأصحابه

مهلة خمسة أيام فأعطوها ثم خرجوا إلى ناحية اليمن.

ثم فى عام أربعة وعشرين وثمانمائة تسلطن الملك المظفر ابن الملك المؤيد، فأرسل توقيعا شريفا للشرىف حسن فقرىء بظل زمزم موضوعه أنه فوض أمر مكة إلى مولانا الشرىف حسن المذكور، وأشرك معه ولده بركات، وأرسل لهما خلعة سلطانية من خزائنه.

ثم وصل مرسوم شرىف قرىء بالحطيم بمحضر أفندى مكة وشىخ حرمها والأعيان والصدور، مضمونه على لسان الملك المظفر بأن والده الملك المؤيد انتقل إلى رحمة مولاه، وأنه بوىع بعهد من أبىه وموافقة من أهل الحل والعقد من العلماء والقضاة والأمراء، وأنه جلس على سرىر السلطنة فى ثانى محرم من سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وأن المطلوب من مولانا الشرىف حسن وذوىه السمع والطاعة وتأمين الأقطار الحجازية، وأنه مبذول لهم من جانب السلطنة الشرىفة كمال الرعاية وبذل الجود والعطاء، وكان يوما مشهودا.

ثم بعد مدة استمال الشرىف حسن ابن أخيه رمىة المذكور وأحضره وصفا له فتغير علىه القواد وقاموا بناصر ذوى ثقبه بن أبى نمى، وهم أولاد أحمد بن ثقبه بن رمىة، وأولاد على بن مبارك، وأعلنوا بالسلطنة لثقبه بن أحمد بن ثقبه بن أحمد بن ثقبه، ومىلب بن على بن مبارك، وجعلوا لكل منهما نوابا بجدة، فجهز الشرىف حسن علىهم فهربوا وقصدوا مكة واحتربوا هم ونائبه فىها مفتاح الزفتاوى فقتلوه وقتلوا جماعة معه ثم رجعوا إلى الغد.

ولما كان النصف الثانى من شوال سنة عشرين وثمانمائة قدم من مصر ولده الشرىف بركات بن حسن فسر به، ولما طاف بالكعبة دعى له على زمزم، وصار أبوه الشرىف حسن يتفوه له بالولاية ويقول لبنى حسن وغيرهم: هو سلطانكم.

وفى ربيع الأول من سنة إحدى وعشرين أظهر للناس أنه تخلى عن أمر مكة لابنه الشرىف بركات بحيث أجلسه على المفرشة بالمسجد الحرام، وجلس هو على مفرشة عنده، فجمع ابنه حسن عن طاعة أبىه لكونه قدم أخاه بركات علىه، فأرسل له أبوه الشرىف حسن يستعطفه فلم يمل أحمد لذلك، وحمله جماعة من المفسدين على نهب جدة ففعل ولم يسهل ذلك بأبىه، ثم دخل فى الطاعة، ثم نكث ومضى

إلى ينبع، ثم عاد مع الحاج ثم رجع .
وفى سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة: سأل من الملك المؤيد تفويض مكة لولديه
بركات وإبراهيم، وتنصل من إمرتها لضعف بدنه وميله إلى التخلي للعبادة، وتوجه
عقب الكتاب إلى صوب حلى آخر صفر.

وفى ثانی عشر ربيع الأول من سنة أربع وعشرين وصل تشریفان له ولابنه
بركات، وعهد يتضمن ولايتهما لمكة من الملك المظفر أحمد ابن الملك المؤيد كما
تقدم ذكر ذلك، وأراد الشريف حسن أن يشرك ولده إبراهيم مع أخيه بركات،
فحصل تنافر بين الأخوين، فوصل إبراهيم من جانب اليمن ومعه الأشراف، وألزموا
المؤذن بالدعاء له ففعل، ولم يسهل ذلك بأخيه بركات، وصار يخطب لإبراهيم مع
أبيه حسن وأخيه بركات.

وفى سنة ست وعشرين أمر الشريف حسن بقطع الدعاء لولده إبراهيم من الخطبة
وغيرها؛ لأنه أمره بمباينة ذوى راجح فلم يفعل.

ولم يزل الشريف حسن مستمرًا فى الولاية إلى أن صرف عنها هو وولده بركات
سنة سبع وعشرين وثمانمائة بالشريف على بن عنان بن مغامس بن رميثة بن أبى
نمى، وكان ذلك بتفويض السلطان برسباى ملك مصر المحروسة.

فوليها الشريف على بن عنان المذكور وجهاز معه الملك برسباى من مصر جيشًا
كثيفًا وخيلًا وأميرًا يكون عنده كما هو العادة؛ لأنه عزل حسنًا المذكور بموت
سلطانه الذى ولاه وهو الملك المظفر ابن الملك المؤيد، فخشى السلطان برسباى
من مخالفة حسن المذكور ومحاربتة لعلی، وكانت توليته فى سنة سبع وعشرين
المذكورة، فدخل مكة بمن انضم إليه من الأشراف والقواد المنسويين لعجلان،
فظاف والمؤذن يدعو له على زمزم، وقرىء توقيعه بالحطيم على العادة ولبس
الخلعة، ثم خرج راكبًا من باب الصفا مختلعا فظاف فى شوارع مكة المكرمة، ثم
نزل إلى جدة المعمورة لأخذ مواجبه من الواصلين من الهند وترفق بهم غاية الترفق.
ثم عاد إلى مكة ونادى بالأمان، وأن كل من اختار الخدمة من الأشراف والقواد
يأتى إلينا ومن لا فلا يقيم عندنا وله منا شهر زمان مهلة.

وقيل: إنه استمال الشريف رميثة بن محمد بن عجلان الذى كان متوليًا قبل

للشريف حسن، فوصل إليه، فلزمه الأمير قرقماس ووضعه في الحديد، وذهب به إلى مصر صحبة الحاج، فأرسل إلى الإسكندرية هو والشريف مقبل صاحب ينبع، وخرجوا رابع عشر ذى الحجة إلى الشريف حسن، وذلك أن الشريف حسن لم يحدث منه شيء لما عزل بالشريف على بن عنان بل لما سمع أنه قرب من مكة واصلًا إليها من مصر متوليًا صحبة الحاج خرج عنها هو والأشراف الذين معه والقواد، وتنحى بناحية قرب مكة وراسل السلطان برسباي بالكلام اللين وعرفه أن عزله كان بغير سبب فخرجوا إليه وأرادوا أن يهجموا عليه لأنه مكر به بعد التجار، واستندناه فقصده ليطفروا به فلم يروه بحماية الله تعالى، واستمر الشريف على بن عنان إلى أن عزل عنها غرة ذى الحجة من عام ثمان وعشرين وثمانمائة بالشريف حسن.

فوليها الشريف حسن بعهد من ملك مصر برسباي لأنه راسله بالكلام اللين وعرفه عزله بغير سبب كما تقدم، فرضى عليه وأعاده إلى إمرة مكة.

ولما بلغ الشريف حسن هذا الخبر أرسل ولده السيد بركات لمواجهة أمير الحاج المصرى فواجهه ودخل هو وإياه إلى المسجد، وحلف له بالله تعالى أن السلطان قد رضى على أبيك الشريف حسن وأنه لا يناله منى ولا من السلطان سوء، وكان الحلف على الملتزم.

فعند ذلك دخل الشريف حسن وواجه الأمير، وأهدى إليه هدايا، وأعطاه مَحْفَةً حَجَّ فِيهَا.

ثم إنه حج بالناس وأظهر طاعة السلطان برسباي، وأعلن بالدعاء له، فلما وصل خبر ذلك إلى السلطان برسباي طلب حضور مولانا الشريف حسن إليه فتوجه فى الموسم من السنة المذكورة.

فلما وصل أمر السلطان أن يتلقاه الأمراء والأكابر ويمشوا بين يديه. ولما حضر بين يديه أنعم عليه بالخلع العديدة والإنعامات المزيدة، والتزم الشريف حسن أن يخدم السلطان بثلاثين ألف دينار وأرسل عبده شكر إلى بندر جدة ليأتيه بها، واستمر بمصر على كمال الحشمة ووفور النعمة.

فكتب بعض أدباء مكة إلى السلطان - على لسان مكة - يذكر أنها متشوقة إلى

الشريف حسن قوله: [من الوافر]

مِنْ الْبَلَدِ الْمُخَصَّصِ بِالْأَمَانِ وَكَغَبَتِهِ الْمَشْرِفَةُ الْمَبَانِي
تَقْبَلُ كَفَّ سُلْطَانِ الْبَرَايَا أَبِي النُّضْرِ الْمَوْفَّقِ لِلْمَعَانِي
بِرُسْبَايَ الَّذِي مَلَكَتْ يَدَاهُ جَمِيعَ الْخَلْقِ مِنْ قَاصٍ وَدَانِي
وَتُنْهَى مَا بَهَا مِنْ عُظْمٍ شَوْقٍ إِلَى سُلْطَانِهَا بِذَرِ الزَّمَانِ

إلى أن قال: [من الوافر]

فَرُدُّ إِلَى سُلْطَانِي سَرِيعًا فَإِنِّي كَالْجَوَادِ بِلَا عَنَانٍ
فسمعها السلطان فرسم للشريف حسن بالتوجه إلى مكة وجهزه، وبرز ثقله خارج
الديار المصرية، فاعترض له الضعف فعاد إلى القاهرة ومكث بها أيامًا يسيرة، ثم
توفي بها سادس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وثمانمائة، ودفن في
حوش الملك الأشرف برسباي المذكور بالصحراء وقبره هناك مشهور يزار.
وله وقائع مشهورة في التواريخ مسطورة مع إخوته، وبنى عمه وملوك مصر
والقواد وغيرهم، وكان ذا ثروة عظيمة، وحشمة وافرة جسيمة، وخيرات كثيرة
عميمة.

بنى بمكة رباطًا للرجال ورباطًا للنساء، وبنى المارستان، وعمر أوقافه وزاد فيها
ما يحتاج إليه، وجدد رباط رامشت عند باب الحزورة، ولم يل مكة قبله من يدانيه
في شيء من ذلك.

وقد مدحه كثير من شعراء مكة المعتبرين، منهم الشيخ شهاب الدين أحمد
الفاسي والد تقى الدين الفاسي مؤرخ مكة، ومنهم شيخ الإسلام شرف الدين
إسماعيل بن أبي بكر المقرئ، وكان الملك الناصر أحمد بن إسماعيل الغساني
صاحب اليمن تشفع إلى الشريف حسن بن عجلان سنة سبع وثمانمائة في ترك
التشويش على موسى صاحب حلى وحته على الموافقة على ذلك القاضي شرف
الدين المذكور بقصيدته النونية وهي قوله: [من الكامل]

أَحْسَنْتَ فِي تَدْبِيرِ مُلْكِكَ يَا حَسَنَ وَأَجَدْتُ فِي تَحْلِيلِ أَخْلَاطِ الْفَتَنِ
مَا كُنْتُ بِالتَّرْقِ الْعُجُولِ إِلَى الْأَدَى عِنْدَ التَّرَاعِ وَلَا الضَّعِيفِ أَخَا الْوَهَنِ

والغر ملق في يد الأهوا الرسن
ودواؤها في الدفع بالوجه الحسن
قلب الصديق لحربه ظهر المجن
تنهض له ينهض وإن تسكن سكن
سكنت وإن حرّكته الفتن اطمأن
صفت من الأكار عيش ذوى الفطن
وحصولها بهما جميعاً مرتهن
ماض، ولا في السيف ليس له من
أهلاً بها للزائرين ولا وطن
في مكة لم يخرجوك إلى ظعن
وتعلقوا بذرى الشوامخ والقن
سيف على الأرواح ليس بمؤمن
لك بالعلا فلم التأسف والحزن
ما في قتيل فرّ مرعوباً سمن
فالحُرّ يكرم سيفه أن يمتن
في ظهر من ولّى أبوك أبو الحسن
تنفل أحقاد الضغائن والإحن
في الحرب لكن أين موسى من حسن
يمنّ وذا في الشام لم يدع اليمن
لما سخطت عليه أحداث الزمن
فقه مرارة فزقة الروح البدن
لجمعت بين الجفن منه والوسن
ثمناً يكن منك المثلث والثمن
ما بعث لم يعلق بصفقة العبن
والعفو عنه فلا تخيب فيك ظن
فضلاً كما ابتدؤه بالظن الحسن

تمسى ورأيتك عن هواك معوق
داء الرياسة في متابعه الهوى
وإذا الفتى استقصى لنصرة نفسه
لا تضغ إن شرّ دعا فالشر إن
وسديد رأي لا يحرك فتنة
ردّ العدو إلى الصداقة حكمة
بالسيف والإحسان تقتض العلاء
لا خير في من ولا سيف بها
أما حلّ فإن خوفك لم يدغ
حلّيتهم منها وجسمك وادع
تركوا لك الأوطان غير مدافع
حفظوا نفوساً بالفرار أطلها
ولحفظها بالقر أكبر شاهد
فاغمد سيوفك رغبة لا رهبة
واكرم سيوفك من دما طرداتها
قد كان لا يرضى يخطط سيفه
وقد اقتدرت وباقتدار ذوى النهى
موسى هزبر لا يطاق نزاله
هذا في يمن وما سلمت له
فانظر إلى موسى وقد لعبت به
ذاق المرار لفوته أوطائه
لو شئت وهو عليك سهل هين
بغ منه مهجته وخذ ما عنده
هذى مساومة الفحول ومن يبع
جنا بحسن الظن نسالك الرضا
فالحُرّ يكرم سائليه يرى لهم

ويهيئُ سائله اللئيم لظنِّه في مثله خيرًا وذلك لا يُظنُّ
لا زِلْتُ للشرفِ المخلدُ بانِيًا شرقًا ومجدًا ثابتًا لبَنِي حَسَنٍ
ولما وقع بين الشريف حسن بن عجلان وبين الأمير أحمد بن إسماعيل الغساني
صاحب جهات اليمن الحرب منع مسير الجلاب بالحبوب إلى أهل الحرم الشريف،
فأنشأ السيد المرتضى قصيدة يستشفع عند الأمير أحمد في إطلاق الحبوب إلى أهل
مكة، فقبل شفاعته وأطلقها، وهي هذه: [من الكامل]

عطفًا على الحرَمين يا ملكَ اليَمَنِ وارفقْ بأهلِ الله في أمِّ القُرَى
إني أشيرُ عليك رأيَ نصيحةٍ لا تسلكنَ فيهم طَريقَةً قاطِعِ
أَلَمَنُ منك وأنتَ مَنْ سائلُ أنتَ الذي ورثَ المكارمَ عن يدِ
ولكَ السِماحةُ والتقى من أسعدِ فانظرْ بعينِ حَقِيقَةٍ وسِماحةٍ
لا تحملُكَ عزَّةٌ ملكيَّةٌ إن الذي فَعَلَ الشريفُ وإن جئى
من ذا الذي ما ساء قُطٌّ ومن له الـ حسنُ مليكٌ في الحجازِ معظمُ
هذا له يَمَنٌ وهذا ما له ولك المِداثُ والسفائنُ كُلُّها
أطلقَ له سُفُنَ البحارِ فإنها بيتٌ له خَضَعَ الملوكُ جلالَةً
وأبوكَ أولُ مَنْ كساه كما أتى ولكم به آثارُ فضلِ ظاهِرِ
رسمِ المظفَرِ فيه مكتوبٌ بما وعلى منابرِهِ يشاعُ بذكرِكُم
وتجاوزًا يا خيرَ أملاكِ الزَمَنِ إن لم تكنْ أنتَ الرفيقَ فَمَنْ وَمَنْ؟!
والمستشارُ من البرية مؤتمِنُ للرحمِ إنهمُ هناك كَمَنُ وَمَنْ
للمسلمينَ وأنتَ في المَئينِ مَنْ ولكِ المعالِمُ والعلومُ بكلِّ قَنَ
ولكَ الوجاهَةُ والعلا من ذى يَزَنُ تلكَ الأماكِنَ والمساكنَ والسكَنَ
في حربها بخلافِ مَنْ فيها سَكَنُ مثلُ الحصاةِ وأنتَ في عفوِ حَضَنِ
حَسَنِي فَقُطُّ ومن له العقلُ الحَسَنُ فيها ولكنْ أينَ أحمدُ من حَسَنٍ؟!
إلا فضاضةُ ما تفيضُ به عَدَنُ وله يلنَمُ والجنوبُ إلى قَرَنِ
تجرى إلى البيتِ العتيقِ على سَنَنِ وبه تفاضَلَتِ الفرائضُ والسَنَنِ
في مُحكَمِ التاريخِ في مَلِ اليَمَنِ فيما تظاهر من بناء وما بَطَنُ
ءِ العينِ أيده المؤيَّدُ بالمَنَنِ بالصَّوَبِ في الحرمِ الشريفِ إذا ازدجَنُ

أَوْ لَيْسَ فِي هَذَا الدِّعَاءِ لِأَهْلِهِ
 صُنْ مَكَّةَ الْغُرَاءِ مِنْ فِتْنٍ وَمِنْ
 وَمِنْ الْمَحَاسِنِ فِي الْكَلَامِ قَصِيدَةُ الْ
 قَدْ قَالَ فِي أَبِيَاتِهَا وَبِدِيعِهَا
 دَاءُ الرِّيَاسَةِ فِي مُتَابَعَةِ الْهَوَى
 وَإِذَا الْفَتَى اسْتَقْصَى لِنَصْرَةِ نَفْسِهِ
 لَا تُصْغِحْ إِنْ شَرُّ دَعَا فَالْشَّرُّ إِنْ
 وَسَدِيدُ رَأْيٍ لَا يَحْرُكُ فِتْنَةً
 رَدَّ الْعَدُوَّ إِلَى الصَّدَاقَةِ حِكْمَةً
 هَذِي نَصَائِحُ أَبْرَزَتْهَا فِكْرُهُ أَلْ
 فَاقْبَلْ نَصَائِحَ تَتَّصِلُ بِلِ إِنْهَا
 أَنْتَ الْمَلِكُ ابْنُ الْمَلِكِ وَلَيْسَ مِنْ
 وَتَرَى الطَّيِّبَ إِذَا تَقَادَمَ جُزْجُ مِنْ
 كُلِّ لَهُ شَجْنٌ وَمَا لَكَ فِي الْعِلَا
 وَلَأَنْتَ فِي الْإِسْلَامِ رَأْسٌ وَاحِدٌ
 رَفَقًا بِأَهْلِ الْمَكْتَنِينَ وَرَحْمَةً
 وَإِذَا أَرَدْتُ لَهُ مَعَاتِبَةً عَلَى
 لَا زِلْتُ فِي الشَّرَفِ الْمَعْظُمِ خَالِدًا
 وَكَانَ لَهُ مِنَ الْأَوْلَادِ جَمَلَةٌ، مِنْهُمْ: أَبُو الْقَاسِمِ وَعَلَى وَإِبْرَاهِيمَ وَبَرَكَاتُ .

ثم وليها الشريف بركات بن حسن بن عجلان، وذلك أنه استدعاه السلطان
 برسباي سادس عشر رمضان من السنة المذكورة وهي ستة تسع وعشرين وثمانمائة،
 فلما قدم إلى مصر المحروسة أواسط ذي القعدة فوض إليه إمرة مكة المشرفة عوضاً
 عن والده، وقرر أخاه إبراهيم بن حسن نائباً عنه ثم ألبسهما خلعتين عظيمتين،
 فوصلا إلى مكة المشرفة ودخلاها بالخلع السلطانية، وقرئ توقيع مولانا الشريف
 بركات بالخطيم، على طريقة أسلافه الكرام، لا زال الملك فيهم وفي عقبهم إلى يوم
 القيام.

قال المقریزی فی کتاب « السلوك فی أخبار الملوك » ^(١): لما كان ليلة الأربعاء ثالث عشر شهر رجب من عام تسع وثلاثين وثمانمائة بعث الشريف أبو زهير بركات ابن حسن بن عجلان أمير مكة بعثاً فيه يشكو عبيد أبيه الشريف حسن بن عجلان من بطون حرب إحدى قبائل مذحج ومنازلهم حول عسفان نزلوا سنة ست عشرة وثمانمائة، وقد أخرجهم بنو لام من أعمال المدينة النبوية فكثروا عبثهم، وأخذهم السابلة من المارة إلى مكة بالميرة، وجعل على هذا البعث أخاه الشريف على بن حسن بن عجلان ومعه من بنى حسن الشريف ميلب بن على بن مبارك بن رميثة وغيره في عدة من الناس، وسار معهم الأمير أرنبغا أمير الخمسين المركزين بمكة من أماكنه السلطانية وصحبته منهم عشرون مملوكاً، فنزلوا عسفان يوم الخميس رابع عشر الشهر المذكور، وقطعوا الثنية التي تعرف اليوم بمدرج على، حتى أتوا القوم وقد أئذروا بهم، ففتحوا عن الأرض وتركوا بها إبلا مع خمسة رجال، فأول ما بدءوا أن قتلوا الخمسة رجال، وامرأة حاملاً كانت معهم وما في بطنها أيضاً، واستاقوا الإبل، حتى إذا كانوا نحو النصف من الثنية المذكورة ركب القوم عليهم الجبلين يرمونهم بالحرايب والحجارة، فانهزم الأمير أرنبغا في عدة من المماليك وقد قتل منهم ثمانية ومن أهل مكة وغيرهم نحو الأربعين وزيادة وجرح كثير ممن بقى، وغنم القوم منهم اثنين وثلاثين فرساً وعشرين درعاً، ومن السيوف والرماح والأسلحة والأسلاب ما قيل إن مبلغه ثماناً خمسة آلاف دينار وأكثر، فلما طلعت شمس يوم الجمعة دخل أرنبغا بمن بقى معه من المماليك مكة وهم يقولون: قتل جميع من خرج من العسكر، فقامت عند ذلك بمكة صرخة من جميع نواحيها لم نر مثلها شناعة، وأقبل المنهزمون ناساً بعد ناس في عدة أيام، وحمل الشريف ميلب يوم السبت ميتاً، ومات بعده بأيام شريف آخر من جراحة شوهت وجهه كله من أعلى جبهته إلى أسفل ذقنه فإنا لله وإنا إليه راجعون.

واستمر الشريف بركات على ولاية مكة إلى سنة خمس وأربعين وثمانمائة ونزل فيها بأخيه على بن حسن كما سيأتى، وقيل فى التى بعدها بموضع يقال له الحشافة بالقرب من جدة، وأجاز له فى سنة خمس جماعة من العلماء: الحافظان العراقى

(١) ينظر: السلوك للمقریزی (٩٧١/٤ - ٩٧٢)

والهيشمى والبرهان ابن صديق والمراغى وعائشة بنت عبد الهادى، والشمس
الفرسىسى فى آخرين، وحدث عنه البقاعى وغيره، كذا فى نظم العقيان فى أعيان
الأعيان للسيوطى^(١).

ونشأ شريف الهمة حسن الأفعال جميل الأخلاق، أشركه والده كما قلناه فى إمرة
مكة مرارًا وكان هو المشار إليه فى جميع أحوالها.

ولما توفى والده ارتحل إلى القاهرة بطلب من السلطان برسباى، والتزم بما على
والده من المال، واستقر فى إمرة مكة بمفرده.

ولما وصل إلى مكة حسنت سيرته فى الناس وعم الناس خيره.

ولما مات السلطان برسباى، واستقل الملك الظاهر جقمق فى مملكة مصر طلبه
إلى القاهرة، فامتنع من التوجه إليه خوفًا منه بسبب واقعة وقعت له مع الظاهر
المذكور لما حج وهو أمير فى عام سبع وعشرين وثمانمائة، فعند ذلك رام السلطان
أن يولى أخاه عليا، وكان على عنده بالقاهرة لأنه وقع بينه وبين أخيه بركات منافرة
سنة اثنتين وأربعين، فعزم إلى مصر فأقام بها إلى أن ولى سنة خمس وأربعين كما
سيذكر فلم يوافق على ذلك من أركان الدولة من يعتمد عليه فتوقف، ثم فعله فى سنة
خمس وأربعين وثمانمائة.

فولى أخاه على بن حسن بن عجلان إمرة مكة المشرفة منفردًا وجهز معه عسكريًا
فوصل العلم إلى الشريف بركات وهو بوادى الآبار توجه من فوره إلى جدة وأخلى
مكة المشرفة من نوابه، ثم وصل وزير الشريف على بن حسن قبله إلى مكة وهو
القائد مزروع العجلانى ودعا لأمير مكة من غير تعيين على منبرها فى رجب من العام
المذكور، ثم وصل الشريف على فدخل مكة، ولما نزل الشريف بركات إلى جدة
استولى عليها، فراسله الشريف على وأخوه الشريف إبراهيم، ومن معهما من
الأمرء، وسألوه أن يخرج من البلاد فامتنع إلا من المحاربة، فوقعت بينهما الحرب
بالجديد بالقرب من جدة فكانت الغلبة لعلى ومن معه من الأمرء والأتراك، واستولوا
على جدة، وتوجه الشريف بركات إلى جهة اليمن هو ومن معه واستمر على فى إمرة
مكة مدة قليلة إلى أن قبض عليه مع أخيه إبراهيم يوم الثلاثاء رابع شوال سنة ست

(١) ينظر: نظم العقيان للسيوطى ص ١٠٠.

وأربعين وثمانمائة، وكبلا فى الحديد وظهر عزله بأخيه الشريف أبى القاسم .
فوليها الشريف أبو القاسم بن حسن بن عجلان وكان بالقاهرة، فطلب الأمراء المقيمون بمكة ولده السيد زاهر بن أبى القاسم بن حسن بن عجلان، وألبسوه خلعة ليكون نائباً عن أبيه، فقام بحفظ البلاد ولده السيد زاهر وذهب بالأخوين على وإبراهيم إلى جدة وأركبا فى جلبة إلى القاهرة.

وتفصيل هذه الواقعة هو ما ذكره الجزيرى فى تاريخه فقال : لما كانت سنة ست وأربعين وثمانمائة وصل حكم من السلطان الظاهر جقمق صاحب مصر مع الأمير تمرارز بالقبض على الشريفين على بن حسن بن عجلان وأخيه إبراهيم وتجهيزهما إلى مصر، فحضر الأمير تمرارز إلى مكة فى مستهل شوال، فأرسل الأمير بيورلدى إلى الشريف على ابن الشريف حسن أن يحضر هو وأخوه السيد إبراهيم للبس خلعتيهما، فتخيلا من ذلك وكانا بوادى الآبار، ثم اقتضى رأيهما أن يقيم السيد إبراهيم بوادى الآبار ويتوجه إليهم الشريف على، فوصل إلى مكة فى عشاء ثالث شوال وأتاهم فى صباحها، فسألوه عن أخيه السيد إبراهيم فذكر لهم عنه عذراً أقامه، فألبس الأمير تمرارز الشريف على خلعة حمراء وحياصة. وقرئ مرسوم السلطان مضمونه : إنه بلغنا أن الشريف على متشوش خاطر، فليطب نفساً وليقر عيناً فإننا لا نغير عليه شيئاً أبداً ما دام على العهود والمواثيق، وقد بعثنا له بخلعة ولأخيه إبراهيم كاملية قرو قاتم، فقرت بذلك عين الشريف فلبسها وطاف بالبيت، فحسن الأتراك للشريف على أن يرسل إلى أخيه إبراهيم فيصل للبس خلعته السلطانية، فاعتمد الشريف على قولهم، وأرسل إلى أخيه ثم اجتمعا بهم فى المسجد فألبس الشريف إبراهيم خلعته، وكان بعض الأمراء الأتراك اعتذر عن حضوره ذلك اليوم بأنه شرب مسهلاً، فحسن الباقون من الأتراك للشريفين أن يعزما إليه من المسجد لزيارته، وكان نازلاً بمدرسة الباسطية فعلا، فبعد أن وصلا إليه مع جماعة الأتراك أخرج أحد الأمراء مكتوباً من السلطان، ودفعه لذلك الأمير المزبور فأعطاه لكتابه فعزبه ثم قرأه، فكان مضمونه الأمر بالقبض على الشريف على وأخيه إبراهيم، فقبض عليهما وتفرق من كان معهما، وحصلت الغوغاء فى البلد ثم استعادوا منهما ما ألبسوهما من الخلع، ثم إنهم سفروهما إلى جدة وأركبوهما البحر إلى مصر.

انتهى ما قاله الجزيرى .

قال السخاوى فى « الذيل » : كان الشريف على بن حسن المذكور حسن المحاضرة كريماً ، ذا ذوق وفهم ، ونظم حتى قيل : إنه أحذق بنى حسن وأذوقهم وأفضلهم .

ومن نظمه : [من الوافر]

وإن نال العلأ قومٌ بقوم رقيت علوؤها فرداً وجيداً
أقام بمصر بعد أن أخذ هو وأخوه ، فاستمر إلى أن مات بدمياط مطعوناً مسجوناً
سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة عن خمس وأربعين سنة .

ثم وصل أبو القاسم إلى مكة يوم السبت سابع عشر ذى القعدة من سنة ست وأربعين وثمانمائة لابساً خلعة الولاية وقرئ توقيعه بالخطيم ونودى له كما تقدم ، واستمر الشريف أبو القاسم فى ولاية مكة إلى سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، فهجم عليه الشريف بركات ، ففر الشريف أبو القاسم منها وأقام الشريف بركات بها ، فأشيع بمكة أواخر السنة المذكورة أن السلطان أوصى أمراء الحاج بالقبض على الشريف بركات ، لاستيلائه على مكة من أخيه أبى القاسم بعد النداء له وقراءة توقيعه عند الخطيم ، وكان قد وصل مع الحاج نحو عشرين أميراً لذلك ، فجمع الشريف بركات الخيل والرجل ، وأكثر من الجمع على العادة وتقدم وواجه أمير الحاج واختلع ولكن لم يدخل لأحد منهم بيتاً كما كان يقع .

فلما كان يوم عرفة لما عزم الأمراء إلى الصلاة بمسجد نمرة وقعت جفلة حال بروزهم وثار غبار شديد فظن الناس أنهم أغاروا على جهة الشريف بركات فاختلط الحاج وألبست الأشراف والقواد وكانت ساعة مهيلة والعياذ بالله وسلم الله المسلمين ، غير أن الشريف بركات لم يقف فى المحل المعتاد فيه الوقوف له بل وقف وحده ومن معه منفرداً عن الحاج ناحية ، ثم نزع بعد النزول إلى منى عن مكة . وعاد الشريف أبو القاسم إلى ولايته عليها ، واستمر الشريف بركات نازحاً عن مكة إلى سنة إحدى وخمسين وثمانمائة .

فلما كان سابع عشر ربيع الأول من سنة إحدى وخمسين وصل قاصد من مصر وذكر أن السلطان قد رضى على الشريف ، وأعاد إليه إمرة مكة المشرفة ، وسبب

ذلك أن ولده الشريف محمد بن بركات توجه إلى مصر بسبب السعى لولده الشريف بركات في إمرة مكة، ودخل القاهرة وحصل له من الملك الظاهر جقمق غاية الإكرام وأنعم على والده الشريف بإمرة مكة المكرمة، فبهذا هو السبب في رضا السلطان عن أبيه، ووصول القاصد بخبر توليته مكة المشرفة، فلما وصل القاصد إلى مكة بهذا الخبر أمر الشريف أبو القاسم أتباعه بالخروج من مكة إلى وادي البيار، وخرج وأخلى مكة، وذهب إلى مصر، فمات في السنة التي مات فيها أخوه على وفي شهرها بالطاعون المذكور أيضًا، وكان موته بالقاهرة وصلى عليه السلطان، ودفن على والده الشريف حسن بن عجلان بحوش الأشرف برسباي كذا في «الذيل» للسخاوي، واستمر الشريف بركات في مكة السنة المذكورة، ثم استدعاه السلطان سنة إحدى وخمسين ليقدم عليه إلى القاهرة فما خالف ولم يمتنع كما امتنع أولاً، وقدم عليه إلى القاهرة مستهل رمضان في السنة المذكورة، فنزل السلطان إلى لقائه إلى الرميلة وبالغ في إكرامه واحترامه، وخرج من القاهرة عائداً إلى مكة عاشر رمضان من السنة المذكورة مكرماً مرعياً معاملاً بكل جميل، وحصل له من الإكرام ما لا مزيد عليه مما لم يقع لأحد من أهله قبله.

وأخذ العلماء عنه بالقاهرة وازدحموا للقراءة عليه لعلو سنده وسموعا من نظمه. ثم عاد إلى مكة المشرفة وكان يوم وصوله يوماً مشهوداً عظيماً، وذلك أنه لما كانت ليلة السبت أواسط شوال من السنة المذكورة سنة إحدى وخمسين وثمانمائة دخل الشريف بركات إلى مكة محرماً بالعمرة فطاف وسعى وخرج إلى الزاهر وبات به، ثم دخل مكة في صباح اليوم المذكور لابساً التشريف وقرئ توقيعه بالحطيم، وطاف ونودي له بالدعاء على قبة زمزم كعادة أسلافه الكرام ملوك مكة.

ومما وقع في زمانه أن أمير اليمن أحمد بن إسماعيل الغساني المتقدم ذكره آنفاً كتب إليه أن يفرغ له دور مكة وأن يلقاه إلى حلى صحبة قصيدة هي قوله: [من الرمل]

مَنْ لَصَبٌ هَاجَهُ نَشْرُ الصَّبَا	لَمْ يَزِدْهُ الْبَيْنُ إِلَّا طَرَبَا
وَأَسِيرٌ كُلَّمَا لَاحَ لَهُ	بَارَقَ الْقِبْلَةَ مِنْ صَبَا
وَلَطَزَفِ أَرْقَ إِنْسَائُهُ	دُونَ مَنْ يَشْتَأُ قَدْ حُجِبَا
لَمْ يَزَلْ يَشْتَأُ نَحْلَانُ وَإِنْ	قَدَّمَ الْعَهْدُ وَيَهْوَى الطَّنْبَا

ما جرى ذكرُ المغاني في ربا
 حبذا صلبُ القعيسا وطني
 وربا البيزنين من قبله
 يا أخلائي بصنبا واللوى
 هل لنا نخوكم من عودة
 فلکم خادعت قلبي جاهدا
 فاذكروا صبا بكم ذا لوعة
 وإذا عن له ذكراكم
 وإذا ما سجت قمرية
 هائم القلب كئيبا دنفا
 أترى الحي الذي كنا وهم
 ليت شغري بعدنا هل طنبوا
 أو تناءت بهم عيسهم
 عجباً للدهر ماذا سنه
 ما طلبت الدهر إلا صعبا
 ولئن حل بقلبي نوب
 ويلاني من زمانى محن
 فلعمري ما بليت إلا صفا
 غير لا أنكر مغروفا ولا
 لا ولا منكرث لو أنه
 وأجل الناس صبورا لو على
 إخوتي بالشام بل يا سادتي
 ومساغير الوغى من حسن
 الشناخيب الذرى من معشر
 إن قضيتكم من هوانا أربا
 أو تناءت دارنا عنكم ولم

صبوات الشط إلا انتحبا
 ولويلات بها ما أغدبا
 وشراب بهما ما أغدبا
 وأحبائي بتيأك الربا
 لنرى سذرکم والكثبا
 يتسلى عن هواكم فأبى
 بان عنكم كارهها مغتصبا
 صاح واغتص الحسا وانتحبا
 صاح من فزط الأسى واحربا
 لم ير السلوان عنكم مذهبا
 جيرة بالشام أيام الصبا
 بربا نخلان بغدى طنبا
 أو سبتهم بعدنا أيدى سبا
 ولأحداث الليالي عجبا
 وطلبت السلم إلا حربا
 مضميات تستهل النوبا
 بلغ الضد بها ما طلبا
 وانتضت إلا حساما خشبا
 عابس الوجه إذا الدهر كبا
 وهب الحوباء فيما وهبا
 غارب المكروه يوما ركبا
 وأعز الناس أما وأبا
 وبنو الحرب إذا ضاق القبا
 الصناديد الكرام النجبا
 ما قضيتكم من هواكم أربا
 يأتنا منكم على البغدي نبا

لا تناسونا وإن طال المدى
 فإذا ريح جنوب جئبت
 فلديها من تناهى لوعتي
 حبذا لو أننى من دونكم
 وجياد الخيل ينثرن على
 الحق الأقران شغنا شربا
 أيها الرائح بالشام على
 أو كسهم طار عن مخنيه
 قل لمن كان لمأذون القضا
 والذى أوقد نيران الغضا
 واستلب ما شئت عمدا فعسى
 إن يكن سرّك ما سا فعسى
 إن ظننت الدهر يوما واحدا
 رب صدع كان أعياء شعبه
 وسرور بعد يأس قد أتى
 ولكم فتح من الله أتى
 فجلا همّا وأطفا حرّقا
 وأعادت رحمة الباري على
 إن خبوني عنك فى مستودع
 أو سلا جفّنتك لذات الكرى
 رب ليل بيّته مرتقبا
 أقرب النضر سريعا طالعا
 لنهار تنقط السمر به
 وجياد الخيل فى معركة
 فينال المرتجى من ربه
 وصلاة الله تغشى دائما

كم تناء بعد بُغْد قريبا
 فاسألوها كيف حال الغربا
 وغرامى ما يحطّ الشهبأ
 خائضا سمر العوالى والطبا
 متنات الدارعين العذبا
 تتعاطى بالعوالى شربا
 قلق السير كهبات الصبا
 ذات زورين إذا ما ركبا
 ولأحداث الليالى سببا
 زد على نارك إذا حطبا
 عن قريب أن تحطّ السلبا
 كنى ترى من بعد هذا عجبا
 فلقد حاولت أمرا كذبا
 أدركته رحمة فانشعبا
 وزمان بعد بؤس أعشبا
 حيث لا يُذكر ساع هربا
 وشفى غلا وجلّى كربا
 مؤيس من حاله ما ذهبأ
 فشهاب العزم منى ما خبا
 فجفوني والكرى ما اصطحبا
 لطلاب الثأر أزعى الشهبأ
 وأراعى الغفر مهما غربا
 فى الوعى ما شككت بيض الظبا
 مجليات يرتكبن الغيها
 فى أعاديه الذى قد طلبأ
 أحمّد المختار ما هبّ الصبا

فلما وصل المکتوب والقصيدة إلى الشریف بركات بن حسن المذكور تصدى
 لجواب أحمد بن إسماعيل المذكور السيد الأمد فصيح الفصحاء عفيف الدين
 السيد عبد الله بن قاسم الذروی، فكتب إليه هذه القصيدة على لسان الشریف بركات
 ابن حسن بن عجلان، رحم الله الجميع، فقال: [من الرمل]

بِالْقَنَّا الْخَطِيئَ وَالْبَيْضِ الظَّبَا	وَبِخَيْلٍ تَتَبَارَى سَرِبَا
سَابِحَاتٍ مَقْرِبَاتٍ ضُمِّرِ	أَعُوجِيَّاتٍ عِتَاقٍ شُرْبَا
بُرَيْثٌ أَذَانُهَا مِنْ جُودَةٍ	مِثْلَ أَقْلَامٍ بِهَا كُنْ كُتِبَا
دَاحِشِيَّاتٍ إِذَا مَا طَرَدَتْ	فَائِتَا مَا بَانَ عَنْهَا هَرَبَا
وَإِذَا مَا انْحَدَرَتْ عَنْ طَارِدٍ	سَبَقَتْ لَمْ يَبْغِ مِنْهَا أَرْبَا
عُودَتْ بِالْحَرْبِ حَتَّى إِنَّهَا	لَمْ تَزَلْ تَهْوَى التَّلَاقِي طَرَبَا
بِدُرُوعٍ سَابِغَاتٍ زُعْفٍ	شَاهَدَتْ أَيَّامَ عَادٍ وَسَبَا
صَافِيَّاتٍ ذَاتِ نَسِجٍ مُحْكَمٍ	وَقَتِيرٍ مِثْلِ أَعْيَانِ الدِّبَا
وَبِيبِضٍ رُوسَةٍ لَامِعَةٍ	نَصُّهُ صَانِعُهُ فَاثْتَصَبَا
وَبِأَبْطَالٍ إِذَا مَا اسْتَعَرَتْ	نَارُ حَرْبٍ وَلِظَاهَا التَّهْبَا
وَرُدُّوْهَا بِرِمَاحٍ ذُبُلٍ	وَبِأَسْيَافٍ تَحْزُ الْعَصْبَا
نَحْمَى الْبَيْتِ وَنَحْمَى جَدَّةَ	وَرِبَا حَلَى وَأُكْنَفَ قَبَا
بِسَيُوفٍ جَرَدَتْ مِنْ غَمْدٍ	كَبْرُوقٍ يَخْتَرِقْنَ الْحُجُبَا
قُلْ لِمَنْ رَامَ يَنَاوِينَا وَمَنْ	رَامَ يَأْتِي بَيْتَنَا مُغْتَصِبَا
لَا تَحِجَّ الْبَيْتَ إِلَّا خَاضِعَا	دَافِعَا عُشْرًا لَنَا ثُمَّ حُبَا
وَإِذَا مَا حَاجَّهُ ذُو عِزَّةٍ	تَرَكَ الْأَمْرَ وَجَا مِصْطَحِبَا
وَإِذَا مَا كَانَ رَأْسًا لَمْ يَغْدُ	عِنْدَنَا يَا صَاحَ إِلَّا ذَنْبَا
سُورَةُ الْفِيلِ لَنَا كَافِيَةٌ	أُتْرِكَ الْجَهْلُ وَخُلُ الْكَذْبَا
لَيْسَ بَيْتُ اللَّهِ وَادِي زَمَعٍ	لَا وَلَا دَمْتُ لِمَنْ قَدْ طَلَبَا
إِنَّ بَيْتَ اللَّهِ بَيْتُ خِصَّةٍ	مِنْهُ بِالنَّضْرِ فَلَنْ يَنْغَلِبَا
دُونَهُ خَيْلٌ عِتَاقٌ شُرْبٌ	عَسَفَتْ بِالْدَارِعِينَ النُّجْبَا
وَمَلِيكَ مِنْ بَنِي حَيْدَرَةٍ	طَابَ أَجْدَادًا وَأُمَا وَأَبَا

بركاتُ المنتقى من حسنِ فارسُ الهيجا إذا ما انتدبا
 ألمكئى بالنبي الهاشمي جده الكاشفُ عنا الكُربا
 أطولُ الناسِ فخارًا ساميًا وأجلُ الناسِ طرًا حسبا
 كم جئى من عربِ ذى عزةٍ ولمالِ الضدِّ كم قد نهبًا
 ولكم من ملكٍ عاندهُ فغدا عن مُلكِهِ منقلبا
 لو رآه الموتُ فى يومِ الوغى تَرَكَ الأمرَ وحطَّ السِّلْبَا
 ولو أنَّ الليثَ وافى سطوةً نكسَ الرأسَ وهزَّ الذَّنْبَا
 لا ولا يقرى لحوحًا ضيفه لا ولا يقطعُ حقَّ الأدبا
 وإذا ما البغلُ من قُلِّ حيا رامَ سَبَقُ الخيلِ جهلاً تَعْبَا

فلما بلغه هذا الجواب تخلف عن الحج، وأمر من يترصد الذرورى فى بلاده صيبا، فترصدوا له حتّى إذا نزل الساحل جازان تحيلوا عليه حتى ركب معهم فساروا به إلى أحمد بن إسماعيل المذكور فحبسه وضيق عليه، فأمر الشريف بركات بفدائه بمائة ألف ناقة، فقال أحمد المذكور: والله ما أخرجه من الحبس حتى ينشعب هذا الصدع، فأنشأ قصيدة فى الحبس، فأرسل الله تلك الليلة مطرا فأصبح الحجر قد انشعب بقدرة الله تعالى، فأطلقه وأحسن إليه وأوصله مأمنه. انتهى.

واستمر الشريف بركات إلى أن توهن بالمرض سنة تسع وخمسين وثمانمئة، فسأل مشددة خاني بك الظاهري أن يرسل إلى الملك يلتمس منه للشريف بركات أن يولى إمرة مكة لولده السيد محمد بن بركات بن حسن؛ لأنه ضعيفُ الجسم ضعيف الحركة، فأرسل خاني بك يسأل فى ذلك إلى الملك، فقدرت وفاة الشريف بركات قبل ورود الخبر، وجاء الجواب بعد موته بيوم بولاية ولده محمد بن بركات، وكانت وفاة الشريف بركات بن حسن بن عجلان عصر يوم الاثنين تاسع عشر شعبان سنة تسع وخمسين وثمانمئة بأرض خالد من وادى مر، وحمل على أعناق الرجال، ودخل به مكة أثناء ليلة الثلاثاء، وغسل وصلى عليه بالمسجد الحرام بعد صلاة الصبح، ودفن بالمعلاة وبنى عليه قبة موجودة إلى الآن. ورثاه الشهاب المنصورى بقوله: [من الكامل]

قالوا قضى بركاتُ قُلْتُ يحقُّ لي أن أتبع العبراتِ بالزفراتِ
 يا ترحةَ الأحياءِ عند فراقِهِ وبقرِبِهِ يا فرحةَ الأمواتِ

والكعبةُ الغراءُ قالتْ قد غدا لُبْسُ السوادِ عليه مِنْ عاداتي
فانظُرْ إلى آثارِهِ في مَكَّةِ فَرِحَاطُهَا لَمْ تَخُلْ مِنْ بَرَكَاتِ
وكان رحمه الله مهيباً وقوراً شجاعاً مقداماً غضبفراً كثير الخيرات جزيل المبرات
ميمون الحركات، بنى بمكة رباطاً للفقراء وهو موجود، وهم به قاطنون.

له الشر الفائق والنظم الرائق، فمن شعره قوله: [من البسيط]
يا من بذكرهمْ قد زادَ وسواسي وقد شَغِلْتُ بهمْ عَنْ سائرِ النَّاسِ
وَمَنْ تَقَرَّرَ في قلبي محبَّتُهُمْ وجِئْتُهمْ طائِعاً أَسْعَى على راسِي
سألتُكمْ شربةً مِنْ ما مشاريَكمْ تُغْنِي عن الراحِ إِذْ ما لَاحَ في الكَاسِ
واستمر في الولاية إلى عام ٨٥٩ تسع وخمسين وثمانمائة.

وكان ملكاً شهماً عارفاً بالأمور، فيه خير كثير وحلم زائد مع حسن السياسة
والشجاعة المفرطة زائد السكينة والوقار، وله بمكة مآثر كثيرة وقرب نافعة، منها
بمكة رباط للرجال وغير ذلك.

مات بأرض خالد من وادي مر، وحمل على أعناق الرجال وغسل في داره
وطيف به كما هو المعتاد، ودفن بالمعلاة، وبنى عليه ولده الشريف محمد قبة
وتأسف الناس لفقده، تغمده الله برحمته.

وكانت مدة ولايته تسع سنين من سنة إحدى وخمسين إلى سنة تسع وخمسين
وثمانمائة.

وكان له من الأولاد جملة منهم الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان.
ولى مكة بعد وفاة أبيه.

وقد تقدم ذكر التماس أبيه ذلك في مرض موته.
وفي عصر يوم الثلاثاء في يوم دفن والده وصل المرسوم بالإجابة إلى ما سأل فيه
والده، وصحبة المرسوم خلعة الولاية عوضاً عن أبيه، فلما ورد المرسوم بذلك كان
محمد غائباً ببلاد اليمن لحفظ بعض أموال والده، فدعى له على زمزم بعد صلاة
المغرب من ليلة الأربعاء، فلما كان يوم الجمعة قرئ المرسوم مخاطباً فيه السيد
بركات ومضمونه: إنه ورد إلينا كتاب الأمير خاني بك مشددة بالثناء على
المخدوم، وقد بلغنا ضعفه وتوعك جسده وقلة حركته فأقمنا مقامه في إمرة مكة

ولده السيد محمد بن بركات .

والمرسوم مؤرخ بسادس عشر رجب سنة تسع وخمسين وثمانمائة .
فلما كان رابع شوال من السنة المذكورة وصل كتاب من السلطان الملك الظاهر
أيضاً إلى السيد الشريف محمد بن بركات بالعزاء في والده الشريف بركات ، وتوقيع
باستقراره واستمراره في إمرة مكة عوضاً عن والده مؤرخ في أوائل شهر رمضان من
السنة المذكورة ، ودام إلى سنة ثمانين وثمانمائة .

ثم استتاب ولده الشريف بركات بن محمد بن بركات ، ثم توفى هو عام ثلاث
وتسعمائة كما سيأتى ذكره ، ومدة ولايته خمس وأربعون سنة .

ومن فتوحات الشريف محمد عام ثلاث وسبعين : أنه غزا طائفة زبيد ذوى مالك
ابن رومى بين خليص ورايح ، وقتل منهم سبعين رجلاً وقتل شيخهم رومى وأخاه
مالكاً وغنم منهم أموالاً عظيمة من جملتها ثلاثون ألف بعير .

وفى سنة سبع وسبعين وثمانمائة من دولته اتفق أن أمير الحاج المصرى منع
الحاج العراقى من دخول مكة وخرج الأتراك والشريف محمد بن بركات بن حسن
وغالب العسكر ملبسون ، فلما احتاطوا بالحاج العراقى أمرهم بالدخول إلى مكة ،
فلما دخلوها أمسكوا الأمير والدوادار وأخذوا المحمل العراقى ، وزنجروهما
وأركبوهما جملين ، ودخلوا بهما مكة ، ثم بعد الحج عزموا بهما إلى مصر ، ومن
بعد تلك السنة لم يدخل محمل من العراق إلى مكة إلى الآن .

وفى عام إحدى وثمانين وثمانمائة ورد مرسوم السلطان قايتباى - طاب ثراه - بأن
عشر اليمانى بينه وبين الشريف محمد بن بركات مناصفة ، وبأن لمولانا الشريف
محمد كل مال الموتى الذين لا وارث لهم إلى أن يبلغ ألف دينار جديد ، فما زاد
على ذلك كان للسلطان ، وبأن أموال اليتامى فى حفظ أمير السلطان بمكة بعد أن
كانت فى حفظ قاضى الشرع الشريف .

ووصل محمل من العراق فلم يدخلوا به إلى مكة المشرفة ، وبذلوا على دخوله
مكة وطلوعه عرفة مالا جزيلاً فلم يوافقهم على ذلك مولانا الشريف محمد
المذكور .

وفى سنة اثنتين وثمانين بنيت المدرسة الأشرفية القايتباية بمكة المشرفة .

وفيها غزا الشريف محمد على جازان، ونهبها وأحرق حصنها، وأخرب سورها وقتل عدة مستكثرة من رجالها، وغنم شيئاً كثيراً من أموالها، وأسر طائفة عظيمة من نسائها وأطفالها، وكان معظمهم من الأشراف، وتبلغت العساكر من أموالهم وأولادهم ونسائهم بأموال كثيرة وباعدتهم فى سائر الأطراف.

قال العلامة جار الله بن فهد القرشى المكى: وكان ذلك فتحاً عظيماً أوجب جلالة مولانا الشريف محمد ورجحانه على من سلف من هذا البيت المبارك، وخافته القبائل وامتلأت من مهابته الصدور.

وفى عام أربع وثمانين كان حج مولانا السلطان قايتباى - رحمه الله - وصحبه من الديار المصرية أعيانها المشهورون من العلماء والصلحاء، وأولاد الرؤساء أهل الحل والعقد، وتجهز بالأوضاع السلطانية، وصحب من الدواب والخلع والأموال ما لا يحصره عد ولا يحويه حد، وخرج لاستقباله الشريف محمد وولده الشريف هزاع، والقاضى إبراهيم بن ظهيرة وولده القاضى أبو السعود، وقابلوه فى بدر فى افتتاح ذى الحجة الحرام من السنة المذكورة على أجمل حال من كثرة العساكر وجمالهم بالسلاح المذهب والثياب الحرير الفاخرة، والخيول المسومة والذخائر والركاب الملبسة بأنواع الذهب، والحلية النظيفة والسيوف المسقطة.

وقد تقدم شرح ذلك بأبسط من هذا عند ذكر ترجمة السلطان قايتباى فى الباب السادس المخصوص بولاية الشراكسة فلا حاجة بنا الآن إلى تكريره.

واستمر الشريف محمد بن بركات على الولاية وحمدت سيرته فى البلاد، واطمأن بوجوده العباد، ولم يزل فى زيادة علو وارتفاع، وتوافر نعم وخيرات وساع، كل ذلك مع فعل الخير والإحسان، والمبرات التى شمل بها القاصى والدان، وتكرار زيارة جده المصطفى ﷺ، والإحسان إلى المجاورين بالحرمين الشريفين، والمحليين المعظمين المنيفين، خصوصاً من يتوسم فيه الخير والصلاح، وفاق فى ذلك من تقدمه من أسلافه الكرام.

ووقع فى أيامه من العدل والطمأنينة ما لم يقع فيما تقدم من الأيام، وفوض إليه نيابة السلطنة بالأقطار الحجازية، والاستنابة فى المدينة المنورة والينبع ممن يختاره، وصرح باسمه الشريف على منبر المدينة بعد السلطان وقبل صاحبها، ونفذ أمره فى

جميع الأقطار الحجازية من أعمال ينبع كنبط والحوरा وما فوق ذلك من الشام إلى أعمال جازان وما والاها من اليمن والبلاد الشرقية على التمام، وما حول ذلك من بلاد الحجاز وسراتها وبجيلة وأعمالها، وانفرد في ذلك بعلو شأن.

وتحدث بهيته وسطوته القاصي والداني، ولطالما جهز جيوشه وسراياه إلى من خالف عليه وناواه، وظفر بهم كل الظفر، واستأصل أموالهم وملكهم وقهر، كقتال أهل ينبع لما لم يوافقوا على الخضوع، وأجلى الجميع من بلادهم وكفهم عن مقاصدهم ومفاسدهم.

وكأهل جازان لما وقع منهم ما وقع من العصيان، فقتلهم واستبى، وملك بلادهم واجتبى.

وكقتل أهل زبيد وإهانتهم، ثم إكرامهم لما دخلوا في الطاعة وإعانتهم. وكقتل أهل حلى والعبيد، وتشريدهم كل التشريد، وإخراجهم من البلاد، والقبض على أميرهم الحرامى وجعله مع أهل الجرائم والعناد، إلى غير ذلك مما لا يحصيه قلم كاتب ولا ديوان حاسب.

ولقد كان والله حسنة من حسنات الزمان، ومنة من الله تعالى على القاصي والدان، تواضعًا وأدبًا وفهمًا وعقلًا ومدارةً واغتفارًا مع حسن الشكالة ووضاءة الصورة والمواظبة على الطواف والجماعة عند وصوله إلى المحل الشريف ومزيد الوقار، والسكون والعدل، وكف جماعته عن أذى الرعية ومسايسه للتجار وعدم الطمع والتطلع لما في أيديهم ومجاملتهم والذب عنهم، وفعل الخير الذى يحصل به الثواب العظيم كرباط بمكة المشرفة مع ما وقفه عليه والسبل العديدة بطريق الوادى وجدة، وآبار كثيرة يحصل بها النفع للمسافرين، كالذى بطريق المدينة الشريفة، وبجهة اليمن وغير ذلك من الحسنات، ولم تزل دولته قائمة قويمة وأموره منتظمة وأحواله مستقيمة.

وهو مبجل معظم عند الملوك لا يخالفونه فيما يختار في جميع الأقطار الحجازية، ويراعون خاطره في جميع الأحوال المنسوبة إليه، إلى أن اختاره الله تعالى لدار البقاء ونقله إلى دار كرامته، فانتقل إلى رحمة الله تعالى في شهر محرم الحرام سنة ثلاث وتسعمائة بوادى الآبار، وحمل على أعناق الرجال إلى مكة المشرفة، وغسل في بيته ودخل به المسجد وطيف به أسبوعاً وصلى عليه عند باب

الكعبة بعد أن نادى له الرئيس على زمزم بصيغة الصلاة على الملك العادل أبى الفقراء والمساكين، إلى غير ذلك من التراجم.

ودفن بالمعلاة وبني عليه ولده قبة عظيمة موجودة إلى الآن. ومن جملة خيراته سبيل بالنوارية وسبيل آخر^(١) أوقف على ذلك أوقافاً كثيرة وهى بوادى مَرَّ شهيرة.

ضاعف الله ثوابه وأحسن فى العقبى مآبه. وخلف من الأولاد ستة عشر ذكراً غير الإناث منهم خميسة وجازان وهزاع وبركات وقايتباى وعلى وراجح.

ثم وليها الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان. كانت ولادته سنة إحدى وستين وثمانمائة فى ربيع الأول بمكة. أمه عمرة بنت محمد بن على بن أحمد بن ثقبه بن رميثة. دخل القاهرة سنة ثمان وسبعين وثمانمائة، وذلك بسبب أنه ورد إلى مكة المشرفة فى السنة المذكورة مرسوم من سلطان مصر بطلب سلطان مكة المشرفة الشريف محمد بن بركات عوضاً عنه، فأرسل الشريف محمد بن بركات ولده الشريف بركات بن محمد بن بركات عوضاً عنه ومعه قاضى القضاة إبراهيم بن ظهيرة، وولده القاضى أبو السعود بن ظهيرة وجماعة من أقاربه، فأكرم السلطان ومن دونه موردهما، وأشركه مع أبيه محمد ابن بركات بن حسن بن عجلان، ورجع متزايد العز.

ووقع فى أيام الثمان من سنة إحدى وتسعين وثمانمائة بين ترك أمير الحاج الأول وأمير المحمل قتال عند باب بازان بالمسعى وشج فيهم جماعة من الفريقين والتحم القتال بضرب السيف والدبوس ورمى النشاب، ثم سكّنه الله بمجئ أمير الأول ثم أحضروا القضاة والفقهاء وكتب بذلك محضر.

وفى سنة تسعمائة اتفق أن الحاج المصرى خرج عليه العرب فأخذوا غالبه؛ وكذلك الغزاوى خرجوا عليه ولكن لم يظفرهم الله به، وكذلك الحاج الشامى خرجوا عليه وأخذوه أجمع وأسروا بعض التجار، وكل ذلك فعل بنى لام المفسدين، ولم يسمع بمثل هذا الاتفاق فى سنة واحدة، ولم يزل الشريف بركات

(١) يياض بالمخطوط.

يتزايد حتى استقل بالملك بعد وفاة والده الشريف محمد سنة ٩٠٣ ثلاث وتسعمائة، وكان السلطان يومئذ محمد بن قايتباي، وتزايد في الترقى في العلوم والفضائل حتى صار مرجعاً في حل الأمور المشكلات ودفع العدو، كم سافر للأعداء فرجع مسروراً وبالظفر محبوراً.

وقد ترجمه العلامة الشيخ عبد العزيز بن فهد الهاشمي في مؤلف له سماه « غاية المرام، بأخبار سلطان البلد الحرام » وساق نسبه في ديباجته وختمه باستيفاء أخباره وما مدح به. وملخصه: أنه سمع الحديث بالقاهرة في رحلته الأولى في السنة المذكورة وهي سنة ثمان وسبعين وثمانمائة على المسند شهاب الدين أحمد الشناوي ثلاثيات البخاري وحضر مجلس بدئه وختمه، وأجازه من عدة من البلدان جملة من المشايخ: منهم عبد الرحمن بن خليل التابوتي، وأسماء بنت المهراني، وأم هاني الهوريني، ونشوان الحنبلي، وهاجر المقدسية، والعلم صالح البلقيني، والسعد بن الرزي، والشهاب الحجازي، والبرهان البقاعي، وقاسم بن الكريك، وابن قطلوبغا الأمير الأقصري، وأبو بكر بن صدقة المناوي، والمعز الكتاني، والتقى الشمني، والجلال بن الملقن، وأخته سالحة، والبهاء المصري، والجلال القمصى، والتقى ابن فهد، ووالده أبو بكر وعمر، وأخوه عطية، وعبد الرحيم الأسيوطي، وإبراهيم الزمزمي، وأحمد السوايطي، والقاضي عبد القادر المالكي، وأبو الفضل المرجاني، وأبو الفرج المراغي، وزينب بنت الشويكي، وآسية بنت جابر الله الشيباني، وإبراهيم ابن قاضي عجلون، وأبو ذر الحلبي، وأحمد بن الصلف، وأبو السعود العراقي، وأبو نافع الأزهرى، والتقى القلقشندي، والشموس الخمسة: الأفقهسي، والقلواني، والزفتاوي، والسخاوي، والشيخ الفخر السيوطي، والكمال إمام الكاملية، والمحب بن الشحنة، ويحيى المناوي، وخلق كثير.

وخرج له الشيخ الرحلة جابر الله بن عبد العزيز بن فهد عن أربعين شيخاً من مشايخه أربعين حديثاً في فضل أهل البيت النبوي سماها « غاية الأمانى والمسرات، بعلو سلطان الحجاز أبي زهير بركات » وذلك في سنة ست عشرة وتسعمائة، وقرأ على الشريف بركات بعضها بمنزله دار السعادة من أول الأربعين التي خرجها له إلى آخر الحديث الثالث مع الكلام على الحديث وأجاز له روايتها عنه، وكتب له بخطه

تحت طبقة سماعها ما صورته « الحمد لله ما ذكر من القراءة والإجازة صحيح فى تاريخه، وكتبه الفقير بركات بن محمد بن بركات عفا الله عنه وعن والديه والمسلمين أجمعين » وكانت القراءة المذكورة فى يوم الأربعاء رابع عشر ذى الحجة الحرام سنة ٩١٧ سبع عشرة وتسعمائة، وحصل للشرىف بركات غبطة عظيمة بتخريج تلك الأحاديث، وأكرم بذلك الشىخ جار الله المذكور إكرامًا عظيمًا كما هو شأنه من إكرام العلماء.

وأجاز الشرىف بركات جار الله المذكور فى استدعاء كتبه إليه الشىخ جار الله مؤرخ بيوم الجمعة ثالث عشر ربيع الثانى عام خمس عشرة وتسعمائة. وكتب له الشرىف بركات بالإجازة فى السنة التى بعدها.

وصورة ما كتبه الشرىف بركات: « الحمد لله الذى نظم جواهر السنة فى سلك السند، ووصل من إلى جنبه استند، وقطع من أعرض واستبد، وخذل من كفر وجحد.

أما بعد، فقد أجاز كاتبه الفقير إلى الله تعالى بركات بن محمد صاحب مكة المشرفة عفا الله عنه لمن ذكر فى هذا الاستدعاء المبارك ما يجوز لى وعنى روايته بشرطه المعتبر، عند أهل الأثر، وأسأله ألا ينسانى من دعواته، فى خلواته وجلواته. والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ».

واستقر الشرىف بركات فى ولاية مكة منفردًا بعد وفاة أبيه، وكانت وفاة أبيه يوم الأربعاء رابع ربيع الثانى سنة ثلاث وتسعمائة، وقرئ مرسومه بالحطيم بحضرة كاتم السر البدرى محمد بن مزهر لوصوله بقصده وقصد أخيه هزاع، وأذن له فى تولية المدينة للسيد فارس بن سامان الحسينى زوج أخته الشرىفة حزيمة.

واستمر على الولاية المذكورة إلى أن خالعه أخواه هزاع وأحمد المدعو جازان فى سنة أربع وتسعمائة، ثم اصطلحوا، ثم كانت الحرب بين هزاع وبركات سجالاً. قال الشىخ الفاضل أبو الضياء وجيه الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الديبع الشيبانى فى كتابه بغية المستفيد: لما كان يوم الأربعاء سلخ ذى القعدة من سنة ست وتسعمائة - بتقديم التاء - كانت وقعة السيد هزاع بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان مع أخيه الشرىف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، وهى

أول وقعة انكسر فيها صاحب مكة الشريف بركات بن محمد المذكور وهزم فيها هزيمة عظيمة، واستولى الركب المصرى على خزائنه ونسائه وأمواله.

والأصل فى ذلك أن الملك العادل طومان باى صاحب مصر لما تولى بعد الأشرف جانبلاط طرد رجلا من أمراء جانبلاط يقال له قانصوه المسمى فخرج إلى مكة، فلما دخلها لم يلتفت إليه أحد من كبرائها لا الشريف بركات ولا القاضى ولا غيرهما خوفاً من السلطان طومان باى، فلما فقد طومان باى وتولى الأشرف قانصوه الغورى ليلة عيد الفطر من سنة ست وتسعمائة أرسل إلى قانصوه المسمى إلى مكة وجعله نائب الشام، فلما وصلت إليه الكتب بذلك وهو بمكة فى أول ذى القعدة جاءه الشريف بركات والقاضى أبو السعود للسلام عليه فلم يأذن لهما وكان فى نفسه عليهما شئ لعدم التفاتهما إليه سابقاً، وكان الشريف هزاع حينئذ بمكة فعامله قانصوه على أن يجعل إليه ولاية مكة ويخلع أخاه بركات منها، ثم أمره بالخروج إلى الينبع، وأرسل إلى أمير الحاج المصرى أن يواجه الشريف هزاع ويطلق المراسيم السلطانية عليه، ويلبسه الخلع السلطانية ففعل ذلك، ولبس الشريف هزاع خلعة أخيه بركات، وألبس أخاه أحمد الملقب جازان خلعته التى كان يلبسها مع أخيه بركات، وأقبل مع الركب المصرى إلى مكة ومعه الأشراف بنو إبراهيم فى نحو مائة فارس منهم، فلما علم بذلك الشريف بركات خرج إليهم من مكة إلى وادى مر، والتقى الجمعان هناك وتقاتلا، فانكسر الشريف هزاع مرات، وقتل من أصحابه نحو الثلاثين ومن الركب المصرى رجل، ومن الحجاج نحو الخمسة، ونهب أطراف القافلة، فلما رأى ذلك الركب المصرى حملوا مع الشريف هزاع على أخيه بركات حملة واحدة، فانكسر حينئذ بركات وقتل ولده المسمى بأبى القاسم فى جماعة من عسكره، واستولى هزاع والركب المصرى على مَحَفَّة الشريف بركات وما فيها من الأموال والنساء والأطفال، وهرب الشريف بركات إلى جدة فنهبها ثم إلى حدة فنهب أكثرها، ودخل الشريف هزاع إلى مكة صحبة الحاج المصرى فاضطربت أحوال الناس وكثر النهب والخوف فى الطرقات، ورجع حجاج البحر من الطريق، وكانوا قريباً من جدة، وكان عذر الشريف بركات إذا شكوا الناس إليه ما يلقون يقول: اشكوا إلى سلطان البلد واطلبوا منه أمانها، فقد أمنتها إذ كنت سلطاناً، وأما الآن فأنا

واحد منكم.

فلما استقر هزاع جاءتته الناس يصطرخون من كل جانب التجار وغيرهم من الناس وربما سبوه، فضاق خاطره ولم ينتظم أمره، فدخل على عمه إبراهيم بن بركات فشكا إليه حاله، فأمره بالخروج في صحبته فخرج إليها والشريف بركات يومئذ مقيم بماء يقال له العد بين جدة وحدة، ثم أمره بالوقوف بجدة وتقدم إلى بركات فقال له: إن أخاك هزاع بجدة في ألفى فارس من الترك ولا طاقة لنا بمقاومتهم، فإن أحببت تعرضت بينكما بهدنة يأمن الناس فيها ويحجون إلى عاشر المحرم على أن يعطيك أخوك هزاع ثلاثة آلاف أشرفى قبل يوم النحر، فإن فعل ذلك وإلا فلا ذمة له، فرضى بذلك بركات ظناً أن قول عمه إن هزاعاً في ألفى فارس حق. فسكن بعض خوف الناس ورجع هزاع إلى مكة.

وكان الحج ضعيفاً ولم يحج الشريف بركات في هذا العام، وسلم هزاع إلى أخيه بركات ما التزمه عمه إبراهيم من المال، ولما عزم الركب المصرى علم هزاع أنه لا طاقة له بمقاومة أخيه بركات، فتوجه صحبة الركب الشامى، فتبعه الشريف بركات فحماه الركب الشامى منه. فرجع بركات إلى مكة وأمنت الناس.

وخرج هزاع إلى ينبع، وجمع جموعاً منها وعاد لحرب بركات مرة ثانية، وذلك يوم الأحد التاسع من جمادى الأولى عام سبع وتسعمائة، فالتقوا في طرف البرقاء، فانكسر فيها بركات أيضاً وهزم وقتل أخوه أبو دعيح في سبعة من الأشراف من بنى أبى نمى، وقتل من الأتراك الذين مع بركات سبعة وقيل أربعة عشر نفرًا، وكان مع هزاع من الخيل مائتا فارس ومن الرجل ثلاثة آلاف وخمسائة ومع بركات خمسائة فارس ورجل كثير.

فلما انهزم بركات توجه إلى اليمن فأقام بالليث، ووصل هزاع إلى ظاهر جدة في يوم الثلاثاء ثامن الشهر المذكور، ونادى بالأمان وقرر أحوالها، وجعل محمد بن راجح بن شميطة وزيره بها وعبدًا من قواده حاكمًا، وأرسل أخاه جازان إلى مكة ليقرر أحوالها، ثم لحقه إليها في عساكره، ووصلت إليه المراسيم والخلع السلطانية من البحر من سلطان مصر على يد أمير يقال له إلياس في يوم الثلاثاء ثامن عشر الشهر المذكور، فأرسل له الشريف هزاع بستين جملًا وثلاثين راحلة، وأمره بالطلوع

إلى مكة فوصل إليها، فلبس الخلعة وقرئت المراسيم واستمر سلطاناً إلى أن توفي يوم الثلاثاء خامس عشر رجب الفرد من السنة المذكورة بوادي الآبار فحمل إلى مكة، ودفن بها يوم الأربعاء صباحاً.

ولما فرغ من دفنه تولى إمرة مكة أخوه الشريف جازان بعده بمساعدة القاضي أبي السعود بن ظهيرة وإعانتته له بنفقة وسلاح.

فلما علم بذلك بركات سار إلى مكة فدخلها منتصف شعبان وفر منه جازان. ولما استقر بها بركات جاءته من مصر خلع ومراسيم بالاعتذار إليه من مباطنة أمير الحاج لأخويه هزاع وجازان، فلبس الخلعة وطاف بها.

وكان قاضي مكة أبو السعود بن ظهيرة مباطناً لجازان، فكتب إليه يستحثه ويَعده بالإعانة ووعدته أن يقبض له على بركات إذا وصل جازان قرب مكة، وعين لذلك القبض ليلة الخامس والعشرين من شهر رمضان، فظفر الشريف بركات بكتاب أبي السعود فاستدعاه فلما دخل عليه - وكان قد أظهر السرور والفرح بولاية بركات - أوقفه على الكتاب فأنكر ذلك، فقبض عليه في سابع رمضان وأخذ أمواله وعقاره وعذبه.

ثم بعث به وأهله إلى جزيرة القنفذة، وأمر نائبه عليها أن يركبه سنبوقاً، ويغرقه ففعل ذلك به، وغرق يوم الأحد الثاني من ذي الحجة سنة سبع وتسعمائة، وأولاده وعياله ينظرون إليه.

ثم إن الشريف بركات توجه مع الحاج إلى ينبع لكون أخيه جازان نهب الحاج الشامي عند خليص حال قدومه إلى مكة، فحاربه مع أهلها سادس عشر ذي الحجة الحرام سنة سبع وتسعمائة، فكسر بركات كسرة ثلاثة ونهبوا نهباً فاحشاً وقتل ولده إبراهيم مع جماعة من عسكره، وعاد بركات إلى مكة مريضاً، ثم مات بها ولده السيد عجلان، ثم جاءه الخبر أول صفر سنة ثمان وتسعمائة بمجيء أخيه جازان بعسكر عظيم، وبركات مريض لا يمكنه المحاربة، فتوجه إلى جهة اليمن وأقام بها إلى شهر رجب حتى شفى وجمع جموعاً كثيرة وعاد لمكة فلقى بها أخاه جازان بالمنحني فقاتله بها، فانكسر بركات كسرة رابعة، وفر جماعة الأشراف آل أبي نمنى إلى جهة جبل حراء لمباطنتهم لجازان، فثبت هو وبعض خواصه للحرب ساعة، ثم

توجه إلى اليمن أيضًا فتبعه جازان بعسكره فخلفه الشريف بركات في خيل قليلة وعاد من غير طريقه، ودخل مكة في غيبة جازان يوم الجمعة حادى عشر شعبان، ففرح به أهلها لظلم أخيه جازان فيها، وبذلوا الهمة في مساعدته ونصرته، وحفروا خنادق علو مكة وأسفلها وحاربوا أعداءه من خلفها، وعاد إليه جازان في صبح الأربعاء ثالث عشرى رمضان من أسفل مكة من جهة المسفلة، وحاربهم مع سكانها مرة خامسة، وأظهر له الأتراك همة عالية حتى هزم جازان، وتركهم ولم يتبع منهم أحدًا، وقتل جماعة من الفريقين وجرح آخرون، وتوجه جازان منهزمًا إلى جهة حدة وأقام هو وجماعة بيثر شمس وهم خائفون وجلون، والعسكر يتخطفهم كل ساعة ليلاً ونهارًا، حتى أرسلوا يطلبون النجدة من أهل ينبع فجاءهم عسكر كبير ورحلوا معهم لحرب مكة مرة سادسة في صبح يوم السبت رابع شوال من السنة المذكورة، وجاءوا من شعب أذاخر والخرمانية من أعلاها، وكان الشريف بركات واقفًا مع خواصه خلف الخندق من باب المعلاة، فانهزم عسكره من غير قتال، وثبت هو والأتراك وأذاق عداه الحرب والعراك لشجاعته وهمته وقوته ونجدته حتى زحزحهم عن مصافهم، وكان تحته فرس يقال لها الجراة وأنه أقحمها الخندق وهو بمفرده ففر منه الجيش بأجمعه وهو يضرب بالسيف قذالهم حتى أبعدا عنه قاصدين ينبع، فنذر بعد ذلك عرض الخندق فكان سبعة أذرع.

ثم إنه توجه إلى اليمن فدخل الأعداء مكة وأهانوا أهلها، وأذوهم لمساعدتهم الشريف بركات وحبهم له، فبينما هم كذلك إذ وصلت تجريدة من مصر فخرج الأعداء هاربين، فعاد الشريف بركات إلى مكة ثالث عشر ذى القعدة من عام ثمان وتسعمائة وتوجه لملاقاة مقدم التجريدة المقر الأشرف قيت الرحى فواجهوه بالطاعة والكرامة، وخلع عليه بالزاهر ودخل معه مكة بإخوانه وعسكره وابن عم أبيه عنقا حتى وصلوا إلى مدرسة الأشرف قايتباى بالمسعى فقبض على الشريف بركات ووضع فى الحديد مع بعض إخوته وجماعة، وانهزم الباقون وحج بهم كذلك، ثم ذهب بهم إلى مصر، ومر بهم على ينبع، واتفق مع أهلها على تولية جازان على مكة.

ودخل قيت الرحى ببركات ومن معه مصر على هذه الصفة، فأنكر الناس عليهم

ذلك، وما هان ذلك على السلطان الغورى وتعب من ترك مكة فى أيدى العصاة.
وفى ذلك يقول أبو الطيب أحمد بن الحسين العليف المكى قصيدته الكافية يسلى بها
الشريف بركات ويحثه على الصبر وهى هذه: [من الطويل]

عزیزٌ على بیت النبوة والمُلکِ مقامٌ على ذُلِّ المهانة والفَتکِ
وأعظمُ ما یلقى الکريمُ من الأذى على النفس ما یلقى من الضیم والضنکِ
برغمِ العلا والمجدِ والسيفِ والندى حصَلت أبا عجلانَ فى قبضةِ الثرکِ
وعزٌّ على العلياءِ حجلک أدهم وطوقک لا مِنْ خالصِ التبر فى السبکِ
وتلكَ لعمُرُ الله أدهى مصيبةٍ أصمَّ بها الحاکى عن الحادثِ المخکي
عدمُ الليالى ما أمرُ صروفها وأخْلَقها باللومِ فى الفعلِ والثرکِ
أذلُّ وغُلُّ بعد عزٍّ ومنعةٍ وأسْرُ النوى بعد الأسرَّةِ والمُلکِ
لحا الله دهرًا لا يدومُ سروره على حالةٍ إلا استحالت على وشکِ
بنفسى أبا عجلانَ والفئةِ الألى بنوا مجدهم بالسهمريَّةِ والبرکِ
ونالوا المعالى بالعوالى فأصبحت بهم بيضةُ العلياءِ مرفوعةَ السَّمکِ
ملوکُ رعينا الجودَ حَوْلَ حماهم خصيًّا وساهمناهم المالَ بالشُرکِ
رحلتم فربُّع الأنسِ ما زال موحشًا خلیًّا وسرُّ العزِّ أصبح فى هنکِ
وغادرتم فى الكربِ جيرانَ طيبةٍ کذا جيرةُ البطحاءِ والحرَمِ المکي
وأسلمتم كلَّ القلوبِ إلى الأسى فهذا الورى ما بینَ باکِ ومستَبکي
ولما استقلتُ للمسيرِ جمالكُم وحادى الثوى یَشکى [إلینا] بما یَشکي
وسرتم وसार الجودُ یَمْشى أمامکم وظلَّت بنو الآمالِ مِنْ خلفکم تبکي
وإنَّ الجبالَ الشَّمَّ والمجدَ والعلا تَسیرُ بها بُزُلُ الجمالِ على وشکِ
فلا اکتحلتُ بالنومِ عینی بَعْدکم ولا ابتسمتُ غُرَّ الثغورِ عن الضحکِ
ولا باتَ ذو ملکٍ قریًّا بملکِهِ ولا مهجَّةٌ إلا على لاعجِ مُنکي
فصبرًا أبا عجلانَ للحادثِ الذى یثوُلُ إلى عقبى السلامةِ والفکِ
حرامٌ على العلياءِ تنکحُ خاطبًا سواک وإن کانتُ تَثوُلُ إلى فَرکِ
أراد بك الحسادُ کيدًا فصادفوا جنابک لا یحکى لکَید ولا یحکي
فجاءوکَ من أبنا أيبکَ لعجزهم فليلهِ أرحامُ تقطَعنَ عن شبکِ

فهانوا عليهم بعد ذاك فأصبَحُوا
 وَأَنْتَ أَبَا عَجَلَانَ مَلَأُ غُيُونِهِمْ
 فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا كُفَاءٌ وَصَاحِبٌ
 وَلَا عَنْ رِضَا مِنْهُمْ تَرَكْتَ وَرَبِّمَا
 لَعَمْرُكَ مَا سَامُوكَ خَطَّةٌ عَاجِزِ
 سَوَى أَنْ رَأَوْا فِيكَ الْكَمَالَ لِدِينِهِمْ
 وَمَا اسْتَضَحُّوا عَلَيْكَ إِلَّا لِيَأْمَنُوا
 وَلَوْ شِئْتَ حَكَمْتَ الْمَهْتَدَ وَالْقَنَا
 لَنْ بَلَغْتَ مِنْكَ اللَّيَالِي جِهَالَةً
 وَإِنْ نَالَتْ الْأَعْدَاءُ مِنْكَ بَرْعَمَهَا
 وَرُبَّ ابْتِسَامٍ جَاءَ مِنْ جَانِبِ الْبُكَاءِ
 أَمَا فِي رَسُولِ اللَّهِ يُوسُفُ أَسُوءُ
 أَقَامَ جَمِيلَ الصَّبْرِ فِي السَّجَنِ بُزْهَةً
 فَعَمَّا قَرِيبٍ يورِقُ الْعُودُ بِالْمَنَى
 وَتَأْتِي عَلَى رِغْمِ الْعُدُوِّ مَمْلُكًا
 وَيَرْجِعُ بَاقِيَ الْعَيْشِ حُلُومًا كَمَا مَضَى

يسومُونَهُمْ بِالذَّلِّ وَالْخُسْفِ وَالْهَتَكِ
 كَمَالًا وَأَهْدَاهُمْ إِلَى الرُّشْدِ وَالنُّسْكِ
 وَمَا زَالَتِ الْعُلِيَاءُ مَانَعَةَ الشَّرِكِ
 يَكُونُ ظُهُورُ الْفَضْلِ لِلشَّيْءِ بِالْثَّرِكِ
 تَوْهَمُهَا الْجَانِي سَبِيلًا إِلَى الْمَسْكِ
 فَأَدَاوَا بِكَ الطَّاعَاتِ فِي الْحَجِّ وَالنُّسْكِ
 مِنَ الْخَوْفِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْخَيْلِ وَالْبَرْكِ
 عَلَيْهِمْ وَلَكِنْ سِزَتْ فِي طَاعَةِ الْمَلِكِ
 فَمَا زَالَتِ النُّكْبَاتُ تَهَبُّ عَلَى الْفُلْكِ
 فَيَا طَالَمَا كَانَتْ بِمَا يُلْتَمَسُ تَخْجِي
 وَرُبَّ بَكَاءٍ جَاءَ مِنْ جَانِبِ الضَّخْكِ
 لِمِثْلِكَ مَحْبُوسًا عَلَى الظُّلْمِ وَالْإِفْكِ
 فَالْكَ بِهِ الصَّبْرُ الْجَمِيلُ إِلَى الْمُلْكِ
 وَتَعَبُّ أَرْجَاءِ الْعِلَاءِ مِنْكَ بِالْمَسْكِ
 وَتَظْفَرُ بِالتَّقْلِيدِ وَالتَّاجِ وَالزَّمْكِ
 وَتَأْوِي إِلَى سَامِي سَرِيرِكَ وَالْمُلْكِ

ثم إن الغوري أطلق الشريف بركات من الغل، ورتب له مع جماعته النفقات، وصار يتردد إليه الشريف بركات وإلى أمرائه، ففر إلى مكة، وذلك أواخر سنة تسع وتسعمائة، فظفر في طريقه بقاصد أعدائه متوجهًا إلى السلطان وهو السيد بطاح الحسيني فقتله وفاز بما معه من المال والهدية.

وفي مدة غيبته بمصر قتل الأتراك المقيمون بمكة أخاه جازان، وذلك أنه لما كان صباح يوم الجمعة التاسع من شهر رجب سنة تسع وتسعمائة قتل الشريف جازان بن محمد في المطاف عند باب الكعبة في الشوط الثالث من طوافه، قتله جماعة من الأتراك بمواطاة من أخيه حميضة بن محمد، وولوا أخاه حميضة فحج بالناس ذلك العام.

ثم إن الشريف بركات واجه الحاج المصري في طريقه من مصر إلى مكة هاربًا من

مصر كما تقدم ورحل، وذلك بمواطأة الدويدار، ووصل إلى مكة سابع ذى الحجة معه جيش عظيم من بنى لام وأهل الشرق وسائر المفسدين، فمنع الناس من الوقوف يوم الخميس حتى صالحه أمراء الحاج على أربعة آلاف أشرفى يسلمونها ويخلى بينهم وبين الوقوف يوم الجمعة ففعل، ووقف الناس بعرفات ومزدلفة ومنى.

وهرب حميضة ودخل بركات مكة، ثم توجه إلى زيارة جده المصطفى، ثم قصد جهة الشرق فتزوج بالشريفة غُيَّة بنت حميدان بن شامان الحسينى، فحملت منه بالسيد الجليل ذى المجد الأثيل ذى العز والسعد أبى نemy محمد فى أوائل سنة إحدى عشرة وتسعمائة، وولده ليلة تاسع ذى الحجة من السنة المذكورة، وكان طالعه سعدًا أكبر، ارتفع بولاده كل شر منذ ظهر، وتوالت على والده البشائر، وصفت منه عن الأكدار السرائر، وكان والده يمسح على ناصيته ويقول: كنت فى أكدار وكروب متوالية، حتى ظهرت لى هذه الناصية. ولم يزل أبو نemy راقياً معارج المجد، مستخدماً للإقبال والعز والسعد.

ثم إن السلطان الغورى أرسل بتفويض إمرة الحجاز إلى الشريف بركات، فقدم أخاه السيد قايتباى فى ولاية مكة وأشرك معه ولده على بن بركات، وكان كل منهما يختلج، وينفرد عنهما الشريف بركات بالدعاء فى خطبة الجمعة، وكان بينه وبين أخيه قايتباى صداقة عظيمة، ودامت إلى أن مات السيد قايتباى يوم الأحد حادى عشرى صفر الخير عام ٩١٨ ثمان عشرة وتسعمائة بأرض حسان من وادى مر، وحمل على أعناق الرجال ومعه أخوه الشريف بركات وصلى عليه بالمسجد، وطيف به أسبوعاً كعادة أسلافه ولاية مكة ودفن بالمعلاة.

ثم إن الشريف بركات أرسل ولده الشريف أبا نemy إلى القاهرة وصحبته السيد عرار بن عجل، وفى خدمته القاضى صلاح الدين بن ظهيرة الشافعى، والقاضى نجم الدين بن يعقوب المالكى وذلك فى سنة ٩١٨ ثمان عشرة وتسعمائة، وسن السيد أبى نemy إذ ذاك ثمان سنين، فأكرمهم السلطان الغورى وقابلهم بكل جميل.

وحكى عن مزيد حذق الشريف أبى نemy أن السلطان الغورى وضعه فى حجره وقال ما سورتك؟ فأجابه: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، فأعجب الغورى ذلك وتفاءل به، وأشركه مع والده الشريف بركات فى نصف ولاية مكة وهو بذلك السن، فصار

يخطب له مع أبيه على منابر الحرمين الشريفين.

ثم حجت خوند أم السلطان الغورى وولده الناصر محمد وصحبتهما كاتب السر محمود بن إنجا فى سنة عشرين وتسعمائة، فأكرمهم الشريف بركات، وقام بهم أحسن قيام وطلبوا منه السفر معهم لمجازاته وإكرامه فوافقهم على ذلك وسار معهم إلى القاهرة، ودخلها مرة ثالثة فأنعم عليه الغورى بخلع سنية وإكرامات مرضية لم يسبق إلى مثلها ولم يشاركه أحد فى فضلها.

وهنا الشعراء بذلك، منهم العليف المشهور بالقصيدة الآتى ذكرها بعد، وبقصيدة أخرى منها قوله: [من الخفيف]

أَنْتَ رَبُّ الْقُضَيْبِ وَالْبُرْدِ وَالسَّيِّدِ	فِى وَرَبِّ الْكُمَيْتِ وَالْمَزْرَاقِ
لَوْ رَأَى الْمُصْطَفَى أَنْاسٌ عَيَانًا	حَلَفُوا أَنْكَ ابْنُهُ بِالطَّلَاقِ
سِزَتْ نَحْوَ الْمَلِكِ مَعَ صَاحِبِ السِّزِ	رِى عَلَى مَثْنٍ سَابِحِ سَبَاقِ
فَذَكَّرْنَا مَسْرَى النَّبِيِّ وَجَنْرِ	لِ إِلَى الْحَقِّ فَوْقَ ظَهْرِ الْبُرَاقِ
فَتَلَقَّى الْبَحْرَانِ جَمْعًا عَلَى الْمَرْ	جِ فِطَوْبَى لِبَحْرِكَ الدَّفَاقِ
وَبَلَّغْتَ الذِّى بَلَّغْتَ بِتَدْبِيرِ	رِى مِنْ اللَّهِ فَوْقَ سَبْعِ طَبَاقِ
ثُمَّ أَصْبَحْتَ فِى حِمَاكَ وَقَدْ تَمَّ	مَتَّ بِمَا كَانَ مِنْ رِضَاً وَاتِّفَاقِ

ومنهم الفاضلة الأديبة ستيتة بنت القاضى كمال الدين محمود بن شيرين القاهرية، وذكرت الإنعامات التى انفرد بها الشريف بركات فى قصيدة دالية هى قولها: [من الطويل]

قِفُوا واسمعوا قولاً صحيحاً له سَنَدٌ	عن الأشرف الغورى ما عنه يعتمد
وما نال مولانا الشريف من العطا	ثمانية ما نالها قبله أحد
فأولها يدعى له بمقامه	كما يُدْعَى للسلطان هذا به انفرد
وأسمعه القينات فى وسط داره	وذلك ثانى ما ذكرت من العُدَدُ
وثالثها يوضع له بإزائه	لمرتبة علياء فى برّه اجتهد
ورابعها يطعمه باليد ما يشا	كواليد مولود إذا يُغْنَى بالولد
وخامسها سارا فلم ير نعله	تمهل حتى حامل النعل قد وَرَدَ
وسادسها جازاً جميعاً بداره	فأنزله بين العساكر وانفرد

وسابعها فرش المصلّى بيده
وثامنها ما كان يوم وداعه
وزاد ثلاثاً رفعة لمقامه
وقد نال هذا منه بالبر والتقى
وذلك فضل الله يؤتيه من يشا
وهذه ستيتة بنت شيرين أديبة عجيبة فاضلة كاملة من جملة تلامذتها الشيخ العلامة
جار الله بن فهد القرشي الظهيري .

وكان الشريف بركات بليغاً مصقفاً له النظم الرائق والنثر الفائق، فمن نظمه قوله
في الغورى فى سفرته الثانية إلى القاهرة عام تسع وتسعمائة وهو قوله: [من الطويل]
هَلُمُّوا مَعِيَ نَحْوَ الصَّلَاحِ وَسَارِعُوا
تَأَسَّسْ بِنْيَاهُ عَلَى الْخَيْرِ وَالتَّقَى
أَيَا قَانِصُوهُ اسْمَعْ بِحَقِّكَ قَضِي
بَلِيْتُ بِجُورٍ مِنْ زَمَانٍ أَمْضَيْ
وَحَقِّكَ مَا أَفْنَيْتُ مَالِي وَمُهْجَتِي
فَإِنْ يَكُ قَدْ أَرْضَاكَ مَا قَدْ لَقِيْتَهُ
وَلِي أَسْوَةٌ فِي النَّاسِ بِالسَّادَةِ الْآلَى
ونظم الغورى موشحاً وسأل من الشريف بركات أن يعارضه .
ومطلع موشح الغورى:

يا غزالاً بلحظه يُنْشَى نشأة الأئوس
فقال الشريف بركات:

أَكْتَمِ السَّرَّ وَيكْ لَا تُفْشِ
فهو يزرى الغصونَ إذ يمشى
ما على الصبِّ فى الهوى عار
إن لى فى الغرام أوطار
واللّواحى فى لومهم جاروا
رَبِّ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْعَرْشِ
بالرّشّ الألعس
فى الرداء السندسي
إن تمادى الكمد
واضطبارى نَقْد
وأنا أبدي الجلد
كُنْ بِهِ مَوْئِسِي

وبوصل الحبيب في الفرش جُذ ولا تَخْبِسِ
يا غزالاً بوصله تدرك كل ما يستطاب
غايته في الغرام من أمرك أننى مستَراب
جُذ لمن في هواك لا يشرك زينباً والرباب
لم أزل في وصاله أرشى كى يجى مَجْلِسِي
هل لهذا القتل من أرش يا مُئى الأنفس

وكان رحمه الله شهماً عند الوفاء وحفظ العهود، وإكرام الشعراء والوفود، مع العفة والصيانة، وملازمة الخير والديانة، وإظهار الخيرات، ومواصلة المبرات. أوقف بعض الجهات على أنواع الصلات، وبنى رباطاً سفلى مكة، وأسكنه الفقراء فى حياته، وأقر الله عينه بمشاركة ولده أبى نمى له فى الولاية كما شارك هو والده. ثم لما قدر الله تعالى زوال دولة الغورى، وأفضى ملك مصر والحرمين إلى مولانا السلطان سليم خان ملك الروم، وذلك فى رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وجهه أبوه الشريف بركات مرة ثانية إلى مواجهة السلطان الأعظم والخاقان الأكرم السلطان سليم خان، فوصل إليه إلى القاهرة بعد حربه للغورى، ودخل مصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة فقابله الخنكار بالعبارة والرعاية، وأقر الشريف بركات على ما كان عليه من الولاية، وأبقى أبى نمى على مشاركة والده، فعاد أبو نمى قرير العين. واستمر الشريف بركات مشاركاً له ولده أبو نمى حتى قضى نحبه ليلة الأربعاء رابع عشر ذى القعدة الحرام سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة بمكة الشريفة على فراشه.

ثم صلى عليه يوم الأربعاء بالمسجد الحرام، وطيف به حول الكعبة أسبوعاً كعادة أسلافه ولاية مكة الكرام، ودفن بالمعلاة وبنيت عليه قبة عظيمة وهى موجودة إلى الآن.

وكان مدة ولايته مشاركاً لأبيه محمد وولده أبى نمى وإخوته نحو ثلاث وخمسين سنة وعمر إحدى وسبعين سنة، وكان له من الأولاد ثقبه وأبو القاسم وحازم وواصل وسند وعلى وأبو نمى محمد هذا المذكور بعده.

وقد تقدم فى ترجمة والده بركات أنه ولد ليلة تاسع ذى الحجة الحرام سنة إحدى

عشرة وتسعمائة، وأن أمه عيبة بنت حميدان بن شامان الحسيني، وكان يكنى نجم الدين، شارك أباه بركات في ولاية مكة كما تقدم، وعمره ثمان سنين ولاه الغوري. وهي آخر ولاية صدرت من الشراكسة سنة ثمان عشرة وتسعمائة، ثم أبقاه السلطان سليمان خان على مشاركة والده سنة ثلاث وعشرين لما قدم عليه بالقاهرة بعد حربه للغوري، واستيلائه على مصر، وهي أول ولاية صدرت من العثمانة. ثم استقل بأعباء السلطنة بعد موت أبيه، وكان استقلاله بها في سن عشرين سنة، فوصلت إليه المراسيم السلطانية السليمانية، فخدمت بولايته الفتن، وابتهج بملكه وجه الزمن.

ولم يزل ممتعاً بمكارم الشيم، متقلباً في صنوف النعم. وقد رزق الذرية الصالحة، ودانت له رقاب الأمم.

ولما كان موسم خمس وأربعين وتسعمائة، وصل إلى مكة الباشا سليمان من جهاد الفرنج بالديار الهندية عازماً إلى الديار الرومية، فأرسل معه الشريف أبو ندى ولده السيد أحمد بن أبي ندى لمواجهة السلطان سليمان بن سليم خان، وفي خدمته السيد عرار بن عجل والقاضي إبراهيم بن ظهيرة والقاضي تاج الدين المالكي، فوصلوا القاهرة ثم توجهوا منها إلى الديار الرومية في البر فوصلوا بالسلامة والعز والكرامة، واجتمع السيد أحمد بالسلطان سليمان وجلس على يساره، فقبله بالإكرام، وعامله بالاحترام، وأشركه مع والده أبي ندى في ولاية مكة وذلك سنة ست وأربعين وتسعمائة، وأقام مدة متوَعَكًا بالروم حتى فاته الحج في ذلك العام، ومات السيد عرار بالطاعون، ثم عاد إلى القاهرة عام سبع وأربعين.

قال الشيخ محيي الدين عبد القادر محمد الشهير بالجزيري في كتابه «درر الفوائد المنظمة»: فعاد الشريف أحمد إلى مكة عام سبع وأربعين وتسعمائة وهو في غاية الرفعة والجلالة متولياً ما كان والده يتولاه، وأنعم عليه السلطان سليمان بعلم مكمل بطبـلـخانة سلطانية رومية على أكمل هيئة فاخرة.

فبمقتضى ذلك صار الشريف في منعة وحمى ممن يرد إلى الأقطار الحجازية من أمراء الحاج وغيرهم من أكابر الأروام، ومن أراد الاجتماع به من أكابرهم يأتي إليه إلى بيته ومحل عزه منفرداً وفي جماعة قليلة فيقصده للسلام عليه، ولا يذهب

الشريف لأحد منهم أصلاً.

وتوجه قاصداً مكة فلاقاه والده أبو نمى فى وادى مر، وجعل له سماطاً عظيماً حضره الأعيان، ثم قرئت مراسيمه بمكة بالعشر الأول من ربيع الأول سنة سبع وأربعين وتسعمائة، وألبس الخلعة السلطانية وطاف بها، وصار يدعى له على المنابر، وسعت إلى أبوابه الشعراء والأكابر.

وممن مدحه مهنتاً للشريف أحمد بالولاية العلامة وجيه الدين عبد الرحمن بن عبد الله باكثير بقصيدة رائية هى هذه: [من الطويل]

ومذ لأمها قالت لعل لها عذراً	وفت صبيها بعد الجفا غادة عذراً
إليها ولا لوم عليها ولا إزراً	وزارت ولكن بعد طول تشوق
وشاكتها ما تلقاه وهو به أدري	وجاءته والأشواق جاذبة لها
فبات ولا يشكو بعداً ولا حراً	وأطقت ببرد الوصل حرّ بعاده
بمن لحظها يبرى ومنه الضنا يبرا	وأصبح فى أهل الغرام منعماً
عقيلة حى كالضراغم بل أضرى	مهاة فلاة غادة عريضة
ولو بذل العشاق أنفسهم مهرا	عزيزة قوم مستحيل وصالها
جعلن لها بيض الظبا والقنا خذراً	محجبة ما إن ثنأ لناظر
يكلم من يحلو له لفظها المرأ	ممنعة لحظ الحسام رقيبها
بمقلتها هاروت قد أودع السخرا	رداح كساها الحسنى حلتها كما
فمثر وأما بندها يشتكى الفقرا	مهفهفة كاللدين أما سوارها
من التيه والإعجاب ثاملة سكرى	لها الله خوذ حين تخطو تخالها
ولاح محياها وأسبلت الشغرا	إذا ارتج منها الردف واهتز قدّها
عليه هلال والظلام له سثرا	رايت كشيأ فوقه غصن بانه
عبيراً سطت ليأ ولكنها أجرا	رنت جوذراً ماست قضيباً تأرجت
لها أغرقت هذا وذا أجمت جمرا	بدت قمراً طزفى وقلبي منازل
إذا نهضت قد أثعب العطف والخصرا	لها كفل كالحقف يقعد قدّها
بعقد حكى فى النظم مبسمها الدرا	طويلة مجرى العقيد والجيد قد حلا
لآل بها خفت زمردة خضرا	إذا ابتسمت خلت الشيت ووشمها

فلم ندر ظَلَمًا ذلك العذبُ أم خمرًا
 فأضحوا نشاوى هائمين بها سكرى
 فالشرع كاسُ الخمرِ يستوجبُ الكسرا
 بما صنته خطُ ابن مقلتها سطرًا
 إليه ومن ذاق الصبابة لا يكرى
 وكانت غصونُ العمرِ يافعةً خضرا
 ومرَّ وما أحلاه من زمنٍ مرًا
 صباحُ مشيبٍ لاحَ فى مفرقى فجرا
 وقلتُ له أرهقتنى فى الهوى عُسرا
 لقد جئتُ يا داعى الهوى خطَّةً نكرا
 وبالوشمة الحُضرا وبالوجنة الحُمرا
 وكان لسلطانِ الغرامِ من الأسرى
 سوى صوغِ مدحى فى ابن فاطمة الزُهرا
 سماءُ المعالى وامتطى الأنجمَ الزهرا
 ودبرها من قبلِ أن يبلغَ العُشرا
 فقنعتِ الجوزا وعممت النُسرا
 بنى هاشم عِزًا كسا جدُّهم فخرا
 ومن نفحةِ الريحانَتينِ ملى عطرا
 قريشٌ وسادت قومها مُضَرُ الحمرا
 من العقلِ والتدبيرِ فاقَ بها عُمرًا
 له علَّتِ السُّيوقُ واعتلَّتِ الغفرا
 مهيبًا كما يعلو المُطَهِّمةُ الشُّقرا
 إذا ما حَمَتُهُ أو ضوازمه البُترا
 أخا غارةٍ يروى القنا خلته ذمرا
 ومنذُ نشأ أرضى الصَّوارمِ والسَمرا
 فإنَّ كماءَ الحربِ تجعلُهُ سِثرا

عليها جَرَى ظَلَمٌ يعز مذاقهُ
 أدارت على العشاقِ خَمَرَ عيونها
 فلا تعجبوا من كَسْرِ أجفانها إذنُ
 كتمتُ هواها غير أن محاجري
 تمنُّ على المَضْنَى بإرسال طيفها
 رعا الله دهرًا كُنْتُ سلطانَ عشيقهِ
 ولما مضى عَصُرُ الشبيبةِ وانقضى
 وتبهنى من نومٍ جهلى وشيتي
 دعانى هواها للتصايى فلم أُجب
 أبعد مشيبي تبتغى منى الصُّبا
 فمالى وللتشبيب بالغيد والطُّبا
 وقلبي قد أطلقته من يد الهوى
 وفكرى عن صوغِ المديحِ فطمته
 أبى الظفر المنصورِ أحمدَ من رقى
 ومن قد علا هامَ الممالكِ مذ نشأ
 ومن جرَّ من فوق النجومِ ذبولهُ
 علا ذروةً فى المجدِ أكسبَ فخرها
 ومن دوحةِ السبطينِ أنبع غُضنه
 به افتخرت آلُ النبيِّ وعظمت
 ومن حازَ فى سنِّ الشبيبةِ رتبةً
 يدبرُ أمرَ الملكِ منه بهمةً
 ويعلو سريرَ الملكِ ليثًا موقرا
 ويحميه رأيُّ منه ضاهى رماحه
 شهابٌ إذا ما رمّت رأيا وإن ترد
 شجاع ربي بينَ الأسنةِ والطُّبا
 إذا جال فى الهيجاءِ والخيَلُ تدعى

هزبر تخاف الأسد من سطواته
جواد لقد أخطا الذى قاس جوده
عطايه لا تحصي بعد ولا قم
مجمعة فيه مائر من غدا
شريف السجاي من لؤي بن غالب
ولا عيب فيه غير إفراط سودد
أبى الله إلا أن تكون له العلا
من المسجد الميمون أحمد قد سرى
ويمم ملك الروم ممتطيا على
وسار لسلطان البسيطة من له
ملك له ملك كملك سميّه
تكفل للنديا بأرزاق أهلها
ومد على أبنائها من أمانه
والبسهم جلاب عدل طرازه
ونول كلاً ما يريد فمن يرد
خليفة عدل بالإمامة قائم
له البسطة العظمى على الخلق كل من
له الملك والكرسى والتاج والعلا
تخر إلى الأذقان فى عتباته
وتلثم حصبا بابيه بمباسم
وتعتده فخرًا، ومقدم أحمد
به هزت اسطنبول مغطف تائه
وشرف منها ملكها ومليكيها
وجر به إقليمها ذيل معجب
ومع عظم الخنكار لما بدا له
ولما رأى نور الثبوة ساطعاً

ألس تراها خيفة تسكن القفرا ؟
بسحب وهذا كفه يطر التبرا
ولا قلم بل بعضها جل أن يذرى
معاصره والآتيين ومن مرّا
محاسنه تثلّى وإحسانه تثرى
وبذل نوال يسترق به الحرا
على كل من فى الأرض من خلقه طرا
إلى المسجد الأقصى فسبحان من أسرى
نجائب عز فى الغدو وفى المسرى
جميع ملوك الأرض خاضعة قهرا
وأكبره عن أن أفوه به ذكرا
فكل ابن أنثى لا يجوع ولا يعرى
رواقا فلا يخشون بؤسا ولا ضرا
لكم ذمتى أن لا مخاف ولا دغرا
غنى أو حياة ذاك رزقا وذا عمرا
وإن جل ذاتا عنهما وعلا قدرا
تحيط به الخضرا وتحمله الغبرا
له الوقت والأملاك تعنو له قسرا
سجودا عليها لا ثمين له صغرا
لهم شرفت عن كونها تلثم الذرا
عليه مع التظيم تعتده فخرا
وأضحى به إيوانها باسمًا ثغرا
ودولتها هزت وشدت به أزرا
وفاق أقاليم البسيطة إذ جرا
محيه كادت أن تخف به السرا
يضىء له من صبح غرته الزهرا

وشاهد منه صورةً نَبَوِيَّةً
 ملا عينه منه وقارًا وَهِيْبَةً
 وشرفها منه بمرأى جلاله
 وَقَرَّبَهُ مِنْهُ وَأَدْنَى مَحَلُّهُ
 وبَالِغَ فِي تَعْظِيمِهِ خَافِضًا لَهُ
 وأدناه مِنْهُ ثُمَّ حَيَّاهُ مَطْرَقًا
 وَفِيَّاهُ مِنْ جُودِهِ ظِلٌّ رَوْضَةٌ
 وَأَثْمَرٌ فِيهَا غُرْسٌ رَجَوَاهُ مُدْنِيًّا
 وَأَيْنَعُ فِيهَا غُضُنٌ آمَالُهُ كَمَا
 وَأَفْقٌ رَجَاهُ عَمَهُ سُخْبٌ فَضْلُهُ
 وَأَلْبَسَهُ تَشْرِيفَةً عَاقِدًا لَهُ
 وَأَعْطَاهُ مَا الْآمَالُ تَنْفَعُ دُونَهُ
 وَأَكْرَمَ مَثَوَاهُ وَأَحْسَنَ نَزْلَهُ
 هُنَا طَرَفُهُ فِيهَا وَأَمْرِي جَنَانُهُ
 بِهِ قَدْ تَسَلَّى عَنْ حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ
 وَلَكِنَّهُ عَنْ ذِكْرِ وَالِدِهِ وَعَنْ
 فَحَرَكَ مِنْهُ سَاكِنُ الشُّوقِ بَاعَثَ
 فَعَادَ إِلَى أَوْطَانِهِ عَوْدَ مُزْهَفٍ
 وَجَاءَ كَمَا يَرْضَى الْمَمَالِكُ وَالْعَلَا
 وَأَصْبَحَ نَجَابُ السُّرُورِ مَخْلَقًا
 وَطَبَّقَتِ الْأَرْضُ التَّهَانِي لِعَوْدِهِ
 فَقَلَّصَهُ مُذْ بَلَغَتْهُ دِيَارُهُ
 عَلَيْنَا لَهَا لَثْمُ النُّحُورِ وَفَرَشْنَا
 فَيَابَا سُلَيْمَانَ التَّدْيِ وَالَّذِي اغْتَلَى
 لِيَهْنِكَ مَا قُلْدَتْ فَاسْتَخْدِمِ الظُّبَا
 فَمِثْلَكَ لَمْ نَنْظُرْ مَلِيكًا مَعْظَمًا

جمالُ سَنَاهَا يَنْهَرُ الْعَقْلَ وَالْفِكْرَا
 وَحَمَلَهَا مِنْ نُورِ طَلْعَتِهِ وَفَرَا
 وَهَيْبَتُهُ مَرَأَى النَّبِيِّ بِالْإِسْتِقْرَا
 وَأَجْلَسَهُ مِنْ تَخْتِ سُلْطَانِهِ الصُّدْرَا
 جَنَاحَ اتِّضَاعٍ مَا أَشَابَ بِهِ كِبْرَا
 وَوَفَاهُ بِالْبَشْرَى وَأَهْدَى لَهُ الْبَشْرَا
 أَمَانِيهِ مِنْ أَكْمَامِهَا أَطْلَعَتْ زَهْرَا
 إِلَيْهِ قَطُوفًا لَا تُكَلِّفُهُ هَضْرَا
 مَطَامِعُهُ مِنْهَا مَزَاوِدُهَا شُكْرَا
 وَأَجْرَى لَهُ مِنْهَا بِجَرِيَّتِهِ نَهْرَا
 وَلَايَةً مُلْكٍ مِنْ زَيْدٍ إِلَى مِضْرَا
 وَكُلُّ الْأَمَانِي دُونَ غَايَتِهِ حَسْرَى
 وَأَدْخَلَهُ مِنْ مَلِكِهِ جَنَّةَ خَضْرَا
 فَلَيْلِهِ مَا أَهْنَا وَلَيْلِهِ مَا أَمْرَى
 فَأَصْبَحَ لَمْ يَشْذُقْ قِفَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرَى
 رَعَايَاهُ لَمْ يَغْفُلْ وَلَمْ يَسْتَطِعْ صَبْرَا
 يَحُثُّ مَطَايَا عَزَمَهُ مِنْهُ بِالْإِغْرَا
 إِلَى غَمْدِهِ مِنْ بَعْدِ أَنْ جَاوَزَ النَّخْرَا
 وَبِيضُ الظُّبَا وَالْمَلِكُ وَالنَّهْيُ وَالْأَمْرَا
 وَقَدْ أَرْجَ الْأَرْجَاءُ مِنْ عِطْرِهِ نَشْرَا
 إِلَى مَلِكٍ يَشْدُو لَهَا هَاتِفُ السَّرَا
 حَرَامٌ عَلَى الْأَكْوَارِ تَعْلُو لَهَا الظُّهْرَا
 خَدُودًا لِمَمْشَاهَا لِنُوفِي لَهَا النَّذْرَا
 عَلَى صَهْوَةِ الْعِلْيَاءِ مَذْ شَرِبَ الدَّرَا
 وَسُمُرَ الْقَنَا وَالسَّغْدَ وَالْعِزَّ وَالنَّصْرَا
 تُظَلِّلُهُ الْخَضِرَاءُ فِي حَلَّةٍ صَفْرَا

فلا زَلَّتْ سُلْطَانُ الْحِجَازِ وَفَخْرُهُ
 فَهَمَّ سَبَبُ التَّقْوَى وَهَمَّ أَنْجُمُ الْهَدَى
 بِهِمْ تَفَرُّجُ الْغَمِّ بِهِمْ يُكْشَفُ الْبَلَا
 بِهِمْ يَأْمَنُ النَّاسُ الْمَخَافَ فِي غَدِ
 وَهَمَّ أَهْلُ بَيْتِ أَذْهَبَ اللَّهُ رَجْسَهُمْ
 وَهَمَّ نِعْمَةُ الْبَارِي عَلَى الْخَلْقِ إِذْ عَدَوْا
 عَلَى خَلْقِهِ فِي الْأَرْضِ نَجْمُ الْعِلَا أَبُو
 مَلِكٍ لَهُ نَوْرُ النُّبُوَّةِ هَالَةٌ
 مَلِكٍ لَهُ نَهْرُ الرِّسَالَةِ مُورِدٌ
 بِهِ شَرَّفَ اللَّهُ الزَّمَانَ وَأَهْلَهُ
 وَأَنْطَقَ أَقْوَاهُ الثَّنَاءِ بِحَمْدِهِ
 وَتَوَجَّ هَامَاتِ الْمَنَابِرِ بِاسْمِهِ
 وَأَرْسَلَ جَبْرِيلَ الْأَمِينِ لِحَدِّهِ
 فَمَا ذَا عَسَى فِيهِ يَقَالُ وَمَدْحُهُ
 وَمَنْ كَانَ جَبْرَائِيلُ حَامِلَ مَدْحِهِ
 وَلَوْ نُظِّمْتَ زَهْرُ النُّجُومِ قَلَائِدًا
 هُوَ ابْنُ الْأَلَى مَدُّوا سِرَادِقَ مَجْدِهِمْ
 مَلُوكُ غَطَارِيفَ جَحَاجِحِ نُخْبَةٍ
 صَنَادِيدُ صَيْدٍ أَوْجَبَ اللَّهُ مَدْحَهُمْ
 وَهَمَّ أَهْلُ بَيْتِ لَا صَلَاةَ لِكُلِّ مَنْ
 وَهَمَّ تَاجُ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ وَذَكَرَهُمْ
 غَدَا حَيْثُهمْ فَرَضُوا وَطَاعَتُهُمْ هُدَى
 وَمَدْحُهُمْ فَخْرًا وَلَا سِيَمًا أَبُو
 هُوَ الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ أَنْدَى الْوَرَى يَدَا
 وَأَرْجَحُهُمْ عَقْلًا وَأَشْرَفَهُمْ أَبَا
 يَفُوقُ مَلُوكَ الْأَرْضِ عِزًّا وَهَمَّةً

وَتَاجَ بَنِي الزَّهْرَا وَغُرَّتْهَا الْغُرَا
 وَهُمْ شَرَفُ الدُّنْيَا وَهُمْ سَادَةُ الْآخِرَى
 بِهِمْ تُرْفَعُ اللَّأْوَا بِهِمْ تَذْفَعُ الضَّرَا
 إِذَا خِيفَ أَنْ تَعْطَى الصُّحُفُ بِالْيُسْرَى
 وَطَهَّرَهُمْ مَنْ أَنْ يُنِيطَ بِهِمْ وَزَرَا
 نَجَاةً لَهُمْ لَكِنَّ نِعْمَتَهُ الْكُبْرَى
 نَمِيَّ الَّذِي قَدْ فَاقَ فِي عَذْلِهِ كِسْرَى
 مُحَيَّاهُ مِنْهَا قَدْ أَضَاءَ لَنَا بَذْرَا
 فَأَكْرَمَ بِمُورُودٍ وَأَكْرَمَ بِهِ نَهْرَا
 وَحَلَّى بِهِ الدُّنْيَا وَزَانَ بِهِ الْآخِرَى
 وَأَجْرَى لَهُ مِنْ كُلِّ نَاطِقَةٍ شُكْرَا
 وَزَانَ بِهِ الْأَقْلَامَ وَالطَّرْسَ وَالْحِزْرَا
 خَدِيمًا وَفِي أَوْصَافِهِ أَنْزَلَ الذِّكْرَا
 أَتَانَا بِهِ التَّنْزِيلُ فِي سُورَةٍ تُقْرَا
 وَمَادِحُهُ الْقُرْآنُ لَا يَرْتَضِي الشُّعْرَا
 بَجَنْبِ عِلَاهُ كَانَ فِي حَقِّهِ هَجْرَا
 وَفَخْرَهُمْ فَوْقَ السَّمَائِينَ وَالتُّشْرَا
 لِيُوثُ غِيُوثُ سَادَةِ قَادَةِ غُرَا
 وَحَسْبُهُمْ إِلَّا مَوَدَّتَهُمْ أَجْرَا
 يَصْلَى وَلَا يَجْرَى لَهُمْ ضَمْنُهَا ذِكْرَا
 طَرَاذُ عَلَى عَطْفَى تَحِيَّاتِهِ الْآخِرَى
 وَقُرْبُهُمْ مَنْجَى وَيَغْضُهُمْ كُفْرَا
 رُمِيَّةٌ مِنْهُمْ حُبُّهُ زَادَنِي فَخْرَا
 وَأَغْزَرُهُمْ حَطًّا وَأَوْسَعُهُمْ صَدْرَا
 وَأَصُوبُهُمْ رَأْيَا وَأَكْثَرُهُمْ بَرًّا
 وَبِأَسَا وَجُودًا يَفْضَحُ اللَّيْثُ وَالْبَحْرَا

يَصِيرُ حَدَّ السِّيفِ كُلًّا بِحِلْمِهِ
 إِذَا مَا ذَهَى أَمْرٌ مِنَ الْخَطْبِ فَادَخَ
 وَلَمْ يَسْتَتِرْ إِلَّا بِضَوْءِ حَسَامِهِ
 وَإِنْ رَامَ أَمْرًا فَالْقَضَاءُ مُسَاعِدُ
 هُوَ الْبَطْلُ الْمَقْدَامُ فِي يَوْمِ غَارَةٍ
 عَوَالِيهِ فِي نَظْمِ الْكَلْبِيِّ جَادَ صَنَعُهَا
 إِذَا أَرَبْدٌ تَفَتَّرُ الْأَسِنَّةُ وَالظُّبَا
 يِدَاهُ لِنَفْعِ الْخَلْقِ مَمْلُوءَةٌ نَدَى
 وَرُبَّ يِرَاعٍ تَشْخَصُ الْبَيْضُ هَيْئَةً
 إِذَا مَا جَرَى فِي الطَّرْسِ قُلٌّ قَدَرٌ جَرَى
 مَلِيكَ إِذَا حَاوَلَتْ ضَبْطَ صِفَاتِهِ
 فَيَا بَا نُمَى الْمَلِكِ وَالْمَلِكِ الَّذِي
 لَقَدْ صَدَحَتْ فِي الْكُونِ صَادِحَةُ الْهَنَا
 بِمَقْدَمِ مَنْ أَنْتَجَتْهُ وَادْخَرَتْهُ
 بِمَقْدَمِهِ وَرَقَ الْبَشَائِرِ قَدْ شَدَتْ
 وَقَدْ عَمَّ أَقْطَارَ الْحِجَازِ قَدُومُهُ
 وَوَأَقَى وَكُلُّ شَيْقٍ لِلْمَقَائِهِ
 وَقَدْ آنَسَ الْبَيْتَ الشَّرِيفَ وَأَهْلَهُ
 وَأَضْحَى مُحْيَا مَكَّةَ مَتَهَلَّلًا
 وَكَانَ لَهُ عَيْدًا وَلَكِنَّهُ غَدَا
 وَخَلَعَتْهُ الصَّفَرَاءُ مِنْهَا لَقَدْ رَمَوْا
 بِهِ قَدْ تَحَلَّتْ وَالْمَرَاسِيمُ شُرِفَتْ
 قَدُمٌ وَلِيدُمُ وَالْمَلِكُ طَوْعُ يَدَيْكُمَا
 وَهَاكَ مِنَ الدُّرِّ النُّضِيدِ قَصِيدَةٌ
 مَنْقُوحَةٌ الْمَعْنَى مُصَحَّحَةٌ الْبِنَا
 تَضُوعٌ رِيَّاهَا عَلَيْكَ وَلَمْ أَكُنْ

وَيَتْرُكُ وَرَدَ الْمَاءِ مِنْ عَزَمِهِ جَمْرًا
 تَبَيَّتْ بَرْدُ الْأَمْرِ مَقْلَتَهُ سَهْرًا
 وَلَمْ يَسْتَشِرْ إِلَّا الرُّدَيْنِيَّةَ السَّفْرًا
 لَهُ وَاللَّيَالَى لَيْسَ تَغْصِي لَهُ أَمْرًا
 يَقُومُ مَقَامًا يُزْعِدُ الْعَسْكَرَ الْمَجْرَا
 كَمَا فِي الْطَّلَا أَسْيَافُهُ جَادَتْ النُّشْرَا
 وَتَجْرَى بُكَاءَ عَيْنِ النُّضَارِ إِذَا افْتَرَا
 فَيَمْنَاهُ وَالْيَسْرَى بِهَا الْيَمْنُ وَالْيَسْرَا
 لِسُطُوتِهِ وَالسُّمُرُ تَنْظُرُهُ شَرْزَا
 فَإِنْ شَاءَ خَيْرًا وَإِنْ شَاءَ شَرًّا
 فَلَنْ تَسْتَطِيعَ ضَبْطًا لَذَاكَ وَلَا حَضْرًا
 يَجْلُ عَنْ الْأَلْقَابِ وَالْمَدْحِ وَالْإِطْرَا
 تُعْرَدُ فِيهِ بِالْمَسْرَةِ وَالْبَشْرَى
 وَلِيًّا لِعَهْدِ الْمَلِكِ أَغْظَمَ بِهِ ذُخْرَا
 وَكُلُّ فَوَادٍ مِنْ بَشَائِرِهَا اسْتَرَا
 سُرُورًا كَمَا عَمَّ الْعِرَاقَيْنِ مَعَ بُصْرَى
 كَمَا اشْتَقَّ حَيٍّ عَامَ إِجْدَائِهِ الْقَطْرَا
 وَمَكَّةَ وَالرُّكْنَ الْمَكْرَمَ وَالْحِجْبِرَا
 سُرُورًا بِمَرَّاهِ وَنَاضِرُهُ قَرَا
 لِبَاغِضِهِ نَحْرًا وَحَاسِدُهُ فُطْرَا
 سَوَادًا وَذَكَرَهَا مَلَا سَمْعَهُمْ وَفَرَا
 وَشَرَفَ مُهْدِيهَا لَهُ وَالَّذِي يَقْرَا
 وَمَدْحُكُمَا يَسْتَغْرِقُ الْحَمْدَ وَالشُّكْرَا
 تَغَارُ قَوَائِي الشَّعْرِ مِنْ رَسْمِهَا بِالرَّأِ
 مَهْدَبَةُ الْأَلْفَاطِ طَيِّبَةُ الْمَقْرَا
 عَلَى مِثْلِ كَافُورٍ أَضْيَعُ لَهَا نَشْرَا

لعمري لا أرضي القريض بضاعةً وبينحسني لو أننى قُلْتُه دُرّاً
وما الشغُرُ إلا دونَ قَدْرِي وبعض ما لذاتى مِنْ فضلٍ ولم ينضبْ حصراً
ودونكها مِنْكَ الصَّلَاةُ خِتَامُهَا على أحمدَ المَحمودِ فى الفتحِ والإسْرَا
هذا ما ذكره الكثيرى فى « الوسيلة » وغيره.

وقد ذكر السيد محمد السمرقندى ذلك مفصلاً مع زيادات، وبعض مخالافات أحببت ذكر جميعه تتيماً للفائدة.

قال: تشرف مولانا الشريف بركات بن محمد بن أبى ندى بن بركات بن حسن بن عجلان بحماية الحرمين الشريفين بعد وفاة والده الشريف محمد بن بركات سنة ثلاث وتسعمائة، وكان سلطان مصر يومئذ محمد ابن السلطان قايتباى.

ثم فى جمادى من العام المذكور تولى الشريف يحيى بن سبيع إمرة ينبع، ووقعت بمكة فتنة عظيمة بين الشريف بركات وأخيه هزاع، وارتحل هزاع مع أخيه أحمد الجازانى فى خمسمائة فارس من ذويهما ونزلوا بالينبع وكاتبوا السلطان فى إمرة مكة بمائة ألف دينار جديد، وافترقت الدولة مع الأخوين فرقتين، لكن سعد بركات غالب. ثم إن السلطان برز أمره العالى بتعيين المقر الكريم البدرى محمد بن مزهر لإخماد الفتنة المذكورة.

وفى عام ست وتسعمائة تسلطن الملك قانصوه الغورى بتخت مصر، فجهز للشريف هزاع بن محمد خلعة سنية بإمرة مكة المشرفة صحبة أمير الحاج، فلاقاه من ينبع ولبس التشاريف السلطانية، وسبق إلى مكة لتمهيد البلاد وتطمين العباد، فلاقاه الشريف بركات خارج مكة فاقتلا قتالاً شديداً، فانكسر هزاع، ولحق بأمراء الحاج فأعانوه، وأقبلوا بجمعهم من العساكر والحجاج على الشريف بركات، فولى عن محاربتهم إلى جدة وما يليها، ونهب بعض عساكره كل ما مروا به.

ودخل الحجاج مكة ومعهم الشريف هزاع وهم على غاية الخوف والوجل من الشريف بركات، وترك أكثر الناس الحج خوفاً على أنفسهم وأولادهم، وأهاليهم. ثم إن الشريف بركات جمع عساكره وتوابعهم ونزل ببدر راجياً من الله ما حصل لجده عليه الصلاة والسلام من النصر. فعاد الحاج المصرى والشامى بعد قضاء المناسك والشريف هزاع معهم حماية لهم، فلما قرب من بدر ولى هارباً إلى يحيى

ابن سبيع بالينبع، فعاد الشريف بركات إلى مكة وأقام بها، واستمر هزاع بالينبع والحرب بينهما سجال.

وفى عام سبع وتسعمائة مات الشريف هزاع فدفن بمكة، وبعد موته عقد مجلس فى الحطيم صدره القاضى أبو السعود بن إبراهيم بن ظهيرة وفيه القضاة والحكام والأمرء من العرب والأروام وفيهم الشريف جازان، ومالك بن رومى شيخ طائفة زبيد وأعيان الشرفاء الكرام وتفاوضوا فيمن يليق لإمرة مكة المشرفة وطال بينهم الكلام، فقال مالك بن رومى: ما أمير مكة وسلطانها إلا جازان، وما كان هزاع إلا به وبركات ما له إلا السيف، فسكت الحاضرون جميعهم طويلاً، فقال القاضى أبو السعود: فمن يليها الآن وتكون فى وجهه؟ فقال مالك: الشريف جازان وبنو إبراهيم معه فى ذلك، فنودى لجازان فى شوارع مكة بالبلاد.

ثم كان بين الشريف بركات والشريف جازان حروب متعددة، ومواقف متكررة لحق ضررها الحاج، واختلفت كلمة العربان، وخرجوا على الحجاج، ونهبوا أموالهم، وقتلوا رجالهم فى جميع الطرقات وسائر المنازل.

وفى هذا العام وهو عام سبع وتسعمائة رفعت الشكوى إلى الأبواب السلطانية بأن جازان استولى على مكة ومعه الشريف يحيى بن سبيع، وجمع من بنى إبراهيم، وأنهم صادروا من كان بها من التجار والرؤساء، وأخذوا من المولى شمس الدين العينى خمسة وعشرين ألف دينار، وأن بنى إبراهيم تحكموا فى أهل مكة بالبلص والفساد، وأن يحيى ابن سبيع هذا رأس الفتنة، وضجت المجاورون وعزم الجميع على الهرب من مكة فى أربعين مركباً أعدوها بيندر جدة فمنعهم الشريف جازان، ووعدهم برفع المكارة عنهم، وطمّن خواطريهم، والتزم لهم أن يجهز مع كل مسافر من الحجاج من يوصله إلى مأمته، فلم يقبلوا منه ذلك؛ لأن ميلهم إلى الشريف بركات أكثر، وقلوبهم محبة له؛ وذلك لعدم طمعه فى أموالهم، وكف الأذى عنهم بكل طريق بحيث يدفع من ماله لأهل الشوكة من العربان سكان البوادي لأجل حماية الحجاج، وعطفوا على الشكوى عدة مكاتيب لمولانا الشريف بركات أن يقيم بمكة أميراً لها وجميع من بها من العسكر والرعايا عون له على جازان عناية من الله تعالى به، فوصل إليها.

فلما بلغ ذلك الشريف جازان أقبل محارباً للشريف بركات فاقتلا قتالا شديداً فى

مواقف عديدة وصدق مع الشريف بركات من ذكر فيما وعدوه به من الإعانة، فكانت الكسرة على جازان فهرب إلى اليمن، ثم وصلت الحجاج ولم يكن بمكة أحد من جماعة جازان غير ولد يحيى بن سبيع، فلبس الخلعة نيابة عن جازان بولايته السابقة، وكان مولانا الشريف بمكة على غاية من القوة والشوكة فلم يحدث بمكة حادثاً، إجلالاً لشعائر الدين وحقاً لدماء المسلمين.

فلما شاهد ذلك أمراء الحاج، ورؤساء الوفاد ألزموا الشريف بركات بالتوجه إلى الأبواب السلطانية لتحصل له كرامات بالإمرة وغيرها من مراداته السنية، مكافأة لصنيعه المذكور وسعيه المشكور، فتوجه وتوجه معه إخوته قايتبای وأبو الخير وعنقا، فقابلهم السلطان مقابلة عظيمة، وألبسهم خلعاً تليق بأحسابهم النبوية الكريمة.

واستمر على غاية الاحترام والاحتشام، مع الكفاية التامة من اللباس والشراب والطعام.

فوردت بمحضرهم إلى الأبواب السلطانية كتب من نائبهم بمكة المحمية بأن الشريف جازان لم تسكن مع ولايته الفتن، وحصل لأهل مكة من جماعته أنواع الظلم والجور والمحن، ويأن الأمير بكباش مكة المشرفة صار يؤمن الشريف جازان، ويظهر له الشفقة والمحبة فصار يتردد بالحرم الشريف ويكثر الطواف، فاتفق أن هجم عليه طائفة من الأتراك المماليك وقتلوه بالمطاف ضرباً بالخناجر والسكاكين، ثم احتزوا رأسه.

وأن الباش المذكور ألبس أخاه الشريف حميضة خلعة يامرة مكة لغيبة الشريف بركات عنها، وأن الناس يتمنون الشريف بركات راضين عنه.

فلما وصل الخبر إلى مصر بذلك توجه الشريف بركات مع أخويه المذكورين من مصر إلى الحجاز من غير إذن من السلطان، ثم أرسل مطالعة إلى السلطان يذكر فيها أنه عبد لمولانا السلطان، وإنما توجه خوفاً من الطاعون، فمنع السلطان جميع من كان مع بركات من عيال وأتباع من التوجه إليه، ورسم عليهم بمصر المحروسة، فلما كان موسم عام تسع وتسعمائة برز أمير الحاج المصرى فى شوكة عظيمة، وعساكر جرارة وزيادة فى السلاح والمدافع خوفاً من الشريف بركات، فلما بلغ

الشریف بركات الخبر أرسل رسولاً إلى أمير الحاج وصل إليه فى عيون القصب معه مكاتيب مضمونها أن الحج يتوجه مع سلامة الله تعالى لا خوف عليه، وأنه فى خدمة السلطان بحراسة الحاج، وتطمين سائر الحجاج بمكة وعرفة حتى يؤدوا المناسك جميعها، ويعلنوا بالدعاء لمولانا السلطان ثم يعودون إلى أوطانهم، وأنه باذل نفسه وأولاده وإخوته ورجالهم ومالهم.

فلما بلغ الخبر إلى السلطان رضى عن الشریف بركات رضا تاماً، وجهز إليه عياله وأتباعه، وبلغت الأخبار أهل مكة فتهيئوا للحج بعد عزمهم على تركه، وكانت سنة هنية وأهل مكة فرحون بما آتاهم الله من فضله بوجود الشریف بركات بين أظهرهم على عادته الجميلة.

ثم إن الشریف حميضة قابل الحاج المصرى مع يحيى بن سبيع بالينبع وليس الخلعة بتولية الباش المذكور، فبلغ ذلك الشریف بركات فمنعه من دخول مكة، وكان معه طائفة من بنى إبراهيم وحلفائهم فأشاروا عليه بالخروج على الحاج وقتالهم وقتل جماعة الشریف بركات وأخذ أموالهم، ففعلوا ذلك، وحصلت شدة عظيمة من النهب والقتل، ثم أجمع رأيهم على دخول مكة ووقوفه منفرداً بعرفة وألاً يقع بينهما حرب حتى ينقضى زمن الموسم، ويدفع حميضة إلى الشریف بركات خمسة آلاف دينار ذهباً.

فلما وصل بنو إبراهيم إلى مكة تحركت نفوسهم الخبيثة وضغائنهم السابقة فنهبوا بعض دور مكة وعاثوا حتى فى الحرم الشریف، فبادر الباش ومن معه لقتالهم وقتل أربعة من أعيانهم، وذهب الشریف حميضة مع يحيى بن سبيع إلى الينبع وجمعوا جموعاً على نية أخذ الحج وقطع الطريق، فلما وصل خبر ذلك إلى السلطان رسم بالقبض على جميع من بمصر من بنى إبراهيم والصيادلة المتسبين بالشوارع كالصياف والعطارين ونحوهم والإحاطة بسائر أموالهم وقبضها وأخذ ما بأيديهم من السلاح، خصوصاً من أراد اللحق بيحيى بن سبيع ومن معه.

ثم عين تجهيزة عظيمة من الأبطال والشجعان وأعيان الفرسان ومقدمهم الأمير خاير بك الأشقر، وأمرهم بالقبض على جميع من خرج من الطاعة وحمل من يليق حمله وقتل من يستحق القتل.

فلما وصل الخبر إلى يحيى بن سبيع جهز قاصداً معه عشرون ألف دينار بشرط إبطال التجهيزة المذكورة، وأن كل من بالحجاز طائع، فلما وصلت زادت في غضب السلطان، فجهز زيادة على الأولين أمراء متعددين، وصرح لهم أن يفتكوا يحيى بن سبيع وبنى إبراهيم وبجميع من يناصرهم ويكثر سوادهم، وأن يمهّدوا جميع الأقطار الحجازية.

فالتقوا مع يحيى بن سبيع ومالك بن رومي والشريف حميضة وجميع بنى إبراهيم وتوابعهم غرة شوال بالدنهاء بالقرب من ينبع، وسبق الخبر إلى مكة إلى مولانا الشريف بركات وأن جماعة من بنى إبراهيم تواعدوا على تبئيت العساكر السلطانية وأن يأتوهم ليلاً متفرقين إيهاماً للكثرة، ولأنهم لا يعرفون البلاد والغريب أعمى، فركب الشريف بركات من فوره فوافق وصوله نزول العسكر وليس عند بنى إبراهيم من وصوله خبر، فاجتمع من بنى إبراهيم سبعون فارساً وقصدوا ما قصدوا، فركب الشريف بركات سريعاً وفاجأهم بالدنهاء وقاتلهم من الظهر إلى الليل، ففر أهل الخيل ووقع القتل في الرجال واقتلع منهم خيولاً وظهر عليهم ظهوراً هاشمياً والعساكر السلطانية ينظرون إلى موقف مولانا الشريف بركات وشجاعته وقوة بأسه حتى تحيرت عقولهم، ثم عزموا لقضاء حجبهم وأداء مناسكهم.

وفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة كان مولد مولانا الشريف أبى ندى بن بركات كما سيأتى ذكره. وفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة حج الشيخ أجود بن زايد في جمع عظيم يقال إنهم يزيدون على ثلاثين ألفاً.

وفي سنة ثلاث عشرة وتسعمائة وصل مولانا الشريف بركات إلى جبل الروحاء بالقرب من المدينة الشريفة وقتل مالك بن رومي الزبيدي الذي كان سبباً في نهب مكة المشرفة وقتل أولاده الثلاثة معوض وقادم وداغر وأخاه مشهون بن رومي وطائفة كثيرة منهم ومن أتباعهم من ذوى روايا وذوى جماعة، وفرح الناس بقتلهم وطيف برءوسهم في البلاد وأرسل بها إلى مصر فنصبت على أبواب سورها، وكانت حجة هنيئة، وطابت الخواطر واطمأنت القلوب.

وفي سنة خمس عشرة وتسعمائة توجه السيد عرار بن عجل بهدية من مولانا الشريف بركات تشتمل على أقمشة نفيسة ورقيق جميل وخدام حسان وعشرين ألف

دينار ذهبًا وعشرين فرسًا مسمية وما يتبع ذلك ويناسبه وثلاثة آلاف دينار للدوادار، فقابلته السلطان مقابلة عظيمة وألبسه خلعة لقدومه وخلعة عند تقديم الهدية، وخلعة عند الوداع، وأرسل معه هدية عظيمة للشریف وخلعًا سنية، ثم حلف له أيمانًا مؤكدة أنى راض عن الشریف بركات رضا تامًا خصوصًا لما وصلت إلينا رءوس زبيد ومن معهم لأن فى نفسى منهم حرا شديدًا بموجب خروجهم على الحجاج، وقتلهم ونهبهم المرة بعد المرة، وقطعهم الطريق فى أيام سلطانى وكسر ناموسى، ولو لم يشف خاطرى الشریف بركات من طائفة زبيد بخصوصهم لخرجت إليهم بنفسى. وكتب لمولانا الشریف كتبًا عظيمة فيها تعظيم تام وخاطبه بلفظ مولانا وشریفنا، وفوض إليه أمر الأقطار الحجازية حتى ينبع، فلما وصل السيد عرار بما معه من الهدية والخلع والشكر التام حصل لمولانا الشریف بركات السرور التام، ومدحته الشعراء ومن أعظمهم مولانا شهاب الدين أحمد بن الحسين بن العليّ المسمى شاعر البطحاء بقصيدة ذكر فيها ظفره بزبيد وقتله شيخهم مالك بن رومى، وقد أجاد فقال: [من الطويل]

ذرى العز ما قامت عليه الممالك	وما شيدته المرهفات البواتك
وما أعنت فيه الفوارس فى الوعى	وما صافحت فيه الصفاح التيازك
وقتل العدا صبرًا كما شاءت الظبا	ونيل المنى والفائت المتدارك
وما المجد إلا ما وترت به العدى	فدارت بهم ريح الحمام الحواشك
وعزم يبيد الخيل والعيس بالسرى	تكلم به أخفافها والسنايك
لعمرك ما تغنى الشجاعة فى الفتى	إذا الرأى فى تذييرها لا يشارك
ولا يرفع الجود الجواد لفعليه	إذا لم يكن والطبع للنفس مالك
وما لم يكن قطع الكريم كوصله	ولا فما تغنى السيوف البواتك
فدى لأبى عجلان من رام سعيه	ومن دون ما رام الحتوف النواهك
فتى ترد الآمال منهل جوده	فتصد عنده وهو جذلان ضاحك
إذا سار سار الجود يخذو ركابه	وإن بركت عن سيرها فهو بارك
يدود عن المجد الأثيل بطاعن	له عزمات فى القلوب سواك
حمى حوزة العليا منه مهند	إذا ما انتضى ماضى الغراين باتك

وفى الدرع ليثٌ والتريغة زامكُ
ومن قبلها فى الغمْد لا يتماسكُ
فأضحت ومثواها الكدى والدكادكُ
وزالت به تلك الهمومُ السوداءُ
بأرضِ العدا بالصفانِ المعاركُ
ردّاحٌ ولا تصبیه دُغج ركاركُ
فلما انقضى حثٌّ إليه الأرائكُ
إلى أن ترى فيه الدماء سوافكُ
كأن الضحى فيها من النقع حالكُ
كرام سرّاة كالجبالِ سوامكُ
إليها المداكى فى السلاح شوائكُ
ووطء مطاياهم بُدورَ فوالكُ
أبوّة صدقٍ أخلصّتها السبائكُ
إذا نكصت عنها اللثامُ الضرائكُ
إذا ضربت صفحا لديها الوكاوكُ
مجالسُهُم كيرانها والمياريكُ
عن النوم همّ بالجوانح سادكُ
كأن أعاليها بروق نوابكُ
ثوابت فى أفلاكها لا دوالكُ
على الهول ميمون اللثام مباركُ
وأورق مَفْتُول الذراعين تامكُ
وفى منهج العلياء والعزّ سالكُ
وليس له فى المكرمات مشاركُ
إذا دهمت تلك الخطوبُ النواكُ
وأنت لعلياهم سنّامٌ وحاركُ
وعزّا وسعدا أيدته الملائكُ

وفى التاج غيثٌ بالحيا متهلّلٌ
أباد العدا فاستدركَ السيف فوته
وذاقت به سوء النكالِ بما جنت
شفا بالقنا حرّ النفوس من العدا
عزيزٌ عليه أن ينّام ولم تَقُم
فتى الحرب لا تننيه خود عن الوعى
أبى غير ظلّ الرمح أن يدرك المنى
وأقسم لا يشنى عن الحزب عزمه
أباح حمى الأعداء منه بغارة
يؤلب من أبنا أبيه عصابة
أقاموا صدورَ الناعجات وجنبها
كأن مواطى الصفانِ أهلة
نماهم إلى العلياء والمجد والندى
مناعيرُ فى الهيجا مساعيرُ فى الوعى
يذبون عن أحسابهم بسيوفهم
ثووا فى ظهورِ العملات كأنما
سروا لاقتناصِ المكرمات يذودهم
يهزونَ أشطانَ القنا فى أكفهم
إذا سار فيهم خلت بدرًا وأنجمًا
ويقدّمهم ماضى العزيمة مقدّم
يشيح به ظامى الفصوص مطهم
أبو حسن السامى بنفسٍ ووالدٍ
كريمُ المساعى صادقُ الوعد من غدا
وأنت أبا عجلانَ رائش نبلهم
وكنم لك أعضاء شداد على العدا
إذا وعد الله الفتى منه نصره

أرادت زبيد في جنابك دولة
 غوث عن طريق الرشد منها سفاهة
 متى كانت الأوغاد ترقى إلى العلا
 وتخطب أوشاب الشوايا مراتباً
 طرقتهم وقت الهجير بصكة
 وطفت عليهم يا همام بنية
 فغادرتهم صرعى بكل تنوفة
 تقاعس منها مالك ومشهون
 وقام بها ميل المقرض واستوى
 وطار بها خوفاً أخوه وقلصت
 وزين وبازان بروك وقادم
 لعمرك لو لم تطلب القوم غالهم
 وأغناك عن حث المطية رائد
 لئن كنت عن عمد هدمت عروشهم
 توهمها الرومي نهضة عاجز
 جرى طرفه ملء العنان إلى المدى
 أخذت عليه كل نقب ثنية
 وما زال يجرى في هواه وغيه
 وهان على الأيام ما هو فاعل
 إلى أن نضت عنه الحياة قناعها
 فجرعته كأساً أعلّ بمثلها
 ولم ينجّه منك الفراز لحينه
 وكيف وأنت المعلم الفرزد في الوغى
 قضى فيه حكم المشرفى بعدله
 كذا فليكن عزم الكريم وإنما
 فذاك أبا عجلان كل مملك

فضلت بها أوهامها والشكائك
 وجهلاً وغرتها ظنون بواشك
 وتسمو إلى على الأمور الزكازك
 وتنهض للحزب الزبون الحواتك
 عمي لديها فاتك العزم فارك
 كما طاف بالبيت المعظم ناسك
 تناوحهم ريح الصبا والروائك
 وكل لدى الهيجاء ألوى مماحك
 ومن قبلها في مشيه يتباوك
 خصاه وولى وهو حيران عانك
 وداغر في البوغاء بش المبارك
 بسعدك من دون الطلاب المهالك
 من الذل فيهم حابل النوم حابك
 فإنك بانيها قديماً وسامك
 ولم يذر أن اللين بالبير فاتك
 وطرف الردى في جفنه عنه ساهك
 فضاقت عليه بالرحاب المسالك
 وأنت له وسط العرينة بارك
 وعز على العلياء ما أنت تارك
 فعاجله منك الحمام المواشك
 أبوك أباه فارتدى وهو هالك
 فأصبح مملوكاً ومن قبل مالك
 ورمحك طعان وسيفك باتك
 فبعداً له عن منهج العدل نازك
 على قدر عزمات الكرام المدارك
 فأنت سماء والملوك حباتك

خَذِ الْمَذْحَ مِنِّي يَا هِمَامُ فَإِنَّمَا
وَدَّعَ مَا سِوَايَ يَا كَرِيمُ فَإِنَّنِي
وَدَوْنَكَ يَا بَنَ الْأَكْرَمِينَ تَحِيَّةً
وَأُخْرَى حَبَاهَا اللَّهُ لَطْفًا وَرَحْمَةً
وَتَهْنَأُ بِهَا الْعُلِيَاءُ وَالسَّيْفُ وَالنَّدَى
وَقَدْ سَرَّنِي النَّصْرُ الْعَزِيزُ عَلَى الْعَدَا
سُرُورًا بِهِ عَيْنُ الزَّمَانِ قَرِيرَةٌ
وَدُمُّ يَا أَبَا عَجَلَانَ مَلَكًا مُؤَيَّدًا
وَلَا زَلَّتْ تَحِيَّا فِي سُرُورٍ وَغَبْطَةٍ
وَشَائِيكَ يَحْيَا فِي الْمَذَلَّةِ رَامِكُ
بَقْدَرِ بِنَاءِ الْبَيْتِ تَسْمُو الْمَدَامِكُ
أَنَا الشَّاعِرُ الْمَحْكِيُّ وَالْعَيْرُ حَائِكُ
تَفُوحُ كَمْسِكُ أَحْكَمَتِهِ الْمَدَاوِكُ
تَهْنِئُ عَلِيًّا بِالشِّفَا وَتَبَارِكُ
فَكُلُّ لَمَّا قَدْ كَانَ يَشْكُوهُ نَاهِكُ
وَحُكْمُ الْقَنَا وَالْمَغْنَمُ الْمَتَدَارِكُ
وَتَغْرُ اللَّيَالِي بِالتَّبَسُّمِ ضَاكُ
تَتِيهِ بِهِ الْعُلِيَا وَتَزْهُو الْمَمَالِكُ
وَشَائِيكَ يَحْيَا فِي الْمَذَلَّةِ رَامِكُ

وفى سنة سبع عشرة عاد الشريف راجح من القاهرة قاصداً أخاه الشريف بركات
صحبة السيد عرار بن عجل ليصالحه بشفاعه من السلطان ومن أخيه السيد قايتباى،
فقابلته مولانا الشريف بركات بالقبول واصطلحا صلحاً شافياً، وصارا كنفس واحدة
إلى أن مات كل منهما.

وفى سنة ثمان عشرة توفى السيد قايتباى، وتعزى فيه أخوه الشريف بركات.
وتوفى السلطان بايزيد ملك الروم، وتولى ولده السلطان سليمان خان فى بلاده
قبل فتح مصر. وفى هذا العام توجه الشريف أبو ندى بن بركات إلى مصر المحروسة
صحبة القاضى علاء الدين ناظر الخواص السلطانية، ومعه من أعيان مكة شيخ
الإسلام صلاح الدين بن ظهيرة الشافعى وشيخ الإسلام القاضى نجم الدين بن
يعقوب المالكى وولده القاضى محمد، والقاضى تاج الدين وجملة من أعيان
السادة، وطائفة من أعيان قوادهم بنظام عظيم، وأبهة وافرة وخيول أصيلة وركائب
مسمية مع الملابس الفاخرة، والسلاح المذهب، والسروج والأكوار اللاتقة بالزمان
والمكان، قاصداً منصب آبائه الكرام من السلطان الغورى بتخت مصر، فلما وصلت
أخبار خروجه من مكة برزت الأوامر السلطانية إلى رئيس الزمان القاضى أحمد بن
الجييعان، أن يخرج لملاقاتهم على أحسن أسلوب.

فخرج إليه بفرس عظيم، وسرج مغرق، وكنبوش مذهب، وكاملية مخمل
بسمور، كل ذلك من خاصة السلطان وخزائنه المحفوظة، ومعهم ما يليق من

الطعام، ثم بعد قليل تلقاهم أمير كبير، وباش العساكر المنصورة خير بك الدوادر، وجمع عظيم من القضاة، والمباشرين من كاتب السر إلى من دونه، فلما وصلوا المحل المعروف بالبركة ضرب لهم مخيم عظيم سلطاني، وبسطت لهم فرش من الخزانة العامرة جديدة، ومقاعد مشرسة بالذهب الصرف، ونصبت له وسائل سلطانية.

ثم نزل الشريف أبو ندى فى أعظم خيمة من الخيم السلطانية، ثم نزل كل رئيس من الذين معه فى خيمة هيث له، ثم مد لهم سباط عظيم سلطاني تضرب به الأمثال.

ثم بعد فراغه منه مد سباط الطارئ من الحلوات والعسلات، وما يلائم ذلك، ثم بعد فراغه مد سباط الشرابات والفواكه الموجودة، ثم ركب فى موكب عظيم لا يحصى كثرة، حتى دخل البلاد فى أعظم منظر وأبهى أسلوب، والخاصة والعامّة معلنون بالدعاء له مظهرون الفرح والسرور بملاقاته.

ثم سار إلى المدرسة الأشرفية الغورية فنزل بها، ثم مد له سباط بعد سباط كما شرح، وفى جميع هذه المدة يخاطب مولانا أركان الدولة ورؤساؤها بالألفاظ الملوكية، مع ظهور غاية البشر وكمال الفرح، ونهاية السرور، وعظيم الهناء، وناهيك بمجلس جمع أشرف الزمن، ورؤساء الوقت، وعلماء العصر، وفصحاء الدهر.

ثم ركب مولانا الشريف أبو ندى من المدرسة المذكورة فى موكب عظيم إلى الديوان، وكان السلطان حين ذاك جالساً بصدر الديوان، فلما دخل مولانا الشريف من باب الحوش أشرف عليه السلطان وهو فى الملابس الحسنة الحسنية بالدليقين والعمامة على القبع والأنوار النبوية مشرقة عليه، والعناية الصمدانية ناظرة إليه، تعجب من هيئته الباهرة، وامتألت عينه بمهابته، وطلعت الطاهرة، فأمر أن ينصب له كرسي بمفرده.

فلما دخل الديوان قام له ألفاً وقبل جبينه الشريف وقد زاده الله شرقاً، وأراد مولانا تقييل يد السلطان فامتنع السلطان من ذلك أدباً مع المقام النبوى، والجناب العلوى، فغلب على ذلك مولانا الشريف فاحتضنه، وسلم عليه، وقربه لجانبه، وأقبل عليه

بالمحادثة والملايمة، ثم أجلس من معه من القضاة والأشراف، وجابرههم بخطابه العذب، وأنصفهم فى الجلوس غاية الإنصاف، ثم أقبل على الشريف أبى نمنى ووضع فى حجره.

وكان سنه إذا ذاك ثمان سنين وقال له ما اسمك؟ فقال محمد أبى نمنى الغورى فحصل للغورى سرور عظيم بذلك فقال له: أنت أشطر من أبىك. ورأيت فى «نشأت السلافة» للإمام عبد القادر بن محمد الطبرى أنه قال له بعد وضعه فى حجره: ما سورتك؟ فقال: إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا، ولم تكن إذ ذاك سورتى هى فأعجب السلطان ذلك وتفاءل به واستبشر قلت: كلاهما يدل على مزيد الحذق والذكاء. ولا عجب إذا صدر من سلاله المصطفى. وعندى أن الأولى - وهى التى ذكرها السمرقندى - أحذق، وأذكى لعود الذكاء وأعقب.

ثم ألبسه كاملية سلطانية ثانية بمسح ذهب بمقلب سمور من خاص ذخيرته، وقام السلطان ثانيًا لوداعه، ثم ركب من القلعة السلطانية إلى محل سكنه، ثم رتب له السماط السلطاني صباحًا ومساء مع الطاريء، وتوابعه مع الافتقادات له، ولجميع من معه مما لم يسبق نظيره فى الدولة السلطانية الغورية. ثم إن مولانا الشريف استأذن فى التوجه إلى الأقطار الحجازية فكتب له توقيع شريف جليل خوطب فيه بالآفاظ التكريم، والتبجيل.

ثم وجه إليه من الذخائر السلطانية سنجقًا وأربعين مملوكًا وخلعًا سنينة لوالده الشريف بركات ومبلغًا من النقد له صورة برسم من صرف الطريق، وكذلك جميع ما يحتاج إليه من الدقيق، والأرز، والسمن، والعسل، والسكر، وسائر زاد الطريق، وكذلك جميع من فى صحبته من الأعيان أنعم عليهم بالعامات، معجلة ومرتببات على عادة أمثالهم، وبرز من مصر على صورة جميلة مع إظهار الإنعامات السلطانية. ولما وصل الخبر بقدمه زينت البلاد، وانشرحت صدور العباد، وخرج لملاقاته الأعيان من مكة، فدخلها رافلاً فى نعم الله تعالى التى تفضل بها عليه، وعلى آبائه وأجداده، فلا زالت فى أولاده ثم فى أحفاده، فطاف بالبيت الحرام، ودعى له على زمزم أسوة آبائه الكرام، ثم قرئ توقيع الكريم بمحضر جيران بيت الله الحرام، ثم

خرج إلى دار السعادة فمدحته الشعراء على عادة أسلافه بعدة قصائد من أعظمها قصيدة أحمد بن الحسين العليف أيضًا يهنئ أباه بعوده إلى سرير ملكه، ووصول ولده الشريف أبي ندى من القاهرة سنة ثمان عشرة المذكورة وهى هذه: [من الخفيف]

خَدَمْتُكَ الْحُظُوظُ وَالْأَقْسَامُ	وَجَرْتُ بِاخْتِيَارِكَ الْأَحْكَامُ
وَقَضَيْتُ بِالَّذِي تَرِيدُ اللَّيَالِي	وَاسْتَقَامْتُ لِأَمْرِكَ الْأَيَّامُ
وَأَطَاعَتُكَ الْمَرْهَفَاتُ الْمَوَاضِي	وَالْمَذَاكِي وَالسُّمُرُ وَالْأَقْلَامُ
وَكَفَّكَ الْمَحْذُورُ أَتَى شَرِيفُ	وَحَمَّاكَ التَّدْبِيرُ وَالْإِلْهَامُ
وَوَقَاكَ الْإِلَهُ مَا أَضْمَرَ الدَّهْرُ	رُ وَمَا سَوَّلَتْ لَهُ الْأَوْهَامُ
لَا تَخَفْ مِنْهُ نَبْوَةٌ وَاهْتِضَامًا	عَادَةُ اللَّهِ لَا يَضَامُ الْكِرَامُ
خَصَّكَ اللَّهُ بِالْعَنَاءِ مِنْهُ	وَكَلَّاكَ الْوَقَارُ وَالْإِعْظَامُ
حَسْبُكَ اللَّهُ أَنْ يَطِيشَ بِكَ	الظُّنُّ وَأَنْ يَسْتَفْزِكَ الْإِيْهَامُ
لَيْسَ لِلْمَلِكِ غَيْرُ ذَاتِكَ كُفَاءُ	أَنْتَ لِلْمَلِكِ يَا هِمَامُ نِظَامُ
لَكَ فِيهِ وَلَا عَلَيْكَ امْتِنَانُ	قَدَمَ رَاسِخٌ وَمَجْدٌ قَدَامُ
وَطَدْتُهُ سَيْوْفُ آبَائِكَ الْغُرُ	فَدَانَتْ لَهَا الْمُلُوكُ الْعِظَامُ
دُونَ مَا يَضْمُرُ الْغَيْبِيُّ مِنَ الْعَذِّ	رِ جِلَادٌ وَغُرٌّ وَمَوْتُ زَوَامُ
يَكْبُتُ الْغَيْظُ حَاسِدِيكَ جَمِيعًا	وَتَزُولُ الْأَحْقَادُ وَالْأَدْغَامُ
قَدْ بَلَكَ الزَّمَانُ حَلَوًا وَمَرًّا	فَإِذَا الشَّهْدُ فِيهِ دَاءٌ عِقَامُ
وَرَأَاكَ الْعَدُوَّ هَضْبَةً عَزُ	دُونَ مَرَاكَ شَامَةٌ وَشِمَامُ
لَوْ عَلَى الْأَمْرِ عَارِضَتِكَ اللَّيَالِي	قَارَعَتْهَا الْأَقْدَارُ وَالْأَحْكَامُ
لَمْ يَكُنْ غَيْرُ مَا تَرِيدُ وَلَوْ كَا	نَ فَإِنَّ الْعَزِيزَ مَنْ لَا يَضَامُ
لَا يَقِيمُ الْفَتَى عَلَى الضَّيْمِ مَا دَا	مَ لَهُ الرَّمْحُ خَادِمًا وَالْحَسَامُ
وَإِذَا أَنْكَرَ الدِّيَارَ كَرِيمُ	فَالْمَطَايَا دَلِيلُهُنَّ الْخَطَامُ
ظَلُّهُ رَمَحُهُ وَعَصْمَتُهُ السَّيْدُ	فُ وَمِثْوَاهُ صِهْوَةٌ أَوْ سَنَامُ
لَا يَنَاجِي عَلَى الْعَزِيمَةِ إِلَّا	نَفْسَهُ وَالْكَرِيمُ لَا يَسْتَضَامُ
يَقْطَعُ الْأَمْرَ دُونَ كُلِّ مَشِيرِ	وَيَنَاقِي الرَّدَى إِذَا الْقَوْمُ خَامُوا
لَيْسَ عَزَا إِلَّا صَدُورُ الْعَوَالِي	وَالظُّبَا وَالْإِسْرَاجُ وَالْإِلْجَامُ

هكذا فلتكن كرام المساعي
 فهنيئاً أبا زهير بعود
 مهذته لك الخفاف المواضي
 لم تجذذ لك الولاية عهداً
 لا أهنيك بل أهني بك المذ
 أنت يابا زهير أعلى محلاً
 لم ترثه كلاله لا ولا العهد
 هذاً الملك بعد طول جماع
 وكساه حلاك روث حسن
 لك في الملك سالف وقديم
 جمعوا البأس والنذا في أكف
 تستنم الملوك منهم فينجو
 دوخوا الدهر والممالك حتى
 واستباحوا حماهم وأقاموا
 كسبوا العز بالرقاق المواضي
 قلدها الولاية البيض والسّم
 وكماة تسيّر فيها المنايا
 من لوى بن غالب كل فرد
 يوسعون الجموع ضرباً وطعناً
 يستظلون بالرماح وبالبيد
 إن أصابوا فما جئوه جبار
 كل الوى يختال للموت عجباً
 برماح تعوج في الهام طورا
 وإرذات إذا مرقن لطحين
 وصفاح إذا انتضوها لحرب
 مخلصات إذا برزن من الغم

وعلى مثلها يكون المقام
 لسرير به السرور دوام
 وجلاه بعزمك الإقدام
 أنت من قبلها مليك همام
 ك فقد حزته وأنت غلام
 فعلام الهناء والإعلام !
 د حديث به ولا الإلزام
 مذ توليت واستقام النظام
 لم تبده الشهور والأعوام
 سادة قادة ملوك كرام
 يستهل الردى بها والركام
 ن وإن كان المستنم رمام
 قعدوا منهم الملوك وقاموا
 ميلهم بغد عزهم فاستقاموا
 ورعوا الناس والملوك سوام
 ر وطغن فذ وضرب ثؤام
 طائعات كأنها خدام
 منهم في اللقاء جيش لهمام
 ولو أن الجموع سام وحام
 ض لدى الحرب والطيور حيام
 أو أصيبوا فثارهم لا ينام
 حين يدعى وثغره بسام
 وعلى الفوز في الصدور تقام
 قشرت دون وقعهن السهام
 كان من بعض تابعيها الحمام
 د كأن الفرند فيها ضرام

مرهفات كأنهن لدى الضُر
وعتاق إذا تداعوا لحزب
غاديات إلى الوغى رائحات
قد تبرقغن بالحديد ولكن
علمتها التجارب الكُر والفر
وكيف الإقدام والإحجام
لم يزدنا البشير عما علمنا
عمركَ الله لو تراخى قليلاً
أنت روح للملك والغير جسم
ذاتك القطب للسيادة والآ
وإذا كان في المقاييس قرب
كيف يسمو إلى معاليك قوم
أين كانوا أبا زهير وقد دُ
حين أدجى ضياؤها وتوازى
كنت طلاع نقيبها والشنايا
همة دونها الثريا وحزَم
لم أقل ما أقول جهلاً ولكن
منصب جل وقعه منك لكن
فاحفظ الملك بالعشائر والمأ
وابذل الجهد يا أخا الحزم فيه
ليس يخفى عليك يابا زهير
وإذا الداء في الخوافى تعدى
وإذا كان في السيوف اضطراب
أنت في الناس كاسمك البر فيهم
إن دهرًا أتيت فيه لدهر
أنت عين الوجود فيه ولولا
قصرت عن مدى خطاك المساعي

ب ركوع وسجد وقيام
عزمت قبل أن يناط اللجام
يستوى الثور عندها والظلام
عاريات لباسهن القَتام
ولا خامر العقول اتهام
بشرتنا بسعدك الأحلام
لا تقاس الأرواح والأجسام
ل نجوم وأنت بدر تمام
كنت نوراً ومن سواك كمام
سهرت مقلتك فيها ونأموا
ت عن الملك والخطوب عظام
صبحها فانجلى بك الإظلام
يوم أنت المقدم المقدام
واعترام وسطوة وانتقام
يظهر الأمر إذ يزول اللثام
أنت أعلى مكانة إذ تسام
ل فأنت المجرب الصمصام
فالفتى بعد بذله لا يلام
سبب النقض فيه والإبرام
لقدامى الجناح منه السقام
قرعت حذها سيوف كهام
بركات على الأنام جسام
سحر كله وليل تمام
ك تساوى الإيجاد والإعدام
حيث كانت لك المساعي الكرام

وتباهت بك الممالك فخراً
وتساميت فوق فرع السماك
جزت حد الكمال في كل وصف
كرم في شجاعة ووفاء
وارتفاع إلى العلا وسمو
وارتياح إلى الثنا وسماح
وأباد إذا استهل نداها
لا يزيد الثناء فيك ولكن
عظمت ذاتك الشريفة عنه
وتعاليت أن يحيط بك المد
لم أزل ظامئاً إلى مدح عليا
علمتني هباتك النظم والنث
أتعبت فكرتي حسان سجايا
والهنا في أبي ثمي المفدى
فرغ غرس ينمي إلى خير أصل
وابن ملك ومنبر وسرير
سيد أدرك السيادة طفلاً
خفقت راية السعادة والمُد
وله اهتز منبر وسرير
لا عجب إن نال وهو صغير
ما على الشبل أن يحوز المعالي
فهنيئاً له السيادة والمج
بلغت الآمال فيه الذي رُم
دنت حتى ترى السيادة والمُد
خذ مديحاً أهدها عبد محب
وله بالثنا عليك وبالشك

وتهاذت آثارك الأيام
ن ومن دون أخصيتك النعام
قصرته عنه في الصفات الأنام
وحياة وحرمة وذمام
وحنو ورحمة وانهضام
واحتفال بشأنه واهتمام
يستمد الحياة منها الغمام
يتحلى إذا ذكرت النظام
ونبت دون وصفك الأفهام
خ وفيه براعة وانسجام
ك وبي دائماً إليه أوام
ر وكيف الإنجاد والإتهام
ك وأعياء على البليغ الكلام
والأمانى والجمع والالتئام
جاء تال وفي السباق إمام
ومدى الغاية التي لا ترام
وبنى المكرمات وهو فطام
ك له والبنود والأعلام
وبه استبشر الصفا والمقام
ما حواه الآباء والأعمام
وأبوه الغضنفر الضرغام
د جميعاً والعز والإحترام
ت فله الحمد والإنعام
ك لأولاده وأنت الزمام
ما له في فتى سواك مرام
ر وبالمديح والدعاء غرام

أنا فى مدحِكُم جريرٌ وفى الحمْدِ
 رشْتُمُ بالنوال والجودِ والفضْ
 قسْ ثنائى على ثناءِ سوائى
 واقسم اللخْطَ بيننا يا أخا الجُودِ
 لَوْ دُعِينَا إلى التناصُفِ فى الحُكْمِ
 وبَقْدَرِ البليغِ والبلغِ فى القوِ
 ومن الشعرِ للعقولِ جلاءُ
 يفعلُ المدحُ فى الكرامِ كما تفُ
 ويفيدُ الكريمَ عزًّا ومجدًا
 وخيارَ الرجالِ فى الشعرِ من كا
 فابْقَ للملكِ والممالكِ عزًّا
 ما توالَتْ عليك عُرُ القوافى
 وعلى المصطفى وآلِ كرامِ

وفى عام عشرين وتسعمائة حج محمد ولد السلطان الغورى مع والدته فى تجمُل
 عظيم جدا، وخرجوا من مصر فى الجمال المزينة، والأكوار المشركسة، والمحابر
 المرصعة بالذهب، ومحفة خوند فى ثبتها ذهب مرصع بالجواهر، فخرجت لها
 السادة الأعيان من أعيان مكة المشرفة، وأركان الدولة من حين قاربت ينبع، وقابلها
 الشريف أبو نَمى نيابة عن والده من خليص، ومد لها من الأسمطة، والحلويات،
 والفواكه، أصناف متعددة فى عدة منازل، وقابلها الشريف بركات من خارج مكة،
 فلما وصلت رأس الردم ترجل كل من لقيها حتى مولانا الشريف بركات، وأخذ
 بلجام مركبها إلى باب السلام، ثم حملت محفتها على الأعناق إلى القصر بباب
 إبراهيم. فلما توسطت المسجد وولدها بين يديها قال مقدمها: يا خوند، اشكرى
 نعمة الله تعالى فإن مولانا الشريف بركات حامى حمى الحرمين، حامل المحفة
 الشريفة إجلالاً وتعظيمًا، وقد فرش الديباج تحت جمال المحفة، ثم فرش تحت
 الأقدام بالمسجد الحرام، وهى تقسم على مولانا الشريف بركات، بأن يترك الحمل
 المرة بعد المرة، فلما وصلت القصر علو باب إبراهيم أشارت بأن يكون ولد

السلطان فى مدرسة ملك التجار رامشت، وأمير الحاج المصرى مع أركان الدولة فى خدمتها، كأقل العبيد، ثم أمر لها مولانا الشريف بركات بسماط عظيم أبهر العقول، ثم حمل إليها من الأغنام، والعسلان، والسمون، والفواكه، ما لا يحصى ولا يحصر، ثم تردد عليها مولانا الشريف أبو ندى بعرفة ومنى ومكة، وضاعف إليها من فضل والده الهدايا، والافتقادات، والأقمشة العالية، والتحف النفيسة؛ لأنه قريب العهد بموالاتها له، ثم سافر معها مولانا الشريف بركات إلى مصر المحروسة فأقبل عليه السلطان إقبالاً عظيماً جداً، وشكرت للخوند جميل سعيه وجزيل مراعاته، فوقع ذلك عند السلطان موقعاً عظيماً، سيما حمل المحفة وما فى معناه، وأنعم عليه بإنعامات جزيلة، منها خادمان وعشرون مملوكاً، وخيول أصيلة، وجمال برسم الدر والنسل، مما تقتنيه الملوك من كبر الجثة، وحسن المنظر، وطيب الأصل، وغزارة اللبن، وحلاوته، ويقال إن الإبل المعروفة بالمصرية من تلك، وجمال للحمل، وعشرة آلاف دينار حوالة على بندر جدة المعمورة، وخلعاً سلطانية نفيسة، وأذن له فى المسير إلى وطنه فوصل مكة المشرفة فى شهر رجب من العام المذكور، وزينت البلاد، وصنع الأمير حسين الكردي، وهو من أمراء الغورى بجدة صنع للشريف ضيافة هائلة، وقابله هو وأعيان مكة من خارجها، وكان يوم وصوله عندهم من أعظم الأعياد.

وفى عام اثنين وعشرين وتسعمائة، وقعت المقاتلة بين السلطان الغورى، والسلطان سليم بن بايزيد ملك الروم بمرج دابق خارج حلب المحروسة، وغلب السلطان سليم الغورى وفقد فى المعركة.

ثم إن السلطان سليم خان وصل المحروسة بعد قتلة عظيمة بالريدانية بين العساكر العثمانية، ونائب سيده السلطان الغورى طومان باى، وذلك فى شهر ذى الحجة من العام المذكور، ولم يحج من مصر ركب، ووصلت الكسوة للكعبة الشريفة بحرًا صحبة مزهر الخادم.

ثم لما استقر مولانا السلطان سليم وتوطد ملكه لمصر، وأعمالها، وانتظم له الملك من دار الخلافة الإسلامية قسطنطينية، إلى غاية المملكة المصرية أنهى إليه بعض الحساد أن جميع الملك والسلطان طرازه الأعظم ملك الحرمين الشريفين،

وأعمالهما، والدعاء لمولانا على منابرها، فشرع فى تجهيز جيش كثيف للحرمين الشريفين، وكان بمصر القاضى صلاح الدين بن ظهيرة كان السلطان الغورى صادرة بطلب عشرة آلاف دينار ذهباً فعجز عنها فحمله إلى مصر بالترسيم، فلما وقع ما شرح من تبديل الدولة، وبلغ القاضى المذكور ما عزم عليه مولانا السلطان سليم اجتمع بمولانا بيرى باشا الوزير الأعظم، وعرفه عظمة مولانا الشريف، ومراعاته للسلطنة الشريفة وحسن سياسته، وتدبيره وأن يُرْسَلَ إليه مكتوب سلطاني بما يقتضيه رأى السلطاني، فاستقر الحال على كتابة توقيع سلطاني، وكتابة مراسلات من مولانا الوزير المذكور، ومن مولانا القاضى صلاح الدين إلى مولانا الشريف بركات، بأن يقابل التوقيع السلطاني بالقبول ويرسل ولده إلى الحضرة السلطانية السليمية بتهنئتها، وتعريفها بكمال الطاعة والانقياد، ونهاية الامثال والمحبة والاتحاد، فوافق الشريف بركات على جميع ما ذكر، وأرسل ولده الشريف أبا ندى نائباً إلى مصر المحمية، فقابل مولانا السلطان سليم خان طاب ثراهما وعظمه تعظيماً مضاعفاً، وخوله وحباه، وعاد سالماً غانماً فى ظل والده حامياً حاكماً ودام عزهما إلى أن توفى والده مولانا الشريف بركات عام إحدى وثلاثين وتسعمائة كما شرح مفصلاً، ودفن بمكة بعد طوافه والنداء على زمزم، وقبره معلوم يزار عليه قبة، والدعاء عنده مستجاب، رحمه الله رحمة واسعة. ومما قاله الشهاب أحمد بن الحسين: [من البسيط]

أَلْعِزُّ تَحْتَ ظِلَالِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ	يَوْمَ الطَّعَانِ وَسَبَقَ السِّيفُ لِلْعَذْلِ
وَالْمَجْدُ مَا شَادَ ذِكْرًا أَوْ بَنَى شَرْفًا	يَبْقَى وَمَا شَدَّ رُكْنَ الْمَلِكِ وَالِدُولِ
وَالْعَزْمُ مَا خَضَعَ الْأَعْدَا لِهَيْبَتِهِ	ذُلًّا وَمَا صَيَّرَ الْأَفْكَارَ فِي شَغْلِ
لَا تَحْمِلُ الضِّيمَ نَفْسُ الْحُرِّ لَوْ بَلَغَتْ	مِنْهَا اللَّيَالَى بِأَمْرِ غَيْرٍ مُحْتَمِلِ
صَمَمَ إِذَا سَمَتْ أَمْرًا عَزَّ مَدْرُكُهُ	فَمَا يَنَالُ الْعُلَا مِنْ كَانَ ذَا كَسَلِ
وَانْهَضَ سَرِيعًا إِلَى الْغَايَاتِ مُحْتَقِبًا	فَدَوِ الْعَزِيمَةَ لَا يَمْشَى عَلَى مَهَلِ
كَمْ فُرْصَةٍ عَرَضَتْ فِي طَيْهَا ظَفَرٌ	فَاتَتْ بِتَدْبِيرِ رَأْيٍ غَيْرِ مُعْتَدِلِ
مَا لَمْ تَكُنْ بَرْدَاءِ الْعَزِّ مُرْتَدِيًا	فَدَغَّ طَلَابُ الْمَعَالَى عَنْكَ وَاعْتَرِلِ
وَاعْضُ الْجَفُونَ عَلَى ذُلٍّ وَمُسْكَنَةٍ	وَاصْبِرْ عَلَى الضِّيمِ صَبْرَ الْعُودِ وَاحْتَمِلِ

ما عَزَّ مَنْ بَاتَ وَالْأَمَالَ تَخْدَعُهُ
ولا اجتنى العِزَّ إِلَّا فَاتَكَ بَطْلٌ
ليس المذلَّةُ من شأنِ الكريمِ فدَغْ
وارحلَ عن الدارِ لا مستعظماً خطراً
وعَلَّ النفسَ عن إلفٍ وعن سَكَنِ
إِنَّ الكريمَ إذا ما جَدَّ في طلبِ
لا يَسْأَلَنَّ سوى الهنديِّ عارفةً
فالسيفُ أصدقُ ما تشفى الغليلُ به
فاجعلْ له الحُكْمَ في أمرِ تحاولُهُ
مرأى العدوِّ على حالٍ يعزُّ بها
لا يدركُ الثَّارَ إِلَّا كلُّ ذِي حَسَبِ
مثلُ الشريفِ أبى عجلانَ مَنْ شَرُفَتْ
الفاطميُّ الذي عزَّتْ مناقبُهُ
مَلِكٌ إذا رايَةً للمجدِّ قد رُفِعَتْ
ذو عزيمةٍ كغرارِ السيفِ ماضيةٍ
يرى العواقبَ مِنْ مِراةٍ فكرتهِ
حامي الحقيقةِ في وزْدٍ وفي صَدْرِ
مولى إذا ثَوَّبَ الداعي وقد لَقَحَتْ
يقضى على مهجِ الأعداءِ عامله
مِلءُ المفاضةِ مِنْ بأسٍ ومن كرمِ
أَمْضَى من الصَّارِمِ الهنديِّ همتهِ
تَفَرَّعَتْ عن صميمِ المجدِّ دوحتهِ
موصولة برسولِ اللهِ نبعثُهُ
مقابلِ بين فرعي دوحَةِ شَرْفَتْ
مغنى الرسالةِ والتنزيلِ معهدهِ
أعزَّ مَنْ سَبَحَتْ جردُ العتاقِ به

على اكتسابِ العُلا والمجدِّ بالحيلِ
يَزْوى القنا مِنْ نجيعِ الخيلِ والقللِ
عنك الهويُّ وسِرٌّ للعزِّ في عَجَلِ
ولا مريداً سوى العلياءِ من بدلِ
واجعلْ هواك لغيرِ الأعينِ الثُّجَلِ
حَتَّى المِطْيَةِ في وخْدٍ وفي رَمَلِ
إِنَّ العزیزَ لغيرِ السيفِ لم يَسَلِ
وهو الدواءُ من الأدواءِ والعَلَلِ
واقطعْ على حُكْمٍ ما يقضى به وصِلِ
داءً على الحُرِّ لم يبرحْ ولم يزلِ
بالسيفِ مشتملٍ بالرمحِ معتقلِ
قناته بنجيعِ الفارسِ البطلِ
عن النظائرِ والأشباهِ والمثَلِ
ينالها وسوىِ علياءِ لم يَنَلِ
وهمةٍ في العلا تسمو على زُحَلِ
غيباً ويقضى بحُسنِ الرأى في العملِ
ماضِي العزيمةِ مقدامٌ على الجَلِ
حَزْبٌ يليه لا مستفهماً بهلِ
وسيفه في الطلا يروى من العَلَلِ
ومن حياءٍ وحلمٍ غيرِ منتحلِ
عزماً وأسرى إلى الأرواحِ من أجلِ
من معدنِ الوخى مثوى خاتمِ الرسلِ
أكرمِ بفرعِ بذاك الأصلِ متصلِ
بين البتولِ وبين الطالبِيَّ على
أعظمِ بذلك من بيتٍ ومن نُزُلِ
وأوجَفَتْ يعملاَتُ الأيتنِ الذللِ

فخرًا وعزًّا بنى الزهراءِ إن لَكُمْ
 يابن الملوكِ الألى شادوا ممالكَهُمْ
 يزيدُ مرُّ الليالى عزَّهُم شرقًا
 تسنّموا غاربَ الأهوالِ وامتزجوا
 الضاربينَ على أكنافِ مُلكِهِمْ
 والسالكينَ إلى العلياءِ فى نَهَجِ
 سقاهُم الوَخى من صافى مواردِهِ
 لولاك يا بركات الجودِ ما اعتدلّت
 كم عزيمة لك فى الأعداءِ صادقة
 تكفلت لك أطرافُ الرماحِ بهم
 فى مأزقِ ضيق صوت الكماة به
 طرقتَه ثابتَ الأركانِ مبتسمًا
 هتكتَ فيه حجابِ الدارعينَ على
 ورُبّ ملحمةٍ ماجتْ بكثرتها
 وفيلقٍ مظلمٍ الأقتارِ مصطلمٍ
 وردتُهُ وحياضُ الموتِ مُترعةٌ
 ثم أنشئتِ وقد غادرتُهُ أثرًا
 وحزّتْ بالنضرِ ما ترجوه من أملٍ
 عزمٌ وحزمٌ وإقدامٌ وعارضةٌ
 أوصافُ مجدِكَ فى بأسٍ وفى كرمٍ
 كالغيثِ كالليثِ فى حالٍ ندى ورَدَى
 تُروى السيوفُ دماءِ الناكثينَ كما
 مثل الغضنفرِ فى الهيجاءِ يومَ وغى
 أدركتْ بالصبرِ ما تَغيا الملوكُ به
 فى معشرٍ مرقّوا فى الدينِ وارتكبوا
 لما نَوَوْكَ وعينِ السعدِ كالثة

فضلاً به ما له فى الناسِ من مثلٍ
 بسلةِ السيفِ والعسالةِ الذبيلِ
 كالعضبِ يزدادُ إرهابًا مع الأزلِ
 معَ الخطوبِ امتزاجِ النومِ بالمقلِ
 سرادقُ العزِّ من بيضٍ ومن أسلِ
 أعيت مساعيه أهلَ الأعصرِ الأولِ
 ماء النبوةِ عداً ليس بالوشلِ
 للملكِ قائمةٌ آلتِ إلى مِيلِ
 أمضى من الهندوانياتِ فى القلِ
 والمرهفاتِ وكُلُّ بالوفاءِ ملى
 قرع الصوارمِ بالخطيةِ الذبيلِ
 كالليثِ يفتّر عن أنيابه العُصْلِ
 سُمِرِ القنا غَيْرَ رَغْدِيدٍ ولا وَكِلِ
 صافحتَها بِقِرَاعِ البيضِ والأسلِ
 برق الأسنة يهديه إلى السبلِ
 طلقَ المحيّا بوجه مسفيرٍ جذلِ
 وجئتُ بالسبى والأسرى مع النفلِ
 وفزتُ منه بسهمِ الناضلِ الخصلِ
 فى جحفلٍ لَجِبٍ أو مجمعِ حفلٍ
 تصرفتُ بين طعمِ الصابِ والعسلِ
 ترجى وتخشى لرزقٍ أو على أجلِ
 تقرى الضيوفَ سديفَ الكومِ والإبلِ
 وفى السماحةِ مثلِ العارضِ الهطلِ
 ونلتُ بالحزمِ ما يُزى على الأملِ
 محارمًا آذنتُ بالإثمِ والزَلِ
 صبرتُ صبرَ كريمٍ غيرِ محتفلِ

وَكُنْتُ كَالْبَدْرِ وَارَى ضَوْءَ غُرَّتِهِ
 مَا زِلْتُ تَمْلَى لَهُمُ وَالْمَوْتُ يَنْظُرُهُمْ
 وَرُغْبُ ذِكْرِكَ يَجْرِي فِي خَوَاطِرِهِمْ
 يَنَامُ طَرْفُكَ وَالْأَوْهَامُ تُسَهِّرُهُمْ
 حَتَّى إِذَا أَيْنَعَتْ لِلْقَطْفِ أَرْوُسُهُمْ
 صَدَمْتَهُمْ بِخَمِيسٍ لَوْ صَدَمْتَ بِهِ
 يَكَادُ يَسْمَعُ وَقَعَ الْمَرْهَفَاتِ بِهِ
 وَيَسْتَنِيرُ بَرُوقًا مِنْ أَسْنَتِهِ
 كَمْ فِي جَوَانِبِهِ لِلْوَحْشِ مَعْتَرِكُ
 دَبَّتْ إِلَيْهِمْ مَنَايَاهُمْ بِصَدْمَتِهِ
 نَامُوا وَمَا نَمَتْ عَنْ وَثْرِ تَحَاوُلِهِ
 مَا زِلْتُ تَرْكُضُ فِي مَضْمَارِ غَايَتِهِمْ
 فِي مَقْبِ مِنْ عِتَاقِ الْخَيْلِ ذِي رَهَجٍ
 وَفَتِيَةٍ أَلْفُوا حَزَّ الْمَصَاعِ بِهِ
 مَالُوا عَلَيْهِمْ بِأَطْرَافِ الْقَنَا فَكَأَنَّ
 حَتَّى بَلَغْتَ الَّذِي حَاوَلْتَ بُغْيَتَهُ
 شَفِيتَ نَفْسًا رَعَاها اللَّهُ مَا بَرَحَتْ
 لَهُ دُرُكٌ مِنْ طَلَابٍ وَاتَرَةٍ
 تَرَكْتَهُمْ جَزْرًا فِي كُلِّ مَوْحِشَةٍ
 أَذَقْتَ آبَاءَهُمْ ثُكُلَ الْبَنِينَ كَمَا
 وَمُذْ سَفَكْتَ دِمَاءَ مَنْ نَجُومُهُمْ
 لَمَّا رَأَوْكَ عَلَى آثَارِ جَرَّتِهِمْ
 وَإِنَّمَا يَنْزِعُونَ الْكُلَّ مِنْ حَوْرِ
 وَصَارَ كُلُّ زَعِيمٍ فِي عَشِيرَتِهِ
 أَيْنَ الْمَفْرُؤُ وَخَيْلُ اللَّهِ طَالِبَةٌ
 كَفَى بِسَيْفِكَ وَعِظًا فِي مِصَارِعِهِمْ

حِينَآ وَآبَ مَابَ الشَّمْسِ فِي الْحَمَلِ
 شَزْرًا بِطَرْفٍ خَفِيٍّ غَيْرِ مُنْتَقِلِ
 جَزَى السَّقَامَ بِجَسَمِ الْوَاهِنِ الْوَجَلِ
 خَوْفًا وَتَهْدَأُ وَالْأَفْكَارُ فِي جَدَلِ
 وَحَانٌ بِالسَّيْفِ مِنْهَا مَتَهَى الْأَجَلِ
 هَضَابَ رِضْوَى لِعَادَتْ مِنْهُ فِي خَلَلِ
 مَنْ بِالْخَرِيبَةِ مَمْتَدًّا إِلَى ثُوْلِ
 بَنُو حَرَامِ الْغَوَاةِ النَّازِلُونَ حَلِي
 وَفَوْقَ حَافَاتِهِ لِلطَّيْرِ مِنْ زَجَلِ
 دَيْبِ كَاسِ الطَّلَا فِي الشَّارِبِ الثَّمَلِ
 وَالْقَوْمُ فِي غَفْلَةٍ يَرَعُونَ كَالْحَمَلِ
 دَلِيلُكَ النَّضْرُ فِي حِلٍّ وَمَرْتَحِلِ
 مَدْرَعٍ بَرْدَاءِ الرُّوْعِ مُشْتَمَلِ
 كَأَنَّهُمْ تَحْتَ ظِلِّ السَّمْرِ فِي ظَلَلِ
 وَقْتَ الضَّحَى مِنْ مِثَارِ النَّقْعِ كَالطُّفْلِ
 فِيهِمْ وَجَاوَزَتْ حَدَّ الْقَوْلِ فِي الْعَمَلِ
 عَزِيزَةُ الذَّاتِ مَذْكَانَتْ وَلَمْ تَزَلِ
 غَادَرَتْ رَبْعَ الْعَدَى رَسْمًا عَلَى طَلَلِ
 لِلْوَحْشِ وَالطَّيْرِ كَالْأَنْعَامِ وَالثَّلَلِ
 أَيْمَنَ مِنْهُمْ ذَاتِ الدَّلِّ وَالْكَحَلِ
 كَفَفَتْ بَادَا الْحِجَا عَنْ بِيضَةِ الْكَلَلِ
 طَارُوا مَطَارَ الْقَطَا الْكَدَرِيِّ وَالْحَجَلِ
 قَوَائِمُ الْخَيْلِ وَالْأَقْدَامُ مِنْ وَحَلِ
 يَقُولُ لَا نَاقَتِي فِيهَا وَلَا جَمَلِي
 وَالسَّعْدُ يَغْتَالُهُمْ فِي السَّهْلِ وَالْجَبَلِ
 لِكُلِّ مِنْهَزِمٍ مِنْهُمْ وَمِنْخَزَلِ

مذ عاينوا الذنبَ في أحلافهم نَزَعُوا
 لا تُعْطِهِمْ يا أبا عجلان عارِفَةً
 ولا تُتَّاعِ هَجَارًا في رعايتهم
 لا تحرقِ النارُ إلا كَفًّا لامسها
 واذكُرْ على القرب ما نالوا وما فَعَلُوا
 واغْلَمْ سلْمَتَ بَأْنِ القَوْمِ قد حشدوا
 ثَلُّوا عروشَكَ واجتاحوا حِمَاكَ به
 فاغْضَبْ لنفسِكَ أودِغْ كُلَّ مكرمةٍ
 واذكُرْ أبا القاسم السامى ومصرعهُ
 السادةُ القادةُ الأملاكُ من حَسُنَتْ
 لا تجعلِ المالَ عن أرواحهم بدلًا
 لا تتركِ الحزَمَ عينا ثُمَّ تطلبه
 ولا تقيلنَّهُمْ باللهِ عشرتَهُمْ
 ولا يَغُرَّنَكَ منهم ودٌ مبتسم
 يطوون أحشاءَهُمْ منكُم على ضميدٍ
 فاشدِّ يديكَ ولا تثرى لحالتِهِمْ
 لا تأمَنَنَّ غدرَهُمْ فالذئبُ عادته
 إن تبقِ منهم مع الإمكان باقيةً
 وجردِ السيفَ لاستتصالِ شأقتِهِمْ
 لا تقطعِ الرجلَ من قومٍ وتركهم
 فالخلْمُ زين ولكن يابن حيدرةٍ
 والصفْحُ عن مجرمٍ من بعدِ مقدرةٍ
 فيمِ التقاضى وما بالعهدِ من قِدمٍ
 حاشا علاك أبا عجلانَ من ملكٍ
 يأبى لك العزُّ أن تلقاه معتذرا
 وأنتَ من سادةٍ شُمِّ لهم أنفٌ

إليكِ مِنْ وهنٍ فيهم وَمِنْ وهلٍ
 وما يرومُونَ من وجهٍ ومن قبلٍ
 ليس الشجِيُّ رَعَاكَ اللهُ مِثْلَ خَلِيٍّ
 ولا أخو كَيْدٍ حَرَى كَذَى بَلَلٍ
 فى أَهْلِ دارِكَ من فتكِ ومن غيلٍ
 وليسَ مطلبهم إِلَّاكَ من رَجُلٍ
 وجادُبوكَ رداءَ العزِّ فى النزَلِ
 تَبَقَّى وقوضَ خيامَ العزِّ وارتحلِ
 كذاك مضرعُ إبراهيمَ حينَ ولي
 بذاتهم بهمةُ الأيامِ والدولِ
 من اللثامِ فبشَسَ المالُ من بَدَلٍ
 دينًا فتفرَّغَ سَنُ النادمِ النكلِ
 واقطعْ عرى كل ذى غدرٍ وذى نغلٍ
 فالخوفُ يظهرُ ودَّ الخائنِ الدغلِ
 ويضحكونَ لديكُم ضحكةُ العَلَلِ
 فطبعُهُمْ عن خبيثِ اللؤمِ لم يحلِ
 إن يتَهزَّزَ فرصةً فى غفلةٍ يَصُلِ
 نُسِبتَ للوهنِ فى الأمصارِ والحلِ
 فى كُلِّ شيخٍ وفى طفلٍ ومكتهلٍ
 والرأسُ منهم صحيحٌ غيرُ منجدلٍ
 فى غيرِ موضِعِهِ ضربٌ من الخَبَلِ
 عجزٌ ولستَ بذى عجزٍ ولا مللٍ
 والجرحُ منهم طريٌّ غيرُ مندملٍ؟!
 تُعْطَى الدنيةُ أو تؤتى من الختلِ
 أو ناهجًا فى طريقِ اللومِ والعذلِ
 عن أن يقيموا على ضَمِيمٍ ولا دخلِ

بيضُ الوجوه غطاريْفُ حجاجحةُ
 أهلُ الحمايا وأهلُ الذبِّ ما برحوا
 جمعتُ ما كان فيهم فيك مفترقا
 ودونكنم قولَ نصيح يا بني حسنِ
 أنتم بنو الحربِ تدعونكم وتنهضكم
 شدوا إلى حومةِ الهيجا مآزركم
 ما بالكنم ورياحِ النصرِ مقبلةُ
 إن لم تديروا رَحَى الهيجا مسرعةُ
 عيشوا على العزِّ أو موتوا على ثقةِ
 فَمَنْ يبلغُ عنى غَيْرَ معتذرِ
 ومالكًا وابنَ قيمارٍ وشيعتَهُم
 لابدُّ أن يبلغَ الموتورُ غايتهُ
 فالصبرُ يحمدُ والأيامُ كافلةُ
 إن تجحدون أبا عجلانَ فرصتهُ
 سلوا مواضيه عنها فهى تخبركم
 كم ناشكم بالقنا فى عُقرِ داركم
 وكم سقاكم غداةَ الروحِ من يدهِ
 وكم أذاقكم حرَّ الجلالِ بهِ
 لولا العرائنُ من أبنا أبيه لَمَّا
 ولا وطئتكم على دُلٍّ ومنقصةِ
 ليس القضا بكنم يشفى ضمائرهِ
 وإنما طَهَّرَ اللهَ البلادَ بهِ
 وعللتهم أمانيهم على غررِ
 ستمت مقامًا رفيعًا فوقَ ربتكنم
 فلو رجعتنم إليه باذلينَ لهِ
 وسُقتنم المالَ فى مرضاتِهِ فعسى

تنكبوا عن طريقِ الجبنِ والبخلِ
 عن الحريمِ وعِرض غيرِ مبتذلِ
 من المحاسنِ بالتفصيلِ والجميلِ
 يفيدُ كلَّ ذكيِّ القلبِ مشتعلِ
 أحسابكنم لاقتحامِ الحادثِ الجليلِ
 وشمروا لطلابِ الثارِ فى عجلِ
 تشاقلونَ وذُلُّ الدهرِ فى الثقلِ
 فما يفيدُ سهيلُ الخيلِ فى الشكلِ
 موت الكرامِ وخلُّوا الدارَ عن حولِ
 يحيى بن سبعٍ مقالاً غيرَ ذى خطلِ
 والتابعين من الأوشابِ والسفلِ
 ويشرب الكأسَ ساقِها على عللِ
 عقبى النجاحِ ونيلِ السؤلِ والأملِ
 فيكنم وما كان فى أيامِهِ الأولِ
 فالسيفُ والرمحُ أزكى شاهدِ وولى
 حتى اعتصمتم ببذلِ الخيلِ والخولِ
 بالسيفِ كأسِ الردى علأ على نهلِ
 فى مآقطِ الحربِ والأقدامُ لم تزلِ
 جاوزتم الرملَ من خوفٍ ومن فشلِ
 مواطنًا ما لكنم فيهنَّ من قِبَلِ
 إنَّ القضاءَ من الأشباهِ والمثُلِ
 من ملَّةٍ خرجت عن أشرفِ المللِ
 واللهُ فى كُلِّ هذا علةُ العللِ
 ولا يقاسُ نهيقُ العيرِ بالصهلِ
 طوعًا طوى كسحهُ فيكم على مللِ
 يغضى قليلًا ومنَّ للور بالحوِلِ

دُم ظافراً يا أبا عجلانَ في دعةٍ
فقد أقمّت اعوجاجَ الملكِ من أودٍ
وخذُ نسيجَ ثناءٍ صافياً حسناً
عروسَ مدحٍ تهادى في منصتها
حليتها من سجايك التي شرفت
يفوح بين قوافيها لمنشدها
جلت صفاتك قدراً أن يحيط بها
واسلم فإنك زين الدين ناصرهُ
ثم الصلاة على المختارِ مِنْ مُضَرٍ
محمد المجتبى من سائر الرسلِ

ثم وليها مولانا الشريف أبو ندى

قد سبق ذكر مولانا، وملخص ذلك أنه تشرف بحماية الحرمين الشريفين في ظل والده في عام ثمانية عشر وتسعمائة، واستمر وسعده في زيادة إلى أن مات والده في عام أحد وثلاثين، فمدة اشتراكه مع والده أربعة عشر عاماً، ثم تفرد بهذا المنصب المبارك مع زيادة السعود، وبسط العدل والجود؛ إلى أن أنعم الله تعالى عليه بولده مولانا السيد الشريف أحمد بن أبى ندى، فتقلد هذا المنصب بالتماس والده من مولانا السلطان سليمان بن سليم خان، وكان ذلك سنة سبع وأربعين وتسعمائة. وملخص ذلك أنه أرسله إلى الأبواب العالية السلطانية العثمانية، ومن الاتفاق أن معظم من كان مع والده الشريف أبى ندى حال عزمه إلى مصر كان مع ولده هذا أحمد إلى إسلام بول، وصحبته من الهدايا العظيمة اللائقة بالملوك والخيول الأصائل، والصقور والشواهين والأقمشة والأطياب، فلما وصل خبر قدومه عين له السلطان سليمان من قبله على أحسن أسلوب، ثم أنزل في بيوت السلطنة، وأمره أن يدخل عليه بالملابس الحسنية.

وكان مولانا الشريف أحمد جميل الصورة معتدل القامة، حسن اللحية والدليقين، عليه ناموس الشرف المحمدى، وأبهة الملك النبوى. فلما دخل على السلطان قام له ألفاً، ولم يقع هذا لأحد سواه. ثم أقبل عليه بالبشر التام، وخلع عليه خلعة متعددة تعظيماً لشأنه، وإظهاراً لرفعته

وعناية بجانبه، وأظهر أن وصوله إليه من النعم المعدودة التي تفرد بها عن غيره، وكذلك زوجة مولانا السلطان والدة - السلاطين، وواصلت المساكين - قدمت له هدايا عظيمة، وعرفت أركان الدولة أنه فى مقام أولادها محبة وحنوا.

ثم برزت الأوامر السلطانية له بجميع المرام. ووصل إلى مكة المشرفة على ذلك النظام. وامتدحه القاضى عبد الرحمن بالكثير بالقصيدة الرائية: [من الطويل]
وَفَتْ صَبِّهَا بَعْدَ الْجَفَا غَادَةً عَذْرًا وَمُذْ لَامَهَا قَالَتْ لَعْلَ لَهَا عَذْرًا
المتقدم ذكرها.

ودام سلطانه إلى أن مات فى حياة والده الشريف أبى ندى فى شهر رجب عام ست وستين وتسعمائة.

ومما قيل فيه مدحاً قول الوجيه عبد الرحمن الكثيرى المذكور: [من الكامل]
أَلْعِزُّ نَاوٍ بَيْنَ مَشْتَبِكِ الْقَنَا مَن رَامَهُ قَالَتْ لَهُ السَّمْرُ الْقَنَا
وَالنَّضْرُ مِنْ مَخْضَرٍ أَوْرَاقِ الظُّبَا غَصَنًا بِهِ ثَمَرُ الْوَقَائِعِ يَجْتَنِي
وَالْمَجْدُ فِي صَهْوَاتِ دَهْمٍ إِنْ عَدَتْ عَقَدَتْ سَنَابِكُهُنَّ نَقْعًا أَدَكْنَا
وَالْفَخْرُ أَنْ تَغْشَى الْكُتَيْبَةَ بِاسْمَا وَلَكَ الْحِمَامُ مِنَ الْأَسْنَةِ قَدْ رَنَا
وَالثَّابِتُ الْجَاشُ الَّذِي يَرِدُ الْوَعَى وَيَدُ الْمَنُونِ تَدِيرُ كَاسَاتِ الْفَنَا
وَالْحَزْمُ فَتَكَكَ بِالْعِدَاةِ مَطَاعِنَا وَمُضَارِبًا وَمَذْفَقًا وَمُشْحِنَا
وَالْعَزْمُ أَنْ تَسْتَهْلَ الصَّعْبَ الَّذِي لَوْ كَانَ لَمْ يُمْكِنَ بَعْزِمَكَ أَمْكِنَا
وَالْمَكْرَمَاتُ أَجْلُهَا حُسْنُ الْوَفَا وَأَعَزُّهَا الْإِغْضَاءُ عَمَّنْ قَدْ جَنَى
وَالسُّودُّ الْمُحْضُ اكْتِسَابُ مَفَاخِرِ تَرْتَادُهَا مِنْهَا الْمُحَامِدُ تَبْتَنَى
وَأَكَابِرُ الْعُلِيَاءِ مَنْ يُولَى نَدَى يُشْرَى بِهِ الْمَجْدُ الْأَثِيلُ وَيَقْتَنَى
وَالْهَمَةُ الْعُلِيَاءُ تَصْيِيرُ الَّذِي عِنْدَ الْوَرَى جِلْدًا حَقِيرًا هَيْنَا
وَالْجِدُّ أَنْ تَرَدَّ الْمَهَالِكُ رَاقِيَا صَغَبَ الْمَخَافِ لَنْ تَوْقَلَ مَأْمَنَا
وَالْجُودُ هَجْرُكَ لَا فُلَيْسَ يَخْطُهَا مَلَكَاكَ إِذْ كُنْتَ الْجَوَادُ الْمُحْسِنَا
وَالْحَمْدُ إِسْدَاءُ الْجَمِيلِ بِلَا أَدَى مِنْ غَيْرِ أَنْ تَبْغَى الْجَزَاءَ وَتَمْنَا
وَالْفَضْلُ تَقْلِيدُ الرِّقَابِ صَنَائِعَا لَوْ لَمْ تَرْقُ بِهَا الْوَرَى لَنْ تُغْبِنَا
وَالْمَلِكُ لَا يَبْنِي دَعَائِمَ مَجْدِهِ إِلَّا السَّلَاهُ وَالْقَوَاضِبُ وَالْقَنَا

كَبْنَا بَنِي مَلِكِ الْمَلِكِ الْمُنْتَقَى
 سُلْطَانُ مَكَّةَ أَحْمَدُ الْمَلِكُ الَّذِي
 مَلِكُ الْحِجَازِ أَبُو سُلَيْمَانَ الَّذِي
 مَلِكٌ لَهُ مَلِكٌ تَرَاهُ مَحْوُطًا
 مَلِكٌ لَهُ مَلِكٌ تَشَامُخَ عِزِّهِ
 مَلِكٌ لَهُ مَلِكٌ ذَرَاهُ عَلَى السَّهَاءِ
 مَلِكٌ بِهِ أَفْقُ الْمَعَالِي قَدْ أَضَاءَ
 مَلِكٌ تَفَرَّعَ غَصْنُهُ مِنْ دُوْحَةٍ
 مَلِكٌ غَذَى بَلْبَا الرِّسَالَةِ وَاعْتَلَى
 مَلِكٌ لَهُ الْبَيْتُ الشَّرِيفُ وَمَكَّةُ
 مَاذَا عَسَى فِيهِ يَقَالُ وَمَدْحُهُ
 وَيَدُ الرِّسَالَةِ أَكْسَبَتْهُ شَمَائِلًا
 وَعَلَى مُحَيَّاهُ أَدَارَتْ هَالَةً
 هُوَ مَضْعُغَةُ الطُّهْرِ الْبَتُولِ وَأَصْلُهُ
 وَبِجَدِّهِ شَمْسُ الشَّرِيعَةِ أَشْرَقَتْ
 هَذِي الصِّفَاتُ الْجَاعِلَاتُ لِرَبِّهَا
 لَمْ تَنْتَجِ الدُّنْيَا لَهُ مِثْلًا وَقَدْ
 فَاقَ الْمُلُوكُ فَمَا بَنُو الْعَبَاسِ أَوْ
 لَا مَجْدَ كَانَ لَهُمْ فِرَادَى فِي الْعَلَا
 وَلِئِنْ أَتَوْا فَعَلَ الْمَكَارِمِ مَرَّةً
 مَلَأَ الْقُلُوبَ مِهَابَةً وَمَلَأَ الْعِيُو
 وَمَلَتْ مَعَالِيهِ الزَّمَانُ وَعَزَّ عَنْ
 رَبِّ النَّدَى مَرْدَى الْعَدَا مُرَوِّى الصِّدَا
 أَنْشَأَ بَدِيعَ مَكَارِمِ وَمَآثِرِ
 وَلَكَّمْ مَدَارَسَ فِي الْعَلَا دَرَسَتْ وَقَدْ
 وَلَقَدْ ذَوَى رَوْضِ الْمَوَاهِبِ فَاغْتَدَى

مِنْ مَعْدِنِ السَّبْطَيْنِ شَرَفَ مَعْدِنَا
 طَوَّعَ لِقَدَرَتِهِ الْمَنَابِيَا وَالْمُنَى
 فِي مَفْرَقِ الْعَلِيَا تَبَوُّاً مَسْكِنَا
 بِالْمَرْهَفَاتِ وَبِالرَّمَاخِ مُحَصَّنَا
 لَا مَلِكَ إِلَّا صَارَ قَهْرًا مَذْعِنَا
 وَأَسَاسُهُ تَحْتَ التَّخُومِ تَمَكَّنَا
 وَانْجَابَ عَنْهُ ظِلَامُ ظُلْمِ أَدْكِنَا
 بِالْمَصْطَفَى شَرَفَتْ وَطَابَتْ أَغْضُنَا
 عَنْ كُلِّ مَدْحٍ بِالصَّرَائِحِ وَالْكُنَى
 وَلَهُ الْمَوَاقِفُ وَالْمَشَاعِرُ مِنْ مَنَى
 قَدْ جَاءَ نَصًّا فِي الْكِتَابِ مَبِينَا
 نَبِوِيَّةٌ مِنْهَا عَلَاهُ تَزْيِينَا
 مِنْهَا سَنَا الْقَمَرَيْنِ يَكْتَسِبُ السَّنَا
 مِنْ طِينَةٍ مِنْهَا النَّبِيُّ تَكُونَا
 وَلِسَانُهَا بِالْحَقِّ أَصْبَحَ مَعْلَنَا
 مِنْ فَوْقِ هَامَاتِ الْمَعَالِي مَوْطِنَا
 زَانَ الْمَمَالِكِ وَالْعَلَا وَالْأَزْمَنَا
 مَا غَيْرُهُمْ مِمَّنْ نَأَى أَوْ مِنْ دَنَا ؟
 إِلَّا تَمَلَّكَهُ وَكَانَ لَهُ قَنَّا
 فَلَهُ غَدَتْ طَبَعًا وَأَمْسَتْ دَيْدَنَّا
 نَ جَلَالَةً وَمَلَأَ الْمَسَامِعَ بِالثَّنَا
 مَدْحَ وَخَضِرُ عَلَاهُ أَعْيَا الْأَلْسِنَا
 مُوَلَّى الْعَنَى حُلُوُ الْخَبَا رَحْبُ الْفَنَّا
 فِيهَا تَنَوَّعَ مَجْدُهُ وَتَفَنَّنَا
 عَمَرَتْ بِهِ وَغَدَا حِمَاها بَيْنَا
 بَنَوَالِهِ غَضُّ الشَّمَارِ لِمَنْ جَنَى

أَغْنَى الْخَلَائِقَ مِنْ نَدَاهُ فَلَمْ تَجِدْ
 وَبِهِ لَقَدْ عَمَّ الْوَرَى فَنَوَالُهُ
 وَالرِّزْقُ وَالْأَجَلُ الْمَقْدَرُ طَوْعُهُ
 مُتَكَفِّلٌ بِالْأَمْنِ فِي الدُّنْيَا فَمَا
 وَيَرْزُقُ مَنْ فَوْقَ الْبَسِيطَةِ وَالَّذِي
 وَلَدْنِيهِ لَا رَوْضَ السَّمَاخِ تَخَالُهُ
 وَالسَّخْبُ مَذْ رَامَتْ تَجَارِي كَفَّهُ
 فَالْغَيْثُ فِي جَبَاهِهَا عَرَقٌ جَرَى
 يُحِبُّو التَّوَالَ وَيَحْتَبِي فَكَأَنَّهُ
 فِي حِلْمِهِ فَاقَ ابْنَ قَيْسٍ بَلْ لَدَى
 مَاضِيهِ لِلْأَعْدَاءِ مَسْنُونًا يَرَى
 يَهْبُ الْأُلُوفُ وَلَمْ يَهْبِهَا عِنْدَمَا
 وَيَرُدُّ جَحْفَلَ مَنْ يَحَارِبُهُ وَلَوْ
 بَطْلٌ وَلَكِنْ لَا يَطَاقُ فَفِي الْوَعَى
 وَمَتَى يَصِلُ تَلْقَى الْكَمَى مُجَنَّدًا
 يَرَوِي الثَّرَى بِدَمِ الْفَوَارِسِ فَالْقَنَا
 تَقْفُو الْجَوَارِحُ جَيْشُهُ ثَقَّةٌ بِمَا
 فَيَرَوُا بَطَانًا آيِبِينَ نَوَاهِلًا
 لَمْ يَدْعُ هَذَا الدَّهْرُ إِلَّا جَاءَهُ
 يَخْشَى سَطَاهُ فَلَمْ تَحُلْ خَطْبُوهُ
 لَوْ خَطَّ طَرْسًا نَحْوَهُ لَوْلَايِهِ
 فَمَتَى دَعَتْكَ خَطْبُوهُ فَالْجَأُ لَهُ
 يَا أَحْمَدُ بْنَ أَبِي ثَمَمٍ وَالَّذِي
 لَوْ زَادَ شَيْءٌ بَعْدَ غَايَتِهِ دَعَا
 مِنْ رَامَ مِثْلَكَ فِي الْمُلُوكِ فَذَاكَ فِي
 فَلَأَنْتَ رَبُّ الْبَسْطَةِ الْعَظْمَى عَلَى

فِي دَهْرِهِ ذَا حَاجَةٍ مُتَمَسِّكِنًا
 كَثُرَ الْفَقِيرُ وَطَوَّقُ جَيْدٍ مِنْ اغْتَنَى
 وَبِكَفِّهِ مَرَّ الْمَنَا وَحَلَا الْغِنَا
 أَحَدٌ بِهَا إِلَّا وَعَاشَ مُؤْمِنًا
 تَحْتَ الْمَحِيطَةِ قَدْ غَدَا مُتَضَمِّنًا
 هَشَمًا وَلَا تَهْرُ النَّدَا مُتَأَسِّنًا
 حُمْتُ بِهِ حَسَدًا وَأَسْقَمَهَا الضَّنَى
 لَمَّا جَرَتْ وَكَبَتْ وَأَدْرَكَهَا الْعَنَّا
 بَحْرٌ وَطَوْدٌ قَدْ أَحْلَى وَأَرَدْنَا
 إِحْسَانِهِ ذِكْرُ النَّدَى لَنْ يَخُسَّنَا
 وَعِطَاؤُهُ فِي الْحَالِ فَرَضًا عَيْنَا
 يَلْقَى عَلَيْهِ لَأَمُهُ وَالْجَوْشَنَا
 ضَاهِي الْحَصَا عَنْ رَدِّهِ لَنْ يَجْبِنَا
 بِشَبَا الْعِزَائِمِ عَنْ ظَبَاهُ لَهُ غِنَى
 وَالذَّمْرُ خَلَقًا بِالدَّمَاءِ مَكْفُنَا
 تَجْرِي عَلَيْهِمْ مِنْ دِمَاهُمُ أَعِينَا
 أَلْفُوهُ فِي نَضْرٍ لَهُ مَتِيقُنَا
 بِدَمٍ يُطْلُ فَمَا أَذَلُّ وَأَهْوَنَا
 مَتَعَثَرًا مِنْ خَوْفِهِ لَنْ يَأْمَنَا
 سَاحَاتِهِ وَبَصْرَفِهِ لَنْ يَطْعَنَا
 بِالْخَادِمِ الْمَمْلُوكِ كَانَ مُعْنُونَا
 وَبِاسْمِهِ فَاعْلُ النَّدَاءُ وَأَعْلِنَا
 أَلْقَى لَهُ الدَّهْرُ الْقِيَادَ وَأَذَعْنَا
 كُلُّ لِمَلِكِكَ أَنْ يَزِيدَ تَمَكُّنَا
 شَرَعَ الْمَعَالَى مُشْرِكٌ لَنْ يُؤْمَنَا
 كُلُّ الْمُلُوكِ مِنَ الرِّشِيدِ إِلَى هُنَا

وأَمَامَ جَيْشِكَ رَائِدُ الظَّفَرِ اغْتَدَى
وَبَشَائِهِ النَّصْرُ الْمُتَيْنُ قَدْ احْتَفَى
وَالدهرُ سَاعٌ فِي الذِي تَهْوَى فَإِنْ
وَأَفَاكَ تَشْرِيفُ الْمَلِكِ فَكُلُّ مَا
فَلِيهِنَكَ النَّصْرُ الْمَفَادُ وَيَهْنِكُمْ
فَهَوَاتِفُ السَّرَاءِ قَدْ صَدَحَتْ بِهِ
وَشَدَتْ عَلَى أَيْكِ السَّرُورَ حَمَائِمُ
فَازَقَ الْعَلَا مَلَكًا فَمَلُوكُ غَابَةِ
وَرِيَاضُهُ قَدْ أَصْبَحَتْ مَخْضَلَةً
وَالْمَاضِيَانِ تَكْفُلًا بِخُلُودِهِ
وَإِلَيْكَ تَبَرَّ مَدَائِحَ لَوْ صَاعَهُ
وَلِحَسَنِهَا حَسَانُ يَغْدُو خَاضِعًا
طَابَتْ شَدَا لَمَّا جَعَلْتُ خَتَامَهَا

بِالنَّصْرِ وَالْفَتْحِ الْمَبِينِ مُؤَذَّنَا
بِأَمْرِهِ الْفَتْحُ الْمَبِينُ قَدْ اعْتَنَى
تَدْعُوهُ أَوْ تَدْعُو أَجَابَ وَأَمَّنَا
تَبْغِيهِ ثُمَّ وَغَيْرُهُ لَنْ يُمَكِّنَا
نَيْلُ الْمَرَادِ بِمَا أَقَرَّ الْأَعْيُنَا
وَتَرْتَمَتْ وَزُقُ التَّهَانِي بِالْهِنَا
مَلَأَتْ بِشَائِرَهَا النِّوَاحِي بِالْغِنَا
بِكَ يَا هَزْبِرَ الْجَحْفَلِينَ مُحْصِنَا
مَنْكُمُ وَزَهْرُ ثَمَارِهَا حُلُوُ الْجَنَى
وَبِحَفْظِهِ سَعْدُ السَّعُودِ تَضْمُنَا
نَطْقِي لَغَيْرِ عِلَاكَ أَضْبَحَ أَلَكْنَا
لَوْ رَامَ نَظْمَ سُلُوكِهَا لَنْ يُخْسِنَا
مِنْكَ الصَّلَاةُ تَبَرُّكًا وَتَيَمُّنَا

ثم إن مولانا الشريف أبا نَمَى رحمه الله تعالى التمس من مولانا السلطان سليمان خان تفويض الأمر إلى ولده الثانى صاحب المقام السامى مولانا الشريف حسن، فتقلد - بعد أن أُجيب إلى مراده - حماية الحرمين الشريفين وجدة المعمورة وينبع وخيبر وحلى، وجميع ما شمله اسم الأقطار الحجازية، وذلك من خير إلى أطراف حلى وأعمال جازان طولا، ومن أعمال ينبع المبارك إلى حجاز ثقيف، وما اتصل به من أرض نجد عرضًا، وكان ذلك سنة ٩٦١ إحدى وستين وتسعمائة، فتفرد بذلك بإشارة والده الشريف أبى نَمَى لما علم من كفايته وكماله. وخاطبته السلطنة الشريفة بالألقاب الهاشمية الملوكية.

وشاع وذاع ما فى محل ولايته من العدل والإنصاف، والأمن والطمأنينة فى حاضرتها وباديتها، وما إليها ينسب ويضاف، وقطع قاطع الطريق، وأخذ حق المظلوم من الظالم وإن كان أقرب حميم وأصدق صديق.

فلما وصل خبر ذلك إلى الأبواب العالية فوضت إليه كل واصل إلى الأقطار الحجازية من أعيان دولتهم وكبرائهم، وأركان سلطتهم وأمرائهم حسبما يسطر ذلك

فى المرسوم السلطانى الواصل باسم مولانا المومأ إليه فى كل عام .
وكلما طلب من جانب السلطنة العليا مطلوباً من معالى الأمور أو إحساناً لمن يلوذ بمقامه المبرور أوجب بحصول المراد ، خصوصاً فى سلطنة مولانا السلطان مراد وفى سنة أربع وخمسين وتسعمائة اتفق يوم السابع من ذى الحجة الحرام بمكة المشرفة أن الناس بينما هم بالمسجد الحرام فى وقت السحر إذ رأوا دخاناً صاعدًا من جانب الكعبة الشريفة ، فبادرت الأكابر من الشريف أبى نمى ، وولده ومصطفى باشا ، وأكابر الحاج يسعون إلى باب الكعبة ففتحوه بعد أن حصل عند عامة الناس غاية الوجل ، فوجدوا ناراً فى عقب الذرفة اليمنى ، ففكت الذرفة ، وأطفئت النار ، وأعيد الباب على حاله ولله الحمد . ذكر هذا الجزيرى فى تاريخه .

قلت : الظاهر أن أصل تلك النار شرر طائر من مجامر البخور التى توضع على عتبة البيت الشريف .

وفى سنة خمس وخمسين وتسعمائة - لما كان عيد يوم النحر منها - وقعت فتنة بمنى ، وتعرف عند أهل مكة بالهبة ، بين مولانا الشريف أبى نمى ، وبين أمير الحاج المصرى المسمى محمود ، وكان الشريف أحمد إذ ذاك قائماً بأمر المملكة عن والده بتفويض من السلطان سليمان كما تقدم ذكر ذلك .

سبب هذه الفتنة أن السيد قايتباى كان بمصر فأقبل إلى مكة من طريق البحر ، وكانت بينه وبين أمير الحاج المذكور مواطاة على أن يوليه مكة .

فلما كان يوم النحر علم الأمير أن جماعة الشريف أبى نمى تفرقوا عنه بالنزول إلى مكة للطواف والسعى ، فاغتنم الفرصة - وكان السيد قايتباى المذكور أرسى بجدة ولم ينزل إليها - فركب الأمير ليقصد الشريف فى داره ، فعلم الشريف بذلك فركب ، وركبت الأشراف والقواد والجند ، فثارت الفتنة ، ونزل الشريف إلى مكة ثم أرسل إلى جدة تجريدة من الخيل لحرب السيد قايتباى ، فلم تصل إلى جدة إلا وقد توجه منها بحرًا عائداً إلى مصر .

وبموجب هذه الفتنة نفر الأمير ، وجميع الحاج من منى يوم النفر الأول قبل الزوال ، فأراد بعض الحجاج العود إلى منى للرمى قبل فواته ، والمبيت مع جند صاحب مكة ، فتعذر عليه ذلك ، لانتشار الأعراب فى الطرق ورءوس الجبال .

ويحكى عن الشيخ العارف بالله تعالى الشيخ محمد بن أبى الحسن البكرى أنه كان بمكة حين الفتنة بمنى قد نزل بقصد الطواف والسعى، وكان فى منزله وعنده شخص يسمى الشيخ الحرفوش، فحصلت للشيخ محمد البكرى حالة جلال، واستمر دائراً فى المحل الذى هو فيه كالأسد وهو يقول: حوش حوش يا حرفوش، كالذى ينظر شيئاً فىأمر بإمساكه، ثم سكت حاله، فقال: الآن وقعت بمنى فتنة عظيمة حشناها بإذن الله تعالى فكان الأمر كذلك.

فقال العلامة الخطيب عبد الباسط بن أيوب يذكر الواقعة، ويرفع فيها الشكوى من محمود الأمير إلى الخنكار الأعظم مولانا السلطان سليمان خان فى قصيدة هى: [من الخفيف]

يا إماماً بالعدلِ فى الناس سارا	وهاماً قد دَمَّرَ الكُفَّارا
ومليكَ إحسانُهُ ملاً الأَزْ	ضَ وَأُضْحَى لَهُ الصِّلَاحُ شِعَارا
هذه قِصَّةٌ لبابِكَ جاءتْ	من أناسٍ مما دهاهُمُ حيارى
فَأَثْلُهَا يا خليفةَ اللهِ فى الأر	ض جميعاً عساكَ تأخُذُ ثارا
نظمتُها قريحةً شاهدتْ فى	عترة المصطفى أموراً كِبَارا
هجمتْ دورهم بخيلٍ ورجلٍ	واستباحوا عرضاً ومالا ودارا
ورُمُوا بالنبالِ فى حرمِ الله	فَضَّحُوا صغارَهُمُ والكِبَارا
أذكَرْتُنَا أحوالُهُمُ بحسينٍ	ويزيدٍ وأورثتُنَا اعتبارا
آلِ بيتِ الرسولِ حُلَّ حماهم	واستبيحتْ لهم دماءُ جِهَارا
ما استمعنا ولا رأينا كَهَذَا	لا رَعَى اللهُ مَنْ بهذا أشارا
قد أتانا محمودٌ فى إمرةِ الحُجْ	جٍ وقد صَارَ بالأذى أُمَّارا
فرأينا شخصاً يحاكى يزيداً	فى سجاياهُ فاجراً جَبَّارا
أَذْهَبَ الشَّرْعَ مذ أتانا وأحيا	ليزيدٍ بَيْنَ الوزى آثارا
حَكَّمَ السيفَ فى أعزِّ نفوسٍ	وسقاها كاسَ الرَّدَى وأدارا
قَتَلَ الناسَ أَظْهَرَ السفكِ ظِلْماً	جالَ بالسيفِ يمنةً ويسَّارا
تركَ الهدى والضحايا وضحى	بدماءِ الأشرافِ فيها وسَّارا
حَرَمَ آمِنٌ ويقتلُ فيه	عترة المصطفى جهازاً نَهَّارا

إن هذا أمرٌ فظيعٌ شنيعٌ
 قد تركنا لأجله واجباتٍ
 وخشينا من اليزيديّ قتلًا
 تركَ الناسُ في متى نُسكَ الحجِّ
 واعتراهُم من اليزيديّ ما لم
 وغدا الناسُ بين قتلٍ ونهبٍ
 صار فيها العزيزُ عبدًا ذليلًا
 صرقتُ نحوهم صروفُ الليالي
 ورمتهم عن قوسها بسهام
 فتنةٌ أخذتُ بأشرفِ أرضِ الله
 كَبُرَ الناسُ عندما عاينوها
 أظلم الكونُ والكواكبُ غارت
 إن هذا ظلمٌ وجورٌ عظيمٌ
 ورماه بأسهم صائباتٍ
 وذَهَلْنَا من المصيبةِ حتّى
 فتراهم بعد الأمانِ مِنَ الخو
 يابن عثمانَ أنتَ عمزتَ بالعد
 أنتَ طَهَرْتَ سائرَ الأرضِ ممّن
 أنتَ كهفٌ للمسلمينَ حريزٌ
 أنتَ للحقِّ ناصرٌ ومعينٌ
 أنتَ مَنْ أَمَّ بابَ عدلكَ يحظى
 كيفَ ترضى أن اليزيديّ يأتي
 سوفَ تأتيه غيرةٌ منك حتى
 فأغث عشرةَ النبيّ وبادز
 وأرخهم من اليزيديّ واجعل
 وارحمِ الناسَ إنهم قد أذيقوا

منكُرُ الشانِ يدهشُ الأبصارا
 ورفضنا المبيتَ والإعتمارا
 فركبنا من خوفه الأخطارا
 ج وخلصوا مبيتها والجَمَارا
 يالْفُوءَ وأخَصِرُوا إحصارا
 وأمور تحيّرُ الأفكارا
 والأرقاءُ أصبَحَتْ أحرارا
 وجهها بعد كان فيه استتارا
 أثرت في القلوبِ منا انكسارا
 لا ترتضى بأرضِ النصارى
 وبحارِ الدُما غدت ثيَّارا
 واقشعرت جلودنا اقشعرارا
 قاتلَ الله مَنْ عَنِ الحقِّ جارا
 مِنْ يدِ المصطفى تربه الصَّغَارا
 أذهبَ الخوفَ عقلنا والوَقَارا
 فِي سَكَارَى وما هُم بسَكَارَى
 لِ الأقاليمِ بَرَّها والبَحَارا
 قد تعدّوا واستكبروا استكبارا
 وملأذ لمن يخافُ ضَرَارا
 لك سيفٌ قد دَمَّرَ الأغيارا
 بمناه وبلغُ الأوطارا
 حَرَمَ الله مفسدا كَفَّارا
 يتمنى أن لم يُبْزَ ما أثارا
 وزد الظالمينَ منك خَسَارا
 داره بالخرابِ أَرَضَا دَمَارا
 مِنْ أذاه ما لم تذقه الأسارى

وَلَكَ الْأَمْرُ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ فَهُوَ وَاللَّهُ يَسْتَحِقُّ النَّارَ
قَسَمًا بِالْحَطِيمِ وَالرَّكَنِ وَالْبَيْتِ الَّذِي رُبُّهُ يَقِيلُ الْعِثَارَ
وَبِآلِ النَّبِيِّ وَالصَّحْبِ وَالْأَحَدِ زَابِ طُرًّا وَالسَّادَةِ الْأَخْيَارَ
قَدْ خَبَأْنَا لَهُ سَهَامَ اللَّيَالِي وَشَدَدْنَا الْقَيْسِيَّ وَالْأَوْتَارَ
وَاسْتَعْنَا بِأَعْظَمِ النَّاسِ جَاهًا وَاتَّخَذْنَا ضَرِيحَهُ مُسْتَجَارًا
يَا نَبِيَّ الْهَدَى أَغْنِنَا سَرِيعًا قَدْ أَضَرَّ الْعَدَا بِنَا إِضْرَارًا
نَحْنُ قَوْمٌ بِكَ اسْتَجْرْنَا فَنِلْنَا بِمَعَالِيكَ رَحْمَةً وَجَوَارًا
شَاخَ فِي سَائِرِ الْجِهَاتِ الَّذِي قَدْ كَانَ فِينَا وَطَبَّقَ الْأَقْطَارَ

وكان الشريف أبو نَمَى جم الفضائل، حسن السمائل، محمود السيرة، طاهر السريرة، قطب زمانه بلا خلاف، عادل وقته فلا سبيل في زمنه إلى الاعتساف. له الشر الرفيع الفائق، والنظم البديع الرائق، وصفاته جامعة شتات كل فضيلة، وخصاله محمودة جميلة.

ومن صفاته الحميدة المتوارثة له عن آبائه الكرام، رعاية ذوى البيوت القديمة، وإعراضه عن الأفاقين؛ فإن ذوى البيوت كانوا عنده فى أوج الإعزاز والإكرام، يظهر مناقبهم، ويستر مثالبهم، وكان يخصصهم من بين الأنام بالتحية والقيام، ولا يفرح غيرهم بقيامه لو أنه شيخ الإسلام فلهذا كانت الأمور مضبوطة، والأحوال بوجوه الصواب منوطة.

فطالما التمس منه أعيان دولته القيام لجماعة لا يكونون من ذوى البيوت بعد أن صاروا من أهل الإفتاء، فلم يجب التماسهم، ولم يضبط عليه ذلك لئلا يكون الناس على حد سواء.

فما أجدره بقول القائل: [من البسيط]

لِللَّهِ دُرٌّ أَنْوَ شُرَوَانٍ مِنْ مَلِكٍ مَا كَانَ أَعْرَفُهُ بِالْعَالِ وَالسَّفْلِ
وَلَمْ يَفْتَهُ أَنْ جَبَرَ الْخَوَاطِرَ مَطْلُوبٍ، بَلْ هُوَ عَارِفٌ بِمَا هُوَ أَدَقُّ مِنْ ذَلِكَ مِمَّا تَكْتَنُ
الْقُلُوبُ، غَيْرَ أَنَّهُ عَلِمَ مَا يَثُولُ إِلَيْهِ ذَلِكَ مِنَ الْفُسَادِ، وَتَجَرَّؤُ الْأُنْدَالِ بِمَسَاوَاتِهِمْ لِأَكَابِرِ
الْبِلَادِ، وَتَرْتَبَ حَصُولُ الْجَوْرِ فِي الْعِبَادِ. فَقَدْ قِيلَ: [من الوافر]
وَتَجْتَنِبُ الْأَسْوَدُ وَرُودَ مَاءٍ إِذَا كَانَ الْكَلَابُ يَلْغَنُ فِيهِ

فهذا من سياسته التى يحفظ بها الملك ويدوم .
 فقد قال تعالى تلك الرسل : ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] الآية .
 وقال عليه الصلاة والسلام « أمرت أن أنزل الناس منازلهم » ^(١) . والحكمة فيما
 كان يصنعه الشريف - تبعاً لأسلافه - أن ذوى البيوت قد عرفت مودتهم وإخلاصهم
 من عروق أسلافهم الأقدمين الثابتى الأساس ، وانطباعهم على صدق المحبة والوداد
 فإن العرق دساس ، فكانوا جديرين بهذه المزية ، ولو لم يكن فيهم شيء من
 الفضائل ، إلا ما ألف منهم ، وعرف عنهم من السمائل .
 وأما غيرهم لو أنه أعلم أهل زمانه فلم توجد فيه هذه المزية ، وربما يكون
 إكرامهم سبباً لحصول الأذية .

قلت : هذا قول أحمد الفضل ناقلًا له عن الإمام عبد القادر الطبرى .
 وهو كما ترى قول جائر فى القضية ، صادر عن روية بزال الحق غير روية ،
 وطوية على الحقد والحسد مطوية . وحاش لله أن تكون صفة مولانا الشريف ذلك ،
 وعادته تلك مع أولئك ؛ إذ كيف يسوغ لمولانا إلغاء صفة العلم ممن اتصف بها من
 الأفاضل الأعلام فلا يعظمه بسببها كما قال هذا الشخص ، ولو أنه شيخ الإسلام .
 ولا يعتبر إلا ذلك الود بفرض وجود المستور فى حبات القلوب ، وإنما يعلم
 ذلك علام الغيوب ، حماه الله من ذلك ، مع علمه - رحمه الله - بأن المرء بأصغريه
 قلبه ولسانه ، فهو تحت طى لسانه ، لا تحت طيلسانه .
 وأغرب من هذا كله قوله : ولو لم يكن فيهم شيء من الفضائل .

فما أحقه بقول القائل : [من الطويل]

إذا كان لا عِلْمَ لَدَيْكَ تَفِيدُنَا ولا أَنتَ ذا دِينٍ فَنَرْجُوكَ لِلدِّينِ
 ولا أَنتَ مِمَّنْ يُزْتَجَى لِكْرِهَةٍ جعلنا مثلاً مثلاً مِثْلَ شَخِصِكَ مِنْ طِينِ
 فإذا لم يكن الشخص فيه فضيلة ذاتية ، والود لا يعلمه إلا عالم الخفية .
 لم يبق سبب للإجلال والإكرام والتحية والقيام ، إلا كبر العمام وطول الأكمام ،
 والاعتماد على رفات العظام ، من الآباء والأعمام ، ولا ينهض ذلك عند رعا

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٤٢) من حديث ميمون بن أبى شبيب عن عائشة مرفوعاً : « أنزلوا الناس منازلهم » وفيه قصة . قال أبو داود : ميمون لم يدرك عائشة .

العوام، فضلا عن هو لسادات الأنام إمام، أبى نعى الهمام.

فالحق إعطاء العلم واجبه لكل إنسان، كائنا من كان.

ثم إن كان مع فضيلة ذاته له فضيلة سلسلة علم وبيتوته، تكمل تاج مجده درر الفخر وياقوته.

ثم أنت ترى قبح ما أورده، وتمثل به فى مراده، ووخامة شاهده فى استشهاده، وتشبيهه نفسه وأمثاله بالأسود، وغيره بالكلاب، وسيد الجميع بالماء المورد.

فأين الذكاء والفهم؟ لا قوة إلا بالله!

وفى سنة ثلاث وستين: كان ابتداء حادث المحمل اليماني، والمحدث له الوزير مصطفى باشا النشار المستولى على اليمن من جهة السلطان سليمان خان، وكانت ولايته له سنة اثنتين وستين، فوصل إلى مكة أميراً على المحمل المصرى فحج ثم رجع بالمحمل والحجاج، الأمير مراد بك، ثم توجه مصطفى إلى الديار اليمنية، فأحدث اليماني وجعله كالمحمليين، ومعه خلعة من جانب السلطنة الشريفة، فبرز مولانا الشريف لملاقاة الخلعة إلى بركة الماجن، ثم وصل هو والأمير والمحمل إلى أن حاذى الشريف داره، فدخلها وتوجه الأمير ونزل عند سفح الجبل الذى على يمين الداخل إلى مكة من ثنية الحجون، ولم يزل كذلك إلى أن بطلت الخلعة والمحمل من سنة تسع وأربعين وألف، وذلك مسبب عن وقوع الفتن القوية، واشتغال الدولة العثمانية بقتال أعداء الله وإعلاء كلمته العلية، ولا بد لليمن من عطفة، ليس فيها تؤدة ولا رافة.

وفى سنة ٩٨٥ خمس وثمانين وتسعمائة كانت وفاة السيد الأكرم السيد بركات بن أبى نعى، جد ذوى بركات الأقرب.

قال العلامة الفهامة الشيخ على الشهير بالجم: دخلت على والده مولانا الشريف أبى نعى معزيا له فيه، فانهلت عبرته، فأخذها بمنديل كان فى يده، فأنشدته ارتجالاً بيتين يتضمنان تاريخ وفاته فقلت: [من الكامل]

يأيها الملك العزيز وَمَنْ رَقَى هَامَ الْعَلَا رَفَعَ الْمُهَيْمُنُ شَانَهُ

لَا تَبْلُكَ مَرْحُومًا أَتَى تَارِيخُهُ بَرَكَاتُ أَنْزَلَهُ اللَّطِيفُ جَنَانَهُ

فسر بذلك وسررى عنه بعض ما كان.

وفى سنة ٩٩٠ تسعين وتسعمائة ضحوة يوم الأحد تاسع صفر منها كانت وفاة مولانا السيد الشريف قاضى قضاة الإسلام وناظر النظار ببلد الله الحرام، مولانا القاضى الحسين بن أحمد المالكى بالطائف فى القرية المسماة بالسلامة، ووصف بالشهيد لذلك، وعد من ألقابه التى وصف بها على زمزم.

ولما بلغ موته ضده مرزا شلى قال: سبحان الله، عاش هذه المدة فى مكة ثم لم يمت إلا خارجها؟ وأرخ ذلك بقوله « حل عام الخير » .

نعوذ بالله من الحسد وأهله، ووافق تاريخ وفاته فى تاسع صفر من السنة المذكورة لفظ « تسع فى صفر » .

وفىها أيضًا كانت وفاة العلامة الشيخ قطب الدين النهروالى مفتى السادة الحنفية يوم السبت السادس والعشرين من شهر ربيع الثانى منها وقت أذان حزورة عند الفجر الثانى، فأرخ بعض الفضلاء ذلك بقوله « قد مات قطب الدين أجل علماء مكة » قلت: قد حسبه فوجدته يزيد على سنة الوفاة واحدا، ومثل ذا يغتفر عند المؤرخين على خلاف الراجح منه عدم الاغتفار مطلقًا، فيصير التاريخ هكذا قد مات قطب الدين جل علماء مكة، ولا شك أن المعنى الأول يزول حيثئذ ويتحول.

وما زال مولانا الشريف أبو ندى منعم البال، ممتعًا بالأولاد والآل، مجتمع الشمل فى سائر الأحوال، مكفى الأمور، دائم السرور، بقيام ولده الشريف حسن بأعباء الملك والخلافة، مظهرًا فى الرعايا عدله وإنصافه، سالمة ممالكه من المخافة، إلى أن دعاه داعى الحق فلباه، وانتقل من هذه الدار إلى دار كرامة مولاه، ليلة تاسوعا افتتاح سنة ٩٩٢ اثنتين وتسعين وتسعمائة بالقرب من وادى البيار من جهة اليمن، فحمل إلى مكة، وجهاز وصلى عليه بعد صلاة العصر فى المسجد الحرام عند باب الكعبة - الأفندى مرزا مخدوم، ودفن بالمعلاة، وبنى عليه قبة موجودة، عليها أوقاف محدودة، وتخلف ولده الشريف حسن لحفظ البلاد، وقطعًا لدواعى الفساد، وجعلت له ربعة بالمسجد الحرام وبالتربة، حضرها الشريف حسن وإخوته وجميع الأشراف والأعيان من أهل مكة والعربان - قدس الله روحه؛ ونور ضريحه.

وعمر الشريف أبى ندى ثمانون سنة وشهر واحد ويوم واحد، ومدة ولايته مشاركا لأبيه ولولديه الشريف أحمد والشريف حسن، ومستقلًا نحو ثلاث وسبعين سنة.

وكان رحمه الله صاحب خيرات متواترة، ومبرات كثيرة متكاثرة.
أسس لأبنائه معالم الكرم، وحثهم على شريف المناقب والشيم.
نسج بينهم المودة على منوال الصفا، وحملهم على الصدق فيما بينهم والوفا.
وبنى بمكة رباطاً للفقراء الذكور ورباطاً للنساء الشرائف، وأوقف عليهم أوقافاً
إلى الآن جارية في صحائفه.

وكان له جملة من الأولاد، منهم: أحمد والحسن وثقبة وبركات وبشير وراجح
ومنصور وسرور وناصر وصالحة وشمسية وغنية وصلبية وموزة وراية وغيرهم.
قلت: ورأيت نتفة لبعض شعراء ذلك الزمان ولم ينسبها الكاتب إلى شخص
بعينه، وهى فى الشريف أبى نعى أحببت ذكرها هى: [من السريع]

يا فارسَ الخيلِ قَهَزْتَ العدا أَلْتَرُكُ وَالْعُرْبَانَ وَالتُّرْكُمَانَ
مولاك أعطاك خِصَالاً بها أصبحت فى الناسِ فريدَ الزمانِ
فأنتَ فى حلمٍ بعيدِ المدى قَرِيبَ إِحْسَانٍ وَحُلُوِّ اللِّسَانِ
فلا تَخَفْ مِنْ بَعْدِ ذَا كَرِبَةٍ فما قضاه اللهُ بالأمرِ كانَ
فاللهُ يَبْقِيكَ لَنَا آمِنًا كما أذقتَ الناسَ طَعْمَ الأمانِ

قلت: قد أبان هذا الشاعر عن فضاخة اللسان لا فصاحته، وضيق البيان لا
فساحته، إلا أنه يدخل عن الاعتراض فى أمان بيت الأمان، فلعل أن يمحوا الإساءة
الإحسان، فسبحان خالق الإنسان.

وقال الشيخ عبد العزيز بن محمد الزمزمى معارضاً قصيدة ابن خطيب داريا التى
مطلعها: [من السريع]

قُمْ عَاطِنِي الصَّهْبَاءَ يَا مُؤْنِسِي

وكان هذا الإعراض بإلزام له من مولانا الشريف أبى نعى، فقال يمدحه ويهنيه
بعرس ابنه الشريف أحمد بن أبى نعى: [من السريع]

لِيَخْتَسِرَ الصَّهْبَاءُ مِنْ يَحْتَسِي حَسْبِي لَمَى مَرَشِفِكَ الْأَلْفَسِ
حَلْ فَأَطْلُقْ مِنْهُ كَأْسِي وَلَا تَوْحُشْ بِحَبْسِ الْكَأْسِ يَا مُؤْنِسِي
مِنْ طَرَفِكَ الْوَسْتَانِ وَالْخَدُّ مَا يَهْزَأُ بِالْوَرْدِ وَبِالنَّرْجِسِ
وَجْهُكَ لِي رَوْضٌ جَدِيدٌ إِذَا أَخْلَقْتَ الْأَرْضُ الْقَبَا السَّنْدِسِي

رنحت قَدْأ قال للغضنِ مِنْ
 عَرَّذْ لَنَا واشدُّ فها أَنْتَ مِنْ
 أَنْتَ سميرى ونديمى فلي
 ضوءكَ فى جنحِ الدجى ساطعُ
 فيكَ جميعُ البسطِ يا فاتني
 لقد صفا العيشُ بسفحِ الصفا
 فعاطننى من فيكَ مسكيةً
 وأجلُّ صدا نفسى بأنفاسِهَا
 لها حبابٌ من ثناياك قَدْ
 طاهرة طُبت وطابت فلم
 تلك سَلافى لَسْتُ مِنْ غيرها
 ما لى وللخمرِ وشرابِهَا
 مِنْ كُلِّ سفسافٍ إذا سَفَّهَا
 قد نجسوا منها فلم يفكروا
 أخبارُهَا قد دُرِسَتْ بينهم
 حديثُهُمْ فُحْشٌ وجهلٌ فلا
 لَهُ أوقاتٌ تقضتْ لَنَا
 ونحنُ فى مجلسِ أنسٍ به
 سلطانُ أقطارِ الحجازِ الذي
 مولى له ذوقٌ وفهمٌ ففي
 للفضلِ سوقٌ عنده نافقٌ
 لَهُ أخلاقٌ له سمحةٌ
 أَيَأَسْنِي دَهْرِي فلَمَّا رنا
 ينسى الذى يوليكَ مِنْ فضله
 أعداؤُهُ دَنَسَهُمْ لؤمُهُمْ
 إن عدَّتِ الفرسانُ فَهوَ الذى

عَظْفِي استعِزْ لِيْنَا ومثلَى مِسِ
 شعركَ كالشُّخْرُورِ فى بُرْنَسِ
 فاكهةً مِنْ لفظِكَ الأكيسِ
 فذكرُ ضوءِ الشمعِ معه نُسي
 بسط إذا خلتك فى المجلسِ
 وأحسنَ الصنعَ الزمانُ المِسي
 ينفخُ منها الطيبُ فى المعطسِ
 فإنها تجلُّو صدا الأنفُسِ
 حكتهُ شهبُ الفُلكِ الأطلَسِ
 يحرمُ تعاطيها ولم تنجسِ
 أرتشفُ الراحَ ولا أحتَسِي
 إياكَ يا نفسَ بهم تَأْتِسي
 يَبْذَى وَيَهْذَى ثم لا يَنْبِسِ
 فى نَجَسِ الماءِ ولم ينجسِ
 فى كُتُبٍ يا لَيْتَ لم تُدرَسِ
 تسمعُ لا أَقْتِ ولا أدرِسِ
 مغ كلَّ شهمٍ فكِه كَيْسِ
 أبو نميَّ صاحبِ المجلسِ
 بغيره الأقطارُ لم تحرسِ
 مجلسِهِ الآدابُ لم تبخسِ
 لكلِّ مثرٍ منه لم يفلَسِ
 تقولُ للضيفِ اذُنْ واستأنِسِ
 إليه قَالَ ازْجُ ولا تَيَأَسِ
 لكنْ ثناه شائعٌ ما نُسي
 وعرضُهُ الأبيضُ لم يدنسِ
 يدعى غداةَ الروعِ بالأفرسِ

هو المليكُ الممتطى صهوةً
تدبيرُهُ الملكُ له ديدنٌ
كُلُّ عزيزٍ ذلٌّ من بأسِهِ
سلِ النصارى عند ما قاربوا
ماذا الذى نكسَ أعلامهم
ثم انثنوا للهندِ والرغبِ في
نُصِرتَ بالرعبِ عليهم ولم
فاستبعدوا الأقربَ واستقربوا الـ
أتوكَ كالبحرِ فصاروا لدى
أتاهُمُ أنكَ فى قسوةٍ
أعددتَ جيشًا لو بهم بحره
وكلُّ طرفٍ سابقٍ سابح
يفترسُ الأسد على ظهرِهِ
هُم كأسود الغابِ لكثُها
من حسنٍ ينمو إلى سيِّدٍ
نجومُهُم دارث على أبلجٍ
مِنْ دوحَةٍ ثابتةٍ غضةٍ
تنمى إلى السبطينِ مِنْ فاطمٍ
يا ملكًا لو قابلَ السُّغد من
إن يبسَ الدهرُ على أهلهِ
محسنُهُم تحسن فى حقِّه
كنتَ لنا نجم حمى أفقنا
يا لَكُما مِنْ ملكني كورةٍ
يا لكما من فارسني غارةٍ
يا لكما من قائدني عسكري
شمسًا وبدرا ينفعان الورى

من المعالى قَطُ لم تمسِ
فلم يَنَم عنه ولم ينعسِ
وهاه الرومى والشركسى
جدة عن جدهم الأتعسِ
عنها نَعَم لولاه لم تنكسِ
قلوبهم سَارَ إلى قبرسِ
لا بأبيكَ المصطفى تأنسى
أبعدَ من طورهمُ الأقدسِ
بحركَ كالحسوة للمحتسى
من العوالى والظبا والقيسى
أحاطَ لم يَنجُوا من المغطسِ
فى لجِ بحرِ النقع لم يغطسِ
من الأعادى كلَّ مستفرسِ
دونهُم فى شرسِ الأنفسِ
لهم هَزَبٌ فى الوغى أحمسي
كبدِ تَم بالسنا مكتسى
والأصلُ منها طيبُ المغرسِ
أكرمَ به من نسبِ أقعسِ
غرته كيوان لم ينحسِ
أَمُوا فِناءً منك لم ييبسِ
وإن أساءوا لَسَتْ ممن يُسي
شهابُهُ من مارِدِ أشرسِ
قد كسيهاها أَفخَرَ الملبسِ
من خسياه فى مغارِ خُسي
حديدهُ مِنْ نَقعه مكتسى
نورهما يجلو دُجى الحندسِ

أبو نَمِيٍّ وابْنُهُ أَحْمَدُ
 رُفِّتْ لَهُ غِيْدَاءُ خَرَعُوْبَةٌ
 لِيَهْنِيْهِ هَذَا الزَّوْاجُ الَّذِي
 لَا زَالٍ فِي عَيْشٍ لَذِيذٍ بِهَا
 فَاحْفَظْ عَلَيْنَا الْأَضْلَّ وَالْفَرْعَ يَا
 يَا مَنْ بِهِ الشَّغَرُ سَمَا ذُرْوَةٌ
 هَاكَ قَرِيضًا أَنْتَ أَدْرَى بِمَا
 أَمَرْتَنِي أَنْظِمُ شَعْرًا عَلَى
 فَقَمْتُ مَرْتَاخًا إِلَى نَظْمِهِ
 فَحَبِّ هَذَا الْأَحْسَنَ الْوَقْعَ مِنْ
 أَوْ لَا فَعُدْرِي أَنْنِي عَاجِزُ
 أَنْمِرَ مِنْ مَدْحِكَ حَتَّى غَدَا
 أَيُّ فَصِيحٍ فِيكَ يَرْجُو الْقَضَا
 فَعِشْ لَنَا دَهْرًا وَدُمَّ لِلْعَلَا
 مَا دُمْتُ لِلْإِقْبَالِ رَأْسًا وَمَا

وقال الشيخ عبد الرحمن باكثير: وقد اقترح عليه مولانا الشريف أبو نَمِيٍّ معارضة

قصيدة الطيبي الخمرية التي مطلعها: [من الخفيف]

بَرَزْتُ فِي الْكَئُوسِ كَالْإِبْرِيزِ

فعارضها على البحر والقافية والمعنى واستخلص في مدحه فقال، وذلك سنة

٩٤٩ تسع وأربعين وتسعمائة: [من الخفيف]

خَطَرْتُ فِي مَثْقَفٍ مَهْزُورٍ
 وَرَنْتُ فَاَنْتَضَتْ حَسَامًا تَحْلَى
 سِخْرُ هَارُوتِهِ يَخِيلُ مَاءً
 وَبِتَخْيِيلِهِ تَبَلَّهَ قَلْبِي
 وَدَمَوْعِي تَسْلَسَلَتْ فَشَفَائِي
 أَوْ بِصَهْبَاءٍ رِيْقَهَا حِينَ تَجْلَى
 كَمْ بِهِ مِنْ مَتِيْمٍ مَوْكُوزٍ
 جَفَنَهُ مِنْ حَلَاوَةِ التَّلْوِيزِ
 وَلَهِيْبًا فِي خَدَّهَا الْإِبْرِيزِ
 فِي هَوَاهُ وَجُنَّ عَقْلِي الْغَرِيزِ
 بِاللِّقَا لَا بَطْلَسَمٍ وَحُرُوزِ
 لِلْنَدَامَى بِشْغَرِهَا لَا بَكُوزِ

نَابِتٍ فِي وَشَاحِهَا الْفَيْرُوزِي
 لَمْ تَشْبُهُ مَرَارَةَ التَّمْزِيْرِ
 مِنْ حِشَا مَهْجَتِي لَطَى تَمْوِزِ
 كَاسَ غَنْجٍ مِنْ خَمْرَةِ التَّغْمِيْرِ
 لَوْصَالِي بِخَافِيَاتِ الرَّمُوزِ
 وَشَفَاءَ لِقَلْبِي الْمُوخُوزِ
 وَاللِّيَالِي وَمَوْجِبِ التَّجْوِيْرِ
 فِئَةِ الْبَسْطِ فِي يَدَيَّ وَحُوزِي
 شَابَ وَالْدَهْرُ مَرَّ قِيزًا بِقِيْرِ
 بَاحْتِسَاهَا أَمْرَ الْمَبِيحِ الْمَجِيْرِ
 لِاقْتِنَاصِ اللَّذَاتِ وَقَتِ النَّهْوزِ
 لِي وَعَدَ السَّرُورِ بِالتَّنْجِيْرِ
 فِي فَوَادِي وَبَرْجِهَا قَطْرَمِيْزِي
 جِسْمَ نَوْرِ لَظَاهِ طَبِ أَزْيِيْزِي
 لَيْلَةَ الْمَهْرَجَانِ وَالنِّيْرُوزِ
 ظَفَرَتْ مِنْهُ رَاحَتِي بِالْكُنُوزِ
 مِنْ نَضَارِ أَكْتَالِهِ بِالْقَفِيْزِ
 مِنْذَ هَمَّتْ مِنْ كَاسِهَا بِالْبُرُوزِ
 بِسَرَاكِ مِنْهَا عَلَى تَمِيْزِي
 مِنْ صَدَا الْقَلْبِ هَمٌّ بِالتَّبْرِيْزِ
 خَرَقَتْ أَفَقَ أَدَمِهِ الْمَخْرُوزِ
 تَتَهَادَى فِي حُلَّةِ هَرْمُوزِ
 مِنْ لَالِي حَبَابِهَا فِي حُرُوزِ
 كَضِيَاءِ النَّهَارِ مِنْ غَيْرِ مِيْزِ
 مِنْ حَشَائِ نَبَاتِ أَرْضِ جُرُوزِ
 صَدَحَ الدِّيكُ فَهُوَ فِي تَوْزِيْزِ

أَوْ بَظْلَمٍ يَسْقَى زَهْوَرِ أَقَاحِ
 أَوْ بِشْهَدٍ مِنَ الشَّفَافِ حِلَاحِ
 أَوْ بِرِيْقٍ مِنَ الثَّنِيَةِ يُطْفِي
 أَوْ بِإِحْدَاقِهَا إِذَا مَا أَدَارَتْ
 أَوْ بِسَاجِي لِحَاطِهَا حِينَ تُومِي
 أَوْ بِرَاحٍ فِيهَا ارْتِيَاحٌ لِرُوحِي
 أَوْ لَوْ سَاعَدَ الشَّبَابُ عَلَيْهَا
 كُنْتُ دَهْقَانَهَا الْخَبِيرَ وَكَانَتْ
 غَيْرَ أَنَّ الْجَوَازَ عَزَّ وَرَأْسِي
 فَتَحَامَيْتُهَا وَإِنْ كَانَ أَمْرِي
 خَمْرَةً مَدَّتِ الْحَبَابُ شِبَاكَهَا
 هَاتَهَا لِي تَنْفَى الْهَمُومَ وَتُوفِي
 هَاتَهَا لِي شَمْسًا مَغِيْبَ سِنَاهَا
 هَاتَهَا لِي رُوحًا مِنَ النَّارِ حَلَّتْ
 هَاتَهَا تَعَبْدُ الْمَجُوسُ لَظَاهَا
 هَاتَهَا ذُؤَبَ عَسْجِدٍ فِي لُجَيْنِ
 هَاتَهَا قَدْ غَنِيْتُ مَذْ صَارَ خَمْرِي
 هَاتَهَا لِي قَدْ ضَاعَ تَمِيْزُ عَقْلِي
 هَاتَهَا لِي أَدُورُ فِي لَيْلِ سُكْرِي
 هَاتَهَا فَالْتِهَابُهَا بِنْدَ جَيْشِ
 هَاتَهَا لِي فَلَوْ بَدَتْ جَنَحَ لَيْلِ
 هَاتَهَا لِي صَفْرَاءَ فِي جَامِ تَبْرِ
 هَاتَهَا لِي عُرُوسَ دَنْ تَجَلَّتْ
 هَاتَهَا لِي كَالشَّمْسِ تَجْلِي بِكَاسِ
 هَاتَهَا لِي تَرُوي عِظَامِي وَتَسْقِي
 هَاتَهَا لِي مِنْ لَامٍ فِيهَا إِذَا مَا

هاتها لى فالعيشُ عصرُ شرابٍ
 هاتها لى فالعمر من غيرِ راحٍ
 هاتها لى فلثُم دَر حبابٍ
 هاتها لى صرفًا ومزجًا بظلمٍ
 هاتها لى فليسَ بينَ نداماً
 هاتها لى فلاننى بينَ بدرٍ
 هاتها لى فإنَّ عندى هلالاً
 هاتها لى فمجلسى فيه رُماً
 هاتها كم لَدَى من حُقْ نهْدٍ
 هاتها لى ولو كبرثُ وأحثتُ
 هاتها لى ولو هَرمتُ وأوهى
 هاتها لى ولو وهتُ قوةَ الشَّرِ
 هاتها لى ولو تداننى جِمَامى
 هاتها لى فمخلصى مِنْ خطاها
 ذى المعالى أبى نُمىّ تعالى
 ملكٌ فاق ملكهُ ملكُ سابو
 ملكٌ لا يزالُ كفُّ الثريا
 ملكٌ قد أبانَ للمجدِ معنَى
 ملكٌ قالتِ السما لِعَلاه
 ملكٌ قال دهره لليالِى
 هو تاجٌ لمفرقى وطرازُ
 نبويّ الأنوارِ نورُ مُحَيّا
 نشرَتْ فوقه النبوةُ بنداً
 لا يسامى ولا يُطاولُ علاه
 هو يبدو فى خلعةِ الملكِ سامٍ
 فخرُ كلِّ الملوكِ منه وكلِ

أو شباب يفنى بشمطا عجوزٍ
 أو رداح يمرُّ بالتجليزِ
 أو حبيب يغنى عن التعويضِ
 بين دُرِّ وسط اللمى مغرورِ
 ي وُحورِ الجنانِ من تمييزِ
 وكثيبٍ وأسمَرٍ مهزورِ
 فوق غضنٍ على نقا مغرورِ
 نُ نهودِ حَلَوْنَ من تمزيرِ
 تحتَ مسمارِ عنبرٍ ملزورِ
 قوسَ ظهري شيخوخةَ التعكيرِ
 حمل كاسى يديّ من تعجيزِ
 بٍ فحسبى مِنْ كاسها تمزيرِ
 وتداعى صحبى إلى تجهيزِ
 فى معادى مدح الملكِ العزيزِ
 عن بسيطٍ من الشنا ووجيزِ
 رَ وكسرى وقيصرٍ وابرويزِ
 من معاليه آخذًا بالغرورِ
 كان لولا علاه كالملغورِ
 قد خفضتى فى قفى أو فجوزي
 ذا ملكٍ بمثلِهِ لَنَ تفوزي
 منه عِطفى قد زينَ بالتطريزِ
 هُ يزيحُ الظلامَ من تبريزِ
 خافقًا بالتكريم والتعزيرِ
 غَيْرُ قدمٍ بغِيه منبوزِ
 والمسامى فى بِذَلَةِ الملموزِ
 خصَّ منه بمفخرٍ مفروزِ

يهيّر العقل فهو في التّخَبِ بدرّ
صار فولادُهُ أخفّ وأحلى
ترجفُ البيضُ منه والدهرُ يمسي
مستجيرًا به وإنّ رام فعلاً
بالتجاربِ والظبا والعطايا
تضحكُ البيضُ حين تنظر قوسي
وإذا ما استهلّ تبكى من الما
في العطا والسطا وفي العذل والفض
ولدى حلمه وآرا نُهاه
ملاً الأرض عدلُهُ فالرعايا
هم من العدلِ في محلّ حصين
أمنوا في زمانه الظلم حتى
فاطميّ يرد صرّف الليالي
ويقلّ الخميس والأسد فيه
أرعى السمر بالدما فلهذا
للطلا والكلّا انتشار ونظم
من سطا الدهر فهو أوفى مجير
من يقسه بالسحب يخطى ويغدو
هى تعطى ماءً وتبكي وهذا
خدمته العلياء طوعاً وظلّت
كيف يوفى الثناء فيه قريض
والكتاب العزيز أثنى عليه
وله المصطفى دعا بدعاء
فعلى الخلق سعه لو تجزا
يا مليكاً قد جلّ ذاتا وقدراً
في مرضيك قد سعى الدهر طوعاً

وهو ليثٌ فى لاذِه المدروزِ
فوقه من موشيات الخروزِ
فزعا من سطاهُ فى تفيزِ
فى البرايا فمته كالمستجيرِ
منفذ الدهر والعدا والركيزِ
حاجبته بالغيط فى تكييزِ
ل عيون من عسجد مكنوزِ
ل وعمرى وما ابن عبد العزيزِ ؟
ما ابن قيس وما نهى فيروزِ ؟
لو تديم السرى إلى شهرورِ
ومن الأمن فى مكان حريزِ
أصبح الذيب راعياً للمعيرِ
عزمه لو بفيلق منه غوزي
كنجوم السماء أو رمل قوزِ
نحلت من نزيها بالنزيرِ
بظباه ولذنه المهزورِ
ولو قد الثناء أوفى مجيرِ
ساخراً بالسحاب فى تطنيزِ
فى ابتسام وجود بالإبريزِ
فى إباء لغيره ونشورِ
بعروض مقطع محزورِ
بثناء يعلو عن الأرجوزِ
أمنته أسكفة الإفريزِ
لم تجد غير مسعد معزورِ
عن صريح الثناء والمرموزِ
لك منه من غير ما تكيزِ

والتشاريفُ وُزَّهَهَا بالتهاني
وبتخليدِ ملكِكُ الفلكُ الدا
فَازَقَ فَرَقَ العليا وهاك قريضًا
واستحقَّ التصديرُ في المجد فاعجب
فعله في العقولِ فعلُ الحميَّا
من يفته سُكْرُ الطلا يلقَ فيه
ختمه المسك بالصلاة على مَنْ
ولمولانا الشريف أبى نَمى نفسه معارضًا قصيدة التلعفري التي مطلعها: [من
الكامل]

سَمَحَتْ بِإرسالِ الدموعِ محاجري
فقال طاب ثراه: [من الكامل]

نَامَ الخَلْيُ فَمَنْ لجفنى الساهرِ
جَفَّتِ المضاجعُ جانبِي كأنما
وتأجَّجَتْ نَارُ الغرامِ وأضرمتْ
وشجيتْ من ألمِ الفراقِ وخانني
أَفْ على الدنيا فما مِنْ معشرِ
فى كلِّ يومٍ للنوائبِ غارةٌ
خَلَّتِ المنازلُ من أَهْيَلٍ مودتي
أهلُ الصفا بين الصفا وطويلع
يا أهل ودى لو ترونى بعدكم
كانوا فبانوا ثُمَّ بان تجلدي
من بَعْدَ جيرانِ الصفا أهلِ الوفا

وقال العلامة باكثر أيضًا يمدحه، ويمدح أولاده الشريف حسن، والسيد ثقبه،
والسيد بركات، والسيد راجح، والسيد بشير - رحمهم الله أجمعين - : [من الخفيف]

أعيونَ رَنَوا بها أم صفاحُ؟ وقدودَ مأسوا بها أم رماحُ؟
وثغورَ تلالأت أم بروقُ؟ وثنايا تبسَّمت أم أقاحُ؟

وبدورٌ تضىءُ فى جنحِ ليلٍ
وعيونٌ جفونهن سيوفٌ
وظباءٌ حلُّوا الغضا وأشبوا
ومهاةٌ منهنَّ قد فوقت لي
غادةٌ عذبةٌ المراففِ لميا
لى بيردِ الرضابِ منها اغتباقٌ
صاح مالى ألا أبلّ أجاجا
طفلةٌ لحظها يتيحُ المنايا
مدنفات تكسو المحبَّ سقاما
فى ردينى قدما ولحاظنى
حكّت الغصنَ والمتيمُ منها
وهو فى حبها الأمينُ ولكن
وأبو طالبِ الوصالِ فؤادي
إن تفض مقلتي دما لا عجيبُ
عاذلى أقصر فلن يضرّك غيٌّ
لذّ فيها ذلّى فعندى سواءُ
إن تثنت تريك غصنا وحققا
ردفها قال للكثيبِ تأخر
مسنّات لنا اعتدالا وجورا
قد قست مهجةً ورقّت خدودا
يعتريها الحيا فتخجلُ لكن
يا لها من عقيلةٍ دون مرمى
طلبت زورتى اختفاء لئلا
كيف تُخفى زيارتى وهى شمسُ
من محيا أبى نمي أضاءت
ملكٌ جوهرُ الرسالة تاجُ

أم شعورٌ فيها وجوةٌ صباحُ؟
أم لحاظٌ أحداقها أقداحُ؟
نارُهُ فى جوانحي أم ملاحُ؟
سهم قوسٍ من حاجبٍ أم رداحُ؟
فى لماها شهدٌ مذابٌ وراحُ
ويظلم الشنيب منها اصطباحُ
من دموعى والثغرُ عذبٌ قراحُ
حينَ ترنو به عيونٌ وقاحُ
فاتكات فهنّ كسرى صحاحُ
مقلّتيها السيوفُ والأرماحُ
شابه الوزق شجوه والنواحُ
خانهُ فيه طرفها السفاحُ
قد كواه من هجرها الضخضاحُ
فحشاي لقد ملاه الجراحُ
كان منى ولم يفذك صلاحُ
فى هواها الإفسادُ والإصلاحُ
ومساءً من تحته الإصباحُ
لست وزنى فلى عليك الرجاحُ
عن قنا قدّها العوالى الصّحاحُ
كاد من لحظنا عليها انجراحُ
جفنها يعتريه منه انفتاحُ
خدرها كم غدت وما تستباحُ
يعتريها من الوشاة افتضاحُ
والليالى ضياؤها فضاحُ
فهو بذرٌ وكوكبٌ وصباحُ
لعلاه وللنفخارِ وشاحُ

قد تحلّى به وَزَانَ حُلَاهُ
 وَبَنَى فِي مَفَارِقِ الْمَلِكِ دَارًا
 حُلًّا فِيهَا مَرَاتِبًا مَا لِفَكْرِ
 خِدْمَتِهِ الْعُلِيَاءِ طَوْعًا وَأَمَسَتْ
 وَلَهُ هِمَّةٌ يَضِيقُ بِهَا الدُّدُ
 لِعَلَّاهَا تَعْنُو الدَّرَارِي وَلَكِنْ
 رَاحَتَاهُ لِلصَّيْدِ مِنْهَا ارْتِيَاعٌ
 إِنْ يَجِدُ فَالْمَهَامَةُ الْفَيْحُ بَحْرٌ
 حِينَ يَحْمِي الْوَطِيسَ وَالْبَيْضُ تَهْمِي
 وَسَعِيرُ الْوَعَى يَشُبُّ جَلَادًا
 وَأَسْوَدُ الشَّرَا يَطَافُ عَلَيْهِمْ
 وَوَجُوهُ الْكِمَاءِ وَالشُّوسُ فِيهِ
 يَرِدُ الْحَرْبُ وَهُوَ طَلَقَ الْمَحْيَا
 وَبَبِيدُ الْجِيُوشِ وَالْأَسَدُ فِيهِ
 وَإِذَا مَا وَهَى مِنَ الدَّهْرِ خَطْبٌ
 لَمْ يَزَلْ دَخْنُهُ وَيَجْلُوهُ إِلَّا
 مَا ذُووُ الشُّورِ فِيهِ إِلَّا ظَبَاهُ
 أَلْمَعِيُّ يَكَاذُ بِالْحَدْسِ يَدْرِي
 طَوُّقَ الْخَلْقِ بِالْعَطَا فَنَنَاهُ
 وَنَدَاهُ فِي الْخَافِقَيْنِ يَلْبِي
 آيَةٌ مُوسَوِيَّةٌ فِي يَدَيْهِ
 فَهِيَ طَوْرًا فِيهَا زَلَالٌ هَنَى
 ذَاتُ ظَهْرِ لِلْإِسْتِلَامِ وَبَطْنُ
 وَسَجَايَاهُ لِلزَّمَانِ طَرَازٌ
 عَلِمْتُهُمْ مَدِيحَهُ حِينَ ضَلَّتْ
 يَا مَلِيكًا عَلَتْ حَلَاهُ فَجَلَّتْ

إِتْرَازٌ بِفَخْرِهِ وَاتِّشَاحٌ
 طَابَ فِيهَا غَدْوُهُ وَالرَّوَاخُ
 لَتَمْنَى إِدْرَاكُهُنَّ طِمَاحٌ
 وَلَهَا عَنْ سَوَى عِلَافِهِ جِمَاحٌ
 رُوفِي صَدْرِهِ لَدَيْهَا انْفِسَاحٌ
 حَاسِدَاهَا الْعَوَاءُ وَالنَّطَاحُ
 مِثْلُ مَا لِلْعَفَاةِ مِنْهَا امْتِيَاخٌ
 أَوْ يَجْلُ فَالْشَّمَامُ بَيْدُ فِسَاحٌ
 بِالْمَنَايَا وَتَسْلُبُ الْأُرَواحُ
 لَزْنَادِ الْمَنُونِ مِنْهُ اقْتِدَاحٌ
 كَاسُ حَيْنِ مَزَاجُهَا الْأَتْرَاحُ
 قَدْ عَرَاهَا مِنَ النِّزَالِ كِلَاحُ
 ثَابِتُ الْجَاشِ بِأَسِمٍ مِفْرَاحُ
 زَمَرٌ دُونَ عَدَهْنِ الْبَطَاحُ
 أَوْ مِلْمٌ مِنْ صَرْفِهِ قَدْأَحُ
 رَأْيُهُ فَهُوَ ثَاقِبٌ قَدْأَحُ
 وَقَنَاهُ فَهُمْ لَهُ نَصَاحُ
 مَا بِهِ قَدْ جَرَى الْقَضَاءُ الْمَتَاحُ
 لَا لِسَانَ إِلَّا بِهِ صَدَّاحُ
 صَوْتُ مَنْ شَفَّهَ عَنَّا وَاجْتِيَاخُ
 لِلْمَعَالِي فِيهَا هُدًى وَاتِّضَاحُ
 وَهَى طَوْرًا فِيهَا سِمَامٌ صُرَاحُ
 فِيهِ لِلرِّزْقِ وَالْغَنَى مِفْتَاحُ
 نَضَّدَتُهُ بِدَرْهَا الْمَدَاحُ
 فِي عِلَافِهِ الْأَفْكَارُ وَالْأَمْدَاحُ
 عَنْ قَرِيضٍ فِيهِ ثَنَا وَامْتِدَاحُ

هم مصابيحُ أفقهِ حيثُ لاحوا
 غابة المُلْكِ إذ ألمَّ الكفاحُ
 أثخنوه فهُمُ لديك صفاحُ
 صائباتُ لَمَّا تطيشُ القداحُ
 جودوه فهم يقيئنا رماحُ
 بالهنا فيه عمّت الأفراحُ
 ولكل منها إليه ارتياحُ
 ودجى الظلم من سماها يزاحُ
 وإذا ما سخا ملاها السماحُ
 وهو فيها مليكها الجحججاجُ
 منه طببا فعرفها فَيَاحُ
 يستعيرُ المضاء منه السلاحُ
 ما لها غيرَ عزمه فتاحُ
 منه يفنيه عضبُه البضاحُ
 وملا الجحفلين منه الصباحُ
 ليس فيها إلا المنية راحُ
 جأشه معلما عراه انشراحُ
 أو صريع قد أثخنه الجراحُ
 ولكل من رعبه ذباحُ
 ورأوا أن قتلهم يستباحُ
 جيفة ما ترى لهم أشباحُ
 دمتا قد سفت عليها الرياحُ
 للذى منسر له أو جناحُ
 لمذاكيه كان فيها سباحُ
 وله الصفحُ شرعةً وصلاحُ
 وله الخيلُ والظبا واللقاحُ

أظهر الملك من بنيك ملوكُ
 بل تراهم ضراغما أبرزتهمُ
 فإذا ما انتضيتُم لضرابِ
 وإذا ما فوقتَهُم فسهامُ
 وإذا ما هزرتَهُم لطعانِ
 سيمًا من غزا وجاء بنضيرِ
 حسن من به الممالك تزهو
 فبه روضهُن يثمرُ عدلاً
 ملك إن غزا ملا الأرض جيشاً
 زاد تشريف مكة حين أمسى
 وكذا طيبة الشريفة زادتُ
 رُب عزم يصيرُ الماء جمراً
 فالقلاعُ المحصناتُ الرواسي
 بالخميس الذى تميزُ الأراضي
 فإذا العاديات هيَجَنَ نقعا
 وأدارت يد الهياج كئوساً
 فتراه ثبَت الجنان قوياً
 وترى القوم منه إما قتيلُ
 مذ أحست بغزوه القوم أبوا
 واستذلوا وأذعنوا وأطاعوا
 وأتوا خيفةً وإلا لكانوا
 ولأمسَت حصونهُم دارساتِ
 ولأضحوا قوتا لكل الضواري
 ولسألت منها الدماء بحوراً
 لكن العفو منه مذ كان طبعُ
 فعفا رافعا يد القتل عنهمُ

فهنيئًا له بنضِرٍ وفتح
 لم يزلْ مالِكًا له أَنْتَ ظَهَرُ
 ذو المعالي أبو شهاب المرجي
 ثقبَةُ الملك والندا مِنْ علاه
 لم يزلْ في معارجِ المَجْدِ يرقى
 روضَةَ المكرماتِ منه رباها
 رَأْسُ أَهْلِ العطا فكعبُ الأيادي
 أَقْسَمَ الجودُ أَنْ تبرَّ نداءه
 قد روى عنه نافعٌ ويسارُ
 ثَبَّتَهُمْ عند ما تُثِيرُ المذاكي
 والمنايا مِنْ الأسنَةِ ترنو
 يلجُ المعركَ المؤجَّج طعنًا
 ويبيدُ الجيوشَ منه بعضبٍ
 لم يضارغهُ في معاليه إلا
 بركاتُ إنسانٍ عَيْنِ المعالي
 قد تَفَيَّا روضِ معالٍ ومجدٍ
 كفه للعفاة بحرَ خضمٍ
 ضيغَمَ عندما المهندُ يغدو
 وصليلُ السيوفِ والسمرِ تشدو
 يتلقَى الهيجا بغرَّة وجهٍ
 ويخوضُ الوغَى فترضى المذاكي
 والهزيرانِ راجحٌ وبشيرُ
 فهما ضيغما نزالٍ ويَحْرَا
 من شذا المصطفى وريحائتيه
 فابَّقَ والملك بدره في علاكُم
 وهناء ثانٍ بصومِك مَع ما

ما له في الحروبِ عنه براخُ
 وله صنوه الكريمُ جناحُ
 مَنْ لدى جوده الغيوثُ شحاحُ
 لا يدانِي وماله مستباحُ
 ما لمجدٍ عن راحتيه براخُ
 مزهر وَهُوَ قبله صَوَّاحُ
 دونه ما عَلَيَّ في ذا جناحُ
 لم يزلْ وهو هاطلٌ سحاحُ
 وعطاءٌ وواصلٌ ورباحُ
 عثيرًا ممكنًا عليه المراحُ
 ولها ضيغَمُ الوغَى لَمَّاحُ
 من لظى الموتِ جمره لفاحُ
 فوق غريبه للنفوسِ انسياحُ
 غرَّة العترة الصميمُ الصراحُ
 مَنْ لقاءه للآملين نجاجُ
 وأظْلَلْتُهُ منهما أدواحُ
 ليس فيه وليسَ منه انتزاحُ
 وهو للسفكِ سائلٌ ملحاحُ
 في مغارٍ قد طال منه الصياحُ
 زاد منها وَقَتَ الهياجِ اتضاحُ
 عنه والمرهفاتُ والأرماحُ
 في محيَّاهما الهدى والفلاحُ
 كرم فيهما السطا والسماحُ
 طيبُ ربا ثناهما النفاحُ
 كامل النور ما أضاء الصباحُ
 كان فيه فَهُوَ الحلالُ المباحُ

فعلى أجزَلِ الأجورِ صيامَ وعلى أجملِ السرورِ نكاحَ
 ولعليك عَبدُ بابك يُنهي خبرًا ذكره لديكم يباحُ
 لرجائي على معاليك وعدُّ عند ذكراه مطمعى يرتاحُ
 لك فَهَمٌ وليس يطلبُ منى يا إياسَ الذكا له إيضاحُ
 فازقَ فزقَ العلا وهاكَ قريضًا سبكتُ تبره القوافى الفصاحُ
 فأعزّه طرفًا ليشرقَ منه لفظُ مبناه والمعاني الصحاحُ
 بشذا المسك من ذكيّ صلاتي طابَ منه خَتمٌ وطابَ افتتاحُ
 فأما الحسن بن أبى نعى بن بركات فكان خليفة الحرمين، شريف الطرفين، أمه
 الشريفة الحسينية، السيدة النسبية فاطمة بنت بساط.

حملت به أمه عام وفاة جده بركات بن محمد فى عام أحد وثلاثين وتسعمائة.
 قال الإمام عبد القادر الطبرى فى «نشأت السلافة»: «ولقد أخبرنى الشريف حسن
 رحمه الله تعالى شفاهاً أن والدته حضرت حنوط جده الشريف بركات وهى حامل به
 فأثر فيها عرف الكافور، وما زالت تلقى الدم حتى خشى على ما فى جوفها من
 الحمل، إلى أن كان شهر ربيع من عام اثنين وثلاثين وتسعمائة، أخذها ما يأخذ
 النساء من الطلق، فولدته بعد اليأس، وذهب بظهوره عن الناس كل بأس.
 فلا شك أنه كان محفوظًا بالعناية الصمدانية حيث سبق فى علم الله تعالى جعله
 خليفة فى الأرض، مالك الطول منها والعرض.

مصلحة منه للعباد عامة، ونعمة عظيمة تامة، ينشر على العالم لواء عدله، ويسبغ
 عليهم جلاب كرمه وفضله، ويحيى مآثر جده المصطفى، ويذكر بأفضيته ما اندرس
 من أخبار عدول الخلفاء، ويظهر سر حكيمته، وخفى قدرته، فى افتتاح هذا الدين
 الأقوم، بمحمد ﷺ، وختمه بأهل بيته المخصوصين من بين الناس، بتولى الله
 تعالى تطهيرهم من الأرجاس.

وما زال - رحمه الله تعالى - صاعدًا فى نيرى المعالى، صاعدًا قلوب أعدائه
 بالصعدات العوالى، لائحة عليه مخايل السعادة وهو فى مهوده، طالعة من أفق
 السيادة كواكب مجده وسعوده.

متلمحًا فيه خصال الغر الصيد، مترقبًا منه أن يكون فى البسالة صاد الصناديد.

فما برح وهو فى حجر والده مؤدياً له الحقوق، رافعاً أخمصه الشريفة على هام العيوق، باذلاً له الطاعة، ساعياً فى مرضاته بحسب الاستطاعة، ممثلاً ما يصدر من الأوامر المطاعة، إلى أن لبس أخوه أحمد خلعة الإيالة والإمارة.

فلبس سيدنا الخلعة الثانية لتكون على ولاية العهد بعد أخيه أمانة. فاستمر كذلك حتى توفى أخوه الشريف أحمد، فرفلت إليه الخلافة فى جلبابها الضافى، وأورده الملك الباذخ موارد منهلها الصافى، بسعى أبيه المرحوم الشريف أبى نمى فى عام ٩٦١ إحدى وستين وتسعمائة، فلبس الخلعة الأولى، فكان بها أولى.

فلم يزل مشاركاً لوالده أبى نمى فى الأمر يدعى له معه على رءوس المنابر، والتوقيعات السلطانية العثمانية إنما ترد باسمه، والتشاريف الخنكارية إنما تصل برسمه.

ولما كان يوم الخميس الثامن من جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وتسعمائة ورد الخبر إلى مكة المشرفة ب وفاة مولانا السلطان سليمان خان، وكان الواصل به سمندر جاشنكير السلطان سليم والده أرسل إلى بلاد اليمن لإعلام مراد باشا صاحب تعز والتهائم وإلى رضوان باشا صاحب صنعاء والجبال، وكان لليمن إذ ذاك باشتان. وهذا الانشقاق هو سبب العصيان والشقاق بأرض اليمن بعد أن كان لا يحكمها إلا باشا واحد من حين فتحها، ولكن كذا قدر.

فوصل سمندر المذكور، واجتمع بالأمير الدفتردار إبراهيم المأمور بعمارة عين عرفة، فأخبر بموت مولانا السلطان، فطلب إبراهيم الأمير قاسم بك نائب جدة، وأمين عمارة المدارس السلطانية السليمانية، واتفقا على الإرسال للقائد محمد بن عقبة حاكم مولانا الشريف حسن بمكة، ليخبروه بذلك، فأرسلوا إليه فوصل فأخبراه، فأرسل القائد من وقته مورقا إلى مولانا الشريف حسن، وكان بالخلصية، وأرسل الأغا محمد بن يونس باش الترك عسكر مولانا الشريف حسن مورقاً آخر، فوصل المورقان إلى الخلصية يوم الجمعة، فركب مولانا الشريف حسن، وتوجه إلى مكة، وكان الأمير إبراهيم والأمير قاسم أرسلوا مورقا إلى القاضي الحسين المالكي وكان بجدة، فركب ووصل إلى مكة يوم الجمعة، واتفقت الآراء أن يخطب

الخطيب باسم السلطان سليم ابن المرحوم السلطان سليمان خان، وكانت نوبة السيد أبى حامد النجارى، فأمره أن يذكر فى الخطبة هذه الألقاب:

« اللهم وجدد نصرة الإسلام والمسلمين، وشيد قوائم أركان الدين المتين، ببقاء من جددت به أمر الخلافة العظمى، وشرفت بمقدمه تخت السلطنة والملك الأسمى، واخترته خير خلف عن خير سلف، وعوضت به خير عوض عمن درج إلى رحمة الله تعالى وسلف، وآتيته ما لم تؤت كثيرًا من العالمين، ومكنته من سرير السلطنة والخلافة أعظم تمكين، وأورثته الخلافة الكبرى كابرًا عن كابر، وملكته الإمامة العظمى والسلطان الباهر، وأنرت ببرايمه من مشكاة السعادة سراجًا وهاجًا، وفتحت به للرعية أبواب الأمن والإيمان فطفق الناس يدخلون فى دين الله أفواجا. السلطان الأعظم، والخاقان الأكبر الأفخم، مولى ملوك العرب والعجم، مستخدم أرباب السيف والقلم، ملك البرين والبحرين، سلطان المشرقين والمغربين، خاقان الخاققين والجديدين، خادم الحرمين الشريفين، السلطان ابن السلطان ابن السلطان، السلطان سليم خان، ابن عبدك وفقيرك المندرج إلى رحمتك بقضائك وتقديرك، سلطان سلاطين الزمان، خاقان خواقين الدوران، الفائق بعدله عدل كسرى أنوشروان، المنقاد إلى شرعك الشريف، الممثل لأوامرك النافذة ودينك الحق المنيف، الواقف عند مراد الله فلا يتعداه، العامل فى جميع أموره بتقوى الله، المراعى العدل والإحسان فيمن استرعاه، المجاهد المرابط فى سبيل الله، الغازى الذى استوعب عمره فى الجهاد كآبائه الغر الغزاة، الذى خرج من بيته مهاجرًا، فأدركه الأجل المحتوم، واصطفاه الله إليه وتوفاه.

الداخل فى زمرة من أنزل الله فى شأنهم بثوابه لهم ورضاه ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [النساء: ١٠٠] المرحوم برحمة الله الملك الرحمن، السلطان سليمان خان، أنزل الله عليه شآبيب الرحمة والغفران، وقدس روحه الشريفة وحفه بالروح والريحان، وجعل الملك كلمة باقية فى نجله السعيد، وعقبه المديد إلى يوم القيامة، وأعد له ولآبائه الكرام ما يليق بكرمه من أنواع العز والكرامة، يا رب العالمين .

ثم وصل مولانا الشريف حسن فى يوم الإثنين هو وأولاده وبعض إخوته

والأشراف ذوى محمد، وسلم الناس عليه، ثم أمر بالنداء على المآذن بالصلاة جامعة فى غد على السلطان سليمان، فلما كان صبح يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى حضر مولانا الشريف حسن ومعه السادة الأشراف، وجميع الفقهاء الأعيان، وامتأل المسجد بالناس، وجلس الشريف حسن بمصلاه إلى أن طلعت الشمس، فوصل إليه الأمير إبراهيم الدفتردار، والأمير قاسم نائب جدة وسمندر جاشنكير فقام لهم، وجلسوا كلهم عن يمينه، ثم حضر الأفندى وجلس عن يمين الشريف فوق الأميرين والجاشنكير، وكان على يسار الشريف أخوه مولانا السيد بشير وتحتة القاضى الحسين المالكى، فبعد ارتفاع الشمس قدر رمح، قاموا وتوجهوا إلى الكعبة الشريفة، ووقفوا عند الباب الشريف، فأشار مولانا الشريف حسن إلى مولانا القاضى الحسين أن يتقدم لصلاة الغائب، ونادى الرئيس من أعلى زمزم بهذه الخطبة وهى الصلاة على الميت الغائب العبد الفقير إلى الله، المجاهد فى سبيل الله، المرباط لإعلاء كلمة الله، الذى خرج من بيته مهاجراً إلى الله، المستوعب جميع عمره فى قتال أعداء الله، القائم بنفسه وماله وجنوده لنصرة دين الله، الواقف عند مراد ربه فلا يتعداه، المراعى للعدل والإحسان فيمن ولى عليه واسترعا، المعظم لشعائر بلد الله الحرام، المؤيد لآل النبی عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

المتخذ ودهم ذخيرة عند الله تعالى فى العقبى، عملاً بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] القامع لأعداء بيت النبوة والرسالة، والمفيض على الحرمين الشريفين مكارمه وأفضاله، السلطان الأعظم سليمان خان، أنزل الله على شآبيب الرحمة والغفران، وجعل قبره الشريف روضة من رياض الجنان، وحف تربته الشريفة بالروح والريحان.

ثم بعد الفراغ من الصلاة توجهوا أجمعين إلى مصلى الشريف عند باب الحزورة فقسمت الربعات، ثم دعا لمولانا السلطان سليمان، وأهدى ثواب ذلك إليه، ثم دعا لمولانا السلطان سليم، فعلوا ذلك ثلاثة أيام، ثم ختموا يوم الخميس منتصف الشهر المذكور.

وكان خروج مولانا السلطان سليمان لهذه الغزوة التى توفى فيها حادى عشرى ذى القعدة الحرام من سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة رحمه الله تعالى.

واستمر مولانا الشريف حسن إلى أن انتقل والده الشريف أبو نمي إلى رحمة الله تعالى في أول عام اثنين وتسعين وتسعمائة، فاستقل بالملك وأعبائه، وشد أزره بالتدبير من سائر جهاته وأنحائه، واستخدم الحزم في شدائد الأمور الشاسعة، وسلك في محجته الطريق الواضحة الواسعة، فصير ولاية الحرمين خلافة، ومهد القواعد السلطانية والقوانين الحسنية بدون مخافة، وجلس على سرير الملك جلوس متمكن، وبذل الهمة في إصلاح الرعايا بكل وجه ممكن، واستصحب الإقدام في صعائب الأمور، وثبت الأقدام في المواقف التي تهب له بالقبول ولأعدائه بالدبور. وظهر به شأن أهل بيت النبوة من الشجاعة والقوة.

وأذكر بما أبداه من شريف المناقب، أحوال جده أمير المؤمنين على بن أبي طالب.

وله الآراء السديدة والغزوات العديدة، في المواطن القريبة والبعيدة، يساعده فيها السيف والقدر، ويخدمه الفتح والظفر، طالما كشف بغزواته كل غمة، وأوضح من الخطب كل واقعة مدلهمة، ووطئ بحوافر خيله سباسب تضل فيها الخطا، وأودية لا يهتدى إليها القطا.

كم فتح بعزمه حصنا صعب المرقى، واقتحم بخيله ذروة لا يصل إليها نظر الزرقا، يتصرف في السعد كأنه عبد بابه، ويتأمر في الظفر كأنه لازم ركابه. وله السرايا الكثيرة، وهى عن التفصيل غنية شهيرة. لم يؤمر فيها إلا أولاده النجباء، وقل ما أمر غيرهم من الأقرباء.

وكل سراياه لا تعود إلا بالنصرة التامة، وتنبئ في سائر الآفاق عن البشائر العامة. وقد بعث جماعة من أولاده الكرام.

وممن بعثه منهم فأبان عن الفعل الحسن، السيد الحسين بن الحسن. ومنهم الشريف أبو طالب المصاحب للنصرة، فقد أرسله وعاد بالظفر غير ما مرة.

ومنهم السيد مسعود، فحصل بإرساله السعود.

ومنهم السيد عقيل، فنال في مبعثه غاية التأميل.

ومنهم السيد عبد المطلب، فأصبح بتجهيزه للسؤدد مجتلب.

ومنهم الشريف عبد الله بن الحسن، فكان بعزمه إصلاح جهات اليمن .
 وجميع غزواته وسراياه بالنصر مقرونة، وطوالع طلائعه بالحروب ميمونة .
 ما اتفق له في شيء منها انكسار، ولا ذمت له في عجاج معاركها إذا ثار آثار .
 فأما العلماء، فنشروا على رؤوسهم علم المفاخر، وتوجوا لديه بالوقار، ولحق
 أولهم الآخر .

فخدموا خزائنه المعمورة بالتأليف الحسنة، وأتوا جنابه بالتصانيف اللطيفة في كل
 سنة .

وأما الشعراء فانتظموا في زمانه انتظام درارى الإكليل، ولبسوا في أيامه ثوب كل
 فخر جميل .

وقصدوا جوده العميم من سائر الأقطار، ولو جمع جميع مدائحه لكانت أسفارًا
 كبارًا .

ولو قال قائل: إنه يمدح في كل عام بنحو الألف، لأنصف في قوله وما جازف .
 ولم يزل يتوالى عليهم بره، وما انفك متواترا عليهم لطفه وعطفه وبشره .
 يجيز على التأليف بالألف الدينار والأكثر . وينصف الشخص على التصنيف
 بالمبالغة في الثناء الأعطر .

وما برح يترقى في مصاعد السعد، ويتخطى بأخمصه هامة المجد .
 ناشرًا راية عدله على مفرق الليالى والأيام .
 مقلدًا جواهر فضله جيد الأنام .

ولما كان سابع عشر محرم سنة واحدة بعد الألف، حضر مولانا السيد مسعود ابن
 الشريف حسن، وهو أكبر أولاده بعد السيد حسين بن الحسن نيابة عن أبيه الشريف
 حسن بالمسجد الحرام، وحضر أكابر العلماء والأعيان لقياس طول الكعبة من
 داخلها لورود أمر مولانا السلطان محمد بن مراد بذلك ليعمل لها كسوة، فذرعت
 بالذراع الحديد المصرى فعملت وأرسلت .

وورد أمر شريف منه أيضًا أن يخمن ما يحتاج إليه في ترخيم المطاف الشريف،
 فذرع المطاف الأسطى سفر المعمار والمعلم محمد البحيرى المهندس، فكان ذرعه
 مكسرًا بحساب الطرح ذراعًا في ذراع ألفين وخمسمائة ذراع، وقالوا كل ذراع يحتاج

إلى أربعة دنانير يكون جملة ذلك عشرة آلاف دينار.

وكان ذلك التخمين فى تاسع عشرى جمادى الأولى سنة اثنتين بعد الألف .
ثم الذى تحرر عليه القول أن المطاف أربعة آلاف ذراع صرف عليه عشرة آلاف دينار.

وفى هذه السنة توفى الشيخ ربيع بن السنباطى السالك على الطريقة الجميلة،
والمالك لأزمة كل فضيلة، مدحه جماعة من الفضلاء ورثاه غير واحد من الأدباء،
منهم صاحب الريحانة بأبيات خمسة آخرها بيت التاريخ وهو: [من الخفيف]
قد فقدنا فيه اصطبارًا فأرُخْ كُلُّ صَبْرٍ محرم فى ربيع
ورثاه مؤرخًا الشيخ حسن الشامى بأربعة أبيات آخرها التاريخ وهو: [من الكامل]
وإذا ذَكَرْتَ ربيعَ أيامٍ مَضَتْ أَرُخْ بِشَوَالٍ فراقٍ ربيع
وفى سنة ثلاث بعد الألف لست عشرة مضت من جمادى الأولى، توفى مولانا
السلطان مراد بن سليم، ورثاه جماعة من الفضلاء، منهم الشهاب أحمد المرحومى
المغربى فقال: [من الطويل]

تهایل مِنْ رُكْنِ الصَّلَاحِ مشيد بموتِ شهنشاه الملوك مراد
فلم يُرْ فى تلك الممالكِ مالِكٌ مُرَادُ الْوَرَى من بعد فَقْدِ مُرَادِى
وفى سنة أربع توفى إمام الحرمين وشيخ المصرين، من كانت العلماء تكتب عنه
ما يملئ، مولانا شمس الدين محمد بن أحمد بن حمزة الرملى، فاتح أقفال
مشكلات العلوم، ومحى ما اندرس منها من الآثار والرسوم، أستاذ الأستاذين،
وواحد علماء الدين، علامة المحققين على الإطلاق، وفهامة المدققين بالاتفاق.
ولد سنة تسع عشرة وتسعمائة بمصر المحروسة. وله ترجمة طويلة جميلة.
وفىها توفى الشيخ على بن محمد بن على الشهير بابن غانم المقدسى الخزرجى،
شمس العلوم والمعارف، بدر الفهوم واللطائف، قره عين أصحاب أبى حنيفة،
الراقى من معارج التحقيق أعالى الرتب المنيفة.

ترجمه الشيخ عبد الرؤوف المناوى فقال: شيخ الوقت حالا وعلمًا، وتحقيقًا
وفهمًا، وإمام المحققين حقيقة ورسما.

وفى سنة ست بعد الألف: تخلف مولانا الشريف حسن بجهة ركة، وأرسل

وأخـر ذى القعدة من السنة المذكورة إلى أخيه السيد ثـقبة بن أبى نمى يـلمس منه أن يلبس خلعتـه أكبر أولاده السيد مسعود بن حسن، فلما كان يوم العرضة خرجا إلى المختلـع لبس السيد ثـقبة خلعتـه وهى الثانية رتبة همز الفرس، وتقدم إليها فلبسها متقدمه، ثم قال للدوادار: احفظ خلعة سيدك، فلم يلبث السيد مسعود أن توفى غيظًا للنفس الأبية والشيم الهاشمية، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وبنيت على قبره قبة عظيمة باقية إلى الآن.

وفى سنة سبع بعد الألف: توفى العلامة خضر بن عطاء الله الموصلى. قال فيه فى الريحانة: كعبة فضل مرتفعة المقام، تضمنت ألسن الرواة التزامه، فله ذلك المتضمن والالتزام.

أقام بمكة مع بنى حسن مخضر الأكناف، وصنف باسم الشريف حسن كتابه « شرح شواهد الكشف ».

قلت: رأيت بخط جدى العلامة جمال الدين العصامى ما نصه: أشرفنى المولى خضر بن عطاء الله على وصلٍ كتب له بأمر مولانا الشريف الحسن بن أبى نمى صورته:

الحمد لله. حسن بن أبى نمى:

يا أبا محمد ريحان بن عقبة الدويدار سلمك الله.

اعط العلامة المفيد الفهامة خضر أفندى ألف ذهب جديد نصف ذلك حفظًا لأصله خمسمائة ذهب، وهى جائزة كتابى الذى صنفه باسمى. الله الله.

كتبه صبيح بن مقبول بأمر سيدنا ومولانا الشريف أيدى الله بتاريخ عشر جماد أول سنة، ١٠٠٣ وصى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ويخط مولانا الشريف بيده: الله الله يا ريحان فى نجاز ذلك بسرعة انتهى.

رحم الله الجميع ومن شعر خضر المذكور قوله: [من الطويل]

تبدّل عن البرش المبلد بالطلا فعالم أهل البرش غمرٌ وجَاهِلُ
فما البرش إن فتشت عن كنهه سوى دويهة تصفر منها الأناملُ

وفى سنة سبع بعد الألف طلب الشريف أبو طالب من أبيه الشريف حسن أن

يتخلف بالمبعوث ليلبس هو الخلعة، فخرج مع عمه السيد ثقبه إلى المختلج، فتقدم الشريف أبو طالب ولبس الخلعة الأولى خلعة والده متقدماً على عمه، ثم لبس السيد ثقبه الخلعة الثانية، فوقع له ما وقع بسببه لابن أخيه، وأورد مورده الذى كرع فيه، فتوفى إلى رحمة الله تعالى حادى عشر صفر من السنة التى بعدها أعنى سنة ثمان بعد الألف.

ومولانا السيد ثقبه أكبر إخوان الشريف حسن.

كان مولده سنة خمس وعشرين وتسعمائة.

وكان رجلاً عاقلاً صبوراً، متحملاً كثير الملايمة والتودد إلى الناس.

وله فضيلة وشعر حسن ومفاكهة لطيفة.

وله من الأولاد ستة ذكور وابنة واحدة. وكان مولانا الشريف حسن يراعيه الرعاية التامة، وكان له محصول كبير جداً من جهات عديدة، فلما مات قرر لكل واحد من أولاده فى كل شهر ألف أشرفى فضة غير المقررات السابقة وللبنت خمسمائة أشرفى، وقال لهم: إن والدى الشريف أبا ندى - رحمه الله تعالى - لما فرغ بالسلطنة اختار أن يكون مقرره فى كل شهر ألف أشرفى، وأنا أقمت لكل واحد منكم ألف أشرفى عوض الجهات التى كانت لوالدكم أعنى من المعشرات، وخراج الأراضى، فإن تلك لا ثقة بصاحب الأمر.

والله يلهمكم الصبر، ويعظم لكم الأجر.

وفىها توفى رئيس الأطباء داود بن عمر الأنطاكى المتوحد بأنواع الفضائل، والمنفرد بمعرفة علوم الأوائل.

شيخ العلوم الرياضية، سيما الفلسفية، وعلم الأبدان، القسيم لعلم الأديان؛ فإنه بلغ فيه الغاية التى لا تدرك، وانتهى إلى الغاية التى لا تكاد تملك.

له فضل ليس لأحد وراءه فضلة، وعلم لم يحز أحد فى عصره مثله.

يكاد لقوة حدسه يستشف الداء من وراء حجابيه، ويناجيه بظاهر علاماته وأسبابه.

حكى أن الشريف حسن لما اجتمع به أمر بعض إخوانه أن يعطيه يده ليجس نبضه، وقال له الشريف حسن: جس نبضى، فأخذ يده فقال: هذه اليد ليست يد الملك، فأعطاه الأخ الثانى يده، فقال كذلك، فأعطاه الشريف حسن يده، فحين

جسها قبلها، وأخبر كلا بما هو متلبس به .

وحكى أنه استدعاه لبعض نسائه فلما دخل قادته جارية، ولما خرجت به قال للشريف حسن: إن الجارية لما دخلت بى كانت بكرًا، ولما خرجت بى صارت ثيبًا، فسألها الشريف، وأمنها فأخبرته أن فلانًا استفضها قهرًا فسأله فاعترف بذلك . وحكى العلامة شيخنا الشيخ محمد البابلي أن داود الحكيم المذكور مر ببعض الحارات التى يسكنها الضعفاء والفقراء بمصر، فسمع صوت مولود حال ولادته، فقال: هذا صوت بكرى، فتفحصوا عن ذلك فوجدوه كما قال، وذلك أن بعض البكرين تزوج بينت فقير خفية، ووافق حال ولادتها مرور المذكور. وله ترجمة طويلة فى الريحانة وغيرها.

وفى يوم الخميس سادس عشرى جمادى الآخرة من سنة ثمان بعد الألف قبيل المغرب بقليل: أمر مولانا الشريف حسن الشيخ عبد الكريم بن محب الدين القطبى أن يكتب إلى الباب العالى بتوجيه الأمر إلى أكبر أولاده مولانا الشريف أبو طالب، فبعد أن كتب العرض أشار مولانا بتأخيره إلى ما بعد الموسم، ثم أرسل أوائل سنة تسع فأجيب إلى ذلك، ووصل الأمر الشريف السلطانى - أواخر السنة المذكورة - بأن يكون مولانا الشريف أبو طالب مشاركًا له، ودُعِيَ لهما على المنابر.

وفى يوم الإثنين سابع ذى الحجة الحرام منها أعنى سنة ثمان كانت عرضة المصرى، وأمير حاجه يبرى بك، فتوجه مولانا الشريف حسن إلى العرضة هو وأولاده، فلما وصل المختلع أشار أن يلبس خلعة المصرى مولانا الشريف أبو طالب، فلبسها وقبل يد والده.

وأن الخلعة الثانية التى كان يلبسها أخوه السيد ثقبه بن أبى ندى تلبس لثانى أولاده السيد عبد المطلب بن حسن فلبسها، ثم جاء الأمير المذكور إليهما فتحياوا تحية الإسلام، ثم توجه الأمير واستمروا موالينا واقفين إلى أن وصل الأمير طماس أمير الحاج الشامى، فلبس مولانا الشريف حسن الخلعة التى معه ودخلوا ثلاثتهم لابسين الخلع ولم يعهد قبل مثل ذلك، وسبب ذلك توافق أمير المصرى والشامى فى المنزل بالمختلع فى ذلك اليوم.

فألبس الشريف حسن ولديه خلعة المصرى وثانيتها، وأشار إلى أمير الشامى بأن

يتهيأ ليعرض له فى ذلك الوقت لضيق الزمان والاحتياج إلى العرضة لأمر اليمانى فى اليوم الثانى، وهذا تَذْيِيرٌ حَسَنٌ لأنه تَذْيِيرٌ حَسَنٌ.

ثم فى اليوم الثانى، وهو الثامن من ذى الحجة: توجه موالينا الأشراف لاستقبال المحمل اليمانى، فلبس الشريف أبو طالب القفطان الأول، والسيد عبد المطلب القفطان الثانى، وأمير الحاج اليمانى الأمير فرحات الشهير باليازجى وهو من أقارب الوزير حسن باشا صاحب اليمن، فاستمر الشريف أبو طالب على ذلك إلى أن توجه والده الشريف حسن، وكان مقيما بالمحل المعروف بالبردان، فتوجه منه غازيا إلى جهة نجد فى ثامن ربيع الآخر سنة عشر وألف. والفريق مقيم بالمبعوث مشمولاً بنظر الشريف أبى طالب تحت نهيه وأمره، وأمر بضرب النوبة على باب السعيد. واستمر الشريف حسن ذاهباً إلى أن وصل إلى محل يسمى « فاعية » فأقام به مدة من الزمان.

ولما كان يوم الثلاثاء غرة جمادى الآخرة من السنة المذكورة أصبح متوعكاً، إلى أن كانت ليلة الخميس ثالث الشهر المذكور انتقل إلى رحمة الله تعالى أثناء الليلة المذكورة، فأخفى موته عن الحريم والخدم والصغار والحشم إلى أن طلع الفجر، فأظهر ذلك وحمل فى تختروانه الذى كان يركبه فى حياته على البغال، وقد حصلت علامات ذلك من عصر يوم الأربعاء حتى إن أبناءه الذين كانوا معه بذلك المحل أعدوا البغال والبراذين فى المنازل صوب مكة؛ لغلبة ظنهم بوقوع الوفاة، وبعد المسافة عن مكة لتكون كخيل البريد المسماة فى عرف الأروام ولاقا، وكان ذلك رأياً حسناً.

فلما توفى جدوا به فى المسير فساروا يوم الخميس وليلة الجمعة ويومها، ووصلوا به إلى مكة فى أوائل النصف الثانى من ليلة السبت، ولولا مفارقتهم الطريق لموجب الظلام والمطر والغيم، وتعويق السبل لهم فى بعض الأماكن - لأمكنهم دخول يوم الجمعة، مع أن المسافة تزيد على عشرة أيام، وما كان هذا التيسير إلا كرامة للمرحوم، لسرعة وصوله إلى البلد الحرام، وذهب الخبر بوفاته من حينها إلى الشريف أبى طالب بجهة المبعوث، فبمجرد وصول الخبر إليه قصد مكة، وخلف السيد عبد المطلب لحفظ المراح ومن فيه فدخلها ليلة السبت فى أول الثلث الثانى

قبل دخول جنازة والده، وبمجرد وصول الجنازة شرع فى التغسيل والتكفين، وصلى عليه بالمسجد الحرام قبل الفجر، ودفن بالمعلاة، وبنى عليه قبة عظيمة باقية إلى الآن، رحمه الله تعالى رحمة جمة، ووالى عليه صيب الرضوان والرحمة.

مات وله من العمر تسع وسبعون سنة، ومدة ولايته مشاركا لأبيه أبى نمى، وولده أبى طالب، ومستقلا نحو خمسين سنة.

وفيهما توفى السيد عبد المطلب بن حسن، كان على غاية من الكمال، ومن مشاهير الأبطال، وكان يلبس الخلعة الثانية فى حياة أبيه، وكان والده يعتمد عليه فى الأمور العظام، ويفتخر به فى كل محفل ومقام - رحمه الله تعالى .

وفيهما توفى القاضى على بن جار الله الحنفى المكى القرشى .
انتفع به جماعة: منهم شيخ الإسلام عبد الرحمن، وأخوه القاضى أحمد ابنا عيسى المرشدى، والإمام عبد القادر بن محمد الطبرى وغيرهم.

له تصانيف عديدة مفيدة، منها: حاشية على التوضيح، وحاشية على شرح إيساغوجى لشيخ الإسلام زكريا، وتذكرة مفيدة، وفتاوى لكنها غير مجموعة، وديوان شعر منه قوله: [من السريع]

قُلْتُ لشَهْرِ الصَّوْمِ لما دنا مودَّعًا مِنِّى وداعَ الصَّدِيقِ
سَلَّمْتُ على المَوْسَمِ باللهِ لِي وَقُلْتُ لَهُ أَقْبِلْ فهذا الطَّرِيقُ
قلت: ما ألطف قوله أقبل... إلخ، كأنه يشير إلى أنه كعقبه فى الطريق كانت فزالت.

وفيهما توفى الملا صفى الدين بن محمد الكيلانى، المكى الشافعى، الطبيب الألمعى، الأريب اللوذعى، أفلاطون زمانه.

شرح خمريه سيدى عمر بن الفارض شرحًا مفيدًا جعله باسم مولانا الشريف حسن، وأجازه عليه إجازات عظيمة.

يحكى عنه غرائب، منها: أنه مر عليه بجنازة بعض الطرحاء فدعا به، وأخذ من دكان بعض العطارين شيئًا نفخه فى أنف الطريح فجلس من حينه، وعاش مدة بعد ذلك، فسئل عن ذلك فقال: رأيت أقدامه واقفة فعلمت أنه حى.

ومنها: أن بعض التجار كان يطعن فى معرفته، فأرسل إليه بعض الفقراء بغصن

من نبات له رائحة طيبة، فلما شمه التاجر انتفخ بطنه، وعجز الأطباء الموجودون عن علاجه، فاضطر إلى صاحب الترجمة، واستعطفه فأعطاه سفوفاً من ذلك النبات بعينه فعوفى مما به.

ومنها: أن بعض أولاد الشريف حسن أصابته علة، فأمر صفى الدين المذكور أن تجعل له كوفية من عنبر، ففعلت فزالت العلة، ثم أصابت تلك العلة بعينها بعض الرعية فعمل له كوفية من ضفع البقر فعوفى، فقليل له فى ذلك، فقال: نعم العلة واحدة، لكن ولد الشريف نشأ فى الرائحة الطيبة، فلو عملت له من الضفع لزادت عليه، والآخر بعكسه، فداوينا كلا بما يناسبه.

وكان يأمر من أصابه مرض بالخروج من مكة، ولو إلى المنحنى؛ لأن هواء مكة فى غاية الاعتدال لكن رائحة البالوعات تفسده، ولهذا بنى له هناك بيتاً يسكنه من به مرض رحمه الله تعالى.

وقد رزق مولانا الشريف حسن من الأولاد نحو خمسة وعشرين ذكراً، منهم: سالم وعلى وأبو القاسم وحسين ومسعود وباز وأبو طالب وعقيل وعبد المطلب وعبد الله وعبد الكريم وعبد المحسن وعدنان وإدريس وفهد وشنبر وعبد المنعم والمرتضى وهزاع وعبد العزيز وعبيد الله وجود الله وبركات وقايتباى ومحمد الحارث وآدم، ومن الإناث نحو اثنتين وعشرين: شمسية وروضة وأرينب وصمدة وبلخشة وياقوتة وفاطمة وعزيزية وزين الحبوش وريمة وجربوعة وزين الشرف وسلامة وكثيرة وفاطمة أيضاً وعزيزية أيضاً ومنى ومزنة وحريملة وهيفاء وراية وعزا وغيرهن. آخرهن موتاً ياقوتة.

ومات منهم جملة من الذكور والإناث فى حياته.

وورثه سبعة عشر ذكراً وأربع عشرة أنثى.

ووزع مخلفه بين أولاده ما عدا السلاح والخيل والعبيد فعادتهم أنها لصاحب الأمر بعده.

ذكر ما منحه الله من الفراسة المقتبسة من الحضرة النبوية، والخلافة العلوية. فمن ذلك: أنه سرقت الفرضة السلطانية بجدة المحمية، وضاع منها قماش له صورة وأموال كثيرة، ولم يكسر بابها ولا نقب جدارها، ولا أثر يحال عليه فى معرفة

المطلوب والطالب، بل حبل مسدول من بعض الجوانب، فلما عرض على حضرته الشريفة الكريمة هذه القصة العظيمة طلب الحبل المذكور ثم شمه ثم قال: هذا حبل عطار، ثم دفعه إلى ثقة من خدامه، وأمره أن يدور به على العطارين، فعرّفه بعضهم، وقال: هذا حبل كان عندى اشتراه منى فلان، ثم نقله من رجل إلى رجل إلى أن وصل بشخص من جماعة أمين جدة المعمورة، ثم وجدت السرقة بعينها فى المحل الذى ظننا فيه.

ومنها: أن رجلاً من التجار سرق له مال عظيم بمحل معين، فلما رفع قصته إلى مولانا الشريف حسن قال له: هل وجدت فى محل السرقة شيئاً من آثار العرب؟ فقال وجدت هذه العصا، فنظر إليها الشريف فوجد بها علامة، فقال: هذه العصا عليها علامة الطائفة الفلانية، فاتفق بسعده وبركة جده حضور رجل من أعيان هذه الطائفة ويده عصا عليها نظير العلامة المذكورة فعرّفه مولانا الشريف حسن بالحال، وألزمه بتحصيل المرام، فصدق الله فراسة مولانا المشار إليه ورجع المال لصاحبه. ومنها: أن رجلاً تاجرًا عطارًا مغربيًا بمكة المشرفة هرب له عبد، ثم وجده فطلب العبد البيع، فأجابه لذلك سيده، فاشتراه رجل بمال عظيم ثم أعتقه، فبعد مدة فقد التاجر مالاً كثيراً من دكانه وحاصله، فرفع قصته إلى مولانا الشريف حسن، فأمره أن يخفى أمره ويترك ذكره. ثم سأل عن مشترى العبد المذكور هل هو من أهل المال الكثير حتى يشتري مثل هذا العبد بماله ويعتقه، وهل سبق له عتق قبل ذلك؟ فأجيب بأنه لم يقع منه عتق، وليس له مال بل هو فقير يصرف الفلوس، وظهر الآن له نوع يسار، فطلب الشريف العبد على غفلة ثم خاطبه بغير واسطة، وعرض له بأنه بلغنى أمانتك، وأنتك نصحت فى خدمة مولاك، وأنه قصر فى رعايتك فطلبت البيع، وقد أصبت فيما فعلته.

وعرض عليه أن يجعله مقدماً عنده، وفرح العبد لذلك، ثم تغافل عنه مدة وطلبه ثانياً وعرض له ببخل سيده، وأنه يستحق كل ما تفعل فيه ثم قال له: بلغنى أنك جمعت من مراجلك ثمنك، وأعطيته لفلان يعنى المشتري، فاشتراك به ونعم ما فعلت، فصدق العبد جميع ما قال له مولانا، فأمر بحبسه بلطف وطلب المشتري، ثم قال له: مرادى أستخدم عبد التاجر المغربى الذى أعتقته.

فأجاب بشكر العبد والثناء عليه وأنه يليق بذلك، ولم يزل يتلطف به حتى أقر بما أقر به العبد، فأمر بحبسهما معاً ثم ضربهما ضرباً شديداً حتى أحضر جميع ما فقده التاجر إلا قليلاً، ثم أمر بصلب العبد والمشتري بعد التعزير والنكال الشديد فصلباً، فتعجب الخاص والعام من هذه الفراسة المسطورة.

ومنها: أن رجلين مصري ويمنى تنازعا في جارية ادعى كل منهما ملكها من غير إقامة حجة شرعية، وتحير في أمرهما سائر الحكام من أهل الشرع والعرف، فرفعت القصة إليه، فلما سمع دعوى كل منهما وعدهما بالنظر في أمرهما في مجلس ثان، ثم اختلى باليمنى وسأله عن اسم الحب الحنطة فقال هو البرّ، ثم اختلى بالمصري، وسأله عما ذكر فقال هو القمح، ثم سأل الجارية عن اسم الحب المرة بعد المرة فقال: أم بر، فلما نطقت باللغة اليمنية قال لها والقمح ما هو؟ قالت: لا أعرفه، فلما تم ذلك عنّ له اختبار ما منحه الله من الفراسة، فأحضر المصري وتلطف به ووعدته بعدم المؤاخذه فاعترف بأنها ملك اليمنى وزالت الشبهة ببركته ووصل الحق إلى مستحقه.

ذكر بعض فتوحاته بذاته، وأولاده الكرام في حياته:

أولها قصة شمر وسببها يوم الفريش: لا يخفى أن فتوحات الملوك والغزوات وما لهم من السير والسريات لا يمكن ضبط الخاص منها والعام، سيما بساداتنا حماة البيت الحرام، وخصوصاً مولانا الشريف حسن جد صاحب هذا الكتاب. فمن ذلك قصة الفريش: وهى أنه فى عام ثلاث وستين من القرن العاشر كان أمير المدينة المنورة السيد مانع الحسينى، وكان من أجل الأمراء قدراً وأرفعهم ذكراً، بلغ بمصاهرة موالينا وساداتنا حماة الحرمين محلاً منيفاً ربيعاً، وعزاً منيعاً، وشوكة قاهرة، وحرمة وافرة.

وكانت عادة أمراء المدينة السابقين يسلمون لبنى عمهم من السادات بنى الحسين، ولعربان عترة وضفير ونحوهم مواجب ومرتبات من الأموال الجزيلة والحبوب والأقمشة الجليلة، فمنعهم من ذلك الأمير مانع استخفافاً بهم وعدم مبالاة، فجمع كل من الطوائف المذكورة جماعته وحضر معهم. فأما السادة الأشراف آل نكير فمقدمهم الأمير منصور بن محمد أمير المدينة المنورة، وابن أميرها سابقاً.

وأما السادة الأشراف من آل جماز فمقدمهم أولاد مولانا الأمير جماز .
وأما طائفة العربان فمقدمهم الشيخ المعروف بأبى ذراع وغيره من أكابرهم .
فلما خرج ركب الحاج المدنى على عادتهم أواخر ذى القعدة، وأصبحوا بوادى
«الفريش» صحبتهم الطوائف المذكورون فى جمع من الأشراف عظيم، ومن العربان
بخيل وركاب مع اللبوس والزانات، وأحاطوا بالركب جميعه، وكان فى الركب
الأفندى الأعظم عبد الرحمن قاضى المدينة المنورة، والجناب العالى الأمير محمد
ابن حسن، وشيخ الحرم المدنى، وأعيان المدينة من وجوه العرب، وسادات بنى
الحسين، فكان موقفًا شنيعًا، ومنظرًا قبيحًا وقع فيه قتل وسلب وطعن وضرب،
وأهل الركب محرمون، والطوائف المذكورة مجرمون .

وسلم أعظم الركب وأعيانه، ثم انفصلوا بعد أن التزم لهم القاضى، وشيخ الحرم
المذكوران بحصول مواجبهم وعادتهم، فلما وصل خبر ذلك إلى الشريف حسن
سكت على ذلك مطمئنًا خواطر الحجاج، حتى انقضت أيام المناسك، ثم أرسل
سرية من شجعان الفرسان، وأمر عليهم السيد عجل بن عرار برسم حماية الركب
المدنى إلى وصوله المدينة، ثم يستمرون بها حفظًا لها، ولأهلها باطنًا وظاهرًا، ثم
بعد ذهاب الحجيج من مكة نادى بالمسير إلى غزو الطوائف المذكورة، فخرج بذاته
العزيزة فى عسكر جرار وجيش كالبحر الزخار، ما بين سادة كرام وأعراب وأروام،
بالخيول الملبسة والدروع، والبنادق والمدافع، والشجعان المشهورين فى الوقائع
والمجامع .

فلما بلغهم أن الملك المنصور الهزبر المعروف المشهور قصد اللحق بهم على
كل حال، شمروا نحو شمر، وهربوا إلى رءوس الجبال، فقصدهم إلى منازلهم
ومساكنهم، وخرب شمر المذكور؛ لأنه من أمنع مواطنهم، ثم قبض على أعيان
الطوائف المذكورة الذين شنوا الغارة وكبل أشرافهم بالجنائز الحديد، ودخل بهم
وهم أسرى بين يديه مدينة جده السعيد ﷺ، وكان يوم دخوله موكب عظيم، حضره
مولانا الأفندى، وشيخ الحرم المذكوران أعلاه .

وأظهر كل منهما حصول مراده وبلوغ مناه، وتعجبوا من دخول الأشراف
بالزناجير، وهم من أولاد الأمراء، وتحققوا بذلك عظم مولانا الشريف، وقوة

سلطانه بمدد جده خير الورى .
 وكان هذا الغزو أول ظهور مولانا الشريف حسن ، وقوة شأنه فى ظل والده
 الشريف أبى ندى وأيام زمانه .
 ومن ذلك قصة مضبع : سار إليه بنفسه المطمئنة ، وذلك فى حدود عام اثنين
 وثمانين وتسعمائة .

وسببه أنه ظهر من أهل مضبع نقض للعهود ، ومخالفة لشرع الملك المعبود ؛ لأن
 مضبع المذكور حصن منيع بأعلى واد وسيع ، وأهله فى نعم الله رافلون ، وللمنعم بها
 كافرون ، يمنعون كل من وصل إليهم ، ولو علم عصيانه لديهم ، وكلما حذرهم
 مولانا الشريف المخالفات تحذيرًا ، ما يزيدهم إلا طغيانًا كبيرًا .
 فسار إليهم فى جم غفير من السادات وأتباعهم من أعيان دولته الشريفة ، وأمراء
 مملكته المنيفة .

أخبر السيد نافع منهم أن العساكر التى سار بهم يزيدون على خمسين ألفًا ما بين
 راكب وراجل ، ولاحق وواصل ، يمرون على الجبال فيدكونها دكا ، وينزلون بالرمال
 فيكونها بكا .

فلما وصلوا مضبع وجدوه جبلًا رفيعًا وحصنًا منيعًا ليس فى أخذه مطمع .
 فأحاطوا بجبهاته الأربع ثم صعدوا على اسم الله تعالى تالين ﴿ إِلَّا نَصْرُهُ فَكَدَّ
 نَصْرَهُ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٤٠] فقاتلهم قتالًا شديدًا ، أفنى فيه شبابًا وأشاب منه وليدًا ،
 حتى انتصر عليهم نصرًا عزيزًا ، وفتح الله له من حصونهم فتحًا مبيّنًا ، فضرب
 الرقاب ، وأخذ الأموال ، ورتب فيه من يحفظه من شجعان الرجال ، ويقيم به الشريعة
 المحمدية على أحسن منوال .

ثم قصد إلى تخت عزه مكة الغراء - شرفها الله تعالى بالكعبة الجليلة - فمر على
 بجيلة وأمرهم بالتزام الشريعة المحمدية ، فخالقوا أوامر الله وأوامره العلية ، فقاتلهم
 إلى أن طلبوا العفو ، وبذلوا الأموال فأجابهم إلى ذلك .

وأخذ منهم عدة من دروع الحديد العراض الطوال يقال إنها قريب من خمسة
 آلاف ، نال منها السادة الأشراف ، وجميع من حضر من سائر الأطراف ، وصار
 خراجها يحمل إلى حضرته الشريفة كل عام على مر الدوام .

وهذه السرية في حكم السرايا الهاشمية إلى الكفار، من سار فيها فله أجر المجاهد بلا إنكار.

قلت: ذكر العلامة الجد جمال الدين العصامي أن هذه الغزاة كانت سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، وذكر أنه أرخها ببيت كامل بديع هو قوله:

صَادَ الصَّنَادِيدُ أَعْطَى الْمُلُكُ وَاجِبُهُ حَامِي حِمَى بَلَدِ اللَّهِ الْأَمِينُ حَسَنُ
هكذا ذكره بيتًا مفردًا، فلم أدر أهو من قصيدة له أم من قطعة.

وهو بيت بطين المعنى، رصين المبنى.

ومن ذلك غزوة سوق الخميس، ويسمى زهران، يتصل به قرن ظبي والصفاء والمخواة وجبل عظيم يسمى مَلَس.

كان من شأن هذه المواضع أن سكانها لا يورثون النساء جملة كافة خصوصًا البنت التي منعها من أعظم سنن الجاهلية ومانعوها هم الكفار شرعًا.

ومن عاداتهم أن يمنعوا كل من وصل إليهم خصوصًا العصاة لولاة الأمور، والذين يأكلون أموال الناس بالباطل والفجور، ثم تكرر منهم ما ذكر من القبائح.

ونصحهم مولانا الشريف المشار إليه، وهددهم فلم ينقادوا للناصح والنصائح، فبرز أمره المطاع إلى أكبر أولاده الكرام السيد الحسين الأسد الضرغام بدر التمام أن يقصدهم في محالهم، فقاتلهم وقتل أعظم رجالهم، وحاز نفائس أموالهم، وفاز بأسر نسائهم وأطفالهم.

فلما ملك البلاد والعباد، ووصل البشير بنصرته إلى والده وجده خير والد من خير أجداد، برزت أوامره المطاعة، أن ينصب حاكمًا شرعيًا وأميرًا ليقيم نظام السنة والجماعة، فتم ذلك على الأوضاع الشرعية ونقل خراجها إلى الخزائن الشريفة العلية.

ثم غزا معكال. وذلك أنه بعد مدة قريبة برز مولانا الشريف حسن إلى غزو معكال بأقصى البلاد الشرقية لأمر فعلوها، فيها طعن على الدولة الإسلامية، وحسبك السنة النبوية المبرورة: «الفتنة من ههنا» وأشار إلى الجهة المذكورة، فقام مولانا المشار إليه في ذلك حماية لبيضة الإسلام خصوصًا حجاج بيت الله الحرام، وزوار جده محمد عليه الصلاة والسلام، فوصل دارهم وقاتلهم فيها احتقارًا بهم

وعساكر الإسلام الله تعالى يحميها ويبلغها بسعده أقصى أمانها في جمع كذلك يزيدون على خمسين ألفاً، وطال مقامه فيهم حتى استأصل أهل الدار رجالاً وأموالاً وكل من كان إليهم إلّفاً.

فتحدث أعداؤه المخدولون أنه مات وعسكره انكسر نظير ما وقع لجده ﷺ بخير.

فلما وصل خبر ذلك لأهل سوق الخميس سول لهم عدو الله أخوهم إبليس، فقتلوا الحاكم الشرعى والأمير المذكورين شقاقاً منهم فى الدارين.

فلما عاد مولانا الشريف من الشرق سالمًا فى النفس والأهل والمال، غانمًا ملك معكال، وما قرب منه من سائر المحال، ودخل مكة على أجمل الأحوال، ومشايخهم بين يديه فى الحديد والأغلال، ثم أقاموا فى ظل نعمه مدة عام كامل، فطلبوا من فضله وإحسانه الشامل أن يكونوا خدامه فى محل سلطانهم، وأن يحملوا إليه ما يرضيه كل عام من محصول أوطانهم، فأجابهم إلى مطلوبهم، وأمر عليهم محمد بن عثمان بن فضل حيث لم يبق من بيت سلطنتهم إلا هذا النسل.

ثم عزم على غزو سوق الخميس؛ لفعلهم المذكور الخسيس. فقصدهم بنفسه الزكية افتتاح سنة سبع وثمانين وتسعمائة، فاجتمع بسوحيه من بادية مكة المشرفة طوائف هذيل وغطفان وعدوان وبنى سعد وما اتصل بهم من المؤلفة، فاجتمعوا بناديه الفسيح رحابه، المنيع جاره وأحزابه، فنظر إليهم أمير دار المضيف، فاستكثر ما يجب لهم من المصاريف.

فقال على لسانهم لمولانا الشريف: لعل سيدى يعجل بالمسير، فإن الجيش كبير.

فقال له الشريف: أجبهم عنى بأنى أطعم صغيرهم حتى يشب، وشابهم حتى يشيب.

ثم سار بهم بعد مدة، فلما وصل واديهم، ونزل مخيمه المعظم فى ناديهم، قال لهم بعض عقلاء الرجال: اطلبوا من مولانا الصلح، فأجابوا جواب أهل الغرور والهوس، على سبيل التهكم: اسألوا عن الصلح جبل ملس.

فقبل تمام القول، صعدت الرجال على الجبال، وعم القتل معظم الرجال، وأسر

النساء والأطفال.

ثم قبض على مائة وسبعين من أشرافهم، وكبلهم فى الحديد فى أعناقهم وأطرافهم.

فأحضروا له من الدروع والأموال جملا كثيرة لا يحويها المقال، فأخذ ذلك من جملة الغنائم، وأقام شريعة جده سيد العوالم.

ثم عاد إلى مكة المشرفة، فدخلها فى شهر رمضان فى موكب عظيم قد أضاء، لم يسمع بمثله فيما مضى، وبين يديه الجماعات المقبوضون كل عشرة فى كبل حديد، وشيخهم مع ولديه فى الحديد، راكب فى حال غير جميل.

ثم أمر بذبح أربعة عن الحاكم كما ذبحوه؛ وذلك بسوء ما فعلوه.

ومن ذلك فى عام تسع وثمانين وتسعمائة: سار إلى ناحية الشرق مرة ثانية لمخالفة وقعت بينهم متناهية، فى جيش كثيف جرار، ومدافع كبار، تنسف الجبال وتفتح الأمصار، ففتح مدناً وحصوناً تعرف بالبديع والخرج والسلمية والإمامية، ومواضع فى شوامخ الجبال تزيد على ما سبق بأمثال أمثال، فقويت شوكتة وعز سلطانه، وتحقق عند ذوى البصائر أنه بعناية الله تعالى كل حين يعلو شأنه.

ثم عين من رؤسائه من ضبطها، على أمور التزامها وشرطها، فعاد مؤيداً منصوراً، وعلم سعه منشوراً.

فأخبره بعض عيونه التى ييئها فى البلاد لتأتيه بأخبار العباد، أن جماعة من شوكة بنى خالد تجمعوا وتحزبوا، ومن طريقك ترصدوا وتقربوا، فى جمع من الشجعان والأبطال حتى جرائد الخيل وكرائم الجمال. فتدارك مولانا المشار إليه من الحزم والعزم ما أمكن، وقدم من قدم، وآخر من آخر، وأكمن من أكمن.

فوافاه الجيش الخالدى فوجد مولانا على غاية الحذر فتقابلا وتقاتلا، فهرب الخالدى وانكسر، فقتل مولانا أكثرهم عدداً، وغنم خيلاً وإبلًا وعدداً، ولم ينج منهم إلا الهارب، ومن خيلهم ورجلهم وإبلهم إلا الذاهب.

وهذه النصرة أعظم فى صدور الأعداء شوكة ونكاية، وأعلى منصباً وأجل ولاية.

وهذه المذكورات عيون غزواته الشهيرة، وسواها كثيرة كبيرة.

ذكرما خوله الله من فصاحة اللسان، وبديع البيان، فى توقيعه بالبنان، والحكم

بفصل الخطاب والتوفيق للصواب .

فمنها : لفظ «العزة لله سبحانه وتعالى» فمولانا المشار إليه وجميع سلفه الكرام يتوجون به فى توقيعاتهم الفخام .

ولا يخفى ما فى هذه اللفظة من جوامع الكلم وحسن الأدب مع ذى الجلال والإكرام ، والعظمة والإنعام ، والإشارة إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٣٩] المستوجبة لعزة كاتبها وقائلها ، وتواضعه مع كمال شرفه فى الذات والصفات .

ومن ذلك : أن جميع توقيعاته يرقم فيها بعد الجواب لفظ «على الوجه الشرعى ، والقانون المحرر المرعى» وهذا من خصوصيات مولانا الشريف حسن المشار إليه دامت رحمة الله عليه .

ومن ذلك : أن جميع ما يرقمه من الكلمات ولو كثرت خال من النقط بحيث تتبع أهل الخط أكثر تحريرات مولانا فلم يجدوا فيها نقطة .

ولعل مراده بذلك دفع المماثلة لخطه ورفع المشاكلة حتى يبعد عن التزوير .
ومن ذلك : سلامته من الحشو المخل والتطويل الممل .

ومن ذلك : أن قاضيًا من قضاة المدينة الشريفة عرض عليه مكتوب ، وقف صحيح العبارة بمحكمة الشرع ، مضمونه : أن الأوقاف المشروحة به لا تؤخر إلا بشروط مرعية ذكرت فيه ، وعين فيه أمورًا لا تمكن الإحاطة بها إلا بعد قراءة المكتوب جميعه ، وقراءته تحتاج إلى زمن طويل ، فلما وقف مولانا الشريف حسن عليه قال من أول نظرة : هذا فرع من أصل يحتاج إلى اتصال وثبوت بالطريق الشرعى ، فعرض له القاضى المشار إليه بأن مثل هذا يبعد تزويره ، وأن الخصم فى ذلك السيد مانع أمير المدينة الشريفة وهو أميركم ، وكان مولانا الشريف حسن متكئًا ، فاستوى جالسًا ، ثم استقبل القبلة ، وقال للقاضى : يا مولانا سيدى ووالدى الشريف الكبير أبو ندى ليس عندى على وجه الأرض أحب منه وأكرم ، ومع ذلك والله العظيم وحق هذه الكعبة المديجة لو ارتكب باطلا ما وافقته عليه ، فإن قلتى ثبت عندى هذا المكتوب حكمت بموجبه على الفور .

فعجب القاضى المذكور من فرط ذكاء مولانا وسرعة فهمه ومثانة ديانته وتحير منه

واستحيا من قوة معرفته بالمقصود واستوائه جالسًا. ثم ذكر والده الكريم، وتقرير محبته وطاعته له، ثم فسر بعدم موافقته على الباطل، وهذا من نور النبوة بلا شك ولا ريب.

ومن ذلك أن جميع ما يرقمه للخاص والعام يبدؤه بذكر الله تعالى، ويختمه بالصلاة والسلام على جده محمد خير الأنام.

ثم يتبع ذلك بقوله: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وفى ذلك ما لا يحد من الخير ولا يحصى، ولا يحصر ولا يستقصى.

ويكفيك أنه من أفعال العلماء العاملين والصلحاء الكاملين.

ومن ذلك: معرفته للعبارة التركية، وأكثر اللغة الفارسية، وغيرهما من ألسن البرية، ولكنه لا يكتب بذلك ولا يتكلم، حذرًا من غلطة لسان أو سبق قلم فيستعمل الترجمان في الكلام، وكذلك في المكاتيب على الدوام.

ومن ذلك: أنه إذا اشتكى عليه صاحب ظلامة، أو دعوى يسمع شكواه جميعًا ثم يتشاغل عنه ثم يستعيده ما قال، فإن اختل كلامه اختلالًا فاحشًا استدل على عدم صدقه، وأقبل عليه بوجه يليق به.

وفى هذا من الكمال ما لا مزيد عليه، وهو كونه يحفظ القصة مع طولها من أول سماع، ثم يستنبط من مخالفة ألفاظها حكمًا بالغة يقف بسببها على حقيقة أمر صاحبها، وليس ذلك إلا من إلهامات إلهية مستفادة من قوله ﷺ: «الحاكم ينظر بنور الله تعالى».

ذكر كرمه وجوده وإنعامه على وفوده، خصوصًا العلماء والصلحاء والفقراء والشعراء.

فمنه عند زيارة جده ﷺ، وذلك أنه فى أول عام ولايته للأقطار الحجازية أخبر من يعتمد على نقله أن عطاياه للعلماء والشعراء فقط كانت ما يزيد على ألفى دينار ذهبًا جديدًا.

ومنه، وهى من عطاياه الشريفة، وتفرداته وأوليائه المنيفة: أنه إذا عقد نكاحًا لنفسه أو لأولاده يطلب أعلام العلماء وأعيان الصلحاء؛ تبركا بحضرتهم، واغتنامًا لدعوتهم، فإذا تم ذلك العقد أمر بكتابة أسماء الحاضرين، ثم يعين لكل منهم شيئًا

نافعًا من المال مصلحًا للبال، مع تمييز أهل العلم والصلاح، والشرف والدين والفلاح.

ومن ذلك: ما أخبر به مولانا العالم العامل الفقيه حاتم القاضى الشافعى بناحية «صبيا» أن فى صحبته، وصحبة غيره عدة قصائد جاء بها من اليمن فى مدح الشريف حسن.

وأنه أجاز شعراء اليمن مع عدم حضورهم ما يجاوز ألفين من الدنانير الذهب الجديد، وأن جائزة كل شاعر يرسلها إليه مع حامل قصيدته. وقال: هذه كانت عادته دامت سعادته، وذلك على الاستمرار، مع جميع الشعراء من سائر الأقطار.

ومن ذلك: ما أخبر به بعض حملة القرآن العظيم، المتشرفين بمدح جده الرسول الكريم. قال: حضرنا بين يدى مولانا الشريف حسن، فى صبيحة ليلة عرسه على بعض الشريفات المخدرات فى جمع عظيم بمكة، فقرأنا ما تيسر من القرآن العظيم، ثم أنشدنا ما يسره الله من المدائح الشريفة، فوصلت إلى مولانا الشريف معشرة متوسطة مملوءة من الذهب الجلالى. واحد بعشرة من قبل عمة السلطان جلال الدين أكبر، فأمر بجميعها لأهل المديح المذكورين. مع كثرة ما فيها، ولم ينظر إليها إلا نظر إحاطة لأجل المكافأة، وقال: هذا نصيب الجماعة، رفع الله ذاته الشريفة الفاخرة، وجمع له بين خيرى الدنيا والآخرة.

ومن ذلك: أنه زار فى بعض الأعوام قبر جده عليه الصلاة والسلام، وكان عادة ساداتنا حماة الحرمين الشريفين لما وصلوا إلى الزيارة يتصدقون على جيران الحضرة النبوية صدقة خاصة تشتمل على أسماء العلماء والحكام والصلحاء والخدام، وسكان الربط والأرامل والأيتام، والعساكر السلطانية الخيالة والحصارية، وخدام العمائر الخاقانية، وخدام العين الزرقاء الروية، ولكل اسم قدر معين من الأشرية الفضة كل أشرى عشرة محلقة، فأمر مولانا الشريف حسن أن يجعل مكان كل أشرى فضة دينار جديد ذهب.

ثم اتفق لمولانا زيارة ثلاثة صرف فيها أموالا جزيلة فى وجوه متعددة. منها: أنه أمر بالصدقة أن توزع على عاداتها القديمة، فلما صرف معظمها قال له

السيد محمد بن سعد نقيب الأشراف بالمدينة المنورة: إن في هذا الدفتر المبارك جماعة كانوا صغاراً فكبروا، وبالعلم تقدموا وتصدروا، فاستوجبوا من مولانا كمال العناية ووافر الرعاية.

فأجاب جواباً شاملاً لأعلى مراتب الفضل والأدب، وأجل مناصب السؤدد والحسب، وقال: إن هذا الدفتر أمره لمولانا الوالد الشريف أبى نعى فيصرف على حكمه من غير زيادة ولا نقصان، ثم جدد دفترًا برسم زيادة الإحسان لمن ذكرنا عاليه من عظماء السادة، ثم أنعم على أهل الدفتر الجديد بأضعاف ما هو مقرر فى الدفتر السابق، ثم برز أمره الشريف بأن يعطى لكل من وصل معهم من الأتباع، وأتباع الأتباع عطاء لا تُقًا بمقامه الخطير، عم القريب والبعيد، والأحرار والعبيد، والصغير والكبير.

ثم تصدق صدقة مخفية بعد أن مضى ثلث الليل على العميان والمرضى، والنساء والعاجزين من الزمنى، والمقعدين قصدهم بذلك إلى أماكنهم، قيل: بنفسه الشريفة، وقيل: مع من يعتمد عليه.

ومن حسناته التى تفرد بها: أنه كان فى كل زيارة عند منصرفه من باب الحرم النبوى يأخذ فى يده الشريفة كيسًا مملوءًا من الذهب والفضة، ثم يجتمع عليه فقراء الحضرة النبوية وأطفالهم لما هو مقرر معلوم عندهم من إحسانه، فيلاطفهم عند كل محل فسيح، ثم يقول: أنثر عليكم من هذا المال؟ فإذا قالوا: نعم، نثر عليهم من ذلك جملة فيزدحمون على أخذ ذلك، وهو ينظر إليهم مع كمال السرور والفرح، ويستمر على ذلك مرة بعد أخرى حتى ينفد جميع ما عنده.

واتفق له - رحمه الله رحمة واسعة - فى بعض زياراته المقبولة، وكان يفعل ما ذكر من نثر الدنانير والدراهم، فاستوقفته امرأة تشكو عليه حالها.

فوقف لها والمطر نازل عليه من غير حائل، وهى آخذة بلجام فرسه مع غاية الازدحام يمينًا وشمالًا، وخلفًا وأمامًا.

فلم يبرح حتى انتهت شكواها، وتركت لجام الفرس باختيارها وهواها، فانظر إلى هذا المقام، أيها الناظر بعين الإنصاف، فما أجله من مقام، ولا غرو فذلك نفح طيب سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام.

ومما مدح به مولانا الشريف حسن ما قاله العلامة الفاضل الشيخ نور الدين على الشهير بالجسم، معارضاً لزائفة الطيبي، وعبد الرحمن الكثيري فقال: [من الخفيف]

خطرت في موشيات الخروز وتثنت بأسمر مهزوز
ونضت من جفونها النغس سيفا فأراقت دم الفتى المحروز
وأماطت عن العقيق فأبدت بارقا من وشاحها الفيروزي
وتثنت فللحلى تناغ في قضيب من خالص الإبريز
غادة في وشاحها حين تبدو من لآلى حليها في جروز
غادة تسلب البدور إذا ما سمرت عن موشم مغروز
غادة قد سعت بكاس مدام مزجته بالغنج والتغميز
خندريسا دفعت عقلى فيها حين همت من دونها بالبروز
لبست من حبابها تاج دُر فجلاها مديرها في خروز
هى شمس يديرها بذر أفق فوق لذن مثقف مهزوز
إسقنيها مزجا بظلم لماها كى أداوى بها لظى تموز
إسقنيها ودغ مقال سفيه قد أطال الجدال فى التجويز
إسقنيها على الشروط فإنى أمرؤ لا أقول بالتجليز
إسقنيها فى روضة من شقيق طررتها يد الحيا تطريز
إسقنيها وهادل الورق يشدو فوق شاطى النهور بالملغوز
إسقنيها مع كل أحور أحوى كامل الحسن كالقنا المركز
إسقنيها وعنفوان شبابي يافع والسرور حال النهوز
إسقنيها فزوج الكهل ظلما بعجوز تمشى على عكوز
إسقنيها قديمة العهد بكرًا توجتها الملوك حال البروز
إسقنيها فما خلاصى منها غير مدجى لنجل طه العزيز
حسن من رقى سمو المعالى فهو للفضل والثنا كالمجيز
ملك لو توعد الدهر يوما أصبح الدهر منه فى تفيز
كفه إن تجافت السحب غيث وذقه باللجين والإبريز
زاده الله فى البسيطة بسطا وحماء بحفظه المحروز

ووقاه من حادثِ الدهرِ طُرًا ما تلى الذِّكرُ فى الكتابِ العزيزِ
وقال الشيخ على المذكور أيضًا يهنيه بالظفر فى غزوه جبلِ شمر، وإيقاعه بيني
لام، وذلك سنة أربع وستين وتسعمائة: [من الخفيف]

كيف يكفيك من دم الأبطالِ ما أسألت لك الظبا والعوالي
قد بكت رحمة عليهم مواضي ك نجيعًا جرى بميم ودالِ
وانثنت عنهم الرماح امتنانًا بعد جازت مراتب الإعتدالِ
لم تزل ممتط لهم كل غادِ سابق فى النفوس والأموالِ
ذى جبين مغررٍ بالثريا وأيادٍ منعولة بالهلالِ
وأديم قد شق من شفق الأقدى ق وعذو كالريح فى الإرسالِ
وحسامًا يروى عن المجد قولاً أعربته الرماح بالأفعالِ
أعجمى لكن له ترجمانٌ بلسانِ الطلا فصيحُ المقالِ
كلما كلم الرؤوس بلفظ صدقته الأعناق بالإنفصالِ
وجيادٍ جزد تخوض المنايا لبلوغ المنى وحسن المالِ
وليوث تلقى الحتوف اشتياقًا كلقى الحبيب حين الوصالِ
يا مليكًا رمى الزمانَ بسهم لم يكن للزمان منه ببالِ
زعم الدهر أن يصيب رعايا ك بضيم حاشاك من ذا المحالِ
ما درى الدهر أى قرم نزالِ إعتراه وأتى خصم جدالِ
ما درى أنك المليك الذى سد ت جميع الملوك بالإجمالِ
ما درى أنك الكريم الذى قد خُص بالمكرمات من ذى الجلالِ
ما درى يابن فاطم وعليّ وابن خيرِ النساء وخير الرجالِ
أنك الماجد الذى عم أهل الأرض شرقًا ومغربًا بالنوالِ
ما درى أنك الذى لا تلاقى فى نزالٍ ولا يشم الجبالِ
يسأم المجد والدواوين والأقدى لام والفضل والحجى والمعالِ
والعوالى والمشرقية والغا رات والخيل واللقا والنزالِ
كم تخطت صدرًا وشكت فؤادًا وتمطت بمفرق وسبالِ
وأسألت فى الشرق سيل نجيع سار فى الغرب بالرواسى الثقالي

وَسَبَتْ حَلَّةً وَحَلَّتْ مَحَلًّا
 مَا بَنُو لَامَ مَا قِبَائِلُ نَجْدٍ
 إِنْ هُمْ فِي لِقَاكَ إِلَّا شِيَاءُ
 جَعَلْتَهُمْ بِزَاتِكَ الشُّهْبَ طُعْمًا
 حِينَ أَمَطَرْتَهُمْ سَحَابَ الْمَنِيَا
 وَالرَزَايَا لَحَيْلُهَا وَاثْبَاتِ
 أَيْنَ مِنْهُمْ حَلْمٌ وَصَفْحٌ جَمِيلٌ
 لَوْ أَتَوْا حَاقِنِي دِمَاهُمْ لَفَازُوا
 وَغَدُوا فِي مَسْرَّةٍ وَهْنَاءِ
 غَيْرَ أَنْ إِلَهَهُ جَرَّدَ فِيهِمْ
 وَرِمَاهُمْ بِقَهْرْمَانٍ مَلُوكِ الْ
 حَسَنِ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ عَظِيمِ الْ
 مَخْجَلِ الْبَدْرِ قَاهِرِ الدَّهْرِ مَزْرِي الْ
 حَقِيقَتِ بِالسَّعُودِ رَايَاتُهُ الْبَيْدِ
 دَامَ لِلدِّينِ نَاصِرًا فِي نَعِيمِ
 مَا هَمَّتْ فِي الْعَدَا بَرُوقُ مَوَاضِيهِ
 وَشَدَّتْ مَادِحِي عُلاَّهُ وَقَالَتْ
 وَقَالَ أَيضًا يَمْدَحُهُ، وَيَهْنِيهِ بِالْفَتْحِ، وَيَعِزُّهُ بِعَمِّهِ السَّيِّدِ حَازِمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

[من الخفيف]

أَهْ مَابِي مِنْ جَلَنَارِ الْخُدُودِ
 وَمَصَابِي مِنْ مَائِسَاتِ قُدُودِ
 كُلِّ هَيْفَاءٍ تَنْثَنِي بِقَوَامِ
 ذَاتِ ثَغْرِ كَالدَّرِّ فِي لَازُورِدِ
 نَافِحٍ عَنْ مَسْكَ ذَكِّي وَعَطْرِ
 يَلْمَعُ الْبَرْقِ وَالْدَرَارِي تَوَارِي
 كَمْ حَلَا لِي فِيهِ التَّغْزُلُ مَعَ كُلِّ
 وَعَذَابِي مِنْهَا بِذَاتِ الْوَقُودِ
 أَطْلَعْتَ بِالْبَهَا ثَمَارَ النُّهُودِ
 غُضُنَ بَانٍ عَلَى كَثِيبِ زُرُودِ
 بِرَضَابٍ يَحْكِي ابْنَةَ الْعَنْقُودِ
 عُنْبِرِي وَفَاتِقٍ عَنْ وَرُودِ
 حِينَ تَفْتَرُّ عَنْ شَتِيَّتِ بَرُودِ
 لِي غَزَالٍ وَغَادَةِ أَمْلُودِ

حبذا دولةُ الشبابِ وعُضْرُ
 زُرْتُهُمْ والشبابُ يشْفَعُ لى وال
 فى ليالٍ بسامرٍ فى رياضٍ
 بين آسٍ ونرجسٍ وورودٍ
 وحمائمٍ الأراكِ تشدو بمَذْحِ ال
 حَسَنُ الذاتِ والصفاتِ بدا فى
 قمرٍ أشرقَ الحجازِ ووجهُ ال
 فظننا عيسى بن مَزَيْمٍ قد جا
 فَهُوَ إِنْ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا فَإِنَّ ال
 وابنُ مَنْ جاء بالهدايةِ والرشدِ
 وابنُ مَنْ قد شَقَّ السمواتِ عَزَمًا
 زُرُهُ إِنْ شِئْتَ أَنْ تَزُورَ سُلَيْمًا
 شَيْدَ الدينِ بالعوالى وأضحى
 وَحَمَى البيتِ والحطيمِ بيضٍ
 وبِخَيْلٍ سوابقٍ وجيادٍ
 لابساتٍ من الدماءِ جلابيدٍ
 ترتعى فى سحابةٍ من نسورٍ
 وبغابٍ من القنا والعوالى
 قاذفاتٍ بكلِّ ظنبي غريرٍ ال
 وبهم أبيض المحيا مُغِيرٍ ال
 واهبُ الخيلِ والممالكِ والأع
 يختشى الدهرُ من سطاهِ وَتَخْشَا
 ناشرًا من لوائهِ كُلِّ عدلٍ
 كتب النَّصْرَ فى حواشيه إني
 دَامَ فى رفعةٍ ونَشْرِ وَطْئٍ
 ما همى الغيثُ بالربا وأضأ البَذْ

بالتصايبِ قد مَرَّ كالمطروِدِ
 عَيْشُ يخضرُ منه يانعُ عودي
 مشرقاتٍ فى ظلها فى عقودٍ
 كعذارٍ وناظرٍ وخُدودٍ
 ملكِ الأمجدِ الكريمِ الجدودِ
 أفقِ المجدِ بَذْرُ هذا الوجودِ
 كونٍ من نوره وهو فى المهودِ
 ء لإصلاحِ دَفَرنا المفسودِ
 أنبياءِ الكرامِ سامى المجدودِ
 لِ وَسَنَ الحدودِ فى المحدودِ
 ودنا من إلهِ المعبودِ
 نَ جلالاً وصالحاً فى ثمودِ
 بالمعالى كالوالهِ المعمودِ
 مسرفاتٍ تجاوزتْ فى الحدودِ
 سابحاتٍ تدوسُ قلبَ الحسودِ
 بَ تهادى مخضباتِ الزنودِ
 وأُسودٍ من جيشهِ والجنودِ
 مرسلاتٍ لغلِّ قلبِ الحقودِ
 لَحْظَ لَكَنَّ الْقَلْبَ من جلمودِ
 بَذْرُ بالثَمِّ والبها والسعودِ
 مارٍ والرزقِ للعبادِ الوفودِ
 هُ المنايا بالحادثاتِ السودِ
 باسطاً فى بساطهِ كُلِّ جودِ
 عَبْدُ رِقٍّ لذلك المعقودِ
 للمعالى وخافقاتِ البنودِ
 رُ فحاكى لبشرهِ المعهودِ

واستهلَّتْ بالشرقِ سخبَ غَزَارٍ
 حازم الملكِ سيدَ الشَهِدَا مَنْ
 غسلته حور الجنانِ مَعَ الوُدِّ
 وادرجته الأملأُكُ فى سندسٍ
 فعزاء آلَ النبىِّ بحقِّ
 وهناء بالصومِ فى رمضانِ
 دُمْتَ للملكِ والممالكِ والخذِّ
 ما هَمَى الغيثُ حاكياً جودَ كَفَيْدٍ
 وغدا طائرُ الجوانحِ مِنِّى

وقال الشيخ عبد الرحمن بن أبى كثير يمدحه: [من الخفيف]

أَسْعَفِى الصَّبَّ باللقا والتلاقي
 وارحمى من يد الهوى أَسْلَمْتُهُ
 مستهماً له التصبُّرُ أضحى
 هام فى حُبِّ غادة لو أعارَتْ
 ظَلَمُهَا القرقفى يسقى أَقَاخَا
 حف دُرّاً بها زُمُرْدُ وشَم
 حرسَتْهُ منها بعثال^(١) قَدْ
 وبه قد حَمَتْ دروراً لذيذاً
 لو أرثَكَ الأثيثُ فوق المحيَّا
 شِمْتَ بدرًا يضىء فى جنح ليلٍ
 أياستنى بقسوة القلبِ لكنْ
 فكأنى فى الحُبِّ ما بين يأسٍ
 لم تفوق سهماً من الحسنِ إلا
 أسقمتنى منها جفونٌ ضعافٌ
 هى دائى وأطلبُ البرء منها

(١) عثل يعثل عثلا: كثر وضخم وغلظ. الوسيط (عثل).

فَاتَكَ لَخْظُهَا وَلَمْ تَرَ عَضْبًا
 وَبِهِ قَدْ عَزَتْ فِكْلُ فَوَادٍ
 كَمَوَاضِي سُلْطَانٍ مَكَّةَ لَمَّا
 حَسَنَ مَنْ لَهُ الْمُلُوكُ عَبِيدُ
 مَلِكٌ مَا لَهُ مِنَ الْخَلْقِ مِثْلُ
 مَلِكٍ مَنْ رَأَاهُ يَسْجُدُ دُلًّا
 مَلِكٌ لَوْ بِهِ الْبَرِيَّةُ لَاذُوا
 مَلِكٌ مَلِكُهُ رِيَاضُ أَمَانٍ
 مَلِكٌ مَلِكُهُ سَمَاءُ مَعَالٍ
 مَلِكٌ قَدْ تَلَا الْكِتَابَ عَلَيْنَا
 فَهَوَّ إِنُّنَّ الضَّحَى وَطَهُ وَيَاسِي
 كُلُّ مَلِكٍ فَعَيْنُهُ لِمَعَالِي
 بَدُرُ كُلِّ الْمُلُوكِ فِي أَفْقِ الْمَدَى
 بِحِلَاةِ بَنُو الرُّسُولِ تَحَلَّتْ
 كُلُّ مَجْدٍ فَمَا لَهُ عَنْ مَدَاهِ
 فَالْدَرَارِيُّ فِي الْأَفْقِ قَدْ فَاقَهَا فِي
 بِاتْفَاقٍ فَاقَ الْمُلُوكَ عَلَوًّا
 فَسَجَايَاهُ فِي الْعَلَا كَسَجَايَا
 فَاعْلَاتُ لَهُ بَيُوتُ ثَنَاءٍ
 أَلْمَعِيُّ يَدْرِي الَّذِي غَابَ عَنْهُ
 وَمَتَى أَسْقَمَ الثُّهْيُ كَشَفُ صَغْبٍ
 كَعَبَّةٌ تَقْصُدُ الْوُفُودَ حَمَاهَا
 قَدْ غَدَا لِلْحُقَاقَةِ فِيهِ مَعَاذُ
 وَأَنَامَ الْأَنَامَ فِي ظِلِّ عَدْلِ
 وَجَرَى رِزْقُهُمْ عَلَى رَاحَتِيهِ
 مِنْهُلِّ الْمَكْرَمَاتِ كَانَ أَجَاجَا

قَاتِلًا وَهُوَ مَغْمَدٌ فِي غِلَافٍ
 مَتَلَفٌ بِالْجِرَاحِ وَالْإِذْفَافِ
 يَنْتَضِيهَا لِلْفَتَكِ وَالْإِتْلَافِ
 كَالرَّعَايَا مَهْشُومَةُ الْآنَافِ
 فِي الْمَعَالَى وَمَا لَهُ مِنْ مُكَافِي
 لَوْ رَأَاهُ سَابُورُ ذُو الْأَكْتَفِ
 لَعَدَّوْا مِنْهُ فِي غِنَى وَكِنَافٍ
 مِثْمَرَاتٍ بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ
 آمَنُ بَذَرُهَا مِنَ الْإِنْخَسَافِ
 فِيهِ وَصْفًا مِنْ أَعْظَمِ الْأَوْصَافِ
 نَ وَطَاسِينَ وَابْنُ نُونٍ وَقَافٍ
 ذَاتُهُ لَا تَزَالُ فِي اسْتِشْرَافٍ
 كُ وَتَاجٌ لِهَامَةِ الْأَشْرَافِ
 وَذَوُوهُ وَأَلُّ عَبْدٍ مَنَافٍ
 مَانِعٌ مِنْ تَقَاصِرٍ وَانْكَفَافٍ
 شَرَفٍ بِأَذْحِ وَفِي إِشْرَافٍ
 وَعُلَا الْكُلِّ مَا خَلَا مِنْ خَلَافٍ
 حَيْدَرٍ جَدُّهُ بِغَيْرِ تَنَافٍ
 سَالِمَاتٌ بِسَعْدِهِ مِنْ زَحَافٍ
 بِذِكَاةٍ يَجْلُو لَهُ كُلُّ خَافِي
 فَتَجَدُّهُ يَزِيلُهُ كَالشَّافِي
 جَاعِلِي بَابِهِ لَهُمُ كَالْمَطَافِ
 وَمَلَاذُ وَمَأْمَنُ مِنْ مَخَافِ
 وَارِفٍ لَمْ يَزَلْ عَلَى الْخَلْقِ ضَافِي
 فَهَيَّ تَرْضَى كُلًّا بِرِزْقِ وَافٍ
 وَبِهِ صَارَ حَالِي الْوَرْدِ صَافِي

ورباه الذأوى غدا منه روضاً
فنداه قوادمُ الريحِ تَغِيَا
من يقسه بالسخبِ يخطي فهذى
وهو يعطيكَ باسمِ الثغرِ طلقاً
كاتباه لم يكتُبَا لفظَ منع
يهبُ الألفَ ثم لم يَهَبِ الألفَ
إن يَجْدُ فالنوالُ يملا الأراضى
ضيغمُ إن حمى الوطيسَ فأذكى
ورأيت الكماة تسقى مداماً
وحياضَ المنونِ تلجئُ كلاً
خاضه جاعلُ الفؤادِ دلاصاً
وبه اختالَ لابساً بردَ بأسٍ
وأبادَ الجيوشَ بالقتلِ حتى
ولكنم من جحافلِ صزنَ منه
ولكم من كتائبٍ من سطاؤه
فهو يخشى ويرتجى يوم بطشٍ
يا مليكاً قد جلَّ عن كل وصفٍ
لو نظمنا فيكَ الدرارى مديحاً
دُم لك الملكُ خالداً والعوالى
والجديدانِ يخدمانك طوعاً
والمقاديرُ فى مرضيك تسعى
وصلاةُ ختامها المسكُ تغشى
وكان الشريف حسن - رحمه الله - استخدم فى آخر عمره سنة ثلاث بعد الألف
بشخص من أبناء الحضارم، يسمى: عبد الرحمن بن عبد الله بن عتيق.

كان عبد الله بن عتيق تزوج بتاً من بنات الشيخ محمد جار الله بن أمين الظهيرى،
فجاءت منه بعبد الرحمن هذا وأخيه أبى بكر، فتحشر عبد الرحمن المذكور فى

الشريف حسن وبقي يفهمه النصيح في الخدمة، وسحر الشريف حسن إلى أن تمكن منه غاية التمكن، وبقي حاله كما قال الشاعر: [من السريع]

أمرُكَ مردودٌ إلى أمرِهِ وأمرُهُ ليسَ له رَدُّ

فتسلط عبد الرحمن المذكور على جميع المملكة، وتصرف فيها كيف شاء، وبقي كل من يموت سواء كان من أهل البلد، أو من التجار، أو من الحجاج يستأصل ماله بحيث لا يترك لوارثه شيئاً، ولا المحلق الفرد، فإذا تكلم الوارث أظهر له حجة أن مورثه كان قد اقترض منه في الزمن الفلاني كذا وكذا ألف دينار، ويقول: هذا الذي أخذته دون حقي وبقي لى كذا وكذا، وطريق كتابته لهذه الحجة وأمثالها على ما بلغنى ممن أثق به أن كتبه المحكمة تحت أمره وقهره، فيأمرهم بكتابة الحجة فيكتبونها، وعنده أكثر من مائة مهر للقضاة والنواب السابقين، فيمهرها ويأمر عبد الرحمن المحالبي أن يكتب إمضاء القاضى الذى قد مهر الحجة بمهره، ويكتب خاله الشيخ على بن جار الله، وأخوه الشيخ عبد القادر بن محمد بن جار الله شهادتهما. ويكتب الشيخ على أيضاً عليها ما نصه:

«تأملت هذه الحجة فوجدتها مسددة، ويشهد بذلك محمد بن عبد المعطى الظهيرى، وابن عمه صلاح الدين بن أبى السعادات الظهيرى، وأحمد بن عبد الله الحنبلى الظهيرى وغيرهم.

ثم إنه يظهر الحجة ويقرأها بين الناس.

وجميعهم يعرف أنها زور لا أصل لها ولا يقدرّون أن يتكلموا بكلمة واحدة خوفاً من شره وقوة قهره، واستولى بهذا الأسلوب على ما أراد كما أراد، وإذا شكى على الشريف حسن - رحمه الله تعالى - يقول: هذه حجة شرعية، وشهودها مثل هؤلاء الجماعة الأجلاء كيف أردّها؟ فنفرت قلوب الناس من ابن عتيق، وضجوا وضجروا، وكل من أمكنه السفر سافر، وما تأخر إلا العاجز.

وكان مولانا الشريف أبو طالب كلما سمع شيئاً من هذه الأمور تألم غاية التألم، فأول ما استقل بالسلطنة أرسل من المبعوث قبل وصوله إلى مكة رسله بمسك ابن عتيق، فمسك يوم الجمعة بعد العصر فى ساعة نحوسية، واستمر فى الحبس يوم السبت والأحد، فلما وصل الشريف أبو طالب وتولى أمر والده الشريف حسن ودفنه

استدعى ابن عتيق وسأله عن أفعاله فقال: قد فعلت جميع ذلك، ثم رده إلى الحبس. ففى ليلة الإثنين أخذ ابن عتيق جنيبة العبد الوصيف المرسم عليه وهو نائم، فاستيقظ العبد وخلصها منه، فلما أصبح الوصيف أخبر سيده الشريف أبا طالب بذلك، فجبذ جنيبته، وقال له: خذ هذه وقل لابن عتيق لا تسرق الجنيبة فى الليل، هذه جنيبتى إن كنت تريد أن تقتل نفسك فاقتلها، وأسرع بإرسالها إلى جهنم وبئس المصير.

فلما جاء الوصيف، وقال له ما قاله الشريف أبو طالب أخذها منه، وأدخل منها فى بطنه نحو إصبع ثم أخرجها، ثم أعادها وأدخل منها ضعف الأول، ثم أخرجها ثم أدخلها جميعاً، ثم أخرجها وقال: وامالى.

واستمر ذلك اليوم إلى ظهر الغد يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة من سنة ١٠١٠ عشر وألف، فخرجت روحه إلى غير رحمة، فقد كان مرتكباً جميع أنواع المعاصى، حتى لقد بلغنى من جماعة بكثرة أنه كان يسجد للشمس، وأما انتهاكه للشرع الشريف فشئ لا يوصف، وكان يتبجح، ويقول: الشرع ما نريده.

ولقد أبطل فى أيامه عدة من المسائل الشرعية كالوصايا والعق والتدبير، وباع أمهات الأولاد بأولادهم، قائلًا: هذه حجة شرعية أن فلاناً سيدها اعترف أن ماله جميعه لفلان فوطؤها حرام عليه والولد ولد زنا.

وكثيراً ما يأخذ حجة العتق، ويمزقها ويتملك المكتوب له العتق فيها حتى أنه بقى إذا مات شخص من أرباب الضرور والحبوب والجهات أظهر على المتوفى فراغاً من هذا الأسلوب، ويتناول المحلول جميعه، ثم هو يبيعه على شخص آخر، فسبحان الحليم الذى لا يعجل يمهل ولا يهمل، وقد قال ﷺ: «إن ربك ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يكن ليفلته»^(١).

فقد أخذ ابن عتيق على غرة وقتل نفسه، ورمى به فى درب جدة فى حفرة صغيرة بلا غسل، ولا صلاة ولا كفن، ورمت عليه العامة الأحجار.

وعملت الفضلاء فيه تواريخ، منها قول بعضهم: [من الرجز]

أشقى النفوسِ الباغيةَ إنَّ عَتِيقَ الطاغيةِ

(١) أخرجه البخاري فى التفسير (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣)، والترمذي (٣١١٠)، وابن ماجه (٤٠٨١)، والبيهقي (٩٤/٦).

نَارُ الْجَحِيمِ اسْتَعْوَدَتْ مِنْهُ وَقَالَتْ مَالِيَّةٌ
لَمَّا أَتَى تَارِيخُهُ أَجِبْ لَطْفِي وَالْهَآوِيَّةُ

ذكر هذا العلامة الخطيب المفتى عبد الكريم بن محب الدين القطبي، ومن خطه نقلت.

وهذا الشيخ عبد الكريم: هو ابن محب الدين أخى الشيخ قطب الدين المؤرخ النهروالى فيكون ابن أخيه وقطب الدين عمه.

وأما قطب الدين نفسه فلم يعقب سوى أربع بنات لا غير. انتهى.
وأرخت أيضًا وقاته بما لفظه: «يأتى من ألطف الله ما لا يكون فى البال»، ولهذا واقعة هى ما أخبرنى به بعض آل الخواجا الشهير بالكركية.

وذلك أن ابن عتيق كان قد قصد جدة بأذية من قسم أذاياه التى كان يؤذى المسلمين بها مما ذكرناه، وأمهله فى طلب المال ثلاثة أيام، فلما خرج الخواجا من عنده أتى بيته، وهو فى غاية التعب والقلق، فلما كان اليوم الثالث كان القبض عليه من خدام الشريف أبى طالب، ونفذ الله سبحانه فيه حكمه، وقد ألهم الخواجا المذكور تكرار قوله: «يأتى من ألطف الله ما لا يكون فى البال»، وألزم جميع أهله بتكرارها، ففرج الله عنه سبحانه، وكانت تاريخ وفاته كما تقدم ذكرها.

ثم وليها مولانا الشريف أبو طالب بعد وفاة والده الشريف حسن، إذ هو ولى عهده بعده، وظهر بالمظاهر الجميلة، ووطئ بأخمصه تاج المجد وأكليه.
واشتهر بالولاية الباطنة والظاهرة، والمكاشفات الواضحة الباهرة، وانتشرت فى الآفاق والأقطار له الكرامات الخارقة.

وكفاه سر الأسرار الغامضة، التى دونها السيوف البارقة، واستولى على الصياصى المتينة الرفيعة، والحصون المنيعه الصنيعة.

وهرعت إلى سيول نداء الورد، وسقيت بسبب جدواه الأكباد الصواد.
لم تزل دولته محفوظة، وأحواله بعين العناية ملحوظة.

مولده - رحمه الله تعالى - فى جمادى الأولى سنة ست وستين وتسعمائة.
فاستمر فى الملك إلى أن كان يوم الثلاثاء حادى عشرى جمادى الآخرة سنة اثنتى عشرة وألف، وصل مع أذان العصر خبر وفاته، وكانت بمحل قرب بيشة، فحمل

فى التخت على البغال إلى أن تقطعت وعجزت عن السير فحمل فى شبرية على بعير، ووصلوا به إلى مكة ضحوة يوم الأربعاء ثانى عشرى الشهر المذكور، وصلى عليه عند باب الكعبة الشريفة بعد أن فتحت، ونادى عليه الرئيس من أعلى زمزم، وحمل إلى المعلاة، ودفن بها وجعل على قبره قبة.

وكانت وفاته آخر ليلة الأحد تاسع عشر جمادى الآخرة.

وتأسف الناس على فقده إلى الغاية، فإنه - رحمه الله تعالى - كان كريماً ليس له نظير فى أهل بيته، إلا ما يحكى عن أخيه السيد حسين بن حسن. وكان مهيباً جداً يكسر من إحدى عينيه لا لعة بها.

ذكر عن جارية تصب القهوة بين يديه فى الديوان أنها أهوت لتأخذ الفنجان من أمام بعض الحاضرين فحبقت، فنظر إليها الشريف أبو طالب نظرة غضب، فلاذت ناحية عن الديوان، وتحاملت على غلصمتها بيدها فكسرتها وسقطت ميتة. فله منها شهامة حركتها هية.

ومما سمع من كرمه أنه قبل وفاته بأيام كان وقع من شيخ زعب جنابة فحبسه فيها. ثم أن جماعة الشيخ الزعبى طلبوا من الشريف أبى طالب أن يرضى عليه ويعطوه ما يطيب خاطره، واتفقوا بينهم على مائة فرس وألف بعير وكذا وكذا من الدراهم. ثم أحضروا جميع ذلك ووصلوا به إليه. فقال لهم: أنا ما كان مرادى إلا تأديب الشيخ الزعبى وليس غرضى فى طمع منه.

والذى وصلتكم به من الخيل والإبل هو معاد لكم. ولم يقبل من ذلك شيئاً. وكسا الشيخ الزعبى وجماعته الذين كانوا معه فى الحبس بعد أن أطلقهم، وأمر لهم بنفایع جسيمة. فانظر إلى ملك كريم عظيم الشأن. وأما إعطاؤه الألف الذهب وأمثالها فكثير.

ومما اتفق له أيضاً وذلك قبل أن يلى مكة أنه زار قبر جده محمد عليه السلام، فلما أمسى بوادى مر هو ومن معه أضافه رجل من أهل الوادى يقال له السودانى، فذبح الذبائح ومد الموائد وقدمها.

ثم بلغه أن الشريف أبى طالب لم يتعش من ذلك الطعام ولم يحضره لبعض أشغاله، فعمد السودانى المذكور إلى أربع أو خمس من الدجاج فذبحهن وطبخهن

وقدمهن على كيلتين من العيش فى زبدية كبيرة صينى، وجاء يحملها إلى الشريف أبى طالب، وقال: يا سيدى هذا عشاء عبدك اجبر خاطره جبر الله خاطرك. فغسل الشريف يده وأكل من تلك الزبدية لقيمات ودعا له ثم دخل مكة. فلما استقل بالولاية على مكة وفد عليه السودانى بعد سنة وقبل يده. فقال له الشريف أبو طالب: الزبدية التى تعشنا فيها عندك تعيش؟ فقال له: نعم يا سيدى موجودة.

فقال: اذهب فائتنى بها. فذهب إلى وادى مر وأتى بها. فأمر له فملئت له ذهباً أحمر كيل الزبيب، رحمه الله تعالى رحمة واسعة. وقد أخبرنى الثقة أنه حدثه من شاهد مجامر العنبر موقدة تسير مع نعشه من البيت إلى فراغ الدفن نحو ثلاثة عشر مجمرًا تعج فى الطرق والأسواق عجيج اللبان. ومما قيل فى مدحه قول العلامة المفيد، البارع المجيد، مولانا وجيه الدين عبد الرحمن ابن عيسى بن مرشد الحنفى مادحه وشارحًا غزواته المقرونة بالنصر والظفر، ومتخلصًا إلى مدح والده الشريف الحسن بن أبى نعى فقال: [من الكامل]

نَقَعَ العَجَاجِ لَدَى هِياجِ العَثِيرِ	أَذَكَّى لَدِينَا مِنْ دُخَانِ العَنبرِ
وَصَلِيلِ تَجْرِيدِ الحَسَامِ وَوَقَعُهُ	فِي الهَامِ أَشَدَّى نَغْمَةً مِنْ جَوْدِرِ
وَسَنَا الأَسْنَةَ لَامِعًا فِي قَسْطِلِ	أَسْنَى وَأَسْمَى مِنْ مَحْيَا مَسْفِرِ
وَتَسْرِيلِ فِي سَابِغَاتِ مَسَرِدِ	أَزْهَى عَلَيْنَا مِنْ سُدُوسِ أَخْضِرِ
وَكَذَاكَ صَهْوَةً سَابِجِ وَمَطْهَمِ	أَشْهَى إِلَيْنَا مِنْ أَرِيكَةِ أَحْوَرِ
وَلَقَا الكَمِيَّ مَدْرَعًا فِي مَغْفِرِ	كَلَقَا الغَرِيرِ بِمَقْنَعِ وَبِمَخْمِرِ
أَلَفَتْ أَسْنَتَنَا الِوَرُودِ بِمَنْهَلِ	عَلَقَتْ بِهِ عِلْقَ النَجِيعِ الأَحْمَرِ
وَسِیْوَنَا هَجَرَتْ جَوَارِ غُمُودَهَا	شَوْقًا لِهَامَةٍ كُلُّ أَصِيدٍ أَصْغَرِ
فَتَخَالَهَا لَمَّا تَجَرَّدَ عِنْدَ مَا	هَاجَ القِتَامُ بِوَارِقَا بَكْنَهْوَرِ
وَصَهِيلِ جُزْدِ الخِيلِ خِيلِ كَأَنَّهُ	رَغْدٌ يَزْمَجُرُ فِي الجَدَا المِثْعَنْجَرِ
وَدَمَّ العَدَى مِتْقَاطَرًا مِتْدَفَقًا	كَالْوَبْلِ كَالسِيلِ الجَرَاكِ الحَوَرِ
وَرءَ وَسْطِهِمْ تَجْرَى بِهِ كَجَنَادِلِ	قَذَفَتْ بِهَا مَوْجَ السَّيُولِ المَقْمَرِ
غَشِيَتْهُمْ فِي العَامِ مَنَا فَرْقَةً	تَرَكَّتْ فَرِيقَهُمْ كَسَبَسَبِ أَقْفَرِ

أودَّتْهُمْ قَتْلًا وَأَطْبَقَهُمْ إِلَى
 تَرَكَتْ صَحَارِيَهُمْ مَوَائِدَ ضَمِنَتْ
 وَدَعَتْ ضِيُوفَ الْوَحْشِ تَقْرِيهَا بِمَا
 فَأَجَابَهُ مِنْ كُلِّ غِيلٍ زَمْرَةٌ
 وَأَظْلَهَا ظِلُّ نَشَاطِ سَحَابِهِ الـ
 فَبَرَاثِنُ الْأَسَادِ تَضَبُّتْ فِي الْكَلَا
 شَكَرَتْ صَنِيعَ الْمَشْرِفِيَةِ وَالْقَنَا
 فَغَدَّتْ قُبُورُهُمْ بَطُونُ الْوَحْشِ مِنْ
 وَخَلَّتْ دِيَارَهُمْ وَأَقْوَى رَبْعُهُمْ
 أَنْفَتَ مِنْ اسْتِقْصَاءِ قَتْلِ شَرِيدِهِمْ
 فَثَنَّتْ أَعْنَةَ خَيْلِنَا أَجْيَادِنَا
 حَتَّى إِذَا حَانَ الْقَطَافُ لِيَانَعِ
 عَصَفَتْ بِهِمْ رِيحُ الْمُنُونِ فَأَلْقَحَتْ
 فَدَعَتْ سِرَاةَ كِمَاتِنَا لِقَطَافِهَا
 فَتَجَهَّزَتْ لِحَصَادِهَا فِي فَيْلِقِ
 مَلَأَ تَتَوَّقُ إِلَى الْكَفَاحِ نَفُوسُهُمْ
 يَغْشَوْنَ أَبْطَالَ الْوُطَيْسِ بِوَاسِمَا
 وَتَخَالَهُمْ فَوْقَ الْجِيَادِ لَوَابِسَا
 فَإِذَا هُمْ أَزْدَحَمُوا بِجَزَعٍ وَانْثَنُوا
 جَيْشٌ طَلَانَعُهُ الْأَوَابِدُ أَنْ تَصْخُ
 بِقَتَادَةِ الْمَلِكِ الْمَشِيحِ كَأَنَّهُ
 مَلِكٌ تَدْرُعُ بِالْبَسَالَةِ فَاغْتَنَى
 مَلِكٌ تَتَوَجَّ بِالْمَهَابَةِ فَاكْتَفَى
 مَلِكٌ إِذَا مَا جَالَ يَوْمَ كَرِيهَةٍ
 مَلِكٌ يَجْهَزُ مِنْ جِحَافِلِ رَأْيِهِ
 مَلِكٌ تَسْنِمُ ذُرُوءَ الْمَجْدِ الَّتِي

أَنْ حَطَّمِ الْخَطِيئُ ظَهَرَ الْمَدِيرِ
 أَشْلَاءَ كُلِّ مَسُودٍ وَغَضَنْفِرِ
 أَقْرَى الْمَهْدِّ وَالْوَشِيحِ السَّمْهَرِ
 تَحْدُو مَنَارَ عَمَلَسٍ أَوْ قَسُورِ
 مَرْكُومِ أَجْنَحَةِ الْبَزَاةِ الْأَنْسَرِ
 وَمَخَالِبِ الْعُقْبَانِ تَنْشُبُ فِي الْمَرَى
 إِذْ لَمْ تَضْفِهَا الْهَيْزُ غَيْرَ مَهْتَرِ
 هَا يَبْعَثُونَ إِذَا دَعَا لِلْمَحْشَرِ
 وَسَرَى السَّرَى مَشْمَرًا عَنْ شَمْرِ
 كَيْمَا يَخْبِرُ قَائِلًا عَنْ مَخْبَرِ
 عَنْ قَتْلِ كُلِّ مَزْنَدٍ وَخَزُورِ
 مِنْ أُرُوسٍ تَرَكَتْ وَلَمَّا تَوْتَرِ
 وَتَحَرَّكَتْ بِزِعَازِعٍ مِنْ صَرَصِرِ
 بِأَنَامِلِ الْقَضْبِ الْأَصْمِ الْأَسْمِرِ
 لَوْ يَسْبُحُونَ بِزَاخِرٍ لَمْ يَزْخِرِ
 تَوْقَانِهَا لِلْقَا الرِّدَاحِ الْمَعْصِرِ
 كَاللَيْثِ إِنْ يَلْقَى الْفَرِيَسَةَ يَكْشِرِ
 سَدًّا تَمُوجُ بِالْحَدِيدِ الْأَخْضَرِ
 أَوْزَى زَنَادُ دُرُوعِهِمْ نَارًا تَرَى
 لَوْجِيهِهِ مِنْ قَيْدِ شَهْرِ تَنْفِرِ
 بَيْنَ الْعَوَالِي ضَيْغَمٌ فِي مَزَارِ
 يَوْمِ الْوَعَى عَنْ سَابِغٍ وَسَنُورِ
 عِنْدَ الطَّعَانِ لِفَرْقِهِ عَنْ مَغْفِرِ
 لَمْ تَلْقَ غَيْرَ مَجْدَلٍ وَمَعْفَرِ
 قَبْلَ الْوَقِيْعَةِ جَحْفَلًا لَمْ يَنْظُرِ
 مِنْ دُونِهَا الْمَرِيخُ بَلْ وَالْمَشْتَرَى

ملكٌ تذكّرنا مواقعُ عَضْبِهِ
 ملكٌ إذا ما جادَ حدثُ مسنَدَا
 ملكٌ سما عن أن أُصْرَحَ باسمه
 ملكٌ قفا سننًا سننًا سنه
 الأشرفُ الشَّهْمُ الذي خَضَعَتْ له
 الأفضَلُ السَّنْدُ الذي بجنابه
 الأكملُ النَّدْبُ الذي أوصافُهُ
 الأكرمُ المفضالُ مِنْ إحسانه
 ذو الهِمَّةِ العليا الذي قد نالَ ما
 شرفًا تقاعَسَتْ الثوابُ دونه
 هَبْنَاهُ بمنطقةِ البروجِ مقرُّها
 كلا فكيفَ بمن حواها جامعًا
 أعظَمَ بها من نسبةِ نبويةِ
 قد شرفتْ بدءًا بأشرفِ مرسلِ
 فخرِ الخلائِفِ دُرَّةُ التاجِ الذي
 بَشَّرَ ولكنَّ في صفاتِ ملائِكِ
 لم تلقه يومئِ عطا ووغى سَوَى
 يلقي العفَاةَ وَقَدْ تَلَأَ وجهُهُ
 يعفُو عن الذنبِ العظيمِ مجازيًا
 يا سيِّدَ الساداتِ دونكَ مِدْحَةٌ
 قد فضِّلْتَ بلالئِ المدحِ التي
 وَاثَقَتْ ترفُلُ في برودِ بلاغةِ
 صاعَتْ حلاها فكرةً قد زانها
 ما شانها نَظْمُ القريضِ تكسبًا
 ما شانها إلا اكتسابُ فضائلِ
 فوردتْ منهلها الروى فلم أجدْ

في الهامِ وقعةً جدُّه في خيرِ
 عن جودِهِ جودُ الغمامِ الممطرِ
 لسموهِ عن كُلِّ وصفٍ مشعرِ
 للمجدِ والده الزكَّى العنصرِ
 شَمُ الأنوفِ وكلُّ جحجاجِ سَرَى
 لآذِ الغطارقةِ الألى من حميرِ
 أنستَ سما الوضاحِ وابنِ المنذرِ
 أربى على كسرى الملوكِ وقيصِرِ
 عنه تقصُرُ همّةُ الإسكندرِ
 لو لم تُمدَّ بنوره لم تُزهَرِ
 أمناهِز هذا بُنُوَّةُ حيدرِ
 نسبًا سما بأبوةِ المدثرِ
 علويةً تنمى لأصلِ أطهرِ
 ونهايةِ بالسيدِ الحسنِ السَّرى
 بسواه هَامُ ذَوَى العُلا لم يفخرِ
 جُلَيْتَ لنا أخلاقُهُ فاستَبصرِ
 طَلَقَ المحيّا في حلا المستبشرِ
 بسنا السرورِ وذاك أنضُرُ منظرِ
 جانيه بالحسنى كأنْ لم يوزرِ
 نفَحَتْ بعرفٍ مِنْ نذاك معطرِ
 وَقَفَ ابنُ أوسٍ دونها والبحثريِ
 وبراعةِ لبرودِ صَنَعَا تزدريِ
 شَمَمُ الإباءِ من امتداحِ مقصُرِ
 لولا مقامُكَ ذو العلا لم تشعرِ
 تغنيه عن شَرَفِ العظامِ الثَّخِرِ
 أحداً فنلتُ صفاه غيرَ مكدرِ

فَنَهَلْتُ مِنْهُ وَعَلَّنِي بِنَمِيرِهِ
وَطَفِيفْتُ فِيهِ غَائِصًا لِلْأَلَى
لَا تَدْعُنِي الْعَلِيَا رَضِيعَ لِبَانِهَا
خُذْهَا عَقِيلَةً كَسِرِ خَدِرِ فَصَاحِيَةٍ
جَمَعْتَ فَصَاحَةً مِنْطَقِ الْأَعْرَابِ مَعَ
لَوْ شَامَهَا قُسٌّ لَمَا سُمِعَتْ لَهُ
شَرَفَتْ عَلَى مَا عَارَضَتْهُ بِمَذْحِ مَنْ
فَاسْتَجْلِيَهَا وَافَتْ تَهْنِئَ بِالَّذِي
نَصَرَ تَهْزُ بِنُودِهِ رِيحَ الصَّبَا
هُوَ نَجْلُكَ الْمَنْصُورُ دَامَ مُؤَيِّدًا
لَا زِلْمًا فِي ظِلِّ مُجْدٍ بِأَذْخِ
مُسْتَمْسِكِينَ بِهَذِي جَذْمِ الَّذِي
أَهْدَى إِلَهُ صَلَاتَهُ وَسَلَامَهُ
وَلَا إِلَهَ وَصَحَابِيهِ وَالتَّابِعِيهِ
مَا اسْتَنْشَقَ الْأَبْطَالُ فِي يَوْمِ الْوَعَى
وَقَالَ الْإِمَامُ عَبْدُ الْقَادِرِ بْنُ مُحَمَّدٍ الطَّبْرِيُّ مَادِحًا أَبَاهُ وَمَتَخَلِّصًا إِلَى مَدْحِهِ: [مَنْ

الكامل]

قَدْ أَقْبَلْتُ رِيحَ الْقَبُولِ بِعَثِيرِ
فَتَأَرَجَّتْ أَرْجَاءُ مَكَّةَ إِذْ رُوي
إِذْ ضَمَخَتْ أَيْدِي الْكِمَاةِ بِنَقْعِهِ
فَتَمَايَلَتْ عَذْبَاتُهُمْ بِشِمَالِهِ
هَزَّتْهُمْ نَحْوَ الصَّبَا رِيحَ الصَّبَا
هُمْ فَتِيَّةٌ لَا يَطْرُبُونَ حَيَاتَهُمْ
جُوبُ الْمَهَامِيهِ صَارَ مَنْقَبَةٌ لَهُمْ
مِنْ كُلِّ أَصِيدٍ لَا يَرَى مِتْلَفَتًا
شَهْمٌ عَلَنَدَى بِالْوَشِيحِ مَوْشَحِ
نَفَحَ الْقَبَائِلُ نَفْحَةً مِنْ عَنَبِ
خَبَرِ الْوَقَائِعِ فِي الْمَجَامِعِ عَنْ بَرِي
وَبِمَسْهَا الْعُودِ الرُّطِيبِ السَّنْهَرِي
لَا بِالشُّمُولِ وَلَا الْعَبِيرِ الْأَذْفَرِ
وَالْغَيْرِ هَزَّ بِكُلِّ نَكْبَا صَرَصَرِ
إِلَّا بِحَرْبٍ أَوْ بِرَحْبٍ مَقْفَرِ
أَبَدًا وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ غَضَنْفَرِ
لِثَبَاتِهِ بَيْنَ الْعَدِيدِ الْأَكْثَرِ
لَا بِالْوُثِيحِ إِذَا دَعَى فِي الْمَحْضَرِ

ولدى المكرِّ تراه كالْمُسْحَنِفِرِ
 إلا رءوسًا أينعت من مثمرِ
 إلا مِنَ الْعَلَقِ النجيع الأحمرِ
 وهُم سِراةٌ فوق جردِ ضُمَرِ
 أغنتهم عن لبسِ كلِّ معصفرِ
 إلا بقذحِ جياذهم فى المحجرِ
 عند المسيرِ وتحتهم نارٌ ترى
 أبطالٌ فى الهيجا هياجِ مزمرِ
 مدَّ السواعد كان قدما زمخري
 لهب الوغى منه بأعسرِ مسعرِ
 لا يرتجى إلا لقاء عَشَنَزْرِى
 يخطو بمشية أرعنٍ متبخترِ
 شملته بين مزردٍ ومزردِ
 لا ينتضى إلا بكفِّ مقذحرِ
 نملُ المنايا دبهًا فى المحشرِ
 هام الشجاع المقدم المتهورِ
 بدمِ النياطِ بغربِ ذا العضبِ الفري
 من أبيضٍ فى أسودٍ فى أحمرِ
 ملسوبٍ ملسوبِ الفؤادِ المسهرِ
 لولا يدُ الحسنِ المليكِ القسورى
 وبرأيه ظهرت نجابة حيدرِ
 فى مأزقِ خطيئة لم تقصرِ
 فانهل غيث نجيعه المتعنجِرِ
 تروى به علل الورود المصدِرِ
 لولا يمينُ ابن النبىِّ الأفخرِ
 ما قصرت عنه عزائمُ قيصِرِ

هو فى المفرِّ كَمْشَمَخِرٍ راسخِ
 لله قومٌ ما جَنَوْا برماحهم
 كلا ولا نهلت عطاشُ سيوفهم
 قومٌ سواهم بالسريِرِ مجرَّدُ
 ألفوا الدروعَ مدى الزمانِ غلائلاً
 لا يهتدونَ بجحفلٍ من قسطلِ
 فهم كبحرٍ من حديدٍ مائِرِ
 حتَّى إذا دخلَ النزالُ وهاجتِ الـ
 ويدت زماخرُ كلِّ صنديدٍ إذا
 يدعو النزالُ إلى نزالٍ مسعرِ
 لاقاه غطريفٌ عليه سيطرُ
 يلقي الكريهةَ فاغراً متبسماً
 ويجرُّ عجباً ذيلَ فاضتِه التي
 يلقي المنونَ لقا المُنَى بمهئدِ
 دبَّت على متنيه فى حالِ المضا
 عافَ الجفيرِ فلا مقرُّ له سوى
 ظلم النفوسِ لظلمها ممزوجة
 ففرنذهُ ما زال وهو مدبجُ
 لصليلهِ فى الهامِ فعلُ الصلِّ فى الـ
 قسماً به إن السيوفَ حديدةُ
 السيدُ الجَحَجَاحُ أَفْضَلُ مَنْ به
 ألباسُ الصنديدُ من فرجت له
 قد أنهلتها كفه نحرُ العدا
 سُمِرَ عَوَالٍ للردِّينِ نماؤها
 قسماً بها إن العواليَّ خوطَّةُ
 ألباسُ الشهمِ الأشمِ المرتقي

وتكسرت آراء كسرى دونه
فَعَلَا ابن طه ليس يبرح واضحا
جَلَّ الأشم ابنُ العرائنِ الألى
تَبَّتْ إذا ثوبُ الزمان تقاذفت
ما ظنُّ أمرًا سابقًا أو لاحقًا
أو لو يعادى الصُّخر لانفلق الصفا
صُغِرَى عزائمِهِ إذا جابَ الفَلَا
لم يُلَفِ في حالي رضا وبطشه
كملتُ بسالتهُ فأنجبَ سيدًا
ليثُ مخالِبُهُ الأسنةُ والظبا
ليثُ صهيلُ الخيلِ أشهى عنده
ليثُ يرى الصهواتِ أنعمَ من علا
ليثُ أشار عليه والدُّه ضحى
فاقتادَ ظُهرًا جيشَهُ متوجِّهاً
وأبو عليٍّ بينهم متأوذاً
ألنضرُ في أعلامِهِ والسغدُ في
وبوجهِهِ نورُ النبوةِ ساطعُ
يلقى العدوَّ مشهراً بعلامةٍ
يأيها المولى الإمامُ المرتضى
قد قمتَ فينا منذراً ولربك الـ
وثيابك الحسنى غدوتَ مطهراً
ومنحننا منّا تطوَّقُ جيدنا
يا بن الخلائفِ من قريشِ هذه
أوتيتها فبذلتَ واجبَ حقِّها
والله قد أعطاك ما لم يعطه
ثم وليها الشريف إدريس بن الحسن ، وذلك أنه كان المعتاد فى قواعد بنى حسن

فى وثرِ سيفِ إذ حماه بعسكرِ
وبه يُرى الوضاح شِبْهَ مقصِرِ
عَنْ أن يقاسَ بمثله ابنُ المنذرِ
لا بالغبى بها ولا المستنكرِ
إلا رمى عن قوسِ غَيْبٍ موترِ
خَوْفاً فمن ذا بَعْدَ هذا يجترى
تنحطُّ عنها همّةُ الإسكندرِ
أبدًا سوى متبسّم ومكشّر
قرّتْ به عينُ الشريفِ حَزَوْرِ
يغتالُ قلبَ الفارسِ المشعنجرِ
من صوتِ مزمارٍ ورنةٍ مزهرِ
ظُهر الأريكةِ أو تسنم منبرِ
لغزاةِ قوم شَمَرُوا من شمرِ
لا بالونى المبطئِ المستخبرِ
عند الكفاح تأوّد المستبشرِ
إقدامِهِ والرعبُ مدّةُ أشهرِ
يغنيه عن ظُهرِ الطرازِ الأخضرِ
والغيرُ إن لاقى فغير مشهرِ
أنتَ الخليفةُ وارثُ المدثرِ
أعلى نراكَ سموتَ كلَّ مكبرِ
وهجرتَ رُجْزاً لا أقولُ لك اهجرِ
عقيائِها لا مئةُ المستكشرِ
عُرُزُ الخلائقِ من أبيك الأطهرِ
وحميّتها من أصغرٍ أو أصغرِ
مَنْ قد مضى فاحمَدُ إلَهَكَ واشكُرِ

أن يكون من يتفوقون عليه، ويختارونه هو صاحب الأمر، فاجتمع حيثئذ الأشراف جميعهم، وأعملوا رأيهم السديد وحمد غب ذلك صنيعهم فاختروا مولانا الشريف إدريس بن الحسن فولوه، وأكبروه ورتبوه فى الولاية وصدروه، وأشركوا معه فى الدعاء على المنابر ابن أخيه مولانا الشريف محسن بن الحسين بن الحسن، وأشركوا معه أخاه السيد فهيد بن الحسن فى ربع ما يتحصل من الأقطار الحجازية، وكتبوا بذلك محضرا إلى الروم ثم وصل الجواب كذلك فاستمروا.

فلما كان يوم سابع ذى الحجة الحرام من سنة اثنتى عشرة وألف كانت عرضة المصرى وأميره الأمير حسين الشهير بدلى حسين، ووصل معه بثلاث خلع، لبس مولانا الشريف إدريس الخلعة الأولى الكبرى، وهى بفرو ستمور تحتها خلعة منفصلة كالبطانة، وهاتان الخلعتان عن خلعة واحدة، ولبس الشريف محسن خلعة بلا فرو، ولبس السيد فهيد خلعة كذلك بغير فرو، ووقف الشريف إدريس فى المختلج إلى أن توجه الأمير حسين، ثم جاء أمير الشامى وهو الأمير طهماس، فترع الشريف إدريس خلعة الفرو، ولبس خلعة الشامى وهى بفرو أيضًا، ولبس الشريف محسن، ولبس السيد فهيد خلعتيهما وكلاهما بغير فرو، وكانت عرضة راتقة لم يحصل فيها مخالفة، وأخلف الله الظنون المخالفة.

وفى سلخ جمادى الأولى من سنة ثلاث عشرة وألف وصل من مصر هجان، وملخص أوراقه أن الشيخ محمد زين العابدين بن محمد البكرى مات فجأة فى القلعة فى مجلس صاحب مصر الوزير إبراهيم باشا، وذلك بعد أن تعشى عنده ودخل معه إلى الخلوة، وشرع فى قراءة فاتحة الكتاب فسقط على وجهه، فحركوه فوجدوه ميتًا رضى الله عنه، وكانت وفاته فى ثامن عشر ربيع الأول من السنة المذكورة.

وفى آخر ربيع الثانى منها: اجتمعت عساكر مصر، وقتلت صاحب مصر إبراهيم باشا، وقتلت معه محمد بن خسرو، ولم تقتل سواهما، مع أنه كان حاضرًا عنده جملة من الأمراء وقاضى مصر وغيره من الأكابر.

وفى يوم الأربعاء سابع عشر رجب من السنة المذكورة أيضًا: دخل مصر باشا جديد لها اسمه محمد باشا، وهو خادم قرجى الجنس، واستمر إلى ثانى ربيع الأول من سنة أربع عشرة بعد الألف، فعزل بالوزير حسن باشا الواصل من اليمن.

وفى شهر الحجة من السنة المذكورة: وقعت فتنة بمكة بين الأتراك النازلين بالمعلاة وبين عبيد الشريف، فركب حاكم مكة يومئذ القائد راشد بن فايز، فلما أن كان برأس المدعى أصابه سهم لا يعلم من أين جاء فوقع فى نحره فكان فيه نحره، وكان من بعض الدور النازل بها بعض الترك فحمل قتيلا.

وفىها توفى الشيخ الملا على القارى بن سلطان بن محمد الهروى الحنفى الجامع للعلوم العقلية والنقلية، والمتضلع من السنة النبوية، أحد جماهير الأعلام، ومشاهير أولى الحفظ والأفهام. ولد بهرة ورحل إلى مكة وتديرها.

أخذ عن خاتمة المحققين العلامة ابن حجر الهيئى، وشرح المشكاة والشمائل والوترية والجزرية، وله شرح على نخبة الفكر وشرح على الشفا وشرح على الشاطبية، ولخص القاموس وسماه الناموس، وله الأثمار الجنية فى أسماء الحنفية وله غير ذلك، لكنه امتحن بالاعتراض على الأئمة لاسيما الشافعى وأصحابه، واعترض على الإمام مالك فى إرسال يديه، ولهذا تجد مؤلفاته ليس عليها نور العلم، ومن ثم نهى عن مطالعتها كثير من العلماء والأولياء.

وفى سنة ست عشرة بعد الألف: توفى السيد صبغة الله بن روح الله الحسينى قطب مدار الراسخين فى العلم والعمل الفحول، وقلب أهل الإشارات والإلهام والوصول، جبل عرفات العرفان، وحبل مستعصم رجال العطف والحنان. صحبه الجم الغفير، وانتفع به الجمع الكثير، أوفرهم حظًا مولانا السيد مرزا، كما أشار هو إلى ذلك فى بعض مصنفاته بيانا ورمزا. وكذلك مولانا السيد أسعد البلخى، والشيخ أحمد الشناوى، توفى بطيبة المنورة، ودفن بالبقيع وقبره ظاهر يزار رحمه الله رحمة الأبرار.

وفىها ورد الأمر من مولانا السلطان الأعظم أحمد خان بترميم المقامات الأربعة بالحرم الشريف على يد شيخ الحرم حسن بن مراد الرومى، فرمت على أحسن وجه وأتقنه.

وفى سنة إحدى وعشرين بعد الألف: توفى السيد فهيد بن الحسن بعد أن شارك أخاه الشريف إدريس، وابن أخيه الشريف محسن بالربع فى جميع الأقطار الحجازية الداخلة تحت حكم صاحب مكة المشرفة البهية، فكثرت أتباعه من السادة الأشرف

والحسنان والعسكر بحيث صار موكبهُ يضاهي موكب الملك، وإذا جلس وقفت الترك يمينًا وشمالاً، واتخذ جبالية للبندق نحو مائتين أو أكثر، ولم يحفظ أتباعه وعبيده عن النهب والسرقة فكثُر ضررهم على الناس، وشد قوسه على مولانا الشريف إدريس وإخائه، واستل صارم الصرامة عليه في شدته وورخائه، والشريف متورع عن فتح باب المصارمة، وصدع ما لا يلتئم بالجبر والملايمة، فلما زاد - كما تقوله العامة - الماء على الدقيق، ولوحظ ما حقه التفخيم بالترقيق.

وأخذ فهيد بجانب أكمل الدين القطبي، وأراد أن يلبسه قفطان الإفتاء قبل أن يحرم ويلبى.

ووقف الشريف إدريس ذلك الموقف، واعتنق السمهرى تعانقًا يثنى، ولواء الخميس العرمرم يرعب ويرجف، وأقسم لا يلبس القفطان إلا وقد ورد السنان نحره.

فقال فهيد: ولو خربت البلاد؟ فقال إدريس: ولو خربت قبل سجره، فعند ذلك تراجعوا إلى النهى، وفكروا فى المبدأ والمنتهى، وعادا وفى قلب كل منهما وقد. وأخذ مولانا الشريف إدريس من ذلك فى حل ما مضى مع فهيد من العهد، خصوصًا لما صمم القطبي ورجع الأمير، ولم يجعل التفكير فى عواقب الأمور أصدق سمير، ودخل معه إلى المدرسة المعروفة، ولبس الخلعة الموصوفة، وتجاهه من جماعة الأمير اثنان من الأساكفة أرباب التشهير، وشق الشارع الأعظم حتى انتهى إلى سويقة، وصهيل خيله يسمع من كل شباك وطويقة.

كل ذلك عناد لسيدته ومولاه، وكفران لمن خوله هذه النعمة وأولاه. فأضمر حينئذ الشريف إدريس الحقد على أكمل الدين. كذا فى سلافة العصر والأرج المسكى.

ولما أراد الله انقضاء مدة فهيد وفراغ دولته، تغير عليه فى الباطن أخوه الشريف إدريس، وأرسل لابن أخيه الشريف محسن بن حسين، وكان إذ ذاك باليمن بأن يأتى بجميع من معه من الأشراف والقواد والعرب، فحضر ومعه أمير حلى محمد بن بركات الحرامى، ونودى بمكة بأن البلاد لله، وللسلطان وللشريف إدريس والشريف محسن، وخلع السيد فهيد من الذكر، ومنع من الربع، وجعل ما كان لفهيد من ربع

مغل الأقطار الحجازية لابن أخيه الشريف محسن، ولم يخطب للسيد فهيد، وخطب لمولانا الشريف إدريس أولا ولمولانا الشريف محسن بعده ثانيًا، كل هذا وفهيد في مكة في بيته، وجموعه وافرة، وعدته وعدده المتكاثرة، فاستعد أصحابه للقتال، وأشار إليه أعيانهم بالحرب، فامتنع من ذلك، وطلب من الشريف إدريس شهر زمان ليتأهب للخروج من مكة بعد أن طلب أن يمكن من سكنى مكة بغير ريع، فامتنع الشريف إدريس إلا أن يتوجه إلى حيث أراد من الأماكن والبلاد، فخرج من مكة سنة تسع عشرة وألف، فانضم إلى بعض أكابر الحاج المصري، وسار إلى مصر، وتاريخ قدومه في شهر صفر «قدومكم خير» سنة عشرين وألف، ثم منها إلى الديار الرومية، واجتمع بسultan الروم، فيقال: إنه أنعم عليه بإمرة مكة، فعاجلته المنية قبل الأمنية، كذا في تاريخ ابن جبار الله.

وأرخ وفاته الأديب إبراهيم بن يوسف المهتار بأبيات فقال: [من الرمل]
 ما وقوفى بطلولٍ وِدْمَنَ غَيَّرَتْ سُكَّانُهَا أَيْدَى الزَّمَنِ
 لى شُغْلٌ عَن بَكَائى رَسْمَهَا وَسْوَالى قَفَرَهَا بَعْدَ السَّكَنِ
 بالذى أُسْمِغْتُهُ مِن خَبِرِ حَرَمَ الْعَيْنِ لَذَازَاتِ الْوَسَنِ
 نَعْيِ ذى المجدِ الكريمِ المرتجى حاوي العليا فهيد ذو المِنَّ
 فارج الكربِ وماضى الغربِ فى الـ حَزَبِ غَيْثِ الجَدْبِ ذُو الفَعْلِ الحَسَنِ
 مَن أَبَتْ هَمُّهُ إِلَّا الْعِلا ومراقى عَزُّهَا خَيْرَ ظَعْنِ
 واصل الروم فوافاه الردى فى بلادٍ باعدَتْ عنه الوَطَنِ
 لَيْتَ شَغْرَى أَى أَيْدٍ غِيَبَتْ فى الثرى شَخْصَكَ مِن بَعْدِ الكَفَنِ
 هل دَرَتْ ما غَيَّبَتْهُ مِن جَجَى ومعالٍ ونوالٍ فى قَرَنِ
 إن تحجبت بأطباقِ الشرى فأَيادِكَ بِشامٍ وَيَمَنِ
 لكَ ذَكْرٌ بالثنا لا ينقضي صار كالْفَرَضِ على أَهْلِ السَّنِ
 رَجَمَ الرحمنُ مثوى جدبِ هو فى كُلِّ فَوادٍ كالشَجَنِ
 وسقى الله تَرابًا ضَمَّهُ صَيَّبُ الرضوانِ ما غَيْثُ هَتَنِ
 قيلَ لى هل قُلْتَ تاريخًا له بارعًا تُملِيه أربابُ الفِطَنِ
 قُلْتَ والخدُّ رِوٍ مِن أَدْمَعِي والحشا بالكَرْبِ صاد فى حَزَنِ

نُصف بيتٍ قد أتى تاريخه ماتَ بالرُّومِ فهيدُ بنُ الحَسَنِ
وفى هذه السنة كانت وفاة أكمل الدين القطبى شهيدًا بالأعاضيد، اسم محل به
نخل ومزارع بين الطائف والمبعوث والمبعوث إليه أقرب، والشريف إدريس إذ ذاك
بالمبعوث.

وفى هذه السنة أيضًا وقعت قتلة بين الجبالية، وبين الحسان، والقائد جوهر
قبانى حاكم مكة، تعصبت الحسان والقواد للقائد جوهر، فتحاربوا أجمعين على
أقدامهم بخط القشاشيين إلى الصفا، وكان الظفر للحسان والقواد وقتل بعض
الجبالية.

وفى أوائل العشرين من ذى الحجة الحرام من سنة عشرين بعد الألف: وصل من
الديار الرومية الباشا حسن المعمار بميزاب الكعبة المشرفة، أرسل به السلطان أحمد
ابن محمد خان، وأمره أن يجعل لها إزارًا من حديد فوقه مثله من الفضة المطلية
بالذهب، فبرز أمر صاحب مكة مولانا الشريف إدريس بن الحسن إلى أكابر مكة
وعلمائها بأن يلقوا الباشا حسن من الحجون ويمشوا أمام الميزاب، فامثلوا الأمر
وبرزوا، وكان ذلك فى آخر النهار، فدخل الميزاب إلى مكة من الحجون وأمامه
بعض طوائف الأذكار، وهم يذكرون الله تعالى، فبعد إتمام مناسك ذلك العام وقول
الحجاج إلى بلادهم توجه إلى عمارة العين وكان مأمورًا بذلك وصحبته أموال من
جانب السلطنة، فاتفق عمل ذلك وأتمه، ثم إنه ركب ميزاب الكعبة بعد قلع ميزابها،
وأرسل إلى الحضرة السلطانية، وجعل الإزار المأمور به على الكعبة.

واستمر الإزار عليها إلى أن اتفق سقوط بعض الجدران فى دولة الشريف مسعود
ابن إدريس عام تسع وثلاثين بعد الألف، كما سيأتى تفصيله.

وقد تقدم ذكر بعض ذلك فى ترجمة السلطان أحمد بن محمد خان فى الباب
المعقود لدولة العثمانة، أدامهم الله وأدام بهم الدنيا آمنة.

وفى سنة إحدى وعشرين بعد الألف: وصل الوزير حاجى محمد باشا منفصلا
عن وزارة اليمن، وكان دخوله إلى مكة غرة شعبان من السنة المذكورة، وصام
رمضان، وتصدق وفعل أفعالا عديدة من الخيرات، وكان وصل معه فى مركبه
الواصل بحرًا فيل صغير أراد أن يهديه إلى الحضرة السلطانية العثمانية، ثم إن هذا

الفيل استمر بجدة أيامًا فجاء الخبر بموت السلطان عثمان بن أحمد خان، ثم انتقل حاجي محمد المذكور ليلة سابع عشر شوال من السنة المذكورة، ودفن ضحى صبيحة تلك الليلة بالمعلاة، وبُنيت عليه قبة عظيمة باقية إلى اليوم.

ووقع سنة وصول الفيل غلاء شديد بمكة؛ قال فيها العلامة مولانا عبد القادر بن محمد الطبرى تاريخًا وهو على غير الأبحر المتداولة ونصه:

حَرَّمَ اللهُ حِلَّ سَاحَتِهِ قَدَّمَ الْفِيلَ ضَلًّا عَنْ رُشْدِهِ
كَثُرَ الْهَمُّ يَا فَتَى أَرْخِ سَنَةُ الْفِيلِ هَمُّهَا يَشْدُو

وفى عام ثلاث وعشرين بعد الألف فى شهر محرم الحرام منها: وقع مطر عظيم، وفيه برد كبار كل بردة منه قدر شربة الماء بل أكبر.

وفى سنة أربع وعشرين توفى الأديب برهان الدين بن محمد بن مشعل العبدلى السالمى المكى.

كان شاعرًا ماهرًا له قصائد طويلة يمتدح بها الشريف الحسن بن أبى ندى وغيره، فمن شعره فى ملىح يهواه وهو يهوى الراح قوله: [من مجزوء الكامل]

شَمْسُ الْبَلَا بَذَرِي غَدَا لَمْ يَضْحُ مِنْ تَعْلِيلِهَا
فَالرَّاحُ قَتَلَتْ قَاتِلِي وَأَنَا قَتِيلُ قَتِيلِهَا

توفى بالطائف مجاوزًا السبعين.

وفى فيها توفى الشيخ نور الدين الزيادى شافعى زمانه، القطب العارف بالله فى أوامه.

قال فى الريحانة: حضرت دروسه زمانًا طويلًا وهو كما قلت فيه: [من الوافر]

لنورِ الدين فَضْلٌ لَيْسَ يَخْفَى تَضَىءُ بِهِ اللَّيَالِي الْمَدْلَهْمَةُ
يُرِيدُ الْحَاسِدُونَ لِيُطْفِئُوهُ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّهُ

وله حاشية على شرح المنهج، وأخذ عنه كثيرون.

وفى سنة خمس وعشرين وألف لليلتين بقيتا من شعبان منها: ورد الأمر السلطانى من حضرة السلطان أحمد على يد الباشا حسن أفندى بعمل شباك نحاس فى بئر زمزم ليمنع كل ما يسقط فيها من آدمى وغيره، فجعل على قدر تدوير فم البئر وجعل له ست سلاسل وربطت بالحديد الدائر على فمها، وصار الماء فوق الشباك نحو ثلثى قامة.

وفيهما توفي الشريف حازم بن راجح بن أبي نemy الحسنى: كان من أكابر السادة وأعيانهم، يرجعون فى المهمات إلى رأيه السعيد، وتديبره الحميد. بلغ من الحزم متناه، وطابق اسمه مسماه.

وقد كان رحل مع والده راجح بن أبى نemy إلى مصر حين عزم إليها منافراً لأخيه الشريف، ثم بعد انتقال والده راجح المذكور بمصر رجع إلى مكة فأكرمه عمه الشريف حسن، واعتذر حازم عن عزمه مع والده بأنه لا يمكنه خلاف والده، فقبل عمه الشريف حسن عذره. قاله فى «الجواهر والدرر».

وفيهما توفي السيد سالم بن محمد السنهورى المالكى المصرى، أدرك ناصرًا اللقانى، وأخذ الحديث عن النجم الغيطى وغيره، وتفنن فى العلوم، ومهر فى الفقه حتى صار معتمد المالكية فى عصره، له تعليق على مختصر خليل.

وقد كان للشريف إدريس من العبيد المولدين، ومن الرقيق الجلب ما يزيد على الأربعمائة، ومن المقاديم من العرب جماعة، وكانوا فى أشْر وبَطْر، وتِيه وعَسَر وتجمل ظاهر، يتخيل الواحد منهم نفسه الملك القاهر.

وكان من خدامه وزير مكة القائد أحمد بن يونس وإن كان ولاؤه لذوى بركات، فلما كان النصف الأخير من شهر رمضان سنة ست وعشرين وقعت فتنة سببها أن القائد أحمد بن يونس، وهو الوزير على مكة من قبل مولانا الشريف إدريس وكان وزير مولانا الشريف محسن القائد ياقوت بن سليمان، وكان مولانا السيد محمد بن عبد المطلب نائباً فى مكة عن عمه الشريف إدريس لغيبته فى الشرق كان قد استفحل أمره، وعظم حتى صارت الأمور كلها منوطة برأيه وتديبره، موكولة إلى تقديمه وتأخير.

فتوافق مولانا الشريف إدريس، ومولانا الشريف محسن، فأرسل مولانا الشريف إدريس إلى السيد محمد يأمره بأخذ المهر، وهو مهر العروض من القائد أحمد، وكذلك أرسل مولانا الشريف محسن إلى القائد ياقوت بن سليمان بأخذ مهره منه، ففعل كل ما أمر به.

وكان الأخذ المذكور فى صبيحة عاشر رمضان من السنة المذكورة، فحينئذ شاع فى البلد عزل أحمد بن يونس، وأرسل مولانا الشريف إدريس إلى القائد ربحان بن

سالم حاكم مكة يأمره بالوصول إليه إلى الشرق، فقدم إليه، فقلده منصب الوزارة، فوصل إلى مكة في الشهر المذكور، ووصل الخبر إلى السيد محمد بن عبد المطلب بأن القائد أحمد بن يونس يريد الركوب عليك، وقد اجتمع عنده العدد والعدد، ووصل الخبر إلى القائد أحمد بذلك أيضًا، فركب كل منهما بعد أن ألبس، ووقف عند باب داره، ثم انجلى الأمر، وظهر أن ما أخبر به كل منهما ليس له أصل، فأرسل مولانا السيد محمد بن عبد المطلب إلى مولانا الشريف إدريس، ومولانا الشريف محسن بذلك، فلما كان العشر الأخير عزم القائد أحمد إلى مولانا الشريف بالمبعوث، وكان قد وصل إليه الشريف من محله الأول، فأقام القائد أحمد هناك، فجاء الأمر إلى مولانا السيد محمد بأخذ أموال القائد من داره، وكل ما حوله، وأن يحفظ على ذلك، فلما أن كانت ليلة العيد حصلت حركة من آخر الليل عند بيت السيد محمد، وتفريق سلاح وأدراع، فنزل إلى المسجد، وصلى صلاة العيد فقط، وبرز من المسجد قبل الخطبة، وعزم بالجيش إلى البستان - بستان ابن يونس - فختم على أمواله كلها، وأمر أن ينزل البعض منها إلى البلد، واستمر هو إلى بعد صلاة الظهر، ونزل، والجيش معه بعد أن ختم على بقية الأموال، وقبض على جماعة من المنسويين إلى أحمد، وحبسهم بعد أن ختم على بيوتهم، ثم فكوا بعد وصول مولانا الشريف إدريس، إلا إبراهيم بن أمين كاتب أحمد، وأعظم المقربين إليه؛ فإنه لم يزل مسجونًا إلى أن قضى الله عليه في السجن.

وأما أحمد فإنه استمر بالمبعوث، فثارت بسببه في ثانی شوال من السنة المذكورة بين ذوى حسن، وذوى بركات فتنة أدت إلى الإدراع والإلباس، ثم رحل إلى كلاخ فأقام بها، ثم رحل منها إلى جهة الشام.

فلما أن كان في أثناء الطريق رجع فوصل إلى مولانا الشريف إدريس، وهو بالشرق في السنة المذكورة، فسجنه وكبله بالحديد، ثم قتله في السنة المذكورة أيضًا في محل يقال له: وادى النار، ودفن هناك، فسبحان الفعال لما يشاء.

وقد كان هذا الوزير في قوة من المال والرجال قد اشتغل بالحال، ولم يفكر في المآل وسار صيته في الآفاق، وأكثر الدخل وأقل الإنفاق وكان ذا تدبير لأحواله حتى جاوز الحدود، فوقع به ما قضاه الملك المعبود اللهم عافية غير عافية، ورأفة منك

وافية كافية كذا في «الأرج المسكى» .

وفى سنة سبع وعشرين فى ذى الحجة منها: قلع الشباك النحاس الذى عمل لبثر زمزم الأفندى السيد محمد بن مصطفى الفنارى لما قيل له: إن ماء زمزم تغير طعمه بسبب ذلك الشباك وأن الدلو إذا وقع ربما أمسكه أن يصعد.

وفى سنة تسع - بتقديم التاء - وعشرين وألف فى سادس عشر جمادى الأولى منها: توفى السيد منصور بن أبى ندى بمكة، وخطب له على زمزم بعد موته، وهو آخر أولاد الشريف أبى ندى موتاً وسنه نحو سبعين سنة، ورأى أولاد أولاد أولاد أولاد أبى ندى، ودفن بالمعلاة وكانت جنازته حافلة.

وفيها: غزا الشريف محسن بن الحسين بجيلة ونواحيها.

وفى يوم الأحد ثامن عشرى الشهر المذكور من السنة المذكورة: وقع فى المسجد الحرام طراد عجيب بسبب أن جبلياً أراد الطواف، فأودع سيفه عند رجل هندي، فمر به رجل تركى فابتدر الهندي السيف، وقتل التركى، فثار الناس على الهندي، فطردهم إلى باب الصفا، فتكاثر الناس على الهندي، ورموه بالحجارة فطردهم، ثم أحاطوا به، وضربه رجل عند زمزم بإبريق فزلق بالبلاط، وطاح فضرب بجنبية، ومات التركى والهندي.

وفى ليلة الأحد الرابعة والعشرين من جمادى الآخرة منها توفى السيد منجد بن راجح ابن أبى ندى بالمبعوث، وحمل إلى مكة، ودفن بالمعلاة، وكان من أعيان أشراف مكة، يوصف بالكرم.

وفى رجب منها: توفى السيد قتادة بن ثقبه بن أبى ندى ودفن بالمعلاة.

وفيها - أو التى بعدها - توفى العلامة عبد الرؤوف المناوى شارح الجامع الصغير شرحين، وله ترتيب الشهاب وشرحه، وشرح أدب القضاء، وطبقات الصوفية، والأرغام، وغير ذلك. رحمه الله - تعالى - .

وفى سنة اثنتين وثلاثين وألف: توغل مولانا الشريف إدريس، وابن أخيه مولانا الشريف محسن فى الشرق، ووصلا بالفريق إلى قرب الأحساء، واجتمعا بذوى عبد المطلب، وكانوا فى العام الماضى نافروا عنهم الشريف إدريس فقام الشريف محسن فى موافقتهم لعمهم فتم ذلك، وطابت نفوسهم، ووصل الشريفان بفريقيهما

إلى الأحساء، وضربت خيامهم قبالة الباب القبلى من سور الأحساء، وأكرمهم صاحبها على باشا الكرامة التامة، وأقاموا نحو ثمانية أيام، ولم يتفق لأحد من أشراف مكة المتولين من القتاديين وصول الأحساء كما اتفق لهذين الشريفيين.

وفيها فى ثالث ربيع الثانى: دخل الشاه بغداد، وأخذها من يد المتغلب عليها من باشوات السلاطين بنى عثمان، وسبب ذلك أن رجلا من عسكرها يسمى بكر تغلب عليها، وانبسطت يده على مملكتها حتى صار إذا جاء الباشا السلطانى العثمانى متوليا عليها لا ينفذ من حكمه إلا ما نفذ به بكر المذكور، وغلب على بكر أيضا ولده محمد، ولكل فرعون موسى، فوصل إليها وزير اسمه أحمد حافظ بجيش كبير، فلما رأى بكر ذلك أغلق أبواب بغداد، وأرسل إلى الشاه ليمكنه من البلاد، وتبقى له رقبته وماله، فأتى الشاه بعسكره، فلما رأى أحمد حافظ قوة الشاه أرسل الخلعة والتأمين لبكر ثم انصرف راجعا، ولم يزل الشاه فى ذلك المكان، وأعطى محمد بن بكر العهود بأن يجعله نائب البلاد، ويؤمّنه - كما طلب - على رقبته وماله، ففتح الباب باب السر، فدخل عسكر الشاه، وأظهروا أنواع الطغيان، وقتلوا بكرا وجميع أهله شر قتلة، وقتلوا أهل السنة جميعهم، ثم خرج الشاه منها، وأقام فيها خانّا من خاناته، فأرسل سلطان الروم العثمانى وزراء معهم الجيوش الجرارة لأخذها فلم يحصل من أحد فتحها، حتى قدّر الله تعالى فتحها على يد السلطان مراد بن أحمد خان، كما سيأتى ذكره فى سنة ثمان وأربعين وألف.

وفيها توفى السيد دخيل الله بن ثقبه بن أبى ندى فى بيشة، ودفن بها، وكان من أجلاء الأشراف ورءوسهم وذوى الرأى منهم.

وفيها يوم الإثنين سابع رمضان منها: مات السيد أبو ندى بن عبد الكريم بن حسن ابن أبى ندى بالمبعوث وحمل إلى مكة.

وفيها ليلة الثلاثاء ثامن رمضان المذكور دخل حيدر باشا متوليا اليمن، فنصب دكة فى المسجد الحرام، فصلّى عليها فأنكر عليه الملا محمد مكى فروخ، ورماه بالحجارة فتبعه العامة فأمر بلزمه فلزم، وقال: لا بد من ضربه خمسمائة ثم طلبه، ولم يضربه وجمع فيها الأئمة الأربعة ونائب المحكمة، وأثبت أنه ما فعل ذلك إلا لعذر، وكتب ذلك فى السجل.

وفيها يوم عيد الفطر: كانت وفاة الإمام عبد القادر بن محمد الطبري، وهو الإمام الذي تصدر في محراب العلم والإمامة، وتسبى صهوة جموح الفضل، وملك زمامه، من رفع للعلوم أرفع رايه، وجمع بين الرواية والدراية. فأصبح وهو كاسر الوساده، بين الأئمة والساده، يشنف المسامع بفرائد كلامه، ويهيج النواظر بما تدبجُه أنامل أعلامه.

إذا انفهقت بشقاشق قَالِه لَهَائِه، ثبت حق إفصاح الكلام، وبطلت ترهاته، إلى نسب فى صميم الشرف عريق، وحسب غصن مجده بالمعالى وريق، وبيت لم ليس فيه إلا إمام وخطيب وأديب، فتنُّ فضله فى رياض الأدب رطبً، والطبريون سادة من غير الفضل بريئون.

وهذا الإمام واسطة عقْدِهِمْ، ورابطة عقدهم، ومحيى آثارهم، والآخذ من الدهر بثأرهم.

صنّف وألف، وسبق وما تخلف.

أما الأدب فروّضه الممطور، وخوّضه الراوية منه السطور.

كانت له عدة من المصنفات. منها: شرح الدريدية المسمى بالآيات المقصورة على الآيات المقصورة، وحسن السريرة فى حسن السيرة، وشرح بديعته التى على منوال بديعية ابن حجة المسمى على الحجة، بتأخير أبى بكر بن حجة، ونشأت السلافة بمنشآت الخلافة، وشرح قطعة من ديوان المتنبى: سماه: «الكلم الطيب على كلام أبى الطيب».

وله عدة رسائل وغير ذلك من حواش وتعليقات. وإنشاء ومكاتبات تهيج البلبال، وتحقق -لولا أنها حلال- سحر بابل.

أمّ بالمسلمين فى المقام بيلد الله الأمين، واتصل بقرب سلطان مكة ونواحيها، وحامى جهاتها وضواحيها، مولانا الشريف حسن بن أبى نمى، فحصلت له من جنبه العظيم مكانة أى مكانة، وزادت علوه رفعة وأعلت مكانه، بحيث حملته على تأليف غالب مؤلفاته المذكورة برسمه، وجعلها خدمة لخزائنه المعمورة متوجة بلقبه واسمه، أثمرت عزًا فيه يتنافس المتنافسون، وأينعت مجداً يقال فيه: لمثل هذا فليعمل العاملون هطلت على غرائسها سحائب الإنعامات الحسنية، ونشرت على

دوحاتها خلع الإجلال السنية .

ولما وصل إليه بشرح الدرديدية، وقرأ ديباجته لدى حضرته العلية، وذكر له أنه أنشأ بيتين هما تاريخ تمام تأليفه، وجعلهما على لسان الكتاب وأراه إياهما، تناول الشريف حسن الكتاب بيده الشريفة، وقرأ البيتين وهما: [من مجزوء الرجز]

أَرْخَنِي مَوْلَفِي ببيتِ شَغْرِ ما ذَهَبَ
أحمدُ جود مَاجِد أجازني أَلَف ذَهَبَ

فتبسم مولانا الشريف، ووضع الكتاب في حجره، ووضع يده الشريفة على رأسه، وقال: على الرأس والعين، والله إن ذلك نزر يسير في مقابلته، وإنني أحمد الله تعالى الذي أوجد مثلك في زمني .

ثم لما كانت أيام وفاته، ووصلت مطايا عمره إلى غاية محله وميقاته، وذلك في زمن مولانا الشريف إدريس بن حسن كان سببه المقدر، في كتابه المسطر، أنه انتابت خطبة العيد أحد ولديه، وكانت أول خطبة حصلت لديه، فتهايا للقيام بأدائها، وأرهف غضب لسانه لإبدائها .

فمنعه بعض أمراء الأروام، الواردين إلى مكة تلك الأعوام، يسمى حيدر باشا، ورغب في أن يكون حنفي المذهب، وأخاف من تعرض له وأمره وأرهب . فضاق بالإمام نجده ووهده، وجهد في إزالة المانع فلم يجد جهده؛ لأن مولانا الشريف إدريس لم يكن في ذلك الوقت بالبلد .

فلما لم يحصل إلا على اليأس، ولم يلق لضنا دائه من آس، صعد كرسيه وتنفس الصعدا . ففاضت نفسه لوقته كمدا، وألقى على كرسيه جسدا .

وقدمت جنازته ذلك اليوم للصلاة عليه، والخطيب على المنبر ناظر إليه . وقيل: إنه مات مسموماً . وكانت ولادته سنة ست وسبعين وتسعمائة . وأرخت بما نصه «أشرف المدرسين» رحمه الله تعالى .

ولما بلغ الشريف إدريس وفاته بذلك تعب تعباً شديداً لما كان للإمام عبد القادر عنده من المحبة، فدخل مكة رابع شوال، ومعه الشريف محسن، وجمع الأشراف والقواد في موكب عظيم، وأكرمهما حيدر باشا غاية الإكرام، فطلبوا منه التوجه إلى اليمن، وأحضر له ما يحتاجه من إبل وغيرها .

وفى سنة ثلاث وثلاثين وألف قبيل الظهر من يوم الأحد سابع جمادى الآخرة وقع مطر عظيم، سالت منه أودية مكة، وامتلاً منه المسجد الحرام، وعلا الماء حتى حاذى الحجر الأسود، فقال الشيخ محمود الحناوى تاريخاً فى ذلك وهو من الحسن بمكان: [من السريع]

قد جاءنا سَيْلٌ مِنْ الله فى جُمَادَى الآخِرِ يا ذا النُّظَرِ
فى مسجدِ الله الحرامِ الذى سَعَتْ إلى عليه كُلُّ البَشَرِ
سَيْلٌ عَظِيمٌ مَا رُئِيَ مثلهُ تاريخه: أَلَمَاءُ حاذى الحَجَرِ

وفىها توفى الشيخ الأَمجد شهاب الدين أحمد بن إبراهيم بن علان فى اليوم السادس عشر من شعبان منها الصديق الشافعى ودفن بالمعلاة بالقرب من قبر السيدة خديجة أم المؤمنين. كان إمام التصوف فى زمانه، وأوحد علومه وعرفانه.

وفىها فى شعبان: توفى السيد الجليل، الرئيس النبيل، أبو القاسم بن بشير بن أبى ندى فى الشرق، وحمل إلى مكة، وخطب له على زمزم كعادة أسلافه. ثم توفى فيه أيضاً أخوه السيد بركات بن بشير بمكة فجأة بعد موت أبى القاسم بأربعة أيام.

ثم توفى فيه أيضاً السيد على بن أبى طالب بن حسن بمكة وخطب له على زمزم. واستمر الشريف شريكا لعمه الشريف إدريس على صدق الكلمة، والنصح فى الألفة بالخدمة، والمساعدة فى الأحوال، والمعاونة له فى المؤيدات الثقالة، إلى أن اجتمع أهل الحل والعقد، ومن إليهم المرجع من قبل ومن بعد، من بنى عمه السادة الأشراف، الذابين عن حمى هذه الأكناف، والعلماء والصلحاء، وأعيان سكان البطحاء، فرفعوا الشريف إدريس عن ولاية الحجاز، ومنعوه من أن تكون له علاقة فى ذلك المجاز، ووسدوا الأمر إلى السيد الشريف المحسن، ووكلوا الحال إليه فى حفظ هذا الموطن.

فأشيع فى البلد يوم الأربعاء ثالث محرم الحرام من سنة أربع وثلاثين وألف أن السادة الأشراف قد أقاموا الشريف محسن مستقلاً بالأمر، فحصل بين الشريف إدريس، وبينه بسبب ذلك ما يوجب المنافرة.

وحصل اضطراب عظيم فى البلد وحركة كبيرة، وقسمت آلات الحرب من الجانبين.

فلما كانت صبيحة يوم الخميس رابع محرم الحرام من السنة المذكورة: ألبس كل من الشريفين بمن معهما من العساكر والجنود ووقف على باب داره، فبرز من جماعة مولانا الشريف محسن شرذمة من جانب عقد مولانا السيد بشير وبنية النداء بالبلد لمولانا الشريف محسن استقلالاً بمفرده، فقبل وصولهم العقد رمتهم الجبالية المرصدون في مدرسة السيد العيدروس بالبندق، وقتل من الجماعة المذكورين بالبندق مولانا السيد سليمان بن عجلان بن ثقبه، والقائد مرجان بن زين العابدين وزير مولانا الشريف محسن فرجع الباقون.

وفى ضحى هذا اليوم ركب مولانا السيد أحمد بن عبد المطلب ومعه رحل، والمنادى بين يديه ينادى بالبلاد للشريف محسن، ولم يزل هذا الاضطراب بالبلد ذلك اليوم جميعه، ومن أُلطف الله تعالى أن الجماعة بالمسجد الحرام قائمة ذلك اليوم، والأسواق موجودة فيها الأقوات لم يحصل تغير أصلاً فى ذلك اليوم.

فلما كان ليلة الجمعة خامس محرم الحرام من السنة المذكورة وقع الصلح بين الشريفين على أن يستقل مولانا الشريف محسن بالبلد، ويكون الكف عن المحاربة ستة أشهر، منها ثلاثة يكون مولانا الشريف إدريس فيها بالبلد، وثلاثة بالبر، فاتفق الحال على ذلك، ودعا الخطيب لمولانا الشريف محسن بمفرده يوم الجمعة، كذا نقله المرحوم الإمام على ابن المرحوم العلامة الإمام عبد القادر الطبرى فى تاريخه. والذى نقله غيره من الثقات أن مولانا الشريف إدريس لما ضويق، وأجلبت عليه السادة الأشراف ومن معهم، أرسل الشريف إدريس إلى الشريف محسن، والسادة الذين معه فطلب مهلة شهرين فى البلد، وأربعة أشهر خارجها؛ ليتأهب للسفر إلى حيث شاء، فأعطاه الشريف محسن ذلك، وشرط عليه أن لا يحدث شيئاً من المخالفات، فاستمر عليه شهر محرم وصفر فمرض فيه حتى خيف عليه.

وفى ليلة المولد الشريف خرج من مكة، وكان قد أضعفه المرض، فما طاف للوداع إلا فى محفة، وخرج من مكة كذلك.

كذا فى كتاب «عقود الجواهر والدرر فى أهل القرن الحادى عشر» للسيد محمد

الشلى.

ولما خرج الشريف إدريس توجه إلى جهة الشرق.

ولما كان غرة رجب من السنة المذكورة: ورد خبر وفاة إدريس إلى مكة في نواحي جبل شمر، ودفن بمحل يسمى «ياطب» منها، ومن الاتفاق أن حساب ياطب بالجمل اثنان وعشرون سنة عدد مدة ولايته مجبورة، وكان يكنى أبا عون.

وولد في ذى القعدة سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وأمّه هيا بنت أحمد بن حميضة ابن محمد بن بركات، وكانت وفاته رابع عشر جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وكانت مدة ولايته إحدى وعشرين سنة ونصفاً رحمه الله تعالى رحمة واسعة:

ومما قيل فيه قول مولانا القاضي تاج الدين المالكي وهو: [من الطويل]

زها بك دستُ الملك والتاج والعقدُ	غداة إليك الحلُّ أصبحَ والعقدُ
مُطاعاً بعطفِ الله بعد رسوله	أولى الأمرِ فالعاصي لأمرِكَ مرتدُّ
أبا شرفِ إدريس منتخبَ العلا	أبى الشرفِ الوضاحُ غيرَكَ والمجدُ
لقد طلبتُ شمسُ الخلافة بدرها	فقارنهما في الأوج والطالع السعدُ
قنضتُ العلا بالزاعبية والنهى	هما شركاها لا الأمانى والوعدُ
وقمتُ بعبءِ آدَ غيرَكَ حملهُ	منال المهارى ليسَ تدركه الربدُ
وشرفتُ دستُ الملك حين حللته	ومرقأتكَ المرقالُ والفرسُ النهْدُ
فكنتُ به إدريسَ إدريسَ إذ رقى	مكاناً علياً خصه الصمدُ الفردُ
وكنتُ ولم تُفْتَنَ سليمانَ إذ دعا	فأوتيتُ ما لا ينبغي لفتى بَعْدُ
وما لم ينله غيرُ آبائك الألى	ربوعُ النداءِ شادوا وزندَ العلا شَدُوا
ملوكُ هم الأنباؤ للملك والسوى	إذا نُسبوا كانوا الزوائد إذ عُدُوا
تولَّوا وأفضى ملكهُم لمحجِبِ	تصادم تيجان الملوك إذا يبدو
تأخَّرَ عصراً فاستزادكَ فى العلا	كما ازدادَ بالتأخيرِ ما ترقمُ الهنْدُ
وأصبحَ عطلاً جيدُ من رام عقدها	سواه وأضحى يستضىء به العقدُ
تفرَّدَ طود الملك بالمجدِ جامعاً	مزاياه فهو الجامعُ العلمُ الفردُ
راى إن عدته خلَّة منه خلَّة	فصيره قصراً عليه فلا يَعدُّو
فيا ملكاً بالفضلِ أذعنَ ضدُّه	وما الفضلُ إلا ما أقرَّ به الضدُّ
بك الدستُ يزهو يوم سلِّمك والتدى	ويومَ الوغى يزهو بك السرجُ والسردُ

وما زلتَ في حَالِكَ سَلَمٍ وَضِدِّهِ
 فيشقى بكَ الجاني ويسعدُ مخفقُ
 إذا بيَّتَ الأعداءُ أمراً تضاءلتَ
 وترتَ قويمَ الفكرِ قوساً لوترهم
 وحكمتَ فيهم قاضياً غيرَ مغمِدٍ
 وقدتَ من القودِ الجيادِ مقانِباً
 وغلَّ إلى الأعناقِ أيديَ بطشهم
 فأحيَاهُم في الأرضِ موتى كأنها
 سجايا أبى لا يجازُ طريقه
 ملكُ هو الطودُ الأشمُ للأنثى
 جوادٌ له في المالِ صولةٌ ثائرٍ
 طوَّتْ نحوه بالوفدِ كلَّ تنوفةٍ
 وجاد فلم يفقدُ مراماً بجوده
 هو البخرُ عذبٌ للموالى، وللعدى
 هو الغيثُ يهيمُ للولى وليه
 ويعدو العدى وسمى هامى ربابه
 أخا الجودِ قد قلدتُ جيدي ودونَ ما
 وأمطيتنِي من كاهلِ العزِّ مركباً
 فقمْتُ خطيباً في المحافلِ بالثنا
 ينافسنِي قومٌ شأوتُ وقصَّروا
 ويبخسُ منهم ذرٌّ نظمي زعانفُ
 سماءِ سيماتِ الفضلِ لفظى نجمها
 وإنى لما خولتُ أهلاً ولم أكنُ
 ولستُ مُدلاً حينَ أسمى وإن يكنُ
 ولكن بنفسي والعبودية التي
 وإنى لأرجو منك ما نال من مَضَى

عليك رِواقُ المجدِ يرفعُ والبندُ
 ويأمنُ مطرودٌ وترهبك الأسدُ
 لدى خطيه الآراءُ واستترَ الرشدُ
 وأنفذتَ سهمَ الرأى ليس له ردُّ
 هو العزمُ لم يكهم له أبداً حدُّ
 إذا طلبتَ يدنو بتقريبها البعدُ
 من الرغبِ جيشٌ ليس تكبو له جردُ
 عليهم- وقد ضاقتَ بما رَحبتَ- لخذُ
 ولا راع يوماً جار غفوته طردُ
 هو البطْلُ المطعانُ والأسدُ الوردُ
 تحكّم في الجاني وأحفظه الحقدُ
 بخات بخد الأرضِ من وخطها خدُ
 فقلّ عوضاً عن جاد قد فقد العقدُ
 عذابٌ لهم من لجه الجزرُ والمُدُ
 فينبتُ إلا أن منبته الحمدُ
 وتبلغهم منه الصواعقُ والرغدُ
 تقلدتُ أعناقَ المطاعم تنقُدُ
 ترينى ذكاً كالغورِ صهوته النجدُ
 وبالشكرِ أتلو ذا وذاك به أشدو
 وما كضليع ضالع خلفه يغدو
 فواعجباً من أين للنقدِ التَّقْدُ
 ولم يُخفيه ألا ترى ضوءه الرُمدُ
 كقولِ حسودٍ إنما أسعدَ الجدُ
 هو الفخرُ يوم الفخرِ والشرفِ العُدُ
 بها شَرَفُ الآباءِ من قبلُ والجدُ
 ولا عجبٌ إن عَزَّ بالسيدِ العبدُ

بقيت بقاء الدهر فينا مؤملاً
وقول الإمام عبد القادر الطبري رحمه الله تعالى: [من الكامل]

مالي وللغيد الغواني النعس
ولبانة الجرعاء في شرقي الغضا
ولنظم عقيان القريض ونثره
وأنا الذي قذف الزمان بجاحظ
ورمى بأسهمه مقاتلي التي
وإذا قنى من صبر مر قضائه
هو دمل الليل الذي لم يندمل
صابرته حتى ظفرت بفجره
بضياء صبح العدل من إدريس من
السيد الحامي الذمار بهمة
أولى وأول باسل تخذ العجا
لم يكثر بمهمة وبكفه
والثطق منه الطعنة النجلاء في الذ
وإذا انتضى الهندي خرت رؤس
دل المنية حين ضلت سبلها
بيمين أروع يضرب البطل المدز
كالبرق في الظلماء من نفع الوعى
فرذاه العلق النجيع وسحاه الز
لله ما أمضاه عند توخش
والسيف بالكف التي كفت أذى
لولا يدا إدريس ما خطت بها
هذا المليك ابن المليك ابن الملي
زاكى الأرومة من هولى هاشم
ذو الهمة العليا التي من دونها

ولريم رامة والغزال الألعس
ولسجع ورق الأيك عند تأنس
من كل أنف جوهري في أنف
من عينه بي مغضبا وهو المسي
بعثت عليه فحط عالي مجلسي
كأسا برغمي أن أكون المحتسي
إلا بصبر مؤمل لم يياس
وحصلت منه على شفاء الأنف
أهدى الضيا فمحا ظلام مغلس
تسمو على الفلك الأثير الأطلس
جاة درعه يوم الوعى كالبرنس
عند اللقا صم الرديني الأخرس
نجلاء من عين العدو الأشوس
ودت بقطع أنها لم ترؤس
فيه اهتدت لفؤاد كل مترس
رع نافذا منه لقطع العضرس
يروي سنا لكن بخطف الأروس
زلق الفجيع من الطلا المتبجس
وأمضه في الوهم عند تأنس
لا بالحديد وطبعه المتببس
في الهام شكل مخمس ومسدس
لك ابن المليك ابن المليك الأراس
عالي النجار من النبي الأقدس
زحل فما باقي الجواري الكس

هو فى التَّهَى سَخْبَانُ وائِلَ والذكا
 كملت فضائله فلو مسَّ الورى
 بأيها الملك الرفيع مقامه
 لك عِلْمُ إدريسٍ ودينُ محمدٍ
 فافخر على الأملاكِ مِن صنعنا إلى
 بالله أَنتَ فثق به لا بالورى
 وإليكَها عذراءُ فِكْرٍ عانسٍ
 عربية غنيث بوصفِكَ واقتنث
 ذكرث عهدًا بالحمى فتلفعت
 تختال فيه إلى المليكِ وتنتضي
 فاقبل وقابلها بطَلقِ جبينك أذ
 وانظر إلى حالى فأنتَ خيرها
 واسلم على طولِ الزمانِ ممتعا
 ثم وليها مولانا الشريف محسن، فقام بالأمر أحسن قيام، وضبط البلاد والعباد
 بالضبط التام، وآمن السبل والطرق، وانتظم فى سلك طاعته سائر الفرق العاصية فى
 الفرق.

ثم إنهم فى العشر الأول من محرم الحرام عرضوا إلى الباب العالى، وأنهبوا إلى
 الجنب الغالى، حضرة مولانا السلطان مراد بن أحمد خان، تغمده الله بالرحمة
 والرضوان، طالبين إجابتهم إلى هذا المراد، وتقليد المشار إليه إيالة هذه البلاد. فإن
 بذلك تنتظم الأمور، ويتم أمر الأمر والمأمور، وتنصلح الأحوال، وتتضح طرق
 الحق على أوضح منوال.

وكان الذهاب بالعرض الأغا محمد بن بهرام. وطلع مولانا الشريف إلى
 المبعوث.

فلما كان اليوم الرابع والعشرين من شهر رمضان من السنة المذكورة وصل الأغا

(١) هذا أيضًا من قبيل المبالغات الشعرية التى يشبه فيها علم الممدوح بعلم إدريس، ودينه بدين
 محمد، وعلاه بعلا سليمان، وهى مبالغات مكروهة.

محمد بن بهرام، إلى بلد الله الحرام، فتلقى ما جاء به الأعيان، واستقبلوه إلى الزاهر إجلالا لما صاحبه من البراءة السلطانية. ثم دخل من ثنية كذا المشهورة بالحجون، دخول أمراء الحاج عند وصولهم إذ يحجون. وقد امتلأت بالخلائق الشوارع، وصار كل أحد إلى استقباله يسارع.

فدخل والتشريف محمولة على أيدي حاملها، فوصل إلى دار السعادة ودخل فيها.

فأقيضت عليه وعلى الأغا مصطفى بن حيدر الترجمان مضلعتان تميزا لهما على سائر من كان معهما من جماعة الترجمان. ثم عاد إلى منزلهما مختلفين، وطابت منهما النفس، وقرت بهما العين.

هذا ومولانا الشريف مقيم بالمبعوث السعيد؛ لاستيفاء الصيام به وإقامة شعار العيد. فبعد أن مضت أيام الصيام، وطلع هلال العيد من الخيام. تهيأ مولانا الشريف للوصول إلى البلد الحرام؛ لتلقى الأوامر السلطانية، والخلع السنية بالإجلال والاحترام.

فوصل بجميع من معه من السادة الأشراف، ما عدا من خلفهم منهم بالفريق لحفظ تلك الأطراف.

فدخل في موكب عظيم، ومهيع كريم، ودخل من باب السلام، إلى البيت الحرام، فقبل يمين الله في أرضه، وأدى بذلك واجب فرضه. ثم عاد فجلس في فناء جدار زمزم مقابل البيت الشريف، وأحرق به السادة الأشراف والأعيان.

ثم قدمت له البراءة والنامة العظيمة الشأن، فقام على قدميه إجلالا، ووضعها على رأسه الشريف اعتناء بشأنها واحتفالا.

فقرئت في ذلك المحضر والجمع الأكبر، وكان القارئ لها العلامة المفتي عبد الرحمن بن عيسى المرشدي.

وبعد أن تمت القراءة، تقلد مولانا الشريف بالسيف المجوهر، ولبس التشريف الأزهر، وأفاض في ذلك المكان جملا من القفطان، على كل من له علاقة في هذا الشأن.

ثم دخل البيت الشريف بغالب من معه من الأشراف .
ثم بعد بروزه استلم الحجر وطاف، والريس يدعو له من أعلى قبة زمزم كما هو
عادة الأسلاف .

ثم ذهب إلى منزله السعيد، وجاء للتهته كل ذى شأن مجيد، ثم أفيضت عليه فى
ذلك المكان الخلعة الثانية الواصلة من وزير مصر ذى الشأن .
فكان ذلك اليوم يومًا مشهودًا، ومن أيام الأعياد معدودًا .

وفى سنة خمس وثلاثين فى ثانى عشر جمادى الآخرة منها: توفى السيد إبراهيم
ابن بركات ابن أبى نمى، كان من أجلاء أشراف مكة، ورؤسائهم وأغنيائهم .
جمع من الضياع والعقار والإبل والخميل والنعم شيئًا كثيرًا جدًا . تغمده الله
برحمته آمين .

ولما كان آخر صفر سنة سبع وثلاثين وألف: وصل إلى جدة الوزير أحمد باشا
متوليًا الجهات اليمنية .

فلما وصل إلى محاذاة جدة بحيث يراها، انكسر مركبه وغرقت جميع أمواله،
فتعب لذلك، ونزل إلى جدة، وأرسل إلى مولانا الشريف محسن بهدية .

ثم نزل إليه مولانا الشيخ عبد الرحمن بن عيسى المرشدى المفتى الحنفى
بمكاتيب من مولانا الشريف محسن، فأقام عنده أيامًا .

ثم إن الباشا أحمد: طلب من مولانا وسيدنا الشريف محسن الإعانة، فشرعوا فى
تدبير ما يرسلون به إليه، وطلب غواصين لإخراج ماله وأثاثه، فغاصوا ولم يخرجوا
شيئًا، فتخيل الباشا أنهم مأمورون بذلك .

ثم تنكر وتغير وسجن القائد راجحًا بن ملحَم الدويدار حاكم جدة والأغا محمد
ابن بهرام الشريفى أحد خدام مولانا الشريف، وكان أرسله مولانا الشريف إلى جدة
بمكاتيب إلى الباشا، فأرسل مولانا الشريف الشيخ عبد الرحمن قره باش الواعظ
الرومى إلى جدة لينظر فى هذا الأمر فلم يتج شيئًا .

فلما أن كانت غرة شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، وصل الخبر بأن الباشا
صلب راجحًا الدويدار، وكان السيد أحمد بن عبد المطلب نزل إلى جدة إليه لما
سمع به، فنزل على حمار، فقالت له الأقدار: وربك يخلق ما يشاء ويختار، وكان

فى هذه المدة يتردد إليه .

فلما وصل الخبر إلى مكة بذلك حصل اضطراب وقيل وقال .

فبعد مدة يسيرة وصل خبر وفاة الباشا أحمد، وأن السيد أحمد استمال عسكريه، واستولى على جدة وأموالها، وأن جدة نودى فيها لمولانا الشريف محسن، ففرح الناس بذلك كثيرًا. ففى ثانى يوم الخبر ورد الخبر بأن الأمر عاد إلى ما كان عليه، وأن السيد أحمد نودى له فى جدة، ومنع الناس من الدخول والخروج. فبرز مولانا الشريف محسن بعساكره وجنوده ونزل بـ«ومخ» اسم ماء، أو جبل بقرب جدة من جهة الشام، ووقعت هناك فتنة أن الأتراك خرجوا من جدة لأخذ إبل ترعى فى تلك الجهات، فوصل الخبر إلى مولانا الشريف محسن، فركب وركب معه السادة الأشراف والأجناد، فوقعت ملحمة عظيمة قتل فيها من الأتراك فوق الخمسين، وقتل فيها من الأشراف مولانا السيد ظفر بن سرور بن أبى ندى، ومولانا السيد أبو القاسم بن جازان وغيرهما.

ثم بعد مدة وصل مولانا الشريف محسن إلى البلد، وأقام بها وجعل هناك رتبة، وأقام على الرتبة مولانا السيد قايتباى بن سعيد بن بركات.

فلما أن كان آخر شعبان وصل الخبر بأن السيد أحمد بن عبد المطلب خرج هو والعساكر معه إلى جهة مكة، ولم يزل يسير أيامًا عديدة، وكان وصوله على جهة وادى «مر».

فلما كان يوم سادس عشر رمضان وصل الخبر أنهم قاربوا مكة، فبرز مولانا الشريف محسن هو والسادة الأشراف، والأجناد والعبيد والصروح فى جمع لا يحصى إلا خالقه، وكان خروجه لذلك بعد صلاة عشاء ليلة الجمعة سابع عشر رمضان من السنة المذكورة، فالتقوا بالقرب من التنعيم، فوقعت معركة فتوحدت تلك الجموع، ولم يبق لهم همة إقدام إلا على الرجوع.

فأطلقت المدافع، وضربت البنادق، ووضع الناصح والمماذق. فتوجه مولانا الشريف محسن ومعه ابنه الشريف زيد، وبعض السادة الأشراف إلى الحسينية، ثم إلى جهة الشرق نحو «بيشة»، فجمع جيشًا كثيرًا من العربان، وقصد الإغارة على الترك المقيمين بالطائف فلم يتفق له ذلك.

ثم سافر إلى مدينة صنعاء اليمن فأقام بها إلى أن توفى عام ثمان وثلاثين وألف سادس

رمضان بها بظاهرها، وحمل إليها، ودفن بها فى قبة عالية عليها قوام وخدام بمعلوم يصل إليهم من مولانا المرحوم زيد، ثم من بعده من بنيه الأملاك، بدور الأفلاك. كانت ولادته فى جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وتسعمائة بمكة المشرفة، ونشأ فى كفالة أبيه وجده، وكان جده الشريف حسن ينوه بقدره، ويقدمه لنباهته ونجابته وظهور آثار الرئاسة عليه فى صغره، وكان يقدمه فى الحروب، فيرجع مظفراً منصوراً، وعدوه مخذولاً مقهوراً.

جبل على مكارم الأخلاق، وطار صيته فى الآفاق. ولما تولى عمه أبو طالب إمارة مكة أحله محل ولده، ونزله منزلة أفلاذ كبده، إلى أن مات أبو طالب، فشارك عمه إدريس فى إمرة مكة، ولبس الخلعة الثانية، ودعى له فى الخطبة، وعقد له لواء الإمارة، وضربت النوبة الرومية فى بيته لمشاركته فى الإمرة، ووردت التشاريف السلطانية برسمه، وأتت المراسيم الخاقانية إليه مع عمه.

واستمر شريكا فى الربع إلى أن أذن له بالاستقلال بولاية الحجاز. فجرى بينه وبين عمه حال أدى إلى قيامه عليه وتابعه جميع الأشراف على ذلك. فخلع عمه إدريس عن ولاية مكة، واستقر فى الأمر يوم الجمعة الخامس من شهر المحرم الحرام افتتاح سنة أربع وثلاثين وألف كما تقدم ذكر ذلك آنفاً. وكان رحمه الله من النباهة والسؤدد والرئاسة والكرم والبأس والسياسة بالمحل الأرفع.

إلا أن الله تعالى إذا أراد أمراً هياً أسبابه، فما تنفع ذوى العقول عقولهم وليس لها مع إرادته سبحانه إصابة.

وكانت مدة ولايته ثلاث سنين وثمانية أشهر ونصف. رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وغفر له ولأسلافه الأكرمين مغفرة جامعة.

ومما قيل فيه قول مولانا القاضى تاج الدين بن أحمد المالكى رحمه الله تعالى:

[من البسيط]

لَقَدْ جَرَى بِالذِّى تَخْتَارُهُ الْقَدَرُ فَمُرْ بِمَا شِئْتَ إِنْ الدَّهْرَ مُؤْتَمِرُ
وَضُرَّ مِنْ شِئْتَ وَانْفَعَ مِنْ تَشَاءُ فِى أَكْفِكَ الْوَاقِفَاتِ النَّفْعُ وَالضَّرَرُ^(١)

(١) كان أجدر بالمصنف أن يربأ بنفسه عن ذكر هذه المبالغات الفجّة، والتشبيهات التى تصطدم وعقيدة الإسلام.

والدهرُ مِنْ جيشِكَ المنصورِ قائدهُ
 فاغفرْ جَنِيَّتَهُ العظمى لتوبَّتِهِ
 وقد أَتَى مقلعًا عن جرمِهِ ملكًا
 ذا هِيئةٍ رابٍ ريب الدهرِ فانقلَبَتْ
 وسطوة تتركُ الآسَادَ واجمةً
 به تبلِّجُ صَنِحُ الملكِ وابتسمَتْ
 وأصبحَ الدُستُ معمورًا وكافلُهُ
 أخبارُهُ صغرَتْ أخبارهم عظمًا
 ليثٌ إذا خطَّ سطرًا نصل قاضيه
 كأنه لاعبٌ يرمى الرءوسَ به
 ما كَرَّ بعد ورودِ الحربِ قطُّ وهلْ
 ولم يفرَّ وهلْ يدنو الفرارِ فتى
 فتى له جيشٌ عزمٌ قد أحاطَ مِنَ السدِّ
 ينمى إلى دوحَةٍ للملكِ زاكيةٍ
 أغرَّ ثَبَّتَ الجنانِ الفارسُ البطلُ الـ
 ألقائِدُ الخيلِ إن رامتْ مدى وضعتْ
 مِنْ كُلِّ أدهمٍ يكسى مِنْ دَمٍ حُلَلًا
 وكلَّ أشهبٍ محجولٍ قوائمهُ
 وكلَّ طرفٍ يدكُ الصخرَ حافرهُ
 كأنما تطلبُ الأقدامَ أيديها
 تخالُ تصهالها رعدًا يزمجرُ في
 مهبذات إذا نار الوغى استعرتْ
 عليهمُ الأسدُ فرسانًا مصورةً
 وكلَّ أضيْدَ مرَّ الحدَّ ذى جَلْدٍ
 مِنْ كُلِّ شهمٍ شديدِ البطشِ منصلٍ
 وكُلُّ ذى لَمَةٍ سوداءِ حالكةٍ

ألقى يَدَ السِّلْمِ خَوْفًا وهو يعتذرُ
 إِنَّ العَظِيمَ عَظِيمَ الذَّنْبِ يغتفرُ
 يسطو انتقامًا ويعفو وهو معتذرُ
 تغزو عداه صُرُوفُ الدهرِ والغِيرُ
 لم ينجُ مِنْ رُغْبِها نابٌ ولا ظُفْرُ
 ثغورُهُ ودياجى الخطبِ تعتكرُ
 ملكٌ به أَصْحَتِ الأملأكُ تفتخرُ
 كما برؤيتِهِ يستصغرُ الخبرُ
 مالتْ لتعجمه الخطيئةُ السمرُ
 بالصولجانِ فتلكَ الأروُسُ الأكرُ
 يكرُّ من ليس عن وِزْدٍ له صَدْرُ
 بالعزمِ مُدْرَعٌ بالنصرِ معتجرُ
 سِتُّ أَلْجَهاثٍ به التأييدُ والظفرُ
 قد طابَ عُنْصُرُها والفرعُ والثمرُ
 ليثُ الهمامِ الشجاعُ الصارمُ الذَّكرُ
 فى خَطوها يدها حيثُ انتهى البَصَرُ
 كأنه بلطى الهيجاءِ يستعرُ
 أغرَّ أَبْلَجُ ما فى باعه قِصْرُ
 وطنا تطاير من صدماته الشرُّ
 فلا تقرُّ ولم يلحق لها أثرُ
 سحابٍ نقعِ مَثارِ برقهِ البترُ
 لا بالعنانِ ولا بالشكلِ تنحجرُ
 تطيعُهُمْ كيفَ ما شاءوا وتنزجرُ
 ما مَسَّهُ ساءٌ فيها ولا ضَجَرُ
 كالسهمِ إذ ثارتِ الهيجاءُ يبتدرُ
 كالليلِ فى جنحِهِ قد أشرقَ القمرُ

قوم إذا التأموا كانوا الأهلة وال
 كأنهم والصبا تسرى بنشرهم
 بهم حوى الفخر أبناء الرسول كما
 يسوسهم صادق الآراء فطنته
 متوج هو فيهم مثلهم شرقا
 إذا بدا بينهم فى موكب تراه
 لو أن من بعد طه مرسلًا نزلت
 صفات أروع لا تحصى محامده
 وكيف يحصر بالألفاظ قول فتى
 سمح الأكف كريم عم نائله
 كأنما كفه تهمى بنائليه
 أو دوحة غضة الأغصان دانية
 يلقي النصار لديه المعتفون قري
 دعاه يا محسنًا لما تفرس من
 فجاء مصداق كل اسم لصاحبه
 فيا أبا الجود يا جم المواهب يا
 يابن الحسين لقد وافتك واصلة
 لم ترض غيرك كفوا والصدائق لها
 فلسست ممن يقول الشجر مبتغيا
 سلني وسل عنى الأقوام مختبرًا
 عمرى ولولاك يا حامى الذمار لما
 فسرح الطرف فيها روضة أنفا
 ومما قيل فيه أيضًا قول العلامة القدوة المفيد الفهامة مولانا الإمام عبد القادر
 الطبرى الحسينى رحمه الله تعالى: [من الكامل]

لا والنواعم من جوارى العين
 وبما لهن على من خلج العدا
 ما احتجبت فى حمل الهوى لمعين
 ر إذا سفرن بطرة وجبين

ولعبنَ بالألِّبابِ عند تمايسِ
أنا ذلك الصَّبُّ الذی قَدَّمَا صبا
غيثُ السحابِ مدمعی وهوى لظى
يبريني النجديُّ من ألم النَّوى
ويعلُّنى الوجدانُ أَعَذَّبَ مورِدَ
لا يعدلُ المشتاقُ إلا مثلهُ
ما مرَّ بى فى العشقِ إلا ما حلا
شزعُ الهوى فرضى وحسنُ تهتكى
إبنُ الحسينِ أبو الحُسَيْنِ أخو التَّقَى
على الجنابِ إذا انتحى وإذا انتحى
ذو هيبَةٍ حلَّتْ قلوبُ عداته
من عزمِهِ ساحَ الحديدُ وسالَ إذ
يروى الأسنَّةُ والشوازِبُ من دَمِ الـ
ويرى المُنَى نزَعُ النفوسِ بما بها
أَلله ما أعلَى مرامى ظنِّهِ
وأحسُّهُ بالأمرِ قبل وقوعِهِ
يرضيكَ إنْ هزَّ القنا بشماله
فيريكَ لَمَعَ البرقِ فى ظَلَمِ الحشا
ثملتُ به عللاً رءوسُ رماحِهِ
وصحَّتْ فأنهلَهَا الظهورُ فحطَّمتْ
وبها حمى أُمِّ القرى فدعِ القرى
مَنْ ذا يقاومه إذا اشتدَّ الوغَى
هذا التقى الطاهرُ الذيلُ الذى
مولى الجميلِ وبادلُ الفضلِ الجزى
حكَّتِ السحابُ كَفَّهُ فبَكَتْ على
قسماً به لم يحكه فى جوده

بمعاطفِ تزرى الغصُونُ بليِنِ
بصبا الصبا وإلى الغرامِ حَنِينِ
نفسى ورغدُ الصاعقاتِ أنينِ
ويذيلنى بردًا ظبا يبرينِ
ويعلُّنى السلوانُ عنه سلونى
هيهاتَ ذلك فهو بئسَ قرينِ
لفؤادِ كُلِّ مولِّه وحزينِ
نَفْلَى ومدحى محسناً مِنْ دينِ
من لَيْسَ يرضى فى العلا بالدونِ
سهلُ الحجابِ بغابِ ليثِ عرينِ
لو أنهم حلُّوا أقالِمَ الصَّينِ
سلَّتْ فحاكى السَّيْحَ من سيحونِ
أعداءِ لا يَرْضَى لها بمعينِ
مِنْ كُلِّ غُلٍّ فى الصدورِ كمينِ
طبقِ القضا فى شأنِ كل ظنينِ
وخطوره فى عالمِ التكوينِ
وإذا انتضى سيفُ القنا يمينِ
سيلُ العقيقِ ومدَّهقُ الزرجونِ
فبدَّتْ معريدةً بقطعِ وتينِ
أضلاعَ كُلِّ مجدَلٍ وطعينِ
متسفلًا فى الإرتقا بمئينِ
إلا فتى يرجو لقاءَ منونِ
يسمو بعرضِ فى الأنامِ مصونِ
لي وكاشفُ الخطبِ الجليلِ لحينِ
ما فاتهُ من سَحِّهِ بهتونِ
إلا الذى أضمرتُ طيَّ يمينى

فَهُمْ هُمْ بَيْتُ النُّبُوَّةِ وَالْحِجَابِ
 إِنْ تَلَقَّاهُ لَمْ تَلَقْ إِلَّا مُحَسَّنًا
 وَاعْقَدْ يَمِينَكَ إِنَّهُ مِنْ عَقْدِهِمْ
 مَنْ رَامَ عِزًّا فَلْيَنْخُ بِرَحَابِهِ
 مَا سَامَ مَرْعَى خَصْبِهِ مُتَضَائِلٌ
 يَابَنَ النَّبِيِّ إِلَيْكُمَا نُونِيَّةٌ
 وَأَفْتَكْ كَالطَّاوُوسِ تَزْهَوُ عِزَّةٌ
 خَذْ فَالَهَا الْحَسَنَ الْجَمِيلَ وَقَوْلَهَا
 فَالطَّرْسُ مِنْهَا أَخْضَرُ وَالسُّطْرُ فِيهِ
 أَتَتْ عَلَيْكَ بَعْضُ حَقِّكَ فَاعْتَفِرْ
 لَا زِلْتَ فِي أَوْجِ السَّعَادَةِ رَاقِيًا
 وَدَخَلَ الشَّرِيفُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ مَكَّةَ ضَحَى الْيَوْمِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ
 وَالْمَنَادَى بَيْنَ يَدَيْهِ، وَكَانَ دَخُولُهُ مِنَ الْحُجَّوْنَ فَاضْطَرَبَتِ الْأَفْكَارُ، وَتَعَبَتِ النَّاسُ،
 وَأَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ دَخُولَ الْمَسْجِدِ مِنْ بَابِ السَّلَامِ.
 وَفَتَحَتْ لَهُ الْكَعْبَةُ الشَّرِيفَةُ فَدَخَلَهَا، ثُمَّ عَزَمَ إِلَى الْمَحَلِّ الَّذِي أَرَادَ السَّكْنَى بِهِ
 فَنَقُولُ:

ثُمَّ وَلِيَهَا الشَّرِيفُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ بْنُ حَسَنِ بْنِ أَبِي نَمَى بِتَوَلِيَةِ الْوَزِيرِ أَحْمَدَ
 بَاشَا إِيَّاهُ كَمَا تَقَدَّمَ ذَكَرَ ذَلِكَ، فَوَقَعَ مِنَ الْعَسْكَرِ الَّذِينَ كَانُوا مُتَوَجِّهِينَ مَعَ الْبَاشَا
 الْمَذْكُورِ إِلَى جِهَةِ الْيَمَنِ تَسْلُطَ عَلَى بِيُوتِ النَّاسِ لَمَّا فِي نَفُوسِهِمْ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ،
 فَادَّى ذَلِكَ إِلَى الْقَبِيلِ وَالْقَالَ، وَحَصَلَ لَهُمْ مِنْهُمْ الْخَوْفُ الْعَظِيمُ، فَكَانَ ذَلِكَ لَمَّا أَرَادَ
 اللَّهُ سَبِيًّا لِمُخَالَفَةِ الْقَبَائِلِ، وَتَخَطَّفَهُمْ فِي الطَّرِيقِ لِمَنْ مَرَّ بِهِمْ مِنَ الْأَعْرَابِ وَغَيْرِهِمْ،
 وَقَبَضَ عَلَى الْمَرْحُومِ مُفْتَى الْحَنْفِيَّةِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَيْسَى الْمُرْشَدِيِّ، وَحَبَسَهُ
 مُضَيِّقًا عَلَيْهِ لِأَمْرِ نَقْمِهِ مِنْهُ.

فَلَمَّا كَانَ مَوْسِمُ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ -أَعْنَى سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ وَأَلْفَ- قَدَّمَ الْحَاجَّ
 الْمَصْرِيَّ وَأَمِيرَهُ قَانَصُوهَ بَاشَا، وَكَانَ بَيْنَ قَانَصُوهَ هَذَا وَبَيْنَ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَوْدَّةٌ
 أَكِيدَةٌ وَمَكَاتِبَاتٌ سَابِقَةٌ.

فلما صعد الحجيج عرفة أتى حريم الشيخ إلى مخيم قانصوه مستشفعات به إلى الشريف أحمد بن عبد المطلب فى إطلاق الشيخ، فرقاً لهن رقة عظيمة، وتوجه متوجهاً إلى الشريف أحمد يوم عرفة فلم يوجهه ولم يؤيسه.

فلما كانت ليلة النحر توفى الشيخ رحمه الله شهيداً، فكان ذلك مع قضاء الله تعالى سبباً لوقوع ما وقع منه فى الشريف أحمد بن عبد المطلب.

وفى ظهر يوم الخميس ثامن عشرى ربيع الثانى: توفى مولانا السيد الجليل، ذو المجد الأئيل، خاتمة المحققين، شيخ الإسلام والمسلمين، شمس المعارف والعلوم، ترجمان المنطوق والمفهوم، المتفق على إمامته، والمجمع على ورعه وجلالته. إنسان عين العلماء العاملين، أستاذ الأئمة المدققين. صدر المدرسين العظام، مفتى بلد الله الحرام، مولانا الولى القطب العارف بربه، الفاضل عليه مدار الفيض الإلهى مع كسبه، مولانا السيد الشريف، حاوى مرتبى العلم والعمل، البالغ فىهما أوج غاية الأمل، الجامع إلى شرف النسب العلى، شرف العلم الجلى، مولانا السيد عمر بن عبد الرحيم البصرى الحسينى الشافعى بمكة المشرفة.

أخذ عن الشمس الرملى، والعلامة ابن قاسم، والملا عبد الله السندى، والملا على بن إسماعيل العصامى، والقاضى على بن جار الله، والشيخ عبد الرحيم الأحسائى، والسيد مير بادشاه، والملا نصر الله وغيرهم.

وأخذ عنه شيخنا الشيخ على بن أبى بكر بن الجمال، وشيخنا الشيخ عبد الله باقشير، وشيخنا الإمام زين العابدين بن عبد القادر الطبرى، والشيخ محمد بن عبد النعم الطائفى، والسيد عبد الرحمن كرىشة السقاف، والسيد صادق باد شاه مفتى الحنفية، وغيرهم رحمه الله وأعاد علينا وعلى المسلمين من بركاته.

وقد اختلفت الأقوال فى سبب قتله الشيخ عبد الرحمن المرشدى، فقليل تعريض الشيخ المذكور بالشريف حين خطبة عقده التى خطب بها فى زواج سلطانة ابنة على شهاب، وكان الشريف أحمد طلب الزوج بها فلم يزوجه، فعرض الشيخ بذلك حيث قال فى مبتدأ الخطبة المذكورة: الحمد لله الذى أعز سلطانه ودحض شيطانه.

وقيل: إنه جاء إلى الشريف المذكور عند موت أخيه السيد محمد بن عبد المطلب معزياً لابساً صوفاً أبيض.

وقيل: إن الشريف أحمد حين استولى على مكة، وطلع إلى دار السعادة على فرش الشريف محسن وجد تحت طرف المرتبة فنيا من الشيخ المذكور بتسميتهم بغاة جائرين ظالمين، وبوجوب قتالهم بخطه المعروف واسمه الموصوف، والله تعالى أعلم أيّا كان ذلك.

وكانت ولادته سنة خمس وسبعين وتسعمائة، وأرخت بما نصه «شرف المدرسين».

وفيها أيضًا كانت وفاة جدى العلامة الشيخ عبد الملك بن جمال الدين بن إسماعيل صدر الدين ابن العلامة المحقق إبراهيم عصام الدين الشافعى المكى الشهير بالعصامى الملقب بخاتمة المحققين.

إمام العلوم العقلية والتقليية، وخاتمة علماء العلوم الأدبية، وعلم الأئمة الأعلام، بحر العلوم المتلاطمة بالفضل أمواجه، وطود المعارف الراسخ، الناتجة لديه أفراد وأزواجه. علامة البشر، فى القرن الحادى عشر، والرحلة التى ضربت إليه أكباد الإبل، والقبلة التى فطر كل قلب على حبها وجبل.

جمع فنون العلم فانهقد عليه الإجماع، وتفرد بصنوف الفضل فبهر النواظر والأسماع. فما من فن إلا وله فيه القدح المعلى، والمورد العذب المحلى. إن قال لم يدع مقالا لقاتل، أو طال لم يأت غيره بطائل.

مولده كان بمكة سنة ثمان وسبعين وتسعمائة كان تاريخه «نعم المولود ذا»، وبها نشأ وأخذ عن والده، وعن الشيخ العلامة عبد الرؤوف المكى وعن خاتمة المحققين الشهاب أحمد بن قاسم العبادى والعلامة أحمد بن عواد المصرى، والخطيب عبد الرحمن ابن الخطيب الشربينى، وأجازه بمروياته بإجازة بخطه سنة تسع بعد الألف، وعن غيرهم.

وعنه مولانا الشيخ محمد على بن علان الصديقى، والسيد صادق بادشاه، ومولانا الشيخ عبد الله باقشير الحضرمى، ومولانا الشيخ على بن أبى بكر بن الجمال الأنصارى، ومولانا القاضى تاج الدين بن أحمد المالكى، ومولانا الخطيب أحمد ابن عبد الله البرى المدنى، والشيخ محمد بن عبد المنعم الطائفى، وخلق.

ولازم الأمراء والتدريس فى كل علم نفيس، وجدد مغنى العلم الدريس، واشتغل

بال تصنيف والتأليف، وتخلّى عن كل أنيس وأليف، حتى بلغت مؤلفاته الستين، بين شرح مفيد ومتن متين، منها شرح الشذور سماه «شفاء الصدور»، وشرح على القطر، وشرح على الشماثل، وحاشية على شرح التحرير، وشرح على الألفية النحوية لم يتمه، وشرح على الزنجاني، وحاشية على شرح القطر لمصنّفه، وشرح على إيساغوجي، وشرح الخزرجية، وشرح على استعارات السمرقندي، وغير ذلك من المصنّفات المشهورة تبلغ العدة المذكورة، إلى زهد وورع وصلاح، أشرق نورها في أسرة وجهه ولاح، وبينه وبين علماء عصره مكاتبات كثيرة، وأسئلات سطر عليها أجواباته المنيرة. وكانت وفاته بطيبة ودفن ببقيع الغرقد، رحمه الله وأعاد علينا من بركاته آمين.

وفي سنة ثمان وثلاثين في صفر منها: وقع في أعمال مصوّع زلزلة شديدة، ثم تصاعدت إلى برّ العبيد، وما زالت تعمل إلى الأجمدة، وفقدت بلد بمن فيها فلا يعلم أخسف بها أم رفعت إلى السماء، ولم تزل الزلازل تعمل فيهم حتى انسد بالحجارة النازلة عنها ما بين جبلين، ويرون لهب النار، وجرى الدم على وجه الأرض، بعد نبعه منها كجرى الماء، واستمر بهم هذا الأمر إلى بعد ذى الحجة، ثم ارتفعت عنهم الزلزلة وجرى الدم، وذهب أثره عن الأرض، غير أنه بقي فيه أثر النار نهارًا، ولهبها ليلاً، فسبحان الفعال لما يريد.

وفيها في رمضان منها كانت وفاة الشريف محسن بن حسين، وقد ذكرناها مع ما يتبعها آنفاً.

ثم استمر الشريف أحمد في الولاية إلى أن حج بالناس حجة ثمان وثلاثين وألف، فجاء للحجاج أمير منفرد، وجاء قانصوه باشا متوجّهاً لفتح اليمن، صحبته العساكر، وعدتها ثلاثون ألفاً، وضرب وطاقه في أسفل مكة.

وكانت بين الشريف مسعود ابن الشريف إدريس، وبين الشريف أحمد بن عبد المطلب ممالة ومواطأة قبل نزوله إلى جدة مضمونها: إني لا أريد الملك لنفسى إنما أريده لك، أو هو بيننا فخذل عنى ما استطعت من آل أبي نمى، وثبّطهم، وحل عزائمهم، ووعد به بذلك ففعل ما فعل، وحصل به على الشريف محسن ما حصل ولله الأمر.

فلما نزل إلى جدة تقمصها لنفسه، ولم يف لمسعود ببعض ما بينهما بل أراد قتله، ففر إلى قانصوه، والتجأ، وصدر قانصوه على الشريف أحمد مملوء بالوجاء، فلما أقبل قانصوه قاصداً لليمن، لاقاه الشريف مسعود من ينبع، أو الخور، وجاء معه مختفياً، ولم يزل به محتفياً، وواجه في المجيء الأول الشريف أحمد قانصوه، ورد عليه تحية القدوم.

ثم عزم على محاربة قانصوه فازداد قانصوه عليه حقاً على حق، وشرع يستميل عسكر الشريف أحمد فأطاعوه، فخرجوا من مكة، ثم خيم قانصوه بالزاهر. ولما أن قضت الحجاج مناسكهم، وذهبوا إلى أوطانهم، تخلف قانصوه بوطاقه أسفل مكة، فلما تحرك للسفر قدم ثقله، ولم يبق إلا وطاقه، وخيام العساكر، فأشار قانصوه إلى شخص يتعاطى خدمته من أبناء الطواف يسمى محمد المياس، أن يحسن للشريف أحمد الوصول إلى قانصوه للوداع ففعل، وذهب إلى الشريف، وحسن له ذلك يوم السبت رابع شهر صفر، فلما كانت ليلة الأحد خامس الشهر المذكور من سنة تسع وثلاثين وألف، ركب الشريف أحمد إليه، وصحبته من الأشراف شبير بن بشير بن أبي ندى، ومحمد بن حسن بن ضبعان، وراجح بن أبي سعد، ومن أعوانه وزيره مقبل الهجالي، وأحمد البشوتى متولى بيت المال وفليقل، فلم يزالوا يدخلون فى الصيوان من باب، إلى باب، يمنع عند كل باب طائفة من أتباعه حتى دخلوا، فتحادثاً ملياً ثم نصبوا رقعة الشطرنج، فلما كانت الساعة الخامسة من الليلة المذكورة قبض على الجميع، فتوفى الشريف أحمد، شهيداً إلى رحمة مولاه، وقتل الهجالي وفليقل، وصلب البشوتى، وأطلق الأشراف فتحركت عساكره، فأظهره لهم ونشر البيرق، ونودى المطيع للسلطان يقف تحية فوقفت العساكر تحية، وخلع على الشريف مسعود بن إدريس. فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير؛ سبحانه.

ثم حمل الشريف أحمد وأتى به من طريق الحجون، فدفن بالمعلاة رحمه الله من شهيد.

كذا ذكره فى «الجواهر والدرر فى أهل القرن الحادى عشر» .

وقد كان الشريف أحمد ليث آل أبى ندى، أديباً فاضلاً نبياً مهيباً: [من المنسرح]
تَعْرِفُ مِنْ عَيْنِهِ نَجَابَتَهُ كَأَنَّهُ بِالذِّكَاكِ مَكْتَحِلٌ

أخذ العهد، والطريق على عدة مشايخ، من أجلهم الشيخ أحمد الشناوى، وهو المباشر له بولاية مكة لكنه قال: على الشهادة يا أحمد، قال: على الشهادة. فكان كثيرًا ما يكنى عنها بطلوع الشمس، وعاقب بعد الولاية كثيرًا ممن كان قبل استبعادها عنه، وسخر منه، وكان له أخذان وجلساء قبل الولاية وبعدها، فحصل لهم الأذى بعد قتله من قانصوه، بوشاية هذا الشخص المسمى بالمياس، منهم السيد الأكرم، مولانا السيد سالم ابن السيد أحمد شيحان، ومولانا الشيخ أحمد القشاشى، ومولانا الشيخ محمد القدسى خليفة سيدى أحمد البدوى، فحبس الجميع، وثقل عليهم حتى افتدوا أنفسهم بمال جزيل كان ذلك بوشاية المياس، أذاقه الله كل باس، يوم يقوم الناس.

وكان للشریف أحمد زوجان من القنا الطويل جدا بسنان مذهب تحته أكرة من الفضة المطلية، يحمل كل واحد رجل يمشى على قدميه، إذا سار فى موكبه يسيران أمامه قريبًا منه يصوبانهما، ويصعدانهما بحركة لطيفة التصعيد والتصويب على سواء، وربما كان فيهما جلاجل.

وهذا يفعل إلى الآن أمام إمام اليمن إذا سار فى الموكب. انتهى. قلت: وهذا كان له وجود فى زمان الخلفاء العباسيين، فليس أهل اليمن أول مبتدعيه، وقد ذكره شعراء الدولة العباسية فى قصائدهم فى الخلفاء. قال القاضى ناصح الدين أبو بكر أحمد الأرجانى، من قصيدة يمدح بها الوزير أنوشروان وزير الخليفة المسترشد بن المستظهر بالله العباسى قوله: [من الطويل] وألوية منهم صقران أوفيا على علمى رمحين فارتبكا وليس سوى النسرين من أفيهما لحيهما نيل العلا تبعا وكان إذا سار بالليل لا يوقد بين يديه إلا الشمع الموكبى بدلا عن المشاعل، وكان دخوله مكة متملكا لها، وإجفال الشريف محسن صاحب مكة، وبنى عمه عنها ضحى يوم الأحد السابع عشر من شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين وألف، فكان رحمه الله يتبجح ويقول: فتحت مكة بالسيف، كما فتحتها رسول الله ﷺ، ودخلتها فى مثل اليوم الذى دخل فيه ﷺ. قلت: أما قوله: فتحتها فالمشهور الذى عليه الجمهور أنها لم تفتح عنوة، وإنما

فتحت صلحاً، وما وقع من خالد بن الوليد رضى الله عنه، فإنه نووش بعض قتال مع الأحابيش، وعبدان أهل مكة فى أسفلها، وقد نهاه ﷺ عن القتال، ولكنه لما قوتل قاتل، وهذه هى شبهة القاتل، بأنها فتحت عنوة، وقد علمت بيانها.

وكذلك قوله: ودخلتها... إلخ، فإنه لم يدخلها عليه الصلاة والسلام فى سبع عشر رمضان، وإنما دخلها يوم ثامن عشره بغير خلاف.

تغمده الله برحمته آمين.

ومما رأيته لصاحبه إبراهيم بن يوسف الشهير بالمهتار قوله: [من الخفيف]

سنة السبع والثلاثين بعد ال ألف جاءت بما به ينفر الطنبغ
دخل السبع مكة الله بالجند لا شك أنها سنة السبع
وكانت مدة ولايته سنة، وأربعة أشهر، وثمانية عشر يوماً.

ومما قيل فيه قول الأديب الأريب إبراهيم بن يوسف المهتار سامحه الله تعالى:

[من الرجز]

قضى ولم يقض الذى منه يجب	صَبَّ إذا ما يدعه الشوق يُجب
أشجاه تغريد حمامات اللوى	وهنا على البانِ فغنى فطرب
ذكرته ليالياً مواضياً	بالشعب من قبل الخليط ينشعب
إذ عامرٌ بساكنيه عامرٌ	ظباؤه ترعى بمرعاه الحصب
وإذ به الغيدُ بدت سوانحاً	تجر من ذيل الصبا بُرداً قشب
من كل هيفاء القوام إذا انثنت	تكاد من لين به أن تنقضب
تبدو بوجه مسفر من غيب	من شغرها إلى بنى بذر انتسب
من الرعايب اللواتى خلقت	رنج اصطبارى مثل مغناه الخرب
فما وقوفى بالطلول بعدهم	أبكى بها والحي عنها مغترب
سقى سقى الله العباد معهداً	بعامر إن ضنّ دعى المنسكب
ذاك الذى به الظبا تحمى الظبا	فكم به مثلى أسير مكتئب
له أيام به تصرمت	وكأس صفو فى ليالها شرب
بفتية تراضعوا ثدياً من ال	آداب كل للغرام منجذب
يوشون شعراً كالرياض بينهم	طويله يمد لفظ المقتضب

لم ينشدوا إلا شجاني لفظهم
كل أخى صباية وعارفي
بثنا بها كل شكا غرامه
والليل قد تسترث نجومه
والمزن تكي لايتسام البرق أو
الأزوغ الشهم الكريم الجد رب
الفارس الخيل إذا الشر بدا
مملئ العيون هيبه إذا مشى
هو الكريم ابن الكريم من له
من معشر هم السراة فى الورى
مزوى الظبا من الصدا إذا سطا

ولم يوجد من هذه القصيدة إلا ما رأيته، ثم إنه مدحه أيضًا وأشرك معه أخاه

محمدًا بإشارة بعد وقعة البقرة وقد ظهرت شجاعتهما فقال: [من الكامل]

إن كان تسأل الديار كما يجب
ما نافعى إن أشك بث صابتي
يا أحمد ومحمد وثقت يدي
السابقين إلى الوغى بعزائم
سل عنهما بيض الصفاح ولهزم السد
هل شاهدوا إلا هما وهما هما
سدتن ملوك الخافقين أما ترى
إن كان من يرجو الشفا بدمائهم

ثم وليها الشريف مسعود بن إدريس، واستمر فى ولايتها، وكانت مكة فى زمنه ربيعًا مريعًا سخاء ورخاء، تهب بها رياح الأمن والعدل صبا ورخاء، لم يقع فى الوجود شئ فى زمنه من الأكدار، ولا يؤثر من الأخبار إلا كل خبر سار، ما عدا ما قدره الله تعالى من سقوط البيت الشريف فى زمانه، فجده سلطان العالم القائم بحفظ الدين وتشديد أركانه.

وسبب ذلك أنه يوم كان يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان من سنة تسع وثلاثين وألف: نشأت على مكة وأقطارها سحابة غربية، مدلهمة الإهاب، حالكة الجلباب، فلم تزل تجتمع إلى وقت الزوال، فأبرقت وأرعدت، وأرخت عزلها وأغدقت، واستمرت تهطل ساعتين ودرجتين، فأقبل السيل من سائر النواحي، وثلم السد الذي يلي جبل حراء، المسمى جبل النور - ثلثة كبيرة وعلا عليه، فدخل المسجد، وساق ما وجد على طريقه من جمال ورجال ومال وأحمال وغير ذلك، وأخرب الدور، واستخرج ما فيها من الأثاث وغيره، وأهدم عليها، فامتلاً المسجد الحرام ماء حتى أنه دخل الماء إليه من جهة باب الزيادة، وزاد حتى اعتلى على باب الكعبة ذراعين عمل، وأهلك الرجال، والأطفال، وكل من وجد في المسجد، وكان أكثر الهالكين: الأطفال الذين يقرءون القرآن مع فقهاءهم، فتعلق بعضهم بالأماكن المرتفعة، وارتفع على بعض السلاسل الحرمية، فوصل الماء إليهم وأهلك الجميع. وكان من هلك به من بنى آدم خمسمائة، ومن الحيوان كثير، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وحمل جميع ما في المسجد من خزائن، ومصاحف وقناديل وبسط، وغير ذلك، ثم بات المطر يهطل إلى نصف الليل، فلما كان آخر ساعة قبيل الغروب من يوم الخميس العشرين من الشهر المذكور سقط جانب الحجر - بكسر الحاء - من البيت الشريف، فسقط جميع ما بناه الحجاج منها، فكان بقاء البيت نحو ألف سنة من الآيات الجليلة، فإن البناء المربع الذي تمر به الرياح لا يبقى عادة نحو ثمانين سنة، ومن الجانب الشرقي إلى حد الباب، ومن الجدار الغربي نحو النصف أيضًا، ولله الأمر من قبل ومن بعد، فقال في ذلك المهتار هذه القصيدة: [من البسيط]

ما جث قواعد بيت الله واضطربت واهترت الأرض من أقطارها وربث
وأمسيت الكعبة الغراء ساقطة فما أشك بأن الساعة اقتربت
فأئى خطب به أحشاؤنا انصدعت وأئى هول به ألبائنا انسلبت
وجميعها على هذه الركة تركتها استحسانًا، وأنفت من ذكرها استهجانًا.

قال المرحوم العلامة الإمام على بن عبد القادر الطبري يعنيه: وقد نظم بعض المتطفلين على الأدب قصة السيل المذكور مع قصة ما وقع بعده في أبيات تنفر عنها المسامع لركاكتها وقبحها، واستهجان الطباع السليمة لها، يشير بذلك إلى هذه

القصيدة التى مطلعها «ماجت»، ولقد صدق فيما قال رحمه الله.

نعم قوله فى تاريخ هدم البيت بالسيل المذكور: [من الخفيف]

هَدمَ البيتَ أمرَ رَبِّ تَغشًا هُ بسيلٍ لم يحوِ غرقاه ضبط
فى نهارِ الخميسِ عشرينَ شعبا نَ قَبيلَ الغروبِ مِنْ عامِ (لغط)
لا بأس به. وقال الإمام فضل بن عبد الله الطبرى مؤرخًا لذلك: [من مجزوء
الرجز]

سُئِلْتُ عَنْ سَيْلٍ أَتَى وَالْبَيْتُ عَنْهُ قَدْ سَقَطَ
مَتَى أَتَى؟ قُلْتُ لَهُمْ مَجِيئُهُ كَانَ (عَلَطَ)

وله تاريخ آخر من أبيات «رقى إلى قفل بيت الله» وتتمة المصراع «حين هجم»
وقال القاضى الأحسائى: [من المجتث]

مَنْ بَغْدَ إِخْرَاجِ تَرْكٍ وَقَتْلِ مَنْ مَلَكَتْهُ
لِلْبَيْتِ هَدَتْ سَيُولَ تَارِيخُهَا دَخَلَتْهُ

فوقع الضجيج العام، والانزعاج التام، فى قلوب الأنام، فبرز مولانا الشريف مسعود من داره إلى المسجد الحرام، وحضر معه السادة الأشراف، وفتح البيت الشريف وهو الشيخ محمد بن أبى القاسم الشيبى، والعلماء والفقهاء والصلحاء، وكان جلوسهم بمقام الحنفى وجلوس الشريف على نفس المحراب كما أخبرنى من رآه كذلك، فبرز أمر الشريف مسعود بإيقاد الشموع الكائنة فى حاصل المسجد الحرام فأوقدت، وأمر فاتح البيت أن يدخل الكعبة ويخرج القناديل التى بها خشية عليها من الضياع، وأن يرفع الميزاب الشريف أيضًا، فعين الشيخ شخصًا من خدام الكعبة لذلك لكونه فى أثر مرض يمنعه من الحركة التامة، فدخل ذلك الخادم ومعه جماعة، وأتى شيخ الوقادين بالمحط، وأخرجوا القناديل، ووضعوها فى مخزن فاتح البيت، وختم على المخزن المذكور مولانا الشريف، وقاضى الشرع ونائب الحرم الشريف، ثم انصرف الناس إلى دورهم.

فلما كان يوم الجمعة حادى عشرى الشهر المذكور وصل الشريف مسعود، ومعه السادة والأعيان بعد النداء العام بتعاطى هذه الخدمة، وشرعوا فى إزالة الطين الكائن بالمطاف، فشمّر الشريف مسعود عن أكمامه، وأخذ مكتلا وحمل فيه من الطين،

وفعل الناس كذلك، فجزى الله الجميع خيراً، وأثابهم على فعلهم، فما كان بأسرع من تنظيف المطاف وما حوله، فباشر الخطيب الجمعة، وأقام شعارها، ثم شرعوا فى رفع الأحجار، فمنها ما جعلوه خلف مقام الحنفى، ومنها عند ممشى باب السلام بالقرب من المنبر.

ثم إن الشريف جهز قاصداً من مكة، ومعه السيد على بن هيزع لتعريف باشا مصر المحروسة ووزير جهاتها المأنوسة بهذا الخبر ليعرضه على الحضرة الخنكارية، وصحبته مكاتيب مولانا الشريف مسعود، ومحاضر من الأعيان وفتاوى العلماء، فعزم القاصد المذكور من مكة أواخر شعبان، ثم إن الشريف برز أمره العالى إلى المهندسين، والفعلة بتنظيف باطن الكعبة مما وقع فيها من الأحجار والتراب فنظفت، ثم إن الشريف أرسل إلى جدة لتحصيل خشب يجعل على الكعبة لسترها إلى أن يشرعوا فى العمارة، فوصل الخشب آخر رمضان، فستروا جميع ما سقط منها، وجعلوا باباً لطيفاً من خشب فى الجهة الشرقية.

فلما كان شهر شوال جعل الشريف ثوباً أخضر، وألبسة الكعبة الشريفة بعد أن حضر بالمسجد الحرام، ثم بعد إلباسه دخل الكعبة، وصلى بها، ثم برز فطاف والريس يدعوله على قبة زمزم كعادة أسلافه، وكان الإلباس المذكور سابع شوال من السنة المذكورة.

ولما أن كان خامس عشر شوال وصل القاصد من مصر المحروسة، وأخبر بوصول الأغا رضوان المعمار معيناً للعمارة، وكان وصوله معه، إلا أنه تأخر عن ذلك اليوم، فدخل فى اليوم الثانى يوم سادس عشر شوال، ونزل بالجوخى، ثم دخل مكة يوم سابع عشر الشهر المذكور وصحبته نامة سلطانية، وخلعة للشريف مسعود، فألبسه إياها بالمسجد الحرام يوم السبت سابع عشر شوال بعد اجتماع السادة والفقهاء والأعيان، وقرئت النامة، والأحكام الباشوية، ثم شرع الأمير رضوان فى تنظيف المسجد الحرام، فأكمل ذلك وفرشه بالحصى، ولم يرد الحجاج إلا وقد تم جميع ذلك.

ثم لما كان يوم الأحد سادس عشرى شهر ربيع الثانى من عام أربعين وألف، وصل إلى مكة السيد محمد أفندى متولياً قضاء المدينة الشريفة، ومعيناً لعمارة الكعبة

المشرفة، وكان وصوله إلى بندر جدة بحرًا، وصحبته نامة سلطانية، وخلعة عثمانية من الحضرة الشريفة المرادية باسم مولانا الشريف مسعود، فقرئت النامة بالحطيم بعد حضور قاضى مكة، وشيخ حرمها، ومولانا السيد عبد الكريم ابن السيد الشريف إدريس نيابة عن أخيه مولانا الشريف مسعود، وحملت الخلعة صحبة السيد عبد الكريم، والسيد محمد أفندى، والأمير رضوان، والأجناد إلى مولانا الشريف مسعود، فلبسها ببستانه بالمعابدة؛ لكونه مقيمًا فيه لتوعك مزاجه الكريم.

فاستمر مريضًا بمرض الدق إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى فى ليلة الثلاثاء عشرين ربيع الثانى سنة أربعين، وكانت مدة ولايته سنة وثلاثة أشهر إلا أربعة أيام، رحمه الله رحمة واسعة.

وضبط الأمير رضوان البلد ضبطًا حسنًا وأمر المنادى بالنداء أن البلد بلد السلطان. وما زاد على ذلك؛ دفعًا للفتنة، فجاءت الأشراف وسألوه عن المعين للأمر فأبى أن يعينه وأمرهم بتجهيز الشريف مسعود، فنزل به الأشراف وقت الضحوة إلى مكة على محفة البغال، وغسل وصلى عليه عند الكعبة قاضى الشرع مولانا العلامة حسين أفندى، وخطب عليه خطبة أبكت العيون، وأنكت القلوب، ودفن عند أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد.

ومما قيل فيه من الشعر قول العلامة القاضى أحمد بن عيسى المرشدى: [من البسيط]

عوجاً قليلاً كذا عن أيمن الوادى	واستوقفا العيس لا يحذو بها الحادى
وعرجاً بى على ربع صحبت به	شرح الشبية فى أكناف أجياد
واستعظفا جيرة بالشعب قد نزلوا	أعلى الكتيب فهم غيب وإرشادى
وسائلا عن فؤادى تبلغأ أملى	إنّ التعلل يشفى غلة الصادى
واستشفعا تشفعأ نسالكم فعسى	يقدر الله إسعافى وإسعادى
وأجملا بى وخطأ عن قلوبكما	فى سوح مزدى الأعادى الضيغم العادى
مسعود غين العلا المسعود طالعه	قلب الكتبية صدر الحفل والنادى
رأس الملوك وعين الملك ساعده	زئد المعالى جبين الجحفل البادى
شهم السراة الألى سارث عوارفهم	شرقاً وغرباً بأغوار وأنجاد
نرد غمار العلا فى سوجه ونرخ	أيدى الركائب من وخد وإساد

وَجُود كفيه فيها رائح غادى
يا حبذا العشبُ فى الدنيا لمرتاد
من روضٍ معروفٍ من قبلٍ ميعاد
وأئى قضدٍ لمقصودٍ وقصاد
تُخىي مائراً آباءٍ وأجداد
مشهراً يبهز المصبوغ بالجاد
والشهب فخرًا بأسبابٍ وأوتاد
شمسُ النهارِ وهذا خرُّها بآدى
من ثلةِ أهلٍ تثليثٍ وإلحاد
عفوا فعادوا لإتلافٍ وإفساد
من السلاسلِ فى أطواقٍ أجياد
يدعون حُباً لمولانا بإمداد
يا بردَ خرُّهم فى حرٍّ أكباد
كأنَّ أثوابه مُجَّت بفرصاد
حلوا بأفواه أجدادٍ وأنجاد
نورُ الأمانِ لأرواحٍ بأجساد
ومن محبٍّ ومن مشنٍّ ومن فادى
أيامنا بالهنا أيامَ أعياد
وكان من قبلٍ صعباً غير منقاد
وقائع لك بين الخرج والوادى
لما ترقى خطيباً منبرَ الهادى
مهملاً كلَّ معوجٍ ومنادٍ
إلى العدى طفرة النظامِ مياذ
عن ربِّ عزٍّ تنضاهُ بأحشادٍ
ينسى الشفوق الموالى ذكرَ أولادٍ
يسرعنَّ عدواً إلى الأعدا بأطوادٍ

فلا مناخ لنا فى غير ساحته
يعشوشبُ العشبُ فى أكتاف عقوته
ونجتنى ثمرَ الآمالِ يانعة
فأئى سوحٍ يرجى بعد ساحته
ليهنَ ذا الملك أن ألبست حلته
لبستها فكسوت الفخرَ ملبسها
علوت بيتاً ففاخرت النجوم علأ
ولحت بدرًا بأفقِ الملك تحسده
وصنت مكة إذ طهزت حوزتها
قد غرَّ بعضهم الإمهال يحسبه
فدثتهم عن حمى البيت الحرام وهم
كانهم عند رفع الزند أيدىهم
وما ارعوا فشهزت السيف محتسباً
غادرتهم جزراً من كلَّ منجلدٍ
وأثمر السدر من أجسادهم ثمرأ
سعينت سعيًا جنياً من خمائله
فكم بمكة من داعٍ ومبتهل
وعاد كل قصيٍّ مصلحاً وغدث
نفى لذيذ الكرى عنهم تذكُّرهم
أباح سرحك أن يرعى منازلهم
من كل أبيض قد صلت مضاربه
وقاد كل قصيٍّ ذله مهلاً
وكل أسمر نظام الكلى وله
وصانَ وسمك فى جاشٍ يخالطه
أسكنت قلبهم رعباً تذكُّره
أقبلتهم كلَّ مرقالٍ وسابحة

مِنْ كُلِّ شَهْمٍ إِلَى الْعِلْيَاءِ مُتَسَبِّ
 فَهَآكَ يَابْنَ رَسُولِ اللَّهِ مِدْحَةً مَنْ
 فَأَحْكَمْتَ فِيكَ نَظْمًا كُلَّهُ غُرُورُ
 أَصَحَّتْ قَوَافِيهِ وَالْإِحْسَانُ يَشْرَحُهَا
 تَرْوِيهِ عَنِّي الثَّرِيَا وَهِيَ هَازِلَةٌ
 وَتَسْتَحُثُّ مَطَايَا الزُّهْرِ إِنْ رَكَدَتْ
 وَتَوْقِظُ الرِّكَبَ مِيلًا مِنْ خَمَارِ كَرَى
 أَتُنْكَ تَشْفَعُ إِذْ لَالًا لِمَنْشِئِهَا
 وَأَسْبِلُ الصَّفْحَ سَتْرًا إِنْ بَدَا خَلَلُ
 وَقُلْ تَقَرَّبْ إِلَيْنَا تَسْتَعِزُّ بِنَا
 لَازَلْتُ يَا عَزُّ أَهْلَ الْبَيْتِ فِي دَعَا
 مَسْعُودُ جَدُّ سَعِيدِ الْفَالِ طَالَعَهُ
 بِحَقِّ طُهُ وَسَبْطِيهِ وَأُمَّهُمَا
 صَلَّى عَلَيْهِمْ إِلَهُ الْعَرْشِ مَا سَجَعَتْ
 وَقَالَ مَوْلَانَا الْقَاضِي تَاجُ الدِّينِ الْمَالِكِيُّ فِيهِ أَيْضًا، وَقَدِمْتُ هِيَ وَالَّتِي قَبْلَهَا فِي يَوْمِ

واحد يوم الجمعة ثاني رجب سنة تسع وثلاثين وألف: [من البسيط]

غُذِيْتُ دَرَّ التَّصَابِي قَبْلَ مِيلَادِي
 عَمِّي التَّصَابِي بِشَادِي وَالْعَذَابُ بِهِ
 وَعَاذَلُ الصَّبِّ فِي شَرِّ هَوَى حَرْجٍ
 لَيْتَ الْعَذُولَ حَوَى قَلْبِي فَيَعْذِرْنِي
 لَوْ شَامَ بَرْقُ الثَّنَايَا وَالْتَشَّى مِنْ
 وَلَوْ رَأَى هَادِيًا لِلْجِيدِ كَانَ دَرَى
 كَمْ بَاتَ عَقْدًا عَلَيْهِ سَاعِدِي وَيَدِي
 إِذْ أَعْيُنُ الْعَيْنِ لَا تَنْفُكُ ظَامِنَةً
 فَيَا زَمَانَ الصَّبَا حَيَّتْ مِنْ زَمَنِ
 وَيَا أَحَبَّتْنَا رَوَى مَعَاهِدُكُمْ

فَلَا تَرُمُ يَا عَذُولِي فِيهِ إِرْشَادِي
 عَذْبٌ لَدَيَّ كَبِيرِ الْمَاءِ لِلصَّادِي
 يَرُومُ تَبْدِيلَ إِصْلَاحٍ بِإِفْسَادٍ
 أَوْلَيْتَ قَلْبَ عَذُولِي بَيْنَ أَكْبَادِي
 تَلْكَ الْقُدُودِ انْشَى عَطْفًا لِإِسْعَادٍ
 أَنْ اسْتَقَاقَ الْهَدَى مِنْ ذَلِكَ الْهَادِي
 نَطَاقُ مَجْتَمَعِي الْمَخْفَى وَالْبَادِي
 لِيُوزِدَ مَاءِ شَبَابِي دُونَ أَنْدَادِي
 أَوْقَاتُهُ لَمْ تُرْعَ فِيهَا بِأَنْكَادٍ
 مِنَ الْعَهَادِ هَتُونُ رَائِحِ غَادِي

معاهدًا كُنْ مصطفى ومربّعى
يا رائحين وقلبي إثر ظعنهم
إن تطلبوا شَرَحَ ما أيدى النوى صَنَعَتْ
فقابلوا الريحَ إذ هبَّتْ شاميةً
وَالْهَفَ نفسى على مغنى به سَلَفَتْ
كانها وأدامَ الله مشيها
ذو الجود مسعودُ المسعودُ طالعه
عادت بدولته الأيامُ مشرقةً
وقلّدَ الملكَ لما أن تقلده
وقام بالله فى تدبيره فغدا
حق لك الحمدُ بعد الله مفترضُ
أنقذتهم مِنْ يدِ الأعداءِ متخذًا
داركتهم سَهْدًا رمى فعادَ لَهُمْ
بُشْرَاكَ يا دهرُ حاز الملكَ كافله
عادت نجومُ بنى الزهراءِ لا أفلتُ
واخضَلُ روضَ الأمانى حينَ أصبحتِ الـ
وأصبحَ الدينُ والدنيا وأهلُهما
يبیحُ هامَ الأعادى مِنْ صوارمه
شَهْمُ أيدى أياديه ونائله
يَمْضِى مؤمِّلُ جدوى راحتيهِ إلى
بذلِ الرغائبِ لا يعتدُّه كرمًا
والعَفْوُ عن قدرةِ أشهى لمهجتهِ
مأثِرُ كالدراى رفعةً وسنى
تسمو مناقبَ مَنْ كُلُّ الكمالِ حوى
فأنتَ من معشرٍ إن غارةً عرضتَ
كم هجمةً لكِ والأبطالُ محجمةً

فَكَمْ بها طال بل كَمْ طابَ تردادى
ونازحينَ وهُمَ ذكري وأورادى
بمغرمِ جِلْفِ إيحاشٍ وإيحادِ
تروى حديثى لَكُمْ موصولَ إسنادِ
ساعاتُ أنسٍ لنا كانتْ كأعيادِ
أيامُ دولةِ صدرِ الدستِ والنادى
لا زالَ فى بزجِ إقبالٍ وإسعادِ
تهزُّ مختالةً أعطافَ مَيَّادِ
فخرًا على مَرِّ أزمانٍ وآبادِ
موفقًا حالَ إصدارِ وإيرادِ
فى كُلِّ آونةٍ من كُلِّ حَمَّادِ
عند الإلهِ يَدًا فيهمُ بأنجادِ
غمضُ لجفنٍ وأرواحٍ لأجسادِ
بشراكِ يا دهرُ أخرى بِشْرُها بادى
بعودةِ الدولةِ الزهراءِ لمعتادِ
أجوادُ عقدًا على جَيَّادِ جَيَّادِ
فى حفظِ ملكٍ لظلَّ العدلِ مدادِ
ما استحصدتُ بالتقاضى كلَّ حَصَّادِ
على الورى أصبحتُ أطواقُ أجبادِ
طلّقِ المحيا كريمِ الكَفِّ جوادِ
ما لم يكنْ غيرَ مسبوقٍ بميعادِ
صينتُ وأشفى من استيفاءِ إيعادِ
وكثرةً فهى لا تحصى بتعدادِ
وأنتَ ذلكَ عن حَضِرِ بأعدادِ
خفوا إليها وفى النادى كأطوادِ
ووقفه أوقفَتْ ليثَ الشرى العادى

بكلّ أبيض مقصود لمضطهد
فخر الملوك الألى فخر الزمان بهم
وليهن حلته أن رخت لابسها
واستجل أبكار أفكار مخدرة
كم رذ خطاها حتى رأتك وقد
أفرغت في قالب الألفاظ جوهرها
وصاغها في معاليكم وأخلصها
يحدو بها العيس حاديها إذا زحرت
كأنما الراح بالالباب لعبة
بفضلها فضلاء العصر شاهدة
فلو عدت من حبيب في مسامعه
واستنزلا عن مطايا القول رخلهما
وحسبها في التسامى والتقدم في
تقريظها عند ما جاءت معارضة

وللمرائر والمران قصا
ذم حائزا ملك آباء وأجداد
إذ أصبحت خير أثواب وأبراد
قد طال تغيسها من فقد أنداد
أمثك خاطبة يا نسل أمجاد
سبكا بذهن وري الزند وقاد
وذ ضميرى فيه عدل إشهاد
من طول وخد وإرقال وإرشاد
إذا شدا بين سمار بها شادي
والفضل ما كان عن تسليم أضداد
أو الصفى استحالا بغض حسادى
واستوقفا العيس لا يحدو بها الحادى
عدد المفاجر إذ تغدو لتعداد
عوجا قليلا كذا عن أيمن الوادى

نشأ الشريف مسعود فى كفالة والده الشريف إدريس صاحب مكة، ووقعت له حروب مع ابن عمه الشريف محسن بن الحسين بن الحسن كان الظفر فيها لمحسن، أولها سنة سبع وثلاثين فى ربيع الأول منها، وفى بعضها أرسل الشريف محسن ولده محمد فظفر، واستولى على مسعود، وأخذه أخذا شديدا، وقتل فى المعركة السيد حميضة بن عبد الكريم بن حسن، وهاشم بن شنبر بن حسن، ثم دخل الشريف مسعود مكة برضا من الشريف محسن بكفالة الأشراف أنه لا يسعى فى خلاف لا بقول ولا بفعل.

رحم الله الجميع رحمة واسعة.

ثم وليها الشريف عبد الله بن حسن، أكبر آل أبى نمى إذ ذاك ملوك البلد الحرام ومدينة جدهم عليه أفضل الصلاة والسلام، دعاه رضوان والسيد محمد المعين للعمارة، وقاضى مكة، وشيخ حرمها، فحضر ومعه من أولاده السيد محمد والسيد حسين، وكان قد تخلف عن الجنازة لذلك، فلما حضر مولانا الشريف عبد الله سأل

منه الأمير رضوان لبس خلعة شرافة البلد الحرام، فامتنع من قبول ذلك، فألزموه بذلك حقًا لدماء العالم، وما زالوا به حتى رضى، فألبسه الأمير القفطان وحصل بولايته الأمن والأمان، وكان الاجتماع لذلك فى السبيل المنسوب لمحمد بن مزهر كاتب السر الكائن فى جهة الصفا المعروف علوه فى زماننا بسكن الشيخ على الأيوبى - رحمه الله تعالى -.

ثم لما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة حضر بالحطيم مولانا الشريف عبد الله بن حسن، والسادة الأشراف، والعلماء فدار بينهم الكلام فى بقية الجدران، والجدار اليمانى، فاتفقوا على الإشراف عليه أولاً، فدخل الشريف عبد الله والجماعة إلى الكعبة، وأشرفوا على بقية الجدران، ونصب المهندسون الميزان فى الجدار اليمانى، فوجدوه خارجاً عن الميزان نحواً من ربع ذراع، ثم برزوا من الكعبة، وجلسوا فى الحطيم، فاقتضى رأيهم أن يهدم بقية الجدارين الشرقى والغربى، ثم ينظر فى الجدار اليمانى، فإن زاد فى الميل هدم وإلا فلا، وانفض الجميع على ذلك.

ثم بعد يومين رفع سؤال إلى علماء مكة هل يجوز هدم الجدار اليمانى إذا شهد المهندسون بوهنه وسقوطه إن لم يهدم؟ فأجابوا بالجواز، فاعتمد الولاية على ذلك فتعاطوا العمارة، وشرع المهندسون فى هدم بقية الجدران، وكان ابتداء الهدم فى يوم العشرين من جمادى الأولى سنة أربعين وألف، ثم لم يزلوا كذلك إلى أن أتموا الهدم، وشرعوا فى البناء، وحضر فى أثناء العمارة مولانا الشريف عبد الله، وحمل مكتلاً فيه نورة، وفعل فعله جماعة من الحاضرين، فلما أن كان غرة شعبان من السنة المذكورة سنة أربعين وألف رفعت الأستار التى حول البيت الشريف، وتكامل بناء الجدران كلها:

وفى ثالث شعبان يوم الخميس ركب الميزاب، وبعد النصف من شعبان شرعوا فى تنظيف الكعبة المشرفة، وفى يوم الجمعة غرة شهر رمضان ألبست الكعبة الشريفة ثوبها ولله الحمد والشكر.

وفى ذلك يقول القاضى تاج الدين المالكى مؤرخاً لعمارتها، وممتدحاً لمعمرها مولانا السلطان مراد خان بن أحمد خان: [من الطويل]

هنيئًا لملك خضه الله واجتبي
 بنى البيت بعد ابن الزبير ولم يفز
 ملك أقام الله أيام ملكه
 ملك ملوك الأرض طرا عبيده
 ملك حباه الله فخرا وسوددا
 بتعميره بيت الإله على يدي
 قدونك تاريخا لعام بنائه
 مراد بنى بيت الإله وزاده
 وله تاريخ نثر هو قوله «أسس بنيانه على تقوى من الله وهدى»، ولإبراهيم المهتار
 قوله: [من المتدارك]

قد قيل ترى من يعمر بي
 فأجبت بتاريخ نظمها
 ها أعمر بيت الله مراد

قلت: يحسن أن يقابل هذا الشعر بقول القائل: [من المتدارك]

شعر عظم مائل لكم حجر ضخم ترب ورماد

واستمر مولانا الشريف عبد الله بن حسن متوليا إلى أن حج بالناس موسم سنة أربعين بعد الألف، ثم استهل هلال محرم افتتاح سنة إحدى وأربعين وألف، فأخذ منها شهر محرم، ثم بدا له خلع نفسه من ولاية مكة، فلما كان يوم الجمعة غرة صفر من السنة المذكورة قلد إمرة مكة لولده الشريف محمد بن عبد الله بن حسن، ولمولانا الشريف زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن، وكان قد استدعاه قبل ذلك من نواحي اليمن؛ لأنه فر إلى تلك الجهة زمن ولاية مسعود مكة لما كان من مولانا الشريف محسن إلى أبيه إدريس أولا ثم إليه نفسه منه ثانيا، فنودي بالبلاد لهما، وتخلي الشريف عبد الله بن حسن للتوجه إلى عبادة ربه إلى أن أتاه الأمر المحتوم بأمر الحى القيوم ليلة الجمعة عاشر جمادى الأخرى من السنة المذكورة، فكانت مدة ولايته تسعة أشهر وثلاثة أيام.

فاستمر الشريفان محمد بن عبد الله، وزيد بن محسن يدعى لهما على المنابر، والبلاد بهما قارة والأحوال طيبة سارة، إلى أن كان العشر الأول من شعبان المعظم

من السنة المذكورة وصلت أخبار من جهة اليمن بأن عسكريًا خرجوا على الوزير قانصوه، وأن نيتهم الوصول إلى مكة المشرفة وكان ذلك شائعًا على الألسنة. ثم ورد مورق من القنفذة بخبر وصولهم إليها، ومعه مكاتيب إلى مولانا الشريف محمد، ومولانا الشريف زيد، ومصطفى بك الصنjq المقيم بمكة أو طراقة من أغاني العسكر المذكور محمود وعلى بك، ومضمون مكاتيبهم أننا نريد مصر، ونريد الإقامة بمكة أيامًا لنتهيًا للسفر، فأبى عليهم صاحب مكة خوفًا من الفتنة والفساد، ودفن بعض آبار كانت فى طريقهم، فلما وصل الخبر إليهم أجمع رأيهم على دخول مكة قهرا، واستعدوا لذلك بعد أن كتبت الأجوبة بالمنع فحصل فى البلد قيل وقال، واضطراب شديد.

فلما أن كان يوم الجمعة عشرين شعبان من السنة المذكورة بعد العصر، وهى سنة إحدى وأربعين وألف توجه مولانا الشريف محمد، والشريف زيد، والسادة الأشراف والأعراب إلى جهة بركة الماجن، وقوز المكاسة لأنه بلغهم أن الأتراك قاربوا السعدية، وبرز معهم الصنjq مصطفى بك بعد أن طلب من الشريف محمد خيلا لمن معه، فتوهم من ذلك ومنعه من الخيل فبرز معه بعسكره وجنوده، فلما أن كان ضحى يوم الأربعاء خامس عشرين شعبان المذكور وقع اللقاء بالقرب من وادى البيار بين السادة الأشراف، وبين الأتراك فحصلت ملحمة عظيمة وقتال شديد، وقتل مولانا الشريف محمد بن عبد الله بن حسن صاحب مكة، وقتل معه من السادة الأشراف جماعة منهم: مولانا السيد الجليل أحمد بن حراز، ومولانا السيد حسين ابن مغامس، ومولانا السيد سعيد بن راشد، وخلق آخرون، وأصيب يد مولانا السيد هزاع بن محمد الحارث فقطعت، ولم تنفصل فدخل بها كذلك إلى مكة، ومرو على جهة سوق الليل قائلا: عذرى إليكم يا أهل مكة ما ترونه، وتوجه بقية الأشراف إلى وادى مر.

فبعد تمام الواقعة دخل الأتراك، ونودى بالبلد للشريف نامى بن عبد المطلب بن حسن، وكان دخولهم من جهة بركة الماجن، فتعب الناس أشد التعب، وحصل الخوف الشديد، وتسلمت هذه العساكر على الناس وأتعبوهم وأهلكوهم فسقا ونهبًا وظلما وشربًا، وتقطعت الطرق وعصت الأعراب، وحمل الشريف محمد بن

عبد الله فى عصر ذلك اليوم، ودفن بالمعلاة فى مقابر آبائه وأجداده بعد أن قاتل قتال من لا يخاف الموت، وكانت مدة ولايتهما سبعة أشهر إلا ستة أيام.

وكان خروج الشريف محمد بن عبد الله -رحمه الله تعالى- إلى لقاء هؤلاء الأتراك فى مثل سقوط البيت الشريف فى اليوم والساعة فإنه كان يوم عشرين من شعبان بعد العصر من سنة تسع وثلاثين بعد الألف، وخروج الشريف المذكور لذلك فى يوم عشرين من شعبان بعد العصر سنة إحدى وأربعين وألف، فبين سقوط البيت الشريف وخروج السيد الشريف ستان بغير زيادة، فلهذا الاتفاق.

ثم وليها الشريف نامى بن عبد المطلب، وتوجه مولانا الشريف زيد إلى وادى مر بعد أن دخل مكة ومعه السيد أحمد بن محمد الحارث، ومرا على بيت الشريف نامى بن عبد المطلب فدعاه مولانا الشريف زيد، فخرج إليه، فناوشه بعض كلام، فقال السيد أحمد: ليس الوقت وقت كلام، وكان من جملة ما قاله له مولانا الشريف زيد: [من المتقارب]

تُجَازَى الرِّجَالُ بِأَفْعَالِهَا خَيْرًا بِخَيْرٍ وَشَرًّا بِشَرِّ

فالله الله بالحريم. أو ما يقرب من هذا الكلام، ثم سار إلى المدينة الشريفة، وكتب عروضًا بالتعريف بالواقع، وأرسلها إلى باشا مصر صحبة السيد على بن هيزع حوالة مكة بمصر، ولما وصل الخبر لصاحب مصر، أرسل إليهم سبعة صناجق، وأرسل بخلعة سلطانية لمولانا المرحوم الشريف زيد بن محسن مع الأغا محمد أرض رومى وجماعة من خواصه، وبلغهم أن الشريف زيد بالمدينة، فدخلوا إليها، وخلعوا عليه بملك الحجاز فى الحجرة النبوية، وتوجه إلى العسكر وأتوا جميعًا إلى مكة، ووصل خبر ذلك إلى مكة وتحقق، فاضطربت حينئذ آراء العساكر الجلالية اليمنية: فمن قائل: نخرج، ومن قائل: نقاتل، ثم وصل الخبر بأن العساكر المصرية وصلت عسفان، فاقتضى رأى عسكر اليمن أن يرسلوا من يكشف لهم الخبر، فأرسلوا جماعة فوصلوا إلى وادى مر، والعساكر المصرية قد أقبلت، فرجعوا إلى مكة وأخبروا من بها بذلك، فأظهروا حركة الرحيل عنها.

فلما كان يوم الأربعاء خامس ذى الحجة خرجوا كلهم ومعهم مولانا الشريف نامى وأخوه السيد السيد عبد العزيز إدريس، ولم يبق منهم أحد، وكان

بروزهم وقت أذان العصر، فلما أن حاذوا باب النبي ﷺ المسمى الآن باب الحريريين قال المؤذن: الله أكبر، فسقط بيرق محمود منهم، فكان سقوطه فألا عليهم، ثم ساروا فزلوا عند جبل حراء وباتوا، فلما كان أثناء الليل سرى السيد عبد العزيز بن إدريس على نجية له أعدت خلف الجبل فقعد عليها، وتوجه إلى ينبع فنجا، فلما أسفر الصبح، ولم يجدوه فعلموا أنه اختلس نفسه، فزاد احتفاظهم على الشريف نامى وأخيه السيد وأمست مكة بعد خروجهم خالية، وكان بها مولانا السيد الشريف أحمد بن قتادة بن ثقبه، فنادى فى البلد: إن البلاد بلاد الله والسلطان مراد، وعس البلد تلك الليلة.

ثم لما كان شروق يوم الخميس سادس ذى الحجة الحرام من السنة المذكورة، دخل مولانا الشريف زيد بن محسن بمن معه من الصناجق، وكان نزوله بدار السعادة، ثم نزل وقت الضحى من ذلك اليوم إلى المسجد الحرام، فجلس فى السبيل الذى بجانب زمزم، ومعه الأمير على الفقارى أحد الصناجق الواصلين، ثم خرج مولانا الشريف من السبيل المذكور، وطاف بالبيت أسبوعاً، والرئيس يدعو له على قبة زمزم، ثم خرج المنادى ينادى بأن البلاد بلاد الله، وبلاد مولانا السلطان مراد، ومولانا الشريف زيد بن محسن، ثم طلب بعض الصناجق الخروج إلى الجلالية لقرب إدراكهم، فقال له مولانا الشريف زيد: الرأى أن نحج، وتحج الأمة، وتفلق ثم نلحقهم فيقرب الله بعيدهم ولا يفوتون.

فحج مولانا الشريف تلك السنة بالناس، وأزال الله به عن أهل مكة بل عن قطر الحجاز كل باس.

وبعد أن أتم مولانا الشريف المناسك، وصل إلى مكة بعض العساكر اليمانية بشفاعة إبراهيم باشا أمير الحاج الشامى فى تلك السنة.

ولما كان يوم الثلاثاء ثانى محرم الحرام افتتح سنة اثنتين وأربعين وألف: عقد مجلس بالمسجد الحرام عند مقام المالكى حضر فيه مولانا الشريف زيد، وغالب الصناجق، وغالب السادة الأشراف، والسادة الفقهاء، وتفاوضوا فى أمر العسكر اليمانى، فاتفق الحال على أنهم يعزمون إليهم، فبرزوا ذلك اليوم، ومعهم مولانا الشريف زيد وجماعته، فأدركوهم فى محل يقال له: تربة فحاصروهم، ثم وقع

القتال بينهم بالبندق، فاستمسك على بك لنفسه من الصناجق على أن يسلم من القتل، والتزم لهم بمحمود بك، فقبلوا ذلك، وأمسكوا محمود بحيلة دبورها، ثم رجعوا فدخلوا مكة المشرفة في أول يوم الخميس ثامن عشر محرم الحرام من السنة المذكورة، ومعهم محمود بك أحد أغاى العسكر اليمنى، فعذب بأنواع العذاب، وطيف به على جمل فى شوارع مكة عارى الجسد إلا ساتر عورته، ومد باعه بعضا، وربطت يدها عليها عورضت من خلفه، وشقت عضداه وذراعاها، وغرز فيها مصطفة خرق الزيت الموقدة، ووكل بتلك العصا من يضربها من خلف حيناً بعد حين فيتناثر سقطها على جسده، والعياذ بالله تعالى، ثم علق بكلا بأكلا فى رأس ذراع يده اليمنى، ثم أدخل تحت عصب عقب رجله اليسرى، ودفع إلى شجرة جميز عند باب المعلاة فمكث كذلك نحو ثلاثة أيام حياً يسب ويفحش ويفجر إلى أن مات، فأُنزل وأخذ إلى شعبة العفارىت فأحرق ثم.

وأما الأغا الآخر على بك فلم يحصل عليه سوء أصلاً وذلك لتدبيره تلك الحيلة على محمود، ولحسن سلوكه حال دخوله مكة مع بعض حريم لمولانا الشريف زيد فإنه آمنهم، ووصلهم بخير، وكان يتردد إليهم ويتفقد أحوالهم ويشهرهم، فكان ذلك سبباً لسلامته، وخلوصه مما وقع لرفيقه.

ثم لما كان أواخر شهر محرم افتتاح السنة المذكورة كان مجمع كبير أمام باب مدرسة السلطان قايتباى، حضر فيه الصناجق والأمراء والقضاة، ثم جرى بالمرحوم مولانا السيد الشريف نامى بن عبد المطلب، وأخيه مولانا السيد السيد بن عبد المطلب، فاستفتيت العلماء فيهما، فأجابوا بحكم الله تعالى، فذهب بهما فى شردمة من العسكر إلى أعلى الردم فتوفيا شهيدين رحمهما الله رحمة واسعة، وغفر لهما مغفرة جامعة آمين.

وكانت مدة ولايته على مكة مائة يوم ويوم وهى عدد حروف اسمه نامى، لأنه دخلها يوم خمس وعشرين من شعبان من سنة إحدى وأربعين بعد الألف، وخرج منها عصر اليوم الخامس من ذى الحجة من السنة المذكورة كما تقدم، وتلك المدة مائة يوم ويوم.

وفى ذلك يقول المهتار: [من الطويل]

تأملُ لدنياكَ التي بَصُرُوفُها أَبَادَتْ عُلَا مَلِكٍ تَأُطِدُ سَامِي
بدا فأضاً ثُمَّ اغْتَدَى الْحَقُّ فَانْقَضَى فَمَدَّةُ نَامِي عَدَّةَ أَحْرُفٍ نَامِي
كذا ذكره الطبري في تاريخه المسمى «بالأرج المسكى في التاريخ المكي»
فليراجع .

قلت : وقد حكى المقرئى نظير ذلك فى السابق، وهو أن العزيز بن برسبای أحد
ملوك الشراكسة بمصر خلع يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول سنة اثنتين
وأربعين وثمانمائة وكانت ولايته فى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة،
فكانت مدته أربعة وتسعين يوماً بعدة حروف عزيز أربعة وتسعين .
وقد تقدم ذلك فى ترجمته، إلا أنى عبرت عن الأربعة والتسعين بقولى : ثلاثة
أشهر وأربعة أيام، والمعنى واحد .

وفى هذه السنة لم يذهب المحمل من مكة إلا فى العشر الأول من شهر صفر .
واستقل مولانا الشريف زيد بالملك منفرداً فى الأقطار الحجازية كافة، وسعودات
الأقدار به حافة، واستنزل أرباب الحصون الشامخة، واستولى على القلاع الراسخة،
وملك البلاد البعيدة المنازل، واستخدم العز والظفر والإقبال، وتوالت عليه الخلع
والتشاريق السلطانية، وقرت بما يهواه المناشير العثمانية، وملأ قلوب أعدائه خوفاً
ورعباً، ورقى فى معارج العز مرتقى صعباً، وعطر بثنائه شرقاً وغرباً .
وفى سنة اثنتين وأربعين وألف أو التى قبلها توفى العلامة الشيخ أحمد المقرئ
المالكي التلمساني الأصل والمولد، والفارسي الدار والمنشأ نزيل القاهرة، العلامة
الحافظ المسند رحلة الدنيا، شهاب علم روض فضله نضير، ما له فى سعة الحفظ
شبيه ولا نظير .

وفىها - أو فى التى بعدها - توفى السيد أحمد بن مسعود ابن سلطان مكة
الشريف حسن بن أبى ندى، كان أديباً فاضلاً من أبناء الملوك النجباء يحب العلماء،
وأهل الخير، ويجالسهم، كريماً . وشعره فى غاية الحسن والرقّة، وله فطنة تدرك
رقّة الرقّة .

ولما وقعت بين القاضي تاج الدين المالكي، وبين غرس الدين المدني المنافرة
الشديدة جمع بينهما، وأصلح ما كان منهما .

وله ديوان كله غرر، كل سلك منه لا تذكر معه الدرر.

فهو نابغة بنى حسن، وباقعة الفصاحة واللسن، الساحب ذيل البلاغة على سحبان، والسائر بأقواله الركبان.

أحد السادة الذين رووا حديث السيادة برًا عن بر، والساسة الذين تفتقت لهم ريح الجلاد بعنبر، فاقتطفوا نوار الشرف من روض الحسب الأنضر، وجنوا ثمر الوقائع يانعا بالنصر من ورق الحديد الأخضر، لم يزل يقدر من نيل الملك ما لم يف به عدده وعُدده، ولم يمدّه من القضاء والزمان مدده ومُدده، فاقتحم لطلبه بحرًا وبرًا، وقلد للملوك جِدًا ونحرًا، فلم يسعفه أحد ولم يساعد، وإذا عظم المطلوب قل المساعد.

دخل إلى شهارة من بلاد اليمن في أحد الجمادين في سنة ثمان وثلاثين وألف، وامتنح بها إمامها محمد بن القاسم بقصيدة راح بها ثغر مديحه ضاحكا باسم، وطلب منه فيها مساعدته على تخليص مكة المشرفة له، وإبلاغه من تحليه بولايتها أمله، وكان ملكها إذ ذاك الشريف أحمد بن عبد المطلب وأشار في بعض أبياته إليه، وطعن فيها بستان بيانه عليه، وهى: [من الطويل]

سَلُّوا عَن دُمَى ذَاتِ الْخِلَاحِلِ وَالْعَقْدِ	بِمَاذَا اسْتَحَلَّتْ أَخْذَ رُوحِي عَلَى عَمْدِ
فَإِنْ أَمَنْتَ إِلَّا تَقَادَ بِمَا جَنَنْتَ	فَقَدْ قِيلَ إِنْ الْحَرُّ يَقْتُلُ بِالْعَبْدِ
وَإِنْ أَخَذْتَهَا دُونَ كُلِّي فَإِنْنِي	جَلِيدٌ وَمُضْعُوفُ الْعِزَائِمِ بِالْصُّدِّ
خَذَا قَبْلَةَ مِنْهَا تَدِيهِ فَإِنَّهُ	قَتِيلٌ وَلَكِنْ لَيْسَ يَلْحُدُ فِي لَحْدِ
صَرِيحٌ بِسَهْمِ اللَّحْظِ وَالْبَيِّنِ لَمْ تَزَلْ	مَقْسَمَةٌ أَجْزَاهُ فِي الْقُرْبِ وَالْبَعْدِ
أَخُو لُوعَةٍ لَوْ أَنْ أَيْسَرَ بَعْضُهَا	بِصَلْدٍ لَكَانَ الْعَهْنُ أَقْوَى مِنَ الصَّلْدِ
وَمُرًّا عَلَى الْوَادِي الَّذِي قَدْ تَفَاوَحَتْ	جَوَانِبُهُ عَرَفًا بِمَا ضَاعَ عَنْ هُنْدِ
وَعُوجًا رِقَابَ الْعَيْسِ فِيهَا عَشِيَّةٌ	لَنَبْكِي بِهَا عَصْرًا تَوَلَّى عَلَى نَجْدِ
وَنَقْضِي لِبَانَاتِ الصَّبَا بِمَحَلَّةٍ	بُوجَةٍ وَجْهِ الدَّهْرِ كَالْخَالِ فِي الْخَدِّ
زَمَانَ وَوَجْهَ الدَّهْرِ طَلَقَ وَقْدُهُ	نَضِيرٌ وَثَغْرُ الْوَصْلِ يَفْتَرُّ عَنِ عَقْدِ
أَجْرٌ بِهِ ذَيْلُ الْخَلَاعَةِ رَافِلًا	وَأَرْكُضُ خَيْلَ الْغَيِّ فِي حَلْبَةِ الرُّشْدِ
وَأَمْرُخُ فِي شَرْخِ الشَّبَابِ وَحَاسِدِي	يَدْعُدُّ لِي أَنْ أَكْبُ يَوْمًا عَلَى وَعْدِ

لياليهما عني وعوضني وخدي
على أننى فى نهجيه مفردٌ وحدي
لسانى وما يغنى فتيلًا ولا يجدي
وَعَفِظْنِي بِهَا غَيْظَ الْأَسِيرِ عَلَى الْقَدِّ
معطلة بالغورِ والعلم الفردِ
فأحييه بالتأيين أم هو على عهدى
عيونُ المها بين الأجارعِ والرندِ
طلوبٌ لنا لو كان فى مريضِ الأسدِ
فأنسى وأغيا فيه للقبلِ والبعدِ
تقمصها إرثًا عن الأبِ والجَدِّ
فراحاته فى المخلِ تغنى عن الرغدِ
وينقصُ المران فى السردِ والسردِ
فمن عرضِه غضبٌ أحدٌ من الهندي
بمنظره فى أشرفِ الزمنِ الرغدِ
وغيتٌ لمستجدٍ وليثٌ لمستعدي
ألا إنيها من عدله زمنُ الورْدِ
وربُ الثنا والجلم والعلم والزهدِ
خليفتنا المهدي هذا هو المهدي
ومرجعُ أهلِ العقلِ فى الحلِّ والعقدِ
ولم ينتصف فى المالِ والنفسِ والولدِ
يطأها ويمطاها إليه من الوفْدِ
لسارَ إليه القاصدُونَ إلى السُدِّ
قتامٌ ولم يُسفرَ ظلامٌ لمستهدى
قطعنَ بهم هيماءَ للعينِ والصفدِ
غداةً افتخارٍ فى ندَى من المجْدِ
وفى الجودِ والهيَجاءِ جودٌ وذو لبْدِ

فله أيامٌ وربُّ تصرمت
فأصبحتُ فى جيشٍ من الحبِّ أرعن
أعصُ به كفى وأقرعُ بالحيا
وَأَنْدَبُ أَيَّامًا عَلَى غِيْضَةِ الْغَضَا
فحيًا الحيا دارًا بنجدٍ وأختها
ومنعرجٍ بالجزعِ هل ماتَ رسمُه
فشمٌ به قلبٌ فقيدٌ حبسَه
ولكنها لم تذرِ أن محمدًا
إمامٌ شأى فى الفخرِ أهلَ زمانِه
ينادى أميرَ المؤمنينَ لأنه
وغيتٌ إذا ما النوءُ خوَّتْ رعوْدُه
وضرغامُ حزبٍ حين تَنصَلَّتْ الظبا
إذا انكسرَ الهنديُّ فى رأسِ قرْنِه
أخو صبوةٍ بالمكرُماتِ فلم تزلْ
فبذرٌ لمستجلٍ ووَرْدٌ لمجتَنِ
وأيامُه بيضٌ وخضرٌ بجودِه
فإن يكُ بالإفضالِ والبأسِ والتقى
دعى بأمرِ المؤمنينَ محمدِ
محكمٌ سيفِ الحقِّ فى كلِّ ملحدِ
وطلَّابٌ وثرَ الدينِ فى كلِّ مأزِقِ
شكته المطايا والفيافي لكثير ما
ولو أنه خلى شهارة سائرا
ولولاه لم يُشهرَ حسامٌ ولم يثرْ
ولم يقصدِ الوفاؤُ عنه لسيد
ولم تفتخرِ إلا بما عافَ سادةً
ففى الذهنِ والآراءِ قيسٌ وعتبةٌ

فلو لَامَسَتْ يَوْمَ الرِّغَائِبِ كَفَّهُ
 فَيَا لَيْتَ شَغَرِي مَنْ كَلِيبٌ وَجِائِمٌ
 فَيَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ جِئْتُكَ شَاكِيًا
 زَعَانِفَةٌ لَا يَنْكُرُونَ قَبِيحَةَ
 وَلَا مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٍ
 وَحَامِي ذِمَارِ الْمَجْدِ إِنْ ضَاعَ سَوْحُهُ
 خَطِيبٌ إِذَا مَا قَامَ فِي رَأْسِ مَنْبَرٍ
 فَيَا لَكَ مِنْ حَبْرٍ لِيَوْمِ مَجَادِلٍ
 فليثٌ وَغِيثٌ فِي قِرَاعٍ وَفِي نَدَى
 وَخَذَهَا عَرُوسًا ذَاتَ دَلٍّ تَزْفُّهَا
 مَفُوفَةٌ دَبَجَتْهَا بِمَدِيحِ مَنْ
 لَدَيْنِ وَجَاهٍ ذَا ارْتِفَاعٍ وَنَجْدَةٍ
 وَإِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ وَلِيَدُهُمْ
 أَعَزُّ مَلُوكِ الْأَرْضِ فِرْعَاً وَمَحْتَدًا
 إِذَا عُدَدَتْ لِلصَّيْدِ بَعْضُ مُحَاسِنِ
 بِأَفْنِيَةِ خَضِرٍ وَسُودِ مَرَاجِلِ
 وَأَوْجُهُهُمْ لِلْبَيْضِ وَالسَّمْرِ فِي الْوَرَى
 وَلَمْ يُخْلَقُوا إِلَّا لِكَشْفِ مُلِمَّةٍ
 فَقَمِ يَابْنَ عِزِّ الدِّينِ لَوْ كُنْتُ وَاحِدًا
 وَأَنْتِ وَأَنْتِ اللَّيْثُ وَاللَّدُنْ غَابَهُ
 وَحَوْلَكَ صَيْدٌ مِنْ عَلِيِّ غَطَارَفٍ
 وَخَيْلٌ إِذَا صَاحَ الصَّرِيخُ تَوَرَدَتْ
 وَحِظُّكَ يَبْدَى كُلَّ يَوْمٍ عَجَائِبًا
 فَلَوْ شِئْتَ أَنْ تَصْطَادَ لَيْثًا بِأَرْبٍ
 فَمَا الْعَذْرُ فِي التَّأْخِيرِ وَالسُّمْرِ وَالظُّبَا
 أَغْثَ مَكَّةً وَانْهَضَ فَأَنْتَ مُؤَيَّدٌ

يَدَا مَادِرٍ كَانَتْ لَهَا بِالنَّدَى تُغْدِي
 عَلَى أَنَّهُمْ مَا إِنْ لَهُمْ فِيهِ مِنْ نَدٍ
 لِأَعْدَاءِ دِينِ اللَّهِ فِي الْهَزْلِ وَالْجِدِّ
 وَلَمْ يَخْتَشَوْا فِي الْفُسْقِ مِنْ قَاهِرٍ فَرِدٍ
 حَلِيفِ الْوَعَى فِي اللَّهِ وَالسَّيْفِ وَالْحَمْدِ
 وَلَوْ أَنَّهُ بَيْنَ الْأَسَاوِدِ وَالْأَسَدِ
 وَخَطْبٌ عَلَى ظَهْرِ الْمَطْهَمَةِ الْجَزْدِ
 وَذَمْرٌ يُسَمَّى فِي الْمَجَالِدِ بِالْجَلْدِ
 وَسَعْدٌ وَنَحْسٌ لِلْوَلَى وَلِلضَّدِّ
 مِنَ الشُّكْرِ أَجْنَادٌ فَلِلَّهِ مِنْ جُنْدٍ
 تَضُوعٌ بِذِكْرِهِ عَلَى الْمُسْكَ وَالنَّدِّ
 أَعِيشْ بِهَا لَا لِلْمَعَايِشِ وَالنَّقْدِ
 تَرْجِيهِ إِنْهَاءِ الْمَطَالِبِ فِي الْمَهْدِ
 وَأَوْفَى الْكِرَامِ الْغُرِّ فِي الْعَقْدِ وَالْوَعْدِ
 فَأَحْسَابُهُمْ فِي الْمَجْدِ تَرْبُو عَلَى الْعَدِّ
 وَالْوَبَةِ حَمْرٍ وَالسَّنَةِ لُدِّ
 وَأَيْدِيَهُمْ فِي الْحَزْبِ لِلضَّرْبِ وَالشُّكْدِ
 غَشَا خَطْبَهَا أَهْلَ الْبَسِيطَةِ بِالرَّبْدِ
 فَأَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ غَانٍ عَنِ الْحَشْدِ
 وَأَشْبَالُكَ الْفَرَسَانُ تَعْدُو عَلَى الْجَرْدِ
 هُمُ النَّاسُ فِي الْهَيْجَاءِ وَالْحَسْبِ الْعَدُّ
 وَرُودُ الْقَطَا نَحْوَ الصِّيَاحِ إِلَى الْوَرْدِ
 بِهَا يَقْهَرُ الْأَيَّامَ فِي الْجَزْرِ وَالْمَدِّ
 لَجْدٌ لَهُ إِذْ زَا حَمِ الْجَدِّ لِلْجَدِّ
 تَقَاضَاهُ يَوْمًا فِي التَّهَائِمِ وَالنَّجْدِ
 مِنَ اللَّهِ بِالْفَتْحِ الْمَعْوِضِ وَالْجَدِّ

وقدّم أخا وُدّ وأخز مبغضًا يساورُ طعنًا فى المؤيّد والمهدى
ويطعنُ فى كُلِّ الأئمةِ معلنًا ويرضى عَنِ ابنِ العاصِ والنجلِ من هِنْدِ
وكانَ لهم يومُ القيامةِ ثالثًا وفى هذِهِ ثانٍ لأوّلٍ مَنْ يُردى
ودمّت مدى الأيامِ للذّين والعلّا وبذلِ اللّها والأخذِ فى الله والرّدّ
ولم يحصل منه على نائل، إلا ما أجازَه به من فواضل.

فعاد إلى مكة المشرفة سنة تسع وثلاثين وألف وأقام بها سنتين، ثم توجه أوسط شهر ربيع الثانى من سنة إحدى وأربعين وألف إلى الديار الرومية قاصدًا ملكها السلطان مراد بن أحمد خان، فورد عليه القسطنطينية العظمى واجتمع به، وامتدحه بقصيدة فريدة سأله فيها تولية مكة المشرفة، وأنشده إياها فى أواخر شوال من السنة المذكورة وهى: [من الوافر]

ألا هُببى فَقَدْ بَكَرَ النداما ومخ المزج من ظلمِ النداما
وهينمت القبول فضاعَ نَشْرُ روى عن شيخِ نَجْدٍ والخزاما
وقد وضعت عذارى المزن طفلًا بمهدِ الروضِ تغذوه النعاما
فَهَببى وامزجى خمرا بظلمِ لشحى ما أمتى يا أُمّامًا
ومُتّى بالحياة على أناسٍ بشربِ الراحِ صرعى والطلّاما
فَكَمْ خفر الفوارسُ من وطيسِ فتى منا وما خَفَرَ الذماما
وَكَمْ جدنا على قُلِّ بوفرٍ وأعطينا على جَذْبِ هجاما
وَكَمْ يومَ ضربنا الخيلَ فيه على أعقابها خَلَقًا أُمّاما
فنحنُ بنو الفواطمِ من قريشٍ وقادات الهواشمِ لا هِشاما
نردُّ الوافدين بكلِّ خيرٍ ونثنى البيضَ حمرا والعلاما
برانا الله للنديا سناء وللاخرى إذا قامت سَناما
وخصَّ بفضلِه من أمِّ مِثّا مليكا كان سابورَ الهماما
فَتى الهيجا مراد الحقِّ مَنْ لم يخف فيه للائمةِ مَلاما
محشّ الحزبِ إن طارثَ شعاغا نفوسَ عندها قُلِّ المَحامَا
وغيثَ قَطْرُهُ وَرِقٌّ وتبرُّ إذا طارثَ به المخل الركاما
فيُفنى سيفُهُ حزبَ وشيكا ويثنى سبيه موتًا زُواما

بها أمن الصَّوَاعِقِ والسَّمَامَا
 فيمنحُه الخوامِعَ والرَّخَامَا
 وأجلَسَهُمْ على العَلْيَا قِيَامَا
 وإِئْنُ مَلِيكِهَا يَمَنَّا وَشَامَا
 ولا قَوْدَ عَلَيْهِ ولا أَثَامَا
 ومُزْدَى القومِ إِذْ يروى الحسامَا
 وَجَدَّ السَّيْرَ إِذْ بَاتُوا نِيَامَا
 شَأَى بِفَخَارِهِ الْقَوْمَ الْكَرَامَا
 كذا مرماه يسمُو أن يُرَامَى
 فيرميه ويعظمُ أن يُرَامَا
 وتلثمه الضعائفُ واليَتَامَى
 ولا يسطيعُ جبارٌ سلامَا
 بغانيةٍ ولا ضَمَّتْ مدامَا
 يُسَكُنُ فِي مَغَارِمِهِ السَّهَامَا
 ودين الله والْبَيْتِ الْحَرَامَا
 ولا عذراً أسوقُ ولا احتشامَا
 بمنزلةِ الرجالِ مِنَ الْإِيَامَى
 دَوَامَا لا نفارقُهَا دَوَامَا
 إلى أن صِرَنَ من هزلِ هِيَامَا
 ودُقْنَا الصَّبْرَ من جوعِ طَعَامَا
 يكونُ بنوركِ العَالِي سلامَا
 حَسْبُنَا عَلَى الْبَيْدَا رَكَامَا
 ونأملُ فيكَ آمالاً جَسَامَا
 على ما فى يديه ولن يُضَامَا
 نردُّ بغُلَّةٍ عَنْهُ حِيَامَا
 ندا كَفَيْنَكَ وَالشَّيْمَ الْكَرَامَا

وفى شَفْتِيهِ آجَالٌ وَرَزَقُ
 يقودُهُ الملوِكُ الصَّيْدَ مَجْرَا
 وإن وفدوه أَغْنَاهُمْ وَأَقْنَى
 مَلِيكَ الْأَرْضِ وَالْأَمْلَاكِ طُرَا
 ويجرى من دَمِ الْأَعْدَاءِ بَحْرَا
 ومسقى الجَنِّ وَالْأَمْلَاكِ غِيظَا
 تَسْتَمُّ غَارِبَ الدُّنْيَا فَرِيدَا
 إِذَا شَمَلَتْ عَنَائِيته لثِيمَا
 تعاطَمَ وَصْفُهُ عن وصفِ شِغْرَى
 ويكبر أن يعانِدَهُ عَنِيْدُ
 تَرْفَعُ كَمه عَن لثِمِ مَلِكِ
 وينطقُ عنده لَسِيْنٌ ضَعِيفُ
 أخو هِمَمٍ ولم تعلق يَدَاهُ
 أغرُ سَمِيْدُغٍ ضَخْمُ الْمَسَاعِي
 وخادمُ قَبْرِ طه بِالْمَوَاضِي
 فَيَا مَلِكَ الْمُلُوكِ وَلَا أَبَالِي
 أَنْفَتُ بِأَنْنِي أُتْرَلُكَ فِيهِمْ
 إِلَى جَذَوَاكَ كَلَفْنَا الْمَطَايَا
 وَجُبْنَا يَا بَنَ عَثْمَانَ الْمَوَامِي
 ودُقْنَا الشَّهْدَ فى مغنى التَرْجِي
 صليْنَا من سمومِ الْقَيْظِ نَارَا
 وَخُضْنَا الْبَحْرَ من ثُلُجٍ إِلَى أَنْ
 نَوْمُ رَحَابِكَ الْفَيْحَ اسْتِيَاقَا
 وَمَنْ قَصَدَ الْكَرِيمَ غَدَا أَمِيرَا
 وحاشا بَخْرَكَ الْفِيَاضِ إِنَّا
 وَقَدْ وَاثَاكَ عَبْدٌ مُسْتَمِيحُ

فقد نَزَلَ ابنُ ذِي يَزَن طَرِيدًا
 أَتَى فَرْدًا فَعَادَ يَجْرُ جَيْشًا
 بِهِ اسْتَبَقَى جَمِيلَ الذَّكَرِ دَهْرًا
 وَسَيْفٌ لَوْ سَمَا دُونِي لَأَتَى
 بِفَاطِمَةٍ وَإِبْنَيْهَا وَطَه
 عَلَيْهِم رَحْمَةٌ تَهْدِي سَلَامًا
 وَلَا عَجَبٌ إِذَا مَا جَاكَ عَافٍ
 فَخَذْ بِبَيْدِي وَسَمِّينِي مُحَلًّا
 وَهَبْ لِي مَنَصِبِي لَتَنَالَ أَجْرِي
 فَقَدْ لَعِبْتُ بِبَيْتِ اللَّهِ حَقًّا
 فَعَنَ ذَا لَيْسَ مَسْئُولًا غَدَاةً
 وَفِي أَمْلِي بِأَنْ يَجْزِيكَ عَنِّي
 وَفَكَ أَسِيرَ أَسْرٍ لَيْسَ يَرْضَى
 رَحِيمًا لَنَا فَظًّا غَلِيظًا
 عَرِيقٌ فِي مَوَدِّكُمْ نَصُوحٌ
 فَقُلْ سَلْ تُعْطَ أَعْطَاكَ الَّذِي لَمْ
 مَدَى الْأَيَّامِ تَخْفُضُ ذَا اعْوَجَاجٍ
 وَدُمٌ فِي رَادِ عَمْرِكَ وَالْأَعَادِي
 فَأَجَابَهُ إِلَى مَلْتَمَسِهِ وَمَرَادِهِ، وَأَرْعَاهُ مِنْ مَقْصَدِهِ أَخْصَبَ مَرَادِهِ، وَلَكِنْ مُدَّتْ إِلَيْهِ يَدُ
 الْهَلَكِ، قَبْلَ نَيْلِ الْمَلِكِ.

قيل: إنه سُم في ختمة قرآن أتى إليه بها بعض الأشخاص في هيئة درويش مهديها
 إليه، فلما قبلها اختلس الدرويش نفسه، فلما قبلها السيد أحمد سقط فوه، فكان
 ذلك سبب موته رحمه الله تعالى.

ومن أحاسن شعره قصيدة سينية تشوق كل إنسان، وتدخل على القلوب من
 الأذان بغير استئذان؛ مطلعها: [من الخفيف]

حَتْ قَبْلَ الصَّبَاحِ نَجَبٌ كُتُوسِي

وستأتى. وكذلك قصيدة يمدح بها بنى عمه ملوك الحجاز آل قتادة، وهى نبذة من أخباره وشجونه، تدل على فضله ولآلىء مكنونه. وهى: [من السريع]

حَثَّ فَأَبَكَّتْ ذَا شَجَوْنٍ حَنُونٌ وَغَثَّتِ الْوَرَقَا بِأَعْلَى الْغُصُونِ
وَشَقَّ بُزْدَ اللَّيْلِ بَرَقَ فَمَا ظَنَنْتَهُ إِلَّا حَسَامَ الْجَفُونِ
كَأَنَّهُ مَذْ شَقَّ قَلْبَ الدَّجَى جَبِينُ لَيْلَى فِي دِيَاغِي الْقُرُونِ
فَقَمْتُ كَالِهَادِلِ فِي شَجْوِهِ لَمْ أَذِرْ مَا بَى فَرَحَ أُمِّ جَنُونِ
وَأَرْسَلَ الدَّمْعُ نَجِيعًا عَلَى خَدَى فِيَجْرَى أَعْيَنًا مِنْ عِيُونِ
لَمْ أَرْ نَوْيًا لَا وَلَا مَجْثَمًا وَمَوْقَدًا أَوْ عَلَمًا فِي دُمُونِ
إِلَّا وَبَاتَ النَّاعِمُ الْفَرَشِ لَى شَوْكًا وَمِيعَاسُ الرُّوَابَى حُزُونِ
فَالْبَرْقُ يُوْحَى فِي الدَّجَى رَعْدَةً وَالْوُزُقُ مِنْ شَغْرَى تَجِيدُ اللَّحُونِ
عَهْدَى بِهَا كَانَتْ كَنَاسَ الظُّبَا وَمَرْتَعِ الْأَسَدِ حِمَاةِ الظُّعُونِ
كُلُّ طَوِيلِ الْبَاعِ رَحْبُ الْفَنَاءِ تَصْدُقُ لِلْوُقَادِ فِيهِ الظُّنُونِ
لِيُوْثُ بَرَقَ خَيْسُهَا مَا زُقَ أَنْيَابُهَا فَوْقَ الْمَذَاكِي قُرُونِ
حَتَّى غَدَا مِنْ بَعْدِهِمْ رُبْعُهَا مَفْتَادًا جَارَتْ عَلَيْهِ السَّنُونِ
كَأَنَّهُ جَسْمَى وَإِنْ لَمْ يَكُنْ جَسْمَى فَوْهَمًا أَوْ خِيَالًا يَكُونُ
وَقَفْتُ فِيهِ وَالْأَسَى وَالنَّوَى يَسْتَلْبِإِنِ الصَّبْرَ سَلْبَ الْمَنُونِ
أَلَّهُ لَى مِنْ مَهْجَةٍ مَزَقَتْ وَمَقْلَةٍ عَبْرَى وَتَفْسٍ وَنُونِ
تَحْنُ لِلشَّغْبِ وَأَوْطَانِهِ مَهْمَا سَرَى بَرَقَ بَلِيلِ دَجُونِ
وَفَتِيَّةٍ مِنْ آلِ طِهَ لَهُمْ فِي الْحَرْبِ أَبْكَارُ مَزَايَا وَعُونِ
مَبْتَدُلُ السَّاحَاتِ فِي قُطْرِهِمْ لِلْخَائِفِ الْجَانِي أَعَزَّ الْحَصُونِ
وَكُلُّهُمْ يَوْمَ الْوَعَى سَيِّدُ لِلضَّدِّ خِبَاطُ بَلْبِدِ ظَنُونِ
يَحْمَدُهُ السَّارُونَ إِنْ أَدْلَجُوا وَيَقْتَضَى النَّادَى بِهِ السَّامِرُونَ
لَا يَنْتَهَى الْجَارُونَ مِنْهُ إِلَى شَاوٍ وَلَا يَعْسِفُهُ الْجَائِرُونَ
فِيَانَسِيمَاتِ الصَّبَا عَرَجَى بِهِمْ وَبَثَّى غَامِضَاتِ الشَّجُونِ
وَحَافِزِي أَنْ تَصْحَبِي لَوْعَتِي وَاسْتَضْجِي بَثَّى لَكْنِي يَفْهَمُونَ
وَبَلِّغِيهِمْ حَالًا مِنْ لَمْ يَزَلْ حَلِيفَ أَشْجَانٍ كَثِيرِ الشُّثُونِ

يستخبر الريح بأنفاسه
فشأنه يخبر عن شأنه
ناءً عن الأهل ضعيف الأسى
يحفظ للزمل عهد الوفا
وأنت يا سارى بشام النقا
عرض بذكرى لا شجاك النوى
وقل لهم والله لو أبعدت
نسيئتم صبا غدا دمعهُ
وهو وماضى العيش ما ساعة
وهذه السنية المتقدم ذكرها الفائح

حسن بن أبى ندى تغمده الله برحمته: [من الخفيف]

حُتْ قبل الصّباح نجب كئوسى
وانتخبها بكرًا فقد ثوب الدا
بنت كرم إن تزق ملسوع راح
كشفت غيب الخمار ولو تر
غرسها بين الحداثق والنو
فتلقى أم المسرات طلقًا
أطلق الند والكبا الرطب واستج
عانسًا فى الدنان عذراء لم تط
نار أنس يعشو الكليم ويصبو
خرقت حلّة الجمان وأبدت
زعم الجاهلون فيها بأن قد
وهى من لطفها كشك نفاه
فأدزها فى كاسها دون خدي
واسق بالخير لى الندامى لتبدو
لترى أنجمًا بفلك وبدرا

فهى تجرى مجرى الغدا فى النفوس
عى إليها من حانة القيس
وهو جلس لم يرتضى بالجلوس
شخ رمسا ردت بقا المرموس
روز والشط كف بطليموس
والندامى بمهر كيس وكيس
لى عروسا لا عطر بعد عروس
مث من عهد جرهم وجديس
ليناها بالذل والتقديس
مستطير الصباح فى الحنديس
عصرتها قدما يدا عبدوس
صادق القول عند ذى تسويس
ك وفوق الشقيق من خندريس
قدرة الله فى المقام النفيس
فوق غصن يختال بين شمس

نى شريقاً فى جنب وجه خسيس
 ولماها والخذ ينجاب بوسى
 جيد قلنا ظلماً وما فى الكؤوس
 حنا لنا فى القياس بعد المقيس
 راح ظلم فى لؤلؤ مغروس
 ل أسود الشرى بدهى شمس
 منه كل العقول فى تلبيس
 ض أنيقاً لجودة التجنيس
 لخشنا عليه دين المجوس
 وقديمى فيها استمر نسيى
 فيه دمعى خلى وشهدى جليى
 ن حقيقاً بالمرجع المأنوس
 ث به قد ألقى عصا السير هيسى
 فيه وزق الحمى وتكل العيس
 ح أريجاً من معهد مطلوس
 ويدوراً غصونها فى طموس
 لهو زهو لم ألق فيه بروسى
 به من طيبة بسوح الرئيس
 به غياث المنجود والمبلوس
 كنتم من مهيمن قدوس
 صم من هول صيلم دريس
 روق فيه إذ جاش قذر الوطيس
 ق وموسى الكليم مع إدريس
 ل تجليه فى الزمان العبوس
 م على الخلق من عذاب بئيس
 به لم يستمع لهم من نبيس

ولكل إرب وما أنا بالرا
 وخرود بجامها وطلاها
 إن حكيها بالثغر والخذ ما فى ال
 تتلظى غيظاً وتبسّم توبى
 لم أكن قبلها أصدق أن الز
 ظبية رخوة العريكة تغتا
 لبست من غلائل الحسن بؤدا
 تنهادى عجباً فتستقبح الرو
 لو رآها تختال تيهها أبوها
 كل حلو منها استجد رسيى
 تركننى نضوا على نضو رسم
 موحشاً من هنية بعد أن كا
 طال ما قلت للغدافر والليد
 لنقضى فيه حقوقاً وتبكي
 ونرجى الآمال أن تبعث الرى
 فرعى الله بالأجارع عصراً
 حيث جو الشباب سخو وبخر ال
 ومحلاً بين الأباطح والقب
 أحمد الخلق أحمد الخلق فى الل
 شافع الأمة التى جاء فيها
 أول الأنبياء والخاتم العا
 يتقى حيدر وحمزة والفا
 وكذا فى المعاد عيسى وإسحا
 وبه يسألون إذ صدم الهو
 وهم الفائزون لكن لما طم
 مهطعين الأعناق فى موقف الره

فينادى سَلْ تَغْطَ واشْفَعْ أيا خِيَه
 أريحى بقصده تأنفُ الأخ
 نَقَلَ الذُّكْرَ للجوامع والأح
 تَرَكَ الذُّنْبَ والغضنْفَرُ والشَّا
 أَيْدَ الدينَ بالذوابِلِ والشُّو
 كل ذمر فى السلم هين وفى الحر
 كعلئ وحمة البشر إن بدَّلَ بشر الوجوه بالتعبيس
 بهسن غابة الوشيج وطودئ
 بهما والبَتُولِ والآلِ والسب
 الإمامين بالنصوص الشهيد
 فرقئ هالة الرياسة وابئى
 ما رعى فيهما رئيس ربي الفذ
 وبمن قام فى مقامك يستس
 وبخلئك صاحبك ضجيعئ
 ذا رفيق فى الغارِ رذفَ وذا تد
 وبتلو الإثنين جامع أشتا
 لم يُراقب للهدى والجيش من غئ
 أدرك أدرك ذا غربة وانفراد
 قد لقي من حصائد النفس ما لا
 ألوحا ألوحا فدى لك ملهو
 يا نبياه يا ولياه يا جداه
 أنت إن أعضل العضال وأعيا
 وإذا ما الخناق ضاق فلم أر
 ولقد جرد العقول إلى أن
 ويجدواك يقلب السعد فى الأز
 يا خفيرى إذا ارتهنت وما لى

ر شفيح فى مسمهر ضبيس
 مص أن تحتدى شواة الرؤوس
 كام بعد الأزام والناقوس
 ة جميعا من خوف غب الفريس
 س المذاكى تعدو ويض شوس
 ب أبى يشق أنف الخميس
 بدَّلَ بشر الوجوه بالتعبيس
 مفخر فى مؤثلي قذموس
 طين والمختين بالتغليس
 ن البريئين من صدئ التدنيس
 مدحضى بالقواضب التبخيس
 ية إلا فضلا عن المرءوس
 قى به والمحلق الدعيس
 لك ظهيرك فى الرخا والبوس
 فر من جسئ رقى إبليس
 ت المثانى بالرشم والتدريس
 ر فسوق أتى ولا تدليس
 وسهاد ومدمع مبجوس
 قى كليب فيها غداة البسوس
 ف يناديك من ورا طرطوس
 يا غوث ضارع موطوس
 كل أس دواه جالينوسى
 ج لكربى إلأك للتنفيس
 لبست منه بزة المخموس
 مة سعدا تحديق عين النحوس
 غير كسبى فى مضجعى من أنيس

أَبْظَلَمَ الْحَوْبَا أَقْصَرَ عَنْ شَأْ
حَاشَ لِلَّهِ أَنْ يَقْصُرَ مَنْ أَفَدَ
فَارْتَبَطَهَا مِنَ الْجِيَادِ الَّتِي تَسُدُّ
وَأَجْزَنِي بَرْدًا مِنَ الْأَمْنِ مَا حَيَّ
وَأَغْنِي دُنْيَا وَأُخْرَى بِمَرَا
وَاجِلُ طَرْفِي بِنَظَرَةٍ تَذْهَبُ الَّتِي
إِنْ أَرَخَ مَطْلَقًا مِنَ الذَّنْبِ فَالْتَقَ
أَوْ تَنَاسَى بِهِ فَنَايَ وَحَقِّي
إِنَّمَا أَنْتَ أَصَفُّ وَنَجَاتِي
لَوْ تَشَفَعْتَ فِي سَبَا لَعَلِمْنَا
فَعَلَيْكَ الصَّلَاةُ مَا هَجَرَ الرُّكُ
وَعَلَى آلِكَ الْكَرَامِ وَأَصْحَا
وَأَضَاءَ الصَّبَاحُ مِنْ بَعْدِ لَيْلٍ
وَجُدُودِي وَأَنْتَ أَضْلُ غُرُوسِي
عَمَّ فَيَكُنْ مَدْحًا بَطُونُ الطَّرُوسِ
بَقَى خَيْلُ الْوَلِيدِ وَابْنِ سَدِيسِ
لَكَ بِصَنَعَا حَسَنًا وَلَا تَنْيِسِ
لَكَ لِيَهْدَا رَوْعِي وَيَقْوَى رَسِيسِي
وَتُسَدِّي فِي الْحَيِّ نِيرَ مَرُوسِي
رِيضُ وَقْفٍ مَسْلَسُلُ التَّجْنِيسِ
فَعَلَى الْحِظِّ دَعْوَةُ الْمَبْخُوسِ
مَنْكَ أَدْنَى إِلَيْهِ مِنْ بَلْقِيسِ
أَنْهُمْ فَائِزُونَ بِالْمَحْسُوسِ
بُ وَحْتُ الْقِلَاصِ لِلتَّعْرِيسِ
بِكَ مَا رَوْضَةٌ زَهَتْ بِالْغُرُوسِ
وَاسْتَسْرَتْ عُرُوسُهُ بِعُرُوسِ

وفيها - أعني سنة اثنتين وأربعين وألف - توفي شيخ مشايخنا الشيخ العلامة
برهان الدين أبو الأمداد إبراهيم بن حسن بن علي اللقاني، خاتمة المحققين، وسيد
الفقهاء والمتكلمين، إمام الأئمة، وموضح المشكلات المدلهمة، أخذ عن الشمس
الرملي، والعلامة ابن قاسم العبادي، والشيخ إبراهيم العلقي أخى الشيخ شمس
الدين شارح الجامع الصغير الشرح المسمى «بالكوكب المنير» والشيخ نور الدين
الزيادي، والشيخ أبي بكر الشنواني، وغيرهم.

وله كرامات خارقة، ومكاشفات صادقة، أخذ عنه طريق القوم خلق كثير.
وممن أخذ عنه العلوم الشرعية والعقلية، والفنون الأدبية شيخنا العلامة محمد بن
علاء الدين البابلي، والشيخ علي بن علي الشبراملسي، وولده إبراهيم وغيرهم.
رحمه الله تعالى.

وفى سنة أربع وأربعين وألف يوم الجمعة ثامن رجب منها توفي الشريف عظيم
الشان مولانا السيد أحمد شيخان باعبود العلوي، ولد بالمخا، كان رحمه الله من
أكابر المشايخ الصالحين والأولياء الكاملين واستمر على الحالة المرضية إلى أن وافته

المنية، وقدم على رب البرية فى التاريخ المذكور ببندر جدة، وحمله ولده السيد سالم من جدة إلى مكة، ووصل به ليلة السبت، ودفن صباح اليوم المذكور على أبيه وأخيه فى حوطة آل با علوى.

ولولده مولانا السيد سالم بن أحمد شبحان مؤرخاً وفاة أبيه المذكور بعد أن رآه فى منامه قوله: [من الكامل]

شاهدتُ فى عامِ الوفاةِ بليلةَ غَرَاءَ أحمدَ قائلاً نفسى احمدى
أُسكِتَتْ جناتِ النعيمِ ونعمَ هى نُزْلاً فتاريخُ الوفاةِ تخلدنى
وفىها توفى بين العصرين سابع عشرى رجب الشيخ الأمجد الأوحى شهاب الدين
أحمد ابن أبى الفتح الحكيمى.

أخذ عنه شيخنا العلامة الشيخ على بن الجمال الأنصارى المكى، وشيخنا الشيخ عبد الله ابن الشيخ سعيد باقشير وغيرهما.

وله ترجمة طويلة. كانت وفاته بالمدينة ودفن بالبقيع وهو فى عشر الخمسين. نفعنا الله به آمين.

وفى سنة خمس وأربعين فجر الثلاثاء ثامن ذى العقدة منها: توفى السيد أحمد بن محمد الهادى بن عبد الرحمن بن شهاب الدين، محتد الجلالة والفخامة، مفرد المقالة والشهامة، العالم العامل بلا زعامة، الحاتم على ناظره القطع له بالفضل السننى والكرامة، الولى لله بلا ريب ولا نزاع، الملزم نفسه النفيسة الطاعة له عز وجل والحضور لديه والانتقطاع.

ولد بـ«تريم» واستوطن مكة، ولازم السيد عمر بن عبد الرحيم، والشيخ أحمد بن علان وغيرهما، واستمر بمكة إلى أن انتقل بها فى التاريخ المذكور، ودفن بحوطة السادة بنى علوى.

وفىها توفى الشيخ يوسف بن محمد البلقينى بقية الجيل الجليل الذى سلف، ونخبة الحائزين بالعلم السيادة والشرف، رئيس القراء المجيدين، جليس الفقراء إلى الله المنقطعين، إذا قرأ القرآن المجيد رتلته ترتيلاً، وحبره تحبيراً، وإذا حار بالنعمان اللبيب فى مشكل متشابهه قيل له: اسأل به خيرًا، رحمه الله تعالى.

وفى سنة ست وأربعين وألف ضحوة يوم الأحد تاسع ذى القعدة الحرام: توفى

مولانا وسيدنا إمام أهل العرفان، ذو السر الباهر والبرهان، من مزايا مفاخره فقدت الحصر، ويذكر مناقبه يتجمل الزمان والدهر، أوحده الأئمة المعترين أولى التمكين، مرشد الطالبين، ومربي السالكين، العالم العامل، والأستاذ الكامل، طاهر الجنان واللسان والأركان، مولانا السيد سالم بن أحمد شبحان، ودفن في عصر ذلك اليوم على والده وجده بالمعلاة، وتاريخ وفاته: صار إلى رحمة الله. وله ترجمة طويلة عظيمة جليّة - رحمه الله تعالى -.

وفيها ليلة الخميس ثالث عشر ذي القعدة: توفي السيد نعمة الله بن عبد الله بن محيى الدين بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علي بن أحمد بن محمد بن زكريا بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن عبد القادر الجيلاني. أحد أكابر الأولياء الذين نالوا الوفا والكرامة، الغنى بكمال فضله عن إشارة أو علامة، سطع نور كمالاته، فأخجل النيرين، وأشرقت صفاته المضيئة في الخافقين، وتواترت كراماته في سائر الآفاق، ووقع على ولايته الاتفاق.

اشتهر فلا يحتاج إلى إطناب في الصفات، بما خصه مولاه من أنواع الكمالات. ولد بالهند، ووصل إلى مكة سنة أربع عشرة وألف، وجاور بها، ولازم الصمت والمسجد سنين، ثم سكن شعب عامر وتزوج، وأولد أولادًا نجباء أجلاء، ثم مرض وأوصى أن يدفن بمحله بشعب عامر المذكور فدفن به، وكانت الحمى من أقل خدامه يرسلها إلى من شاء أى مدة شاء، ويرفعها متى شاء بإذن الله تعالى، مدحه الأجلاء، ورثوه بعدة قصائد، منهم مولانا وشيخنا الشيخ علي بن الجمال، والأديب البارع أحمد الفضل الكثيري وغيرهما.

وفيها في موسمها يوم الجمعة عشري ذي الحجة الحرام: وقعت فتنة كان ابتداءها قبل صلاة الجمعة، سببها أن عبدًا لبعض السادة الأشراف ورد بفرس سيده الششمة المعروفة بالبزايز، فوقع هناك بين العبد المذكور، وبين شخص من عسكر مصر تراحم وتدافع، فضرب الجندي العبد فضربه العبد فجرحه، فلزمه الجندي مع جماعته، فانتدب جماعة العبيد ففكوا العبد، فثارت الفتنة، ولم يكن لصاحب مكة، ولا للأمير علم بذلك، فاجتمع الجندي مع جماعته بمدرسة السلطان قايتباي، واجتمع عسكر صاحب مكة مع العبيد عند منزله، فأقبل كل من الفريقين على

الآخر، فأرسل الشريف جماعة لرد عسكره، ونهيههم تسكينًا للفتنة، وبرز أمير الحاج من المدرسة، ويده عصا لرد عسكره كذلك، وسار على قدميه، فلما وصل إلى قريب من باب على من أبواب المسجد الحرام سمع صوت البندق، فرجع ودخل من باب الحريريين، ودخل المدرسة من بابها الكائن في المسجد الحرام، فبينما هم كذلك إذ نزل من جهة المعلاة من كان بها من العسكر المصرى، ومعهم المدافع، فجعلوا واحدًا منها عند الششمة المذكورة وواحدًا عند باب المدرسة القايتبائية، فاشتد الكرب على أهل مكة، وأرسل في أثناء ذلك مولانا الشريف زيد رحمه الله تعالى إلى أمير الحاج المصرى رضوان بك مشيرًا عليه بمنع العسكر المصرى جماعته، وكذا أرسل إلى أمير الحاج الشامى الأمير محمد بك بن فروخ، وقتل من العسكر المصرى، والعسكر الشريفى أشخاص بالبندق، ولم يزل الأمر كذلك حتى أجهّم الليل، فانكف الفريقان، وركب بعض خدام الشريف رحمه الله تعالى بأمر منه ومعه المنادى بالأمان، وأمسى الناس فى أمر مريح.

فلما كانت صبيحة يوم السبت سعى أمير الحاج الشامى الأمير محمد بك المذكور بين الشريف، وبين أمير الحاج المصرى بالصلح فتعافيا، فنادى قبل صلاة الظهر من ذلك اليوم مناديان: أحدهما من أمير المصرى، والثانى من الشامى بالأمان للحجاج، وأهل البلد، وقدم المصرى خروجه من مكة فى هذا العام على خلاف العادة، فبرز فى يوم الثالث والعشرين من ذى الحجة.

وفى سنة سبع وأربعين وألف قدم شعبان أفندى إلى المدينة المنورة ومعه حجر من الماس محفوف بأحجار مختلعة مكفوف بصفائح الذهب والفضة، وهذا الحجر من آثار صدر الدولة العثمانية مصطفى باشا سلحدار، فوضع ذلك الحجر تحت الحجرين اللذين وضعهما السلطان أحمد خان، وأنعم على أهل المدينة بالصدقة الجليلة، وفى ذلك يقول السيد محمد كبريت مادحًا ومؤرخًا: [من الخفيف]

زار خيرَ الأنامَ خَيْرُ همام	قد تَسَمَّى شعبانَ وهو ربيعُ
عَمَّ جيرانَ أحمدِ بنوَالِ	دُونَ ذَاكَ النوالِ خَضْبُ مريعُ
جاءَ بالجوهرِ الثمينِ لطفه	مِنْ وزيرٍ هوَ الجَنابُ المنيعُ
مصطفى المجدِ والندى والمعالى	وسلحدارُ نعمةٍ لا تضيعُ

يا له جوهر تسامى وسامى بمقام فيه الشناء يضوع
عند وجه النبي قد وضعوه فغداً وهو مشرق ولموع
كان هذا فى عام سبع وألف وتمام النظام فيه بديع
قلت: فى هذا التاريخ لطف إدخال فى قوله: وتمام النظام فيه؛ لأنه يشير بذلك
إلى الميم من لفظ النظام وهى بأربعين، فبذلك ثم حساب سبع وأربعين وألف.
وكان إهداء ذينك الحجرين الأولين من حضرة مولانا السلطان أحمد خان مع
لوح من فضة كبير مكتوب فيه آيات قرآنية فى سنة ست وعشرين وألف مركب على
الشباك القبلى أمام المواجه الزائر، وفى اللوح أبيات آخرها بيت التاريخ، وهو: لوح
لسلطان أحمد أهده حُباً خالصاً.

وفيهما: توفى العلامة القاضى أحمد بن عيسى المرشدى العمرى الحنفى، شهاب
الفضل الثاقب، الشهير المآثر والمناقب، من سطع فى سماء الأدب نوره، وتفتق فى
رياضه زهره ونوره، فامتد فى البلاغة باعه، وشق على من رام أن يشق غباره اتباعه،
لا تلين قناة فضله لغامز، ولا يلمز أدبه المبرأ من العيب لآمز.
كان تولى القضاء بمكة المشرفة، فنال به ما أمله مما طمح بصره إليه واستشرفه.
ولما حصل أخوه فى قبضة الشريف أحمد بن عبد المطلب، ومنى منه بذلك الفادح
الذى قهر به وغلب، حصل هو أيضاً فى قبضة القبض والأسر، وأردف معه على ذلك
الأدهم بالقسر، حتى جرع أخوه بذلك الكاس، وأنعم عليه بالخلاص بعد الياس.
فراش الدهر حاله، وأعاد منها ما غيره وأحاله.

ولم يزل فارغ البال، من شواغل البلبال، إلى أن انقضت أيامه، ووافاه حمامه.
فكانت وفاته لخمس خلون من ذى الحجة الحرام من السنة المذكورة.
واتفق تاريخ وفاته صدر البيت المشهور:

من شاء بعدك فليمت

وله نظم بديع، ونثر يفوق أزهار الربيع.

من نظمه القصيدة الدالية امتدح فيها شريف مكة الشريف مسعود بن حسن

مطلعها: [من البسيط]

عوجاً قليلاً كذا عن أيمن الوادى واستوفى العيس لا يحدو بها الحادى

منها قوله :

رَأْسُ الْمَلُوكِ يَمِينُ الْمَلِكِ سَاعِدُهُ زَنْدُ الْمَعَالِي جَبِينُ الْجَحْفَلِ الْبَادِي
ومنها :

وَصَانٌ وَشَمَكٌ فِي حَاشٍ مَخَالِطَةٌ عَنْ رَبِّ عَزَّوْ تَنْضَاهُ بِأَحْشَادٍ
وهي فصيحة بليغة تقدم ذكرها .

وله قصيدة في السيد شهوان بن مسعود مطلعها : [من البسيط]
فِي رَوْرَجٍ أُمٌّ وَسَامُ الْغَادَةِ الرُّودِ يَبْدُو عَلَى سِلْكَ دُرٍّ فِيهِ مَنْضُودٍ
ومنها قوله في المخلص :

صَهْبَاءُ تَفْعَلُ فِي الْأَلْبَابِ سَوَّرَتَهَا فَعَلَ السَّخَاءُ بِشَهْوَانِ بْنِ مَسْعُودٍ
وله ما كتبه على شداد مطية الشريف زيد بن محسن - رحمهما الله تعالى - وهو
قوله : [من مجزوء الكامل]

أَفَقُّ الشَّدَادِ بَدَثَ بِهِ شَمْسُ الْخِلَافَةِ وَالْهَلَالُ
وَمِنْ الْعَجَائِبِ جَمْعُهُ لَيْثُ الشَّرَافَةِ وَالْغَزَالُ

وله غير ذلك من غير ذلك - رحمه الله تعالى - .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين بعد الألف ، في أثنائها أقبل من الديار الرومية بشير
أغا الحبشى الطواشى ، معه أوامر بمطلق التصرف ، وخطوط سلطانية بما يريد من
التعرف والتحرّف . فلما بلغ الينبع ورد إليه الخبر بوفاة السلطان مراد بن أحمد خان
سلطان الزمان ، ففاح الخبر بينبع ، ثم كتبه بشير ليتم له تنفيذ ما أراد ، وقد كان مولانا
الشريف زيد هيئاً واختار لبشير أغا عدة أماكن من المدارس والبيوت ، وأمر بفرشها ،
وكان من نيته مواجهته إلى مرّ ، وأرسل بعض خدامه إلى ينبع ليرى ما مع بشير من الخيل
والرحل والناس ، فلما وصل إليها سمع هذا الخبر وتحقّقه فرجع مسرعاً مجداً به إلى
مولانا الشريف زيد ، فلما تحقّق مولانا الشريف صحة ذلك أمر بتحويل الفرش التي في
تلك الأماكن ، وغلق بعضها ، فلما قارب بشير مكة خرج إليه مولانا الشريف ، ولاقاه في
الجوخي محل ملاقة أمراء الحج إذا وصلوا ، فلما أن لاقاه وقابله ، وفي بال بشير أن
الخبر لم يبلغه ، وأن يتم له ما أراد من تنفيذ ما شاء على غشاش وغفلة ، ثم بعد ذلك لا
يضره ظهور الخبر ، فلما تدانها همز مولانا الشريف زيد - رحمه الله تعالى - فرسه مقدماً

على بشير مناكبًا له قائلا: الله رحمت أيله سلطان مراد^(١)، ومسح على عينيه بالمنديل
باكيًا أو متباكيا، فسقط في يد بشير، ودخل بشير كالأسير.

وهذا من جملة سعودات الشريف ذي القدر المنيف.

وكان مولانا الشريف رحمه الله قد رأى في المنام كأن شخصا ينشده هذا البيت:

[من الطويل]

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ أَمْرٌ وَإِنْ كَانَ كَائِنٌ لَكَانَ بِهِ أَمْرٌ نَفَى ذَلِكَ الْأَمْرُ
فَانْتَبَهَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وكتبه بالسواك على رمل في صحن نحاس خشية النسيان،
وكانت هذه الرؤيا في الليلة التي أسفر صباحها عن ورود هذا الخبر.

واستمر بشير إلى آخر السنة، وحج وتوجه صحبة الحاج حيث جاء.

فمن الألفاظ الخفية لمولانا بما أولاه، وكم، وكفى بالله.

وقد نظم السيد محمد الأنسى المغربي قصيدة يمدح بها مولانا الشريف زيد

رحمه الله ذكر فيها قصة بشير، وأورد فيها البيت المذكور وهى هذه: [من الطويل]

سَلُّوا آلَ نُعْمٍ بَعْدَنَا أَيُّهَا السَّفَرُ	أَعِنْدَهُمْ عِلْمٌ بِمَا صَنَعَ الدَّهْرُ
تَصْدَى لَشْتُ الشَّمْلِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا	فَمَنْزَلَى الْبَطْحَا وَمَنْزَلُهَا الْقَصْرُ
رَأَى وَنَعْمَى لَاهِيَيْنِ فَعَالَنَا	فَشَلَّتْ يَدُ الدَّهْرِ الْخَثُونِ وَلَا عُذْرُ
فَوَاللهِ مَا مَكَرَ الْعَدُوَّ كَمَكْرِهِ	وَلَكِنْ مَكْرًا صَاغَهُ فَهُوَ الْمَكْرُ
فَقُولَا لِأَحْدَاثِ اللَّيَالَى تَمَهَّلِي	وَيَايَهَذَا الدَّهْرُ مَوْعِدُكَ الْحَشْرُ
سَلَامٌ عَلَى ذَاكَ الزَّمَانِ وَطِيبِهِ	وَعِيشٍ مَضَى فِيهِ وَمَا نَبَتِ الشَّعْرُ
وَتَلَكِ الرِّيَاضُ الْبَاسِمَاتُ كَأَنَّ فِي	عَوَاتِقِهَا مِنْ سُنْدُسٍ حُلُلٍ خُضْرُ
تَنْضُدُ فِيهَا الْأَقْحَوَانُ وَنَزَجَسُ	كَأَغْيُنٍ نُعْمٍ إِذْ يَقَابِلُهَا الشَّعْرُ
كَأَنَّ غُصُونِ الْوَرْدِ قُضِبَ زَبْرَجِدِ	تَخَالُ مِنَ الْيَاقُوتِ أَعْلَامُهُ الْحُمْرُ
إِذَا خَطَرَتْ فِي الرُّوضِ نُعْمٌ عَشِيَّةُ	تَفَاوَحَ مِنْ فَضْلَاتِ أَرْدَانِهَا الْعَطْرُ
وَإِنْ سَحَبَتْ أَذْيَالَهَا خِلَتْ حَيَّةُ	إِلَى الْمَاءِ تَسْعَى مَا لِأَخْمَصِهَا إِثْرُ
كَسَاهَا الْجَمَالُ الْيُوسُفَى مَلَابِسًا	فَاهْوَنُ مَلْبُوسَ لَهَا التَّيَّةُ وَالْكِبْرُ
فَكَمْ تَخْجَلُ الْأَغْصَانُ مِنْهَا إِذَا انْتَشَتْ	وَتُغْضِي حَيَاءً مِنْ لَوَاحِظِهَا الْبَثْرُ

(١) أى: رحم الله السلطان مرادا.

على غرّة إن أسفرت طلع الفجر
 مصابيح رهبان أضاء بها الدّير
 كعنق غزال قد تكفّفها الذعر
 عن الحلّى لكنّ بى إلى مثله فقر
 من النّد مثقال فنّد به الصبر
 ضعاف وما كلّ البلاد هى المضر
 على نقو من رمل يطوف به نهر
 روادفها لولا الثّقافة والهضر
 رخيّم الحواشى لا هراء ولا نزر
 فادنت لها عود أناملها العشر
 وإن كنت مسحورًا فلا برئ السحر
 لما شقنى إلا القطيعة والهجر
 فأقصدنى منها سهامكم الحمر
 تأجج نار أنت من ملكنا حر
 بإبريقها تسعى به القينة البكر
 إذا طلعت من بُرجها أقلّ البدر
 ثلاث شخوص بيننا النظم والنثر
 يذكّرها دنيا بأقدامنا العضر
 فلم نذر هل ذاك النعاس أم السّكر
 ومودعها الأدنان لقمان والنسر
 على فُرش من عسجد نثر الدر
 تشابه من ثغريهما الريق والخمر
 إذا ذاقه قلبى الشّجى حمّد الجمر
 فمات ارتشاف الثغر إن سمح الثغر
 وبين مُدام الظلم إن أشكل الأمر
 بلى إن سلا بذل النوى الملك القسر

لها طرّة تكسو الظلام دياجيا
 وصحنان خد أشرقا فكأنما
 وجيد من البلّور أبيض ناعم
 ونخر يقول الدرّ إنّ به غنى
 وحقان كالكاפורتين علاهما
 رويدك يا كافور إنّ قلوبنا
 تبدّى بقدّ باسقا متأودا
 يكاد يقدّ الخضر من هيف به
 لها بشرّ مثل الحرير ومنطق
 رأتنى سقيما ناحلا والهّا بها
 إذا كنت مطبوبا فلا زلت هكذا
 فقلت لها والله يا ابنة مالك
 رمّتنى العيون البابليات أسهما
 فقلت وألقت فى الحشا من كلامها
 فوالله ما أنسى وقد بكرت لنا
 تدور بكاسات العقار كأنجم
 ندامى نغم والرباب وزينب
 على الناي والعود الرخيم وقهوة
 فتقتص من ألبابنا ورؤوسنا
 معتقة من عهد عاد وجرهم
 مشعشة صفرا كأنّ حبابها
 إذا فرغت من كأس نعم وأختها
 خلا أن ريق الثغر أشفى لمهجتى
 وأنفع درياق لمن قتل الهوى
 بهذا عرفنا الفرق ما بين كأسها
 فوالله ما أسلو هواها على النوى

له دون أملاك الورى المجد والفخر
لهيته الأقيال والعسكر المنجر
فتندك أطواذ الممالك والقفور
أتاه بإذن الله في الساعة البحر
وما خشعت إلا وفي نفسها أمر
تجد ملكا يزهو به النهى والأمر
وعود وأدنى بذله الدهم والشفور
دليلان للوفد البشاشة والبشور
وما عتتر يوم الحقيقة أو عمرو
إذا ما الجبان الوجه قطبه الكر
لديه النوال الحلو والغضب المر
لقد جمعا في كفه الجبر والكسر
حواه أنوشزوان في عينه نزر
ياحسانهم منه فما العبد والحر
وملح أجاج لا ولا التبن والتبر
مزايه لاستحيث ولكن بها وقر
وماذا عليهم يا ترى لهم الخسر
يقصّر عنه بل وكسرى به كسر
تبوأها من قبله اليأس والخضر
يناجيه في الغيب ابن داود والجفر
من الشاهد المقبول قصته البكر
أقاول غي ضاق ذرعا بها الصدر
من الليل بينت زاد فخرا به الشعر
لكان به أمر نفى ذلك الأمر
وذكري لمن كانت له فطنة تغرو
بغيطكم إن لم يطيعكم الصبر

أبو حسن زيد المحاسن والعلأ
إذا ما مشى بين الصفوف تزلزلت
وترجف ذات الصدع خوفا لبأسه
فلو قال للبحر المحيط ائت طائعا
تظل ملوك الأرض خاشعة له
كريم متى تنزل بأعتاب داره
تجد ملكا يغنى الوفود وينجز ال
على جوده من وجهه ولسانه
فما أحنف حلما وما حاتم ندى
هو الملك الضحاك يوم نزاله
لقد قر طرف الملك منه لأنه
حياة وموت للموالى وللعدى
أنخ عنده يا طالب الرزق إن ما
ولا تضع للعدال أدنا وإن وقوا
وهل يستوى عذب فراء مروق
فلو سمعت أذن العداة بمجده
فما قدروا زيد العلا حق قدره
مليك إليه الانتهاء فقيصر
مليك له عند الإله مكانة
مليك له سر خفي كأنما
فإن كذبت أعداء زيد فحسبه
ليالى أن جاء الخصى وأكثروا
فأيقظه من نوميه بعد هجعة
« كأن لم يكن أمر وإن كان كائن
وفي طي هذا عبرة لأولى النهى
فيا زيد قل للحاسدين تحنطوا

فمجدى كما قد تعلمون مؤثلاً
 من القوم أرباب المكارم والعلا
 مساميح في الأوامر مباحين في الوعى
 أستتھم في كل شرق ومغرب
 مساعير حرب والقنا متشاجر
 بنى حسن لا أبعد الله داركم
 ولا زال صذر الملك منشرحاً بكم
 وصلى على المختار والآل ربنا
 وكل حَمَام البر يفرسه الصقر
 ميامين في أيديهم اليسر والعسر
 تصالح في مغناهم الخير والشر
 إذا وردت زرق وإن صدرت حمر
 ويوم الندى تبدو جحاحجة غر
 ولا زال منهلاً بأرجائها القطر
 فعنكم ولاية البيت ينشخ الصدر
 وسلّم ما لاح السّمّاكان والغفر

وفى سنة خمسين وألف يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الأولى: توفى الشيخ تاج الدين زكريا بن سلطان النقشبندى بمكة، ودفن صبح الخميس فى رباطه الشهير برباط تاج فى سفح جبل قعيقعان، وله ترجمة طويلة.

أخذ عنه الشيخ الأمجد أحمد بن إبراهيم بن علان، وشيخنا الشيخ عبد الله، وأخوه الشيخ محمد ابنا الشيخ سعيد باقشير.

وفيها: توفى الجمال محمد بن أحمد بن حكيم الملك بالديار الهندية.

وفى سنة اثنتين وخمسين وألف ليلة الخميس ثانى عشر صفر منها: توفى الشيخ فتح الله النحاس الحلبي، الشاعر المجيد، والأديب الفريد، الذى شاع ذكره وشعره وذاع، وجمع بين الإسراع والإبداع.

كان من فحول الشعراء فى عصره، وفريد الشر والنظم فى دهره.

ورزق حظوة عند أهله، وقبولا يعهد مثله لمثله. ولكنه كان ذا تعاظم فى نفسه، وتكبر على جنسه، ولم يسعفه دهره كعاداته مع الأدباء، فأدركته حرفة الأدب، وناداه لسان حاله: لا تعجب فإننى أبو العجب.

مولده بحلب فى حدود الألف. وصحب المشايخ الكبار، وحج وزار.

وأقام بالمدينة على مشرفها الصلاة والسلام، إلى أن أدركه بها الحمام، فى التاريخ المذكور ودفن بالبقيع.

وقد عنى بجمع ما تيسر من شعره مولانا العلامة الفهامة برهان الدين الشيخ إبراهيم ابن المرحوم الشيخ عبد الرحمن بن الخيارى المدنى، فجمعه فى ديوان لطيف: ومن بديع شعره قوله مادحاً النبى ﷺ: [من البسيط]

تذكر السفح فانهلت سوافحه وليس يخفاك ما تخفى جوانحه
وفى هذه القصيدة بيت يجفل منه الطبع الذكى، ويود أن يكون عند فهمه بليداً أى
بليد، وإن كان هو عند أدباء العصر بيت القصيد. وهو قوله: [من البسيط]
وما أقول إذا ما جئت أمدح من جبريل خادمه والله مادحه؟!
وفى سنة ثلاث وخمسين وألف: أنشأ مولانا الشريف زيد بن محسن سبيلا
وحنفية بمكة المشرفة.

فقال مولانا القاضى تاج الدين مؤرخاً لعمارتها: [من السريع]
لله تأسيسٌ نما خيرُهُ وفازَ بالتطهيرِ مَنْ أَمَّ لَه
به سبيلٌ وحنفيةٌ وسلسيلٌ فارتشف سلسلَه
له نبا فى الفيضِ مهما روى حديثه أروى بما سلسلَه
سالت عطاياه لُجينا فَمَنْ رامَ نداه نالَ ما أَمَلَه
وحيث لم تكتفِ سُؤاله فلا يكفُ البذل إذ أرسَلَه
لأنَّ مَنْ أسَّسَ بنيانَه غيثُ الورى فى السنه الممجلَه
مَنْ نفسه يومَ عطاءه ترى إن وهب الدنيا فقد قلَّ لَه
توجَّه الله بتاج زها بجوهرِ المجدِ الذى كَلَلَه
والله مِنْ وافرِ إحسانِه أجرى لَه الأجرَ الذى أجزَلَه
فإن تسلَّ عن ضبطِ تاريخِه فخذ جواباً يوضح المسأله
أسَّسه سلطانُ أمِّ القرى زيدٌ يدومُ العزُّ والسَّعد لَه

ولما كان أوائل سنة سبع وخمسين طلع الصنjq الكبير صاحب جدة المسمى
مصطفى بك إلى وادى الطائف المأنوس لزيارة الحبر سيدنا عبد الله بن عباس -
رضى الله عنهما - وطلع بعده الأغا المكرم بشير أغا غلام المرحوم مولانا السلطان
مراد خان بن أحمد خان، وهذا فى مجيئه الثانى سنة ست وخمسين بعد الألف متولياً
مشيخة الحرم النبوى، فأقام ما شاء الله أن يقيم، ثم لما أن كان نازلاً إلى مكة طالعا
فى المحل المعروف بالنقب الأحمر، وجه جبل كراء مما يلى الطائف، وقد تفرقت
عساكره خلفاً وأماماً، ولم يبق معه سوى السائس وحامل كوز الماء، اعترضه رجل
عربى كان يتعهده بالإحسان إليه، يقال له: الجعفرى، فضربه وهو متجرد للإحرام

بسكين العرب أنفذها إلى أحشائه، وذهب ولم يدر محله، قيل: إن السائس أراد ضرب القاتل فوق السيف في مؤخر الحصان، فقمص فسقط عنه الصنjq، فلاحقت العساكر فلم يلبث إلا نحو ساعتين، وتوفى شهيدا إلى رحمة الله.

وكان قتله يوم التاسع والعشرين من جمادى الأخرى من السنة المذكورة، ودخل به مكة فى التخت قتيلا غرة رجب منها، فجهز ودفن فى المعلاة أمام قبة السيدة خديجة زوج النبى ﷺ.

وكان مولانا الشريف رحمه الله تعالى سنتها قد توجه إلى جهة الشرق، فأبعد حتى وصل قريبا من الخرج، وكان القائم مقامه لحفظ مكة مولانا السيد إبراهيم ابن الشريف محمد ابن الشريف عبد الله بن حسن، فاستدنى السيد إبراهيم غالب عسكر الصنjq، وأنزلهم فى محل يسعهم بأجياد، وأجرى عليهم الجوامك والأرزاق، وأمر السيد المذكور كيخية العسكر دلاور أغا بالتزول إلى جدة لحفظ البندر، فامتنع أشد الامتناع.

ثم لما كان بعد ليال عديدة نزل بعد هزيع من الليل قاصداً جدة خلصة، فشعر به السيد إبراهيم المذكور، وأرصد له جماعة فأمسكوه وأتوا به فحبسه، ثم اختلس بعض العسكر نفسه، وذهب إلى بشير أغا بالطائف وأخبره بما وقع، فأقبل بشير إلى مكة، ونزل بمدرسة الأغا بهرام بالمسعى، فتردد السيد إبراهيم فى الوصول إليه وعدمه لاختلاف المشير، ثم جزم وعزم إليه فتلقاه بما هو الواجب، ثم قال له لما استقر المجلس: لِمَ حبستم دلاور أغا؟ فقال السيد إبراهيم: حبسناه خشية من إضراره وإفساده، فإننا قد ألزمناه مراراً بالتزول إلى جدة فامتنع فارتبنا بتزوله خفية، فقال بشير: أطلقه. فقال: لا أطلقه حتى يصل مولانا الشريف زيد.

ثم قام السيد إبراهيم. فلما كان اليوم الثانى: نزل بشير أغا إلى الأفندى، واستدعوا مولانا السيد إبراهيم فحكم عليه الأفندى بإطلاقه فأطلقه، ثم بعد يومين أو ثلاثة عزم السيد إبراهيم، والقائد رشيد حاكم مكة إلى نحو بركة الماجن للتزّه، فاستجر بشير أغا العسكر ووعدهم، فحملوا أثقالهم وأدخلوها من باب المسجد، وخرجوا بها من باب ابن عتيق، ثم خرجوا بعد العصر حازبين مارّين على دار السعادة ثم على السوق ثم على سويقة، إلى أن وصلوا بيت بشير أغا، وكان نازلا

بالباسطية، فوصل الخبر للسيد إبراهيم فوصل إلى البلد، وقال لبشير أغا: ما هذا الفعل؟ فقال بشير في جوابه: نعم عسكر السلطان، لهم في التربية سنين تأخذهم في خمسة أيام؟!.

وكان في عسكرهم شخص اسمه جاوش كثير الفساد وشرب الخمر والتعدى، فأمر السيد إبراهيم بقتله أينما وجد، فوجد سكران على الطريق، فتناوله عسكر الشريف فقطعوه، فنارت الفتنة وترامى العسكران بالرصاص، وقتل شخص من الناس خلف مقام المالكي وقتل كخية بشير أغا، ولم يزل مطروحاً عند باب ابن عتيق إلى الليل من داخل المسجد حتى رفعه بعض أهل الخير، ثم سعى القاضى أحمد كرباش وغيره بالصلح والمكافة، وألاً يصل إلينا منكم أحد ونحن كذلك ما عدا ثلاثة أشخاص معينين من جماعة بشير لقضاء حوائجه من السوق وسكنت الفتنة.

وذكر لى من أدرك ذلك أن مولانا الشريف زيداً رحمه الله تعالى استحسّن جميع ما فعله السيد إبراهيم ما عدا قتله للجاوش فإنه لأمه عليه، فرحم الله الجميع برحمته الواسعة.

واتفق في مدة وقوع الشنآن بين بشير أغا والسيد إبراهيم بن محمد أن قرأ في صلاة المغرب بعض أئمة الحنفية بسورة الفيل ثم قرأ في صلاة الصبح سورة والفجر، وكان بشير يحضر صلاة الجماعة، فلما فرغ من صلاة الصبح قال لرجل من أهل مكة كان يألفه: انظر أهل مكة يرجموننا بالقرآن؛ لموجب قراءة الإمام المذكور في المغرب بسورة الفيل فإن فيها ذكر أصحاب الفيل ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: ٣] إلى آخر السورة، وفي الصبح بسورة الفجر وفيها ذكر عاد ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١١-١٣] الآيات، فبلغ قوله الإمام المذكور - وهو لم يخطر له شيء من ذلك ببال ولا علق منه بحبال - فارتاع لذلك وارتاب، ولبت البيت وزرر الباب، ومكث على ذلك أياماً، وتمنى أن لم يكن إماماً. وهو اتفاق فيه إيهام، لكنها رمية من غير رام، لطف الله بنا وبه.

ثم عزم مولانا الشريف رحمه الله في عام تسع وخمسين إلى زيارة جده ﷺ فكان دخوله يوم الخميس ثامن شهر شعبان من السنة المذكورة، فتزل بالقاضية خارج

السور. ثم فى فجر اليوم العاشر من الشهر المذكور نزل الأفندى زفر قاضى المدينة الشريفة راكبًا ومعه ثلاثة من الخدم، فلما كان عند الدفتردارية وثب عليه شخص فضربه بالحد فى ظهره أنفدها من صدره فأكب على قريوس الفرس، ولم تزل داخله به إلى محراب السيد عثمان بن عفان رضى الله عنه وإمام الشافعية قائم يصلى الفجر، فقام بعض الناس إليه، وأنزلوه بآخر رمق وهو يقول: يا رسول الله يا رسول الله، ووضع أمام الوجه الشريف، وبعد لحظة قضى عليه، فحشدت عساكر المدينة واجتمعت وأغلقت أبواب سور المدينة، وتفرقت فى متارسه، ووجهوا المدافع إلى جهة مولانا الشريف زيد ونادوا: اخرج عنا الآن، وبدا منهم ما هو وصفهم، فبعث إليهم الشريف أكابر جماعته، وأكابر عسكر مصر، فحلفوا لهم بأن لا علم للشريف بذلك ولا شعور، ولؤموهم على ذلك خطابًا من تحت السور، فراجعوا وفتح باب السور.

ففى اليوم الثانى استدعى وجوههم لينظر فى حال قتلة الأفندى ويبحث عنهم، فأتوا إليه فلم يزل يمسكهم واحدًا واحدًا وجبهم مديدة، ثم وقعت فى بعضهم شفاعة ففك وذهب بالباقيين وهم نحو تسعة أنفس فأمر بإبقائهم فى ينبع، فاستمروا إلى مجيء الحاج فاستشفعوا بأمر الحاج فأتى بهم مستشفعًا فيهم، فشفعه مولانا الشريف، ثم لما نزل بعد الحج الصنjq غيطاس أمير جدة من مكة إلى جدة مغاضبًا لمولانا الشريف زيد نزلوا معه وكتبوا أنفسهم فى دفتر عسكره.

وسبب غضبه الناشئ عنه الحراة الآتى ذكرها فى سنة ستين وألف أمور: منها أنه ورد إلى مكة بعض تجار من الصعايدة، وشخص أعجمى يسمى أسد خان جاءوا من جهة اليمن بتجارة، ونزلوا من البحر إلى بندر القنفدة، ووصلوا إلى مكة برًا ولم يدخلوا بندر جدة، فلما أن دخلوا إلى مكة وكان غيطاس بمكة قد وصل للحج فاحتال على الصعيدى وجسه، وكان الصعيدى ملتجئًا إلى المرحوم السيد هاشم بن عبد الله فلزم السيد على الشريف زيد فى إطلاقه فوعده، ثم إنه أخذته الحمية، فركب إلى الشريف ثانيًا، ثم نزل من عنده قاصدًا لبيت الصنjq غيطاس لفك الرجل، فنادى مولانا الشريف قائمًا من الروشن: ردوا الرجل فمضى، فلما أقبل على البيت لم يقابل إلا بالرجل المحبوس منطلقًا فرجع به.

وقيل: إن حبس غيطاس للصعيدى إنما كان بسبب دين عليه شكاً فيه على غيطاس.

ومنها: مجابذة الشريف زيد له لما جعل القرش الحجر بخمسة وأربعين ديوانى فى صرور أهل مكة بزيادة خمسة على الأربعين المعتادة.

ومنها: إحياء أولئك النفر من عسكر المدينة، ونسبتهم قتل الأفندى إليه.

ومنها: تردد السيد عبد العزيز ابن الشريف إدريس إليه ومواطنه ووعدته إسعافه، بما أبى الله إلا خلافه.

فقبل أن ينقضى الحج نزل غيطاس إلى جدة، ووصل إليه السيد عبد العزيز المذكور، فوصل الخبر بعد قليل إلى مكة بتولية غيطاس للسيد عبد العزيز مكة ونودى له بالبلاد، وأقام حاكماً فيها ناصر بن سعيد عتيق مصطفى السيورى وظن أنها تكون.....^(١) وأقبل غيطاس ومعه السيد المذكور بمن معه ومن لم عليه من لفق عسكر المدينة، وخرج عليه مولانا الشريف زيد رحمه الله تعالى، وكان اللقاء يوم الخميس تاسع عشر جمادى الأخرى من سنة الستين وألف فوق التنعيم، وكان فى الميمنة متقدماً مولانا المرحوم السيد أحمد بن محمد الحارث بجماعته ومن يليه، وكان فى الميسرة كذلك متقدماً قليلاً مولانا المرحوم السيد مبارك بن شنبر بجماعته ومن يليه، ومولانا الشريف زيد بمن معه فى القلب، والصروح ملأت السهل والوعر وتراموا بالرصاص والمدافع، وكلما هم الأشراف بالحملة يقول لهم مولانا الشريف: معكم معكم، كناية عن التلبث والتأنى، وارتفع النهار وحميت الشمس فركض من الأشراف جماعة، منهم السيد وبير بن محمد بن إبراهيم، والسيد بشير ابن سليمان، والسيد أبو القاسم، فأصيب السيد وبير بالبندق فسقط بين الجمعين، وأصيب جماعة من الجانبين، وحين اشتد الحال أتى مولانا السيد عبد العزيز إلى جمع السيد المبارك بن شنبر داخلاً عليه طالباً للأمان، ولغيطاس ومن معه، فعزم به السيد مبارك إلى مولانا الشريف فأمنه ووقع الصلح، ونصبت للشريف خيمة فنزل بها يستظل، وسأل السيد عبد العزيز من الشريف من يوصل غيطاس إلى مأمنه لأنه أشفق من نهبة العربان له، فأصحبه الشريف خمسين شخصاً من العسكر فذهب إلى جدة

(١) بياض بالمخطوط .

راجعًا، وجاء عزله، فذهب إلى ينبع وواجهه الحاج بها، ومكث إلى عود الحاج من مكة إليها وتوجه معهم إلى مصر وتوجه معه السيد عبد العزيز ابن الشريف إدريس رحم الله الجميع، فاستمر غيطاس بمصر سنة إحدى وستين، وجاء في موسمها أمير المحمل المصرى فتوهم منه مولانا الشريف زيد، ولما خرج للخلعة على العادة لم يكن بينهما مناكبة على المعتاد بل مد له الشريف يده الشريفة فصافحه، ومن عامئذ تركت مناكبة الشريف مكة لأمرء الحجيج ولم يقع منه شيء من المضار ولله الحمد والمنة .
وأما مولانا السيد عبد العزيز فأقام بمصر نحو ستين، ثم جاء خبر وفاته فى السنة الثالثة شهيدًا بالطاعون رحمه الله .

وفى سنة ثلاث وستين عمرت قبة الفراشين فى المسجد الحرام، فقال مولانا القاضى تاج الدين المالكى مؤرخًا عمارتها وممتدحًا معمرها: [من الرجز]
أَنْظُرْ لِحَسَنِ قَبَةِ جَدِّهَا مُؤَسَّسًا فَخْرُ الْمُلُوكِ الْأَمْجَدُ
وَقُلْ إِذَا أَرَحْتَ عَامًا كَانَ فِي أَثْنَائِهِ بِنَاؤُهُ الْمَشِيدُ
عَمَرَهَا سُلْطَانُنَا مُحَمَّدُ الْمَلِكُ السَّامِيُّ الْعَلِيُّ الْأَوْحَدُ
وإن أردت تاريخها باعتبار تمام البناء كله فى سنة أربع وستين فقل: المالك بزيادة الألف . ولما أرادوا الشروع فى العمل حملوا المؤنة على الحمير، وأدخلوها من باب البغلة ويعرف هذا الباب قديمًا بباب بنى سفيان بن عبد الأسد؛ كذا قاله الأزرقى . وعرف الفاسى هذا الباب بباب البغلة قال: ولم أدر ما سبب هذه الشهرة، قال العلامة الشيخ محمد على بن علان: لعل سببها أن بغلته ﷺ ربطت أو وقفت ثمة فى بعض الأوقات والله أعلم .

وفى سنة ثمان وستين وألف: أصاب شاهجهان سلطان الديار الهندية فالج عطله عن الحركة، وحصل بين أولاده حروب كثيرة، ولما أراد الله بالهند خيرًا وإحسانًا، وقدر ظهور العدل فيهم كرمًا وامتنانًا، أظهر فى حافتيها شمس السلطنة بلا ريب، وأنار فى سماء سلطنتها أنوار أورنك زيب، وطوى بساط إخوانه ومزق، وحرق بنار المظلومين لباسهم وخرق، وقتل أخاه دارا شكور واقتلعه هو وأصحابه من ملك الحبور، وأسكنهم دارسات القبور . وكان دارا شكور ذا ذوق وفطنة بهية، وصفات مستحسنة رضية، إلا أنه فى آخر عمره صارت سيرته ذميمة، وأحدث مظالم وخيمة .

وفى سنة تسع وستين يوم الجمعة لعشر بقين من شوال منها: توفى مولانا السيد عمار بن بركات بن جعفر بن أبى ندى فى الديار الهندية رحمه الله تعالى .
وفىها أواخر شهر رمضان: توفى بالقرية المسماة بالآبار من بلدة الطائف الحميدة الآثار، ودفن فى سوح ضريح الحبر ابن عباس طيب الأنفاس، مولانا وسيدنا العلامة، العمدة الصدر الفهامة، القاضى عصام الدين بن على زاده العصامى، نتيجة الفضلاء الكرام، وسلالة العلماء الأعلام.

الراوى حديث المجد عن أسلافه الأماثل، والحاوى محاسن سلسلة آبائه الفضلاء التى لم يفصلها بحمد الله جاهل، والرافع عماد بيتهم، والمجيب منادى صيتهم وصوتهم، بيت فضل لم ينشأ به إلا قاض وخطيب، فنن فضله فى رياض المعالى رطيب.

ولد بمكة ونشأ بها وأخذ العلم عن والده، وعن مولانا السيد عمر بن عبد الرحيم، وعن ابن عمه مولانا الشيخ عبد الملك بن جمال الدين العصامى وغيرهم، ولازم الإقراء والتدريس على الدوام فى المسجد الحرام، على طريقة العلماء الكاملين، والأئمة الواصلين.

وخلف ابنين نجيبين كاملين، هما مولانا القاضى على، ومولانا المرحوم القاضى محمد. انتقل محمد بعد سنوات عن ابنين نجيبين أيضًا.

وتصدر مولانا القاضى على مكانه للإقراء والإفادات، وهو كآبائه على طريق خير وصلاح، قد أشرق نورهما على محياه ولاح.

أطال الله بقاءه للدين، ونفع بعلومه المسلمين آمين.

وفى سنة سبعين حصل غلاء بمكة وصلت فيه كيلة الحب إلى سبعة عشر محلقة، فأشار شيخنا العلامة محمد البابلى على مولانا الشريف زيد بإبطال التسعير، فأطلق مناديه بذلك، وأن كل من عنده حب أو ما يقتات به يبيعه بسعر الله، فأظهر كل من عنده الحب، وجلب من سائر البلدان حتى كثر ورخص السعر، وسبب الغلاء: كثرة الجراد بأرض الحجاز واليمن، وأعقبه الدبا فأكل جميع الأشجار والزرعات.

وطبق بعض الأدباء تاريخا على قوله: «غلاء وبلاء» نعوذ بالله منهما ومن كل مخوف.

وفى سنة اثنتين وسبعين: عمرت زمزم والبناء الذى عليها ما عدا الجهة القبلىة، وأدير باب المصعد إلى قبتها إلى الجهة الجنوبية، فأرخ ذلك قاضى مكة عامئذ- وهو بعض الأروام الواصل منهم كل عام جديد قاض جديد- بأبيات بالتركية آخرها بيت التاريخ بالعربية هو:

قَلْتُ تَارِيخُهُ بَلْفِظِ حَلٍ قَدْ بَنَى الزَّمْزَمَ مُحَمَّدٌ خَانٌ
وهى أبيات دون عشرة منقورة فى حجر على باب زمزم إلى الآن فسبحان الحكيم.

وفى سنة ثلاث وسبعين وألف يوم السبت بعد الظهر سابع شعبان منها: حصل مطر سال منه سيل كبير ملأ المسجد وغرق فيه نحو ستة أنفس، فتصدى مولانا الشريف زيد لتنظيفه ونادى فى الناس، وحضر بنفسه وكذلك صنّجق جدة الأمير سليمان بك - وهو يومئذ شيخ الحرم المكى، وقائم على عمارة المقامات وترميم المشاعر - وعمل الأشراف والعلماء والخطباء والمدرسون بأيديهم بعد أن عمل مولانا الشريف زيد بيده، وبذل هو والصنّجق مالاً جزيلاً، وأعمل المهمة فى ذلك، فتم تنظيفه من سائر جهاته فى سبعة أيام، ولله الحمد والشكر.

وقال صاحبنا المرحوم مولانا السيد أحمد ابن المرحوم مولانا السيد أبى بكر بن سالم ابن شيخان مؤرخاً دخول السيل: [من الخفيف]

قَهَقَةُ الرَعْدُ عِنْدَمَا ابْتَسَمَ الْبَرُّ قُ فَاْبَكَى الْعَمَامَ قَطَرُ الْمِيَاهِ
وَأَذَابَا قُلُوبَنَا الْخَوْفُ وَالرَّغْبُ بُ فَوَيْلٌ لِّغَافِلِ الْقَلْبِ سَاهِي
وَأَتَانَا طُوفَانُ نُوحٍ وَبِالْمَوْتِ قَطَعْنَا لَوْلَا جَنَابُ الْإِلَهِ
إِنْ تَقُلْ أَوْضِحُوا فَسَابِغُ شَعْبَا نَ وَسَبَّتْ لِيَوْمِ سِتِّ مُضَاهِي
أَوْ تَرُدْ عَامَهُ الْمَهِيلَ فَأَرُخْ بَاتَ سَيْلٌ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ دَاهِي

وفى سنة أربع وسبعين وألف: عمرت المقامات الأربعة، مقام الخليل وباقي الثلاثة، وطلاء جميع قباب المسجد بالنورة ظاهراً وباطناً، ورممت جميع المشاعر بعرفات، مسجد إبراهيم، وقبة جبل الرحمة والمشعر بمزدلفة، ومسجد الخيف بمنى، وأعلام الجمرات وحدود الحرم.

وفى سنة ست وسبعين: خرج مولانا الشريف زيد رحمه الله تعالى إلى بلاد جهينة

لطلب ثأر السيد مساعد استجره والد مولانا وسيدنا المصنف هذا الكتاب برسمه، المشرف بلقبه الشريف واسمه متع الله بحياته، مولانا المرحوم السيد غالب بن محمد * ولى الدم الأدنى، فتوجه بجميع من معه من السادة الأشراف، وأتباعهم وعساكره وعساكر مصر رتبة مكة إليهم وأقام بيدر، وتوجه مولانا المرحوم السيد حمود بن عبد الله إلى زيارة جده عليه السلام، وكنت زائرًا معه فى كنف جنباه، على خيله وركابه. وفيها: كان ورود الأغا عماد أفندى الرومى، فاتجه به مولانا السيد حمود فى الطريق، وذلك أنه لما وصلنا إلى الخيف -المنزل المعروف- وجدنا مخيمه بها، فمال إليه السيد حمود مع بعض أولاده، وبنى إخوته، وبنى عمه، ودخلوا عليه، فقام ساعيًا حافيًا من بُعد فكان أول اجتماعه به هناك، فجلس عنده حينًا من الزمان، ثم خرج وتوجه للزيارة، ثم لما رجع وجد مولانا الشريف زيد مقيمًا بيدر، فنزل بمحشوش اسم ماء قرب بدر، ثم توجهنا معًا إلى حراة جهينة وكان المرحوم السيد أبو القاسم ابن السيد حمود هو القائم مقام مولانا الشريف زيد بمكة المشرفة عامئذ، وكانت الأمطار قد كثرت بالحجاز فرخصت الأسعار جدا حتى بيع الإردب القمح بثلاثة حروف عددى، والمن والجبن بمحلقين، والألبان واللحوم والخيرات كثيرة، ومثل مكة فى هذا ما حولها من الأقطار ولله الحمد والشكر.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وألف: كان هلالها بالأحد، فى فجر ليلة الثلاثاء ثالثه كانت وفاة سلطان الحرمين ونواحيهما، والمالء بعدله وأمنه دانيهما وقاصيهما، مولانا المرحوم الشريف زيد ابن الشريف محسن بن الحسين بن الحسن؛ فصعدت روحه إلى معالم العرش والكرسى، وأفيض عليه من الرضوان سابغ الروح القدسى.

كان رحمه الله متخلقًا بالأخلاق المحمدية، متصفًا بالصفات الكمالية. كان كثير الحلم والصبر والشفقة على الرعية، بحيث يسمع بأذنيه منهم الأسية، ويعفو ويصفح تأسيًا بجده خير البرية.

ولم يضبط عليه أنه قتل شخصًا بغير حق فى هذه المدة الطويلة المرضية. وكان الأقطار والرعية فى زمنه آمنة مطمئنة فى عيشة هنية. وهو حقيق بأن يلقب مهدي الزمان، رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح الجنان.

كان ولادته - رحمه الله تعالى، وأعاد على المسلمين من بركاته - بعد مضي درجتين من شروق شمس يوم الإثنين السابع والعشرين من شهر شعبان المعظم سنة ست عشرة بعد الألف ببلدة «بيشة» من أعمال الشرق.

قلت: قد أخبرني مولانا الخطيب العلامة اللبيب نتيجة الفضلاء، وعين الأعيان النبلاء، برهان الدين، الخطيب والإمام بمسجده - عليه الصلاة والسلام -، إبراهيم ابن العلامة الفهامة واحد عصره بلا خلاف، ونسيج وحده كلمة ائتلاف، مولانا المرحوم الخطيب أحمد بن عبد الله الشهير بالبري نقلاً عن والده المذكور أنه حضر في مجلس مولانا المرحوم الشريف زيد بعض متعاطى علم الرمل فضرب تخته ثم قال لمولانا الشريف زيد رحمه الله: قد دل الرمل الصحيح على أنه كان وقت علوق والدتك بنظفتك عند الزوال في شهر رمضان في عام خمسة عشر بعد الألف، فاستغرب مولانا الشريف ذلك لمكان شهر الصوم، ثم إنه سأل والدته عن هذا المعنى فأجابت نعم: كان سيدى أبوك غازياً في شهر رمضان لبعض العرب، فجاء بعد أن أدرك من النصر والنجح الأرب، وكان وصوله في ذلك الوقت الذى ذكره هذا الرجل، فوقع على، فأدركت الحمل بك من حينى.

هكذا أخبرنى - حفظه الله تعالى - نقلاً عن والده الخطيب أحمد البري المذكور. فعلى هذا تكون مدة حمل مولانا الشريف زيد زادت على تسعة أشهر، ولا مانع من ذلك فإن أقصى مدة الحمل عند السادة الحنفية ستان، وعند السادة الشافعية أربع سنين، وقد اتفق مكث الحمل تلك المدة لأشخاص كثيرة.

وكانت مدة ولايته خمساً وثلاثين سنة وشهراً وأياماً، رحمه الله رحمة واسعة، وغفر له مغفرة جامعة آمين.

ولما مات وقعت بمكة رجة عظيمة فى التولية على المسلمين وفيمن يقوم مقامه، بين ولده الشريف سعد وبين السيد حمود بن عبد الله، وقام كل من الرجلين أشد قيام، وجمع الجموع وبذل المال، وتحصنوا فى البيوت والمناثر، وانضم الأشراف جميعهم إلى السيد حمود، ولم يبق مع الشريف سعد إلا السيد مبارك بن محمد الحارث، والسيد راجح بن قايتباى، والسيد عبد المطلب بن محمد، والسيد مضر ابن المرتضى، والسيد الحسين بن يحيى، والسيد فارس بن بركات، والسيد محمد

ابن أحمد بن علي، وهو الذي كان مع المنادى.

وكان في مكة رجل عظيم الشأن قد ورد في العام الذي قبل هذا العام وهو عام ست وسبعين، ورد سنجقًا «جدة» وشيخًا لحرم مكة، وهو عماد أفندي المتقدم الذكر آنفًا، فردوا الأمر إليه.

وأحضر خلعة عنده والرسل تسعى من الشريف سعد إليه إلى الضحوة، فاتفق الرأي أن يلبسوا الخلعة الشريف سعد، فأخذها من تحت ركبته شخص من أكابر عسكر مصر، يقال له: المسلماني، وذهب بها إلى الشريف سعد فلبسها في بيته من غير وعد.

قلت: وكان مجلس عماد أغا في المسجد في دكة عند باب رباط الداودية، وقد كنت إذ ذاك واقفًا أنظر، فبعد أن أخذت الخلعة قيل له: إن ابن الشريف زيد محمد يحيى هو المولى، وقد أخذ له والده أمرًا سلطانيًا بذلك، فقال لمن أخذ الخلعة: قولوا للشريف سعد: بشرط أنك قائم مقام، قائم مقام، هكذا سمع أذني، فبعد أن ذهبوا بها ومشوا قليلا دخل المسجد من باب بنى سهم المسمى بباب العمرة جماعة من الأشراف، منهم مولانا السيد محمد بن أحمد بن عبد الله، والسيد مبارك بن الفضل بن مسعود، وعبد الله بن أحمد، والسيد محمد بن أحمد بن حراز وغيره في نحو ثمانية عشرة أشخاص، فوقفوا على عماد ورأوا جماعة للأتراك ييدهم الخلعة قد قاربوا باب المسجد النافذ إلى بيت الشريف، فقال لهم عماد: نحن ألبسنا الشريف سعد بشرط أنه قائم مقام أخيه محمد يحيى؛ لأنه هو القائم بعد أبيه المرحوم زيد بأمر سلطاني فلم يردوا عليه خطابًا، ثم إنهم رجعوا من الباب الذي دخلوا منه، ثم إنني أحببت الإحاطة التامة بالخبر وذهبت إلى منزل مولانا السيد حمود، فإذا الخيول على الباب، وإذا المجلس والبركة غاصان بالسادة الأشراف، فلم أستقر في المجلس إلا والسيد حمود - رحمه الله - خارجًا من محل الحريم معتمًا عمامة زرقاء عليه صوف عودي، فخرج إلى البركة وجلس لحظة خفيفة، وقام عامدًا للنزول إلى مولاه المرحوم الشريف زيد وغسله، ومعاونة تجهيزه ودفنه، ومعه نحو ثلاثة أشخاص من بنى عمه لا أذكرهم الآن.

فلما كان في أثناء الدرج نازلا إذا السيد أحمد بن محمد الحارث لاقاه طالعًا، فمذ

رآه السيد حمود وقف وقال: لا قطع الله هذه الزائلة، وكان جواب السيد أحمد سمع أذنى قوله: إذا جاءتك الرجال كن زبرة فرجع معه، ثم جهز مولانا الشريف زيد وأخرج إلى المسجد الحرام بعد صلاة الظهر، وخرج معه اثنان من الأشراف. أحدهما: ولده السيد حسن بن زيد، والآخر: من أولاد عمه، وأما باقى العسكر والأتباع فلم يخرج منهم إلا التزر اليسير لاشتغالهم بما هم فيه، وطلعوا به إلى المعلاة، ودفن فى قبة المرحوم مولانا الشريف أبو طالب فى جانبه إلى جهة القبلة. وكان له مشهد عظيم، وخرج معه أهل مكة، وبكى عليه الصغير قبل الكبير، والحكم لله العلى الكبير.

وكان ذلك اليوم أعظم مصيبة على المسلمين. ولكن نرجع إلى قول رب العالمين ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

ومما قيل فى تاريخ وفاته قول أخينا الفاضل الأريب، الشيخ أحمد بن قاسم الخلى وهو تاريخ عظيم عجيب هو قوله: [من الخفيف]
مات كهفُ الورى ملكُ ملوكِ الـ أَرْضُ مَنْ لَمْ يَزَلْ مَدَى الدَّهْرِ مُحْسِنُ
فالمعانى قالت لنا أرخوه قد تَوَى فى الجنانِ زيدُ بنُ مُحْسِنِ
ولمولانا قاضى المسلمين بيلد الله الأمين الإمام العلامة القدوة الفهامة مولانا القاضى عبد المحسن ابن مولانا المرحوم الشيخ سالم القلعى مؤرخاً لوفاته قوله:
[من الكامل]

يا أهلَ مكَّةَ إنَّ سيدنا الذى مَلَكَ الحجازَ وكانَ فيه الأَرشُدُ
رَبُّ السَّماحَةِ والشَّجَاعَةِ والحيا والحلمِ وصفاه التَّقَى والسَّوَدُ
لَقِىَ الإلهَ فكانَ تاريخى له زيدُ بنِ مُحْسِنِ فى الجنانِ مَخْلُودُ
ومما قيل فيه قول الشيخ محمد بن حكيم الملك رحمه الله تعالى رائيًا أباه الشريف محسن ومادحا له: [من البسيط]

صَوادِحُ البانِ وهنا شجوهاً بادى فَمَنْ عَذِيرُ فَتَى فى فَتِّ أكبادِ
صَبٌّ إِذا غَنَّتِ الورقاءُ أَرْقه تذكيرُها نغماتِ الشادينِ الشادى
فباتَ يرفعُ من عينيه تحسبُه يزبرُجُ المدمعِ الوكافِ بالجادى

جافى المضاجع إلف السهد ساوره
 له إذا الليل واره نشيخ شج
 سمّاره حين يضمنيه توخّشه
 وجدّه وهمّ وأحزان وبرح جوى
 أضناه تفريق شمل ظلّ مجتمعاً
 فالعمر ما بين ضرّ ينقضى وضناً
 لا وضل سلمى وذات الخال يرقبه
 أشجى فؤادى واستوهى قوى جلدى
 عفت محاسنها الأيام فاندرست
 وعطّلتها الرزايا وهى حالية
 وعاث صرف الليالى فى معالمها
 دوارج المور مارت فى معاهدها
 وناعب البين نادى بالشتات بها
 وصوحت بالبلا أطلالها وخلّت
 أضحت قفازاً تجرّ الراسيات بها
 كأنها لم تكن يوماً لبيض مَهَا
 ولم تظّل مغانيها بغانية
 ولا عطا بينها ريم ولا طلق
 ولا تثنت بها لمياء ساحبة
 فارقتّها فكأنى لم أظّل بها
 أجنى قطوف فكاهات محاضرة
 هيفاء يزرى إذا ماست تمايلها
 بجانب الجيد يهوى القزط مرتعداً
 شقاتها بين حرّ الدر قد خزنت
 إذا نصت عن محياها النقاب صبا
 وإن تجلّت ففيما قد جلّته دجى

سُمّ الأسود أو أنياب أساد
 وجذوة فى حشاه ذات إيقاد
 فيشرئب إلى تأنيس عواد
 ولوعة تتلظى والأسى سادى
 وضنّ بالعود دهر خطبه عادى
 والدهر ما بين إبعاد وإبعاد
 ولا يؤمل من سعدى لإسعاد
 أقوى ملاعب بين النضب والوادى
 واستبدلت وحشة من أنسها البادى
 بساكنيها ووراد ورواد
 فما يجيب الصدى فيها سوى الصادى
 فغادرتها عفا الساحات والنادى
 فأهلها بين أغوار وأنجاد
 رحابها الفيح من هند ومن هادى
 ريح جنوب وشمل ذيلها الخادى
 مراتعاً قد خلّت فيهنّ من هادى
 تغنى إذا ما روى من بذرها رادى
 بها بدور دجى فى بُرج منطاد
 ذيل النعيم دلالاً بين أنداد
 فى ظلّ عيش يجلى عذر حساد
 طوراً وطوراً أناجى زينة الهادى
 بأملد من غصون البان مَيّاد
 مهواه حدّ سحيق فوق أكباد
 ذخيرة النخل ممزوجاً بها الجادى
 مستهتراً كلّ سجاد وعباد
 لنا به فى الدادى أيما هادى

وميضُ برقِ ثناياها إذا ابتسمت
 وناظرانِ لها يرتدُّ طرفُهُما
 وصبحُ غُرَّتِها في ليلٍ طُرَّتِها
 تلكَ الربوعُ التي كانت ملاعبها
 إلى مراتعِ غزلانِ الصريمِ بها
 بعدًا لدهرٍ رمانى بالفراقِ بها
 عمري لقد عظمَت تلكَ الفوادحُ من
 فقدٍ نسيَتُ وأنستني بوائقه
 مصارعُ لبنى الزهرا وأحمدُ قد
 لفقدِهِم وعلى المظلولِ من دمهم
 وشقَّ جيبَ الغمامِ البرقُ من حزين
 كانوا كعقدٍ لجيدِ المجدِ مذ فرطت
 وهو المليكُ الذي للملكِ كان حمى
 كانت لجيرانِ بيتِ الله دولتهُ
 وكان طودًا بدستِ الملكِ محتبياً
 ثوى بصنعاً فيا لله ما اشتملتُ
 فقد حويت به صنعاء من شرفِ
 فحبذا أنت يا صنعاء من بلدِ
 مصائبه كان رزءاً لا يوازئهُ
 وكان رأساً على الأشرافِ منذ هوى
 كهفُ المضافِ إذا ما أزمةٌ أزمَت
 كهفُ المضافِ إذا ما أمحلت سنةٌ
 كهفُ المضافِ إذا كَرَّ الجيادُ لدى
 كهفُ المضافِ متى ما يستباحُ حمى
 كهفُ المضافِ إذا الجلى به نزلت
 كهفُ المضافِ إذا حلُّ المغارمِ في

بعارضِ الدمعِ من مهجورها حادى
 مهما رنت عن قتيلٍ ما له وادى
 يومائى من وصلها أو هجرها العادى
 أختى عليها الذى أختى على عادِ
 يحنُّ قلبى المعنى ما شدا شادى
 ولا سقى كنفه الرائحُ الغادى
 خطوبه وتعدت حدَّ تعدادِ
 تلك التى دهدهت أصلاذ أطوادِ
 أذكرنَ فحا ومن أردى بها الهادى
 تبكى السماء بدمعِ رائحِ غادى
 عليهم لا على أبناءِ عبَّادِ
 من ذاك واسطةٌ أودى بتبادِ
 مذ ماس من بُردِه فى خيرِ أبرادِ
 مهادِ أمنٍ لسرحِ الخوفِ ذوادِ
 ولاقتناصِ المعالى أئى نهادِ
 عليه من مجده فى ضيقِ ألحادِ
 كما حوث صعدةً بالسيد الهادى
 ولا تغشى زياداً وكف رعادِ
 رزءٌ ومفتاح أرزاءٍ وأسبادِ
 تتابعوا إثرهُ عن شبه ميعادِ
 من خطبِ نائبةٍ للمتنِ هدادِ
 يضمنُ فى محلها الطائى بالزادِ
 حرَّ الجلاذِ أثارِ النقعِ بالوادى
 لفقدِ حامِ بوردِ الكَرِّ عوادِ
 ولم تجذ كاشفاً منها بمرصادِ
 نيلِ العلا أثقل الأعناق كالطادِ

كهف المضاف إذا نادى الصريخ ولم
 كهف المضاف إذا الدهر العسوف سطا
 بل لهف نفس ذوى الآمال قاطبة
 كانت بهم تزدهى فى السلم أندية
 على الأرائك أقمار تضىء ومن
 تشكو عداهم إذا شاكى^(١)
 إلى النحور وما تحوى الصدور وما
 جناجنا قلنا تحوى جأ جئوها
 بادوا فباد من الدنيا بأجمعها
 وقد ذوت زهرة الدنيا لفقدهم
 واجتث غرس الأمانى من فجيعتهم
 يا ضيف أقر بيت المكرمات فخذ
 يا قلب لا تأس من هول مصرعهم
 بمن غدا خلفا يا حبذا خلف
 بحائز إرثهم حاوى مفاخرهم
 وذاك زيد أدام الله دولته
 سما به النسب الوضاح حيث غدا
 لقد حوى من رفيات المكارم ما
 ليس قد نال ملكا فى شيبته
 أليس فى وهج الهيجا موافقه
 أليس أصبح بالتنعيم سابحه
 أليس نبث يوم الليث أن له
 أليس يوم العطا تحكى أنامله
 أليس قد راح فى تأسيس دولته
 دامت معاليه والنعمى يذال له

يجذ له مصرحا كالغيث للصادى
 بضيم جار لنيل العز معتاد
 عليهم خير مرتاد لمرتاد
 وفى الوعى كل قداد ومياد
 تحت الترائك آساد لمستاد
 شك القنا ما صفا من نسخ زراد
 وارته فى جئحها ظلمات جساد
 مما يقصد فيها كل قصاد
 من كان فكاك أصفاد بأصفاد
 وألبست بعدها أثواب إحدا
 وأنشد الدهر تقنيطا لرواد
 فى ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
 وعز نفسك فى بؤس وإنكاد
 فى الملك من خير آباء وأجداد
 عما حوى الألف من آحاد أعداد
 وزاده منه تأييدا بأعداد
 طريقه جامعا أشتات أتلاذ
 يكفى لمفخر أجداد وأحفاد
 ما ناله من سعى أعمار آماد
 مشكورة بين أعداء وأضداد
 لج المنايا ليحمى قل أجناد
 وثبات ليث يزجى ذود نقاد
 خلجان بحر بفيض التبر مداد
 من جده المصطفى رمز بإرشاد
 مصونها وهو ملحوظ بإسعاد

ما لآخ برق وما ناحَتْ على فَنَنْ صَوادُحُ البانِ وهنًا شجوها بادی
ومما قيل فيه - أيضًا - قول الإمام الفضل بن عبد الله الطبري الحسيني: [من
البسيط]

يا مئ حيا الحيا أحيا محياك هَلَّا بأعتاب عتبي فَاهَ لى فاكِ
مَنْ لى إلیك وقد أودى صدودك بى ولا تزالین طوعًا لى أَفَّاكِ
يا هذه لم أزل من بُغْدِهَا وَدُنُو السقم من بعدها موثوق أشراكِ
تیهى أطیلى التجنئ والجفاء وما أردتُ فاقضیه بى فالحسنُ ولاكِ
رفقا رويدا كانى بالعدولِ على تطاولِ الصدِّ فى ذا الصبِّ عزاكِ
إن لم يعز عزا عینى وَقَدْ حُظِرَتْ مرآكِ فلیهنِ قلبى وهو مرعاكِ
حسبى دليلاً على شوقى المبرحِ بى أنى لَكُنْتُ عدولى حينَ سَمَّاكِ
والجفنُ فى أرقِ والقلبُ فى حرقِ والعینُ فى غرقِ إنسانها باكى
يا مهجَّةَ الصبِّ غير الصبرِ ليس وَقَدْ حُتَّ بما قد لا قِيتَ عیناكِ
ويا عدولى لِمَ اكْفَفِ اضلل اهدِ تَرَفَّقْ لِحْ دَعِ أَوْجِبِ اطلاقى وإمساكى
ويا أسيرةَ حجليها أرى سَرَقًا لُبْسَ الحلِى وقد متعت مرآكِ
عطفًا على حالِ مَنْ لا يبتغى بدلاً وليسَ يشفيه مِنْ مشفيه إلَّاكِ
وأجملى الودَّ واخشى عدلَ ذى الشرفِ ال مؤيد العزِّ مولائى ومولاكِ
زيدُ بن محسنٍ سلطانُ الأنامِ إِمَّا مُ الحضرَتینِ أمانُ الخائفِ الباكى
كهفُ الضيوفِ وثَلَامُ الصُفوفِ وَمَتَّاحُ الصنوفِ وفاءِ دونَ تَشْكَاكِ
وباسلُ لو رأى شزرا على حنقِ للموتِ ما اخترم المَشْكُو والشاكى
ألقاسُ الجودِ فى سامِ وذى ضعةِ كواسم الجودِ فى نبتِ وأشواكِ
يلقى فيلقى بفضلٍ غير محتجبِ وشأو شانِ علا فى غَيْرِ إدراكِ
ونهبه لو رأى الضلالِ صورتها لأضَبَحُوا بينَ أخيارِ ونَسَّاكِ
يهتزُّ للعَفْوِ من حلمِ ولا طربِ ال مَثْمُولِ من شمسِ شماسِ وبتراكِ
مهذبُ رأيه والعزمُ ناصرهُ أغناه عَن أَرِ أعرابِ وأتراكِ
وذى سطا كم تشاكى بأسه شاكى فى الملتقى وتحامى بَطْشُهُ شاكى
ثَبَّتَ الجنانِ إذا كان الخميسُ وغا كأنه بين ظِلِّ الضالِّ والراكِ

كم أضحك السيِّف من باكٍ يجدُّه
 ومن يكن ذا خليلٍ غير صارمه
 وذى كعوبٍ له من طولٍ حامله
 مخاطب بلسانٍ ناطقٍ بعجا
 هو المليك الذى أسنى الممالك وال
 وطبق الأرض عدلاً والضواحي
 ونادت العُبر الخضراء لو عقلت
 وذكره أريج الأرجاء شاسعة
 يا نفس آمليه بُشراك بشراك
 أو رميت أجناد عذم أو نويت بما
 أورد أَمْسَكَ حالا أو مضى غد
 ويا سيادته من أن يطاولها
 ودولة فى حياة العمر غرثها
 ويا لياليه قد دامت بسؤديه
 ويا أيادى أيديه السنية لا
 لو كان فى عصره بعد النبوة مبه
 لو طُرزت باسمه الرايات ما حذرت
 وقالت العين لو ترنو إليه بها
 ولو تقدّم عهداً كان ممتدح ال
 فالحمد بعد له والحمد قبل لمن
 لا زال واقى من وإلى ولاذ به
 يابن الألى للعلا شادوا منيع حمى
 بالمجد سادوا وداسوا هام شائهم
 قد ذاد فى شرف البطحاء أنك فى
 مولى الجميل ومنجاة الدخيل ومنذ

والزخف ما بين [مفتاكٍ وفَتاكٍ]^(١)
 والعزم يوشك أن يفجا بأضراك
 طولٌ بمجتمع الجنين شكاك
 ثب المنايا بديها يا له حاكى
 أزمان من بعد إسناء وإحلاك
 فالضدان فى أمره المئكى والناكى
 غيظاً به ضرّتى أبعدت مرماك
 فطيب ريح الصبا من عرّفه الزاكى
 ولو قضيت بإذن الله أحياك
 أعياك محمله أغنى وأفناك
 بسعده كان ما تبغين يلقاك
 مثل وإياه حاشاه وحاشاك
 ما الدهر حتى انقضاء الدهر ينساك
 من أين للملك شرواه وشرواك
 ينفك حسنك مقرونًا بحسنك
 عوث لكان بلا دفع وإشراك
 أصحابها غلبا أو حطم دهاك
 سناه يا أرض عنى كان أغناك
 آيات فى طي منشورات إصكاك
 حبا الأنام سرّياً أصله الزاكى
 وقع الخطوب بعز منه فتاك
 يحجه كل كفاف وفكاك
 وسيف عزم لروح القرن سفاك
 جيرانها خير فعّال وتراك
 حاة الخذيل سرى بعين أملاك

(١) فى ط: فتاك وفعاك .

كَافِيَّةٌ بُسِطَتْ وَزَنَا وَقَافِيَّةٌ تَلَوُحٌ كَالدُّرِّ أَوْ يَاقُوتِ أَسْلَافٍ
يَقُولُ لَوْ خَالَهَا الْجَلِيُّ خَاطِرُهُ حَلَاكٌ يَا مَنْ صَنِيعَ الْفَضْلِ حَلَاكٍ
وَبَاغٌ قَبْرَاطُهُ الْبَرْهَانُ مَبْخَسًا يَزِيفُهُ فِي انْتِقَادِ كُلِّ حَكَاكٍ
وَقَالَ وَاسْمُكَ يَا ذَا الْعِزِّ وَاسْطَهَا لَطَلَعَةِ الْبَذْرِ أَنْ لَا بَذَرٌ إِلَّا
تَبَغَّى الْقَبُولَ وَقَدْ جَاءَتْ مَعَارِضُهُ أَمْثَالُ كَفَى وَفَكَّى قَيْدِ أَسْرَاكِ

ثم وليها الشريف سعد ابن الشريف زيد ابن الشريف محسن بن حسين بن حسن،
ولبس الخلعة، ونادى مناديه في البلاد، يسمعه الحاضر والباد، والناس حوله لهم
ضجيج كالرعد: البلاد بلاد الله، وبلاد السلطان، وبلاد الشريف سعد.
وانجلت البصائر والأبصار، ذهبت الحيرة، وربك يفعل ما يشاء ويختار، ما كان
لهم الخيرة.

وقد أرخ صاحبنا وعزيزنا الشيخ الأكرم الشيخ أحمد بن قاسم الخلی جلوسه فقال
وفيه لطف إدخال بديع: [من مخْلَع البسيط]

قَامَ بِأَمْرِ الْبِلَادِ سَعْدٌ أَيْدَ رَبِّ السَّمَاءِ مُلْكُهُ
بَغَايَةِ الْمَجْدِ أَرْخُوهُ قَدْ نِلْتُ بِالسَّيْفِ أَمْرَ مَكَّةَ
وَلَمَوْلَانَا الْمَرْحُومِ الْإِمَامِ فَضْلِ ابْنِ الْإِمَامِ عَبْدِ اللَّهِ الطَّبْرِيِّ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ: [من

مخلع البسيط]

قَالُوا لَنَا الْيَوْمَ مَاتَ زَيْدٌ وَالنَّاسُ تَخْشَى وَقُوعَ عَرْكَه
وَالْقَوْمُ يَسْأَلُونَ هَذَا قَالَ لَذَا مَنْ يَرُومُ مُلْكَهُ
فَقُلْتُ وَالْقِيلُ قَدْ تَنَاهَى وَالْخَلْقُ فِي ضَجَّةٍ وَرَبْكُهُ
بَيْتًا صَحِيحًا لَهُمْ جَوَابًا مُؤَرِّخًا فِيهِ رُمْتُ سَبْكُهُ
يَبَايَعُوهُ يَمْلِكُوهُ سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ شَرِيفُ مَكَّةَ

ولأخيْنَا الْمَرْحُومِ الْقَاضِي أَحْمَدُ ابْنِ الْقَاضِي مُرْشِدِ الدِّينِ الْعَمْرِي الْحَنْفِي قَوْلُهُ

مُؤَرِّخًا: [من مجزوء الكامل]

شَمْسُ الْخِلَافَةِ أَشْرَقَتْ وَبَدَا مِنْيرًا سَغْدُهَا
مَذْ حَازَهَا الشَّرَفُ الَّذِي بِعُلَاهُ زُيْنٌ عَقْدُهَا
سَعْدُ الَّذِي تَارِيخُهُ خَيْرُ الْمُلُوكِ سَعِيدُهَا

وكان مع الشريف زيد مملوكان أحدهما تركي الجنس اسمه ذو الفقار، والآخر

حبشى اسمه بلال .

أما الأول: فكان عند مولانا الشريف من زمان حتى كبر وصار شيخاً للعسكر اللهم، فقام عليهم أحسن قيام .

وكان ذا هيبة ورأى سديد، صاحب قوة وبأس شديد، فدعاه مولانا الشريف فى بعض الساعات إليه، وأوصاه على بنيه وعولته - رحمة الله عليه - .

فلما انتقل الشريف إلى دار الآخرة، امثل مولاه أوامره، وقام على قدميه وشمر، وكشف عن ساعديه وشد المثزر، ورتب العساكر فى المدارس^(١) بلصق المسجد الحرام المعمور، ووزعهم على المناثر والدور، ووضع المدافع على رؤوس المنافذ والطرق، وضبط قانون الحراية من سائر الجهات، هذا ومولانا السيد حمود لم يبرح من بيته مع بنى عمه وشيعته، ونار الفتنة قائمة أشد قيام، قلنا: يا نار كونى برداً وسلام .

ثم بعد ذلك جلس مولانا الشريف سعد للتهتة والسرور، وتأطد له الملك بفأل اسمه والحبور، ودعا مشايخ العرب وأهل الدرك وألزم كلا بجهته، ولم يقع ولله الحمد بمكة المشرفة شىء من النهب أو القتل أو الخوف ﴿ فليَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش: ٣، ٤] ومن لطف الله - سبحانه - أن كان انتقال مولانا الشريف زيد - رحمه الله تعالى - بعد انقضاء الحج وتوجه كل إلى بلده .

وكان بمكة المشرفة يومئذ بعض تجار من حجاج الشام تخلفوا عن أميرهم، وقد جرت العادة بذلك أنهم يقيمون مدة لقضاء حوائجهم بعده، ثم يتوجهون ويجمعون به فى المدينة المنورة، فلما أرادوا السفر طلبوا من مولانا الشريف سعد - حفظه الله تعالى - أن يأمر من يوصلهم المدينة خوفاً على أنفسهم وأموالهم، فأجابهم إلى ذلك - كان الله له -، وأرسل معهم السيد فارس ابن المرحوم بركات بن حسن، ومعهم جمع من العسكر، فأوصلوهم المدينة الشريفة سالمين، ولله الحمد والمنة . ثم أمر حاكم الطائف، وكان بمكة جمع من أهل الطائف من الحجاج قد أحصروا عن أولادهم وأموالهم، ولم يمكنهم التوجه شفقة، فجهز جماعة من العسكر صحبة

(١) يياض بالمخطوط .

الحاكم المذكور، فساروا بهم من ليلهم، فوصلوا إلى الطائف من طريق يعرج، ونادى مناديه فى البلاد من ساعته.

ولما وصل الخبر بوفاة الشريف زيد - رحمه الله تعالى - إلى الطائف قبل وصول الحاكم اضطربت البلاد اضطراباً شديداً، وعزل السوق وكل أغلق بابه ونزع ثيابه، ودفن أسبابه، إلى أن وصل الحاكم، فاطمأنت حيثئذ الخواطر من البوادي والحواضر، وكان إذ ذاك مولانا السيد زين العابدين بن عبد الله بن حسن بالطائف وأولاده وأتباعه، فلما وصل هذا الخبر ركبوا الجياد، وداروا البلاد، ونادوا بالأمان، فخدمت بذلك داعية البغى والطغيان، وطمنوا الناس، وأمروهم بالرجوع إلى السوق، وبسط الدكاكين ففعلوا وامتلأوا، وحمدوا ربهم وشكروا، وكان وصول الحاكم آخر ذلك النهار. ولما كان يوم الرابع من انتقال مولانا الشريف وهو يوم الجمعة أراد الخطيب أن يخطب فوقف عن الخطبة لسبب من الأسباب، يدرىه أولو الألباب، فصلى الناس الظهر.

وأما مكة فخطب الخطيب بها، ودعا للشريف سعد بالنصر والتأييد، والناس فى عيش رغيد. وفى هذا الوقت وقع طراد فى جهة المشاة قريباً من وادى وج بين قبيلتين: قريش والحمدة من ثقيف واستمر إلى وقت العصر، وحصل بينهما بعض جراحات، وكان بمكة المشرفة يومئذ جماعة من الأعراب أهل خيل وركاب لما بلغهم موت الشريف زيد رحمه الله انطلقوا على رءوسهم إلى البلاد، وكل من وجدوه فى طريقهم أخذوه بالظلم والعناد، وأكثروا فى الأرض الفساد، إن ربك بالمرصاد، وما كان من طريق الحجاز فوقف فيها الخوف والنهب، والقتل والضرب، وكل من ظفر بصاحبه أخذه، وأهل القرى ترفعوا عن الطرقات، واجتمعوا فى بعض الجهات خوفاً على أنفسهم وأموالهم.

وفى اليوم الثالث من موت مولانا الشريف - سامحه الله تعالى - وهو يوم الخميس - : وقع اضطراب كبير من بعد الظهر إلى بعد العصر بين مولانا الشريف سعد، ومولانا السيد حمود، وكل منهما جمع جيوشه، وتحصنوا فى البيوت والمنائر، وركبوا جماعة السيد حمود فى الضلع الذى خلف بيته والجبل المعروف بجبل عمر، وتراموا بالرصاص من بعد، ولم تحصل مواجهة، ثم إنهم استمر بهم الحال وكل يوم يصبحون فى قيل وقال، وكل من الشريفين واثب على قدميه كسيع

الصيال، سبحانه الله يؤتى الملك من يشاء وهو الكبير المتعال.

فلما كان اليوم الثالث عشر من يوم الوفاة: وقع الاتفاق بين مولانا الشريف سعد ومولانا السيد حمود على قدر معلوم من المعلوم وعينت جهاته، وكان يومًا عظيمًا عندنا أيها الناس، وحصل بذلك الأمن وارتفع البأس وأمر مولانا الشريف بالزينة ثلاثة أيام، وظهر السرور وزالت الحزون، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون.

وكتب محضر من الشريف سعد عليه خطوط الأعيان من الأفندى وشيخ الحرم والمفتى وأعيان البلاد على مراتبهم وعساكر مصر كذلك، وذهب به بلال أغا إلى مصر المحروسة، فأوصله باشا مصر ومعه مكتوب آخر من عبده إلى الأبواب العلية، فلما وصل فتح وقرئ في ساعة مباركة طالعها سعد السعود، ثم أمر برد الجواب على ما يسر الخواطر والألباب، ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]، ولذلك كتب مولانا السيد حمود محضرًا ليس عليه إلا خطوط السادة الأشراف، فأرسله صحبة رجل مصرى يسمى الشيخ عيسى، فقدر الله أنه مات عقب دخوله مصر بيومين، فوجدوا العرض فى تركته، ولم يصل مقصده.

وكذلك كتب عرضا مولانا السيد محمد يحيى بن زيد من المدينة الشريفة وكان بها، ووضع أعيان المدينة خطوطهم عليه، والتزم بأربعين ألف دينار للوزير الأعظم. قلت: قد كان أخرج مولانا الشريف لولده السيد محمد يحيى أمرًا سلطانيًا بولاية مكة فلم يتمكن من إنفاذه خشية ما يترتب على ذلك من المفاصد، وعدم الرضا من بقية أولاده وبنى عمه، وكان فى كل سنة - غالبًا - لم يحج معه إلا اثنان من أولاده هما حسن ومحمد يحيى، وكان السيد محمد يحيى بالمدينة فطلبه للحج فى ذلك العام وهو عام ست وسبعين، فامتنع لأمر يريده الله، فقال مولانا الشريف زيد عند امتناعه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدَى مَنْ أَخْبَيْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

وكان الشريف سعد ابتعد نحو الشرق فجاء وتقرب من والده، وحج معه ذلك العام وكان من أمره ما كان، والكل فعل الله سبحانه.

وأنشد لسان الحال عن الشريف سعد فيما قصد وأم: [من الكامل]

وإذا السعادة لاحظت عيونها نم

واستمر الناس منتظرين لورود الخبر السلطاني والتشريف الخاقاني نحو ستة

أشهر، وفي كل شهر يأتي الميشر من مصر المحروسة بتمام الأمر لمولانا الشريف سعد ويلبس خلعة البشارة، وفي ذلك إشارة لأهل الإشارة.

ولما كان يوم الخميس خامس عشر جمادى الآخرة، حصل بين بعض العسكر والعبيد شتآن بالمعلاة، فتراموا بالحجارة وسلت السيوف، ولم يقع بينهم قتال، وكان هناك بعض أولاد الشريف - حفظهم الله تعالى - فقاموا بينهم وأصلحوا القضية.

ثم دخل علينا شهر رجب الأصم، فلما كان يوم الجمعة رابع الشهر عند الغروب حصل بين مولانا الشريف سعد، وبين جماعة السيد حمود شتآن كبير، وصاح الصائح في العسكر، فاجتمعوا وكل واحد منهما جمع جموعه، وتزبروا وتحصنوا في البيوت والجبال، وتراموا بالبندق ليلتين بيوميهما على الشاخص والخيال، ولم يفقد من كل طائفة إلا رجل أو رجلان، ومات من الرعية شخصان خطأ من غير قصد، وكل ذلك مع فراغ الآجال.

فلما كان وقت الضحى وقع الصلح بينهم، ونادى المنادى بالأمان، فأمنت الناس واستبشروا وحمدوا ربهم وشكروا.

ثم إنه استمر الحال هكذا إلى اليوم الثانى والعشرين من الشهر المذكور، فجاءت البشرى بالتحقيق بأن الأمر قد برز لمولانا الشريف سعد، فلما كان صبح يوم الجمعة سادس عشرى رجب المذكور، دخل رسول مولانا السلطان محمد خان - نصره الله وأيد به الإسلام - إلى مكة المشرفة حرسها الله تعالى بالبيت الحرام فى موكب عظيم، ومعه خلعة نفيسة من مولانا السلطان ومصلاه الذى يصلى عليه ومكتوبان معه من هنالك بأن الأمر له من غير شريك ولا منازع فى ذلك، فدخلوا بها من باب السلام إلى المسجد الحرام، فلبسها فى الحضرة الشريفة تجاه بيت الله والمقام بحضرة السادة الكرام والعلماء الأعلام، وجيوش الإسلام، ما بين خاص وعام.

ثم قرئ المرسوم السلطانى، وفيه غاية التعظيم والإجلال، ونشر محاسن لمولانا الشريف سعد أعزه الله بجاه جده الأمين، والوصية على الرعية والقيام بمصالحهم.

وأمان الزوار والحجاج والمعتمرين، وهو مفند مستبين محرر، مؤيد بنص ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ١، ٢] ومع ذلك كان

لفظه عذبا وجيزا، مبشرا بنص ﴿وَيَتَذَكَّرُ عَلَيْكَ وَهَدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٢، ٣]. ثم إنه توجه إلى البيت الشريف، ووقف بالباب والتزم بالملتزم والأعتاب، وذهب إلى دار السعادة وجلس للتهتة مسرورا، وكان ذلك في الكتاب مسطورا.

ونودي بالزينة سبع ليال، بعد أن كان الناس في حالة مخوفة في ذلك اليوم، فاطمأن البال، وكفى الله المؤمنين القتال.

ولما لبس الخلعة واستقر له الأمر وسرى عنه ما كان يجده من الكيد والقهر، وبذل الله العسر باليسر، وأيده بالنصر، مدحه الفضلاء بقصائد مجيدة، وأشعار بأمطار سماء الأفكار مجيدة.

وكنت ممن تشرف بالانتظام في سلك نظامهم النصير عوده، اللامع في أفق المعالي مزايا ممدوحهم وسعوده، فقلت من بحر الطويل من العروض المقبوضة والضرب التام والقافية من المتواتر قولي^(١): [من الطويل]

سَقَى الْغَيْثُ ذِيَاكَ الْأَيْبَرِقَ وَالسَّقْطَا	فَأْتَبَتْ فِي أَرْجَائِهِ الرُّنْدَ وَالْأَرْطَا
وَحَيَّا رُبَا تِلْكَ الْمَعَاهِدِ فَاكْتَسَتْ	رِيَاضُ لَهَا مِنْ نَسِجِ إِبْرَتِهِ بَسْطَا
مَعَاهِدُ لَمِيَاءِ الْبَدِيدِ تَعَطَّرَتْ	وَمَائِثُ مِثَاهَا بِمَا تَسَحَّبُ الْمِرْطَا
لَهَا بَشَرٌ كَالْمَاءِ إِذْ قَلْبُهَا صَفَا	وَنَاطَرُهَا كَالسِّيفِ لَكِنَّهُ أَسْطَى
إِذَا مَا دَجَا لَيْلٌ حَكَى لَيْلَ جَوْرَهَا	وَإِنْ لَاحَ نَجْمُ الْأَفْقِ سَمْنَا بِهِ الْقَرْطَا
رِدَاخٌ إِذَا لَاحَتْ فَكَالشَّمْسِ أَوْ رَنَتْ	فَكَالْظُّنْبِيِّ أَوْ مَاسَتْ تَرَى الْحُلَّ وَالرُّنْطَا
أَرَأَيْتَ لِأَحْشَائِي رَوَاشِقَ مُقْلَةٍ	تَرَى نَبْلَهَا يُضْمِي الْفَوَادَ إِذَا أَخْطَا
هِيَ السُّخْرُ إِلَّا أَنَّهُ سَرَّ خَالِقِ	عَلَيْهِ يَصِيرُ الْحَبْرُ مِنْ رَقِّهَا أَوْطَا
لَهَا سَلَكُ دُرٍّ ضَمَنْ خَاتِمِ عَسْجِدِ	طَلَى لَعَسَا يَا حَسَنَ خْتَمِ حَوَى سِمْطَا
وَجِيدٌ أَعَارَ الرِّيمِ حَسَنَ التَّفَاتِيهِ	فَلَا صَيْدَ فِيهِ [لَا] تَرَاهُ وَلَا لَغْطَا
وَمَهْضُمٌ كَشَحٍ مَخْمَصِ الْغُورِ رَقَّةٌ	لَهُ جَسَدِي مِنْ بَعْضِ أَسْقَامِهِ أَعْطَى
كَمَا قَدْ أَنْالَ الْجَنْسُ فِتْرَةَ جَفْنِهَا	نَحُولًا فَكَافَاهَا عَلَى وَفْقِهِ الْمَعْطَى
رَهِينَةٌ خَذِرٍ يَكْسِبُ الْحُلَى حُسْنَهَا	جَمَالًا وَلَوْلَا ذَاكَ لِلشَّيْنِ مَا غَطَّى

(١) القصيدة في نفحة الريحانة وفيها اختلاف في بعض الألفاظ (٤/١٢٤).

كَأَنَّ قَدْ بَرَاها الله حَسَنًا كَمَا تَشَا
سَقَاها ومرباها سُحُوحٌ مِّنَ الحَيَا
فِي شَوْقٍ أَحْشَائِي لِلْحِظَّةِ لَحْظُهَا
بَلَى قَدْ نَأَتْ عَنِي وَلَا بَيْنَ بَيْنِنَا
كَذَلِكَ أَخْلَاقُ الْغَوَانِي وَمَنْ يَرْمِ
وَمَنْ لَمْ يَذُذْ ذَوْذَ التَّصَابِي وَسِرْبِهِ
وَيَمْسِي صَرِيحَ الْعَيْنِ لَا نَاصِرَ لَهُ
نَعَمْ لَوْ نَحَا فِي كُلِّ أَمْرٍ يَتَوَدُّهُ
مَلِيكَ لَهُ مِنْ طِينَةِ الْمَجْدِ جَوْهَرُ
شَرِيفِ الْعِلَا وَالذَّاتِ وَالْوَضْعِ مَتَمَّ
مَلِيكَ رَقَا فِي قَنَةِ الْمَجْدِ رَتَبَةً
شَرِيفًا أُتِيحَتْ فِيهِ أَسْرَارُ وَالِدِ
مَلِيكَ بِلَادِ اللهِ سَعْدِ الْعِلَا وَمَنْ
طَوِيلُ الْبِنَا رَحْبُ الْقَنَا مِنْهَلُ الْغَنَا
عَرِيضُ الْجَدَا غَوْثُ النَّدَا مَوْرَدُ النَّدَا
فِيَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ وَابْنَ وَصِيِّهِ
لَقَدْ حَطَّتْ أَكْنَافُ الْخِلَافَةِ عِزْمَةً
وَأَيْدَتْهَا بِالْحِزْمِ وَالرَّأْيِ حِينْتِذُ
فَأَنْسَيْنَا حِزْنَآ وَلَمْ نَنْسَ مِنْ مَضَى
أَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ تَحُلَّ مُحَلُّهُ
فَوَاقَاكَ بِالتَّأْيِيدِ مَا كَانَ كَامِنَا
فَمَا خَطَّ تَقْلِيدًا عَلَى الطَّرْسِ كَاتِبُ
إِذَا أْبْرَمْتَ فِي سَابِقِ الْعِلْمِ لَامِرِي
وَلَكُنِّي أَرْجُو مِنَ اللهِ جَمْعَهُمْ
فَطَا فِي الْعِلَا فَالْسَعْدُ وَطَا لِاسْمِهِ
إِلَيْكَ ابْنَ خَيْرِ النَّاسِ عِذْرَاءُ مَدْحَةٍ

فِيَا طَوْلَ ذَاكَ الْحَسَنِ فِي الْقَامَةِ الْوَشْطَى
وَرَوَى عَلَى أَكْنَافِهَا الْأَثْلَ وَالْخُمْطَا
وَإِنِّي بِهَا إِذْ قَدْ نَأَتْ دَارَهَا شَحْطَا
وَبُدِّلْتُ مِنْ عَيْنِ الرِّضَا بِالْجَفَا سَخْطَا
بِهِنَّ الْوَفَا كَالْمَبْتَغَى فِي الْأَضَا قَرْطَا
قَصَارَاهُ فِيهِ أَنْ يَذُلَّ وَيَنْحَطَّا
سَوَى عِبْرَةٍ يَزُورِي تَفْجُرُهَا سَطَا
مَلِيكَ الْوَرَى سَعْدِ بْنِ زَيْدٍ لَمَّا شَطَا
بِهِ اِزْدَانَتْ الدُّنْيَا وَقَدَّمَا هِيَ الشَّمْطَا
إِلَى خَيْرِ أَصْلٍ طَابَ فِي قَنْسِهِ رِبْطَا
تَجَلُّ سِوَاهَا أَنْ يَقَاسَ بِهَا هَبْطَا
هُوَ الْقَطْبُ لَا رَبِّيًا بِذَاكَ وَلَا غَمْطَا
يَشَابُهُ أَبَاهُ فِي عِلَاةٍ فَمَا أَخْطَا
مَزِيلُ الْعَنَا مَوْلَى الْمَنَا بِاللُّهَا سَفْطَا
حَمَامُ الْعِدَى مَرْدِي الرَّدَا لِلْهَدَى فَرْطَا
وَدَرَّةٌ عَقْدِي أَنْتَ أَنْتَ لَهُ وَسْطَا
وَقَمْتُ بِهَا حَفْظًا وَشَيْدَتَهَا ضَبْطَا
ثَبَّتْ جَنَانَا لَا فِزْوَعًا وَلَا قَنْطَا
تَغَشَّتْ شَايِبُ الرِّضَا رُمْسُهُ هَمْطَا
بِمَرْتَبَةٍ عِزَتْ لَغَيْرِكَ أَنْ تَمْطَى
مِنْ الْأَزَلِ الْعُلُويِّ يَنْتَظُرُ الشَّرْطَا
وَلَكِنْ قَضَاءُ اللهِ مِنْ قَبْلِهِ خَطَا
عِنَايَتُهُ اسْتَغْنَى الْعَشِيرَةَ وَالرَّهْطَا
عَلَى خَيْرِ حَالٍ مَا رَجَاهُ بِمُسْتَبْطَا
أَشَارَ لَذَا بِخَرْ الطَّوِيلِ رَوَى الطَّا
عَذَّتْهَا الْقَوَافِي لَا سِنَادٌ وَلَا إِيطَا

أَتَاكَ بِهَا فَكِرَى الْكَلِيلُ وَمَهْرُهَا قَبُولُكَهَا مِنِّي وَحَسْبِي بِهِ إِغْطَا
 سَأْمَلًا دِيَوَانِي بِمَدْحِكَ مَدْحَةً لَشَعْرِي كَنَى يَسْتَوْجِبُ الْحَمْدَ وَالْغَبْطَا
 فَذُمُ وَابِقٌ وَاسْلَمَ لَا بَرَحَتْ مُؤِيدَا عَلَى الْعَزِّ مَهْمَا أَنْ تَحَاوِلَهُ تَعْطَى
 وَلَا زِلْتُ مُحْفُوظَ الْجَنَابِ عَزِيزَةً رَعَايَاكَ لَا تَخْشَى اهْتِضَامًا وَلَا قَنْطَا
 مَدَى الدَّهْرِ مَا طَابَ الْقَرِيبُ بِمَدْحِكُمْ فَأَخْجَلَ مَسْكَ الْخَتَمِ وَالنَّدَّ وَالْقُسْطَا

ولما تم أمر الصلح بين الشريف سعد، وبين السيد حمود، واستقرت البلاد وأهلها لأن استقرارهم باستقراره، وتعبهم بتعبه وهو معهم كالرأس مع الجسد، وكالمضغة وهي القلب كما ورد. جاءه مولانا السيد حمود - رحمه الله تعالى - إلى بيته موافقاً له فيما يحبه ويهواه هو وأتباعه يهنونه ويباركون له فيما منحه الله وأعطاه، وصار يتردد إليه بكرة وعشية مظهرًا له الود والصدقة مليئًا له القول من غير تعب ولا حماقة، وكان في هذه المدة يطلبه ما كان وزيادة، ولم يخالفه مولانا الشريف في قول ولا فعل بل يجيبه إلى ما أرادته أدام الله نعمه عليه وإمداده بحيث أن الرعية نسبت هذه الموافقة منه إلى أثر عمل من الأعمال من الحركات والسكنات، لكن إنما الأعمال بالنيات.

وفي هذه المدة كان بمكة المشرفة غلاء في الطعام كالحب ونحوه في شعبان ورمضان وشوال واشتد في آخر الوقت وعدم من الأسواق، ووصلت الكيلة الحب إلى خمسة عشر محلقًا والرز كذلك، وفي أول ذى القعدة حصل الفرج بدخول المراكب المصرية، وزال التعب عن المسلمين ببركة قدوم الحجاج الوافدين.

ثم إنه حصل تنافر بين مولانا الشريف سعد، والسيد حمود من جهة عدم الوفاء بالمعلوم الذي له مع ما في خاطره من التعب، فدعته الأنفة إلى الخروج لهذا السبب، فبرز يوم الأربعاء ثامن ذى القعدة الحرام من سنة سبع وسبعين وألف، وأقام بالزاهر مدة، وهو من الغيظ في أعظم شدة، فبرزت إليه لموادعته، واستغرقت اليوم أجمع في محادثته، فكان من جملة كلامه جوابًا لقولي: لعل مولانا - حفظه الله - يتداركه الله بسعة فيها حصول المنا، فيكفيكم الله بسببها تعب الجلا والعنا: ما أرى إلا أن بيت الشريف قتادة المستشهد به في سابق الزمان، قد قارب مصداقه في هذا الأوان، يشير إلى قوله: [من الطويل]

مصارع آل المصطفى عُدَّتْ مِثْلَ مَا بَدَأَتْ وَلَكِنْ صِرَتْ بَيْنَ الْأَقَارِبِ

فقلت: الله يقدر بخير، ويكفيكم كل ضيم وضير.

ولم تزل الرسل بينهما تسعى فى حسم مادة الشقاق، ولم يتفق الحال إلا على عدم الاتفاق. فتوجه إلى وادى « مر » وأقام بمن معه من السادة الأشراف والأتباع والعبيد، وسبورهم تصل إلى مكة أسفلها وأعلاها يدلجون بالليل إذا يغشى، ويصلون الشمس وضحاها، وأخذوا فرساً من مربطها لبعض خدام الشريف أسفل البلد، وذهبوا ولم يذهب إليهم أحد، كل ذلك استحثاث منهم للخروج إلى البراز والمنازلة، والظهور عن العمران التى لا تطول فيها تلاوة سورة المجادلة، والشريف سعد - حفظه الله - لم يستخفه الطيش، ولم ينفذ إليهم خاء خيل ولا جيم جيش. وأقبل جماعة من الشام، ومن مدينة الرسول - عليه الصلاة والسلام -، فصددهم الخوف عن الدخول لما هم قاصدون إليه، ومكثوا أياماً بقرية من القرى، وحصل لهم من التعب ما لا مزيد عليه، حتى وصل إليهم الحاج المصرى فدخلوا معه مكة المشرفة. ولم يزل الشريف سعد - متع الله بحياته - ولسان حاله يتلو فى المبدأ والمعاد ﴿ وَأَفْوُضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤].

وأما مولانا السيد حمود - رحمه الله - : فإنه لما كان يوم السبت رابع ذى الحجة الحرام من السنة المذكورة قدم على الحاج المصرى، والأمير عليه أذك بك، فركب إليه هو ومن معه من السادة الأشراف والأتباع والعبيد، فعقدت الأشراف من أنفسها طوقاً على وطاق الأمير وعسكره، ولم يدخل إليه إلا ثلاثة أشخاص: مولانا السيد حمود، ومولانا السيد أحمد الحارث، ومولانا السيد بشير بن سليمان، فأنهوا إليه حالهم وعدم الوفاء من الشريف سعد فيما التزم لهم من معاليمهم ومجانيتهم، وأنها أيها الأمير لا ندع أحداً يحج إلا إن أخذنا ما هو لنا وكان قدره مائة ألف أشرفى، فالتزم للسيد حمود أن ينقده الشريف قبل الصعود خمسين ألفاً منها.

فقبل مولانا السيد حمود التزامه، وخلى سبيله ومن معه.

فلما دخل الأمير مكة يوم خامس ذى الحجة الحرام، خرج إليه الشريف سعد إلى المختل فلبس الخلعة المعتادة على العادة، ثم كلمه الأمير فيما التزمه للسيد حمود، ومن معه فصّدق التزامه، وأسلم خادم مولانا السيد حمود الخمسين الألف قبل الصعود من السيد إبراهيم بن محمد بإحالة من مولانا الشريف - حفظه الله تعالى - .

ثم لما دخل أمير الشامي في سابع ذى الحجة: توجه مولانا الشريف إليه كذلك، ولبس الخلعة المعتادة على العادة.

ثم في اليوم الثامن توجه إلى عرفة، وفي الثاني من أيام منى لبس الخلعة المعتادة، وفي اليوم الثالث نفر الناس إلى مكة المشرفة، وهم آمنون مستبشرون، وأما أهل مكة ومن حولهم من القرى، فلم يحج منهم في هذا العام إلا القليل؛ وكذلك الأعراب لما وقع بهم من التعب والكدر، والخوف والضرر، كل شيء بقضاء وقدر.

ثم لما كان يوم الاثنين عشرين ذى الحجة الحرام وصل مكة مولانا السيد حمود، ومعه السيد عبد المعين بن ناصر بن عبد المنعم بن حسن، والسيد محمد بن أحمد ابن عبد الله بن حسن، والسيد بشير بن سليمان بن موسى بن بركات بن أبي ندى، والسيد مبارك ونافع ابنا السيد ناصر بن عبد المنعم في نحو تسعة أشخاص، ومن العبيد نحو خمسة وستين عبدًا، وما ذاك إلا لأن أمير الحاج، وكبار العساكر قصدوا الصلح بينه وبين مولانا الشريف، وتردد الرسل بينهم وبينه يطلبونه لذلك، وألزموه بمحاضر من جماعة الأفندي الأعظم وصلوا إليه إلى وادي مر، فجاء وحضر عند مولانا الأفندي، وحضر الأمراء ووجوه أركان الدولة، وعماد أغا وأكابر العساكر، فأرسل مولانا الشريف سعد بلال أغا وكيلا عنه في الخصومة والدعوى، فاجتاز مولانا السيد حمود من ذلك، وأراد الفتك به في ذلك المجلس، فذهب مسرعًا فرعًا، فأرسل الشريف أخاه السيد محمد يحيى وكيلاً عنه، وتطالباً على يد الحاكم الشرعى، وطال المجلس، ولم يقع بينهما اتفاق، ثم ادعى عليه بما أخذ من طريق جدة من الأموال، فلم يثبت عليه وجه شرعى في ذلك، وطلب مولانا السيد حمود أن يتوجه إلى الديار المصرية، ويرفع أمره إلى الحضرة السلطانية فأذنوا له، واتفق الحال على ذلك.

ثم إنه لما توجه الحج الشامي وسائر الحجاج توجه معهم حتى وصل إلى بدر فتخلف عنهم وأقام فيها مدة.

ولما دخلت سنة ثمان وسبعين وألف، توجه مولانا السيد حمود من بدر إلى ينبع في شهر صفر منها، وأرسل ولده السيد المرحوم أبا القاسم بن حمود، وأرسل

مولانا السيد أحمد بن الحارث ولده السيد محمد بن أحمد، ومعهما السيد غالب بن زامل بن عبد الله بن حسن وجماعة من ذوى عنقاء السيد بشير، ومحمد وظافر بنى واضح، والسيد محمد بن عنقاء وولده، وأرسل معهما قودًا هدية إلى باشا مصر المسمى عمر باشا نحو ستة أفراس منهن البغيلة والهدبا والكحيلة، فساروا إلى أن بلغوا الحوراء المنزلة المعروفة، فلاقاهم قاصد من إبراهيم باشا المتولى بعد صرف عمر باشا بمكاتيب متضمنة للأمر بالإصلاح، والاتفاق على نهج النجاح، فرجع السيد غالب بن زامل صحبة القاصد إلى مكة لينظر ما يتم عليه الحال، فتقطع مادة القيل والقال، وتسقط كلفة الارتحال.

فأقام القود ومن معه بالحوراء نحوًا من خمسة عشر يومًا ينتظرون الفرج بعد الشدة، فلم يصل إليهم خبر بعد هذه المدة، فلما لم يصلهم خبر ساروا إلى مصر فدخلوها ليلة عيد المولد، وقدموا مكاتيبهم والقود لإبراهيم باشا، فأكرمهم وأعظمهم وأضافهم واحترمهم، فاستمر الحال كذلك إلى شهر جمادى الآخرة، ولم يرجع ذلك القاصد من مكة إلى مصر، فأشيع بها أن السادة الأشراف قتلوه، فحصل الهرج والمرج، وجاءت الأكاذيب فوجًا بعد فوج، فأشار بعض الأشقياء على الباشا بإمساك السيدين أبا القاسم ومحمدا، فأمر بنقلهم من محلهم الأول وهو قايتبای إلى بيت يوسف بك.

وقد كان وصل السيد محمد يحيى إلى مكة أواخر سنة سبع وسبعين، وتقدم أنه هو الذى كان وكيلًا عن أخيه الشريف سعد فى الدعوى على السيد حمود لما حضر بمجلس أفندى الشرع فى موسم السنة المذكورة، فاستمر معه إلى عقب ذهاب الحج، ثم طلب من أخيه الشريف سعد أن يجعل له ربيع محصول البلاد وينادى له به، فامتنع الشريف من ذلك، فغضب وبرز من مكة متوجهًا إلى السيد حمود وأقام بالزاهر مدة، ثم إن هذا الخبر بلغ مولانا السيد أحمد بن زيد وكان بالشرق، فجاء مسرعًا ولحقه قبل أن يتوجه وأرضاه بجملة من المال، فلم يرض إلا بالمشاركة بالربيع وبالنداء فى الحال، وتوجه ولحق بالسيد حمود واتفق معه، ولما لم يحصل اتفاق بين مولانا الشريف سعد، وبين مولانا السيد حمود بعد وصول القاصد للإصلاح، أرسل مولانا الشريف سعد إلى الديار المصرية، وإلى مولانا السلطان ذا

خبرة بما جرى وما كان .

وكذلك أرسل مولانا السيد حمود - رحمه الله تعالى - وعرف وأقام كل منهما يعلل ويعتسى ويتشوف .

وبرز مولانا الشريف سعد إلى الزاهر في موكب عظيم ، وأقام ينتظر فرج المولى الكريم .

وكان بروزه يوم عشرين من ربيع الأول من سنة ثمان وسبعين .

وفيها -أعنى سنة ثمان وسبعين- ظفر بالبلد المعروفة بالقنفذة برجل يتعاطى السكة خفية وهو ممن يتسمى بالقضاء ، فيسمى القاضي عبد الواحد ، فضرب ضرباً مبرحاً وحلقت لحيته وأتى به مكة مكتوفاً مجرحاً ، ثم أطلق فذهب إلى الحجاز الأعلى ، وكان أمر الله هو الأعلى .

ولنرجع إلى ذكر السידین المذكورین فنقول : لما نقلنا إلى بيت يوسف بك المذكور أقاموا عنده أياماً ، ثم أمر الباشا إبراهيم بتجهيز تجريدة خمسمائة عليها السنجق يوسف بك المذكور فنقلوا بعد عزمه إلى بيت أغاة الأنكشارية ، واحتفظ بهما احتفاظاً تعظم به البلية ، ومنعوا الخارج والداخل ، ولم يقرب منهما صديق ولا خل ، وسارت التجريدة المذكورة وهى نحو ألف بالخدم وخمسمائة وأكثر ، معهم الحجاج والتجار والخدام والأرقاء والأجراء ، ولما كان يوم الأربعاء تاسع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة وصل الخبر بتجهيز مدد من العسكر نحو خمسمائة أو يزيدون ، ومعهم مستلم جدة المعمورة ، وعزل عماد أغا عن مشيخة الحرم رفيع القُتّة ، ولله الحمد والمنة .

وفيها وصل مولانا السيد سعيد بن شنبر بن الحسن من بيثة متوجّهاً إلى مولانا السيد حمود وجماعته بالينبع ، فوصل إليه وحضر معه الحراة الآتى ذكرها ، وكان آخرًا وفاته بتلك البلدة ، رحمه الله برحمته الواسعة ، وغفر له مغفرة جامعة .

وفى هذه المدة أيضًا : وقع فى طريق الطائف أن جماعة الحمامة المترددين بين مكة والطائف من طريق كرا بأموال الناس وأمتعتهم - نزل عليهم جمع من عرب الشرق ، فأخذوهم وربطوهم وساقوهم وضربوهم وانتهبوهم ، ثم ساروا بهم إلى قرب المبعوث ، ثم أطلقوهم بعد يومين عرايا مسلبين مجرحين مضربين .

وفيهما فى السادس عشر من شهر رجب وصل المبشر من جدة يخبر بوصول رسول من الباشا معه خلعة ومرسوم.

وفى ليلة السابع عشر منه : رجع مولانا الشريف سعد إلى داره السعيدة، فلما كان الصباح، توجه العسكر بأجمعهم إلى ملاقة رسول الباشا فدخلوا به فى موكب عظيم إلى بيت مولانا الشريف ولبس الخلعة، وقرئ المرسوم بحضرة عسكر السلطان، والسادة الأعيان، وفيه ما لا مزيد عليه من التعظيم والتمجيد، وحصل لمولانا به غاية السرور، وللرعية كمال الفرح والحبور.

وفى يوم الأربعاء تاسع عشر رجب الفرد الحرام: وصل إلينا خبر من نحو الشام حارت فيه العقول والأفهام، بواقعة ينزع وما جرى فيها من الأحكام، بتقدير الملك العلام، أن التجريدة التى جهزت من مصر أوقع بهم السيد حمود فى جيش لهام، من أهل ينبع وجهينة وعنزة وخاص وعام، فأخذوهم عن آخرهم، وقتلوهم وسلبوا أموالهم وأسروهم ولم يسلم منهم إلا نحو المائة، وكان معهم مال جزيل فذهب شذر مذر بعد أن تفرق أصحابه شجر بجر، وأمسكوا كبيرهم السنجق يوسف بك، وكان من القتلى من السادة الأشراف خمسة أشخاص هم السيد شبير بن أحمد بن عبد الله، والسيد سرور بن حسين بن عبد الله، والسيد إلياس بن عبد المنعم بن حسن وشخص من ذوى عنقاء يسمى السيد زين العابدين بن ناصر، تغمدهم الله بالرحمة والرضوان، وأسكنهم أعلى فرايس الجنان: [من الطويل]

وقَتلى أَيْادى الخيل بَيَّنَّ وجوههم فخيرُ المنايا ما يَكُونُ مِنَ القَتْلِ
وانتهبت الأعراب الأجمال بالأحمال، ثم أمر مولانا السيد حمود بجمع حريم السنجق وحريم غيره فى مخيم كبير، وأجرى عليهم المصروف والقوت، وقدر الله للسنجق فى تلك الأرض أن يموت، وكان اللقاء يوم الأربعاء رابع عشر رجب من سنة ثمان وسبعين المذكورة.

وقد كان مولانا السيد حمود أرسل إلى العسكر قبل قدومهم عليه أن ليس لكم طريق علينا إن لم يكن السيد أبو القاسم والسيد محمد معكم، فأشار بعض كبار العسكر على يوسف بك المذكور بالعدول عن هذا الطريق، وسلوك طريق خالية عن التعويق، فأجابه السنجق بفساد رأيه ولم يمتثل، وكان أمر الله شيئاً قد فعل.

وزوار الرسول عليه الصلاة والسلام الذين خرجوا على النصف من رجب لما كانوا فى الطريق، وهم ذاهبون بلغهم خبر العسكر وما وقع لهم، فاضطربوا وأشكل عليهم الأمر، وترددوا بين أن يرجعوا إلى مأمهم أو يتوجهوا إلى مقصدهم، فردوا الأمر إلى سيد القافلة وكبيرها مولانا الشيخ عيسى بن محمد المغربى الثعالبى - وكان متوجهاً معهم - فأشار عليهم بالتوجه من طريق القاحة وهى معروفة، وكان سابقاً يسلكها الأولون، وفيها عمائر وآثار بناء وعيون إلا أنها هجرت الآن، فسلكوا بالأمان تلك الأنحاء، وتلقاهم شيخ العرب وسلطانها القائم بخدمة الحرمين منذ أزمان الشهاب أحمد بن رحمة بن مضيان، وتوجه بهم إلى المدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فسلكوها آمنين، وخرجوا على النازية قريباً من الروحاء، ثم إنه خرج بهم وأوصلهم إلى حيث لاقاهم، ورجعوا سالمين أولاهم وأخراهم.

غير أن بعض الزوار لما وصلوا قرب المدينة قريباً من المحل المسمى مفرح تقدموا عن القافلة، وقد جرت العادة بذلك، فرحاً وشوقاً إلى ما هنالك، فنزل عليهم السراق فأخذوا ما معهم فى تلك الفجاج، وحصل لهم جراحات وشجاج. وأهل المدينة الشريفة لما بلغهم ما وقع للعسكر وقع عندهم الاضطراب الشديد، والتعب الذى ما عليه من مزيد، وانقطعت عنهم سبل الوارد، وغلا السعر فى المقتات بل لم يجده واحد.

وأما أهل مصر: فلما وصل إليهم الخبر التهب نيران الغضب فى أحشائهم، فظهر منها بوجوههم الشرر، فقتلوا من ظفروا به من أتباع السيد أبى القاسم والسيد محمد، وتتبعوهم فى الأماكن اللواتى استخفوا فيها، ونادوا فى البلاد بالوعيد الشديد لمن ستر خبية أحد منهم تحذيراً وتنبهاً، وأمر بالسيدى المذكورين إلى حبس الدم المسمى فى عرفهم «عرق خانة» والأمر لله سبحانه، بعد أن طلب الباشا من العلماء الفتوى بجواز قتلهم فلم يفتوه، فأمر باعتقالهما لما كان والداهما وبنو عمهما اقترفوه، وأورثه ذلك غيظاً وقهراً، أنسيه كريمة ﴿لَا نَزْرَ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الاسراء: ١٥] فاستمر إلى أن عزل شيطان إبراهيم باشا عام ثمانين، ودخل مصر حسين باشا المعروف بابن جان بلاط متولياً لها، فما غفل عن شأنهما ولا لها، بل

سأل عن سبب حبسهما والداعى إليه .

وكشف الله عن بصر بصيرته بما أفاض من نور الحق عليه ، فأخبر بما وقع بالعسكر من أبويهما فقال : هل كان الواقع قبل وصولهما أو بعده؟ فقليل له : بعده بمدة .

فقال : لا ينسب شيء من ذلك إليهما ، ولا يعد ذنب أولئك عليهما ، وأمر بإخراجهما واستدناهما وأكرمهما ، وأقام لهما المقرر كل يوم وشهر ، وخيرهما بين الإقامة والعود إلى الدار والمقر ، وأنزلهما فى بيت نقيب الأشراف ، ووالى عليهما الإنعام والألطف .

فلما كان شهر رمضان سنة ثمانين ، استدعاهما ذات ليلة النقيب إلى الإفطار عنده ، وأعد من فاخر الأطعمة عدة ، فذهب السيد أبو القاسم إليه مع جملة من الأحباب .

وأما السيد محمد فلم يذهب إليه ، وكأنه توهم واستراب .

ثم لما كانت الليلة الثانية دعاهما أيضًا واستنكر عدم وصول السيد محمد إليه فى الليلة الأولى ، وكلف من الأطعمة ما أظهر به اليد الطولى ، وردد الرسائل إليه تترى ، مرة بعد أخرى : فقوى الريب عند السيد محمد وتمكن ، وتحقق ظنا أن عمل الباطن مبطن ، فامتنع واعتذر ببعض الأعذار .

وذهب إليه السيد أبو القاسم وكفى فى التحرز سور الأقدار . ثم خرج السيد محمد على ركائب أعدت له فى جماعة وهو شديد العزم والمُنة ، حتى وصل إلى مكة ولله الحمد والمِنَّة .

وأما السيد المرحوم أبو القاسم ابن السيد حمود فاستمر إلى أن أتاه قضاء الله بالأجل المحتوم ، ففاض بالشهادة من وجهين : الغربية والطاعون المشثوم ، فى شهر شوال سنة إحدى وثمانين وألف ، رحمه الله برحمته ، وآواه سوح جنته .

وفى هذا العام وقع من عسكر المدينة وعامتهم القيام على أفندى الشرع ، لحال اقتضى القيام على ما زعموه ، فرجموه أو كادوا أن يرقموه ، ثم تعدوا فزادوا فى العتو والطغيان ، وانتهكوا حرمة سيد ولد عدنان ، حتى أن بعضهم سحب السلاح فى الحرم ، ولم يرقب حرمة سيد الأمم ، وكذلك هجموا على بيت نائبه الشريف

وتكلموا عليه، ولم يراعوا من هو منتسب إليه.

وحصل أيضًا لأهل الطائف في هذا العام تعب وجوع وخوف حتى خشى كل منهم تلافه، واجتمعت عليهم الكلمات الثلاث: برد وجوع ومخافة، ووصلت كيلة الحب إلى خمسين محلقةً وغيرها قريب منها.

وفي شهر رجب المذكور من سنة ثمان وسبعين وألف: وقع بطريق الطائف بالقرية المعروفة بالسيل أن كانت أحمال متوجهة إلى الطائف مشتملة على أرز وسمن وتمر وبن وقماش، وغير ذلك تدخل في عشرين بعيرًا نزل عليهم بعض الأعراب من عتية أهل البادية فلم يبقوا منهم باقية، وحصل بينهم وبين أهل السيل قتال، فقتل من أهل القرية واحد وحصل في باقيهم جراحات، وأخرب القوم البلاد، اللهم عليك بكل باغ ذى عناد.

وكذلك اجتمع طائفة من هذه الفئة الباغية، والعصبة الطاغية، وداروا في أطراف مكة ونواحيها يتخطفون الناس، ويؤذون المسلمين، فويل لهم من مالك يوم الدين.

وكذلك أهل مكة: كانوا في شدة وغلاء، وجهد وبلاء، طحنوا الفول والحمص وجعلوه خبزًا فلم يجز إلا بعض الإجزاء، وبلغ ثمن الإردب القمح أربعين دينارًا إلى خمسين بل عدم بالكلية، ووزن الخبز الذى يباع فى السوق بمحلق جاء وزنه أوقية، وكل شيء خرج فى ثمنه عن معتاده، ولكن لطف الله سار فى عباده. ومن ظن انفكاك لطفه عن قدره، فإنما ذاك لقصور نظره.

وفى يوم الأحد سادس رمضان منها اجتمع الرعية، وتوجهوا إلى مولانا الشريف. ورفعوا أصواتهم بين يديه، يشكون الناظر والمحتسب عليه، فأمر بإحضارهما وحكم بعزلهما وجبسهما لتواتر الخبر عنده بظلمهما وبأكلهما الرشا. وسبحان الله يفعل ما يشاء.

وفى هذه المدة: وصلت قافلة من مدينة الرسول معهم مال جزيل، فلما كانوا بالقرية المسماة مستورة، أقبل عليهم أقوام فأخذوا جميع ما معهم، قيل: إنه يدخل فى خمسين ألفًا والله أعلم.

وفى ثامن عشر رمضان المذكور، وصل إلى وادى مرّ وإلى جدّة ونواحيهما جملة

من قبيلة عتيبة عرب الشرق أهل الفساد والطغيان فى مائة مردوفة -وقيل : مائتين- فأخذوا ما وجدوا وانصرفوا، قابلهم الله بما اقترفوا.

فلما بلغ مولانا الشريف سعد خبرهم أرسل فى طلبهم جمعًا من الأشراف والعسكر، عليهم أخوه مولانا الشريف أحمد، فأخذ فى أثرهم عدة ليال، وبلغ من الظفر بهم أعظم منال.

فلما كانت ليلة الثالث والعشرين من رمضان، وصل مكة مبشر من عنده بأنه ظفر بهم، وأخذهم وقتلهم وحصل منهم مال كبير، خذلهم الله تعالى وأذل منهم الكبير والصغير.

وفى الليلة المذكورة أيضا: جاء مبشر من جهة مصر بتوجه العسكر والمراكب بالطعام لأهل بلد الله الحرام.

وفىها أيضًا: ظهر عمود من نور نحو الغرب مهيل طويل، وغلظه كطوله غلظ أعظم النخيل وحصل به خوف ورعب للمسلمين، وهو من الآيات للمعتبرين.

وظهر فى الليلة الثانية والثالثة، لكنه فى الطول أكثر بحيث إنه امتد إلى ثلث السماء، ثم إنه صار يضعف نوره ويتقهقر إلى ليلة الثامن من شوال لم يظهر له نور بالكلية ولا أثر، والله أعلم بحقيقة ذلك وما يترتب عليه من المنافع والمضار. نسأله سبحانه اللطف فيما جرت به الأقدار.

وفى آخر الشهر: وصلت جلاب من اليمن وسواكن، ففرقت على أهل السوق وفرح بذلك الناس وتباشرت بنزول السعر.

وفى الاثنين: كانت السماء معلولة ولم يظهر الهلال، فلما كان وقت العشاء ثبتت الرؤية عند حاكم الشرع بشهادة جمع من عدول المسلمين وثبت الفطر، وتواتر الخبر بعد ذلك به. والحمد لله رب العالمين.

وفى ليلة ثالث شوال: تباشرت الناس بوصول المراكب، وتواجدت الحبوب فى الأسواق، وكم لله على الناس من نعم على الإطلاق.

ثم عقب ذلك أن اشتد الأمر على المسلمين ورجع إلى ما كان عليه بحيث إن غالب الفقراء والضعفاء يكون الواحد منهم ماشيًا فيطيح فيموت، ومنهم من يكون جالسًا فتتهفت روحه، وقد شوهذ ذلك، وصار الفقراء يجتمعون فى المذبح ويتلقون

الدماء ليأكلوها .

وذكر أن بجدة كانوا يدورون على الطعام فى السوق فلا يجدونه، وأرسلوا إلى مكة يطلبونه، مع أن جدة مملوءة من الطعام، لكنه فى أيدى التجار بل الفجار كما قاله سيد الأبرار للمحتكرين . اللهم عليك بهم وبجميع المفسدين .

وأما أهل مكة المشرفة، فقد اجتمع عندهم فى هذا العام من الأمم ما لا مزيد عليه، لأن الجذب والقحط عام فى أرض الحجاز ونواحيها، وكل من اشتد به الحال صار يأتياها هاربًا من بلده إلى بيت الله العتيق، يأتونه من كل فج عميق؛ وحلت الميتة والبسس والكلاب، بعد أن بيع ما يملك من أثاث البيت والثياب، وصار الفقراء يهجمون على البيوت، فتعب منهم الناس، وصاروا يغلقون الأبواب .

وفى هذا الشهر اتفق أن جارية لبعض الأعراب يعرفون بالمشارية دخلت يومًا بيتًا، فلم تجد فيه إلا امرأة عجوزًا وهى من جماعة عسكر مصر فخنقتها فقتلتها، ورآها بعض الجيران فدخلوا عليها وأمسكوها ودعوا ابن بنتها فجاء مع جماعة العسكر، فأخذوها وطلعوا بها إلى مولانا الشريف فلم يُثبتوا وحبسوها عندهم يومين . وفى اليوم الثالث عصبوا على قتلها فقتلوا يوم الجمعة رابع عشرى شوال عند الششمة المعروفة بالبزايز .

قلت : ويقال : إنها كانت صاحبة لابن بنتها وكانت المقتولة تنهاه عنها، وتحذره منها فظنت أنها بقتلها يخلو لها وجه صاحبها فكان هو القاتل لها والله أعلم أيا كان ذلك .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشرى شوال المذكور : وصل خبر من جدة بوصول جماعة من العسكر الرتبة بحرًا، وفى يوم الأربعاء : دخلوا مكة المشرفة، وأخبروا بخروج العسكر من مصر وهم يدخلون فى ثلاثة آلاف، وبتجهيز المراكب لأهل الحرمين وللعسكر .

وفى ليلة الجمعة غرة ذى القعدة : كان حريق بأعلى مكة بالمعابدة . وفى الليلة الثانية : كان أيضًا حريق بشعب عامر بالقرب من ضريح والد سيدى أحمد البدوى نفعا الله به .

وفى الليلة الثالثة : انقض نجم كبير مهيل نحو الشرق . وفى ليلة الخامس منه :

احترق سوق المعلاة جميعه . وفى اليوم السابع : وصل مبشر بوصول مركب هندى بالقرب من جدة المعمورة ، ووصل منه جماعة وفرح المسلمون .
ثم بعده بنحو يومين : دخل مركب من بنقالة وفيه خير كثير ، وفى الأول هدية سنية ، لمولانا الشريف ألهمه الله العدل فى الرعية ، وهذه من أعظم السعودات وأيمن الاتفاقات .

وفى يوم الثلاثاء ثانى ذى القعدة الحرام ؛ برز عسكر الشريف لما بلغه تحرك السيد حمود لنهب ينبع ، فجهز من مكة نحو المائتين عليهم بلال أغا ليقيموا بينبع البحر أرسلهم رتبة ، فاتجهت هذه الرتبة بعسكر التجريدة بواسط ليلا وردها معه مقدم التجريدة محمد جاوش إلى بدر ، ثم أقبل بمن معه إلى مكة ، وأقبل معه بلال أغا ، وذهبت الرتبة إلى ينبع البحر فأقامت به إلى وصول مولانا الشريف سعد مع الحاج المصرى وعسكر التجريدة .

وفى هذه المدة اشتد الحال على أهل مكة ، حتى أن غالبهم باع حوائج بيته وثيابه ولم يبق له شىء ، وصار يسأل الناس ، ومنهم من باع أولاده ، ومنهم من رمى بهم ، واتفق لبعض أصحابنا - رحمه الله تعالى - أنه اشترى بنتاً من أبيها بحرفين .
وفى يوم الخميس خامس عشر الشهر المذكور : أصبح عماد أغا من جدة ، بعد أن كان توجه بحرًا إلى مصر ووصل الطور ، ورجع لأمر من الأمور ، والله أعلم بما تكن الصدور .

وفى سابع عشرى الشهر المذكور : دخلت عشرة مراكب جدة بالسلامة ، وهذه أعظم كرامة ، وفيها العسكر والحجاج والطعام وجرايات أهل مكة وخير كثير ، وذلك من لطف الله على الأنام .

وفى أول ذى الحجة الحرام : دخل حجاج البحر مكة المشرفة ، ومعهم العسكر من جدة المعمورة ، وحصل بدخولهم فرج كبير للمسلمين .

ودخل فى اليوم الرابع منه الحاج المصرى وصحبته خلعة من مولانا السلطان محمد خان وخلعة أخرى من الباشا كلاهما لمولانا الشريف سعد أطال الله بقاءه .
وفى اليوم الخامس دخل المحمل المصرى ، وكان الحجاج فى هذا العام قليلين ، فخرج جمع يسير ، وخرج قبلهم العسكر المعينون للتجريدة ، فتلاقوا قبل ينبع بيومين

أو ثلاثة ودخلوا سواء، وأقاموا فيها أيامًا نحو خمسة أو ستة، وهم يكاتبون السيد حمود، ويعرفونه وهو يرسل الجواب والكلام الشديد، فحملوا عليه وأقبلوا فوجدوا الخيام قفرا والمزار بعيد، ثم إنهم عقدوا بينهم شورى، فاتفق الرأي أن بعضهم يقيم لحفظ البلد، والبعض الآخر يحج وهم الأكثرون، ثم إنه توجه العسكر ومعهم سنجقان والثالث محمد جاوش وهو رئيس العسكر وكبيرهم وشيخ الحرم وسنجق جدة المعمورة، فدخلوا مكة فى موكب عظيم يوم سبع من ذى الحجة، وفى العسكر اثنا عشر كاشفًا تحت كل كاشف جماعة، ومعه نقارة مضروبة على رأسه كما هو عادة أهل مصر.

وفى اليوم الثامن: دخل الحاج الشامى واليمانى والمدنى، وفيه طلعا إلى عرفات.

وأما أهل العراق وأهل نجد وأهل الحجاز وسائر العرب لم يحجوا لما حصل لهم من التعب والجوع، والخوف المذهب للهجوع.

وفى هذا العام: جاء الحجاج بدراهم محلقة فاسدة، مطيرة كاسدة، وأخربوا بها معاملة البلاد بحيث إن كل ثلاثة منها بدرهم من الجياد من حيث القدر والقيمة فصار كل يردّها، فغلت الأسعار، وأمسك كل على ما عنده من الطعام، وهلك الرعية، ووقعت الفتنة بين المسلمين بسببها، وبلغ ثمن الشريفى الأحمر إلى ثلاثة ونصف، وإلى أربعة إلا ربع والقرش بخمسة وسبعين.

قلت: هذا فى تلك السنة، وأما اليوم فهو بسبعة حروف ونصف. انتهى.

وفى يوم الإثنين سادس عشر ذى الحجة: طلع محمد جاوش إلى المعلاة فى موكب عظيم، ولبس خلعة جاءت من حضرة الباشا، وفى حال توجهه قتل ستة أشخاص من أتباع السيد حمود، وأتى بهم من ينبع مفرقين اثنان بالمسعى، واثنان بالمدعى واثنان عند باب المعلاة.

وفى يوم الخميس سادس عشرى ذى الحجة الحرام: توجه الحاج المصرى والعسكر ومولانا الشريف سعد أعزه الله إلى ينبع نحو السيد حمود، وأقام أخاه مولانا الشريف أحمد مقامه على مكة المشرفة، وكان يوم بروزهم شديد الحرارة وتحركت فيه السموم بالشوب، وهلك بسببه جمع كبير من الحجاج والدواب،

وذلك بلا شك زيادة فى الأجر والثواب، وكانت الوقفة فى هذا العام بالإثنين، من غير شك ولا خلاف بين اثنين.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين، فى يوم الثلاثاء غرة محرم الحرام منها خرج المحمل الشامى، ثم إن العسكر ومولانا الشريف لما توجهوا إلى ينبع، ضربوا شورى فى أنهم يقيمون هناك، أو يتوجهون خلف السيد حمود، أو يرجعون إلى مصر، فاتفق رأى أنهم يذهبون إلى مصر.

وأقام مولانا الشريف ومن معه من الجيش ومحمد جاوش، وأمسك مولانا الشريف جماعة من المفسدين الذين كانوا فى الحراة قتلوا فى عسكر السنجق يوسف والحجاج، وأخذوا أموالهم وغيرهم من العربان، وحبسهم فى السجن، وكبلهم بالقيود والأغلال، وغرمهم ما نهبوه من تلك الأموال.

وفى يوم الإثنين سادس صفر من السنة المذكورة - أعنى سنة تسع وسبعين - برز مولانا الشريف أحمد أسبابه وعسكره إلى جهة المبعوث لإصلاح تلك الجهات والطرق. أصلح الله شئونه فى السكنات والحركات.

وفى يوم الأحد ثانى ربيع الآخر: وقع حريق وقت العصر كبير فى شعب أجباد وراء جبل أبى قبيس وسلم الله المسلمين.

وفى رابع عشر من جمادى الأولى: ورد علينا خبر من الشام بوصول خلعة من الباشا لمولانا الشريف سعد - أسعده الله تعالى وأسبغ عليه نعمه ووالى - وأنه لبسها يوم أربع منه ومعها مكتوب بتفويض أمر الحرمين الشريفين ونواحيهما إليه من غير شريك.

ثم إنه أمر بقتل أربعة من المفسدين، ويهدم السور الذى يتحصنون فيه فهدموه حجرًا حجرًا بأيديهم، وكذلك أمر بإقامة الجماعة والجمعة بناديبهم.

وفى هذا الشهر: تواتر الخبر من جهة أرض اليمن باشتداد الجذب والقحط فيها كالقنفذة وصيبا والتهائم ونواحيها، وفى بعض الأيام بالقنفذة وجدوا فى دار امرأة حجامه رجلين مقتولين، أحدهما مأكول، والآخر شرعت فى أكله، وأعضاء أطفال منها طرى ومنها يابس، فأمسكت وغرقت فى البحر، وقيل: وضعت على الجزيرة التى أمام القنفذة وسط البحر ففقدت صبيحة ليلة الوضع.

وأما أهل الطائف فلحقوا شدة عظيمة، بلغت الكيلة الحماط ثلاثين محلق غير موجودة فما بالك بغيرها، وما صار أحد يخبز عيشه في الفرن؛ لأنهم يخطفونه من شدة الجوع، ويهربون، بل يخبزنه في البيوت ويستترون، هذا بالنسبة إلى من له قدرة، نسأل الله أن يمن علينا بنظرة.

أما الفقير فما أكله غير الجلود والعظام، والدماء الميتة، ولم يجسر أحد يمشى وحده، إن أحوجه الأمر إلى الخروج تسليح وقرأ حزبه وورده.

وكذلك أهل الحجاز الأعلى هربوا من بلادهم وتركوها، وغالب أهل القرى والبادية جاءوا إلى مكة هاربين وإلى رب البيت ملتجئين وخاضعين، وهم يصيحون: الجوع الجوع ويتضرعون، وفي الطرقات يتصرعون.

وفي يوم عشرين من هذا الشهر: أمر نائب الشريف مولانا المرحوم السيد بشير ابن سليمان على مكة؛ لأنه أنابه مولانا الشريف أحمد عند خروجه إلى جهة المبعوث أمر بشنق رجل من الأعراب، فشنت عند الششمة المعروفة بالبزايز، والسبب في ذلك أنه هو ورجل آخر قتلا رجلا من أبناء الطواف في طريق جدة، ومثلا به وأخذوا ما معه، فأمسك أحدهما وهرب الآخر.

وفي أول هذا الشهر: أخبر الثقة عن جماعة ثقات أنهم وجدوا في يوم من الأيام حيواناً يشبه الضبع بأعلى مكة نحو المنحنى فقدم على حمار، فرآه بعض الناس، فاجتمعوا عليه وذهبوا خلفه، فدخل بعض البيوت ووجد امرأة فجرحها، فدخلوا عليه وقتلوه، ولم يعرفوا ما هو فسموه الغول.

وفي يوم الأحد ثامن عشر الشهر المذكور: كسفت الشمس بعد اصفرار من غير سواد نحو ساعتين.

ولما كان أول جمادى الآخرة اشتد البلاء بالمسلمين، والفقراء والمساكين، فعند ذلك قذف الله تعالى في قلوب بعض عباده الرحمة والشفقة، فاجتمعوا على أمر هو أنهم يجعلون شيئاً من حطام على أهل القدرة والطاقة، ليكون لهم ذخيرة عند الله يوم الحسرة والفاقة، وهم ثلاثة منهم الاثنان العالمان العاملان: مولانا الشيخ عيسى ابن محمد المغربي الثعالبي الجعفري، ومولانا الشيخ محمد بن سليمان، والثالث قطب الوجود والزمان، ذو السر والبرهان، الولي الصالح، صاحب القول الراجح،

مولانا السيد عبد الرحمن المغربي الشهير بالمحجوب .

ثم إنه انتدب لخدمة الفقراء ، والقيام بمصالحهم بعض الإخوان من أهل الخير والصلاح ، ونادى مناديتهم بلسان الحال : يا عباد الله ، حى على الفلاح ، فابتدروا وتقدموا إلى حضرة مولانا القائم مقام ، وهو السيد بشير بن سليمان ، فأجابهم بالتحية والإكرام ، وأعطاهم ما قدر عليه طمعاً فى دار السلام .

ثم توجهوا إلى كبراء البلاد ، فأعطى كل بقدر ما قسمه الله وأراد . وكتب مولانا الشيخ إلى مولانا الشريف سعد ، وكتب أيضاً إلى أخيه مولانا الشريف أحمد فأجابا ، وأمرأ خدامهما وأتباعهما بشىء من البر مقدار عظيم ؛ ليكون لهما ذخيرة عند رب العالمين ، إذ هو صلة للفقراء والمساكين .

فلما اجتمع من الدراهم والطعام ما فيه البركة رأوا أن يجعلوه ديشية مع ديشية السلطان مرتين أول النهار وآخره على الدوام والقدر الذى يطبخ فى الوقتين أربعة أرادب وشىء .

وكان فتحها فى خامس جمادى الأخرى من سنة التسع والسبعين ، فحصل بها نفع كبير للمسكين والفقير . فجزى الله المتصدقين ، والعاملين عليها ، والقائمين بها أفضل الجزاء ، ورضى عنهم أحسن الرضا .

وفى يوم الخميس ثامن رجب من السنة المذكورة : ورد خبر وفاة المرحوم مولانا السيد أحمد بن السيد على بن باز بن حسن من اليمن رحمه الله رحمة واسعة . وفى ليلة سابع عشر رمضان ، حصلت رحمة من السماء علينا ، وعلى أطراف مكة ، فحصل بها فرج كبير ، وسرور للمسلمين كثير .

وفى ثالث شوال : وجدت بنت مراهق مقتولة فى بعض الأزقة قريباً من سوق العطارين ، والسبب فى ذلك أن عليها بعض حلى فقتلها قاتلها لذلك .

وفى اليوم الرابع : انتقلت امرأة ودفنت ، ثم أصبح أولادها يزورونها ، وكان يوم جمعة فوجدوا قبرها منبوشاً ، وإذا كفنها قد سرق فخافوا وتشوشوا تشوشاً شديداً ، فتركوها وجاءوا يسألون عن الحكم الشرعى هل تكفن ثانياً أم لا ، فأجيبوا بما ذكره العلماء الأعلام أن الميت إذا سرق كفنه يكفن ثانياً ما لم يتفسخ ، ويتفرق اللحم عن العظام .

ووقع من بعض السوقة المفسدين أنه تكلم مع الدولة في مظلمة يحدثها على المسلمين. وجعل على نفسه شيئاً من الدراهم ليأخذها من إخوانه المؤمنين، ويتقرب بها إلى الجحيم، ويتباعد عن جنة النعيم، فبلغ ذلك حاكم الشريف القائد أحمد بن جوهر كان الله له في عونه، فضربه حتى بلغ به الهلاك ثم حبسه فشفع فيه فأخرج محمولاً إلى بيته، وشاع أمره وظهر، وأقام ثلاثة أيام وفي الرابع أخذه القضاء والقدر.

وفي يوم الإثنين حادى عشرى ذى القعدة بعد طلوع الشمس بساعتين: وقع أمر مهيل، هو أنه ظهر من عين الشمس، أو بالقرب منها ضوء هائل كالنجم، ثم إنه استطال، وامتد إلى جهة المغرب، وحصل لمن رآه حال بدئه غشاوة على بصره، وارتعدت فرائضه، وانزعجت منه القلوب، وهو مشتمل على زرقه وصفرة وحمرة، ثم إنه ذهب طرفاه، وبقي الوسط، واتسع في العرض فخرج منه صوت كالرعد، ولم يكن في السماء غيم ولا سحب، وظن بعض الناس أنه صوت مدفع، واستمر ساعة، وفيه عبرة لأولى الألباب، ثم اضمحل الباقي من ذلك الشعاع إلى سحب. ثم إن الناس كثر كلامهم في ذلك، وقالوا: لا بد لهذا من شأن عظيم، حيث إنهم لم يروا مثل ذلك، ولم يسمعوا بمثله في الزمن القديم.

وحكى بعض الناس أنه ذكر هذه الحادثة في جمع، وتحدث بها، وإنهم قالوا لم يشاهد مثلاً في ماضى الزمان، وكان فيهم رجل أكبر منهم سنًا فقال: أنا شاهدت مثل ذلك وأعظم منه، كنت في الخيف فوق الصفراء متوجهاً إلى المدينة الشريفة، ومعى جماعة فسرنا بعد شد الأحمال إلى الروحاء، فلما كنا بملاوى الخيف، وكان الوقت بعد المغرب فإذا السماء انفرجت، وخرج منها ضوء ساطع ملاً الوادى، وتساقط منه شهب حتى أيقنا بالهلاك في تلك البوادي، واستغثنا بالرسول وتشهدنا، وتشفعنا بمن نحوه قصدنا، ثم ذهب واضمحل، وبقي شيء من الضوء في ذلك المحل، فخرج منه صوت مهيل كالرعد فظننا أن الجبال تساقطت فاستغثنا وتشهدنا كذلك، ثم ذهب واضمحل، فسرنا سويعة فإذا هو قد وقع مرة ثانية، وكنا كلما وصلنا قرية نسأل أهلها عما رأينا فيقولون: رأينا ما رأيتم وشاهدناه، وكان عامًا في سائر الأقطار، فسبحان الله الفاعل المختار.

ثم سأله عن مدة هذه الواقعة فقال: لها الآن ست وعشرون سنة بهذه السنة. فقلنا له: كيف كان عاقبتها؟ فقال: لم نر إلا الخير والسلامة ولله الحمد والمنة. انتهى.

وفى هذا اليوم بعينه وهو الحادى والعشرون من شهر ذى القعدة الحرام من سنة تسع وسبعين وألف: بنى الشيخ العلامة العامل العارف الكامل مولانا الشيخ محمد ابن سليمان المغربى فى صحن المسجد الحرام بعض أحجار ليضع فوقها حجراً كبيراً مكتوب فيه شاخصان من حديد يستفاد منه بالظل ما مضى وما بقى من النهار بالتماس جماعة من المسلمين، وليكون نفعه عاماً للأمة أجمعين.

فعند ذلك قال جماعة من الجهلة ممن لا خلاق لهم: إن هذه الحادثة التى وقعت فى السماء بسبب هذه الواقعة التى فى الأرض؛ لأنهما كانتا فى يوم واحد فى ساعة واحدة، فكان الناس فى شأنها حيارى.

وقال بعضهم: إن هذه صومعة النصارى. وكثر منهم القال والقليل، فاستعان بالله تعالى عليهم وتلا ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [ال عمران: ١٧٣]. فرفع الأمر إلى سيد الجميع مولانا الشريف سعد -لا زال من المسعدين- فأمر بوضعها على رغم أناف المعتدين، وذلك قبل وضع الحجر الذى فيه الكتابة، فجاء إليه المعلم ليضعه فوق سطح ذلك البناء، فجاء رسول من حاكم الشرع الشريف ومنعه، فتوجه إليه المعلم فقال له: لا تفعل حتى نكتب فى ذلك سؤالاً إلى المفتى، فكتب فأجاب: إنه إذا كانت فيه مصلحة أو منفعة جاز وضعه باتفاق علماء الإسلام.

وهذا القول من الحاكم الشرعى إنما هو بوسوسة بعض الحسدة اللثام. ونظير هذا الحجر موجود فى مسجد النبى عليه أفضل الصلاة والسلام، وفى غيره من المساجد الكرام.

ثم إنهم كتبوا له مكتوباً، وفيه كلام لا يليق بالمقام، فتعب الشيخ من ذلك وطلب من الحاكم الشرعى أن يجمع بينه، وبين خصمه فلم يفعل، وجاء إلى بيت الشيخ، واعتذر وأمر بوضع الحجر، فوضع فى اليوم الثانى واستمر.

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشرى ذى القعدة: دخل مولانا الشريف سعد مكة المشرفة فحل بها السعود فى موكب عظيم خفقت به البنود، ودعا له المسلمون بالنصر

والظفر والتأييد - حفظه الله تعالى .

وفى يوم السبت سادس عشرى الشهر المذكور: دخل جدة مركب من الشام، وغراب به مستلم جده، وصحبته مكاتيب مضمونها عزل القاضى، ونائب المسجد الحرام.

وفى ليلة الأحد سابع عشرى الشهر المذكور: دخل مكة مولانا الشريف أحمد ابن الشريف زيد فى موكب عظيم هو به حقيق، وكان فى جهة الشرق. ودخل شهر ذى الحجة الحرام اختتام سنة تسع وسبعين، كان أوله بالخميس، فلما كان يوم الرابع منه: وصل رسول من المدينة الشريفة يخبر بأن صحبة الحاج الشامى رجلا عظيم الشأن، يسمى: حسن باشا بيده أوامر من مولانا السلطان يحكم فى الحرمين الشريفين، ويتبصر فيهما نيابة عن خليفة الزمان. فلما كان قرب المدينة الشريفة برزت له عساكرها وكبراؤها فتلقوه بالقبول، فدخل فى موكب عظيم، وتوجه إلى حضرة الرسول.

والسبب الداعى إلى وصول هذا الرجل أن أهل المدينة أرسلوا جماعة منهم، ومعهم مكاتيب إلى الحضرة العليّة، يرفعون إليه من مولانا الشريف سعد وأتباعه فيها الشكية، فأرسل هذا الرجل ليجرى الحق إلى معالمة، وينصف المظلوم من ظالمة.

فلما استقر بالمدينة البهية بالمدرسة القايتبائية اجتمع إليه أهل المدينة، وشكوا إليه الجور والشطط والحال الفظيع، والأمر الفرط، وسلطوه على جماعة من أعيان البلد ممن ينتمون إلى الشريف سعد ذى القدر الخطير، فأحضروا فى حالة شنيعة من الإهانة والصفح والسحب، وأنواع التعزير، ثم وضعوا فى السجن بعد أن كبلوا بالحديد، وكان لهم عنده بالقتل تهديد.

ومنع الخطيب من ذكر مولانا الشريف سعد بالدعاء على المنبر، وأذاع عليه فى بلد جده هذا المنكر.

فلما بلغ ذلك مولانا الشريف تعب من هذا الفعل، وأخذ منه الحذر، وفوض أمره إلى من بيده القضاء والقدر.

ولما برز من المدينة متوجّها إلى البيت العتيق صار مناديه ينادى فى الطريق.

وفى اليوم السادس: دخل الحاج المصرى مكة ولبس مولانا خلعتة المعتادة من قديم الزمان، ودخل فى اليوم الذى قبله الحجاج بأمان. وفى اليوم السادس أيضًا دخل الحاج الشامى، ثم بعد الظهر بين الصلاتين دخل الباشا حسن المذكور فى موكب عظيم بالآلاى والطبول والزمر، وهو راكب فى تخته، إلى أن وصل إلى باب السلام، فنزل ودخل المسجد الحرام.

وفى اليوم السابع، دخل المحمل الشامى، ولبس مولانا خلعتة المعتادة بعد أن خرج فى ذلك الموكب الشامى، وكان فى العادة أن يقسم بعض الصدقات لأهالى مكة قبل الصعود فيها ينتفعون، ومنها يحجون، فمنع من ذلك، فلزم عن منعه القعود، وتلوا ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]. وكذلك مولانا الشريف تعب من أحواله السابقة، وقال: لا أحج فى هذا العام إن لم يظهر ما بيده من الأوامر فننظرها كاذبة أم صادقة، وأرسل بذلك إليه وإلى الأمراء، وشدد فى الكلام، ووقع فى البلاد اضطراب وانزعاج، وعزلت الأسواق، وغلقت الأبواب، وخلت الطرق والفجاج، وجمع مولانا الشريف جيشه، وقام على قدميه، وشمر ولسان الحال ينطق: الله أكبر الله أكبر.

ثم إن الأمراء، وكبار العساكر، وأركان الدولة أتوا إلى مولانا الشريف، وقبلوا يديه، وخضعوا رءوسهم وأنصتوا لديه، وقالوا: أنت الأصل، وإن لم تحج فإن الأمة لا يحجون، والتزموا له بالعهود والمواثيق أنه لا يقع خلاف، وكل ما تريده يكون، فعند ذلك نادى مناديه فى البلاد بالأمان والاطمئنان، وأن الناس يحجون آمنين من السوء والعدوان. وأما أهل المدينة فتركوا الحج؛ خوفاً على أنفسهم من جريرة ما فعلوه من الآثام والأوزار. وأما الأعراب وأهل البوادي فمنهم من ترك الحج لخوف الطريق الموجب للإضرار، ومنهم من توجه للحج فبلغهم فى أثناء الطريق وصول الباشا، ومن معه وما معه من الأخبار، فرجعوا إلى أهاليهم.

ثم إن مولانا الشريف صعد إلى عرفات، ولم يحصل شئ من المخالفات، وكانت الوقفة بالجمعة. وفى هذا الشهر: لم يقع بين مولانا الشريف وبين حسن باشا اتفاق إلا أنه أوصل الفقراء حقوقهم، وكل يوم يحضرون بين يديه مع الإهانة من عسكره، فمن الناس من يدعو له وأكثرهم يدعون عليه.

ثم دخلت سنة ثمانين وألف، كان هلالها بالسبت. فلما كان اليوم الثاني منه سعى جماعة بينهما بالصلح، منهم أمير المحمل الشامي الأمير عساف ابن الأمير محمد فزوخ، وكان الاجتماع بينهم بعد العصر من اليوم المذكور بالمسجد الحرام خلف مقام الحنفى بحضرة الخاص والعام، ثم تفرقا ورجع كل منهما إلى بيته بالحبور، وأرسل كل منهما نوبته إلى بيت الآخر فدقت الطبول والزمر، وكانت ساعة مباركة سر بها الكبار والصغار، فيها إشعار بحصول الوفاق، وصفاء الأكدار، وأرسل كل منهما هدية سنية، والله أعلم بما اشتملت منهما النية.

وفى اليوم الثامن من محرم افتتاح سنة ثمانين وألف، توجه بعد العصر مولانا الشريف سعد، وأخوه مولانا الشريف أحمد إلى حضرة الباشا حسن، فقابلهما بالتحية والإكرام. وجلسا عنده ساعة فى أنس وصفاء وتعطف فى الكلام، فلما أرادا القيام ألبس كلا منهما ثوبًا نفيسًا يليق بهما، وقام لهما ومشى على الأقدام، وخرجا من عنده إلى البيت السعيد، وقبلا الحجر الأسود السعيد، وسألا من فضل الله المزيد.

وفى اليوم العاشر من الشهر المذكور أراد الباشا السفر إلى جدة المعمورة، فلما كان بعد العصر، توجه إلى حضرة مولانا الشريف سعد - حفظه الله تعالى - بالقرآن العظيم، ومكث عنده ساعة من الزمان، ولم يذق عنده شيئًا زعم أنه صائم طلبًا للغفران.

ثم إن مولانا الشريف أمر بتقديم فرس مسرجة محللة تساوى ستمائة دينار، اللهم ألف بين قلوب عبادك كما ألفت بين الثلج والنار. ثم إنه لما نزل إلى جدة حكم وتكبر وطفى وتجير.

وفى يوم الخميس ثالث ربيع أول من السنة المذكورة: نهب عسكر الشريف السوق وأخذوا منه ما وجدوه من عيش وتمر ولحم وسمن، وأفسدوا فى تلك الألفية، وطلعوا إلى قهوة النخل، وزعموا أن فعلهم إنما هو للحاجة الملجئة من تأخر الجامكية الشريفة، وأقاموا بها تلك الليلة ويومها على تلك العصبية.

ثم نزلوا إلى أسفل مكة وأرادوا التوجه إلى نحو اليمن، فتوجه إليهم ابن الشريف زيد مولانا السيد حسن، وصحبته الشيخ أبو بكر العرابى، وشيخ العسكر، والتزموا

لهم ما أرادوا، فرجعوا إلى البلد فأعطوهم ما كان لهم وزادوا.
وفى ليلة الخامس من شهر ربيع الأول من سنة ثمانين وألف: دخل مكة مولانا
المرحوم السيد محمد يحيى ابن المرحوم الشريف زيد أسكنهما الله فى الجنان
القصور، وحصل بدخوله الهناء والسرور.

فلما أصبح الصباح تكلم العسكر الذين هم بمكة مقيمون، فى دخوله البلد وهو
من الجماعة الذين هم الناهبون القاتلون. فأجابهم مولانا الشريف بأن عنده مكتوباً
من حضرة الباشا بأنه يصطلىح مع بنى عمه، فأخرجه لهم، وقرأه عليهم، وسجله عند
قاضى المسلمين، فسكتوا ورجعوا.

وفى ليلة الخميس عاشر الشهر ثالث عشر ربيع الآخر: قتل بعض الأتراك زوجته
خنقاً طمعاً فى مالها، واعتصب له جماعة، وطلبوا البينة عليه فلم تقم، فخلى
سبيله.

وفى اليوم الخامس عشر منه، قتل عبد أسود عتيق لبعض العرب رجلاً من
جماعته كذلك لدنياء، وذلك عند بئر طوى، فبئس ما نوى.
وأمسك فأقر فشنق فى اليوم الثانى فى مشنق محمود الأعور.

وفى هذا الشهر أو الذى قبله نفى مولانا الشريف رجلين إلى بلدة بيشة أحدهما
من أولاد مكة والآخر من أشراف الأزيك المجاورين، انتقل هذا إلى رحمة الله
مولاه، وبقي الآخر إذ أبقاه الله.

وفى يوم الجمعة خامس عشر الشهر المذكور، وقع بين عسكر الشريف شنآن،
وافترقوا فرقتين، وتقاتلوا ساعتين، وحصل فيهم جراحات، وأسفرت عن سلامات،
وكان أغاثهم قد طلع إلى المعلاة لزيارة قبر مولاه، فأرسلوا له رسولا، ونزل إليهم
قبل حضوره مولانا الشريف أحمد بن زيد - حفظه الله - ففرق جمعهم وأطفأ
نارهم، وألف بينهم، وقبل أعذارهم.

وفى هذا الشهر: توجه مولانا السيد محمد بن زيد إلى قبيلة بنى سعد فى جمع
يسير، وهم فى منعة وشاهق خطير، وأراد قتالهم لخروجهم عن الطاعة، وأظهر كل
منهم تمرده وامتناعه. فأرسل وعرف أخاه مولانا الشريف سعد، فجمع جمعاً
وأمرهم بالمسير إليه والذهاب.

فبينما هم كذلك إذ وصل الخبر إليه بأنه وقع الصلح على المال لتسلم الرقاب . ودخل جمادى الأخرى وكان بالأحد . وفى اليوم الثالث منه آخر النهار انتقل الأخ الأعز المرحوم شهاب الدين القاضى أحمد ابن القاضى مرشد المرشدى الحنفى العمرى - رحمه الله تعالى - .

وفى يوم الجمعة سادس الشهر، ضرب سردار العسكر ناظر السوق وأهانه، ومكث الناظر المذكور أيامًا لا يخرج من بيته بسبب جرح رجله من الضرب، وسببه طلب السردار من الناظر أن يزيد له فى السعر لبيع هو وجماعته ما عندهم من الطعام المحتكر، فمنع من الزيادة، فحقد عليه لذلك، وتسبب له بسبب من الأسباب، حتى بلغ من ضربه ما يقابل به يوم الحساب .

وأما حسن باشا لما وصل جدة دخل بيته، وأغلق بابه، وأجلس أعوانه وحجابه، وجعل حاكمًا يحكم على المسلمين حكم الظالمين .

فمن جملة حكم ذلك الحاكم على ما قيل أنه جعل على كل ميت شيئًا كما فعل فرعون فيمن قبله من الأولين، وتفرق جنده فى البلاد إذ تأمروها، وكثر أذاهم فيها وما عمروها، بحيث إنهم يدخلون السوق، ويأخذون الطعام وغيره قهزًا من غير رضا، وإذا توجه المظلوم إلى الباشا لم يقدر عليه، ولا هناك أحد يلتجأ إليه، وإن رفعوا الأمر إلى حاكمه ضربهم، وأمر بحبسهم، ولم ينقض لهم أرب، ومع ذلك ليس قوله إلا: برى جدى، برى زيدى عرب، فمن الناس من أمسك بيته، ومنهم من فر وهرب، ومنهم من رفع هذا إلى مولاه فارح الكرب، ليكشف هذه المحنة، ويهلك من كان السبب .

وفى يوم الثلاثاء ثانى رجب الحرام، دخل سلطان من سلاطين الأعجام، وقد كان أرسل له مولانا الشريف سعد إلى جدة رسله يهنونه بالسلامة، ويبلغونه التحية والكرامة، وصحبته خمس أو ست من التخوت، وتوجه إليه مفتى الإسلام، والخطيب ببلد الله الحرام القاضى إمام الدين ابن القاضى أحمد المرشدى، ولاقاه من نحو مرحلة، وقابله بالتحية والإكرام، وجاء معه ودخل به المسجد الحرام من باب السلام .

وأرسل مولانا الشريف إليه هدية سنية، وأنزله فى بيت من بيوت آبائه الأسلاف الزكية .

ثم بعد ذلك أرسل السلطان المذكور لحضرة مولانا الشريف مقابلاً لما أهده له من الإنعام مالا جزيلاً من الذهب والفضة، وكذلك جاء من سلطان الهند مال عظيم فى هذه الأيام، فذهب الضيق والتعب من القلوب والأجسام.

وفى يوم الأربعاء رابع عشرى رجب المذكور: انتقل بالوفاة إلى رحمة مولاه مولانا وسيدنا ومأوانا وسندنا شيخنا شيخ الإسلام والمسلمين، خاتمة الأئمة المحققين، خادم حديث سيد المرسلين، الجامع بين الأصول والفروع، الحافظ لكل متن ومجموع، الحائز فضيلتى العلم والنسب، الحائز طرفى الكمال الغريزى والمكتسب، رئيس العلوم العبقري، جار الله أبو مهدي عيسى بن محمد بن محمد الثعالبي الجعفرى، الهاشمى نسباً، المالكى مذهباً، المغربى منشأ ومولداً الحرمى وطناً ومحتداً. إمام الحرمين الشريفين، وعلم المغربين والمشرقين. جامع أشات العلوم النقلية، ومبرز خفايا لطائف الآراء العقلية، محبى رسوم الرواية بعد ما عفت آثارها، ومشيد مبانيها بعد ما انهار منارها، وسالك مسالك أئمة السلوك، ومالك ملاك أمره فى مجانية كل ملك ومملوك. ولد ببلده ونشأ بها على اشتغال عظيم بالعلوم النافعة. وأخذ عن عدة مشايخ فى علوم عديدة.

قلت: هو شيخى الذى تخرجت به فى عدة من الفنون إتقاناً، عقائداً وأصولاً ونحواً وصرفاً ومنطقاً وبياناً. تغمده الله برضوانه، وأحله فسيح جنانه. آمين.

وفى اليوم السابع والعشرين من رجب المذكور آخر النهار وقع بين عسكر المدينة، وبين العرب قتال زاغت فيه الأبصار، وكان من العصر إلى وقت الاصفرار. فلما أقبل الليل وأدبر النهار، تفرق الجمعان، وبات عسكر المدينة فى غاية التنبه والاحتذار، طول ليلهم بالبندق إلى وقت الأسحار.

وكان القتلى من العرب نحو خمسة عشر رجلاً. فلما أصبح الصباح، ونادى منادى الفلاح، حفروا لهم حفرة نحو السبيل، ودفنهم بها، وقتل من أهل المدينة حران وعبدان. بذلك تواتر الخبر عن غير واحد من الإخوان.

وهؤلاء العرب من قبيلة تعرف بحرب، ولم نعلم حرب هذا جدهم لمن ينسب، وإلى أى جيل يحسب. وهم جمع كبير يشتمل على قريب من خمسين فخذاً كل فخذ يشتمل على جماعة لهم جد خاص، وعليهم الدرك فى حفظ الطريق من عسفان

إلى المدينة الشريفة.

والشيخ الذى جماعهم عليه وانتماؤهم إليه كان يسمى أحمد بن رحمة، أفاض الله عليه الرحمة.

ولما أقبل الليل منعهم شيخهم المذكور عن القتال، وردهم إلى المحل المسمى بذى الحليفة شرعا، وبأيار على عرفا. ثم أرسل له كبير المدينة الشريفة بالطلب والأمان، فتوجه إليهم، ومعه جمع من العربان، فجعل الفريقان يختصمان، ويدعى كل منهما على الآخر بالبدء بالعدوان، على يد الأفندى، وشيخ الحرم والأعيان. فأصلحوا بينهما وانقطع النزاع عنهما، وألبس الشيخ خلعة نفيسة، وألبس بعض خواصه جوخا، على أن ما مضى لا يعاد، بذلك وقع الاتفاق والأمان. ونادوا على القافلة بالرحيل، مع التعزيز والتبجيل.

ثم دخل شهر شعبان المعظم وكان بالأربعاء، وفى خامسه وصل رسول من باشا مصر المحروسة إلى حضرة مولانا الشريف يبشره بالنصرة المأنوسة لمولانا السلطان محمد خان أيدى الله بالسعد المديد، على أهل الشرك والطغيان أرباب مالطة وكريد. فألبسه مولانا الشريف خلعة ثمينة، ونادى مناديه سبع ليال بالزينة، وذلك على القواعد القديمة، وحصلت بذلك للمسلمين بشرى عظيمة.

ومدة محاصرة أهل الإسلام للكفرة المشركين اللثام نحو ثلاثين من الأعوام. ثم إن الكفرة جعلوا للمسلمين مالا عظيما حالا ومؤجلا يأخذونه منهم كل عام بالتمام، وأن لا يتعرضوا للمسلمين بحال من الأحوال لا فى الأسفار ولا فى دار المقام. والمدة التى اتفقوا عليها نحو مائة من الأعوام. على ذلك وقع الصلح والاتفاق، وكفى الله المؤمنين الشقاق. فرجعوا إلى أوطانهم بالخيرات والإنعام، ولهم فى الآخرة دار السلام.

ومما يتعلق برسول الباشا أنه جاء بعزل أفندى الشرع، وتولية القاضى عبد المحسن القلعى نيابة القضاء عن الأفندى المستجد، وبعزل مفتى الحنفية القاضى إمام الدين المرشدى، وتولية الشيخ إبراهيم بيرى زاده مقامه إذ له هناك مستند.

وفى يوم الثلاثاء حادى عشرى شعبان المذكور من سنة ثمانين وألف؛ ورد خبر وقعة مولانا السيد حمود مع ظفير القبيلة المعروفة بنجد، وكان فيها عدة وقعات:

وقعة قفار مع عترة، ووقعة بنى حسين، ووقعة هتيم العوازم، ووقعة مطير وغيرهم. وسبب وقعة ظفير أنه انضم إلى جهامة مولانا السيد حمود قبيلة من ظفير يقال لهم الصمدة، ثم انضم إليه شيخهم الأكبر مع جماعته الأدين، وعصبته الأقوين، وكان محباً للسيد حمود بمنزلة العين للإنسان، والإنسان للعين. وهو ذو شهامة وصرامة، يعرف بابن مرشد سلامة، فوقع من جماعته جرم اقتضى أن يؤاخذوا بما هو المعتاد المنوت عليهم في مثله، وهو أخذ الشعثاء والنعامة، وفي خيار أوائل الأباغر، وخيار تواليها، فلم يرضوا بذلك، وقالوا هو جور وحيف، وليس عندنا دون ذلك إلا حد السيف، فأشار سلامة المذكور إلى مولانا السيد حمود وقال له: اربطنى ولسّ فى ذلك بمّلام، فوالله لتأخذن ما تريد على التمام.

فقال: كلا والله لا ربطتك ونخوة آبائى الكرام، وكيف ذاك وفى بطنك من عيشى طعام، وكفى به التزام ولزام فذهب سلامة إلى قومه، وقد تهيئوا للقتال والنضال والعدوان، وتهايا كذلك مولانا السيد حمود ومن معه من بنى عمه ومن الصمدة وعدوان.

فانخزلت الطائفة من الصمدة، وولت ناحية ناجية، وانكفأ الجمعان بعضهم على بعض، واختلط الفرسان فلم يبين الطول من العرض. وقتل من السادة الأشراف مولانا السيد زين العابدين بن عبد الله، ومولانا السيد أحمد بن حسين بن عبد الله، والسيد شنبر بن أحمد بن عبد الله.

وصوب مولانا السيد ظفير ابن السيد زامل بن عبد الله أصاوب. وكذلك صوب مولانا السيد باز بن هاشم بن عبد الله، إلا أن الله سبحانه منّ بالعافية عليهما ولله الحمد.

ثم إن السيد غالب بن زامل صبحهم بعد مُدَيِّدة، فحلم عن ستين لحية منهم، ولم يشف عن واحد من القتلى كبده. ولم تزل معهم ظفير فى قتل وطراد إلى أن أصلح بينهم مولانا المرحوم الشريف أحمد بن زيد، كما سيأتى ذكر ذلك فى محله. وفى تاسع عشرى رمضان: وقعت بمكة صاعقة جهة الشيكة قتلت رجلا واحداً. وفى رابع عشر شوال: بلغنا أن الباشا حسن أظهر بويوردى وقرأه على الأتراك بأن محصول جدة له يصرفه فى عمارة المسجد وغيره، فتعب منه مولانا الشريف سعد،

وأرسل له ونهاه عن ذلك، فلم يرجع وفعل فعل القسوس، فقامت بينهما النفوس. ونزل السيد محمد بن يعلى فى خيل ورجل وخدام، وواجهه فقابله بالتحية والإكرام، وكان بينه وبين مولانا الشريف مباينة وظنن، فتعب الناس من ذلك لما يترتب عليه من الفتن، ولكن كفى الله المخوف ودفع، ولم يحصل شئ من المكاره.

وفى يوم الخميس سادس عشرى الشهر المذكور: وصل ثلاثة من الأعراب بخبر سار للمسلمين بأن صاحب جدة معزول، فأخلع عليهم مولانا الشريف أدام الله له النصر والتمكين.

ودخل شهر ذى الحجة الحرام اختتام سنة ثمانين وكان بالإثنين. وفى يوم الجمعة خامس الشهر وصل مبشران: أحدهما من أتباع مولانا الشريف ممن يتلقى عن الحج الأخبار، والآخر من أتباع عماد أغا، ومن الحجاج والزوار، يبشران بوصول قفطان لمولانا الشريف من حضرة مولانا السلطان.

وفى اليوم السادس دخل الحجاج مكة المشرفة ووصل القفطان والمكتوب، فلبس وقرئ بالمسجد الحرام، بين زمزم والمقام، بحضرة الخاص والعام. وكان ممن حج فى العام جماعة من الأعيان، أركان دولة آل عثمان، أخو الوزير وعمه، وابن أخيه وأمه. فتوجه إليهم مولانا الشريف حال القدوم لسلام التحية، وأرسل لهم بهدية سنية.

وبعد نزولهم إلى منى توجه إليهم، ونص جميع ما جرى له من حسن باشا عليهم. فأرسلوا إليه فحضر، وتكلموا عليه وزجروه فانزجر.

وفى الاجتماع به مرة ثانية جمعوا بينه، وبين مولانا الشريف، وأصلحوا بينهما الحال، والحمد لله على كل حال. وكانت الوقفة بالثلثاء.

وفى خامس عشرى ذى الحجة المذكورة، انتقل الأخ الصالح رضى بن حسن الطاهر.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وألف، فى ثالث محرم الحرام يوم الجمعة رحل المحمل الشامى، وفى سادسه انتقل مولانا المرحوم الشيخ عبد الكبير بن محمد المتوكل، وهو من بيت سلف صالح رحمه الله تعالى ووالدى والمسلمين.

وفى يوم الجمعة سابع عشر الشهر المذكور، نودى لمولانا وسيدنا الشريف أحمد ابن المرحوم مولانا الشريف زيد فى البلاد بالربع، وأمر الخطيب يدعو له على المنبر مع أخيه دام مجدهما، وكان النداء قبيل الصلاة فى اليوم المذكور. وبعد صلاة عصر ذلك اليوم أرسل إليه الباشا حسن جماعة نوبته فضربت فى بيته، فأرسل إليهم فوق ما كانوا يطمعون. فخرجوا وهم يتشكرون.

وكذا فى اليوم الثانى والثالث على ما مضى عليه الأولون. وفى ثانى يوم جلس للتهنئة والمباركة، وألبس الخطيب ثوبًا نفيسًا، وأنفق فى ذلك اليوم مالا على الأتباع والفقراء تبشيرًا وتأنيسًا. وكان قدومه على المسلمين بكل خير.

ومما اتفق فى هذا العام أن رجلا من قبيلة النفعة يسمى عمير، ويكنى بأبى شويمة قتل جماعة منهم اثنان من ثقيف من قبيلة تسمى الحمدة ولهما إخوة وبنوعم، فكانوا فى طلبه يتجسسون الأخبار، فدخل فى هذه السنة بلدهم، وجاء راكبًا جواده، ووقف إلى قبة الحبر وزار، ثم دخل إلى السوق، فرآه بعض أقارب القتيل، فصاح به، وضربه ضربة أدركها ثم ضرب فرسه فقطع عرقوبها فحركها فلم تطاوعه للفرار، فسقط إلى الأرض فلحقه وقد صدمه الجدار فضربه ثالثة على أم رأسه فشقه فبرك عليه، وأراد ذبحه فمنعه الحاضرون، ثم قام نحو الخلاء وهو فى سكرات الموت، فصاح الصائح الحقوا غريمكم قبل الفوت، فتلاحقه الرجال يرمونه بالحجارة والنصال حتى سكن أنيه، وكانت هذه الواقعة يوم الخميس رابع ربيع آخر.

ثم إن أولاد عمير المذكور صاحوا فى عشيرتهم وذويهم، واستأثروهم على قتلة أبيهم، فأتاهم بنو سعد وعتيبة وجمع من العربان، ثم اجتمعوا وتهيئوا للقتال.

وحصل فى الطائف القيل والقال، فاجتمعت ثقيف، واستنصروا حلفاءهم لما بلغهم وصول القوم إلى لية ونواحيها، وبالقرب من القوم قبيلتان من ثقيف بنو محمد وثمانة فتوجهوا نحو القوم فأخذ القوم ينهزمون إلى أن وصلوا إلى عباسة بالخداع منهم والاحتيال، وهؤلاء البعض منهم والبعض الآخر كمن واختفى وراء الجبال حتى توسطت ثقيف، فإذا القوم منعطفون عليهم والكمين خارج إليهم، فاحتاطوا بهم فقتلوا الرجال، وأخذوا الأموال وأمسكوا جماعة عندهم مأسورين وهرب باقيهم. ثم إن القوم نزلوا إلى القرية وأخربوها وأخذوا الحبوب، وقطعوا الشمار وأحرقوا

بعض الدواب بالنار، وكان بالقرية أولاد الشريف، وحاكم الشريف فأرسلوا إليه فعرفوه. ففى صبيحة يوم الثلاثاء تاسع ربيع الآخر من السنة المذكورة، وصل من مكة نحو المائة من العسكر أرسلهم مولانا الشريف لحفظ البلد وحراستها.

وفى اليوم التاسع والعشرين من الشهر المذكور: لبس مولانا الشريف سعد خلعة النصر والتأييد بالأبطح جاءت من صاحب مصر المحروسة بعون الله العزيز الحميد، وكان متوجهاً إلى الشرق؛ لإطفاء نار فتن المفسدين والعتاة المتمردين. ودخل شهر جمادى الأولى، وتوجه مولانا الشريف إلى المبعوث، ووصل فى سابع عشره إليه - أيداه الله - تجاه جده خير مبعوث، وأرسل قبائل العرب فأجابوا بالسمع والطاعة، فنصفهم وأنصفهم، ولو شاء كشف عنهم من الستر قناعه، لكنها غير شيمة جده صاحب الشفاعة، ثم وصل منه إلى الطائف.

وفى هذا العام: وقع الصلح بين مولانا الشريف، والسيد حمود، فكان وصول مولانا السيد حمود - رحمه الله - إلى مولانا الشريف سعد بالطائف فلاقاه ملاقة الابن البار لأبيه، وألبسه فى الحال فروة السمرور، وطيب خاطره بكل ما يرضيه. ثم بعد يوم والذى يليه، عقد معه المبايعة على محكم الأساس، فى ضريح الحبر ابن عباس، ولم يدخل مكة معه بل تخلف فى مخاليفها، وكان به للمسلمين أعظم أسباب تأليفها.

وفى شعبان من السنة المذكورة: وصل رسول من باشا مصر، ومعه مكتوب من مولانا السلطان، ومعه خلعتان واحدة منهما لمولانا الشريف سعد، والأخرى لمولانا الشريف أحمد - حرسهما الله تعالى - وكانا غائبين فى أرض الحجاز، لإصلاح البلاد، وقمع أهل الظلم والعناد. فاجتمع العسكر الذين بمكة ليلاقوا رسول مولانا السلطان بالتبجيل والإعظام، وليدخلوا به على ما جرت به القواعد، فأتوا به من أعلى مكة، وأدخلوه من باب السلام، ووضعوا الخلعتين فى مقام الخليل، عليه السلام.

ودخل شهر رمضان وكان بالثلاثاء. ولما كانت ليلة الثالث والعشرين منه: دخل مولانا الشريف سعد مكة فى موكب عظيم تمام، ومكث يومه والذى يليه، ثم نزل اليوم الثالث إلى المسجد الحرام، ولبس الخلعة الشريفة بين زمزم والمقام، بحضرة

السادة الأعلام، وعساكر الإسلام، وقرئ المرسوم السلطاني، وفيه مالا مزيد عليه من التبجيل والإعظام. وكذلك مولانا الشريف أحمد لبس خلعته في هذا اليوم، وذلك أنه طلب من أخيه بعد النداء له بالربع والدعاء على المنبر أن يرسل إلى الحضرة العلية، ويعرف بذلك لتصل إليه الخلعة في كل عام وتقرر، فأرسل وعرف بذلك في مكتوب، فجاءه الجواب على وفق المطلوب. وقد سبقهما إلى مثل هذا الآباء والجدود، وفضل الله ليس بمحدود.

وفي يوم الجمعة خامس عشرى الشهر المذكور، دخل شخص أعجمى المسجد الحرام، والخطيب قائم على المنبر يعظ الأنام. فتقدم نحو الخطيب، وصرخ صرخة أزعجه بها، وأشغل جنانه، والسيف في يده سليل جمع عليه كفه وبنانه، فأوماً نحوه بالسيف وقرقر، وقال: أنا المهدي، الله أكبر.

فدافع عن الخطيب بعض الحاضرين بالسلاح والحجر، ومنعه منه وحجر، وحصل منه جراحات لعدة أشخاص، فاجتمعوا عليه وضربوه، وطرحوه إلى الأرض وقتلوه، ثم إنهم أخذوا برجله، وإلى خارج باب السلام سحبوه. فلما قضيت الصلاة، رجعوا إليه فأخذوا برجله، وصاروا يجرونه مع الضرب والإهانة، والحياة فيه باقية، فويل لهم من الله - سبحانه - إلى أن وصلوا به المعلاة وأحرقوه هناك بالقرب من بركة المصرى، وهذا أمر عظيم تحار فيه الأفكار، كون المسلم يهان هذه الإهانة، ويقتل بغير موجب ثم يحرق بالنار، نعوذ بالله من مكر الله.

ودخل شهر الحجة وكان بالسبت: دخل الحجاج يوم الخامس والأمير والمحمل يوم السادس. ولبس مولانا الشريف سعد والشريف أحمد خلعتيهما مع المصرى والشامى، وهذه أول خلعة لبسها مولانا الشريف أحمد فى هذا الموكب، ثم حجا بالناس.

ولما كان اليوم الثالث من أيام منى بعد انتصاف النهار نفر الباشا حسن إلى مكة وإلى رمى الجمار، فى موكب عظيم تشخص عنده الأبصار، والجند محدقون به إحداق الهالات بالأقمار.

فلما كان واقفاً عند العقبة لرمى الجمرة رماه ثلاثة رجال بثلاث بنادق، فخر على وجهه إلى التراب، فتلغاه جنده ورفعوه إلى التخت، وتحيروا فيما نزل بهم من هذا

المصاب بهذا المصاب، ونزلوا به إلى مكة في ذل وانكسار، وصاروا يقتلون من لاقوه من الناس من غير اختيار. فوصلوا به إلى مكة وأغلقوا عليه الدار، وتحصنوا في البيوت، ودخل جمع منهم المسجد بالسلاح والنار، ورموا فيه البندق نحو بيت مولانا الشريف سعد، وهتكوا حرمة بيت الله ذي الأستار، ووجهوا المدافع في الأربع الجهات، واحترس نهاية الاحتراسات.

ثم إن مولانا الشريف سعد توجه بعسكره إلى مكة خلفه بعد حين ملبسين مدرعين.

وأما الحجاج فمنهم من نفر إلى مكة، وأدخل أسبابه، ومنهم من لم ينفر، وجمع أهله وماله، وأغلق بابه.

ولما نزل الحجاج إلى مكة، واستقروا بها مكثوا خمسة أيام وأكثر مضطربين، وفي كل يوم تراههم رافعين لأسبابهم وواضعين، وكبراء الحجاج والأمراء يسعون بينهما في جمع الشتات.

وسبب الاضطراب: أنه قطع على مولانا الشريف استحقاقه من ناصفة جدة، فطالبه بها فامتنع وتجبر، وتنكر وتنمر. فوثب عليه مولانا الشريف في طلب حقه، وجمع جيشه وكبر.

فعند ذلك أصلح الله الأحوال، واتفق الأمر على إعطاء شيء من المال، وكان قدره ثلاثين ألف قرش.

ثم استعفوا مولانا الشريف سعد من الثلث، وأعطى عشرين ألف ريال، فسلمت لمولانا الشريف - أعزه الله بجاه النبي والآل -.

ثم لما توجه الحاج المصري يوم سابع عشر ذي الحجة الحرام المذكور، توجه معه حسن باشا، ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين، اتفق أنه لما رحل حسن باشا صحبة الحاج المصري من مكة إلى المدينة الشريفة أقام بها، فوفد عليه فيها مولانا السيد محمد ابن السيد أحمد بن محمد الحارث، فألزمه بالذهاب إلى والده السيد أحمد الحارث، واستلحقه إليه إلى المدينة الشريفة، فذهب السيد محمد المذكور فوصل إلى أبيه بالمحل المسمى بالشعري من أرض نجد، فأتى إلى المدينة الشريفة، فلما حضره نادى له بالبلاد بعد أن ألبسه خلعة، وقطع الدعاء للشريف سعد في الخطبة،

ودعا للشريف أحمد الحارث.

وقد كان مولانا الشريف سعد خرج صحبة الحاج أو عقبه حتى وصل إلى ينبع فأقام به. ولما بلغه ما فعله حسن باشا بالمدينة الشريفة من قطع اسمه من الخطبة، وتوليته للسيد أحمد الحارث والنداء له، أرسل إلى السيد أحمد الحارث كتابًا في غاية اللطافة، واللين والرقّة لا الكثافة، مضمونه بعد مزيد الثناء، وحميد الدعاء: إن هذا الواقع الذى سمعنا به؛ من تقمصك برد الملك وأثوابه، فهذا أمر أنت بيته الأعلى، ومثلك أحرى به وأولى، فإنك أنت الشيخ والوالد، الحائز كل كمال طريف وتالد، فإن كان هذا محكم الأساس فى البنيان جار على مقتضى مرسوم السلطان، فنحن بالطاعة أعوان، وإن كان الأمر خلاف ذلك، وإنما كان من تسويلات هذا الظالم الغادر، وتنميقات ذلك المذمم غير الظافر، فأجلّ حلمك أن تستخفه نكباء الطيش، أو أن تستنزله أخلاط الأشاوب وغوغاء الجيش.

فأرسل إليه الجواب مولانا السيد أحمد الحارث؛ بأن الأمر لم يكن على هواي، وإنما هو إلزام، مع علمي بأن هذا الابتداء لا يكون له تمام.

فاستشعر حسن باشا أن من نية مولانا الشريف سعد المسير إليه، فتهيأ للقتال، واعتد ولفق مع عساكر المدينة ما قدر عليه بالجد لا الجد، وصنع أكرًا من حديد قريبًا من مائتين تسمى قنابر تملأ بالرصاص والحديد يرمى بها من بعد إلى الجيش، فيفسد فيه ملأها المتناثر.

وكلما أراد المسير ثبطه السيد أحمد الحارث وثنائه، وأظهر له الرأى فى عدم المسير ومثاه. فعزم مولانا الشريف سعد وأخوه مولانا الشريف أحمد إلى المدينة الشريفة الظالم أهلها إذ ذاك، وصمم على القتال عزماً ليس معه انفراك.

وكان مولانا السيد حمود - رحمه الله - نازلاً بالمبعوث فى المربعة المنسوبة إلى مولانا السيد محمد الحارث، وكنت إذ ذاك نازلاً عنده فى تلك البقعة، وصلت إليه اشتياًقاً لمحيّاه السعيد، وفرحاً بعد طول الغيبة بأنس الرجعة، فلما كان يوم الأحد ثانى عشر جمادى الأولى بين صلاتي الظهر والعصر من سنة اثنتين وثمانين المذكورة إذ نحن بفارس على فرس عرى يدك الأرض دكا، فأقبل حتى دنا، فإذا هو السيد أحمد بن السيد حسن بن حراز رسولا من مولانا السيد أحمد الحارث، والباشا

حسن بمكتوبين يستدعيان مولانا السيد حمود للانضمام إليهما، ففتح المكتوبين، وقرأهما وتمقل ألفاظهما ومعناهما فنبذهما إلى، وقال: اقرأهما ثانيًا على، فقرأتهما، فإذا مضمون الأول الذى من الباشا حسن بعد الثناء والوصف الحسن: إننا قد ولينا أخاكم السيد أحمد الحارث بأمر سلطاني معنا، صحيح فى اللفظ والمعنى، والقصد أن تجمعوا الشمل، ولا تشقوا العصا، وتكونوا عونًا لأخيكم على من خالف وعصى، ولكم ما تريدونه من الجهات والمعينات وزيادة، فوق ما جرت به القوانين والعادة، وهذا حاصل ما فيه فلا حاجة إلى التكثير، ولا ينبئك مثل خبير. ومضمون كتاب مولانا السيد أحمد بعد العبارة، وإظهار الود والاشتياق، والحنو والإشفاق: إننى يا أخوك لم يكن لى هذا الأمر ببال، ولم ألتفت إليه بالقال ولا بالحال، وإنما لحقنى ولدك محمد إلى الشعرى، وكرر على القول مرة بعد أخرى، ولم أوافقه حتى رأيت جدك النبى ﷺ فى المنام قائلاً لى: وافق محمدًا وخلاك هلام، فحيثنذ رجعت، وكان ما سمعت، والقصد إنى أخوك الذى تعرفه ولا تنكره، فأقبل إلينا فهو أعظم جميل نذكره، والسلام.

ثم فكر مولانا السيد حمود ساعة، فكأنه كشفت له الفراسة عن وجه الغيب قناعه. وقال: كأتى برسول الشريف يصاحبنا إن لم يماس، فكأنه فى مرآة الغيب ناظر، فقبل الغروب إذا الراكب المنىخ بالفناء ابن بسيان جاسر. فتقدم إليه، وقبل يديه، وأخرج مكتوبين أحدهما من مولانا الشريف سعد، والآخر من أخيه مولانا الشريف أحمد، مضمونها استحثائه فى المسير إليهما، والحضور لديهما، وأن حسن باشا قد شمر عن ساقيه للحرب، وكشر عن نابيه للطعن والضرب، واستشهد مولانا الشريف سعد بقول الشاعر: [من الوافر]

وما غلظت رقابُ الأسدِ حتَّى بأنفسها تولّت ما عَنَّاها
وأتبعه بقوله: وأنت تعلم أن الأمر الذى يعنانا يعنك، وأدرى بما يثول إليه الأمر فى ذاك، وهذه ألف دينار صحبة الواصل المذكور إليك، فأدرك أدرك أدام الله فضله عليك. واستشهد مولانا الشريف أحمد ببيت الهمزية.

ثم إنى قلت لمولانا: ما صواب الرايين ويتوجه العزم إلى أى الوجهين؟ فقال: إلى سعد صاحب الفضل ومولاه، فبينى وبينه فى ضريح الحبر عتلات الله. فلو

اعترضنى عبد الله لكفحت وجهه بالسيف دونه والله ثم والله .

ثم توجه على الركاب يومه الثانى ، وقوض الأخبية ، وفارق المبانى ، حتى وصل إلى مولانا الشريف سعد وأخيه . وهما بالمحل الذى عذب بحلولهما بعد أن كان اسمه ملحاً ، فوافاه القضاء بما وافق مراده ، وأنتج نجحه من ورود القاصد بعزل حسن باشا وطلبه ، وانخرام حسابه وتقطع سببه .

ثم ارتحل من المدينة . فلما كان بطريق غزة وتلك النواحي ، توفى فدفن فى ذلك المحل الناحى . وأتت إلى مولانا الشريف سعد خلعة باشوية صحبة ذلك القاصد ، وكان إرسالها ضرباً من المكاييد .

ثم فى أواخر ذى القعدة من السنة المذكورة قبل قدوم الحاج بقليل : قدم محمد جاوش بجيوش نحو أربعة أو خمسة آلاف ضرب أوطاقه فى أسفل مكة الزاهر ، بمن معه من العساكر ، وصاروا يدخلون مكة عشرة سواء خمسة سواء وثمانية سواء ، ويعودون إلى خيامهم خارج مكة للمبيت ، ثم قدم صحبة الحاج الشامى شخص يسمى حسين باشا السلحدار بنحو ألفين ، وقد وسد من تلك الديار ، أن يعمل بما يتوراه نظره ويختار .

فلما كان اليوم السابع من ذى الحجة : خرج لملاقاة المحمل الشريف الشامى على العادة ، إلا أنه لم يخرج إلا من الثنية العليا المسماة بالحجون أعلى البلاد ، فوقف إلى أن يصل بها الواصل ، كما هو عادة الأوائل ، فلم يصل إليه أحد ، بل طلب منه أن يأتى إلى مخيم الأمير ، وهذا الأمر على شهامته غير يسير .

فعطف عنان فرسه راجعاً من طريق الشبيكة إلى مكة المشرفة . فخشوا من وقوع فتنة يذهب فيها الأقوياء والضعفاء ، فأرسلوها مع من لحقه بها فى أثناء الطريق ، وهُدُوا بذلك إلى طريق الرشاد والتوفيق .

ثم صعد الحجاج إلى عرفات ، وأفاضوا إلى المزدلفة ، ثم منى ذات المثوبات . فلما كان يوم النفر ، وهو اليوم الثانى من أيام منى ترددت الرسل من الشريف إلى أمير الحاج الشامى لما هو المعتاد من الخلعة التى صحبتها المرسوم السلطانى ، التى يلبسها ذلك اليوم مع المرسوم الذى يقرأ ، فيسمعه القاصى والدانى ، فلم يؤت بها إليه ، فعلم مولانا الشريف أن المدار بهذه العساكر القبض عليه ، فأضمر الصولة

عليهم والمسير، ولم يبال بذلك الجمع، وإن كان حصره عسير. ثم رجع الانكفاف بالذهاب، وإغلاق ما للشور من سائر الأبواب، ففر ومن معه على الخيل والركاب، فجزاه الله عن المسلمين أحسن جزاء، بحرمة محمد ومن والاه.

ولما كان ظهر اليوم الثانى عشر: حضر حسين باشا، ومحمد جاوش، وأكابر الدولة، وأمراء الحاج، واستدعوا جماعة من الأشراف، منهم: مولانا المرحوم السيد أحمد بن محمد الحارث، ومولانا السيد بشير بن سليمان، ومولانا الشريف بركات بن محمد، وأظهر أمرا سلطانيا بصريح اسم مولانا الشريف بركات فى شرافة مكة، وأنها تحت تصرفه، وله ملكها ملكة، وألبس خلعة الولاية فى ذلك الجمع. ونزل إلى مكة المشرفة فى موكب يهر العين، ويدهش السمع، ونزل إلى بيت أبيه المعروف بزقاق ظاعنة، ووقفت على باب الخيول صافنة، وهرعت السادات إليه والأعيان، والحضر والعربان، يهتونه بالملك والولاية، ويدعون له بطول البقاء والثبات بتوفيق العناية.

وما أسرع من انقلاب الحال، ولكل زمان دولة ورجال. وأرخ بعضهم عام ولايته بقوله نثرًا ما نصه: بارك الله لنا فى بركات، إلا أنه لسنة ثلاث وثمانين، والتولية إنما كانت فى موسم اثنين وثمانين، لكن التفاوت بزيادة سنة أو نقصها عند أهل التاريخ مغتفر. وكانت مدة ولاية مولانا الشريف سعد ست سنين إلا أحدا وعشرين يومًا. وورد فى ذلك الموسم كتاب من الوزير الأعظم أحمد باشا الكبرلى لمولانا السيد حمود بن عبد الله، وكتاب من باشا مصر له أيضًا وكذلك كتابان من الوزير المذكور ومن باشا مصر لمولانا السيد أحمد الحارث، وكذلك كتابان للمرحوم السيد بشير بن سليمان. والمضمون من الجميع واحد والعبارات مختلفات.

أما كتاب مولانا السيد حمود الذى من الوزير فنصه: «فرع ذؤابة هاشم، ونبعة وشيخ المحامد والمكارم، السيد حمود نظم الله عقوده، وأباد حسوده آمين. وبعد: فلا يخفى عليكم أن الكعبة البيت الحرام، ومطاف طواف الإسلام، هو أول بيت وضع للناس، وأسس على التقوى منه الأساس، وأنه لم يزل فى هذه الدولة العثمانية العلية آمنًا وأهله من النوائب، وروضًا مخصبًا بأحاسن الأطياب، إلى أن ظهر من السيد سعد من الأمر الشنيع، ما يشيب عنده الطفل الرضيع، وما كفاه ذلك حتى

شدد الخناق على أهل المدينة البهية، وأذاقهم كأس المنون روية. فلما بلغ هذا الحال السمع الكريم السلطاني، أمر بعزل السيد سعد عن شرافة مكة وتفويضها إلى الشريف بركات، ليعمل بها بحسن التصرفات، وتكونوا له معينًا وظهيرًا، وناصحًا ومشيرًا، وكل من يتفرع غصنه من دوحة فاطمة الزهراء، وتتصل نسبته إلى الذرية الغراء، تهدونه إلى طريق الخير والصلاح، وترشدونه إلى معالم النجاح والفلاح، وأنتم على ما تعهدونه من التكريم والتبجيل، والله على ما نقول وكيل .

ومما قيل فيه قولي هذه القصيدة: [من البسيط]

صَبَّ أَلَمٌ بِهِ طَيْفُ الْكَرَى فَصَبَا وَعَنْ أَجْبَاهُ لَمْ يَرُدُّ عَلَيْهِ نَبَا
وَقَدْ تَغَذَّى لِبَانَ الْحَبِّ مِنْذَ نَشَا وَلَمْ يَزَلْ بِالْغَوَانِي مَغْرَمًا طَرِبَا
تَنَاهَبَتْ عَقْلَهُ سَوْدُ اللَّحَاطِ فَلَمْ يُبْقِيَنَّ فِيهِ لَغِيرِ الْغَيْدِ مُطْلَبَا
فَصَارَ يَصْبُو إِلَى سَعْدَى وَأَوْنَةُ إِلَى سَعَادَ وَأَيَامَا يَجُرُّ رِبَا
وَلَا مَلَامَ عَلَيْهِ فَالْتَنَقُلْ مِنْ سَلَمَى لِلْبَنَى لَدَى شَرَعِ الْهَوَى نُدْبَا
فِيَا عَذُولَيَّ كُفَا عَنْ مَلَامِكَمَا فَلَا أَرَى لِي فِي نُضْحَيْكُمَا أَرْبَا
لِلَّهِ عَقْلٌ أَضْلَتَهُ الْحَسَانُ عَلَى عِلْمٍ فَهَامَ بِهَا نَأْيًا وَمَقْتَرِبَا
مِنْ كُلِّ مَمْنُوعَةٍ رُوسِ الْأَسْنَةِ لَوْ رَامَ التَّصَوُّورَ إِدْرَاكُ لَهَا حُجْبَا
مَرْقُوبَةِ الْحَفْظِ حَدُّ السِّيفِ يَرْقُبُهَا فَهَلْ سَمِعْتُمْ بِسَيْفٍ عَدَّ فِي الرِّقْبَا
عَقِيلَةُ الْحَيِّ مِنْ سَمَرِ الرِّمَاحِ لَهَا سَوْرٌ وَفِي صَفْحَاتِ الْمَرْهَفَاتِ خِبَا
وَحَذَرُهَا الثَّانِ مِنْ سِتْرِ الْحِشَاءِ فَمِنْ نِيَاطِي الْقَلْبِ قَدْ مَدَّتْ لَهَا طُنْبَا
هَا مَقْلَتِي لَهَبُ الْهَجْرَانِ سَيَّلَهَا عَلَى الْخُدُودِ فَظَنُّوا مَدْمَعِي سَكْبَا
مَنْ لِي بَمَنْ فَوَّقَتْ مِنْ قَوْسٍ حَاجِبَهَا سَهْمًا أَرَأَشْتُهُ بِالْأَهْدَابِ قَدْ هُدْبَا
مَعْسُولَةُ الثُّغْرِ يَطْفَى بَرْدُ رِيْقَتِهَا نِيرَانٌ مَنْ بَلَطَى هَجْرَانِهَا التَّهَبَا
لَمِيَاءُ رَشْفُ رَضَابٍ مِنْ مَوْشَمِهَا دَرِيَاقٌ مَنْ بَهَوَاها قَلْبُهُ لَسْبَا
يَهْدِي الذِّي قَدْ أَضْلَتُهُ ذَوَائِبُهَا جَبِينُهَا لَامِعًا بَادَ وَمُنْتَقَبَا
كَأَنَّهُ الْبَرْقُ أَوْ كَالصَّبْحِ أَوْ كَضِيَا سَعْدِ بْنِ زَيْدٍ إِذَا مَا قَامَ مُتَدَبَا
أَبَا مَسَاعِدِ رَاعِيهَا مَمْلُوكَهَا مَنْ حَلَّ رَتَبَةً مَجْدٍ جَارَتْ الشَّهْبَا
خِلَاصَةُ الْعَنْصُرِ الزَّاكِي الْمَطْهَرِ مِنْ جَذْرِ الْوَصَى الرَّضِيِّ أَكْرَمَ بَذَاكَ أَبَا

عليه سربال تقواه وعفته
أغرأ أزهر فياض أنامله
محاسن السادة الماضين قد جمعت
سمح إذا سيم للجدوى يمد كما
له يد خلقت للوجود فهو لها
هو المحكم عضييه إذا انتضيا
مفوة في كلا عضييه متسع
يمناه واليمن يمتدان في لزر
مستأسد بين عيني عرائمه
ولا تعاضمه أقطار محمده
ولا يميل من العلياء إن صعبت
إليك يا ابن الكرام الأطولين يدا
عروس فكر كوشي الروض باكره
يحلو بها قم راويها فتحسبه
وتنشق الورد منها أذن سامعها
خلائق كفتيت المسك طيبة
فاسلم على كاهل العلياء مرتقيا
وذم على خفض عيش ما يرثقه
ولاتساق المقول نقول:

ومن شمائل عليه ردا وقبا
من معشر في رياض المجد نبت ربا
فيه كجمع الغدير القطر منسكبا
يمد حاشاه صرّف الراح من شربا
طبع كما العين للإبصار قد رتبا
يومي جلاد جدال مفصلا أشبا
كلما وكلما إذا ما قال أو ضربا
قد أدركا في مداه السبق والقصبا
إذا تراءت له أكرومة وثبا
ولو غدا منكب الجوزا لها سببا
ولا يضل صواب الرأي إن نشبا
في المكرمات وفي الهيجا أحد شبا
غيث فرّ بنور مزهر وربا
صبا ترشف من عذب اللما ضربا
حتى تراه إلى إنشادها طربا
تلاق طيب سرة سادة نجبا
وصافن المجد غطى منهما عقبا
ريب الحوادث ما هب النسيم صبا

ثم وليها مولانا الشريف بركات بن محمد بن إبراهيم بن بركات بن أبي ندى .
قيل : ولايته بسعى الشيخ محمد بن سليمان المغربي السوسي ، وذلك أن الشيخ
محمد المذكور تشفع عند الشريف سعد في رجل أزيكى كان يسمى السيد محمد
الفصيحى فعل جرما مع مولانا الشريف سعد فلم يشفعه فيه ، وذلك فى سنة ثمانين
وآلف ، فاتفق أن أخا الوزير الأعظم حج فى موسم تلك السنة ، وكان له ولع بعلم
الفلك ، فاجتمع بالشيخ محمد بن سليمان المذكور فأخذ عنه فى ذلك ، فطلب من
الشيخ أن يسافر معه إلى الأبواب السلطانية ، فسافر معه واجتمع بالسلطان ، وطلب

منه أن يزِيل أشياء بمكة المشرفة، فأمر السلطان بإبطالها.
 منها: أن صدقة السلطان جقمق كانت تقسم على أرباب البيوت حبوبًا، وكانت سابقًا تطبخ شربة وخبزًا للفقراء أصحاب القدح، فردت إلى ما كانت عليه سابقًا، وأضيف إلى ذلك حب السلطان قايتباي.
 ومنها: توليته على جميع الأربطة وألا تكون إلا لمن يستحقها بشرط الواقف.
 ومنها: إبطال الدفوف في الزوايا.

ومنها: منع النساء من الخروج ليلة المولد الشريف، وتم جميع ذلك، وجعله ناظرًا على جميع أوقاف الحرمين. وسيأتي ذكر ورود الأمر بعدم إقامته في الحرمين بعد وفاة مستنده الوزير أحمد باشا الكبير.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وألف، خرج فيها مولانا الشريف بركات، وصحبته محمد جاوش بالعساكر في طلب الشريف سعد، فسلك طريق الثنية إلى الطائف، وكان الشريف سعد قد سلكها، ونزل بالطائف ثم ارتفع عنه إلى عباسة ثم إلى تربة ثم إلى بيشة فأقام بها، فتبعه الشريف بركات، ومحمد جاوش بمن معهما حتى انتهى في التبعية إلى قريب من البلد المسماة تربة، ثم عاد الشريف بركات إلى المبعوث ثم إلى الطائف فأقام.

وفيهما في شهر رجب عدا السيد حيدرة على عمه السيد على بن حسين فقتله غيلة.

يقال سبب ذلك الذي قامت به نفس السيد حيدرة غرارة من الحب حلف كل منهما أن الآخر لا يأخذها وهي بوادي مر، فركب السيد على بن حسين من مكة يريد وادي مر، فسمع به السيد حيدرة، فوجده في المحل المسمى «أبو الدود» ممرحاً متكئاً، فأتاه من خلفه، فدخل حيثنذ على بعض الأشراف فلم يمض كبار الأشراف دخله، فنهج إلى اليمن، ثم إلى مصر، ثم إلى مكة دخيلاً مع المحمل صحبة أمير الحاج الشامي، وباع عقاره وما يتعلق به، ثم رجع إلى مصر فتوفى بها بالفصل مع من توفى.

ثم إن الشريف بركات استمر بالطائف إلى شعبان، فأتاه الخبر بوصول خلع سلطانية، ومراسيم خاقانية، وصل بها القاصد إلى مكة، ووضعت في مقام الخليل،

على عادة التكريم والتبجيل، فجاء إلى مكة أواسط شعبان هو ومن معه من الأشراف والأتراك والعربان.

ثم فى أواخره: كان القبض على رجل من الأعيان. ثم فى ليلة السابع من رمضان قبض على آخر، وحملًا من ليلتهما على الأدهم، ثم حُدر بهما إلى جدة وأركبا غارب اليم. ثم قبض على ثلاثة من حواشى الدولة، وفعل بهم ما فعل بالأولين نعوذ بالله من سوء القولة.

ومثل ذلك فعل هذا القاصد بجماعة من أهالى المدينة المنورة فافتدوا أنفسهم بمال سلموه له، الله أعلم بكميته.

ثم خرج مولانا الشريف بركات فى الموكب حتى نزل بقبة الدفتردار إبراهيم صائماً بها لطيب النسيم. فلما كانت ليلة الرابع والعشرين من رمضان: قدر الله وفاة ابنه السيد محمد بن بركات، فنزل من يومئذ إلى البلد، واصطبر رغبة فى الأجر على لاعج الحزن والكمد. ثم خرج فى أثناء شوال إلى جهة ركة استدعاه السيد حمود ابن عبد الله.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وألف، فيها كان خروج الشريف بركات، والسادة الأشراف، والعساكر والعربان إلى قتال حرب وشيخهم أحمد بن رحمة، كان الظفر فيها للشريف بركات، ولم تنفعهم خنادقهم التى حفروا، بل كانت قبورًا لهم حين قبروا، فاستبيحت ديارهم، ونهبت أموالهم، وهلك نساؤهم وأطفالهم، وقتل خيارهم.

وفى يوم الوقعة المذكورة فى موقف المصاف، اصطلىح مولانا السيد حمود بن عبد الله هو ومولانا من صُنف هذا الكتاب برسمه، وشرف بشريف لقبه واسمه، مولانا الشريف أحمد بن غالب -متع الله بحياته- عن شحنة كانت بينهما قبل ذلك. سبب الصلح على ما بلغنا: أنه اتجه به وهم يتشاورون القوم، فأقسم عليهما مولانا الشريف بركات أن يصطلحا فى ذلك الوقت، فاعتقا حينئذ واصطلحا. رحم الله من سلف وأبقى من خلف.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وألف، فى سابع رجب منها: كان خروج مولانا الشريف بركات إلى أهل الفروع، وخرج معه من جدة سنجقها بعسكره ونوبته

ومدافعه، فتلاقيا على عسفان أو بعده، فصام بمحل قريب منها، يسمى «قوية» وعيد به، ثم توجه فتزل بأمر العيال منها، ونزل السيد ناصر ابن السيد أحمد الحارث بالمحل المسمى أبو ضباع، فدأوا له وأطاعوه، وتصلوا مما اقترفوه.

قلت: لما كنا في رابغ -المنزل المعروف- عائدين من الفرع صحبة مولانا الشريف بركات، وكنت قد خرجت معه - رحمه الله - إلى الفرع بإلزام من الشيخ محمد بن سليمان إماماً له، ومدرساً له ولابنه الشريف سعيد ابن الشريف بركات، دخلت عليه فقال لى: يعيش رأسك فى المغربى، فقلت أى المغاربة؟ فقال: عبد الرحمن المحجوب، فقلت: رحمه الله رحمة واسعة، فلم يتكلم بشىء، فعلمت من قوله وسكوته أنه سرى بغض شيخه الشيخ محمد بن سليمان للسيد عبد الرحمن إليه بحيث إنه تسبب لبعض خواص السيد عبد الرحمن المذكور فى أذى بليغ، وإهانة من الشريف بركات.

وبلغنى أنه قال لبعضهم حين مات السيد: مات إلهكم اليوم، فلا قوة إلا بالله، نسأل الله السلامة.

وفىها -أعنى سنة خمس وثمانين وألف- فى سادس صفر منها: كانت وفاة مولانا المرحوم ليث السراة الصيد من بنى هاشم، غوث الطريد فما لجاره من حاشم. رأس بنى حسن المشهورين، فارس أبطال قريش المذكورين، مولانا وسيدنا السيد حمود ابن الشريف عبد الله بن الحسن بن أبى ندى بن بركات، اختصه مولانا الشريف زيد واستدناه، واستخلصه دون رباعته واجتباها، فزوجه بابنته، لصدق نيته، وخلوص طويته، وألقى إليه مهمات البلاد، من الحواضر والبواد.

وفى يوم وفاة مولانا الشريف زيد: لم يشك أحد أنه يقوم بعده ذلك المقام، كان فى ظن أركان الدولة فضلاً عن العوام، ولكن لم يرد الله أن يتقمصها، ولا أن يأوى طيره قفصها. ولقد سألته -رحمه الله- فى مدة ذهاب عرض مولانا الشريف سعد وعرضه إلى الأبواب: ماذا يخمنه مولانا فى الجواب؟ فأجابنى بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلُوكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآية، وذلك جواب مثله. ودفن من الغد خلف مسجد الحبر ابن عباس، وبنى على قبره تابوت، وحوط عليه حوطة فسيحة، رحمه الله ونور ضريحه.

وفى تاسع رجب منها: توفى مولانا السيد أحمد بن محمد الحارث بمكة المشرفة. كان رحمه الله آية فى العقل والذكاء، مرجعاً للأشراف فى جميع أمورهم، وإذا حكم بأمر لم يقدر أحد أن يستدرك عليه فيه شيئاً لحسن أحكامه، وشدة إحكامه.

وكان قد ولاه حسن باشا فى طيبة - كما مر ذكر ذلك - مدة ستة أشهر أو قريباً منها. ولما رجع عماد أفندى إلى الديار الرومية سئل عمن يستحق الملك إذ ذاك من السادة الأشراف؟ فقال: ثلاثة لا غير: أحمد بن الحارث، وحمود بن عبد الله، وبشير بن سليمان.

ودفن فى قبة السيد مسعود ابن الشريف حسن، ووضع عليه تابوت عظيم، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وألف، فيها كان خروج الشريف سعيد صحبة الحاج الشامى إلى الديار الرومية بعروض من الشريف بركات يطلب فيها أن يكون ولده الشريف سعيد ولى عهده، فكتب له أمر سلطانى، وأن يكون هو صاحب مكة بعد وفاة أبيه، فكان ذلك برأى الشيخ محمد بن سليمان وتدييره، فتم له ذلك كله بعد وفاة أبيه.

وفى سنة ثمان وثمانين وألف يوم الخميس ثامن شوال منها: وقع حادث غريب، وكارث عجيب، هو أنه وقع فى ليلته أن لُوث الحجر الأسود، وباب الكعبة، ومصلى الجمعة، وأستار البيت الشريف - بشئ يشبه العذرة فى التتن والخبث، فصار كل من يريد تقبيل الحجر يتلوث وجهه ويده، ففزعت الناس من ذلك، وضجت الأتراك، واجتمعت وغسل الحجر والحجر والباب والأستار بالماء، وبقي الأتراك والحجاج والمجاورون فى أمر عظيم.

وكان إذ ذاك رجل من فضلاء الأروام يلقب درس عام، فكان يرى جماعة من الأرفاض بالمسجد الحرام، وينظر صلاتهم وسجودهم وحركاتهم عند البيت والمقام، فيتحرق لذلك ويتأوه.

فلما وقع هذا الواقع قال: ليس هذا إلا فعل هؤلاء الأرفاض اللثام، الذين يلازمون المسجد الحرام، وكان حيثئذ مع قضاء الملك العلامة، السيد محمد مؤمن

الرضوى قاعدًا خلف المقام، يتلو كتاب الله ذى الجلال والإكرام، فأتوا إليه، وأخذت الختمة من يديه، وضرب على رأسه، وسحب حتى أخرج من باب المسجد المعروف بباب الزيادة، فطرح خارج الباب، وضرب بالحجارة والكسارات حتى زهق فمات.

وفى حال مسكهم إياه من المسجد كلمهم فيه شخص شريف من السادة الرفاعية يسمى السيد شمس الدين، فعدوا عليه، وألحقوه به، فضرب حتى مات وجُر، ثم أصابوا آخر فضربوه، وأخرجوه وقتلوه، وعلى من قبله طرحوه، ثم فعلوا ذلك برابع، ثم بخامس.

ولقد رأيتهم مطروحين، وبقي بعضهم على بعض، الآتى والذاهب يوسعهم السب والركض، ولقد رأيت ذلك الشيء، وتأملتة فإذا هو ليس من القاذورات، وإنما هو من أنواع الخضروات عجيب بعدس ممخخ وأدهان معفئات، فصار ريحه ريح النجاسات. وكان هذا الفعل عند مغيب القمر من تلك الليلة ليلة الخميس ثامن الشهر المذكور، ولم يُعلم الفاعل لذلك.

وغلب على بعض الظنون أن ذلك جعل عمدًا وسيلة إلى قتل أولئك. والله العالم بالسرائر، وهو متولى البواطن والظواهر.

وفيها فى ليلة النحر حصل مطر عظيم بعد نفر الحاج من عرفة، واستمر إلى بعد نصف الليل.

وفى سنة تسع وثمانين وألف رابع عشرى ذى الحجة الحرام منها: سالت أودية طيبة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام، بما لم يُسمع بهيئته الاجتماعية فى سابق الدهور والأعوام. سال أبو جيد سيلا هائلا، أخرب جميع ما حوله من الديار، وأحدث فى الحدائق الدمار، وأحرق بالمدينة، وخرب كثيرًا من الدور التى تحفها، وكاد أن يدخلها من باب المصرى، ورجفت البلاد، وانزعجت العباد، وضجت الأصوات بالدعاء، وجرت العيون بالدمع من البكاء، ولكن بحمد الله لم يهلك فيه إلا شخص أو شخصان، وتلك للرسول معجزة، ولأصحابه كرامة، وصارت تحية الناس بعضهم لبعض نهنيكم بالسلامة.

والحاصل أنه أمر حير الأفكار، وقصر عن تفصيله بيان الأخبار. وكان فى ذلك

اليوم بعينه سيل بواى الصفراء، سد ما بين الجبلين، ولم يضر من القافلة أحدًا من الناس، سوى أنه أخذ امرأة، وولدها بالحمراء بين الصفراء والخيف، وذهب ببعض نخيل الخيف إلى الحمراء، وذهب ببعض الجمال والأحمال، فعَن البحر حدث ولا حرج.

وفى سنة تسعين وألف يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر رمضان منها: كانت وقعة محمد بن أحمد الخلفانى وزير المدينة الشريفة من جهة الشريف بركات، سببها ثيار عسكر عليه، ودعواهم أنه سب السلطان، فاجتمعوا على بابه ودعوه إلى الشرع الشريف، فأجاب: إن هذا الجمع يتفرق ويتعين الخصم فأنزل معه، فأبوا عن ذلك وكتبت لهم حجة بعصيانهم الشرع، فوصلوا إلى بيته، وكسروا عليه الباب، وكان معه جماعة فى البيت، فأخرجوهم على أمان الله وأمان السلطان، فلما خرجوا قتلوهم، فكان ممن قتل القائد مُتعب بن إدريس حاكم البلد إذ ذاك، وولده وأخوه، ورفيع ولده، وابن دريعة الظاهرى، وعمران الزيبدى، ورفاع، وخُضير، والعمرى، وعبيد للخلفانى، وفى جملتهم مثقال عتيق الجمال محمد على بن سليم كان مستخدمًا عند الخلفانى.

كل هذا فى ضحوة يوم الأحد المذكور. وأما قتل الخلفانى، فكان عند الزوال من يومه فكان آخر من قتل؛ لأنه اختفى عند الحریم، حتى دلتهم عليه امرأة دخلت كأنها متوجعة له فأخبرت بمكانه أو رأته، فدلّت عليه، فدخلوا عليه عند الحریم، وقتلوه ثم سحبوه من أعلى البيت إلى أن أخرجوه إلى قارعة الطريق، واستمر طريقًا إلى آخر النهار، وأوحى إلى مولانا الشريف بركات أسماء الفاعلين وكانوا قريبًا من ثلاثين نفرًا فعرض فيهم إلى الأبواب، فورد الأمر بقطع جوامكهم وتخريجهم من البلاد، فقطعت وأخرجوا، ثم عاد إلى المدينة بعضهم. بعد سنوات بشفاعات، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

وفى سنة إحدى وتسعين أواخر شهر شوال: ظهر نجم له ذنب طويل إلى جهة الشرق، واستمر إلى آخر السنة ثم اضمحل.

وفى يوم الإثنين ثانى عشر ذى الحجة الحرام منها - والركب المصرى فى نفير السير من مكة - أمطرت السماء كأفواه القرب بل كأفواه الغروب وسالت الأودية من

سائر الجنوب، وحصل سيل عظيم أخرج الدور، وأتلف من الأموال ما لا يحصى، وأخذ الجمال محملات، وأغرق نحو خمسمائة نفس، ودخل المسجد الحرام، وعلا على مقام إبراهيم، ومقام المالكي، والحنبلي، وعلا قفل باب الكعبة، وأكثر الغرقى غرباء؛ لأنه أتى وقت الشديد، وذلك أول الزوال، وسقط كثير من الدور، واقتلع الجميزة التي بسوق الليل.

ولقد شاهدت وأنا بباب المسجد النافذ على بيت الشريف، والماء ملاً الطريق وهو مكور في المسجد، شاهدت قطراً من الجمال عليه الركبان من رجال ونساء وصبيان دهمه السيل فانحاز إلى رأس الزقاق الغير النافذ جنب دار السعادة، ورأيت الماء وصل من الجمل - وهو قائم تحت دار السعادة - إلى منحره، ثم ازداد عليه الماء، فاقتلع ذلك القطر بما عليه وتدهور فيه، وعلى هذا فقس.

وصعد جماعة من العسكر على سطح رواق المسجد اليماني أمام دار السعادة، وطلبوا حبلاً ليدلوها فيمسكها من أخذه السيل فيرفعه، فأمر لهم المرحوم الشريف بركات بحبال ترمى من سطح دار السعادة إلى سطح الرواق المذكور، ورمى هو بنفسه بعض تلك الحبال، فرحمه الله تعالى ما كان أرحمه وأرفه فنجاً بذلك خلق كثير، وسبح بعض الجمال في المسجد حتى انتهى إلى المنبر، فارتفع عليه فصار مرتفعاً على المنبر يده، وعنقه مرتفعان عن الماء وباقيه فيه، وكان طوفان والعياذ بالله، ولم يبق من درج باب الزيادة التي في داخل المسجد إلا أربع سنن، ولم يبق من طول أعمدة الرخام إلا نحو الربع أو أقل. وأرخ بعضهم سنته بقوله: «طغى الماء». وخرج أمير الحاج بالمحمل بين العشاءين في نفر نحو العشرين بغير نوبة ولا موكب ولا ضوء ولا ثوب زينة، وخرج من أعلى مكة.

فلما كان بسوق المعلاة وقع جمل المحمل في حفرة من حفر السيل فما طلع إلا بجهد جهيد، فسبحان الله الفعال لما يريد.

وفى سنة ثلاث وتسعين وألف رابع عشر صفر: توفي الشيخ حسن بن علي الدهان. ولد بمكة سنة أربع وألف، ودفن بالمعلاة وقد ناهز التسعين.

وفى صفر المذكور: خرج مولانا الشريف أحمد بن غالب - متع الله بحياته - من مكة مفارقاً للمرحوم الشريف بركات في نحو خمسة وعشرين أو ثلاثين من السادة

ذوى مسعود وغيرهم، فدخلت السادة الأشراف فى الصلح بينهما فلم يتم، فخرج بهم إلى الركائى من وادى مر، واجتمعوا هناك وتأهبوا، وساروا منه فى شهر ربيع الثانى قاصدين الأبواب السلطانية، فوصلوا إلى الشام، فأنزلهم متوليها حسين باشا السلحدار بيت نقيب الأشراف، وأجرى عليهم الأنعام والألطف، وعرف بشأنهم إلى الأبواب، فأمروا بكتابة عرض بما يشكونه فكتبوه، وأرسلوه مع اثنين منهم هما السيد محمد بن مساعد، والسيد بشير بن مبارك، فوعدوا بإزاحة شكواهم.

وفىها فى حادى عشرى ربيع الأول منها: وقعت فتنة سببها عبد السيد حسن بن حمود بن عبد الله، اختصم مع عسكرى من عسكر الرتبة عند الششمة، سطا العسكرى على العبد، وضربه وأخذ سلاحه، فاستحث السيد حسن الأشراف، والعبد العبيد، واجتمعوا عند مولانا المرحوم السيد محمد بن أحمد بن عبد الله، فانفلتت شردمة من العبيد نحو الخمسين شاهرين السلاح، فوصلوا إلى المروة، فهربت الأتراك وأرادوا الرجوع، فرماهم بعض الأتراك الساكنين فى الربع بالأحجار، فأرادوا الطلوع إليهم، فكسروا بعض الدكاكين التى تحته بظن أنه باب الربع، فوجدوه ملآن من النحاس والجوخ والأثاث، فنهبوا جميع ذلك، وفعلوا بدكان آخر جنبه مثل ذلك، وصوبوا نحو ثلاثة من الترك بالسلاح، وقتلوا رجلا من المجاورين كان يحتجم عند حلاق بالمروة ثم ذهبوا، ثم خرجت الأتراك، وجاءوا إلى الأفندى، وأرسلوا إلى مولانا الشريف يطلبون الغرماء، فضربوا فلم يصبروا، وأتوا إلى بيت الشريف، وبيت السيد أحمد الحارث، وكان به جماعة من عسكر الشريف، فرموهم من بيت الحارث فقتلوا من الترك أيضًا اثنين فرجعوا، وأرسل مولانا الشريف إلى الأشراف يطلبهم الغرماء فامتنعوا، وخرج الأشراف إلى الشيخ محمود وقالوا: من يطلب الغرماء يأتى.

والعبيد خرجوا جميعًا حتى عبيد الشريف نفسه، والحاكم إلى بركة الماجن، ووجدوا جماعة من الأتراك مقيلين، فأخذوا جميع ما معهم، وضربوهم ونهبوا قريبًا من أربعمئة رأس من الغنم، ثم أرسل الشريف بركات أخاه السيد عمرو، فرد العبيد، ثم قصد مولانا الشريف تسكين الفتنة، فأمر على عبيدين كانا محبوسين فى سرقة أن يشنقا فشنقا، فلم تطب نفوس الأتراك بعد رؤيتهما، ثم وجد السيد يحيى

ابن الشريف بركات - وكان يعس البلد - عبيد سارقين، فضرب أعناقهما، ورمى بجثتيهما تحت جميزة المعلاة، وذكروا للأتراك أنهما الغرماء فرضوا.

واصطلح السادة الأشراف مع الشريف، ودخلوا مكة.

ثم حصل لمولانا الشريف بركات مرض، واستمر نحو شهر زمان، فلما كانت ليلة الخميس ثامن عشر ربيع الثاني من السنة المذكورة - أعنى سنة ثلاث وتسعين - : توفي شريف مكة مولانا المرحوم الشريف بركات بن محمد بن إبراهيم بن بركات بن أبى ندى، ودفن وقت الضحوة يومه فى حوطة الشيخ النسفى بوصية منه، ولم يحصل للناس لا خوف ولا فرح. وكانت مدة ولايته عشر سنين، وأربعة أشهر وستة عشر يوماً. رحمه الله رحمة واسعة آمين.

ومما قيل فيه من الشعر قولى قصيدة حين عوده من ذهابه لخفارة الحاج الشامى، فوصل البلاد المسماة بالبحر ديار ثمود، فوافق حال دخوله حصول مطر بها، أشرت إلى ذلك فى القصيدة وهى: [من البسيط]

ما ظَلَّلَ البِرق المنصور سُلطاناً	إلا وكُلُّهُم فى ظِلِّ مَوْلانا
أبا زُهَيْر العلا بركات سيِّدنا	والى البسيطة عجماناً وعُزباناً
حامى جَمَى مَكَّة العَرَا وطِيبةً مَعَ	أقطارِ أنحائها حفظاً وإتقاناً
ذو هِمَّة همة الإسكندري غَدَتْ	أقلُّها وبها كَم دان بلدانا
وعزيمة فى مُهِمَّ الخَطْبِ صَادِقَة	تُصَيِّرُ الإِمْتِناعَ الصَرْفَ إِمكاناً
تأمينُ حجاج بيتِ الله قَمَتْ له	بالنفسِ والمالِ والأبناءِ إذعانا
فَحُطَّتْهُمُ مثلُ حوطِ الابنِ كافله	وَكَمَ بذلكَ قد أَذهَبَتْ ذُهَبانا
فى طاعةِ الله والسلطانِ لا برَحْتِ	له ملائكةُ الرَحْمَنِ أعوانا
مولى ملوكِ الورى الغازى محمد خا	ن زادَهُ الله نصرًا أينما كانا
وشرَّفَتْ بك أرضَ الحَجَرِ إذ سَقَيْتِ	غِيثًا بمقدمِكَ الميمونِ هَتَّانا
حتى لقد ظَنَّ فى الأجداثِ هالِكُهُم	لأنَّ يَنالَ من الرحمنِ غفرانا
أنتَ الذى بك تاهَتْ مَكَّة وزهَتْ	بحسنِ أيامه عدلاً وإحسانا
أنتَ الذى بك ضَمَّ الشملِ ناثره	مِنْ بعدِ تفريقِهِ مثنى ووُحْدانا
أى الملوكِ بلادُ الله بلدَتُهُ	تمسى رعيَّتَه لله جيرانا

حَتَّى مَلَائِكَةُ الرَّحْمَنِ وَالْجَنَانَا
لَمْ يُمْكِنِ الْحَجُّ مِنْ بَغْدَادَ إِنْسَانَا
أَنْ يَلْمَسُوا لِاسْتِلَامِ الْبَيْتِ أَرْكَانَا
جَمِيعُ وَجْهَاتِنَا أَمْنَا وَإِيمَانَا
لِلَّهِ نَيْتُهُ سِرًّا وَإِعْلَانَا
يَشِيدُ حَقًّا لِدِينِ اللَّهِ أَرْكَانَا
بِالْحَقِّ يَنْصِفُ مِمَّنْ عَزَّ أَوْ هَانَا
وَمَنْ يَمُنُّ وَلَا نَلْقَاهُ مَثَانَا
فِي مُحْفَلٍ جَحْفَلٍ مَا زَالَ مَلَانَا
إِذَا تَلَوْتُ قَبِيلَ الْفَجْرِ قَرَانَا
وَقَايَةُ اللَّهِ أَزْمَانَا فَأَزْمَانَا
ذُ الْمُؤَيَّدُ طَوَّلَ الدَّهْرِ أَقْرَانَا
حَتَّى تَرَى ابْنَ ابْنِ الْإِبْنِ سُلْطَانَا
أَنْفَاسُ رِيحِ الصَّبَا الْمِسْكِي أَغْصَانَا

وقال محمد بن جدوع المشهور بالشاعر التغلبي: [من الطويل]

أَتَانِي مَعَاضِلُ كَثِيرٍ بِمُحْفَلٍ
مِنَ الْقَهْرِ خَوْفًا أَنْ أَمُوتَ أَوْ أُنْسَلِ
عَلَى الذِّكْرِ فِي دِيرَاتٍ بِكْرٍ وَمُوَصِّلِ
ذَلِيلٍ وَلَا لِي مِنْ جَنَاهَا مُحْصَلِ
وَلَا حَالَتِي هَذِي لِي الْمَوْتُ أَسْهَلِ
أَشُوفُ السَّمَاءَ فَوْقِي وَتَحْتِي وَلَا أَزْمَلِ
حَفِظْتُ بِهَا مِنْ هَمَّتِي كُلَّ مَجْهَلِ
بِهَا اللَّيْلُ غَدْرًا كَالْقَمِيصِ الْمَفْصَلِ

أَيُّ الْمُلُوكِ عَلَى كُلِّ مَوَدَّتِهِ
أَيُّ السَّلَاطِينِ لَوْلَا صِيَتْ هَيْبَتِهِ
وَلَا تَيْسَرَ لِلْعَبَادِ فِي عَسَقِي
يُبْنِي طَلْعَتَهُ الْعَرَّا قَدْ امْتَلَأَتْ
مُبَارَكُ الْإِسْمِ وَالْأَفْعَالِ قَدْ خَلَصَتْ
لَهُ سَرِيرَةُ صَدَقٍ لَا يَزَالُ بِهَا
الْفَضْلُ شَيْمَتُهُ وَالْعَدْلُ سِيرَتُهُ
يَا وَجْهَ آلِ رَسُولِ اللَّهِ قَاطِبَةُ
أَهْدَى الثَّنَاءِ لَكُمْ فِي كُلِّ آوَنَةٍ
وَمَا أَقْصَرُ أَصْلًا فِي الدَّعَاءِ لَكُمْ
أَدْعُو بِطَوْلِ الْبَقَا وَالْمُلْكِ تَكْنُفُهُ
لَا زَالَ حَظُّكَ وَالنُّصْرُ الْمُؤَيَّدُ وَالسَّعْ
وَلَا فَتَنَتْ قَرِيرَ الْعَيْنِ مَبْتَهَجًا
ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى جَدِّكَ مَا عَطَفَتْ

ذُهِمْتُ بِمَا لَا أَرْضَى وَلَا أُطِيقُ بَعْضُهُ
نَهَضْتُ^(١) مَعَا مَا جَدَّمِ الْعَزْمُ^(٢) مَصْرَمُ
فِيَا لَيْتَنِي عَنْ ذَا بَعِيدٍ وَمَنْزَلِي
وَلَا قُمْتُ فِي دَارِ ذِرَاعِي قَصِيرَةٍ
يَهْوُنُ عَلَيَّ أَزْوَاجُ نَفْسِي مَشَقَّةُ
بِأَقْوَى غُبَابِ الْبَحْرِ مَاءٍ وَمَوْجَةٍ^(٣)
ذُهِلْتُ بِهَا مِمَّا جَرَى كُلُّ مَا مَضَى
وَكُنْ لَيْلَةٍ بَيَضًا سَرِينَتْ وَلَيْلَةٍ

(١) بالأصل: نهضت؛ بالصاد المهملة.

(٢) بالأصل: من العزم.

(٣) بالأصل: وموجه.

إذا ما تَنَحَّى ^(١) الليلُ وقفا وجدْتُنِي
كَبِيرَةً عُثْنُونِ القَفَا صَنِيعِيَّةٍ
لِهَا اِعْلَامُ شَيْبٍ كَثُفَتْ مَرَاوِخُ
بَخْدٍ كظَهْرِ الذَّيْبِ وعِرا قَطَعْنَهَا ^(٣)
ويا طالما اسْتَازِي بِغُرْضَةٍ نَاقَتِي
مِنْ أَزْوَامِ حَرِّ القَيْظِ فِي هَوَجَرِيَّةٍ
تَتِمُّ بِهَا الأَنْظَارُ شَتَّى كَثِيرَةٍ
بِهَا القَوْزُ غَرَفِي كَالْقَوَائِقِ غَطْسُ
صَلَبْتُ النِّصَا فِيهَا بِالْأَذْلَاجِ وَالسُّرَى
مِنْ الهَجَرِ رَا دَمْنُ الكَلَا فِي جَنُوبِهِ
وَكَمْ هَامَ فِيهَا قِسْمَتَاهُ رَاقِدَا ^(٤)
وَكَثُرَ خُورِ القَوْمِ فِينَا وَأَيَقْنُوا
خَلِيلِي لَا تَخْشَوْنَ مِنِّي مَعْرَةً ^(٥)
فَصَلَّنْ وَصِيلَ الرَّمْلِ فِي مُذْلَهِمَةٍ
وَرَدْتُهُ وَالْأَقَانِ مَا أَنَا بِخَابِرِ
أَنْخَنَّا عَلَيْهَا الْعَيْسَ مِنْ بَعْدِ سَرِيهِ
وَلَمِينَ حَطِ الغَرْبِ عَجَلًا فَقِيلَ لِي
وَلَمِينَ وَصَلْتُ الحِبَالَ بِجَدَّةٍ ^(٨)
أَرَى كُلَّهُمْ يَلِطُنْ بِكَفِّيهِ خَدَّهُ
فَقُلْتُ لَهُمْ لَا تَحْزَنُونَ فَاَنَا لَكُمْ

عَلَى كُلِّ فَجَا ^(٢) الصَّدْرِ وَجَنَاءَ مَرَقِلٍ
كَأَنَّ مَرَايِفَهَا عَنِ الزَّوْرِ تَفْتَلِ
أَوْ اكْتَامَ رَقَاصٍ إِنْ أَقْفَى وَأَقْبَلِ
وَمَرَا بِصَفْصَافٍ بِدَاوِيَّةٍ خَلَى
فُرُوحَ القَطَا وَابْنَ النِّعَامِ المَجْقَلِ
فَرَائِدُهَا فِي الآلِ تَخْفَى وَتَعْتَلَى
كَأَنَّ بِهَا الْبَيْضَ الْهُوَارِي تُسَلِّ
عَلَى الرُّوسِ فِي وَسْطِ المَعْمَى المَطْوَلِ
رَجَا كُلِّ عَادِيٍّ قَدِيمٍ مِنْ أَوَّلِ
كَأَنَّهُ بَذَرٌ فِي كِلَاتِي جَذُولِ
أَنَاسٍ عَلَى الْأَنَاسِ فَاعْفُ وَأَغْفِلِ
بَلْدَرَكَ مِنْ شَوْفِ أَخِيهِمْ يَوْمَ يَكْفَلِ
عَلَيَّ لَكُمْ مِيرَادَكُمْ أَيْ مِنْهَلِ
خَلَصَنَ ^(٦) وَكَمْ فِيهَا دَلِيلٌ تَوَجَّلِ
سَوَى الْعِزْمِ إِلَّا أَنَّهُ بِالْأَذْكَارِ وَضَفَّ لِي
وَدَرْتُ لَدَوْسِ الدَّائِسَاتِ ^(٧) تَأْمَلِي
أَمَّا يَزِدُّهَا إِلَّا رِشَاءَ مُوَصَّلِ
وَإِكْتَرَبَتْ عَضْدِي فِي الْمَغْرَبِ فُجْزَلِي
وَيَغْضَهُمَا مِنْ خَوْفَةِ الْمَوْتِ هَلَلِ
أَطْوَعُ ^(٩) مِنْ لَدُنِ الْأَدِيمِ الْمَبْلَلِ

(١) بالأصل : تنحى ؛ بالخاء المعجمة .

(٢) بالأصل : فج .

(٣) بالأصل : تطعتها .

(٤) كذا بالأصل .

(٥) بالأصل : مغرة ، بالغين المعجمة .

(٦) في أ : خلقت .

(٧) بالأصل : الدالسات ، وفي أ : الدابسات .

(٨) في أ : بجده .

(٩) في أ : الهوع .

وصدّرتهم روبا وصملا نهم ملى
 وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا إِذَا قَالَ يَفْعَلِ
 لَنَا فِي نِزَارِ نِسْبَةٍ مَا تُبَدِّلِ
 تَكْمِلُنْ أَعْمَامِي وَأَفْعَالِ مَخُولِي
 حَمِيدَةُ أَفْعَالِي صَدُوقُ بِمَقُولِي
 مَنْ اخْتَارَهُ الْمَوْلَى عَلَيْنَا لَنَا وَلِي
 لَهُ نَسَبِ عَدَلِ بَطْهٍ مُوَضَّلِ
 وَكَمْ عَكَفُوا بِهِ مِنْ رُسُولٍ وَمُرْسَلِ
 بِكُلِّ ابْتِلَاحٍ ذَرْبٍ^(٥) تَصَلَّصَلِ مِنْ عَلِي
 وَكَمْ عَطَفُوا بِضُدُورِهِمْ رُوسَ ذَبَلِ
 سَرَايَاهُ^(٦) فِيهَا مِنْ عِرَاقٍ وَكَمَلِ
 إِلَى هَدَمٍ^(٧) جَمْعَ عَنِ الْجَمْعِ يَعْزَلِ
 وَالْإِبْنِ^(٨) عَنِ أَبَاهَا^(٩) تَغْضُ وَتَنْسَلِ
 وَقَبْلَهُ عَسَاكِرُهُمْ تَذَلُّ وَتَخْذَلِ
 عَلَى ضُمُرٍ مِنْ طُولِ مَمْشَاهُ مَحَلِ
 مَطَاوِيعِ لَذَنَاتِ الْمَرَاضِعِ قَفَلِ
 نَشُوفِ ثَقِيلِ الطَّغْنِ أَقْفَى وَأَشْمَلِ
 وَهُمْ قَبْلَ ذَاكُم فَكَّكُوا وَشَرَّ مَحْمَلِ
 وَمِنْهُ تَخْلَى الْعَارِضُ الْفَرْدُ مِنْ بَلِي

نزلت بها واسقيت ربي بسرعة^(١)
 ولست بقوال ولا هو بصادق
 أما ضام وأنا من عرائن تغلب
 فإن قصرت عن فعل أبي^(٢) همتي
 ولا أقصرت^(٣) عن هؤلاء بل^(٤) لحقتهم
 ولي ثقة في سيد ابن سيد
 أبو سعيد بزكات بن محمد
 على الزين كم فرق من اصنام لا به
 وكنم لطم الضد القوى بغارة
 على الخيل للدين ولو ما تعاودوا
 وكنم فرقوا بالسيف محزوم ضربة
 على رأى حزام الخروب أن تفاختت
 ومنه يخلي الابن عم ابن عمه
 أغارث ملوك الروم واستنصروا به
 تقلل من وادي قریش وجزهم
 وقب تجابذهن الازسان حزب
 فلما تبين وجه ممشاه صائل
 وأنكر بغض بعد الاجماع بعضهم
 وطاع الضجر الصليب ولا قسا^(١٠)

(١) بالأصل: بسرعة.

(٢) بالأصل: أبائي.

(٣) بالأصل: أنصر، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٤) بالأصل: بل قد.

(٥) بالأصل: أبلغ ذراب.

(٦) بالأصل: سراياه.

(٧) بالأصل: هدم.

(٨) بالأصل: والابناء.

(٩) بالأصل: أباه.

(١٠) كذا.

وَكَمْ مِنْ عَزِيزٍ عِنْدَ مَلَقَاهُ غَالِي
 مِنْ أَوْزَامِهَا الْجَمْعُ الْقَوِيُّ بِمَثْلِهِ
 بِهَا الْحَدْبُ لَزَمَنِ النَّوَاصِي بِمَكْنِهِ
 وَخَفُوا عَنْ أَطْفَالٍ وَشَيْبٍ كَثِيرَةٍ
 وَكَمْ طَلَبُوا مِنْهُ الرِّحَا فِي مَرَاكِهْمِ
 عَسَاهُمْ يَتُوبُوا عَنْ مَنَاخَاةِ مِيمِرِ
 بِقَوْمٍ إِذَا زَمُوا عَلَى الضُّدِّ وَاجْمَلُوا
 وَمِنْ عَطْوَةٍ وَأَمَّا بِهَا مِنْ عَطِيَّةٍ
 وَمِنْ عَرْضٍ مَا عَطَى كَمْ حُكُومٍ مِنْ جَهَامَةٍ
 مَعَاذًا بِهِ الْحَارَاتِ بِالْقَرَبِ حَسِرِ
 كَلِيلٍ مَقَاوِ الطَّرَفِ عَنْهِنَّ دَائِمًا
 فَإِنْ غَابَ عَنْهَا بَعْلُهَا فَهُوَ سِتْرُهَا
 فَدَاهِ دَوِينِي قَلِيلَ أَمَانَةٍ
 فَجَزَنِي عَلَى مَدْحَى بِمِصَالِ دِيرَتِي
 وَلِي أَسْوَةٌ بِاللَيْثِ وَإِنْ كَانَ نَادِرِ
 وَلِلْحَرِّ عَادَاتٌ إِلَى رَبِّ مَا كَرَنْ
 وَصَلُّوا عَلَى خَيْرِ الْبَرَايَا مُحَمَّدٍ
 دَعَاهُ عَلَى التَّالِي قَطِيعٍ مَهْمَلٍ
 وَحَزَجَمَتِ الْأُظْعَانُ فِي كُلِّ مَتَرٍ
 وَلَا بَقِيَّةَ بَيْنَاتِ الْمَطَاهِيرِ مَخُولِ
 وَخُورٍ عَلَى ابْنَاهَا تَجَنُّ وَتُغُولِ
 عَلَى أَطْفَالِهِمْ مِنْ مَأْخِذِ الْقَوْمِ يَعْقِلِ
 مَصَالَاهُ قَبْلَ الْفِعْلِ لِلْخَضَمِ يَقْتُلِ
 بِالْأَفْكَارِ مِنْ دَارٍ لِدَارٍ تَحُولِ
 وَمِنْ رَمَكٍ فِيهَا أَصِيلٌ وَمُصْهَلٌ
 بِهَا نَاقَةٌ حَمْرًا وَخَوَارَةٌ خَلِي
 وَلَوْ كَانَ أَزِينُ مِنْهَا الشَّمْسُ وَاجْمَلِ
 مَدَى الْعَمْرِ مَعَ حَدْثِهَا^(١) مَا تَخَلَّلِ
 رَعُوفٍ بِهَا كَنَّهُ وَلِي مَوَكَّلِ
 مِنَ الْخَوْفِ الْأَرْضِ بُجَارَتِهِ تَزَلْزَلِ
 فَكُلْ غَرِيبٍ نَاقِصٌ لَوْ تَطْوُلِ
 بَلَا غَابَتُهُ لَزَمَا يَكُلُ وَيَنْكُلِ
 مِنْ أَطْوَلِ مَا فِي الْأَرْضِ مَا يَنْزِلُ اسْفَلِ
 عَدَدُ مَا مَشَوْا لَهُ مِنْ حَفَايَا وَنَقْلِ

ثم تولى الشريف سعيد ابن الشريف بركات ابن السيد محمد ابن السيد إبراهيم ابن السيد بركات ابن الشريف أبي ندى يوم موت والده الشريف بركات قبل أن يجهزه، ذهب السيد عمرو بن محمد فى جماعة من الأشراف إلى حضرة أفندى الشرع، وطلبوا منه قفطانا، فسألهم الأفندى هل رضوا السادة الأشراف؟ فقال له السيد عمرو: نعم رضوا بذلك، فأتوا منه بقفطان، فألبسوه للشريف سعيد، ثم نودى بالبلاد باسمه، ومع المنادى مولانا الحسين بن يحيى، ومولانا السيد عبد الله بن هاشم، ثم جهز الشريف بركات، وصلى عليه فاتح بيت الله مولانا، وسيدنا الشيخ عبد الواحد ابن المرحوم سيدنا ومولانا الشيخ محمد الشيبى القرشى العبدى بوصية

(١) بالأصل: خذنها.

منه، ودفن في المحل المتقدم ذكره.

ثم عقد مجلس يوم الجمعة ثانی يوم الوفاة بالحطيم حضره الأشراف والعلماء والأعيان والعساكر، فأظهر الشريف سعيد أمرًا سلطانيًا مضمونه: إنه لما أرسله مولانا الشريف بركات إلى حضرة مولانا السلطان محمد خان، أنعم عليه بالملك بعد أبيه، فقرئ بمحضر ذلك الجمع، فسكنت الخواطر والأحوال، لموجب ذلك الأمر الواجب الامتثال، فلذا لم تقع مخالفة من أحد ولله الحمد والمنة.

ثم حصل بين الشريف سعيد، والسيد ناصر ابن المرحوم أحمد الحارث بعض مقاومة من جهة وعد لم يتم، فقامت نفس السيد ناصر، وعضد معه جماعة من الأشراف، منهم: السيد محمد بن يعلى، وذوى جود الله فى خمسة وعشرين شريفًا، فما زالوا يسعون بينهم بالصلح حتى اصطلحوا ولله الحمد.

وفى ثانی عشر رجب من السنة المذكورة - أعنى سنة ثلاث وتسعين وألف - وصل أغا صحبته قفطان من صاحب مصر لمولانا الشريف سعيد بن بركات جاء بحرًا، وخرج من ينبع.

وفى ثامن عشر رمضان، منها: ورد مورك السميرى يخبر أن السيد زيد بن حمزة رسول الشريف سعيد إلى الأبواب وصل إلى ينبع، ويخبر أن القفطان السلطاني واصل بحرًا.

وفى سادس عشره: وصل السيد حمزة إلى مكة.

وفى رابع شوال منها: ورد إلى الأفندى أمر سلطاني بإخراج الشيخ محمد بن سليمان من الحرمين إلى بيت المقدس، فأرسل إليه الأفندى يأمره بالخروج، فطلب مهلة ثلاثة أيام، فأمهل ثم لم يأمن على نفسه، فلما أتوه على الوعد امتنع، فجاء إليه العساكر إلى بيته فصاح، وصاح أهل بيته من نساء وأطفال وخدم، فتركوه ومضوا إلى الشريف، وأفندى الشرع، وأخبروهما بما وقع، فأرسلوا إليه مولانا السيد ثقبه ابن قتادة فحاوله على الخروج، فأجابه: إني ممثّل الأمر، وإنما تمهلونى إلى الحج، فتوجه السيد ثقبه فى الإمهال إليه عند الشريف، وأفندى الشرع فأمهلاه، ثم خرج صحبة الحاج الشامى.

وفى ثامن عشر شوال من السنة المذكورة: دخل الأغا بالقفطان والمرسوم

السلطانين، فلبسه مولانا الشريف سعيد فى الحطيم، وقرئ المرسوم على العادة بالتبجيل والتعظيم والتصريح بتفويض أمر الحرمين إليه والتعويل فى حراستهما عليه، وكان له ذلك النهار موكب عظيم.

وفىها وصلت صدقة من ملك الهند إلى الحرمين قدرها مائة ألف ربية، أربعون ألفاً للشريف، وستون لمكة والمدينة، فكتبوا أسماء الناس فى دفتر، وعدوهم بالتقسمة، ثم اقتضى رأيهم أن يأخذوها جميعاً، ويأمروا أهل مكة بأن يكتبوا باستلامها، فكتب أهل مكة بذلك.

وأرسل إلى أهل المدينة، وطلب منهم أن يسمحوا كما سمح أهل مكة بذلك، فكان جواب أفندى المدينة وشيخ حرما وأغوات العساكر ما نصه: إن هذا شىء لعامة الناس فلا يسعنا السماح عن جماعة ما نعتقد رضاهم، وأبوا أن يجيبوا بغير هذا.

فلما وصل الخبر بذلك عنهم دبوا تدبيراً آخر لا حاجة بنا إلى كشفه، وأرسلوا به إلى السلطان أورنك زيب صحبة السيد محمد البرزنجى فلم يعط قبولا، ولم يواجه السلطان هو ومن معه أصلا، ثم عاد إلى مكة بعد ذلك فى ستة خمس وتسعين، وقد كان فى غنية وعزة عن مثل هذه الرسالة التى هذا شأنها، وقد أخذت منه المكاتيب من بندر سُورَت، وأرسلت إلى السلطان، وذلك لما بلغ السلطان حقيقة الحال.

وقد كان المرحوم مولانا الشريف بركات عرض إلى الأبواب لما فارقه مولانا الشريف أحمد بن غالب متع الله بحياته ومن معه، فعرف أن السادة الأشراف أتعبوه بالطلب الشطيط، وأنه بالغ فى إرضائهم بكل وجه، فقال: إلى حد أنى رضيت أن أجعل لهم مغل ثلاثة أرباع البلاد، ويكون لى ربع، فكان جوابه أنهم أبرزوا له أمراً سلطانياً بذلك، فورد إلى مكة بعد مدته فى الحج آخر سنة ثلاث وتسعين المذكورة.

ولم يُرد مولانا الشريف بركات طلب هذا الأمر، وإنما لما أرسل إلى الأبواب متنصلا عن المخالفة على السادة الأشراف، ومبيناً أنه ساع فى ملائمة هواهم بحيث إنه رضى بأن يجعل ذلك لهم، ظنت الدولة العثمانية أن ذلك مراد له، ومطلوب فأخرج له أمر بذلك، فلما وصل كتبه الشريف سعيد، فتحققته السادة الأشراف، وطلبوه من الشريف، فأحضره على ما أشيع مجلس الشرع، وسجل مضمونه،

وقسموا مدخول البلاد، والإخوان أرباعاً، ربع لمولانا الشريف وربع تشيخ فيه مولانا السيد محمد بن أحمد بن عبد الله، ومولانا السيد ناصر بن أحمد الحارث ومعهما جماعة من الأشراف، والربع الثالث تشيخ فيه مولانا الشريف أحمد بن غالب دام علاه، ومولانا السيد أحمد بن سعيد، ومعهما جماعة من الأشراف، والربع الرابع تشيخ فيه مولانا السيد عمرو، ومولانا السيد غالب بن زامل، ومعهما جماعة من الأشراف، فحصل بذلك التشاجر في القسمة والتعب والتشاحن، ووقع في البلاد السرقات بل النهب الصريح، واختلفوا فيما بينهم، ولزم من ذلك أن كل صاحب ربع يكون له كتبة وخدام يجمعون ما هو له.

واستكتب مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته عسكرياً، وانضم إليهم عبيد ذوى زيد فحصل عند الشريف سعيد تعب من ذلك، فأمره بترك العسكر فامتنع، وذكر أن السوائف سبقت بمثل هذا لصاحب الربع، وشهد بذلك كبار الأشراف، فذكر الشريف سعيد أنه متوهم من هذا الفعل وطلب من يكفله له، فكفله عشرة من الأشراف، واصطلحوا على ذلك، ثم ادعى الشريف سعيد على الأشراف أن عبيدكم أتلّفوا البلاد، والقصد من أهل الأرباع أن يرسل كل منهم شخصاً من جانبه يعسون البلاد مع جماعتي، فأجابوه إلى ذلك.

فأرسل مولانا الشريف أحمد بن غالب أخاه مولانا السيد حسن بن غالب، وأرسل مولانا السيد محمد بن أحمد بن عبد الله ابنه بركات بن محمد، وأرسل الشريف سعيد مولانا السيد حمزة بن موسى بن سليمان في جماعة من الخيالة والدّبابة معهم القائد حاكم البلاد أحمد بن جوهر.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وألف: وصل في خامس شهر رمضان منها إلى مكة هدية من ملكة «آش» بلد بأقصى الهند وتلك مقابل هدية كان أهداها إليها مولانا الشريف بركات، منها ثلاثة قناطير ذهب مصطنع يصفى على النصف خالصاً، وثلاثة غلايين ذهباً، وثلاثة أرتال كافور، وجانب عظيم من القرنفل والجاوى، وآواق زباد آشى، وللكعبة الشريفة بخمسة قناديل، ومبخرتين وشمعدانين، وللمدينة كذلك قناديل، ومباخر وشماعدين، فتنازع السادة الأشراف الشريف سعيد طالبين الثلاثة الأرباع منها، فامتنع من ذلك، فقامت النفوس بينهم وبينه، ثم وقع الصلح على

إعطائهم النصف منها فأخذوه.

وفى سادس عشرى ذى القعدة منها: فتح البيت الشريف وجاء مولانا الشريف سعيد، ومولانا السيد محمد بن حمود، ونائب الحرم، وعلقوا الخمسة القناديل بالكعبة الشريفة.

وفىها يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة الحرام منها: انتقل بالوفاة إلى رحمة الله تعالى مولانا السيد محمد بن أحمد بن عبد الله - رحمه الله تعالى رحمة واسعة - . وفى شهر ذى الحجة منها: لم يخرج السادة الأشراف جميعهم مع الشريف سعيد إلى العرضة، فبعد أن حج الناس، ونزلوا عقد الشريف سعيد محضرًا فيه أمير الشامى صالح باشا، وأحمد باشا صاحب جدة، وأمير الحاج المصرى ذو الفقار بك، وأمين الصرة والسرادير، وأكابر الحج وأغواته، وشكا من الشريف أحمد بن غالب كتابة العسكر، وأنه مناكذ لى فى البلاد وأنه أفسد عليّ الأشراف، وأنه حصل منه ومن جماعته الفساد فى البلاد.

وأرسلوا السيد غالب بن زامل إليه ليحضر فيظهر ممن الخلاف، فامتنع من الحضور فى بيت الشريف، وقال: إن كان القصد الاجتماع فى المسجد، وإن كان لكم دعوى، فأوكل وكيلا يسمع ما تدعون به على، ثم أرسلوا إليه عن كتابة العسكر وما بعده، فأجاب بما أجاب أولا أن هذه قواعد بيننا قد سلفت أن صاحب الربع له أن يكتب عسكرًا. وأما قولكم: إنه قد حصل من جماعتى أو عسكرى مفسدة، فأطلقوا مناديا فى البلاد: معاشر الناس كافة هل أحد يشكو منى أو من جماعتى أو عسكرى شيئا أو أخذوا حق أحد ظلما أو ضربوا أحدا؟ فإن وجدتم مشتكى صح ما قلتموه، وإلا فلا وجه لكم.

وأما تركى العرضة فكان خوفاً أن يقع شيء فينسب ذلك إلى أو إلى جماعتى. كل هذا والأشراف جميعهم اجتمعوا على قلب رجل واحد ولم تزل خيولهم مسرجة، ودروعهم عيابها غير مشرجة، بل قد لبسوها، وملثوا الأجياد إلى العقد، وتحركت الأنفة الهاشمية التى تأبى الضيم والزهيد.

وبلغنى عن الثقة أن صالح باشا أمير الحاج الشامى كان من جملة كلامه إلى الشريف أحمد متع الله بحياته: إن لم تصطلحوا طوعاً أصلحناكم بالسيف، فأرسل له

فى الجواب: السيف لنا يا بنى هاشم ما هو لفلالىح الشام؁ ولكن إذا نمى فأحكمى
تزرير مضربك عليك.

ولما أن سمع الأمراء والأكابر جواب الشرىف أحمى بالكلام الأول؁ وعلموا أنه
لا وجهه عليه؁ ولا خلاف ينسب إليه؁ سعوا فى الصلح بینه وبين الشرىف سعى على
أن يكفل كل منهما جماعه من الأشراف؁ ولا يتعدى أحمى على صاحبه؁ وكتبى
بینهما حجة شرعىة؁ وطلبوا من الشرىف أحمى ملى بىاته أن ىأتى إلى الشرىف
سعى؁ فوصل إلى لىلة فى شهر الحج قبل خروج الحاج الشامى؁ ثم بعدها وصل
إلى الشرىف سعى لىلة أخرى؁ وتم الصلح ولله الحمد.

وأما صالح باشا فى يوم الاجتماع المذكور وصل فى نحو مائة من عسكره إلى
بى مولانا الشرىف أحمى ملى بىاته؁ وقبل ىده واعتذر مما تكلم به؁ فقبله
وقبله بوجهه الطلق الصبى؁ ولاطفه بلفظه العذب الفصبى؁ ورفع عنه الملام؁
وأكرمه كما هو طبعه الشرىف غایة الإكرام.

وفىها -أعنى سنة أربع وتسعى وألف-: أمر مولانا الشرىف سعى بالنداء فى
البلاى ثامن عشر ذى الحجة الحرام أن لا ىقىم أحمى من الغرباء بالبلاى من جمعى
الأجناس على حسب ما ورد به الأمر السلطانى؁ ثم إن أرباب الأموال من الأتراك
وغیرهم تكلموا مع سرادیر العسكر؁ وجعلوا لهم مصلحه فاجتمعوا؁ وعزموا إلى
أحمى باشا صاحب جده؁ وذكروا له أن هؤلاء التجار المصارىة أموالنا معهم؁ وأنهم
نافعون لنا فى البلاى؁ وحسنوا له التكلم مع الشرىف سعى؁ فأرسل إلى الشرىف
سعى فتكلم معه فى إبقائهم فساجل على ذلك؁ وأطلق منادیه سابع عشرى ذى
الحجة المذكورة: أن من كانت له مده طویلة ىقىم ولا خلاف علیه؁ فما أسرع
انتقاض الحكم بضده بعد تسعة آیام.

وفى ثانى عشر شعبان منها: كانت وفاة والدة مولانا السلطان الغازى المجاهد
السلطان محمد خان؁ كانت صاحبة خیرات وصلات؁ تغمدها الله بأتم الرحمات.
وفى عاشر ذى القعدة: كانت وفاة شىخنا الشىخ محمد بن سلیمان المغربى
المالكى السوسى المفتن فى جمعى العلوم؁ المشهور عند العرب والروم. توفى
بدمشق الشام؁ مولده سنة ثلاث وثلاثین وألف. قرأ على كبار المشایخ ببلده؁ من

أجلهم قاضى القضاة مفتى مراكش، ومحققها سيدى عيسى السجستاني، والعلامة محمد بن سعيد المراكشى، ومحمد بن بكر الدلائى، والشيخ سعيد بن إبراهيم (المشهور) بقُدُورَة مفتى الجزائر ستين سنة، وتلقن منه الذكر ولبس الخرقة، ولازم الشيخ محمد بن ناصر الزرعى أربعة أعوام فى التفسير والحديث والفقه والتصوف وغيرها، وصحبه وتخرج به.

ثم رحل إلى الشرق، ودخل مصر فأخذ بها عن العلامة الشيخ على الأجهورى، والشهاب الخفاجى، والشيخ شهاب الدين بن سلامة القليوبى، والعلامة سلطان المراحى وأجازوه، وبرع فى العربية والمعانى والبيان والعروض والحساب والفلك والهيئة والحكمة.

وأخذ عنه جماعة كثيرون عدة فنون. وألف كتباً مفيدة منها: «مختصر جامع الأصول» لابن الأثير. واختصر «التلخيص» وشرحه. ووضع حاشية على «التسهيل» وحاشية على «التوضيح» و«منظومة فى علم الميقات» وشرحها، وله جدول جمع فيه مسائل العروض كلها. واخترع كرة عظيمة فاقت على الكرة القديمة والإصطرلاب، وانتشرت فى الهند واليمن والحجاز.

أقام بالمدينة سنين عزباً فى خلوة بقايتباى، ثم جاء إلى مكة وجاور بها، ثم رحل إلى الروم فى موسم سنة ثمانين صحبة أخى الوزير الأعظم أحمد باشا الكبرلى، وحظى عنده حظوة عظيمة، وفوض إليه أمر أوقاف مكة وغيرها، وعمر الأربطة الدامرة والمآثر الدائرة، وأنشأ تربة بالمعلاة وجعلها جداراً أوتاراً متقاطعة فى نصف قامة على شكل شطرنجى، وعدتها ثلاثة آلاف وسبعمائة قبر بلغت النفقة عليها من مال الوزير المذكور أربعة آلاف أحمر ومائة أحمر كان ابتداءها سنة سبع وثمانين وألف، وسعى فى عزل مولانا الشريف سعد، وولى الشريف بركات بنظره وإشارته، وصار فى مكة صاحب الحل والعقد، وأنيطت أمورها جميعها إليه، ويتردد الشريف بركات إلى بيته كل يوم، وربما جاء مرتين فى اليوم الواحد، وأكابر الحاج وأمرأؤه يأتون إليه، فمن قبل عليه أذن له ومن لا فلا، ولا يقطع الشريف بركات أمراً قل أو جل إلا بنظره، وربما فعل أمراً بغير نظره، فإذا علم به نقضه من يومه، إلى أن مات الوزير المذكور، فضعف أمره، وورد الأمر من الوزير الآخر مصطفى باشا أولاً

بالتحذير والنهي عن مشاركة الدولة في أمورها من قليل أو كثير، والتنفير عن المكارشة فيما يتعلق بها من جليل وحقير، وذلك سنة سبع وثمانين وألف، فأغلق ذلك الباب، وصار لا ينفذ شيئًا إلا وحيا أو من وراء حجاب.

ثم في جمادى الأولى من السنة المذكورة عزم إلى بلدة الطائف وصاف بها، ثم ارتحل منها أواخر شعبان، فسقط على وادي مر، ثم توجه منه إلى المدينة المنورة الشريفة، فدخلها ثاني يوم من رمضان، فأقام بها نحو أربع سنين، وابتنى في أثناء تلك المدة دارًا بلصق جدار المسجد النبوي الشمالي.

فلما كانت سنة إحدى وتسعين وألف: رحل منها في النصف من شهر شعبان عائدًا إلى مكة فدخلها ثامن عشره، فاستمر بها إلى أن ورد الأمر ثانيًا سنة ثلاث وتسعين وألف بتخريجه من الحرمين، فخرج إلى مكة صحبة الحاج الشامي موسم سنة ثلاث وتسعين كما تقدم ذكر طرف من ذلك، وأخذ في سفره الأول إلى الروم عن الشيخ خير الدين بن محمد الرملى الحنفى، وبدمشق عن الشيخ محمد بن بدر الدين البلبانى الحنبلى، والسيد محمد بن كمال الدين نقيب الأشراف.

وله فهرست بجميع مروياته وأشياخه سماها صلة الخلف بموصول السلف. ووصل في سفرته الثانية إلى دمشق الشام، فأقام بها حتى كانت وفاته في هذه السنة - أعنى سنة أربع وتسعين وألف رحمه الله وتجاوز عنه. انتهى.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين فيها يوم الجمعة ثانى عشر محرم الحرام لما أراد أحمد باشا النزول إلى جدة حشكت عليه السادة الأشراف بسبب أنه استولى على الربع من حب الجراية التى ترد إلى مكة بعد أن كلموه فى ذلك فامتنع، فسكتوا عنه إلى يوم نزوله جدة وهو يوم الجمعة المذكور، فتحزبوا جميعًا، وقالوا: لا ينزل حتى يعطينا ما هو لنا ولا يبقى عنده شيء، وكان ذلك بعد أن تقدمه أهله وقله إلى جدة فصار أحيى من ضب، واجتمعوا ببيت السيد محمد بن حمود، وأرسلوا إليه السيد ثقبه، فقال له: إن نزلت قبل أن تصلح الأشراف يأخذوا جميع أسبابك التى تقدمت، وينهبوا حريمك ويقتلوك، فأذعن حيثئذ بوفائهم، فقالوا: لا نرضى بذلك حتى تكفل لنا، فكفل لهم كرد أحمد المعمار، وجميع السرادير، والوزير عثمان بن زين العابدين حميدان، وكتبوا بذلك حجة شرعية، وأنه إن حصل منه منع لبعض

حقوقهم فيكون عاصي الشرع والسلطان. ثم خرج من مكة بعد عصر ذلك اليوم كالهارب: [من البسيط]

أَلْجَدُّ فِي الْجَدِّ وَالْحَرَمَانُ فِي الْكَسَلِ

وفيها تاسع ربيع الأول: ورد أغا من صاحب مصر بقفطان للشريف سعيد، وبطلب كرد أحمد المعمار، وهذا كرد أحمد كان قد وصل قبل هذه السنة، أرسله الوزير الأعظم مصطفى باشا إلى عمارة المسجد الحرام وحده، وكانت عمارته في المسجد فرش أروقه بالحجر الشبيكي، وعمارته بجدة إجراء عين إليها استمر فيها نحو ثلاث سنوات ابتدأها من المحل المعروف بالقوز، وعمر بها أيضًا مسجدًا ومنارة وحمامًا ووكالة.

وسبب طلبه لما غضب على مرسله الوزير الأعظم مصطفى المذكور بسبب الولس الذي نسب إليه مع الكفار على المسلمين، وكان هذا كرد أحمد من خواص الوزير المذكور، فجاء الأمر لمولانا الشريف سعيد.

ففى يوم وصول الأغا ختم على بيت كرد أحمد الذى بمكة، وركب الأغا من يومه إلى جدة وختم على بيته بها وعلى جميع المال وأحضروا المهندسين فخمّنوا العمارة فخمّنوا كل ذراع بقرش ريال بعد أن ذرعوا من الابتداء إلى البلد فبلغ كذا وكذا ألف ذراع، وكذلك خمّنوا ما صرف على فرش المسجد، وحسبوا جميع ذلك، وكتبوا به حجة شرعية، وخرج من مكة إلى جدة فى شهر ربيع الآخر فذهب بحرًا إلى من طلبه.

ومما وقع فى هذه السنة من العجائب: أن حرمة من جهة الشبيكة من نساء العرب وضعت كلبًا فخافوا الفضيحة فقتلوه ودفنوه.

وفيها أيضًا: جاء نجاب من مصر، وأخبرنى مشافهة أن بالمويلح القرية المعروفة حرمة ولدت ولدًا، فذهب أبوه إلى جهة السوق، فلما رجع قال الولد المولود لوالده: العوافى يا باه قضيت حاجتك، وتكلم بأشياء كثيرة من ساعته. وهذا من العجائب التى لم يسمع بمثلها إلا نادرًا والقدرة صالحة، وبعد ذلك فقد الولد فسبحان القادر على كل شيء.

وفيها: تضرر السادة من غلو سعر الذهب، ووصول الأحمر إلى ثمانية حروف

وربع، وبسببه غلت الأسعار، فطلبوا من الشريف أن ينادى بتزول سعره إلى أربعة حروف؛ لتنزل أسعار المسعرات إلى النصف من كل شيء، فأجابهم إلى ذلك، فتعب من ذلك صاحب جدة أحمد باشا وعساكر مصر حين أرسل لهم الشريف بمثل ذلك، وامتنع من النداء عليه إلا بسبعة حروف، وكان ذلك عشرين جمادى الأولى. ثم إن عسكر مصر شكوا إلى الشريف سعيد أن هذا ضرورة علينا، فنسأل الفضل أن يجعلوه بستة حروف ونصف لا علينا ولا على السادة الأشراف خلاف، فأمر الشريف سعيد بالنداء بذلك والفسح به، فلما سمعوا السادة الأشراف بموافقة الشريف سعيد للأتراك فيما طلبوه تعبوا، واجتمعوا في بيت السيد مبارك الحارث؛ لأنه هو أول من تكلم في ذلك الشأن.

ثم ركبوا إلى السيد غالب بن زامل وكان بالأبطح، وأخبروه بمخالفة الشريف هواهم واتباعه هوى الأتراك، فأتى مولانا السيد غالب ومولانا السيد محمد بن حمود، ومولانا السيد أحمد بن سعيد بن شنبر، فقالوا للسيد مبارك وبقيّة الأشراف القائمين في هذا الأمر: إن البلاد للشريف، وإن الأمر له في المعاملة وغيرها، ولستم شركاء للشريف في الأحكام بل في المدخول، فحجّوهم بذلك.

وفيها في شهر ربيع الآخر: وجد رجل من أبناء المدينة، يقال له: محمد بن عمار الصعیدی بالمسجد النبوی بعد أن فتش المسجد، وأغلق فأخرجه الخدام، ثم لما كان من أعمال شيء من الليل وجدوه أيضًا تجاه القبر الشريف يقرأ في مصحف، فأخرجوه من المسجد.

ولما كان ليلة الجمعة وقت التذكير دخلوا لإيقاد قناديل الحجرة الشريفة، فوجدوه فيها داخلًا تحت الستر نصفه ونصفه الآخر خارجًا، فتقدموا إليه وأخرجوه، وأتوا به إلى شيخ الحرم، وأخبروه بما وقع فوضعه في بعض المخازن، وأغلق الباب وعلى الباب حرس، ثم فتحوا الباب بعد ساعة فلم يجدوه، فسألوا عنه فإذا هو في بيته عند والده، وأهله، والله أعلم بحقيقة حاله.

وفيها يوم الثلاثاء سابع عشر رمضان منها: عدا بعض أولاد الصاغة بمكة على أخيه فضربه جنية عمدًا فقتله - رحمه الله تعالى - ودخل على السيد حسن بن غالب، فدخل به على أخيه مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، فبذل لأبويه الدية

فامتنعنا وسمحا عفواً، فألزمه بسكنى بندر جدة فهو فيها.

وفيها ليلة الخميس سابع عشرى رمضان منها: كانت وفاة الحرة الطاهرة والدرّة الثمينة الفاخرة السيدة الشريفة عمرة بنت سلطان الحرمين مولانا المرحوم الشريف زيد - تغمدّها الله برحمته، وأسكنها فسيح جنّته - ودفنت صبيحة ذلك اليوم. وكانت جنازتها حافلة.

وفيها: إرسال الشريف سعيد ترجمانه المهتار على أغا إلى صاحب مصر يذكر فساد مكة وأنها خربت، وأحوالها اضطربت، وطلب منه عسكر لإصلاحها.

وفيها ثانى عشر رمضان: كانت وفاة الأمير الخطير، والسرى الكبير، الذى حوى من الفضل أجمعه، ومن اللفظ أعذبه وأبرعه، الأمير الجليل، ذى القدر النبيل، والمجد الأثيل، والأصل الأصيل، الأمير يحيى بك ابن المرحوم على باشا الأحسائى ثم المدنى الحنفى بطيبة المنورة. مولده سنة ثلاث وعشرين وألف بمدينة «الأحساء»، وبها نشأ فى حجر والده وتأدب بأكابر علماء بلده. وأخذ عن العلامة إبراهيم بن حسن الأحسائى الفقه والحديث وعلوم العربية وأجازه بمروياته وجميع مؤلفاته.

وتلقن الذكر ولبس الخرقة، وصافح من طريق المعمرين الشيخ تاج الدين النقشبندى الهندى عن الشيخ عبد الرحمن الشهير بحاجى رمزى. قال: فصافحنى أبو سعيد الحبشى، قال فصافحنى النبى ﷺ. وله شعر، منه قوله يمدح النبى ﷺ: [من الكامل]

أتريدُ جازاً حامياً لك سيداً	ومقامَ عزٍّ عاليًا متفرداً
وتروء شرقاً للبلاد وغربها	متفكراً متحيراً متردداً
وتروء ذاك الحال منك مقصّر	عما طرا والفعل ليس مسدداً
فعليك أن تردّ النجاة وتتقى	خوف العقاب تلاوةً والمسجداً
وانزل بدار المصطفى متأدباً	ولجوده مستمطراً متقصداً
واعرف لفيض الفضل منه مواسماً	لتكن لها مترقباً مترصداً
فلعل أن يحيى كما أحيى به	للدين رسماً قد عفا وتهدداً
فاجهد تكن جازاً له ودخيله	وابذل له روحاً ومالاً مجهداً

أفما سمعتَ لقائلٍ ذى فطنةٍ
واطلب بغالى النفسِ منك جوارهُ
بل قُمْ وسارغٍ للمدينةِ راغباً
فهو الذى يحمى ويغنى جاره
فلقد نصحتك إن قبلت نصيحتي
وجنحت مشتاقاً لطبئةٍ قاصداً
بذر الهدى بالحق أُرسلَ رحمةً
أو ليسَ قومى عالمينَ بأننى
وخللتُ ساحةَ جودهٍ متمسكاً
حاشاك أن أخشى وأنتَ وسيلتى
فعليك خَيْرُ الخلقِ إنى داخلُ
فعسى بجاهك أن يمنَّ بعفوها
ويجودَ بالغفرانِ منه تفضلاً
قد قالها من كامل فى كامل
دنيا وأخرى إذ لجا لجنايبكم
حاشا وحاشا ثم حاشا أن يرى
وصلاة ربى دائماً وسلامه
والآل والصخب الكرام جميعهم
ما لاح نجمٌ فى السماء وما أضأ
وقوله مضمناً: [من البسيط]

ظلمتُ نفسى ولم أعملَ بموجبها
يأتى على المرء فى أيام محنته

كان والده المرحوم على باشا والياً على الأحساء، والأمير يحيى هذا على القطيف بأمره، فأرسل والده المذكور أكبر أولاده محمداً بهدية إلى سلطان الروم على جارى العادة، فزور كتاباً من والده مضمونه أنه قد كبر فى السن، والتمس من السلطان أن يقيم ولده محمداً فى الولاية على «الأحساء» مكانه بمرسوم سلطانى،

تسمو بساكنها فكن مسترشداً
واترك لسوف ولا تقل مهلاً غداً
ولمن بها مستشفعاً متعبداً
وعليه قد أوصى وحث وأكداً
ولما نصحت فعلته متودداً
غوث الورى بحر الحقائق أحمداً
للعالمين وبالملائك أيداً
جاوزت خير المرسلين محمداً
بالعروة الوثقى فلا أخشى الردى
وذخيرتى حقاً وأنت المقتدى
وببابك الأعلى أقمت مقيداً
رب كريم بالنوال تفرداً
وأنال عزاً من مديحك سزماً
يحيا لكن يحيى سعيداً مسعداً
أيخىب من أم الجنايب المفرداً
متألماً من جاءكم متعمداً
تغشى ربوع المصطفى والمرقداً
والتابعين لهم ومن قد وخذاً
نجم وما أشجى هزاز غرداً

وما علمتُ بأن الغى يثلفنى
حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

فأجيب إلى ذلك.

ولما وصل محمد إلى «الأحساء» أرشى أكابر العساكر، وأعلمهم بالأمر، وتلقاه والده وإخوته.

فلما اجتمعوا أخرج المرسوم السلطاني وتولى بموجبه، وأراد حبس والده وإخوته، فطلبوا منه أن يجهزهم إلى الحرمين ويعين لهم مصرفاً، فجاءوا إلى المدينة، وجاوروا بها، وتوفى والدهم على باشا بها [سنة] ست وخمسين. ثم فى موسم خمس وسبعين: توفى ابنه أبو بكر باشا ابن على باشا بعرفة يوم عرفة، فحمل فى محفة إلى مكة، فدفن بها فى المعلاة.

وكان ذا شهامة وصرامة، سلالة بيت عز وكرامة، ذا كرم يفوق البحر بالمد، وبأس يقصر عنه حد السنان والحد، إلى أدب بذ فيه فحول الأدباء وفاق، وممادح قيلت فيه فنفق سوقها لديه أحسن نفاق، إلى لطف أخلاق تُعير النسيم لطافة، وتوصل قاصده وتؤمنه مأموله ومخافه، إلى قريحة وقادة، وذكاء ملك به زمام الأدب وقاده.

له الشعر الرصين المبني، البطين المعنى، منه ما كتب به إلى مولانا وشيخنا العلامة أبى مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجعفرى ونصه [من الكامل]

يا مَنْ سما فوقَ السَّمَاءِ مقامُهُ ولقد يَراكِ الكلُّ أنتَ إمامُهُ
حزتَ الفضائلَ والكمالَ بأسْرِها وعلوتَ قدراً فيكَ تَمَّ نظامُهُ
لو قيلَ مَنْ حازَ العلومَ جميعَها لأقولُ أنتَ المِسْكُ فيكَ ختامُهُ
كم صنّتَ من بَكرِ العلومِ خرائدًا عن غيرِ كُفٍّ لم يجب إكرامُهُ
فاعلمْ بأننى غَيرُ كُفٍّ لائق إن لم يكنْ ذا الفضلِ منك تمامُهُ

ثم أتبعه بنثر صورته: «لما أضاء نور المحبة فى قنديل القلوب، صفت مرآة الحقيقة فظهر المطلوب، فاتضحت الرسوم الطامسة، وبانَت الطرق الدارسة، فاحتلت عين القريحة، فسالت فى أنهر النطق فأنثرت بالمستور، وهو المقدور، وأما المقام فهو أنهى من ذلك وأجل، وليس يدرك ذلك إلا من وصل. وأما العبد فهو مقر أنه قد قصرت به الركائب عن بلوغ ذلك. وعاقته عقبات الأسباب عن سلوك هذه المسالك، لكن حيث أن ثياب الستر من فضلكم على أمثاله مسبولة، يمكن أن

يدخل فى ضمن الأمثال مطلوبه والسلام». فأجابه مولانا المشار إليه بقوله [من الكامل]

لله درك يا فريد محامد أربى على البدر التمام تمامه
قد صغت من سر البراعة مفردا فاق الفرائد نشره ونظامه
وكسوته من جزل لفظك سابغا وشيت بكل لطيفة أكمامه
أعربت فيه عن اعتقاد خالص ومكين وذ أحكمت أحكامه
وجلوته يختال تيهها آمنا من أن يشابه فى الوجود قوامه
وحبوت ذا شكر بيت قصيدة ويفض خاتمه العلى اسرامه
أهلا به فردا أتى من مفرد وحبا به ضيفا يجل مقامه
حتما على ولازما تبجيله فوزا وحقا واجبا إكرامه
لكن على قدرى فلست بكفء من وطئت على هام العلا أقدامه
واليكها عذرا على مهل أتت خجلا لمحتدك العزيز مرامه
فاصفح بفضلك عن صحيفة ودها فالفضل مؤتم وأنت إمامه
واسحب رداء المجد غير مدافع فلائت عنصره وأنت ختامه

وله ديوان شعر مجلدان، حاو ما يفوق الدر والجمان، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

وفيها - أعنى سنة خمس وتسعين-: اشتد البلاء بالسرقة ليلا ونهارا، سرا بل وجهازا، وكسرت البيوت والدكاكين، وترك الناس صلاة العشاء فى المسجد والفجر، خوف القتل أو الطعن أو الكسر، وصارت العبيد لا يأتون إلا ثمانية وعشرة، ولا يبالى أحد منهم بمن ننصره، يدخلون بيت الرجل يقفون على رأسه بالسلاح، وربما نكح بعضهم زوجته وعينه تنظر كأنها حلاله المباح، وانقلب ليل الناس نهارا؛ لأنهم إنما يبيتون سهارى، بل من الخوف سكارى.

وكرث القتلى فى الرعية بأيدى العبيد، وعدم المشتكى الناصر، وفعل كل شقى ما يريد.

ولا يجاب الصائح حين يصيح، وإن اتفق أنه صاح فلا يوجد فى مرقده إلا وهو ذبيح، حتى ضُبطت القتلى بمكة فى شهر رمضان فكانت تسعة أشخاص، فضجت

الامة إلى الله - تعالى - أن ينقذهم من هذا الحال الويل ، والداء العضيل بمن يهنا نقبها، ويشد سلبها، ويصلح اعوجاجها، ويؤمن طرقها وفجاجها .
 فاستجاب الله دعاءهم فى الأسحار، وآناء الليل، وأطراف النهار، بأن ولى أمرها المرحوم الشريف أحمد ابن مولانا المرحوم الشريف زيد - تغشاه الله بالرحمة والرضوان - .

وشرح مبدأ ذلك وتفصيل ما هنالك : أنه لما انفصل عن إمرة مكة هو، وأخوه مولانا الشريف سعد إلى الطائف ثم منها إلى بيشة، فأقام بها، وتوجه مولانا الشريف أحمد إلى ديرة بنى حسين، فإن له بها أهلاً وولداً، واستمر مقيماً بتلك الديرة إلى أول ذى القعدة الحرام، فرحل منها قاصداً المدينة لزيارة جده - عليه الصلاة والسلام -، فدخلها ليلة سابع العشرين منها ليلة دخول الحاج الشامى، وواجه بها فى ذلك العام باشا الشام، فقابلته بأتم الإجلال والإكرام، والتمس منه إتمام بعض مرام من شريف مكة بركات، ثم رحل من المدينة الشريفة ثانى شهر ذى الحجة من العام المذكور، ونزل على الشيخ حرب أحمد بن رحمة، واستمر عنده إلى عودة الحاج الشامى، فواجهه الباشا وأخبره بعدم تمام ذلك المرام، بعد أن أرسل له الخبر من مكة بالإعلام.

ثم توجه فى أول عام أربعة وثمانين إلى الفرع، واستمر بها مدة يسيرة. ثم لما خرج الشريف بركات إلى حرابة حرب فى أواسط السنة المذكورة عاد إلى حرب وحضر الحرابة، ثم بعد انقضائها توجه أيضاً إلى الفرع، ثم وصل إليه أخوه مولانا الشريف سعد، واستمر بين السوارقية والفرع، وأكثر الإقامة بالفرع.

ولما تواعد الشريف بركات أهل الفرع أوائل سنة خمس، تنحيا إلى جهة وادى «النقيع» من ديرة «حرب» من بنى السفر وبنى على وعوف، واستمرا ومن معهما إلى شهر رمضان، ثم عن لهم التوجه إلى الأبواب العالية، فوصلوا إلى حول المدينة الشريفة، ونزلوا بالغابة مجتمع الأسيال غربى أحد أواخر رمضان، فعيدوا بذلك المحل، وليس فى نزول الأسود بالغابة، ملامة ولا معابة، وتقضوا مصالح وأغراضا وأزوادا منها.

وقد أخبرنى الثقة أنهما اجتمعا بالمحل المعروف ببئر واسط بمولانا السيد مبارك

الحارث، وكان هو المشير عليهما بقصد الأبواب العالية، ثم ترحلوا من الغابة خامس شوال من السنة المذكورة متوجهين إلى الشام، لا يمرون بحى من الأحياء إلا أكرمهم غاية الإكرام.

ومن أعجب الاتفاق نزولهم على مراح ابن سحيم من غير علم منهم بذلك، وكان الشريف سعد قد قتل أباه، فلما علم بهم، وعلموا به حصل لهم كرب عظيم، فلم يشعروا إلا وولده مواجه له بالعبودية والسلام، والإجلال والإعظام، وأهدر دم والده، وأكرمهم وذبح الذبائح، ومنح المنائح، وهذه - ولا شك - معجزة من جدهم، وكرامة من سعادة جدهم. ولم يزالوا على مثل ذلك مع كل من مروا عليه من العربان من جمع ووحدان إلى أن وصلوا الشام، فلتقاهاهم أهل الشام وأمرأؤها، وعلمائوها وكبرائها، وأشرفها ونقباؤها، وكان يومًا مشهودًا، ثم أقاموا بالشام، وأرسل صاحب الأمر بها يستأذن لهم فى الوصول، فعاد الجواب بالإذن، فتوجهوا ودخلوا إلى «أدرنة» فى ربيع الأول من سنة ست وثمانين، وحصل لهم من المقابلة واللطف ما يقصر عنه الوصف، فأقاموا بها مدة يسيرة، ثم توجهوا بأمر من الدولة العلية إلى «إسلام بول»، واستمروا بها بقية سنتهم المذكورة.

ثم دخلت عليهم سنة سبع وثمانين وهم بها، فلما كان شهر صفر من السنة المذكورة: وصل مولانا السلطان، وجميع الدولة من «أدرنة» إلى بلاد «إسلام بول». وفى شهر ربيع الثانى: أنعم على مولانا الشريف سعد بولاية المعزة، وأمر بالتوجه إليها، واستمر يتجهز إلى أن كان خروجه إليها حادى عشر جمادى الأولى، واستمر مولانا الشريف أحمد بإسلام بول، وعرضت عليه ولاية «طرسوس» وهى بلد على ساحل بحر الشام، وأخرى بجهة الروملى فلم يقبل واحدة منهما، وكان جوابه: إن تفضلتم بولاية بلادنا، وإلا فنحن تحت أعتاب السلطنة العلية. واستمر السلطان بإسلام بول إلى أواسط شعبان من السنة المذكورة، ثم توجه إلى «أدرنة» أيضًا.

ثم بعد خروجه فى ثانى أو ثالث مرحلة توفى الوزير أحمد باشا بعد أن خرج مريضًا فأعيد إلى «إسلام بول» ودفن بها، وتولى مكانه قائم مقامه مصطفى باشا. واستمروا متوجهين إلى «أدرنة»، وأقاموا بها إلى آخر السنة المذكورة وشهر من

أول سنة ثمان وثمانين، ثم عادوا إلى «إسلام بول» فى شهر صفر أيضًا، وتأخر الوزير أيامًا، ثم وصل واستقرت الدولة «بإسلام بول»، واستمر مولانا الشريف أحمد مقيمًا بها تحت ظل الدولة العلية، وفى كل سنة يتجدد له من الإكرام والترقيات ما فوق المرام، وفى كل شتاء ثلاثمائة بغل محملة من جميع ما يحتاج إليه البيت، وزيد سنة واحد وتسعين ثلاثمائة أخرى، وحصلت بينه وبين قزلار أغاسى محبة أكيدة، وطلب الاجتماع بالوالدة، فاجتمع بها، وأغدقت عليه سوابغ الإنعام، ووعدته بالمرام، وقد سبق وعددها وعد الملك العلام.

واستمر كذلك إلى سنة ثلاث وتسعين وألف، فوصل فيها إلى الديار الرومية السيد محمد بن مساعد والسيد بشير بن مبارك مرسلين من السيد أحمد بن غالب من الشام، فركبا إليه وقبلا عنده، فأوحى بعض المفسدين إلى الوزير الأعظم، وقال: إن إقامة مولانا الشريف أحمد بإسلام بول يخشى منها، فالأولى عدم إقامته بها، فأحضره الوزير وألبسه قفطانًا بولاية «كرك كنيسة» اسم محل بينه وبين أدرنة ثمان ساعات فلكية.

وكان قبل ولايته بشهرين أرسل بأخيه الشريف سعد إلى البلد المسماة «ويزه» بكسر الواو وتخفيف الزاى وهى قرية أيضًا من «كرك كنيسة» بينها وبينها ثمان ساعات أيضًا، واستمر كل منهما بمكانه إلى سنة أربع وتسعين، فتوجه السلطان إلى السفر، فعند حلوله بأدرنة فسح لهم بالتوجه إلى حيث شاءوا من الديار الرومية، فتوجه مولانا الشريف سعد إلى «إسلام بول»، واستمر الشريف أحمد فى بلده المذكورة، وطابت له وتأنس بها، إلى أن كانت سنة خمس وتسعين فوصل فيها ترجمان مولانا الشريف سعيد بعرض إلى صاحب مصر يذكر فيه ما شرحناه من إفساد مكة بأيدي العبيد، والنهب الذى لا ينقص بل يزيد، وأن البلاد خربت، والأحوال اضطربت، وطلب منه عسكريًا لإصلاحها، ومالا يستعين به على أمور نجاحها، وأظهر أنه مغلوب عليه، وأن كل من أراد شيئًا فمته وإليه.

فلما وصل إليه أرسل رسولا إلى الأبواب العلية بالتعريف بهذه الأحوال وأرسل معه الترجمان المذكور، فوصلا يوم عيد الفطر، وحصل عند السلطنة العلية اضطراب لهذا الخبر، فاشتورت الدولة، واتفقت على ألا يصلح هذا الخلل إلا أهله

العريفون، وحماته الذين هم فى بيت الملك عريقون.

وبرز فى الوجود ما كان فى علم الله كائنًا، وما قدر به لبلده أن يعود كما كان آمنًا، فاستدعى مولانا السلطان، وهو مقيم بأدرنه عند رجوعه من السفر مولانا الشريف أحمد من محلة كرك كنيسة المذكورة يوم ثالث شوال من السنة المذكورة، فبادر بالوصول إليه، فدخل عليه بعد صلاة العصر، فقابله بالإجلال والإكرام، والتحية والقيام، ووضع كفه بكفه، وتصافحا من قيام، قائلًا: اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد عليه الصلاة والسلام.

فكان أول خطاب وقع بينهما أن قال له: يا شريف أحمد، الحجاز خراب؛ أريدك تصلحه، فوضع مولانا الشريف يده على رأسه ممثلاً للأمر قائلًا: «تَوَلَّهْ»:- كلمة تؤدى معنى القبول والطاعة، فأكرم بها قوله - فعندها خلع عليه من الفرو القاقم الأبيض، وهو الذى دخل مكة لابسًا له، ثم جلس مولانا السلطان، وأشار إلى مولانا الشريف بالجلوس فجلس، ثم أعاد عليه قوله الأول ففعل فعله الأول، ففى الثالثة فعل ما فعل فى الأولين ثم قال: يا بادشاهى، الحجاز يحتاج إلى فتوح جديد، فأمر حيثئذ مولانا السلطان بإحضار يازجى، وأمره بأن يمليه مولانا الشريف أحمد ما يريده فيكتب بمضمون ذلك أوامر متعددة.

ثم قام مولانا السلطان، فخرج مولانا الشريف وقدم له مركوب من خيل السلطان بعدته، وتبعه من الإكرام والإحسان ما لا يحصره بنان ولا بيان. ثم توجه مولانا الشريف إلى سرايته التى عينت له بأدرنه، واستمر بها إلى يوم التاسع من شوال المذكور.

ثم توجه مولانا الشريف إلى بلده كرك كنيسة، وأقام بها يومين وضم متفرق أموره وأحواله، وأوصى على أهله وعياله.

ثم توجه إلى «إسلام بول» وبات بها رابع عشر الشهر المذكور، وقال بها نهاره، ثم توجه إلى «أسكدار» ورحل منها يوم خامس عشر الشهر المذكور متوجهًا منها إلى مكة على خيل البريد المسماة فى عرف أهل الروم «الولاق»، فدخل إلى الشام وقد خرج الحاج منها، واستمر مجدًا فى السير والدءوب بما لا يحتمله بشر مما يشق على الراكب والمركوب، بعزيمة تطوى مفاوز الأرض طيًا، وينقطع عنها سليك

المقانب كلالا وعيًا. فأرسل إلى مكة بكتاب إلى مولانا، الشريف أحمد بن غالب متع الله بحياته، وإلى الوزير عثمان بن زين العابدين حميدان، وكان قد أرسل إلى أمير الحاج الشامي أن يترىص له بالعلا، فترىص يومًا أو يومين. ووصل مولانا الشريف إليه، فدخل مدينة جده سيد الكونين، ولبس الخلعة السلطانية بحجرة جده كما لبسها فيها أبوه، واسترّت القلوب برؤية محياه وتبلغت الوجوه.

وأما الشريف سعيد، وعمه السيد عمرو فلم يزالا فى انتظار الجواب بالمال والعساكر، وما علما ما صنعه الواحد القاهر.

وفى ثالث شوال: وصل إلى مولانا الشريف سعيد قفطان من صاحب مصر أرسله إليه بعد أن عرض إلى الأبواب، وسير مع رسوله إليها ترجمان الشريف سعيد كأنه تطمين للفقود، وتبشير بإتمام ما أرسل فى طلبه من ذلك المراد.

وحين وصول العسكر إلى بيت الشريف أصيب ابن الشريف بركات السيد عبد الله ببندقية أذهبت خنصر يده وكان إذ ذاك مشرفًا من طاق خارجة دار السعادة، فالحمد لله على السلامة لا مانع لما أراد.

فوصلوا بالقفطان، ولبسه الشريف سعيد مستبشراً بحصول الأمان والأمان، وكان فى ذلك اليوم بعينه - أعنى ثالث شوال المذكور - ولاية مولانا الشريف أحمد - رحمه الله - للحرمين بالديار الرومية فسبحان الحكيم.

واستمر الشريف سعيد إلى أن اتفق يوم سابع عشرى ذى القعدة من سنة خمس وتسعين وألف المذكورة أن ركب إلى أحمد باشا صاحب جدة، وكان قائلاً بالأبطح ببستان الوزير عثمان، واستمر عنده إلى جانب يسير من الليل، ثم ركب وقصد ثنية الحجون ذاهبًا إلى السيد غالب بن زامل، وكان نازلاً بذى طوى، فلما جاوز الحجون إذا هو براعى ذلول، فاستخبره من أى العرب؟ فقال: من بنى الصخر.

فقال الشريف: معك كتاب من السيد يحيى بن بركات؟ فقال: لا.

وكان السيد يحيى قد ذهب لمقابلة الحاج الشامي، فأمر الشريف بضمه فضم وتهدد بالقتل، فأقر بأنه مورك من الشريف أحمد بن زيد إلى مولانا الشريف أحمد ابن غالب متع الله بحياته، وأنه قد جاء متولى مكة، وأنه لحق الحاج الشامي فى

العلاء، فذهب به إلى بيت السيد عمر، واستدعى السيد غالب بن زامل، وعبد الله بن هاشم، واشتوروا في إظهار هذا الأمر على أي وجه يكون، فاتفق الأمر على أن يرسلوا إلى السيد مساعد ابن الشريف سعد، فأرسلوا إليه السيد عبد الله بن هاشم، فذهب إليه وقال: نريد السيد غالب وكان نازلاً بذي طوى، فلما خرج معه عطف به إلى طريق بيت السيد عمرو، فلما دخل بيت السيد عمرو استراب من ذلك، ثم لما رأى الجماعة مجتمعين جلس معهم، فقال له الشريف سعيد: يا سيد مساعد لم أرسل لك هذا الوقت إلا قصدي أودعك أهلي، وإن عمك الشريف أحمد بن زيد تولى مكة، وأنت تقوم مقامه إلى أن يصل، فتلكأ عن ذلك حتى قال السيد غالب بن زامل نقيم سليم أغا، ونحفظ نحن الديرة إلى وصول صاحبها، فوافق السيد مساعد حيثنذ على القيام مقر عمه.

ثم أرسل الشريف سعيد إلى أغوات العساكر الذين معه، وقال لهم: إن الأمر أتى إلى الشريف أحمد بن زيد، فأنتم اخذموا سيدكم، وخرج الشريف سعيد آخر تلك الليلة.

ومما قيل فيه من الشعر قولى حين رجع من الديار الرومية موسم سنة سبع وثمانين قصيدة هي [من الطويل]:

تجلت بمرآك السعيد لنا البشري	وأبدى الهنا والسعد وجهك والبشري
وعادت لأحشاها بعودك سالما	قلوب حشاها طول غيبتكم جمرأ
وأضحى وطير السعد يسجع مذ بدا	محيأك فينا مسفرا واضحا بذرا
وقرث عيون طالما أسهرت أسي	فنامت سرورا بغد وانشرحت صدرا
وما خص هذا الحال بعدك واحدا	بل الناس جمعا بالدعا لم تزل ترى
سرورا بملقاك السعيد مبلغا	مراما سما كم من نفوس به حشري
فيا ابن الكرام الصيد من آل هاشم	سلالة خير الخلق من ذا الورى طرا
ويا درة العقيد الثمين نظامه	وفرغ الشناخيب الميامين فى الذكري
ويا من له من طينة المجد جوهر	تلاأ نورا من صفات له زهرا
ويا من غدى در الكمالات يافعا	وطفلا ففاق الشيب فى عقلها قدرا
له من سنام المجد ذروة شأوه	وكان لها أهلا وكانت به أحرى

وجوده نفس طاب منشقها نشرًا
حكّت خلجًا فعما بمدّ الندى تُجرى
مزيل العنا مولى المني فائضًا بخرا
حمام العدى والخيّل دهم حكّت شقرا
سعيد على سعدى فيظفر فى المسرى
على خير نعت يوجب الحمد والشكرا
على همة تعلو السماكين والتسرا
له الفكر والفهم الذى يلقى الصخرا
إلى أن رقى من سرج شيطمة ظهرا
وكان ابن راعيها وكان بها أذرى
وفى الروح أرواح العدى سيفه يقرأ
وحينًا يقلبها القواضب والسمرًا
مداها من الوصف الحميد أثت كثرًا
وكم جهد ما يحصى البليغ وإن أطرى
جمعت بها من وصف مجديكم النّزرا
لمدحك صدقًا لا رياء ولا نُكرا
وزانت معانى حسن أوصافك الشغرا
ولا تبتغى إلا قبولكها مَهْرًا
مصونًا من الأسوا ومن حادث يطرًا
بأثارك الحسنى محجلة غرًا

وقال الشيخ محمد البصرى ثم المدنى، سامحه الله تعالى [من البسيط] :

ترمى بالحافظها سهمًا بلا وتره
والشعر منسبل جلّ الذى فطره
ذا كوكب الصبح أبدى والظلام سره
تلّق البساتين فادخل تجتنى ثمره
والقلب ينشدنى من هجرها شعرة

له منطق فصل ورأى مسدّد
وبسط يمين بالنوال بنانها
طويل البنا رخب الفنا منهل الغنى
عريض الجدا عوث النّدا مؤرد النّدا
إذا ثوب الداعى الصريخ أجابه
ولا عجب فالفرع يتبع أصله
طموح إلى نيل العلوم فؤاده
لبيب أريب لودعى مهذب
أديب ربي حجر الخلافة مهده
وهز متون البيض من مرهفاتيه
فبورك فيه قارئًا لعلوميه
فحينًا لتقليب الكرايس كفه
وكم من صفات فيك يعجز خاطرى
وكم من سجايا فيك طابت أصولها
فدونك يا نجل الملوك قصيدة
مُفوّقة من خالص الود أنشئت
وقد شرفت لما أتى فيك مدحها
فجاءتك من شوق إليك محبة
فدم وابق واسلم لا برخت على المدى
ولا برحت أيام دهرك كلّها

وقال الشيخ محمد البصرى ثم المدنى، زارت سعاد وهى بالبشر متزرة
وهى مبرقة والحسن سائرها
فقلّت شيلي الغطا قالت بمعدرة
فقلّت ما الأمر، قالت إن تزر بغد
فودعتنى وسارت سرت فى قلق

ليلُ المحبينَ مطوئُ جوانبُهُ
 ما ذاكُ إلا كأنَّ الصبحَ نَمَ بهم
 فبُتُّ أرقبُ نجمَ الليلِ في سَهْدِ
 وصرْتُ أَسْعَى وقلبي هائمٌ جَدَلُ
 أَفْتَحَ لى البابِ واكسانى السرورِ إذا
 قلتُ الوصالُ فقالتُ وهى معذرةٌ
 والفتُّ تقولُ يا عَجَابَ الدَّلَالِ لها
 ما جابكَ اليومَ يا غاوى بساحتنا
 فقلتُ هو القصدُ والمأمولُ يا أُملى
 فافرَّ السلامُ له من سيدٍ سبقتُ
 أعنى سعيدَ بنَ مولانا الشريفِ ومَنْ
 فهو شريفُ الذى قامَتْ عدالتُهُ
 وهو العزيزُ الذى فاضَتْ براحيتهِ
 وهو الهزبرُ الذى هابَتْ لسطوتهِ
 وهو المليكُ الذى ماتَتْ حواسدُهُ
 لا زالَ فى شرفِ كالبدرِ فى ترفِ
 يعينيك نظمَ بدا من سيدٍ بعدتِ
 محمدَ إسمه من طيبةٍ سعدتِ
 صلَّى عليه إلهُ العرشِ خالقنا
 مشمرٌ ما قضى فى جنحه وطرة
 فأطلع الشمسَ ضغناً مضمراً قهرة
 حتى أتى الصبحَ متبسماً بمنفجرة
 طرقتُ باباً لها فى روضةٍ عطرة
 قد أُمِنى الدهرُ من عَيْنِ نفى نكرة
 هذا دلالاً فإنى خائفُ ذعرة
 كأنها دُرَّةٌ من عقدٍ منتشرة
 عَسَى رضيعُ العلا أبدى لَكُمْ فخرة
 إني أدبْتُ غريبٌ أَسْتَحِقُّ قره
 منه الملاقاةُ فى مدحِ نفى درة
 راياتُ عزٍّ له فى الحربِ مشتهرة
 وغدت أمانيه فى البرِ منتشرة
 كاسُ المنونِ غزيراً زائدا مررة
 وحشُ الفلاةِ فأمسَتْ ساكنه القفرة
 نعم وبادوا حقيقةً أن رأوا خبرة
 بآيةِ النورِ والأعرافِ والبقرة
 عنه المنازلُ أَمسى فى زمانِ ترة
 بنورِ خيرِ الورى طه به فخرة
 والآلُ والصخبُ واهلُ البيتِ والسيرة

ثم وليها مولانا الشريف أحمد ابن الشريف زيد ابن الشريف محسن بن حسين بن حسن، وذلك أنه لما خرج الشريف سعيد آخر تلك الليلة - كما ذكرنا آنفاً - ذهب السادة المذكورون فى غدها إلى بيت السيد ناصر بن أحمد الحارث، واجتمعت العساكر عند بيت الحارث، وذهبوا جميعاً إلى أفندى الشرع، وأخبروه بالواقع، فحضر الأفندى، وصاحب جدة أحمد باشا، والمفتى والوزير عثمان بن زين العابدين بن حميدان، وكان الاجتماع فى مقام الحنبلى، فقالت الأشراف: يجلس السيد مساعد ابن الشريف سعد، فانفض المجلس على ذلك، ونودى من حينه،

وذلك يوم الثلاثاء تاسع عشرى ذى القعدة من سنة خمس وتسعين وألف: إن البلاد بلاد الله، والسلطان والشریف أحمد بن زيد نصره الله، وأمر بالزينة سبعة أيام، وجلس مولانا السيد مساعد للتهنئة، ولم يبق صغير ولا كبير إلا أتاه يهنئه، ويهثون أنفسهم بما أنعم الله عليهم بتولية هذا الشریف، وأدّرقوا بحماية كهف ذكره المنيف، فناموا بعد السهر، وصفت سرائرهم من الكدر.

وقد أشرت إلى ذلك بقولى فى مديحه من قصيدة: [من البسيط]
 يَوْهَمُ ذِكْرُكَ مِنْ قَبْلِ الْوَصُولِ صَفَتْ أحوالها بعد خَلْعِ الْعَذْرِ وَالرَّسَنِ
 ثَلَاثَ عَشْرَةَ أَعْوَامَ لَهَا انصَرَمَتْ عَمِيَاءُ صَمَاءَ فِي عَيْنِ وَفَى أَذِنِ
 مَسْلُوبَةُ الْأَمْنِ مَمْحُورٌ مُحَاسِنُهَا عِيُونُ سَكَانِهَا مَمْنُوعَةُ الْوَسَنِ
 حَتَّى أَتَاهَا ابْنُ أُمِّ الْمَجْدِ مَعْتَزِمًا لِحُسْمِ دَاءٍ بِهَا بَادٍ وَمَكْتَمِنِ
 فَالْيَوْمَ عَادَ لَهَا إِنْسَانٌ مَقْلَتَهَا فَالْدُسْتُ مُشْتَمِلٌ مِنْهُ عَلَى حَضَنِ
 وَأَرْخَ وَلَايَتِهِ وَزِيرَ أَخِيهِ سَابِقًا ذُو النِّعَتِ الْفَائِقِ الدَّرِ النَّظِيمِ، الْجَمَالِ مُحَمَّدَ عَلَى
 ابْنِ سَلِيمٍ، بَيْتَيْنِ أَجَادَ فِيهِمَا كُلَّ الْإِجَادَةِ، وَأَلْقَى الْأَدْبَاءَ لِحَسَنِ وَصَفِهِمَا الْبَدِيعِ
 إِلَيْهِمَا الْمَقَادَةَ:

وهما: [من الخفيف]

حِينَ بُشِّرَى الشَّرِيفَ أَحْمَدَ وَاقَتْ مَلَأَ الْكَوْنَ بِشَرِّهَا وَتَجَدَّدَ
 عَاوَدَ التَّخْتُ مَالِكًا قَلْتُ أَرْخُ عَوْدَ يَمَنِ بِذَلِكَ الْعَوْدِ أَحْمَدُ
 وَقَلْتُ أَيْضًا مُؤَرِّخًا لَوْلَايَتِهِ الْمَيْمُونَةِ: [من السريع]
 قَضَى إِلَهُ الْعَرْشِ رَبُّ السَّمَاءِ أَنْتَ وَالِى الْفَرْشِ صَوَّأْنَهَا
 وَأَنْتَ مِنْ بَعْدِ خَرَابٍ بِهَا حَسًّا وَمَعْنَى أَنْتَ عُمرَانَهَا
 قَالَ حَجَائٍ وَهُوَ فِى طَفْحَةِ الشُّكْرِ مِنَ الْأَفْرَاحِ نَشَوَائِهَا
 يَجِيدُ فِيهِ ضَبْطُ تَارِيخِهِ أَتَى إِلَى مَكَّةَ سُلْطَانُهَا

ولما كان يوم سابع ذى الحجة من السنة المذكورة: دخل مولانا الشریف أحمد من جهة أسفل مكة وصحبه المحمل الشامى، وجميع عساكر مصر، وجميع عساكر أمير الشامى صالح باشا، وعساكر صاحب جدة أحمد باشا، وعسكر الرتبة القديمة والجديدة، وكان موكبًا عظيمًا، فحج بالناس على أحسن ما يكون، من الأمن

والدعة والسكون.

وفى رابع عشر ذى الحجة: أمر بشق سبعة أنفس من السراق.

ثم دخلت سنة ست وتسعين، فى سابع محرم الحرام منها: قطع محمد ولد الحاج أحمد العصائى المغربى يدها لسرقة بعد أن شفع فيه صاحب جدة إلى مولانا الشريف أحمد، فلم يشفعه إيثاراً لإقامة أحكام الدين، ودفعاً لأذية المسلمين.

وفيهما: كثرت الشرور والخصام، والدعاوى بين الأنام، الخواص والعوام، فى الظلمات السابقات فى الأملاك والحقوق والأوقاف، لما رأوا من العدل والإنصاف، واصطبر لضجيجهم والهذا، والتصديع والأذى، حتى أنصف المظلوم من ظالمه، ورد الحق إلى معالمة، كان الله له فى الدارين، ويلغه من كل مأمول ما لا يضبطه الكم والكيف والأين.

وفيهما ثانى عشر جمادى منها: قدم الوزير محمد على بن سليم وزير الشريف سعد من بلاد اليمن، وقد خرج من مكة يوم خروج سيده الشريف من منى موسم سنة اثنتين وثمانين وألف، بعد أن رد عقاره الذى بيع فى غيبته، وأخرج واضعى أيديهم عليه بعد أن سبقت دعوى بالوقفية، ووردت شهودها عند قاضى الشرع، فكتب له مولانا الشريف أحمد بكل ذلك، فوصل إلى مكة فى التاريخ المذكور.

وفيهما: كانت وفاة العلامة أبى زكريا يحيى ابن الفقيه الصالح محمد النابلى الشاوى المليانى المغربى الجزائرى، شيخنا العلامة، والمحقق الفهامة، إمام المعقول والمنقول، محرر الفروع والأصول. الفحل الذى لا يبارى فى فنون العلوم، والسابق الذى لا يجارى فى مضمار المنطوق والمفهوم. ولد بمدينة مليانة، ونشأ بمدينة الجزائر، وقرأ بها على جماعة، منهم: الشيخ سعيد مفتى الجزائر، والشيخ على بن عبد الواحد الأنصارى، والمحقق محمد بن محمد بهلول السعدى، والشيخ مهدى.

وأخذ عنهم الفقه والحديث، وغيرهما من العلوم، وأجازه شيوخه، وتصدر للإفادة ببلده. وقدم مصر سنة أربع وسبعين وألف قاصداً الحج وزار قبر النبى ﷺ ورجع إلى القاهرة.

وأخذ عن العلامة سلطان المزاحى، وإمام العصر الشيخ العلامة محمد بن علاء

الدين البابلي، والمحقق مولانا الشيخ على الشبرملسى، وأجازوه بمروياتهم، ثم جلس للتدريس بالجامع الأزهر فدرس فى مختصر خليل، وشرح الألفية للمرادى، وعقائد السنوسى وشروحها، وشرح الجمل للخونجى لابن عرفة فى المنطق، ثم رحل إلى الروم، فدخل دمشق وعقد بجامع بنى أمية درسًا، وأخذ عنه جماعة بها وأجازهم، ثم دخل قسطنطينية العظمى، فعظمه مفتى السلطان يحيى المنقارى، والوزير الأعظم أحمد باشا الكبرلى، وحضر تجاه السلطان الأعظم فبحث مع العلماء وعرفوا فضله، ثم عاد إلى مصر، وولى بها تداريس فى مدارس عديدة. وله مؤلفات منها: حاشيته على «أم البراهين» نحو عشرين كراسًا، وشرح على «التسهيل» لابن مالك، ونظم «لامية فى إعراب الجلالة» جمع فيها أقاويل النحويين، وما لهم من الكلام، وشرحها شرحًا حسنًا.

قلت: قرأت عليه لىالى الموسم آخر حججه متن السنوسية فى علم العقائد فكان فى التقرير دونه السيل الهدار، والعباب الزاخر التيار، أملى فى وجوه إعراب كلمة التوحيد، أربعمئة وخمسين وجهًا بالتعديد، فسبحان مفيض ما شاء على من شاء. وله مؤلف فى أصول النحو جعله على أسلوب «الاقتراح» للسيوطى. أتى فيه بكثير من الغرائب النحوية، أجاد فيه وجعله باسم مولانا السلطان الأعظم محمد بن إبراهيم خان، وقرّظ عليه علماء القسطنطينية، منهم: العلامة المولى يحيى أفندى منقارى زاده. ولقد أشرفنى ولده الشيخ عيسى ابن الشيخ يحيى على ذلك التصنيف، فرأيت على ظهر الكراس الأول منه تقرّظ الأفندى المذكور بخطه ونصه: لا يخفى على الناقد البصير، أن هذا التحرير كنسج الحرير، ما نسج على منواله فى هذا العصر فى النحو ناح، لطيف بمطالعه تنشرح الصدور وتتلذذ الأرواح. انتهى.

وكانت له - رحمه الله - قوة فى البحث واستحضار للمسائل الغريبة، وسعة حفظ مفرطة، وبداهة جواب لا يضل صوب الصواب. كانت وفاته - رحمه الله - فى هذه السنة المذكورة بقرية «الطور» قاصدًا مكة فدفن هناك، فاستأذن ولده سيدى عيسى صاحب مصر، فنبش عنه ونقله إلى مصر، ودفنه بالقرافة. ثم مات ولده المذكور فى الفصل الحاصل بمصر فى السنة التى بعدها ودفن هناك أيضًا - رحمه الله رحمة واسعة -.

وفيها يوم الجمعة غرة رجب منها: كانت وفاة مولانا وشيخنا الشيخ أحمد بن عبد اللطيف البشيشي الشافعي، شيخ المحققين، وأستاذ المدققين، وبقية الصالحين، وخاتمة العلماء العاملين، وصدور المدرسين. اشتهر صيته في الأمصار، وشاع فضله في الأقطار. انتفع به الحاضر والباد، ورحلت إليه الطلبة من أقاصى البلاد، فصار محط رحالهم، ومنتهى آمالهم، لحسن تقريره المسائل على أسهل وجه، وألطف تركيب، وأوجز عبارة حتى تخرج به جمع كثير في زمن يسير. ولد سنة إحدى وأربعين وألف بـ«بشيش» قرية من أعمال المحلة، وحفظ بها القرآن على العلامة سلطان المزاحي، ولازمه في الفقه والحديث والعربية والفرائض، وغيرها من العلوم نحو خمس عشرة سنة، ولازم أيضًا الضياء مولانا الشيخ على الشبرملسي في العقائد والنحو والأصول حتى تخرج به، وأخذ عن حافظ العصر مولانا محمد البابلي، وعن شافعي زمانه العلامة محمد الشوبري، والشيخ ياسين الحمصي، والعلامة سري الدين الحنفي، والشيخ حسين الخفاجي، والشيخ أحمد ابن عمران الفاسي وغيرهم. وتصدر للإقراء والتدريس بالجامع الأزهر. واجتمعت عليه الأفاضل، وجلس في محل تدريس شيخه سلطان المزاحي فلازمه جماعته، ودرس في العلوم الشرعية والعقلية، وحج إلى بيت الله الحرام في موسم سنة اثنتين وتسعين، وجاور بمكة ثلاثًا أو أربعًا وتسعين مجتهدًا في الإفادة والتدريس، ناشرًا در علمه النفيس. ثم عزم موسم سنة أربع وتسعين صحبة الحاج المصري إلى القاهرة. وحصل له أواخر السنة المذكورة بمكة نوعك في جسمه ارتحل منها، وهو في أثر منه، وأقام بمصر إلى أن كانت وفاته في التاريخ المذكور من السنة المذكورة، أعنى: سنة ست وتسعين ببلده «بشيش»، رحمه الله رحمة واسعة.

وفي يوم الجمعة سابع عشر شعبان منها: دخل شيخ آل ظفير - سلامة بن مرشد ابن صويت - مكة في أمان الله، وأمان مولانا الشريف أحمد بن زيد خاصة، والأشراف جميعهم عامة، وألقى السلم ودخل تحت الطاعة، فأمر له الشريف أحمد بمضارب نصبت بالمحصب، وأقام قريبًا من شهرين، فذكر مولانا الشريف للأشراف أن ابن صويت جاءكم بأهله وحلته، وقد دخل على، فإن عفوتم فأنتم محل العفو فيها هو قد استسلم، فأجابوه بالسماح، وكتبوا خطوطهم بالسماح عن ابن صويت عن

جنايته، وذلك ببركة سيد الجميع مولانا الشريف أحمد نظر الله إليه بعين عنايته .
ثم دخلت سنة سبع وتسعين وألف، فى يوم الثلاثاء عاشر ربيع الثانى منها: برز
مولانا الشريف أحمد - رحمه الله تعالى - فى موكب عظيم قاصداً الشرق ومنه إلى
بلاد عنزة، فأقام بالمنحنى ثمانية أيام، وفى يوم الخميس تاسع عشر الشهر المذكور
بعد شروق الشمس توجه إلى حيث قصد فى دعة الله وكلاءته .

وفى ليلة الإثنين ثالث عشرى ربيع الآخر وقع بيت بحارة الشامية لبعض تجار
المغاربة، سقطت سقوفه، فهلك تحته عشرة أنفس ذكور وإناث، منهم الشريفة
سلمى بنت السيد عبد الرحمن الشهير بالأسد، وسبب ذلك سقوط جدار لجاره على
سطحه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

وفى سابع عشرى الشهر المذكور: وصل قاصد من الديار الرومية، يخبر بأن
سليمان مير أخور ولى الوزارة العظمى، ومعه منه إلى مولانا الشريف أحمد - رحمه
الله - فرو عظيم من السمور بمقلب أخضر، وكان مولانا الشريف بالمبعوث، فتوجه
به إليه الرسول، فقابلته العساكر حين وصوله إلى المبعوث، ولبسه مولانا الشريف،
وكتب له الجواب ومضى .

وفى ليلة السبت تاسع عشر جمادى الأولى: توفى الخواجا زين العابدين حميدان
والد الوزير عثمان فجأة، بات تلك الليلة فأصبح ميتاً، فدفن ضحى اليوم المذكور،
رحمه الله تعالى وأسبغ رضوانه عليه ووالى .

وفى يوم الخميس رابع عشرى الشهر المذكور: كان انتقال مولانا السيد محمد بن
يعلى بن حمزة كذلك فجأة بالخبت اليماني، فحمل إلى مكة ودفن بالمعلاة، رحمه
الله .

وفى سادس عشرى جمادى الآخرة: سطا على بعض الأتراك عبد له بخنجر
فمات بعد خمسة أيام، فقطع الغلام يده ورجلاه وبرئ وعاش .

وفى يوم الخميس سادس عشر شوال: وصل مولانا الشريف أحمد - رحمه الله
تعالى - إلى مدينة جده ﷺ عائداً من بلاد عنزة، فنزل بالمحل المعروف ببئر ميزان
بالقرب منها، وخرج إليه من أهلها القضاة والأعيان، فقال به يومه، ثم وصل منه إلى
ضريح سيد الشهداء عم جده - عليهما الصلاة والسلام - فبات به ليلة الجمعة، ثم

ركب منه فدخل المدينة يوم الجمعة سابع عشر الشهر المذكور، فزار قبر جده، وتملا بأنوار سعده.

وفى يوم الأحد سادس عشرى الشهر المذكور: وصل قاصد من الوزير المذكور أيضًا بهدية منها فرو وسيف لمولانا المرحوم الشريف، ووصل معه قفطان لشيخ الحرم النبوى داود أغا من الوزير المذكور أيضًا، فلبسه شيخ الحرم بالمسجد النبوى، واستمر مولانا الشريف بالمدينة الشريفة إلى أن برز منها ثانى ذى القعدة الحرام، ودخل مكة محرماً بالعمرة ليلة هلال ذى الحجة من السنة المذكورة، فطاف لعمرته وسعى - شكر الله سعيه -، ثم عاد إلى مخيمه بالزاهر على عادة أسلافه الأكرمين، ثم دخل صبيحة ذلك اليوم فى موكب يبهر الناظرين، ويسر البادين والحاضرين.

وفى يوم الأربعاء رابع ذى الحجة من السنة المذكورة: وصل إلى مكة من الأبواب العالية قفطان من السمرور الملوكى عاليه صوف أبيض، يصحبه مرسوم سلطانى، ومرقوم خاقانى، يفصح بالثناء على مولانا الشريف، بالنعت الأكرم الأمجد، فألبسه بالحطيم، وقرئ ذلك المنشور الكريم، وكان الواصل به فخر الأغوات العظام، إبراهيم أغا فكان أعظم موكب فى ذلك المقام، وسر به الخاص العام.

وفى يوم الخميس عشرى ذى الحجة منها: أمر صاحب جدة أحمد باشا بهدم كل خلوة بالمسجد الحرام فهدمت، وما لم يمكن هدمه منها لكونه من بنية المسجد فى نفس جداره أو لكونه فوقه بناء سده ببناء مدعيًا أن لذلك سببًا هو سماعه بحصول فسق فى بعضها، والله أعلم بالحقائق.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين، وكان هلالها بالإثنين، وفى يوم الثلاثاء تاسع محرم الحرام منها كانت واقعة من أحمد باشا المذكور إلى الأفندى عبد الله عتاقى زاده مفتى السادة الحنفية ثار بسببها الخاص العام، فاستدعى إلى الحاكم الشرعى، فاعتذر عن الحضور، خشية ما لا يخفى على العاقل من حوادث الأمور. ثم استدعاه مولانا الشريف ليلا لذلك المرام، وقبح عليه فعله، وأوقر سمعه بالليم الكلام، فاعترف بخطئه وخطله، واستغفى طالبًا التجاوز عن زيغه وزله.

وفى أواخر المحرم الحرام منها: كان ابتداء عمل الحائط على المقبرة، ابتدئ،

من أعلى ثنتى الحجون بجدرين واصلين إلى الطريق بين قبتى الشريف أبى ندى،
 وولده الشريف حسن منعطفين من ذلك الطريق، أحدهما: صُعدا يتصل إلى قرب
 حائط ابن دخان، والآخر: سُفلا إلى المحل المعروف بالحافظية فصلا بأبواب
 مرتفعة الأعتاب؛ صوَنًا للمقبرة عن انتهاك حرمة قبور المسلمين، وعن التلوّث
 والوقيد بنزول الحجاج والمسافرين، وكان هذا الخير مسطرًا فى صحائف الوزير
 الأعظم سليمان باشا، ومتولى ذلك وزير مكة عثمان ابن الخواجا زين العابدين
 حميدان، وتلك طرق خير رضى الله عن قاصديها.

هذا مما أحدث فى هذه السنة، نسأله سبحانه اللطف بنا وبالمسلمين فيها وفيما
 يليها.

وفىها - ليلة الثلاثاء لأربع خلون من ربيع الآخر منها - : كانت وفاة الشيخ
 الصالح، ذى القدم الراسخ الرابع، العلامة الفهامة الراقى أوج المعزة فى الفضل
 والكرامة، إمام الطريقة والحقيقة، والمتكلم على معانيهما بالإشارات الدقيقة. شاهد
 مشاهد أهل العرفان، عاقد عقائد أكاليه التى يخرج منها اللؤلؤ والمرجان، منور
 البصر والبصيرة، موصل الحضور بحضرة القصيرة التى عنها يد من سواه قصيرة،
 مولانا وعزيزنا المرحوم، بسحاب الرضوان المرحوم، مولانا الشيخ محمد الشهير
 بالبخشى الدمشقى - رحمه الله برحمته الواسعة وغفر له مغفرة جامعة - توفى بمكة
 المشرفة فى التاريخ المذكور، ودفن بالمعلاة أمام قبة السيدة خديجة أم المؤمنين،
 وقد أناف على الستين.

وفىها يوم الخميس عشرين جمادى الأولى منها: وقع النداء بأمر مولانا الشريف
 أحمد - رحمه الله تعالى - أن لا يقيم بمكة أحد من جنس التكرور، ومن وجد بعد
 ثلاث عوقب بالنكال. فتهيأوا واجتمعوا فى اليوم الثالث آخر النهار بطرف المعلاة،
 وقرأوا الفاتحة، ثم توجهوا، البعض إلى المدينة المنورة، والبعض الآخر إلى جدة،
 والبعض إلى قرية الطائف.

وسبب ذلك على ما قيل: أنه بلغ مولانا الشريف تأتى مفاسد منهم، منها وقوع
 سرقات من بعضهم، وفشو عمل السحر منهم فى أشرف بلاد الله، فكان ذلك
 لذلك، والله يتولى السرائر.

وفيها يوم الثلاثاء ثامن عشرى رجب منها: وصل قاصد من ينبع يخبر بورود مستلم محمد بك المعزول به أحمد باشا صاحب جدة. ثم فى ليلة الخميس غرة شعبان منها: وصل المستلم بصورة أمر سلطاني يعزل أحمد باشا هذا صاحب جدة، وشيخ حرم مكة، والطلب الحثيث له بسرعة، وعلى الصورة خط قاضى عسكر مصر، والعدول بولاية السنجق محمد بك مكانه، فصعد هو ونائب الحرم السيد محمد، وقد فوض السنجق النيابة إليه إلى مولانا الشريف المرحوم، فألبسهما مولانا الشريف قفطانين، وأقر منهما خاطر والعين، ثم نزل فسجله قاضى الشرع، وأرسل مولانا الشريف إلى أحمد باشا يخبره بوصول المستلم وما معه، وأقام المستلم يومه بمكة، وصلى الجمعة ثانية، ثم توجه إليه إلى جدة المعمورة، فقابلته المقابل الحسن، وألبسه قفطانًا، وجعل له حال دخوله موكبًا عظيمًا، ومد له سماطًا.

ثم فى يوم الجمعة تاسع شعبان: وصل أحمد باشا إلى مكة، وتأهب للرحيل، على غاية السرعة والتعجيل، وقاد إليه مولانا المرحوم الشريف أحمد - على طريق الرعاية والمعونة - نحو العشرين من نجائب الركائب الميمونة، وكذلك قاد إليه مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته ثنتى عشرة من الركائب، إحداهن مكملة الآلة بالشداد المحلى وما يتبعه.

ثم لما كان يوم الإثنين عاشر الشهر المزبور: توجه خارجًا من ثنية الحجون، فى خيل نحو الثلاثين إذ يُعدّون، مشى معه السيد على بن أحمد بن على، وبعض القواد إلى المأمّن.

وفى يوم الإثنين سادس عشرى الشهر المذكور: وصل إلى مكة السنجق محمد بك أمير اللواء المتقدم الذكر، فتلقى بالآلاى والموكب العظيم، فأقام إلى يوم الجمعة مستهل رمضان، وصلى الجمعة، ونزل جدة يومه ذاك.

وفى هذا الشهر: ورد الخبر عن قرية الطائف، بأن قد طاف عليها من الدبى طائف، فظل يتهافت على الأشجار والزرور، وعلا تلك الساحات والربوع، يأكل ما دبّ عليه ودرج، ويقرئ الناس كتاب الشدة بعد الفرج، وأناف على القمل والضفادع، وبذل نفسه لهم فى المآكل والمشارب والمضاجع، وترك الأشجار عارية كأنها محروقة، والأرض من تلك البقول والقطاني مجردة مطروقة.

وفى يوم الجمعة ثانى عشر ذى القعدة الحرام من السنة المذكورة: ورد مبشر يخبر بنصرة سلطان المسلمين، على الكفرة أعداء الدين، وأنه قد قتل، وأسر منهم ما ينيف على سبعين ألفاً، واسترد بعض ما استولوا عليه من البلاد، والحمد لله على حصول المراد، وأن القاصد السلطاني واصل عقبه وهو بالشام، والله المؤيد لملة الإسلام.

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وألف كان هلال محرمها بالجمعة، فيها يوم الإثنين حادى عشر محرمها: تقلد منصب الوزارة المكية رفيع المحل والشان، حضرة يوسف أغاسنان، وانفصل عنه الخواجا عثمان بن زين العابدين حميدان.

وفى يوم الأحد تاسع صفر منها: كان ابتداء فتنة بين مولانا المرحوم الشريف أحمد بن زيد، ومولانا الشريف أحمد بن غالب متع الله بحياته، لأمر جار على القواعد نقمه عليه لم تطب به نفسه طلب منه نقضه فامتنع، فخرج مولانا الشريف متع الله بحياته ليلة الثلاثاء حادى عشر الشهر المذكور إلى محله المعروف بالركانى من وادى مر، وانحاز إليه جمهور السادة الأشراف على مثل رأيه، وأعطوه موافقهم أن العصا واحدة، ولم يرجع عنه منهم إلا اثنان، وأخذ أجلة خمسين يوماً ثم عشرة، ثم رحل هو ومن معه قبل تمامها أواسط ربيع الأول فتوجهوا مع سلامة الله وكلاءته إلى جهة مصر. ثم فى يوم سابع عشر الشهر المذكور سير مولانا المرحوم الشريف أحمد خلفهم من العسكر مائتين وخمسين أنفاقاً، ثم فى يوم الإثنين ثانى عشرى الشهر أتبعهم بالسيد باز بن هاشم فى عشرة من بنى أبيه، وبالسيد ناصر فى عشرة من ذوى جود الله، وبالسيد عبد المحسن فى عشرة من ذوى باز.

وفى اليوم الثامن من ربيع الآخر: برزت رتبة من العسكر إلى بلاد الفرع. وفى ليلة الخميس غرة جمادى الأولى منها: اتفق بمكة اجتماع نساء ليلا لفرح بمحل قرية عشاش بطرف شعب عامر، فشبت نار ضعيفة فى بعضها، فأطفئت فى الحال بقليل ماء، ثم صرخت حرمة كأنها بنت إبليس: النار، يا نساء، فركب بعضهن بعضاً، وازدحمن على الخروج مستبقات الباب، وقد أغلق خوفاً على متاعهن من النهب فتحايلن عليه فسقط فابتدرن الخروج، وكان فى عتبة الباب ارتفاع فوق بعضهن على بعض فمات أربع منهن فى الحال، وتكسر نحو خمس وعشرين،

وبعضهن أخذه الخبل من الروعة، فما شاء الله كان.

وفيها - فى الساعة الثالثة من يوم الخميس الثانى والعشرين من الشهر المذكور - :
انتقل إلى رحمة مولاه الكريم مولانا وسيدنا سلطان الحرمين الشريفين، حامى حمى
المحليين المنيفين، سلالة السادة القادة، الحال منهم محل اليتيمة من القلادة، مولانا
وسيدنا المرحوم الشريف أحمد ابن المرحوم الشريف زيد تغمده الله برحمته
ورضوانه، وأحله أعلى فرايس جنانه. وتولى غسله السيد محمد النعمى، وأعانه
مولانا السيد ثقبه بن قتادة، ومولانا السيد محمد بن حمود، والشيخ عبد الرحمن ابن
الشيخ حنيف الدين المرشدى، ويوسف الملقب شيخ القراء، ومن لابد من الأتباع،
وصلّى عليه بعد صلاة العصر يومه بعد فتح الكعبة الشريفة، ودعاء الرئيس له وترحمه
عليه بأعلى قبة زمزم - مولانا الشيخ أحمد ابن الشيخ محمد النخلى، ودفن على
والده المرحوم الشريف زيد بقبة الشريف أبى طالب، رحمهم الله تعالى برحمته،
وأسكنهم فسيح جنته.

كانت مدة ولايته باعتبار توليته بالأبواب العالية ثلاث سنوات، وسبعة أشهر،
وتسعة عشر يومًا، وباعتبار ورود الخبر إلى مكة وجلوس ابن أخيه السيد مساعد
قائمًا عنه ثلاث سنوات، وخمسة أشهر، وثلاثة وعشرين يومًا، رحمه الله تعالى.
ومما قيل فيه من الشعر: قول صاحبنا الفاضل الشيخ سالم بن أحمد بن إدريس
اليمنى الصعدى: [من الكامل]

سَمَحَ الزَّمَانُ لَنَا بِمَلِكٍ بَنَى حَسَنَ	فلذا شهدنا أنه زَمَنٌ حَسَنٌ
لِلَّهِ مِنْ زَمَنِ صَفَتْ أَوْقَاتُهُ	بدوام دولة مَنْ له العليا شَجَنُ
أَلْمَالِكُ الْمَلِكُ الْمُؤَيَّدُ أَحْمَدُ بَـ	مَنْ الْمُتَقَى زَيْدَ الْمَلِكِ الْمُؤْتَمَنُ
رَأْسُ الْمُلُوكِ يَمِيئُهُمْ زَنْدُ الرِّعْيَةِ	كَهْفُهُمْ يَوْمَ الْمَخَافِ وَالْمَحَنُ
مَلِكٌ أَقَامَ السَّعْدَ يَخْدُمُهُ عَلَى	رَغَمِ الْحُسُودِ أَخَى الضَّغَائِنِ وَالْإَحْنُ
مَلِكٌ لَهُ الْعِزُّ الْمَخْلُودُ لَمْ يَزَلْ	عَبْدًا يَحْفُ رُكَابَهُ طَوْلَ الزَّمَنِ
مَلِكٌ غَدَا الْمَجْدُ الْأَيْبِلُ أَلْيَّةُ	نَعْلًا لِأَخْمَصِهِ الْمَصَابَةِ عَنْ دَرَنِ
مَلِكٌ لَهُ الْفَخْرُ الْمُؤَيَّدُ قَدْ غَدَا	مِنْ جَمَلَةِ الْأَنْصَارِ وَالْجُنْدِ الْعَوْنُ
مَلِكٌ تَتَوَجَّ بِالسِّيَادَةِ وَالْعَلَا	وَتَدْرَعُ الْفَضْلَ الَّذِى لَمْ يَمْتَهَنُ

ملك له في الجود شهرة حاتم
 ملك إذا نزل الفقير بسوجه
 ملك إذا أم الفقير نواله
 ملك له يوم العطاء طلاقة ال
 ملك له الخلق الوسيم كذا له ال
 من آل طه والبتول وحيدر
 من سادة أضحى حديث علام
 من قادة قطعوا ببيض سيوفهم
 من عصبة ساروا على سن الهدى
 من فتية شم الأنوف القائي
 وسليل زيد الملك هذا المرتضى
 هذا الذي ملأ البقاع أمائه
 حتى رعى ذئب الفلاة مع الظبا
 هذا الذي طافت مكارمه بأر
 هذا الذي سارت عوارفه من ال
 وإلى مآثر طيبة الغرا إلى
 هذا الذي بكمال وافر عدله
 صعب العرائم من فرى بصفاحه
 ثبت الجنان إذا التقى الصفان أذ
 طلق اللسان إذا أشار إلى اليا
 يابن الكرام الأقدمين ومن لهم
 يأبها الملك الذي حمى الورى
 خذها قصيدة مخلص في ودّه
 غراء هذبها الذكاء وصاغها ال
 هذا ولولا صحبة الصبر الجمي
 فأجز منضدها اللجين فإنه

وسماحة الغيث الملت إذا هتن
 أنساه تذكّار الأقارب والوطن
 أضحى يطوقه أعاجيب المئن
 وجه الذى ماء الحياء به قطن
 خلق العظيم كذا له الفعل الحسن
 من نخبة الأشراف أبناء الحسن
 تالله يطوى نشره عنا الحزن
 تلك المواضى ذابّر القوم الخون
 قدما فيا نغما بذياك السنن
 من بحمل أعباء الفرائض والسنن
 هو خيرهم نفسا وأزكاهم هدن
 فأراع جيش الخوف بعد أن اطمأن
 وتكحل الجفن المسهد بالوسن
 ض الصين بالروم المعمر باليمن
 بلد الحرام إلى العراق إلى عدن
 أرض الحجاز إلى الخبوت إلى قرن
 خمدت لظى نار المظالم والفتن
 ورماحه من شا ومن شا قد طعن
 بت من كسا جُنن البسالة والمنن
 ن أجل من وهب الفصاحة والفتن
 غرر المعالي لم تزل أبدا خدن
 أفعاله اللاتى بها الخير اقترن
 لك فى حميد السر منه وفى العلن
 فكر الذى هو بالمتاعب فى وهن
 لي لفارق الأهلين واصطحب الظعن
 رجل عليه الدهر بالدينار ضن

واسلم ودُم طول الزمان مكرماً
وغدث جميع الخلق تنشُد فرحةً
وقولى رثاء فيه وتأريخاً لوفاته مخاطباً نجله السعيد عبد المحسن [من مخْلَع
البسيط] :

سطا علينا بطول أيدي	فاجأنا دهرنا المفاجي
بمن حجانا صُروف كَينِد	طاش حجانا لما دهانا
سماه وانهار كل حَينِد	وهى عماد الوجود خَرَّتْ
دُكَّتْ شناخب كل طود	هدث رواسى دُزى المعالى
أبى سليمان زين أيدي	لموت سلطاننا المرجى
وشائد العز أي شَينِد	أملك النائف المراقى
وتارك الصيد شَبنه صَينِد	حامى حمى الملك بالعوالي
تُزجى بها دلها وهَينِد	أكرم من نحوه المطايا
يرسف فى غلها بقَينِد	قيدت إليه الأمور طوعاً
به كذا الأرض بعد مَينِد	قرت عيون جفت كراها
أودى به اعتاض شَينِب قود	شب فؤاد به فلماً
مكّة من ناشئ وعود	ناحت عليه بكل صوت
جميع خُصّصت فضل زود	فأعظم الله فيه أجر الـ
رؤى ثراه سحاب جود	ألهمك الصبر فى رضاه
فى جنّة الخلد خير قَينِد	أسكنه منزلاً رفيعاً
تاريخ عام بضبط جَينِد	دونك بشرى بقال خير
قر بها أحمد بن زَينِد	دار نعيم حَبى كريم

ثم وليها الشريف سعيد ابن الشريف سعد ابن الشريف زيد ابن الشريف محسن ابن حسين بن حسن، وذلك أنه لما توفى مولانا المرحوم الشريف أحمد بن زيد - تغمده الله بالرحمة - قبل الشروع فى تجهيزه، أرسل مولانا الشريف سعيد - حفظه الله تعالى - إلى أفندى الشرع الشريف يطلب منه قفطاناً، وقد حضرت السادة الفقهاء، وكبار العساكر عند الأفندى، فقال مولانا الأفندى: لا بأس أن تصبروا

وتمهلوا نحو خمسة أيام نرسل لأكابر الأشراف، ونرى من يختارونه فيكون هو، فامتنع أغاة الينكشارية، وقال: أنا لا أريد مصلحة، لا أريد إلا صلاح البلاد، وإذا لم يتول هذا الرجل تلفت البلاد، فتأثر الأفندى من كلامه، وفهم تعريضه به، فاعتذر الأغا إلى الأفندى فى الحال، فأعطاه الأفندى القفطان على أن يلبسه الشريف قائم مقام إلى أن يرسلوا إلى الأبواب العلية، ويعرفوا بالحال، فأتوا بالقفطان إلى الشريف سعيد، وقالوا له ما قاله الأفندى، فقال: لا ألبسه إلا استقلالا، أنا ابن سعد بن زيد، فلبسه وأطلق مناديه بالبلاد، ومعه السيد عدنان بن حسن، والسيد محمد بن سرور وغيرهما.

ثم أمر بالزينة ثلاثة أيام، ثم أمر بزينة يومين ثم يومين، إلى أن كملت اثني عشر يومًا.

وفى يوم الإثنين سادس عشرى الشهر المذكور شهر جمادى الأولى: وصل مورك من ينبع من السيد عبد المحسن يخبر والده - على ظن حياته - بوصول قابجى يسمى أحمد أغا صحبته مرسوم شريف سلطانى، وقفطان وسيف مرهف باسم والده مولانا الشريف أحمد، وقفطان لسنجق جده الأمير محمد بك، فكان وصول مورقه فى اليوم المذكور بعد وفاة والده بأربعة أيام.

وفى ليلة الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة: وصل السيد محمد - مير أخور المرحوم الشريف أحمد الذى كان قد أرسله إلى الأبواب - تقدم عن القابجى بيومين.

ثم فى سادس الشهر المذكور: دخلت القفاطين السلطانية، واجتمعت السادة والأعيان والكبار على العادة فى الحطيم، ولبس القفطان الشريف سعيد، وتمنطق بالصارم المجوهر نصابه من حجر اليشم المفتخر، وقرئ المرسوم السلطانى المتوج بالاسم الشريف السليمانى بعد أن حول خطابه إلى اسم الشريف سعيد بن سعد فيه التصريح بأن ابتداء جلوس مولانا السلطان سليمان على تخت السلطنة كان يوم السبت ثانى محرم الحرام من السنة المذكورة، أعنى: سنة تسع وتسعين وألف.

ثم نودى بالزينة سبعة أيام، ثم بعد مدة يسيرة نزل القابجى المذكور إلى جدة بالقفطان السلطانى إلى حضرة السنجق المكرم أمير اللواء الأمير محمد بك، فألبسه القفطان الذى هو له، وقابله من الإكرام بما كان أهله، وكان يومًا مشهودًا.

وفيها ليلة الخميس رابع عشر الشهر المذكور - أعنى: جمادى الآخرة -: دخل مكة السيد عبد المحسن، وابن عمه السيد مساعد، وغالب الذين كانوا معهم. وفي سابع عشره خرج على سبعة عشر أصحاب ركائب زوّار قصدوا طريق زقاقة بعد ركوبهم من المنزل المسمى مستورة بساعة خمس مردفات معهم خمس من البندق رموهم بهن، فأخذوهم ما عدا ثلاثة أنفس فروا راجعين إلى مستورة، فخرجت عليهم أربع مردفات كانت كامنة، فأخذوهم فرجع الجميع إلى مستورة، في حالة ليست بمستورة، ولله الأمر لا راد لما أراد.

وفي تاسع عشر الشهر المذكور: كانت بالمدينة واقعة السيد محمد البرزنجي مع السيد محمود الكرديين، ادّعى على السيد محمد ضربُ السيد محمود، فدعاه الحاكم الشرعى أولا وثانياً، ثم أتاه قهراً على ما سمع، واجتمعت العساكر من العامة لسماع الدعوى، فأنكر السيد محمد الفعل، ووقع بينه وبين الأفندى حال الله أعلم بحقيقته آل الأمر فيه إلى حبسه بأسفل القلة الكبيرة رأس القلعة. وسيأتى ذكر تسجبه وخلوصه من ذلك المحل إن شاء الله تعالى.

وفي يوم الجمعة ثانى عشر الشهر المذكور: كان بروز الشيخ سعيد ابن المرحوم الشيخ محمد المنوفى صحبة العرض إلى الأبواب العالية فى شأن تولية الشريف سعيد بن سعد مكة، وطلب التأييد بالأمر السلطاني، فعيق عن قصده قبل مجاوزته المحل المسمى بالمويلح، وأصبح عذبه الفرات مويلح.

وفي ليلة الأحد حادى عشرى شعبان: وصلت ثلاثة نجاب من بنى صخر من صالح باشا صحبتهم مكاتيب من مولانا الشريف سعد تعزية لابنه الشريف سعيد وتهنئة. هكذا أشيع، والله أعلم بالحقائق.

وفي ليلة الثلاثاء غرة رمضان: وصل الشيخ سعيد ابن المرحوم الشيخ محمد المنوفى بحرا إلى جدة ثم إلى مكة، فدخلها عشاء الليلة المذكورة، وقصد إلى بيت الوزير يوسف السقطى - وكان الشريف سعيد إذ ذاك عنده - فأخبره بما وقع له فى سفرته.

هذا وأما الخبر عن مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، فإنه لما سار هو ومن معه من السادة والأتباع فى شهر ربيع الأول مضى إلى أن انتهى به السير إلى محل

يسمى بحرا بين المحل المسمى بالأزلم، والمحل المسمى كفاف منزلتي الحاج المصرى فأقام به، ووصل إليه به سابع عشر جمادى الأولى القابجى أحمد أغا صاحب القفطان المتقدم ذكره، فقابله مولانا الشريف متع الله بحياته بغاية الإكرام، ونهاية الإجلال والإعظام. كما هو شأن طبعه الشريف، ودأب خيمه الزكى المنيف، وأقام عنده يومين، ثم رحل بما أرسل به لمن أرسل إليه.

ثم إن مولانا الشريف - متع الله بحياته - أرسل مولانا السيد شبير ابن السيد مبارك معه السيد دراج الهجالى فى جماعة من الأتباع إلى محافظ مصر حسن باشا بلغه الله من الخيرات ما شاء بعرض يتضمن ما أراده.

وكان رحيل السيد شبير ومن معه يوم الخميس ثانى عشرى الشهر المزبور، أعنى جمادى الأولى، وهو اليوم الذى توفى فيه المرحوم الشريف أحمد، فدخلوا مصر، وأوصلوه العرض.

ولما كان يوم سابع عشر جمادى الآخرة: وصل إلى مصر خبر وفاة المرحوم الشريف أحمد، فحيثئذ أخرج لهم أمرا وقفطانا باسم مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، وسيّره مع كيخيته، وضم إليه أغوات البلكات من كل بلك جوربجى. فخرجوا من مصر ثانى عشرى شعبان المعظم.

ثم أعرض إلى الأبواب العالية لمولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - بالسير الشديد على خيل البريد لتأييده بالأمر السلطانى والقفطان الخاقانى.

ثم إن السيد شبير بعد خروجه من مصر أرسل إلى مولانا الشريف متع الله بحياته: إنا واصلون إليكم عن قريب صحبة القفطان، ومن معه، فأقبل مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - هو والسادة الأشراف، وخدامهم وأتباعهم إلى الينبع، فأقام بها أياما، ثم منها إلى قرية بدر، وكان دخوله إليها خامس عشرى شهر شعبان المعظم فأقام بها.

ثم لما كان يوم الجمعة ثامن عشر رمضان: وصل إليه القفطان، ومن معه من الأغوات، فألبسه بمسجد الغمامة منها، وهو الموضع الذى بنى فيه العريش للنبي ﷺ فقعد فيه يوم وقعة بدر المشهورة؛ كما ذكره المؤرخون الأقدمون، ثم ساروا جميعا مقبلين إلى مكة - زادها الله شرفا - وقد كان جاء يوم الإثنين رابع عشر

رمضان المذكور مورك إلى مكة من حضرة السنجق محمد بك صحبة مكتوب إلى حضرة الأفندي، وأكابر عساكر مصر مضمونه: أنه قد جاءني صورة أمر من باشا مصر بولاية الشريف أحمد بن غالب، وأن يبرزوا لمقابلة القفطان ومن معه، فلما وصل ذلك المكتوب طلوعوا إلى الشريف سعيد، وأخبروه بما فيه، وكان الشريف سعيد قد سمع بأن قد نودي باسم الشريف أحمد في جدة، فأجابهم بقوله إن كان بيد السيد أحمد بن غالب أو السنجق أمر سلطاني، فليأتوا به ونحن مطيعون للأمر السلطاني، وإن كان غير سلطاني فحكم الباشا على مصر وصعيدها، يعزل فيه ويولى من شاء، وما دون مكة إلا السيف، فقال له الأفندي عند ذلك: يا مولانا هذا وزير مصر يعزل ويولى، فكذبه صريحًا وقال: يعزل ويولى لمثلك، ثم قال لكبار العساكر: أنا لا أمتنع من يريد الخروج، ولكن اعلموا أن أول خارج أول من أضع فيه السيف، وإلا فالزموا بيوتكم لا معنا ولا علينا.

ثم سطر كتابًا للسنجق قال له فيه.

مثل قوله الأول: إن كان معك أمر سلطاني فأقبل أنت ومن معك، وإلا فارجع من حيث جئت، فوصل الكتاب إلى السنجق، وهو بالمحل المسمى بحرة من طريق جدة، فأعاد السنجق الجواب: لا بد من الدخول، فلما سمع الشريف سعيد هذا الجواب أمر عساكره بصعود المنائر، وشحنت بيوت أعلى مكة وأسفلها بالعسكر، وانتقبوا في جدرها متارس حصار، وأرسل بنحو خمسين خيالا وعشرين دبابًا عليهم السيد حسن بن عبد الكريم بن حسن بن علي بن باز، وقال: أينما لقيتموه فردوه فإن رجع، وإلا فكذا وكذا، فخرجوا بعد صلاة العشاء حتى واجهوا مخيمه مقبلا على أدنى محل إلى مكة فردوهم، ثم ساروا هنيئة حتى لاقوه، فتقدم إليه السيد حسن المذكور، وقال: يا سنجق يقول لك الشريف ارجع وإلا كذا في هذا المكان، من حذر فقد أندر.

ثم قال لمن في صحبة السنجق من الأشراف وهم السيد محمد ابن السيد مساعد، والسيد عبد الله بن أحمد الحارث، والسيد صالح بن السيد مساعد: يقول لكم الشريف: ما لكم دخول ديرتي ارجعوا من حيث جئتم، فرجعوا، ثم رجع السيد حسن فوجد موزقًا من الأفندي، وكبار العسكر إلى السنجق يعتذرون عن الخروج

إلى ملاقاته، ويأمرونه بالدخول ليلاً هو ومن معه إلى مدرسة الأفندي ليكون أمراً يُتّ بليل، فازداد بهم ريباً إلى ريب هكذا أشيع في البلاد، وكذا أشيع ليلة الإثنين حادى عشرى رمضان أن بعض عسكر رتبة الفرع مقبل إلى مكة لغرض له وجد مكتوباً مع مورك أرسله محمد أغا البغدادي إلى مولانا الشريف أحمد متع الله بحياته، فأوصله إلى الشريف سعيد فقرأه ودعا البغدادي بعد صلاة التراويح، ووبخه فقال: ما وقع منى شيء من هذا، وحلف بحياته أنه ما كاتب، فأظهر له الشريف ذلك المكتوب، ثم أمر به فضم وزنجر، واستدعى بعبده فأخذ من الحجر المطهر، فأمر بضمه مع سيده فرمى برأسيهما من ليلتهما بأقصى أجياد أبي القاسم، وكسرت أبواب بيوته، وأخذ جميع ما فيها، وكان شيئاً كثيراً من أنواع كثيرة بعد أن حاصر فيها بالبندق أربعة من عبيده رأسهم عبد حبشى، يقال له: شاهين نحو المائتين من عبد وعسكري إلى تذكير الصبح، وكمن شاهين خلف الباب، فلما كسر ودخل عليه طعن أول داخل فقتله، ثم قتلته العسكر عند باب الشريف، وحمل قتيلاً وألقى فى الواسعة، ولكل أجل كتاب.

ثم إن حضرة السنجق محمد بك استقبل مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - ومن معه من السادة الأشراف، والأغوات بالآلاى والنوبة عند انفصالهم من أدنى ملاوى وادى مر، فواجههم وحياهم ثم دخلوه معاً جميعاً، ثم ورد عليهم به مولانا السيد أحمد ابن السيد سعيد بن شنبر بن حسن، فركب إليه مولانا الشريف - متع الله بحياته - وتلقاه من بُعد، واعتنقا بخالص الصدقة والود، وأتاه من العئلة فى قريب من خمسين عنان، كان الله له حيث كان.

وفى ليلة الثلاثاء تاسع عشرى رمضان المزبور: وصل الخبر أن مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - نزل بوادى مر هو والسادة الأشراف والسنجق، ومن معهم فأمر الشريف سعيد حينئذ الفعلة ببناء متارس عديدة على رءوس جبال الزاهر، ومضايق ثنتى كداء وكدى ورتب فيها العساكر وفى غالب الأماكن المظلة على المنافذ.

وبرز فى تلك الليلة السيد مساعد ابن الشريف سعد فى عشرة من السادة الأشراف، وبعض خيالة ونحو ستين بواردياً ويمدفعين اثنين سحبا بأكتاف الرجال

لإعواز أقتاب الجمال ويات تلك الليلة بالزاهر.

وفى ليلة الخميس مستهل شوال ليلة العيد: ورد الخبر بوصول مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - إلى النوارية محل على نصف المسافة من وادى مر، وأشيع أن قصده الدخول وذكر اسمه فى خطبة العيد على منبر الحرم الشريف، فأرسل مولانا الشريف سعيد مولانا السيد باز بن هاشم، والسيد واصل بن أحمد إلى مولانا الشريف أحمد - متع الله بحياته - يطلب إرسال الأمر الذى وصل إليه ليشرف عليه، فلما وصلا إليه لهذا الغرض غضب السنجق محمد بك المذكور، ومن معه من الأغوات، وشرابجية البلكات، وقال: ليس الأمر ملعبة وحصل بينهم كلام.

فقال مولانا السيد أحمد بن سعيد بن شنبر: يا أمير نحن رفاقة نصطليح ثم أخذ السيدين المذكورين، وتكلم معهما بكلام لم تبلغنا حقيقته الله أعلم بها، فرجعا إلى الشريف سعيد فأخبراه، فعزم حينئذ على إخلاء مكة، والخروج منها، وأمر العساكر بمفارقة المتارس، والدور التى كانوا بها، وخرج نصف الليل من ليلة الجمعة ثانى شوال، وخرج معه أخوه السيد مساعد وابن عمه السيد عبد المحسن وغيرهما، وعبيدهما وأتباعهما توجهوا إلى قرية الطائف، ثم طلب بعد ذلك من مولانا الشريف إقامة مدة شهرين بها فأعطىها، وفى حال خروجهم دخل مولانا السيد حسن بن غالب فى جماعة من الأشراف والأتباع لحفظ البلاد عن الشُّعُور، ولله عاقبة الأمور. وكانت مدة ولايته أربعة أشهر، وعشرة أيام من غير زيادة ولا نقص، يجمعها حروف قولك: كل له مدا.

ومما قيل فيه من الشعر قولى، وقدمتها له يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى من سنة تسع وتسعين وألف [من الطويل] ٥

سقى معهدًا بين الأثيل وناجم	سحوح العهاد الغاديات السواجِم
دريسا عفته الهوج مذ برح النوى	بأهليه تكسوه سمال السمائم
نظرت إلى أطلالهن ونؤيها	مثلمة فى جنب سُفْعِ جوائِم
كأن الأثافي السود كبدى قطعنها	ظبى البين أثلاثا كتقسيم قاسم
فدرت بمرآها شتون مدايمى	وظلت وإياها كبو ورائم
كأن لم تكن للغيد مأوى ولم تقم	على دوجه ألحان وُزْقِ الحمائم

بلى قَدْ عهدناه كَذَاكَ فصَوِّحَتْ
 معاهدُ لمياءَ البديدِ تجرُّ في
 تميلُ كما مالتْ غصونُ رياضها
 على غُرَّةِ كالشمسِ من تحتِ طُرَّةٍ
 ومُقلَّةِ أدماءِ الجَوَازَى مَظفلِ
 جَرَى فوقها قوسٌ من النونِ موترٌ
 لها سلكُ دُرٍّ قفلِ فيروزِجِ الوشا
 به الشَّهْدُ ممزوجًا بصهباءِ خامرَتْ
 ومهضومِ كَشْحِ مخمص الغورِ رُقَّةٍ
 لها الجِسْمُ لَمَّا حلَّه صَخْرُ قلبها
 براها إلهُ العرشِ عُقْلَةُ عاقلِ
 إذا وَعَدَتْ أَلَوْتُ وَإِنْ أُوْعِدْتُ وَفَتْ
 شَهْرَتْ بحبيها فصَزَتْ كأننى
 سعيدُ بنُ سعدٍ ابنُ زَيْدِ بنِ محسنِ
 شريفٌ له من قبضةِ النورِ جوهرٌ
 ملكُ بلادِ الله وابنُ ملوكها
 له منطقُ ماءِ النهى منه صَيَّبَ
 أعز حمى مَنْ لَأَذَ منه بَذْمَةٌ
 محاسنُ ساداتٍ مضوا فيه جَمَعَتْ
 فمن خلقه لم تلقِ أحسنَ مظهرًا
 بَنَتْ فى مراقى الغرِّ أَبَاؤُهُ العلا
 فلم يَرْضَ حتى شَادَ مثلهم وَمَنْ
 فهنيتُ ملكًا لم تزلْ يا سعيدُهُ
 رزئتُ عظيمًا إذ حَبِيتَ عَظِيمَةً
 دهانا بيؤسى لا يقاومُهَا الأَسَى
 ذوى زيدِ الأمجادِ لا فُضَّ جمعُكُمْ

نضارته طوحُ الزمانِ المتأخِمِ
 ثراها ذبولاً عاطراتِ النسائمِ
 بنشأتِ خمراتِ الصبا لا المآئِمِ
 تزيُنُ الضياءَ منها بأسودَ فاحِمِ
 أُرِيَعَتْ بِقَنَاسٍ من انمارِ ساغِمِ
 نبالِ رنا رِيَشَتْ بأهدابِ رَائِمِ
 م دَارَ به فى نَضْفِ دورَةِ خاتمِ
 مع الصبحِ مسكًا مستطابَ المناسِمِ
 بعقدِ بریم فيه حُلَّتْ برائِمى
 كذاك أَتَانُ الضَّخْلِ أفسى الصلادمِ
 وفتنةَ نَسِيكِ وزلةِ عالمِ
 وكم أَشْمَتَتْ إذ خَفَتْ إِشْمَاتِ لائِمِ
 كبيتِ قريضٍ من مديحِ ابنِ هاشِمِ
 خلاصةِ خيرِ الخيرِ من وُلْدِ آدَمِ
 تكونُ شخصًا من علىِ وفاطِمِ
 وحامى حماها قَبْلَ نوطِ التمامِ
 ورأى مصيبٌ فى عظيمِ العظامِ
 وَمَنْ قَرَّبَتْهُ مِنْهُ أَدْنَى المَلازِمِ
 كجمعِ الغديرِ القَطَرِ غَبِ الغمامِ
 سَوَى مضمِرٍ من خُلُقِهِ والعزائمِ
 له بَيَّتَ مجدٍ فى رفيعِ الدعائمِ
 يشابهُ أباه فى العلا غَيْرُ ظالمِ
 مساعدِ سعيدٍ فى جميعِ المآزِمِ
 كذلك حالُ الدهرِ بينِ العوالمِ
 تقارنُ نُعْمَى ما لها من مقاومِ
 وعنكُمْ نبا بابُ الزمانِ المغاشِمِ

لَكُمْ أَنْفُسٌ مُلْكِيَّةٌ تَحْتَ نَبْضِهَا
إِذَا سَيِّدٌ مِنْكُمْ خَلَا قَامَ سَيِّدٌ
عَلَيْكَ كَشَفْنَا وَجْهَ عِذْرَاءٍ لَوْ عَدَّتْ
مِنَ الْخَفَرَاتِ اللَّائِي كُنْتَ عَظَلْتَهَا
وَلَكِنْ لَوْ مِنْ أَيْبِكَ اعْتَقَدْتُهُ
لِذَاكَ رَأَيْتَ الْخَيْرَ تَكْفِيرَ حِثِّهَا
وَمَا مَطْلَبِي فِيهَا الْإِجَارَةُ إِنَّمَا
بَقِيَتْ وَلَا أَبْقَى الرَّدَى لَكَ حَاسِدًا

وقال الأديب الشيخ سالم بن أحمد
ورثتُ كَلَاكَ اللهُ مَرْتَبَةً الْمُلْكِ
تَوَارَثَتْهَا عَنْ عَمِكَ الْأَشْرَفِ الَّذِي
كَذَاكَ عَنِ الْأَجْدَادِ أَكْرَمِ سَادَةِ
وَلَا غَرَوَ مَهْمَا كُنْتُ يَا سَبْطُ سَعْدِهِمْ
وَقَدْ جَاءَ يَسْعَى الْمُلْكَ نَحْوَكَ مَسْرَعًا
وَقُلْدَكَ الْأَحْكَامَ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ
فَأَصْبَحْتَ فِيهِ خَالِيًا عَنْ مِشَارِكِ
فِيَا نَجَلَ مَنْ أَعْطَى الْخِلَافَةَ حَقَّهَا
لِيَهْنِكَ هَذَا الْمَنْصِبُ الشَّامِخُ الَّذِي
فَعَادُوا كَمَا كَانُوا مِنَ الْأَمْنِ بَعْدَمَا
إِلَى أَنْ غَدَا كُلُّ يَقُولٍ تَأْسَفًا
وَلَوْلَاكَ مَعَ حُكْمِ الْقَضَاءِ وَأَمْرِهِ
فَهَا هُمْ بِأَمْنٍ مِنْكَ أَذْهَبَ عَنْهُمْ
وَمَا الْخَوْفُ إِلَّا بَيْنَ أَفْتَدَةِ الْوَرَى
وَذَلِكَ لَمَّا أَنْ تَسْتَمْتِ تَخْتَهُ
أَلَسْتَ الَّذِي إِنْ جُلْتَ وَالتَّقَعُّ نَائِرٌ
تَظْلُ صِنَادِيدُ الرِّجَالِ نَوَاسِئًا

قُلُوبُ أَسْوَدٍ فِي شَخُوصِ أَوَادِمِ
نَهَوْضُ بِأَعْبَاءِ الْعِلَا وَالْمَكَارِمِ
عِلَاكَ لَصِيَّتْ عَنْ مُلَامِسِ لَائِمِ
وَأَلَيْتِ أَقْسَامًا بِحِثِّ مِلَازِمِ
وَمَنْ قَبْلُ مِنْ زَيْدٍ جَرَى بِالْمَرَاحِمِ
وَأَنْ تَمَادَى التَّرِكِ إِحْدَى الْجَرَائِمِ
قَبُولُكَهَا وَاللَّهُ أَقْصَى عِزَائِمِي
فَسَعْدُكَ فِي حَالَتِهِ جِدُّ قَائِمِ

الصعدي المكي الشافعي [من الطويل].

فَهَا هِيَ فِي كَفْيِكَ ثَابِتَةُ الْمُلْكِ
تَمَسَّكَ طِفْلًا بِالْعُلَا أَيْمَا مَسْكِ
رَقُوا رَتَبًا لِلْمُخْجِدِ عَالِيَةِ السَّمَكِ
وَرِيثًا لَهُمْ فِي الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالنَّسَكِ
يَجْرُ ذِيُولُ التَّيِّهِ وَالْعُجْبِ وَالزَّمَكِ
وَعَامِلَ كُلِّ مَنْ ذَوَى الْحُكْمِ بِالتَّرِكِ
لَأَنَّكَ قَدْ أَحْلَلْتَ عَنْهُ عَرَى الشَّرِكِ
فَأَصْبَحَ مِنْ جَيْشِ السَّعَادَةِ فِي حَشْكِ
أَمْنَتْ بِهِ كُلَّ الرِّعَايَا مِنَ الضَّنْكِ
أَرِيعُوا بِفَقْدَانِ الْفَتَى مَاضِيِ الْفَتَكِ
وَحَزْنًا لِنَدْمَانِي جَزِيمِ قَفَا نَبِكِ
مِنْ اللَّهِ لَمْ تَحْقُقْ دِمَاهُمُ عَنْ السَّفَكِ
مَخَافَ ذِكْرَاهَا يَعْدُ مِنَ الْإِفْكِ
ثَوَى مِنْكَ حَتَّى مَسَّهَا نَصَبُ النَّهْكِ
بِعِزْمِ غَدَتْ مِنْهُ الْقَسَاوِرُ فِي زَبْكِ
وَمَبِضُّ جَوْ الْأَقْفَى فِي شِدَّةِ الْحَلْكِ
إِلَى أَنْ يَذُوقُوا أَكْؤُسَ الْحَيْنِ وَالْهَلْكِ

وَكُلُّ حديدِ القلبِ ثَبِتَ مجرَّبٍ
يَهَابُكَ مَذْ يَلْقَاكَ فِي حَوْمَةِ الوَغَى
فَلَوْ أَنَّكَ صَادَمْتَ الرَوَاسِي لَخَلَّتْهَا
وَأَمَّا السَّخَا يَابْنَ السَّخَى فَإِنَّهُ
لَهَذَا شَذَا عَزَفَ الشَّا عَنكَ مِثْلَ مَا
وَشَاعَ حَدِيثُ الْفَضْلِ عَنْكَ مَسْلَسًا
فِيَا بَذَرَ مَلِكٍ جَلٌّ فِي فَلَكَ الْعَلَا
وَيَايَهَا الشُّهُمُ السَّعِيدُ ابْنَ سَعْدَنَا
إِلَيْكَ مِنَ الْبَحْرِ الطَّوِيلِ قَصِيدَةٌ
تَهْنِئُكَ بِالْمَلِكِ الَّذِي قَدْ وَرَثَتْهُ
مَلِكُ النَّدَى مَرْدَى الْعَدَى طَالَمَا غَدَا
فَمَا زَالَتْ الْأَيَّامُ تَتَلَوُ تَهَانِيَا
كَمَا ظَلَّ ثَغْرُ الدَّهْرِ مِنْ جَذَلٍ بِمَا
فَدُمَ رَافِلًا فِي مَلْبَسِ الْعِزِّ لَا يُرَى

صَبُورٍ عَلَى ضَرْبِ الْقَوَاضِي وَالصَّكِّ
وَيَقْفَى وَمِنَ الْقَلْبِ مُضْطَرَبٌ مُنْكَى
وَحَقِّكَ إِجْلَالًا لِقَدْرِكَ فِي ذِكِّ
سَجِيَّتِكَ الْغَرَاءِ مِنْ غَيْرِ مَا شَكِّ
شَذَا عَزَفَ طَيْبِ الْعَنْبَرِ الرُّطْبِ وَالْمَسَكِ
لَدَى الْعَرَبِ الْعَرَبَاءِ وَالْفُرْسِ وَالْثُرَكِ
وَيَا بَخْرَ جُودِ كَمْ سَعَتْ فِيهِ مِنْ فُلُكِ
وَيَا مَنْ بِهِ قَدْ فَاءَ فِي الْحَرَمِ الْمَكِي
بَعِيدُ مَدَاهَا لِي تَدَانِي عَلَى وَشَكِّ
عَنِ الْبَطْلِ الشُّطْبِ الْخَبِثُصْمَةِ الْمَلِكِ
يَرُدُّ إِلَى الشَّاكِي الْحَقُوقَ مِنَ الْمَشْكِي
عَلَيْكَ وَبَشْرًا دَائِمًا غَيْرَ مَنْفَكِ
حُيَيْتَ مِنَ السَّغْدِ الْمَتَمِّ فِي ضَحْكِ
لَكَ الْيَوْمَ فِي أَحْكَامِكَ الْغُرِّ مِنْ يَحْكِي

ثم وليها مولانا الشريف أحمد ابن المرحوم السيد غالب ابن السيد محمد بن مساعد بن مسعود بن حسن، دخلها من أعلاها صبيحة تلك الليلة يوم الجمعة ثانی شوال عند الضحوة العالية بالآلاى الكبير والنوبة، وجميع عساكر مصر، وغيرهم فى موكب أتم ما سمعت أذن من خبر، وأبهى ما لذ فى عين ذى نظر، لابسا خلعة التبجيل والتكريم، ذلك تقدير العزيز العليم، فنزل بداره السعيدة، ونودى باسمه فى البلاد، يسمعه الحاضر والباد. وبالزينة سبعة أيام، وابتهجت القلوب بالفرح التام. وسعت إليه الخاصة والأعيان مهنتين فرحين، وهرعت العامة لتقبيل أعتابه مستبشرين مرحين.

وقد تشرفت بمديحه حبًا وودًا، ورويت عن بحر أصبح مد غيره عنده جزرًا وجزره عند غيره مدًا. فقلت [من الطويل]:

سَرَتْ نَسْمَةٌ مِنْكُمْ تَهْبُ بِإِقْبَالِ
شَذَا مِنْ شَمِيمِ الرَنْدِ وَالشَّيْخِ وَالْحَالِ
تَحَدَّثَ عَنْ بَرَقَاءِ مَنْجَدٍ فَالْقَصَى
مِنْ الدَّوْحِ فَالْعَرَجِينَ فَالْوَشْمِ فَالْخَالِ

مسارحُ آرامٍ ملاعبُ صِبيّةٍ
 مواردها عدوّ وعشبُ رياضِها
 عَفَتْ غيرَ رَسْمٍ خافَتِ الظلّ قالِصٍ
 وَسُفِعَ أَثافٍ كَالْحَمَاجِمِ جُثَمِ
 ثلاثُ تشكّى أربعاُ تنتهينها
 خلّت دمتاها عن سَوَى أَرْقَطِ المِطَا
 سقاها من الوسميّ صائبُ نوته
 ولا برحتُ عيني يسحُ وَلِيَّها
 منازلُ بيضاءِ العوارضِ أَرْهَفَتْ
 تبدّت مع الأترابِ تُرجِعُ لحظَها
 وبينَ الوشاحِ الملتوى غُضُنْ بانه
 وتختُ اللثامِ الجونَ دُرٌّ لثائهُ
 أسالتُ على الخدِّ الأسيلِ مدامعاُ
 وقد قربتُ يمتنى يديها بضمّها
 وعَضَّتْ بدرُ الثغرِ فُضّةَ معصمِ
 وما أُنْسَ لا أنسى الهوى ومعاهداُ
 فمالى ووَضِلَ الغانياتِ وإنما
 تنعمتُ فى ليلِ الشبابِ فراعينى
 وما كانَ إلا وصلهُ فجفاؤهُ
 تملّصَ منى ثم مرّ فلو يشا
 أبا غالبٍ سلطانَ مَكّةَ أحمدُ بـ
 تسئى دَرى العلياءِ قدماُ وتالياُ
 فَسَارَ عَلَى عَرْضِ الفلاةِ مراوحاُ
 ووالثهُ من أبنا أبيه عصائبُ
 مساعيرُ حَزَبٍ لا يرجى طعينهُم
 ميامينُ بَسَامُونِ فى السّلمِ والوعى

مطاردُ فرسانٍ معاطنُ أجمالٍ
 أثيثُ سقاءِ الجودِ من فرغهِ الدالى
 ومثلومُ نُؤْيٍ تحت أنضاءِ أطلالٍ
 وَأَشَعَتْ مشجوجِ القفا نَاجِرَ بالى
 وَحَيّا وتكسوهنّ مغبرِ أسمالٍ
 وَجَيْئَلُ خمعاء وشينهم عَسالٍ
 بمرتجسٍ دانى التّشاصينِ مسبالٍ
 بدّمع على تلكِ المناهلِ مُنْهالٍ
 معاطفها واستبدّعتُ حسنَ أجدالٍ
 تَخَاوَصَ أدماءِ السّوالِفِ مطفالٍ
 وثنى الإزار المرتوى حقفه العالى
 أُسِفَتْ بمرموقٍ سقى صرفِ جريالٍ
 تعاتبنى سِرّا بها عثبَ إدلالٍ
 إلى صَدْرها الخالى فزادَ بها حالى
 لها كادَ يثنيه السّوارُ عَلَى بالى
 تذكّرنها فِكْرَتى عَضْرَها الخالى
 مصايدُها بَيْنَ الشّبيبةِ والمالِ
 طلوعُ صباحِ الشيبِ من غيرِ إمهالٍ
 وما كانَ إقبالُ له غيرَ إجمالٍ
 شريفُ الصفا والركنِ عَوَدَ فى الحالى
 نَ غَالِبَ راعِيها الحفى الدّائلِ الدالى
 إلى أن تلا مِنْ ملكها السّندِ العالى
 فمن سرجِ منقالٍ إلى كورِ مرقالٍ
 ذوو نجداتٍ صادقو الفِعلِ والقالِ
 مساميعُ للدّاعى مساميعُ بالنّالِ
 جحاجةُ قُحِّ هُم خيرةُ الآلِ

جَمَى الضَّيْمُ إِنْ يَاطَا مَوَاطِئَ خَيْلِهِمْ
فَمَا خِيطَتِ الْأَجْفَانُ مِنْهُمْ عَلَى الْقَذَا
وَلَمْ يَبْرَحُوا فِي ثَبَتِ طَوِيلٍ وَمَنْعَةٍ
فَأُولَاهُ مَلِكُ الرُّومِ مُلْكُ جَدُودِهِ
أَصَابَ بِهِ الْمَغْزَى كَمَا وَضَعَ الْهِنَا
فَعَبِرَ عَنْ أَسْمَائِهِ كُلِّ مَنْبَرٍ
لِيَهْنِكَ بَلْ يَهْنَى الْخِلَافَةُ أَنَّهَا
فَلَا نِعْمَةٌ إِلَّا وَأَنْتَ وَلِيُّهَا
فَلِلَّهِ حَمْدٌ يَمْلَأُ اللَّوْحَ دَائِمٌ
أَحْبَبُكُمْ حُبِّينِ حُبٌّ فَرِيضَةٌ
وَحُبٌّ صِفَاتٍ أَنْتَ مَفْرُودُ جَمْعِهَا
إِلَيْكَ مِنَ الْوُدِّ الصَّرِيحِ خَدِيمَةٌ
جَوَاهِرُ أَصْدَافٍ مِنَ الْفَكْرِ نَضْدَتْ
مَخْدَرَةٌ حَرَفَتْ رَفَعَ نَقَابِهَا
هَدِيَّةٌ مَنْ يَدْعُو لِمَجْدِكَ بِالْعَلَا

من الأرضِ فاستوى لهم قَالَةَ الْقَالِ
وَلَمْ يَشْرَبُوا التَّرْنِيقَ مِنْ وَرْدٍ أَوْشَالٍ
بَأَمْرٍ عَيْشٍ فِي مَحَلٍّ وَتَرْحَالٍ
وَقَمَّصَهُ لِلْعَزِّ أَشْرَفَ سَرْبَالٍ
عَلَى النَّقَبِ مِنْ جَرَبَائَةِ الْهِنَائِ الطَّالِي
وَأَفْصَحَ عَنْ آلَائِهِ كُلُّ ذِي قَالَ
أَوْتُ مِنْكَ لِلْبِرِّ الرِّضَى الْحَائِطُ الْكَالِي
وَمَكْرَمَةٌ إِلَّا وَأَنْتَ لَهَا وَالِي
وَشَكَرْتُ لَهُ فِي بَدْءِ نِعْمَاهُ وَالتَّالِي
بِهِ أَلَزَمَ اللَّهُ الْوَرَى أَمْرَهُ الْعَالِي
غَدَوْتُ بِهَا فِي حُبِّكَ الْمَفْرُطِ الْغَالِي
لَهَا فِي مِثَالِ الطَّرْسِ مِشْيَةُ مِخْتَالٍ
فَمَا خَانَهَا سَلَكٌ وَلَا رَيْبُ إِغْلَالٍ
فَفَكَّرْتُ وَاسْتَضَوْتُ بِالْمَدْحِ إِحْلَالِي
وَعَيْشِكَ فِي سِتْرِ مِنَ الْعَزِّ ذَيَالٍ

ثم عزل في يوم دخوله المذكور عن تدبير كرسى السياسة حاكمها القائد أحمد بن جوهر، وقلد منصبها عبده القائد سنبل، فقام بها أتم قيام، في أبهى مظهر وأبهج نظام. وكذلك في اليوم المذكور: عزل عن منصب الدوادية أحمد بن مصطفى المولتاتى فعل متيقظ حازم فتى، وقلد منصبها خادمه أبا القاسم بن محمد طاهر الشهير بالبربتى.

وفى يوم الأحد رابع شوال: أذعت عساكر مصر على القائد أحمد بن جوهر سببية قتل البغدادي محمد أغا ونهب بيته، فدخل على مولانا السيد أحمد ابن السيد سعيد ابن شبر فمنعهم عنه وقال إن يكن لكم عليه وجه فعلى يد مولانا الشريف متع الله بحياته، فحضرُوا فلم يثبت لهم عليه وجه فخلص.

ثم أنفذت المكاتيب إلى أهل الإدراك، ومشايخ العربان، فأطاع كل عاص ودان، من كل قاص ودان. وبعث الجنود ورتبها في كل وجهة ومخلاف، فأمنت البلاد

والطرق ولله الحمد مما يحاذر ويخاف .

وفى يوم الأحد حادى عشر الشهر المذكور: تقلد منصب الوزارة المكية الحسنية الغالية الخواجا إبراهيم بن على حميدان، وأفيض عليه فرو من السّمور، وفقنا الله وإياه للسداد فى جميع الأمور. وانفصل عنها يوسف بن عبد الله الشهير بالسقطى. وفى يوم الأربعاء رابع عشر الشهر المزبور: أمر - متع الله بحياته - بكسر أوانى المزور والخمور، وتشيت العواهر من بنات الخطا والفجور، ومن روى بعد ثلاث صلب عل باب داره.

فترحل بعضهن عن البلاد، وانكمش بعضهن عن ذلك التظاهر وفارق بيته، فتقاصر عنه تردد المرتاد. فجزاه الله تعالى خيراً عن الإسلام والمسلمين، وأيد به ملة جده سيد المرسلين.

وفى ليلة الخميس ثانى عشرى شوال: كان حصول الفرج منه - سبحانه وتعالى - لمولانا السيد محمد البرزنجى، وذلك أنه لما دخل عليه شهر رمضان، وهو محبوس بذلك المحل المتقدم ذكره أخرج من آخره إلى محل أروح وأنور فاستمر به. ثم إنه عهد إلى بعض أجبائه أن يُعِد له فى ذى الحليفة المحل المسمى عند العامة أيار على ناقتين بالأهبة، وأن يحضر له تحت القلعة حصاناً بعدته وسلاحه، فلما كان الليلة المذكورة تدلى من السور إلى خارج، وركب الحصان وتقلد السيف، وتنكب القوس، واعتقل الرمح، وسار إلى ذى الحليفة، ثم منها على الركائب سالكا طريق الفرع، واتجه بولده فى الطريق بقرية خليص، وكان قد خرج من المدينة قبله بثلاثة أيام بأمره خشية أن يمسك عوضه إذا فقدوه، فوصلا إلى مكة تاسع عشرى الشهر المذكور.

وفى يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة الحرام: أمر بقطع عبد أسود سارق، فقطع يده ورجلاه. ثم فى اليوم الذى يليه قطع سارق آخر حبشى الجنس يده ورجله من خلاف. ثم فى يوم السبت ثامن الشهر المزبور: كان وصول القفطان والمراسيم السلطانية صحبة سليمان أغا سلخور، فدخل بالآلاى العظيم، والمنظر البهى الوسيم، ووصل إلى مولانا الشريف - متع الله بحياته - بالحطيم. وقد فتح البيت السعيد، وغص المجلس بالسادة الأشراف، نخبة آل عبد مناف،

وأفندى الشرع، وشيخ الحرم، والسادة العلماء، والأعيان والأغوات، والسرادير وكبار العساكر.

فألبس مولانا الشريف - متع الله بحياته - القفطان السلطاني على فرو من السمور، ونشر المرسوم الخاقاني، وقرئت منه تلك السطور:

فيه بعد تعداد نعوت مولانا الحميدة، والثناء على جميل مزاياه المجيدة، التصريح بأننا قد أنعمنا بولاية الحرمين الشريفين عليكم، وأسندنا حماية المحلين المنيفين إليكم، والحث على القيام بواجب السادة الأشراف، الذابين عن حمى هذه الأكناف، والوصية بالعلماء والصلحاء والمجاورين، وحماية الحجاج والزوار والمسافرين، والالتفات إلى تأمين الطرق والبلدان، وقمع أشقياء العربان أهل العتو والطغيان، مؤرخًا من السنة المذكورة بأوائل شهر رمضان المعظم قدره.

ثم ألبس مولانا - متع الله بحياته - حضرة أفندى الشرع، والقابجي السلطاني، وكبخية الباشا أفرية من السمور، ثلاثة من غير تأخير ولا ملاثة.

وألبس مولانا الشيخ عبد الواحد الشيبى، وابنه الشيخ الأجل عبد المعطى، وجميع السرادير والشرابجة والجواویش، وأرباب المناصب القفاطين على القانون والعادة.

ثم دعى لمولانا السلطان الأعظم سليمان خان بن إبراهيم خان، ولمولانا الشريف - متع الله بحياته - على باب الكعبة الشريفة ذات السيادة، وكان يومًا فى نهاية الحسنى وزيادة.

وفى يوم الجمعة رابع عشر الشهر المذكور: أمر مولانا الشريف - متع الله بحياته - بحضور الخاصة والعامة عند الحطيم للدعاء لنصرة مولانا السلطان الأعظم كل يوم إثنين وخميس بعد صلاة الحنفى، عامله الله تعالى - بلطفه الخفى، وكان به نعم الحفى. آمين^(١).

(١) ثبت في النسخة الأولى : قد تم تكميل هذه النسخة من نسخة الأصل الموجوده بالكتبخانه الخديويه بيد كاتبه الفقير إلى الله محمود صدقي النساخ بها وقد كان الفراغ منه في يوم الجمعة ذو القعدة سنة ١٣٢٢ اثنين وعشرين وثلثمائة وألف هجرية الموافق ٣ ثلاثة فبراير ١٩٠٥ أفرنكيه. وثبت في النسخة الثانية : انتهى الجزء الخامس من كتاب سمط النجوم العوالى في أنباء الأوائل والتوالى بحمد الله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد =

.....

= وعلى آله وصحبه وسلم، كتبه حسن رشيد على نفقة دار الكتب المصرية من النسخة الخطية المحفوظة بها الموضوعة تحت رقم (٥٣) تاريخ وكان الفراغ منه في يوم الأربعاء أول جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ هجرية موافق ٣١ يوليو سنة ١٩٣٥ ميلادية والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

* * *

فهرس مراجع التحقيق ومصادره

- الآيات البيّنات . ابن قاسم العبادي . ط بولاق .
الأباطيل . الجوزقاني . ط الهند .
إتحاف السادة المتقين . الزبيدي . ط دار الفكر .
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا . المقرئزي . ط مصر .
الأحاديث المختارة . محمد بن عبد الواحد ضياء الدين المقدسي . ط النهضة الحديثة .
الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان . محمد بن حبان . ط الرسالة .
أخبار أصبهان . أبو نعيم الأصفهاني . ط الهند .
أخلاق النبي . أبو الشيخ الأصفهاني . ط مصر .
الأدب المفرد . محمد بن إسماعيل البخاري . ط السلفية .
الأذكياء . ابن الجوزي . ط مكتبة المتنبي .
الإرواء . محمد ناصر الدين الألباني . ط المكتب الإسلامي .
أسباب النزول . الواحدي . ط دار الكتب العلمية .
الاستيعاب في أسماء الأصحاب . يوسف بن عبد الله بن عبد البر . ط دار الكتب العلمية .
أسد الغابة . ابن الأثير . ط دار الكتب العلمية .
الإصابة في تمييز الصحابة . ابن حجر العسقلاني . ط مصر .
الاعتقاد . البيهقي . ط دار الكتب العلمية .
الأعلام . خير الدين الزركلي . ط دار العلم للملايين .
أعلام النساء . عمر رضا كحالة . ط دمشق .
الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ . السخاوي . ط دمشق .
الأغاني . أبو الفرج الأصبهاني . ط الساسي بمصر .
الإكمال . علي بن هبة الله ماكولا . ط دار الكتب المصرية .
اللائع المصنوعة في الأحاديث الموضوعة . عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي . ط دار المعارف .

- الأمثال. حسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي. ط الدار السلفية بالهند.
- إنباء الغمر. ابن حجر. ط دار الباز.
- أنساب الأشراف. البلاذري. ط دار الفكر.
- إيضاح المكنون. إسماعيل باشا البغدادي. ط إستانبول.
- البحر المحيط. الزركشي. ط دار الصفوة.
- البدء والتاريخ. أحمد بن سهل البلخي. ط شالون.
- بدائع الزهور. ابن إياس. ط دار الكتب.
- البداية والنهاية. ابن كثير. ط مصر.
- البدر الطالع. الشوكاني. ط مصر.
- البيان المغرب. ابن عذاري المراكشي. ط ليدن.
- تاريخ الإسلام. للذهبي. ط مؤسسة الرسالة.
- تاريخ الأمم والملوك. ابن جرير الطبري. ط الاستقامة بمصر.
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية. ابن الأثير. ط دار الكتب الحديثة.
- تاريخ بغداد. الخطيب البغدادي. ط مصر.
- تاريخ الخلفاء. السيوطي. ط دار الكتب العلمية.
- تاريخ الخميس. حسين محمد الديار بكري. ط مصر.
- التاريخ الصغير. البخاري. ط الهند.
- تاريخ الطبري = تاريخ الأمم والملوك. الطبري. ط دار سويدان بيروت.
- تاريخ ابن عساكر. ط المجمع بدمشق.
- تاريخ ابن الفرات. محمد عبد الرحيم بن الفرات. ط بيروت.
- التاريخ الكبير. البخاري. ط دار الكتب العلمية.
- تاريخ الموصل. سليمان صائغ الموصللي. ط مصر.
- تاريخ ابن الوردي. عمر المظفر بن الوردي. ط مصر.
- التبر المسبوك في ذيل السلوك. السخاوي. ط مصر.

- تتمة المختصر = تاريخ ابن الوردي .
 تجارب الأمم . ابن مسكويه . ط مصر .
 تجريد أسماء الصحابة . الذهبي . ط دار المعرفة .
 تخريج الكشاف . الزيلعي . ط دار ابن خزيمة .
 تدريب الراوي . جلال الدين السيوطي . ط المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .
 تراجم إسلامية شرقية وأندلسية . محمد عبد الله عنان . ط مصر .
 ترتيب القاموس . الطاهر أحمد الزاوي . ط عيسى البابي الحلبي .
 تعجيل المنفعة . ابن حجر . ط دار البشائر الإسلامية .
 التعقبات على الموضوعات . السيوطي . ط دار الجنان .
 تفسير القرآن . عبد الرزاق . ط مكتبة الرشد .
 تفسير القرآن العظيم . ابن كثير . ط دار الشعب .
 تفسير النسائي . النسائي . ط مكتبة السنة .
 تفسير الوسيط . الواحدي . ط دار الكتب العلمية .
 تقريب التهذيب . ابن حجر . ط دار العاصمة .
 التكملة لوفيات النقلة . المنذري . ط مؤسسة الرسالة .
 تلخيص الحبير . أحمد بن علي بن حجر العسقلاني . ط دار المعرفة .
 تلقيح فهوم أهل الأثر . ابن الجوزي . ط دهلي .
 التمهيد . أبو عمر يوسف بن عبد البر . ط قرطبة .
 تنزيه الشريعة . ابن عراق . ط دار الكتب العلمية .
 تهذيب الأسماء واللغات . أبو زكريا النووي . ط مصر .
 تهذيب التهذيب . ابن حجر العسقلاني . ط حيدر آباد .
 تهذيب الكمال . جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي . ط مؤسسة الرسالة .
 توضيح المشتبه . ابن ناصر الدين . ط مؤسسة الرسالة .
 تيسير التحرير . أمير بادشاه . ط مصطفى البابي الحلبي .

- الثقات . ابن حبان . ط مؤسسة الكتب الثقافية .
- جامع البيان في تأويل القرآن . الطبري . ط المعارف بمصر .
- جامع التحصيل . العلائي . ط عالم الكتب .
- الجرح والتعديل . عبد الرحمن بن محمد الرازي . ط حيدر آباد .
- الجمعيات . البغوي . ط مكتبة الخانجي .
- الجمع بين رجال الصحيحين . ابن القيسراني . ط الهند .
- جمهرة أنساب العرب . ابن حزم .
- جمهرة النسب . الكلبي . ط عالم الكتب .
- جوامع السيرة . ابن حزم . ط مصر .
- حاشية البناني . البناني . ط الحلبي .
- حاشية العطار على جمع الجوامع . ط دار الكتب العلمية .
- الحاوي للفتاوي . السيوطي ط دار الفكر .
- حسن المحاضرة . جلال الدين السيوطي . ط مصر .
- حلية الأولياء . أبو نعيم . ط دار الكتب العلمية .
- الحوادث الجامعة . ابن القوطي . ط بغداد .
- حوادث الدهور . ابن تغري بردي . ط بركلي بكاليفورنيا .
- حياة الحيوان . الدميري . ط بولاق .
- خريدة القصر وجريدة العصر . العماد الأصفهاني . ط دمشق .
- خزانة الأدب . عبد القادر بن عمر البغدادي . ط مصر .
- الخصائص الكبرى . السيوطي . ط دار الكتب العلمية .
- الخطط التوفيقية . علي مبارك . ط مصر .
- الخطط المقرزية . المقرزي . ط مكتبة الثقافة الدينية .
- خلاصة تهذيب الكمال . أحمد بن عبدالله الخرجي . ط مصر .
- دائرة المعارف الإسلامية . نخبة من العلماء . ط مصر .

- الدارس. عبد القادر النعيمي الدمشقي. ط المجمع العلمي بدمشق.
- الدر المنثور. جلال الدين السيوطي. ط دار الكتب العلمية.
- الدرر الكامنة. ابن حجر العسقلاني. ط حيدر آباد.
- درة الحجال. أحمد بن محمد بن القاضي. ط الرباط.
- دلائل النبوة. البيهقي. ط دار الكتب العلمية.
- دلائل النبوة. أبو نعيم. ط عالم الكتب.
- دول الإسلام. الذهبي. ط حيدر آباد.
- ديوان الإسلام. شمس الدين الغزي. ط دار الكتب العلمية.
- ديوان حسان. ط دار الكتب العلمية.
- ذيل تذكرة الحفاظ. أبو المحاسن الحسيني الدمشقي. ط دمشق.
- ذيل الروضتين. أبو شامة المقدسي. ط مصر.
- ذيل مرآة الزمان. موسى بن محمد اليونيني. ط حيدر آباد.
- رجال صحيح البخاري. الكلاباذي. ط دار المعرفة.
- رجال صحيح مسلم. ابن منجويه. ط دار المعرفة.
- الروض الأنف. عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي. ط مصر.
- زاد المعاد. ابن القيم. ط مؤسسة الرسالة.
- الزهد. ابن المبارك. ط الهند.
- زوائد البوصيري. ط دار الكتب الإسلامية.
- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد الصالحين. ط دار الكتب العلمية.
- السلسلة الصحيحة. محمد ناصر الألباني. ط مكتبة المعارف.
- السلسلة الضعيفة. محمد ناصر الألباني. ط مكتبة المعارف.
- السلوك لمعرفة دول الملوك. المقرئ. ط مصر.
- سنن الترمذي. أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة. ط مصطفى البابي الحلبي.
- سنن الدارقطني. ط عالم الكتب بيروت.

- سنن الدارمي . ط دار الفكر بيروت .
- سنن أبي داود . أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني . ط دار الكتب العلمية .
- سنن سعيد بن منصور . ط الدار السلفية .
- السنن الصغرى . النسائي . ط دار البشائر الإسلامية .
- السنن الكبرى . البيهقي . ط مكتبة المعارف - الرياض .
- السنن الكبرى . النسائي . ط دار الكتب العلمية .
- سنن ابن ماجه . محمد بن يزيد القزويني . ط دار إحياء الكتب العربية .
- السنة . ابن أبي عاصم . ط المكتب الإسلامي .
- السيرة الحلية = إنسان العيون . علي بن برهان الدين الحلبي . ط مصر .
- السيرة النبوية . ابن هشام . ط مصر .
- شذرات الذهب . أبو الفلاح بن العماد الحنبلي . ط دار الكتب العلمية .
- شرح السنة . البغوي . ط دار الكتب العلمية .
- الشفاء . القاضي عياض . ط عيسى البابي الحلبي .
- شفاء الغرام . محمد بن أحمد التقي الفاسي . ط مصر .
- الشمائل . الترمذي . ط مكتبة السنة .
- صبح الأعشى . القلقشندي . ط مصر .
- الصحاح = تاج اللغة . الجوهري . ط مصر .
- صحيح البخاري . محمد بن إسماعيل البخاري . ط المكتبة التجارية .
- صحيح ابن حبان . محمد بن حبان . ط دار الرسالة .
- صحيح ابن خزيمة . محمد بن إسحاق بن خزيمة . ط المكتب الإسلامي .
- صحيح مسلم . أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري . ط إحياء التراث .
- صفة الصفوة . أبو الفرج بن الجوزي . ط حيدر آباد .
- الضعفاء الكبير . العقيلي . ط دار الكتب العلمية .
- الضوء اللامع . السخاوي . ط مصر .

- طبقات السبكي . تاج الدين السبكي . ط مصر .
- العبر = تاريخ ابن خلدون . ابن خلدون . ط مصر .
- العظمة . أبو الشيخ . ط دار العاصمة .
- العقد الفريد . ابن عبد ربه . ط مصر .
- العلل المتناهية . ابن الجوزي . ط دار الكتب العلمية .
- عمدة التفسير . الشيخ أحمد شاکر .
- عمل اليوم والليلة . ابن السني . ط مكتبة الكليات الأزهرية .
- عمل اليوم والليلة . النسائي . مؤسسة الرسالة .
- عنوان المعارف . إسماعيل بن عباد . ط النجف .
- عيون الأثر . ابن سيد الناس اليعمري . ط مصر .
- غاية الوصول . الشيخ زكريا الأنصاري . ط عيسى البابي الحلبي .
- فتوح البلدان . للبلاذري . ط مصر .
- فردوس الأخبار . شيرويه . ط دار الريان للتراث .
- فضائل الصحابة . أحمد بن حنبل .
- فضائل الصحابة . النسائي . ط دار الثقافة .
- فهرست الطوسي . أبو جعفر الطوسي . ط النجف .
- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة . الشوكاني . ط السنة المحمدية .
- فوات الوفيات . ابن شاکر الكتبي . ط مكتبة مصر .
- فيض القدير . المناوي . ط دار الفكر .
- القاموس المحيط . الفيروز آبادي . ط دار الفكر .
- الكاشف . الذهبي . ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة .
- الكامل . المبرد . ط مصر .
- الكامل في التاريخ . ابن الأثير . ط مصر .
- الكامل في الضعفاء . ابن عدي . ط دار الفكر .

- كشف الأستار . الهيثمي . ط مؤسسة الرسالة .
- كشف الخفا . العجلوني . ط دار التراث .
- كشف الظنون . حاجي خليفة . ط إستانبول .
- كنز العمال . علاء الدين المتقي الهندي . ط مؤسسة الرسالة .
- الكنى والأسماء . الدولابي . ط حيدر آباد .
- الكواكب السائرة . نجم الدين الغزي . ط الأميركية .
- اللسان . ابن حجر العسقلاني . ط دار الكتب العلمية .
- المؤتلف والمختلف . الآمدي . ط مصر .
- مجالس ثعلب . أحمد بن يحيى المعروف بثعلب . ط مصر .
- المجروحين . محمد بن حبان . ط دار الوعي بحلب .
- مجمع البحرين . نور الدين الهيثمي . ط الرشد - الرياض .
- مجمع الزوائد . نور الدين الهيثمي . ط مؤسسة دار المعارف .
- المحاسن والمساوي . البيهقي . ط دار المعارف .
- المحبر . محمد بن حبيب . ط حيدر آباد .
- مختصر تاريخ العرب . سيد أمير علي . ط مصر .
- المختصر في أخبار البشر - إسماعيل أبو الفداء . ط مصر .
- مختصر المستدرك . الذهبي . مطبوع على هامش المستدرك .
- مرآة الجنان . اليافعي . ط حيدر آباد .
- مرآة الزمان . سبط بن الجوزي . ط حيدر آباد .
- مراصد الاطلاع . عبد المؤمن بن عبد الحق . ط الحلبي .
- مروج الذهب . المسعودي . ط باريس .
- المستدرك على الصحيحين . الحاكم . ط دار الكتاب العربي .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل . أبو عبد الله أحمد بن حنبل . ط المكتب الإسلامي بيروت .
- مسند الحميدي . عبد الله بن الزبير الحميدي . ط المكتبة السلفية بالهند .

- مسند الشافعي . محمد بن إدريس الشافعي . ط دار الكتب العلمية .
- مسند الشهاب . محمد بن سلام القضاعي . ط مؤسسة الرسالة .
- مسند الطيالسي . ترتيب منحة المعبود . ط مكتبة الفرقان .
- مسند أبي يعلى . أحمد بن علي بن المثنى . ط دار المأمون للتراث .
- مشكل الآثار . الطحاوي . ط حيدر آباد .
- مصنف ابن أبي شيبة . عبد الله بن محمد بن أبي شيبة . ط مؤسسة الكتب الثقافية .
- مصنف عبد الرزاق . عبد الرزاق بن همام الصنعاني . ط المكتب الإسلامي .
- المطالب العالية . أحمد بن علي بن حجر . ط دار المعرفة .
- المعارف . ابن قتيبة الدينوري . ط مصر .
- معجم الأدباء . ياقوت الحموي . ط مرجليوث .
- المعجم الأوسط . الطبراني . ط دار المعارف الرياض .
- معجم البلدان . ياقوت الحموي . ط دار الكتب العلمية .
- المعجم الصغير . الطبراني . ط مؤسسة الكتب الثقافية .
- المعجم الكبير . الطبراني . ط مكتبة ابن تيمية .
- معجم المؤلفين . عمر رضا كحالة . ط دار إحياء التراث العربي .
- المعجم الوسيط . نخبة من العلماء . ط مجمع اللغة العربية .
- المعرفة والتاريخ . البسوي . ط مكتبة الدار - المدينة المنورة .
- المغازي . الواقدي . ط مصر .
- المغني في الضعفاء . الذهبي .
- مفرج الكروب . ابن واصل . ط مصر .
- مقاتل الطالبين . أبو الفرج الأصفهاني . ط مصر .
- المقاصد الحسنة . السخاوي . ط دار الكتب العلمية .
- المنتخب من المسند . عبد بن حميد . ط مكتبة السنة .
- المنتظم . ابن الجوزي . ط دار الكتب العلمية .

- المنتقى . ابن الجارود . ط دار الكتب الثقافية .
 منهاج السنة . ابن تيمية . ط بولاق .
 المنهل الصافي . ابن تغري بردي . ط مصر
 موارد الظمان . ابن حبان . ط دار الثقافة العربية .
 مورد اللطافة . ابن تغري بردي . ط كمبردج .
 موضح أوهام الجمع والتفريق . الخطيب . ط دار المعرفة .
 الموضوعات . ابن الجوزي . ط أضواء السلف .
 موطأ مالك . الإمام مالك . ط عيسى البابي الحلبي .
 ميزان الاعتدال . الذهبي . ط دار الكتب العلمية .
 النجوم الزاهرة . ابن تغري بردي . ط دار الكتب المصرية .
 نسب قریش . المصعب بن عبد الله الزبيري . ط مصر .
 نصب الراية . الزيلعي . ط دار المأمون .
 نظم العقيان . جلال الدين السيوطي . ط نيويورك .
 نهاية السؤل . عبد الرحيم الأسنوي . ط عالم الكتب - بيروت .
 النهاية في غريب الحديث والأثر . ابن الأثير . ط الحلبي .
 النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد . المفضل بن أبي الفضائل .
 النور السافر . عبد القادر بن شيخ العيدروس . ط بغداد .
 هدية العارفين . إسماعيل باشا البغدادي . ط دار الفكر .
 الوافي بالوفيات . الصفدي . ط إستانبول .
 الوزراء والكتاب . الجهشيارى . ط مصر .
 وفيات الأعيان . ابن خلكان . ط مصر .
 الولاة والقضاة . محمد بن يوسف الكندي . ط بيروت .

فهرس موضوعات الجزء الرابع

الموضوع	الصفحة
الباب الرابع : الدولة الأيوبية السنية	١٩-٣
سبب ورود الأيوبيين إلى مصر	٣
تحكم الفرنجة في ديار مصر	٥
السلطان صلاح الدين الأيوبي	٨
وفاة السلطان صلاح الدين	١٠
ولاية الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين	١١
ولاية الملك المنصور محمد والملك العادل	١٤
ولاية الملك الكامل محمد	١٥
ولاية أبي بكر العادل والملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل	١٦
ولاية تورنشاہ ابن الملك الصالح	١٧
ولاية شجرة الدر	١٨
ولاية الملك عز الدين أيك والملك الأشرف موسى	١٩
الباب الخامس : الدولة التركمانية	٣٧-٢٠
ولاية الملك المنصور نور الدين علي	٢١
الملك المظفر سيف الدين قطز	٢٢
الملك الظاهر بيبرس	٢٣
الملك السعيد ناصر الدين والملك سلامش بن بيبرس	٢٤
الملك المنصور قلاوون الألفي	٢٥
الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون والملك الناصر	
محمد أخو الأشرف	٢٦
الملك العادل كتبغا والملك المنصور حسام الدين لاجين	٢٧

- الملك الناصر محمد بن قلاوون (للمرة الثانية) والملك المظفر
 بيبرس الجاشنكير ٢٨
 الملك الأشرف علي كجك بن الناصر ٢٩
 الملك الناصر أحمد بن قلاوون والملك الصالح إسماعيل
 ابن محمد بن قلاوون ٣٠
 الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون والملك المظفر
 حاجي (أمير الحاج) ٣١
 السلطان حسن بن محمد بن قلاوون ٣٢
 الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون ٣٣
 الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر حاجي والملك الأشرف شعبان
 ابن حسن بن محمد بن قلاوون ٣٤
 الملك المنصور علي ابن الأشرف شعبان والملك الصالح حاجي
 ابن الأشرف شعبان ٣٦
 الباب السادس : الدولة الشركسية بمصر والشام ٣٨-٦٩
 الملك الظاهر سيف الدين برقوق ٣٨
 الملك الناصر فرج بن برقوق ٤٢
 ولاية الخليفة العباسي المستعين بالله ٤٥
 الملك المؤيد شيخ المحمودي ٤٥
 الملك المظفر أحمد بن المؤيد شيخ والملك الظاهر ططر ٤٧
 الملك محمد بن الظاهر ططر والملك الأشرف برسباي الدقماقي ٤٨
 الملك العزيز يوسف ، والملك الظاهر سيف الدين جقمق ٤٩
 الملك المنصور عثمان بن جقمق والملك الأشرف أينال العلائي ٥١
 الملك المؤيد أحمد بن أينال ، والعاذل سيف الدين خشقند الناصري ٥٢
 الملك الظاهر بلباي ، والملك الظاهر تمرغا والسلطان
 الأشرف قايتباي المحمودي ٥٣

- الملك الناصر محمد بن قاييتاي ٥٩
- الملك الظاهر قانصوه . والملك الأشرف جان نبلاط ٦٠
- الملك العادل طومان باي والملك الأشرف قانصوه الغوري ٦١
- الباب السابع : ملوك آل عثمان ٧٠-٨٥
- السلطان أورخان بن عثمان ٧٢
- السلطان مراد بن أورخان ٧٣
- السلطان يلدرم بايزيد بن مراد ٧٤
- السلطان محمد بن يلدرم ٧٧
- السلطان مراد الثاني ابن محمد بن يلدرم ٧٨
- السلطان محمد الفاتح ابن مراد ٧٩
- السلطان بايزيد بن محمد الفاتح ٨٠
- السلطان سليم بن بايزيد ٨٢
- السلطان سليمان بن سليم ٨٥
- ذكر بعض أعمال السلطان سليمان الخيرية ٨٦-٩٦
- أولاد السلطان سليمان ١٠٢-١٢٢
- السلطان سليم الثاني ابن سليمان ١٠٧
- السلطان مراد الثالث ابن سليم ١١٠
- السلطان محمد بن مراد وابنه السلطان أحمد ١١٥
- السلطان مصطفى بن محمد (للمرة الأولى) ١١٦
- السلطان عثمان بن أحمد ١١٧
- السلطان مصطفى بن محمد (للمرة الثانية) والسلطان مراد بن أحمد ١١٨
- السلطان إبراهيم بن أحمد والسلطان محمد بن إبراهيم ١٢٠
- الخاتمة
- الباب الأول : أنساب الطالبيين، والمشاهير من أعقابهم ١٢٣-١٥٣

٢٠١-١٥٤	الباب الثاني : في ذكر من دعا منهم إلى المبايعة
٢٠٢	الباب الثالث : فيمن ولي مكة من آل أبي طالب
٢٠٧	ذكر دولة السليمانيين ، ومنهم آل أبي الطيب
٢١٤	ذكر دولة الهواشم
٢٢٢	ذكر بني قتادة أمراء مكة بعد الهواشم إلى زمن المؤلف
٢٢٣	ولاية الشريف قتادة بن إدريس بن مطاعن العلوي
٢٣٠	الشريف حسن بن قتادة
٢٣٠	ولاية المسعود يوسف من بني أيوب
٢٣٢	ولاية الشريف راجح بن قتادة
٢٣٤	ولاية الشريف أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة
٢٣٦	ولاية جماز بن حسن بن قتادة
٢٣٦	عودة راجح بن قتادة ، وولاية ابنه غانم ، ثم أبي نمي بن أبي سعد
٢٣٧	استظهار إدريس بن حسن بن قتادة على أبي نمي ، ثم اشتراكهما
٢٣٨	انفراد أبي نمي بإمارة مكة وخطبته للظاهر بيبرس صاحب مصر
٢٤٢	ولاية حميضة ورميثة ابني أبي نمي
٢٤٦	ولاية أخيهما عطيفة بن أبي نمي
٢٤٩	عزل عطيفة وولاية رميثة
٢٥٠	شراء عجلان وثقة ولاية مكة من أبيهما رميثة
٢٥٥	ولاية سند بن رميثة ومحمد بن عطيفة
٢٥٨	ولاية عجلان وثقة مرة ثانية ، وإحلال أحمد بن عجلان محل ثقة
٢٦١	انفراد أحمد بن عجلان بعد وفاة أبيه
٢٦٣	ولاية محمد بن أحمد بن عجلان
٢٦٤	ولاية عنان بن مغامس بن رميثة بن أبي نمي
٢٦٥	ولاية علي بن عجلان

- ولاية أخيه حسن بن عجلان ٢٦٧
- ولاية رميثة بن محمد بن عجلان بن رميثة بن أبي نمر ٢٧١
- استظهار حسن بن عجلان على ابن أخيه رميثة ٢٧٢
- تخلي حسن بن عجلان عن الإمارة لابنه بركات ٢٧٣
- ولاية علي بن عنان بن مغامس ، ثم رجوع حسن بن عجلان ٢٧٤
- ولاية بركات بن حسن بن عجلان ٢٧٩
- ولاية علي بن حسن بن عجلان ، وعزله بأبي القاسم بن حسن
- ابن عجلان ٢٨١
- عودة الشريف بركات بن حسن ٢٨٣
- ولاية محمد بن بركات بعد وفاة أبيه وولاية ابنه بركات
- ابن محمد بن بركات ٢٩٠
- الحرب بين بركات وأخيه هزاع بن محمد بن بركات ، وولاية هزاع ٢٩٣
- ولاية جازان بن محمد بعد وفاة أخيه هزاع وعودة أخيهما بركات ٢٩٥
- القبض على الشريف بركات وأخذه إلى مصر وتولية أخيه حميضة ٢٩٧
- فرار بركات من مصر وعودته إلى مكة ٢٩٩
- نجابة أبي نمر بن بركات ، ووفادته إلى مصر وسنه ثمان سنين ٣٠٢
- وفاة الشريف بركات وولاية ابنه أبي نمر محمد بن بركات ٣٠٥
- ولاية الشريف أحمد ٣٠٧
- سلطنة قانصوه الغوري على مصر ٣١٣
- ولاية الشريف أبي نمر ٣٣٦
- ولاية الشريف حسن بن أبي نمر بن بركات ٣٦٠
- ورود الخبر إلى مكة بوفاة السلطان سليمان ، وبيان مراسم إعلان ذلك ٣٦١
- وفاة الشريف حسن بن أبي نمر ٣٧٠
- ذكر بعض ما كان له من الفراسة ٣٧٢

- ذكر بعض حروبه مباشرة أو بقيادة أولاده في حياته ٣٧٤
- ذكر بعض توقعاته، ومعرفته التركية والفارسية، وذكر كرمه وجوده ٣٨٠
- بعض ما مدح به ٣٨٤
- تسلط عبد الرحمن بن عبد الله بن عتيق الحضرمي على المملكة في آخر
- ولاية الشريف حسن، وما ارتكبه من تزوير وظلم واختلاس ٣٩١
- ولاية الشريف أبي طالب بن حسن بن أبي نمى ٣٩٣
- ولاية أخيه الشريف إدريس بن الحسن ٤٠١
- قرار جماعة الأشراف بعزل إدريس وتولية ابن أخيه الشريف
- محسن بن حسين ٤١٣
- خروج الشريف أحمد بن عبد المطلب على الشريف محسن،
- واستيلاؤه على مكة ٤٢١
- ولاية الشريف مسعود بن إدريس بن الحسن بن أبي نمى ٤٣٣
- ولاية الشريف عبد الله بن حسن، واستقالته للتخلي للعبادة ٤٤١
- ولاية ابنه محمد بن عبد الله بن حسن وزيد بن محسن
- ابن الحسين بن حسن ٤٤٣
- ولاية الشريف نامي بن عبد المطلب ٤٤٥
- قتل الشريف نامي، واستقلال الشريف زيد بن محسن بالولاية ٤٤٧
- وفاة الشريف زيد بن محسن ٤٧٧
- ولاية الشريف سعد بن الشريف زيد ٤٨٦
- اتفاق الشريف سعد والسيد حمود ٤٨٩
- قطع الدعاء في الخطبة للشريف سعد ٥١١
- الدعاء للشريف أحمد بن محمد الحارث ٥٢٠
- تولية الشريف بركات بن محمد بن إبراهيم بن بركات بن أبي نمى ٥٢٩
- وفاة السيد حمود ابن الشريف عبد الله بن الحسن بن أبي نمى بن بركات ٥٣٢

- ٥٣٣..... وفاة السيد أحمد بن محمد الحارث
- ٥٣٨..... وفاة الشريف بركات، وما قيل فيه من الشعر
- ولاية ابنه الشريف سعيد بن بركات بن محمد بن إبراهيم بن بركات
- ٥٤٢..... ابن أبى ندى
- ٥٤٧..... وفاة السلطان محمد خان
- ٥٥٢..... فساد الأحوال في الحجاز، وطلب الشريف عسكرياً من مصر لإصلاحها
- حكاية رحلة الشريف أحمد - أخى الشريف سعد - إلى الشام
- ٥٥٧..... واستنبول وأدرنة
- ٥٥٩..... ولاية أحمد بن زيد على الحجاز
- ٥٦٠..... وصول خبر ولاية الشريف أحمد بن زيد إلى مكة
- ٥٦٣..... وصول الشريف أحمد بن زيد من أدرنة إلى الحجاز وولايته أمرها
- ٥٧٣..... وفاة الشريف أحمد بن زيد، وما قيل فيه من الشعر
- ٥٧٥..... ولاية الشريف سعيد بن سعد بن زيد
- لما وصل إلى مصر خبر وفاة الشريف أحمد بن زيد أمر صاحبها بتولية
- ٥٧٨..... الشريف أحمد بن غالب، ومعارضة الشريف سعيد بن سعد في ذلك
- ٥٨٤..... ولاية الشريف أحمد بن غالب بن محمد بن مساعد بن مسعود بن حسن
- ٥٩١..... فهرس مراجع التحقيق ومصادره

